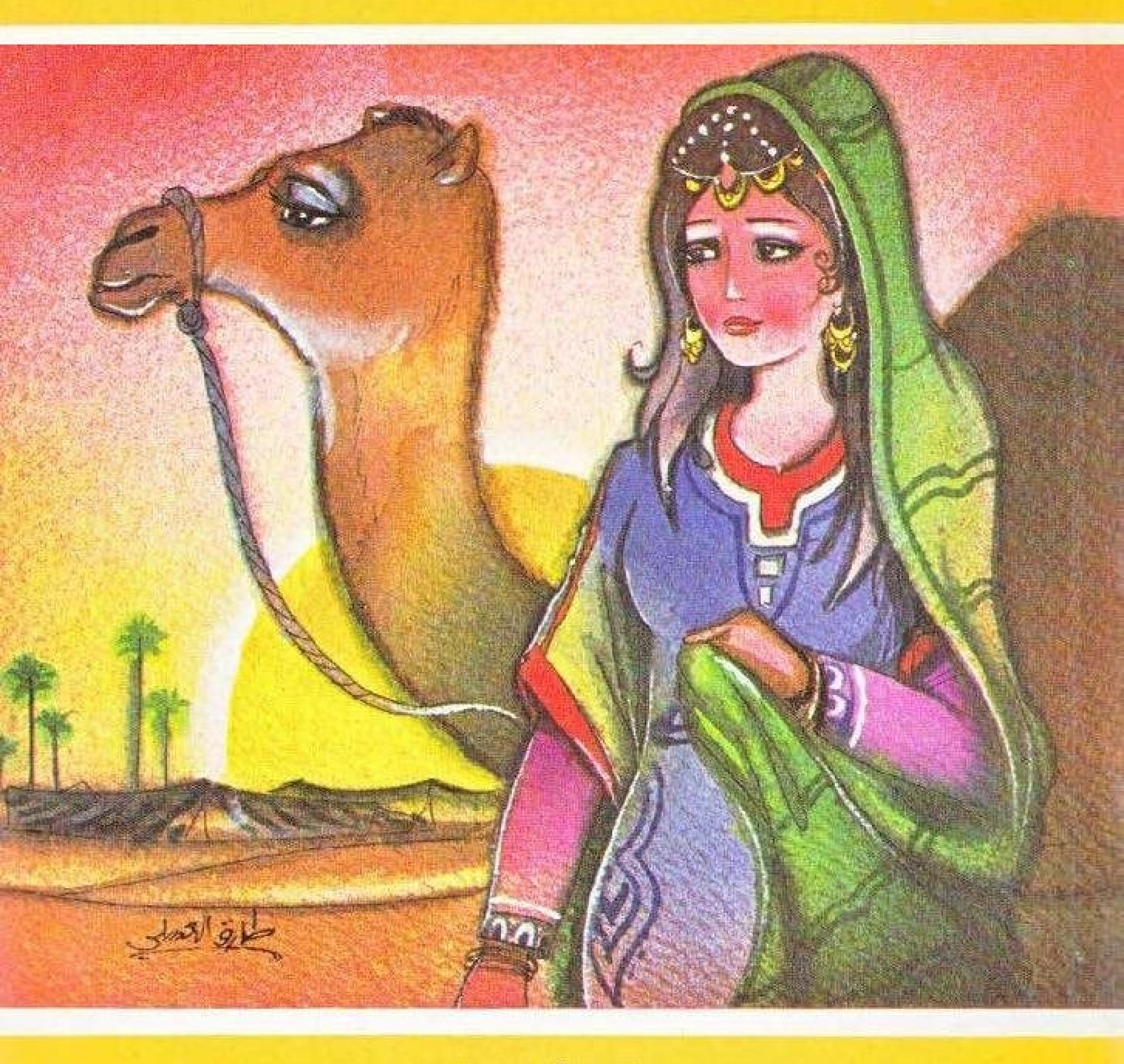
روايات تاريخ العرب والإسلام

اميل حبشي الأشقر

حسناء الحجاز (١)



دار الأندلس

حسناء الحجاز

روايات تاريخ العرب والإسلام

أميل حبشي الأشقر

حسناء الحجاز

الجزء الأول

دار الأندلس
للطباعة والنشر والتوزيع

الطبعة الثالثة
١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م

دار الأندلس - بيروت، لبنان
هاتف: ٣١٧١٦٢ - ٣١٦٤٠١ - ص.ب: ٤٥٥٣ ١١ - تلكس ٢٣٦٨٣

تصدير

البيان الذي تقرأه بعد هذه الصفحة ، مقدمة مختصرة نذكر لك فيها شيئاً عن احوال العرب قبل الاسلام ، لتستطيع – وانت تقرأ تاريخ الحجاز في روايتنا هذه – ان تفهم كل شيء ، دون أن ترجع الى كتابٍ آخر .

وانت تعلم ، ان الغاية من نشر هذه الروايات في الامة ، نشر التاريخ العربي بالقالب الذي اخترناه ، ومن الجهل ان نرسل روايةً لا بيان لها . ونبدأ بحوادثها الغرامية والسياسية والحربية « مثلاً » دون ان نمهد لك جميع الاسباب .

نحن لم نزل قبل الاسلام ، فاذا قرأت المقدمة المختصرة ، فلا تضجر . بل ندعوك الى قراءتها بتروٍ وامعان ، شأن الاديب الراقي لذي يعنى بدرس تاريخ قومه وبلاده ، درساً هادئاً تاماً ، يشبع ذهنه ، ويغذّي نفسه ؛ حتى اذا قرأت حوادث الرواية، قرأتها وانت عارف كل شيء. وبدت لك جليةً واضحة لا غموض فيها ولا ابهام .

وتاريخ الحجاز لذيذ ومفيد ، ويكفي انك ستقرأ فيه ، تاريخ البيت الذي تقدسه وتحج إليه الملايين من اخوانك .

والسلام عليك ورحمة الله .

العرب

العرب . في نظر المؤرخين واهــل الادب قسمان : العرب البــــائدة التي ضيعتها حوادث الزمان ، والعرب الباقية المنتشرة في الاقطار .

والعرب الباقية في نظرهم قسمان : اهل اليمن ومن جاورهم من الناس سلالة قحطان المتحدر من سام بن نوح ؛ واهل الحجاز ونجد ومن جــاورهم من سكان اواسط الجزيرة ، سلالة اسماعيل بن ابراهيم الخليل من زوجته هاجر ، ويعرفون ايضاً بالعدنانيين ، نسبة الى عدنان كما يقال لهم مضر ومعد .

اما القبائل البائدة ، فأشهرها في التاريخ ، العمالقة ، وعــاد وثمود وجرهم وطسم وجديس . ولعلك تريد الآن ان تقرأ شيئاً عنها .

العمالقة

يريدون بهم قدماء العرب الذين كانوا يقيمون في شمالي الحجاز مما يلي جزيرة سيناء . وهم الذين استولوا على العراق « بابل » في الجيل الرابع والعشرين قبل المسيح. وفتحوا مصر في أواخر الجيل الثالث والعشرين ، وعرفوا باسم الشاسو « البدو او الرعاة » ويسميهم مؤرخو اليونان « هيكسوس » وهذه اللفظة ترد في الاصل الهيروغليفي الى لفظتين : هيك وشاسو . الاولى معناهــا ملك . والثانية ، بدو او بادية .

قال ابن خلدون عندما ذكر القبائل البائدة التي ذكرنا :

« وكان لهذه الامم ملوك ودول في جزيرة العرب . وامتـد ملكهم فيها الى الشام ومصر في شعوب منهم ، ويقال انهم انتقلو الى الجزيرة من بابل لما زاحمهم فيها بنو حام . فسكنوا جزيرة العرب، بادية مخيمـين . ثم كان لكل فرقة منهم ملوك واطام وقصور . الى ان غلب عليهم بنو يعرب بن قحطان » .

وقال في مكان آخر : « ان قوم عاد والعمالقة ملكوا العراق »

والعمالقة اصل سائر العرب البائدة . او هو اسم يشمل جميع هذه القبائـل دون استثناء .

كان البابليون يسمون العماليق مـاليق او مالوق . فأضاف اليها اليهود في التوراة لفظة « عم » اي الامة ؛ فصارت عم ماليق او عم مالوق . وقالت العرب عماليق ؛ ثم اطلقت الاسم على طائفة كبيرة من قدماء العرب .

بابـــل

استولت العرب على بابل حوالي سنة ٢٤٦٠ قبل المسيح . وشيدت فيهـــا ملكاً واسعاً اكتنفه جميع اسباب المجد والعز ، من ملوك هذه الدولة حمورابي صاحب اقدم شريعة في العالم وحامل اول لواء من ألوية التمدن والرقي في تلك الاجيـال .

عاشت تلك الدولة العربية ٣٣٤ سنة . ثم غلبتها على امرها دولة اخرى ليس لنا فائدة من ذكرها الآن .

وأي شيء يفعله المغلوب امام سيف الغـــالب القاهر ؟ انه يفرّ من الساحة تاركاً كل شيء راضياً بما بقي له من حياة كلها ذكريات ..

هكذا تركت قبائل العرب بابل ، لاجئة الى الجزيرة ، حيث تقيم القبـائل الاخرى التي تربطها بها روابط النسب والجنس .

ولكنها لم تستسلم الى الخمول . بل مشت الى اليمن لتبني فيها ملكاً عربياً له شأنه في تاريخ ذلـك القطر اليمني ، توارثه ستة وعشرون ملكاً عرفت دولتهم

بدولة المعينيين ، نسبة الى معين عاصمة ملكهم وذلك قبـــل ان يشيد « سبا » القحطاني دولته في بلاد اليمن .

عاد وثمود

من الامم الارامية التي شيدت وبنت . وهما القبيلتان اللتان ورد ذكرهما للعبرة والموعظة في القرآن الكريم .

يبـالغ المؤرخون العرب كثيراً وكثيراً جداً في وصف امجاد القبيلتين وقد كتبوا عن شداذ بن عاد ، فصولاً هي الغرابة كلها والغلو كله . السكوت عنهـا اولى بنا وبجميع المؤرخين .

وتقول كتب العرب ، ان عـــاداً اقامت في اليمن . وان ثموداً اقامت في الحجر ، « اي مدائن صالح » التي هي في وادي القرى على طريق الحاج من الشام الى مكة . وقد نزلها اليهود قبل الاسلام .

ويقول ابن خلدون: ان يعرب بن قحطان عندما نزل اليمن استولى على عرش عاد ، وعـــلى جميع البلاد . فولّى اخاه جرهماً على الحجاز ، واخاه عاداً على الشحر ، واخاه خضرموت على جبال الشحر ، واخاه عمان على عمان .

اما ثمود فقد ذكرت بين القبائل التي سحقها الفاتح الاشوري سرجون في الحجاز في اواخر الجيل الثامن قبل المسيح .

ووصف ذلك الفتح يدلنا على ان ثموداً كانت بالقرب من مكة جنوبي الحجر ، كما أثبت ذلك مؤرخو اليونان الذين كتبوا عن العرب قبـــل التاريخ المسيحي وبعـــده .

وهم يسمونها ثموديني « Thamudeni » ويسمون الحجر « Agra » .

ويقول صاحب كتاب فتوح الشام : « ان قبيلة ثمود ملأت الارض بين بصرى وعدن. » ولعلها لم تملأ هذه الارض. الا عندما هجرت بلادها متجهة نحو الشمال.

الحجر

واما الحجر ، او مدائن صالح . فقد ثبت انها كانت قبيل التاريخ المسيحي في حوزة الانباط . اصحاب بطرا الكائنة في وادي موسى ، والتي ورد ذكرها في الروايتين ، الحارث الاكبر ، وزينب .

اجل . ذلك ثابت لا شك فيه . بدليل ما على الانقاض من النقوش والآثار التي قرأها غير واحد من المستشرقين .

وهذا ما قرأوه بالحرف النبطي على احد القبور :

« هذا القبر الذي بنته كمكم بنت وائلة بنت حرم ، وكليبة ابنتها لانفسهن وذريتهن في شهر طيبة من السنة التاسعة للحارث ملك النبطيين محب شعبه . فصى ذو الشرى وعرشه . واللات وعمند ومنوت وقيس « اسماء الآلهة » تلعن من يبيع هذا القبر او يشتريه او يرهنه او يخرج منه جثة او عضواً او يدفن فيه احداً غير كمكم وابنتها وذريتها . ومن يخالف ما كتب عليه فيلعنه ذو الشرى وهبل ومنوت خمس لعنات ويغرم الساحر غرامة مقدارها الف درهم حارثي الامن كان بيده تصريح من يد كمكم او كليبة ابنتها بشأن هذا القبر . والتصريح المذكور يجب ان يكون صحيحاً . صنع ذلك وهب اللات بن عبد عبادة » .

وتاريخ هذه الكتابة حوالي تاريخ الميلاد وليس لها كما رأيت قيمة تاريخية الا ما ورد من اسماء الاعلام . ولغة الانقاض جميعها في مدائن صالح ارامية كما كانت لغة بطرا .

وعثر المستشرقون ايضاً على كتابات كثيرة بالحرف المسند الذي كتب به أهل اليمن ، في مواضع كثيرة في الحجاز ، يعود تاريخها ايضاً الى اوائل الميلاد ، فسموا بعضها ثمودية ، والبعض الآخر لحيانية لان فيه اسماء ملوك لحيان . ويرى غلازر ، احد المستشرقين ، ان لحيان بقية من ثمود .

طسم وجديس

وهما من أرم . لم تمتد بعد الى اثارهما ايدي المستشرقين والعلماء .

وهذا هو تاريخها المختصر :

كانت طسم وجديس تقيمان في اليامة . شرقي نجـد . واليامة أخصب البلاد واعمرها واكثرها خيراً . لهم فيها الحدائق والقصور وصنوف الثار .

ظلوا على ذلك حقبة من الدهر ، حتى انتهى الملك الى رجل من طسم . لا ينهاه شيء عن هواه ، يقال له عمليق ، تمادى في الظلم والسيرة بغير الحق .

وقد أضر بجديس وأذلها ..

وكانت له سنّة غريبه هي سنّة الوحش الضاري ، فقد امر بان لا تهدى بكر من جديس الى زوجها قبل ان يدخل هو عليها .. وطال الامر على القوم حتى زوّجت الشموس « وهي عفيرة بن غفار » اخت الاسود بن غفار . فأساء اليها عمليق وضربها بجديدة فأدماها فقـالت تحرّض قومها في شعر طيب نذكر منه بضعة ابيات ، قالت :

أيجمل ما يؤتى الى فتياتكم وانتم رجال فيكم عدد الرمل
أيجمل تمشي في الدماء عفيرة صبيحة زفت في النساء الى بعل
ولو اننا كنا رجالاً وكنتم نساء لكنا لا نقرّ بذا الفعل
فموتوا كراماً او اميتوا عدوكم ودبوا لنار الحرب بالحطب الجزل

وكان اخوها الاسود مطاعاً في قومه فقال لرؤسائهم :

يا معشر جديس ان هؤلاء القوم ليسوا باعز منكم في داركم الا بما كان من ملك صاحبهم علينا وعليهم . ولولا عجزنا ما كان له فضـل علينا ، فأطيعوني فيما آمركم به فانه عزّ الدهر وذهاب الذل . قالوا: وما ذاك ؟ قال : اني صانع للملك ولقومه طعاماً فاذا جاءوا نهضنا اليهم باسيافنا وانفردت به فقتلته واجهز كل رجل منكم على جليسه . فأجابوه الى ذلك واجمع رأيهم عليه . فأعـد طعاماً . وأمر قومه فانتضوا سيوفهم ودفنوها في الرمل وقال : اذا اتاكم القوم يرفلون في حللهم فخذوا سيوفهم، ثم شدوا عليهم قبل ان يأخذوا مجالسهم، ثم اقتلوا الرؤساء فانكم اذا قتلتموهم لم تكن السفلة شيئاً .

ثم صنع طعاماً كثيراً وخرج به الى ظهر البلد ودعا عمليقاً وسأله ان يتغدى عنده هو وأهل بيته ورجال بلاطه . فاجابهم الى ذلك وخرج مع اهله يرفلون في الحلي والحلل ؛ حتى اذا اخذوا مجالسهم ومدوا ايديهم الى الطعـــام اخذوا سيوفهم من تحت اقـــدامهم؛ فشد الاسود على عمليق فقتله وكل رجل منهم على جليسه حتى اماتوهم . ثم شدوا على السفلة منهم فلم يدعوا منهم احداً .

فهرب رجل من طسم يقـال له رياح بن مرة حتى اتى حسان بن تبع ملك اليمن فاستغاث به . فخرج حسان مع رجاله حمير، فلما كان من اليمامة على ثلاث مراحل قال له رياح : ابيت اللعن ان لي اختاً متزوجة في جديس يقال لها اليمامة ليس على وجه الارض ابصر منها انها لتبصر الراكب من مسيرة ثلاث واني اخاف ان تنذر قومها . فمر اصحابك فليقطع كل رجـــل منهم شجرة فليجعلها امامه ويسير وهي في يده . فأمرهم حسان ففعلوا ، فنظرت اليمامة فابصرتهم فقالت لجديس : لقد سارت حمير . قالوا : وما الذي ترين . قالت أرى شجراً يسير . فقالوا كذبت واستهانوا بقولها .

فلما اصبحوا صبحهم القوم فاكتسحوا اموالهم وابادوهم وهـــدموا قصورهم وحصونهم لم يبقوا شيئاً .

وحسان المذكور . في اوائل الجيل الخامس للمسيح .

وللقبيلتين آثار كثيرة ذكرها ياقوت . منها :

قلعة المشقر من بناء طسم . وللمشقر هذه ذكر في حروب العرب . والمعنق اعظم قصور اليمامة من بناء طسم ايضاً وفيه يقول الشاعر :

ابت شرفات من شموس ومعنق   لدى القصر منا ان تضام وتضهدا

والشموس المذكور قصر آخر بنته جديس .

واشهر مدنهم : القرية ، ويقال لهـــا خضراء حجر وهي عاصمتهم . وفيها حصونهم وابراجهم المربعة المستطيلة في السماء . وكلها من طين . وقد رآها المسلمون في القرن الرابع للهجرة وذكر احدهم انه رأى برجاً طوله ٥٠٠ ذراع.

ولعل زرقاء اليامة ابصرت جيش اليمن من احد هذه الابراج .

تلك هي القبائل الاراميه التي يسميها المؤرخون ، العرب البائدة .

عدنان

يتضح لك، عندما تقرأ التاريخ العربي القديم، ان العرب مرّت بثلاثة ادوار لكل دور منها شأنه وعظمته .

الدور الاول : دور العرب البائدة التي سادت فيه ، ومعظمها من قبائل القسم الشمالي من الجزيرة . اي الحجاز وما يليه كما قرأت .

والدور الثاني : ظهور قبائل الجنوب في اليمن . المنتسبة الى قحطان . ولا يتسع لنا المجال لنتبسط في البحث عنه .

اما الدور الثالث . فهو الذي عادت السيادة فيه الى الشمال. وانتهى بظهور الاسلام. ومعظم قبائله ينتسب الى معدّ بن عدنان. وعدنان من اعقاب اسماعيل .

وبين اهل الجنوب واهل الشمال ، فروق في الاجتماع واللغة والدين . تظهر لكل من درس احوال الشعبين .

اولئك اهل مدن واصحاب قصور ومغارس واسوار . وهؤلاء اهل غزو وابل وخيام . لا يبنون بيوتاً ولا يشيدون مدناً . ولا يستقرون في مقام .

ولفظ « العرب » في الاصل اطلق على سكان بادية الجزيرة . ثم اطلق بعد ذلك على جميع المقيمين فيها ، وهو في اللغات السامية ، يرادف لفظ « البدو » عندنا . فالعرب هم البدو ، وهذا التعبير يصدق على قبائل معدّ التي نكتب عنها الآن .

كذلك لغة اليمن، تختلف كثيراً عن لغة الحجاز. وان كانتا من اصل واحد. يقوم هذا الاختلاف في كثير من احوال الاشتقاق والضمائر والاعراب كما يختلف الشعبان في كثير من العادات والاخلاق .

وفي بعض ضروب العبادة يشترك الاثنان فكلاهما يعبد الصنم ويسجد للحجر ولكن آلهة اليمن ، عشتار وايل وبعل ، اقرب الى معبودات الشعب البابلي . وآلهة الحجاز اللات والعزى ومناة وهبل . وليس بين آلهة الشعبين صلة نسب..

ومن مقتضيات البداوة الاسمـــاء، لذلك رأيت عرب الشمال يسمون ابناءهم « أسد ونمر وثعلبة وكلب » وغير ذلك من اسماء الحيوانات التي الفوها . ورأيت عرب الجنوب يسمون ابناءهم « ياسر انعم واليفع وشمريرعش » ، وغيرهـــا ممـــا يشبه اسماء البابليين .

* * *

لقد قرأت ان عرب الشمال ينتمي معظمها الى معد بن عدنان ، ومعد هذا من ابنـــاء الجيل السادس قبل الميلاد ، بدليل مـــا ورد في كتب العرب عن فتح نبوخذنصر الاشوري بلاد الجزيرة . ودفاع معد عنها ، قالوا :

« وسار بختنصر « نبوخذنصر » الى معد فلقي جموع العرب فقاتلهم وهزمهم واكثر القتل فيهم . وسار الى الحجاز فجمع عدنان العرب والتقى هو وبختنصر في ذات عرق فاقتتلوا قتالا شديداً . فانهزم عدنان وتبعه بختنصر الى حصون هناك واجتمع عليه العرب وخندق كل واحـــد من الفريقين على نفسه واصحابه فكمن بختنصر كميناً هو اول كمين عمـــل . واخذتهم السيوف فنادوا بالويل ونهى عدنان عن بختنصر وبختنصر عن عدنان وافترقا »

على ان الكثيرين من ملوك اشور غزوا الجزيرة في القرن التاسع قبل المسيح فما بعد . لكن مؤرخي العرب لم يذكروا غزوهم ولم يقولوا عنه شيئاً .

ومن ذلك الجيل امست الجزيرة ميداناً لغزو الفاتحين الاشوريين ، يفاجئونها بالسيف الواحد بعد الآخر وهي تؤدي لهم الجزية على غير نظام .

حتى استولى قورش الفارسي على بلاد أشور . واخضعها لسلطانه بقوة سيفه . فاستسلمت العرب الى الفرس كما استسلمت اليهم بابل وكانت القبائل على ما يذكر هيرودوتس تدفع جزيتها كل سنة الف وزنة من اللبان والبخور .

ولما زحف قمبيز الفارسي الى مصر كانت العرب في صفوفه تمد الماء في الباديه لجيشة الزاحف . كذلك كانت العرب في صفوف الفرس عندما زحف هؤلاء الى اليونان . زحفهم المشهور في التاريخ .

الفتنة

أجـل ، خضع بنو معد للفرس خضوعاً هو العجز . وكانوا قد انتشروا في ربوع الشمال وهم فروع وبطون تملأ البلاد .

على ان تفرقهم لم يمنع اتحادهم في المحن وانضمامهم عند الشدة الى صف واحد . وما زالوا على وفاق ، كأنهم قبيلة واحدة تجمعهم المجامع والمواسم ، حتى وقعت الفتنة بينهم فنزحوا الى اماكن كثيرة وقد امتلأت الصدور حقداً وبغضاً .

قرأت في روايتنا الاولى ، الحـــارث الاكبر شيئاً عن هذا النزوح واسبابه، وليس عليك من بأس اذا قرأته مرة ثانية لتصل الى الموضوع .

كان اول النازحين بنو قضاعة ثم تبعهم انمار ثم اياد . ثم غيرهم وغيرهم فنزلوا نجداً وشواطىء البحر الاحمر والبحرين وغمر ذي كندة ووادي القرى وبقي في تهـامة من القبائل الكبرى ربيعة ومضر . وقد اصبحت الاثنتان وفروعهما جيشاً جراراً .

ثم تفرق هؤلاء ايضاً ، لفتنة وقعت بينهم ، فنزلت ربيعة في ظواهر نجـــد والحجاز . ونزل البعض من مضر بين اليمامة وهجر . والبعض الآخر في اطراف البحرين مما يلي البصرة . والبعض الآخر في تهامة وما جاورها من سهل وجبل. اما بنو النضر بن كنانة فقد اقاموا حول مكة .

وجميع الذين نزلوا الحجاز ، من اسد وعبس وغطفان وفزارة وسليم وهذيل وعدوان وطيء ، جميع هؤلاء من البدو ، يرحلون الى هـذا الموضع في الشتاء والى الموضع الآخر في الصيف ، الا كنـــانة او قريشاً فقد تحضروا في مكة ، كما سيجيء .

بدأ هذا التفرق على الغالب في القرون الاولى قبل المسيح واستمروا على هذه الحال الى القرون الاولى بعده .

العصيان

ولم يكن لهم في ذلك الحين دولة تجمع كلمتهم ورئيس عام يعنى بامرهم . فهم السادة النبلاء في الاخلاق . والابطال الاشداء خواضو الغمرات وجميعهم اهل عزٍ وشرف . وانفة وذمام ، لكنهم فوضى في معظم الشؤون .

وهم القوم الذين يغضبون للكرامات. ويأنفون من الذل. وينتصرون للجار. بل هم القوم الذين يبذلون حياتهم ويهرقون دماءهم دفاعاً عن عرض .

وقد كثروا حتى ضاقت بهم الارض، ومرّت عليهم اجيال وهم اتباع للفرس، يدفعون جزيتهم من دم الجباه .

وكانوا على حالهم هذه من احوج الامم الى اسباب السعة والرغد والتوسع في البلاد التي تكثر فيها النعم . تخلصاً من شظف العيش .

وهم لا يرون لهم ملجأ الا بلاد فارس ، انها واسعة الارجاء ، كثيرة المرعى. وقد يستطيعون الاستيلاء عليها بقوة السيف .

لكن هرمز بن نرسي ملك الفرس ملك شديد الوطأة واسع النفوذ وهم يخافونه .

فجعلوا يتشاورون . ويدعون بعضهم البعض الآخر الى الصبر . حتى مات هرمز ، واحدى نسائه حبلى بولي عهده .

فساس وزراء البلاط الفارسي ، ذلك الملك الواسع ، ريثما يكبر ذلك الطفل الذي ولد للملك الميت .

والدولة التي لا ملك لها ، يستضعفها الناس ويطمع بها الطامعون .

وقد فشا الخبر ان الفرس لا ملك لهم وانهم ينتظرون ذلك الصبي حتى يكبر وهم لا يعلمون ما يكون من امره .

فثارت الروم ، وراح امبراطورهم يحشد جيوشه ليزحف الى فـارس وطمع الترك بدولة الاكاسرة وتحفزو للوثوب. فلم ترَ العرب الا ان تنهض للأمر وتخرج من الموضوع الضيق الى المجال الفسيح .

ومشت جموعها الى بلاد الخيرات .. مشت في البحر من خليج العجم ونزلت الى سواحل اردشير خرّة ، وغلبت اهلهـا على المواشي والاموال واستولت على ذلك الاقليم .

ومعظم هذه الجموع من بني عبد القيس .

والفرس ساكتون . لا يجسرون على البراز ولا يريدون ان يضعفوا قواهم المجتمعة خوفاً من العدو الروماني ، الذي يحيطهم بنطاق من العيون ..

وقد طاب للعرب المنام في ذلك الساحل وفي سواد العراق وعبثوا مـا طاب لهم العبث .

اجل ، الخير كثير . وقد وفر لهم المال ..

لكن السنين تمر . والصبي القاصر يترعرع ، والفرس جميعهم يعدون عدة الحرب . . .

وكانوا يقصون عليه اخبار العرب وهو صغير،فيأمرهم بحكمة الشيوخ بالتؤدة والصبر ، ويقول لاصحابه :

لا يخرج العرب من بلاد الملك الا الملك ..

حتى انقضت بضع عشرة سنة على الحـادث ، وأطاق سابور حمل السيف وركوب الخيل .

فقام في رجاله خطيباً . وذكر مـا اختل من امور الدولة في ايام صغره . ثم قـال :

انظروا الآن في امر الحرب فقد اتت الساعة .

قالوا : اختر لها ايها الملك من تشاء من القواد .

قال : اما القائد فقد اخترناه وهو نحن .. واما انتم فانتخبوا لنا الف رجل نزحف بهم الى العرب .

فسألوه ان يزيد الجيش الزاحف ، فأبى، وهكذا ، على رأس الف من ابطال الفرس المجربين . خرج سابور من عاصمته ليطرد عدوه العربي الذي خرج عن طاعته . وهاجمه في عقر داره .

وقد تقدم الى اولئك الرجال . بان يسحقوا كل من رأوه من العرب دون ان يستشيروه ..

نعم . وفي ذلك العدد القليل ظفر الملك الفتى بعدوه . فقتل من العرب أبرح القتل ، وأسر اعنف الأسر ، ولم ينجُ منهم غير الذي استطاع ان يفر من الموت ...

ثم قطع البحر في اصحابه الى البحرين ، يقتل اهلها ولا يقبل فداء ولا يعبأ بالغنائم ، ثم مضى على وجهه فورد هجر وفيها ناس من تميم وبكر بن وائل وعبد القيس فأفشى فيهم القتل وسفك دماءهم حتى سالت كسيل المطر وحتى كان الهارب منهم يرى انه لن ينجيه منه غار في جبل ولا جزيرة في بحر ..

ثم عطف الى بلاد عبد القيس . فأباد اهلها الا من هرب منهم لاحقاً بالرمال ثم اتى اليمامة ففعل فيها مثل ذلك . ولم يمر بماء من مياه العرب الا غوّره وببئر من آبارهم الا طمها حتى قارب المدينة « يثرب » فقتل من وجد هنالك ثم مشى الى ديار ربيعة وبكر ، بين مملكة الفرس ومملكة الروم في الجزيرة . وهناك .. هناك جنّ سابور فجعل ينزع اكتاف العرب فسمي ذا الاكتاف .

وهو من اعقاب سابور الذي عرفه القارىء في رواية زينب ، وقد ولد سنة ٣٠٩ وتوفي سنة ٣٧٩ .

الجاهلية

ليس لنا ان نبحث في جاهلية العرب الأولى التي تقدمت الاسلام ببضعة عشرين جيلاً ايام استولت العرب على بابل ثم استولت على اليمن ، ان البحث هذا ليس شأننا ولا تتسع له هذه الصفحات .

ولكن نكتب سطوراً قليلة . عن الجاهلية في الجزيرة وفي الحجاز قبل الاسلام ببضعة اجيال .

ان للحجاز تاريخاً يكاد يكون تاريخاً خاصاً منفرداً عن تاريخ الجزيرة العام ، ذلك لان العرب في جنوبي الجزيرة وفي الشمال . في الجاهلية الثانية التي ذكرنا . رفعت اعلام التمدن والعمران في دولها التي انشأت وفي اختلاطها بدول ذلك الزمان ، الا اهل الحجاز في اواسط الجزيرة الذين لم يشيدوا دولاً فهؤلاء ظلوا على بداوتهم لجدب الارض وجفاف التربة ولوجودهم في الصحراء بعيدين عن العالم الراقي .

اجل ، والمسالك الى الحجاز وعرة ، والاخطار كثيرة ، وليس فيه من المدن العامرة التي تكثر فيها اسباب الرفاه ، الا الطائف والمدينة ومكة ، والشعب الحجازي كثير الاختلاط بابناء جنسه البدو الذين حوله. وقليله بالشعب المتمدن المقيم في اليمن وربوع الشام وفارس ؛ اللهم الا التجار واصحاب القوافل منه الذين يحملون الشمع والسكر وصنوف الانسجة من والى تلك الديار ؛ حتى ان الفاتحين ، الفراعنة واليونان ، والرومان والفرس ، الذين دوخوا الاقطار وفتحوا الممالك ، تهيبوا ذلك القطر المنفرد ، الذي يمتنع ببعده وانفراده وقوة رجاله ، على الغزاة طلاب التوسع والفتح .

ومن الطبيعي ان يستسلم الشعب الامين الهادىء الى الراحة والى الاطمئنان كما انه من الطبيعي ان ينشأ على الاثرة والانفة والعز ، صفات هي من مزايا الشعوب التي استطاعت ان تصون قوميتها وتستقل بلادها .

ولكن ، عندما يكثر الشعب في بلدٍ لا عمران فيه تكثر الخصومة ويقوم

النزاع والعز . نعم والعز يدفع صاحبه الى الاستبداد والظلم والقتل ثم هو يسمي كل ذلك عزاً ..

أضف الى ذلك الحاجة التي لا تطاق . وليس اهون من الالتجاء الى السيف عند قبائل العرب . فاذا اجدب القوم سنةً خلق الجدب حرباً عملاً بناموس تنازع البقاء .. واذا لطمت ناقة استعرت بعد تلك اللطمة النار ، واذا احب رجلان فتاة جرّ ذلك الحب على الاثنين . بل على القبيلتين ، بل على العرب الفناء والدمار ...

تلك كانت حال العرب في الجاهلية .. مدّ ابليس اصبعه بينهم فغلت الصدور كما تغلي المراجل . واضمر كل واحد لأخيه حقداً لا يزول مع الايام .

ثم راحت سوق الغزو ، بل قل اصبح الغزو السبب الاول للارتزاق ، فقضوا زمانهم يعدون العدة له . وشغلهم النظر في شؤونه عن النظر في شؤون التقدم والاجتماع .

وكانوا بحكم الحاجة قد اوجدوا الاسواق للبيع والشراء . اعظمها جميعاً سوق عكاظ التي تجاور الطائف . يقصدها الناس في الاشهر الحرم فيبيعون ويشترون ، ولهم اسواق اخرى غير عكاظ يجتمع فيها اهل البلد المجاورون .

والجاهلية تحرّم القتال في الاشهر الحرم لا يستحله من العرب الا خثعم وطيء ، فكان الذين ينسأون الشهور ايام الموسم يقولون :

« حرّمنا عليكم القتال الا دماء المحلّين »

والنسء في اللغة بمعنى التأخير . كانوا اذا جاء شهر حرام وهم محاربون احلوه وأخّروه اي انهم يحرمون مكانه شهراً آخر .

وكانوا يكرهون ان تتوالى عليهم الاشهر الحرم وهم لا يغزون فيها ولا يغيرون ...

على ان في التاريخ قبائل غير خثعم وطيء استحلت القتال في تلك الشهور لاسباب لا نرى مجالاً لذكرها الآن .

اما الزمان الذي قضاه اهل الحجاز في حال البداوة فلا نعلم مقداره . كانوا بدواً في كل ما في هذه اللفظة من قوة، لا يعرفون من معاني الاجتماع الا العادات والتقاليد التي ورثوها من جاهليتهم الأولى ، والا بعض الاداب التي اقتبسوها من الشعوب التي نزلت بينهم ، كالشعب اليمني جارهم . والانباط وهم اهل تمدن كما رأيت . واليهود اللاجئين الى الحجاز خصوصاً في القرون الاخيرة قبل الميلاد فراراً من ظلم الروم لا سيما بعد خراب بيت المقدس .

وهذه الشعوب جميعها جعلت المدن الثلاث في الحجاز داراً لهجرتها الا اليهود فمعظمهم كان يقيم في المدينة .

وقد اخذت العرب اشياء كثيرة من هؤلاء اليهود كالذبائح والحج والزواج والطلاق والكهانة والاحتفال بالاعياد . كما انها تعلمت منهم بعض اقاصيص التوراة وبعض الفصول من التلمود ، فانتشرت في ذلك بين العرب طائفة من تقاليد الشعب اليهودي وعاداته وطائفة اخرى من عادات الامم التي تحيط بالجزيرة كالكلدان والمصريين والاحباش وغير هؤلاء حتى اصبح الحجازيون بعد ذلك الامتزاج ، فريقين : اهل البادية الذين يجعلون السهل مدنهم والخيام قصوراً لهم . واهل المدن الذين جعلوا مكة ويثرب والطائف مقراً لهم .

- ٢ -

مكة

مدينة قديمة جداً لم يجمع المؤرخون على تعيين الزمن الذي بنيت فيه .

يقول ابو جعفر الطبري ، ن ابراهيم الخليل واسماعيل ابنه عندما قدما ليبنيا البيت كانت مكة ارضاً تنبت العضاه والسمر « شجر له شوك » وخارج مكة وحولها ناس من العماليق والبيت يومئذٍ ربوة حمراء » .

كما انهم لم يجمعوا على واضع الحجر الاول فيها وعلى الامم التي توالت عليها .

واسم مكة ، كما يرجع كتاب العرب قبل الاسلام ، اسم اشوري او بابلي لان « مكا » في البابلية « البيت » وهو اسم الكعبة عند العرب .

وذلك يدل على قدم هذه المدينة كأنها سميت بهذا الاسم من عهد العمالقة الذين هجروا بابل اليها ، اشارة الى امتيازها بالبناء الحجري عن كل ما يحيط بها من البادية .

والمعروف، ان اول من سكنها العمالقة . تأييداً لاسمها البابلي وتولوا امرها، ثم خلفت العماليق « جرهم » فرقة من بني قحطان نزحت قديماً من اليمن ، ثم اقبل بنو خزاعة ، بعد تهدم السد في مأرب كما يقولون ، فغلبوا بني جرهم على امرهم واستولوا على الكعبة . وفي مكة وجوارها بطن من مضر يدعى كنانة ، استعانت به خزاعة على هذا الاستيلاء .

ذلك هو ناموس الزمان . امة تسود ثم تضعف فتخلفها امة اخرى ، ثم تصير هذه الى ما صارت التي قبلها ، من التراجع والسقوط .

لم يذكر مؤرخو اليونان مكة في كتبهم، كما انهم لم يذكروا الكعبة ، ولكن جاء في كتاب ديودورس الصقلي في الجيل الاول قبل المسيح في معرض كلامه عن الانباط ، اصحاب وادي موسى ، كلمة ليست صريحة ولكنها تعني الكعبة ، قال :

« ووراء ارض الانباط بلاد بني زومين « ولعله يريد بهم جرهم وغيرهم » هيكل تحترمه العرب كافة احتراماً كثيراً » .

والغالب انه يريد جرهم التي يسمونها الثانية . اذ يؤخذ من اسماء ملوكها الذين تولوا امر البيت ، ان ولايتهم دامت الى تاريخ الميلاد بدليل وجود اسم عبد المسيح بينها .

اجل كان بنو جرهم ملوكاً . وكان بنو مضر ضعافاً حولهم لا يجرأون على امتشاق السيف في وجه اولئك الملوك .

وليس غريباً ان تتجه انظـار القبائل القوية الى مكة ، ويطمع بها اصحاب السيف وابطال العرب ، ففيها البيت الذي تحجه القبائل من جميع الاقطار . وهي المدينة التجارية الكبرى التي تجتمع فيها الالوف في المواسم كل عام ، من جميع اللغات والاجناس ، حتى امست محجاً للتجار تحمل اليها صنوف الحاجات والسلع من اقاصي الارض .

كما انه ليس بالغريب ، ان تشتهر مكة وتعظم في عيون النـــاس ، وهي اذ ذاك لؤلؤة الجزيرة ومفخرة الحجاز .

اما ملوكهـــا . فليسوا ملوك فتح واطماع . انهم راضون بسدانة الكعبة يفتحون ابوابها ساعة يشاؤون ، ويقضون في اتباعهم قضاءهم النافذ الذي لا يرد وهم يتقلبون في اسباب النعم والملذات ..

- ٣ -

جـــرهم

عندما خرجت جرهم من اليمن تريد مكة، خرجت معها فرقة اخرى تدعى قطوراء . والفرقتان بطنان ينتمون الى قحطان .

فنزلت الاثنتان الاولى تعشر من جاء مكة من اعلاهـا « اي تأخذ العشر » والاخرى تعشر من جاءها من اسفلها وهما راضيتان لا تدخل احداهماعلىصاحبتها في الامر الذي تراه .

ثم ان الشعبين بغى كل واحد منهما على الآخر،فتنازعا السلطان، حتى نشبت الحرب بينهما ، وكانت ولاية البيت الى جرهم ، فخرج السميدع ملك قطوراء وخرجت جرهم حتى التقوا في موضع يقال له فاضح ، فاقتتلوا قتالا شديداً قتل فيه السميدع وفضحت قطوراء .

ثم تداعى القوم الى الصلح ، فساروا حتى نزلوا المطـابخ وهي شعب بأعلى مكة . فاصطلحوا هناك وسلموا الامر الى جرهم .

وفي هذا يقول مضاض احد ملوكها :

ونحن قتلنـــا سيد الحي عنوةً فاصبح منها وهو حيران موجع
وما كان يبغي ان يكون سواؤنا بهـــا ملكاً حتى اتانا السميدع
فذاق وبالا حين حـــاول ملكنا وحــــاول منــا غصة تتجرع
ونحن عمرنا البيت كنا ولاتــــه نضــــارب عنه من اتانا وندفع
وما كان يبغي ذاك في الناس غيرنا ولم يك حي قبلنـــــا ثم يمنـــع
وكنا ملوكاً في الدهور التي مضت ورثنـــــا ملوكاً لا ترام فتوضع

وقد استأثرت جرهم بأمر البيت بضعة اجيال منها الجيل الاول بعد الميلاد . والزمان صافٍ .. والحياة هادئة . حتى انتهى بها ذلك الصفاء وهـذا الهدوء . الى الاستخفاف بأمر الكعبة وانتهاك حرمتها واحداث الاحداث القبيحة فيها .

اما ملوكها فاثنا عشر ملكاً على رواية ابي الفداء ، آخرهم مضاض بن بشر ابن عمر والذي هدم السيل البيت في ايامه فأعاده على بناء ابراهيم واسماعيل بناه رجل منهم يقال له ابو الجدرة واسمه عمر الجارود .

ومضاض هـذا صاحب خلق طيب واباء ، غير ان قومه جاوزوا حدهم في البغي ولم يسمعوا له ، وابطرتهم النعم التي تحيط بهم فاستباحوا كل شيء .

حتى ان خمسة من اشرارهم تواعدوا على ان يسرقوا خزانة الكعبة . وهي بئر يلقى فيها الحلي والمتاع الذي يهدى من الناس؛ لكن الحظ خانهم فسقط الذي اقتحم البئر فهلك وفر الاربعة الآخرون .

ثم كثر البغي . فجمع مضاض قومه وقال :

يا معشر جرهم . احذروا البغي فانه لا بقاء لأهله ، وقد رأيتم من كان قبلكم من العماليق استخفوا بالحرم ولم يعظموه وتنازعوا بينهم واختلفوا حتى سلطكم الله عليهم فاجتحتموهم فتفرقوا في البلاد . فلا تستخفوا بحق الحرم وحرمة بيت الله ولا تظلموا من دخـله وجاءه معظماً لحرماته او خائفاً او رغب في جواره .

انكم ان فعلتم ذلك تخوفت ان تخرجوا منه خروج ذل حتى لا يقدر احد منكم ان يصل الى الحرم ولا الى زيارة البيت الذي هو لكم حرز وأمن، والطير تأمن فيه .

فقام واحد منهم يقال له مجدع فقال :

ومن الذي يخرجنا منه ألسنا اعز العرب واكثرهم مالاً وسلاحاً ؟

فقال مضاض: اذا جاء الامر بطل ما تذكرون فقد رأيتم ما صنع الله بالعماليق.

ومع ذلك ، فلم يسمعوا ولم يبالوا بقول ملكهم الذي كان يرى خراب ملكه بعينيه وهو عاجز عن ان يحفظ هيبته في القوم .

فعمد الى كنوز الكعبة . وهي غزلان من ذهب واسياف . فحفر لها ليلاً في موضع بئر زمزم ودفنها .

واقام يعمل على رتق الفتق فلا يقدر ويحاول ان يرد قومه الى الهدى ولا يستطيع ...

- ٤ -

خزاعة

فبينا هم على ذلك خرجت القبائل من اهل اليمن وعليها عمرو بن الحي .

فلما انتهوا الى مكة واهلها . ارسل اليهم عمرو ابنه ثعلبة فقال لجرهم :

يا قوم انّا قد خرجنا من بلادنا فلم ننزل بلدة افسح لنا اهلها وتزحزحوا عنا فنقيم معهم حتى نرسل روّاداً فيرتادوا لنا بلداً يحملنا . فافسحوا لنا في بلادكم حتى نقيم قدر ما نستريح ونرسل رواداً الى الشام والى الشرق فحيثما بلغنا انهم وجدوا لنا مقراً لحقنا به . وارجوا ان يكون مقامنا معكم يسيراً .

فأبت ذلك جرهم اباءً شديداً واستكبروا في انفسهم لا يقبلون نصح مضاض الذي اراد ان يفسح للقوم .

وقالو لثعلبة بن عمرو :

لا والله ما نحب ان تنزلوا فتضيقوا علينا مرابعنا ومواردنا . فارحلوا عنا حيث احببتم فلا حاجة لنا بجواركم .

وكان عمرو سيد خزاعة من ابطال زمانه . فلما نقل اليه ولده جواب القوم، تميز غيظاً وقال له: قل لجرهم : « انه لا بد من المقام بهذا البلد حولا حتى نرجع الى رسلي التي ارسلت . فان انزلتموني طوعاً نزلت وحمدتكم وآسيتكم في المرعى والماء . وان ابيتم اقمت على كرهكم ثم لم تربعوا معي الا فضلاً ولا تشربوا الا رنقاً . وان قاتلتموني قاتلتكم ثم ان ظهرت عليكم سبيت النساء وقتلت الرجال ولم اترك منكم احداً ينزل الحرم ابداً » .

ولكن جرهم لم تقبل وأبت ان تنزله طوعاً فجردت السيوف . ومشى الفريقان الى القتال ... الا الملك فقد اعتزل الحرب . والا بني كنانة المقيمين حول مكة فلم يعينوا القوم ، وكان القتال شديداً وهو قتال فناء ، وقد مكثوا في الساحة ثلاثة ايام حصد فيها السيف اصحاب الكعبة لم يفلت منهم الا الشريد.

فرحل مضاض بن بشر هو وولده واهل بيته حتى نزلوا « قنونا » وفني الباقون في تلك الحروب .

قالوا : فلما حازت خزاعة امر مكة وصاروا اهلها . جاءهم بنو كنانة فسألوهم السكنى معهم وحولهم فأذنوا لهم. وارسل مضاض الى القوم يستأذنهم في الاقامة بينهم ويذكر لهم رأيه واعتزاله الحرب . فأبت خزاعة ان يقروهم ونفوهم عن الحرم قائلين : من دخله منكم فدمه هدر .

فقال مضاض من قصيدة :

كأن لم يكن بين الحجون الى الصفا	انيس ولم يسمر بمكة سامر
ولم يتربع واسطاً فجنوبه	الى المنحنى من ذي الأراكة حاضر
بلى . نحن كنا اهلها فأبادنا	صروف الليالي والجدود العواثر
وأبدلنا ربي بها دار غربة	بها الذئب يعوي والعدو المخامر

ومنها :

فصرنا احاديثاً وكنا بغبطةٍ كذلك عضتنا السنون الغوابر
فهل فرج آتٍ بشيء تحبه وهل جزع منجيك مما تحاذر

وهكذ دالت دولة جرهم في الحجاز . وقامت على انقاضها دولة بني خزاعة، حوالي الجيل الثاني للميلاد .

والمشهور عند العرب . ان عمراً امير خزاعة . ادخل الوثنية على عرب الحجاز . وهو الذي جاء عنه في الحديث النبوي :

« رأيت عمرو بن لحي يجرّ قصبة في النار » يعني احشاءه .

حبى بنت حليل

نحن الآن، في اواخر الجيل الرابع للمسيح ، وقد مضى على دولة بني خزاعة في الكعبة زهاء ثلاثة اجيال ، وهم يرثون الامارة وسدانة الكعبة . ويولون بعض الناس غير ذلك من المناصب .. ولم تكن مناصب الدولة كثيرة في ذلك الجيل ، ان عظمة الحجاز وشهرته تقومان بالناس الذين يحجون البيت ، وجميع المناصب التي تسند الى النبلاء ، تتعلق بالحاج ، واصحاب المناصب امراء ، امراء في حياتهم وفي جميع المظاهر التي تكتنفهم ، العبيد والجواري في قصورهم ، واسباب الرفاه والنعم تحيط بتلك القصور .

سيدهم جميعاً صاحب الكعبة ، الملك او امير الامراء .

وكانت الحجابة في ذلك الزمن قد انتهت إلى حليل بن حبشية الخزاعي سليل اولئك الملوك الذين تولوا أمر البيت ، وهو رجل طاهر الوجدان ، شريف القصد . خدم الكعبة كما يجب ان يخدمها الحاجب الصادق . باشد ما منحه الله من أدب نفس واخلاص .

الرأي في الحجاز رأيه . والأمر امره . والناس يطيعونه ويمشون وراءه في

كل ما يحدث له من امور ، وحوله بنو خزاعة قومه . وبطن آخر هو بنو بكر . يشدون أزره ويعينونه في الملمات ...

ولحليل ولدان ، ذكر وانثى ، هما المحترش وحبّى الاول ضعيف الارادة فاسد الرأي استسلم الى اللذات وملاهي الشباب . وحبّى ، نبيلة الخلق كثيرة الذكاء بعيدة النظر ، لها بين فتيات الحجاز ونسائه المقام الاول ليس لانها بنت حاجب البيت بل لأن لها من الادب ما عظمها في عيون القوم ، حتى ان اباها كان شديد الوثوق بها الى حدّ انه لا يصدر امراً الا اذا استشارها فيه، فهي كاتبة اسراره .. وامين داره .. ومجلس مشورته .. وهي النور الذي يضيء في تلك الدار التي تغص بجماعات الناس ، كل يوم .

واخوها المحترش . لا يعبأ بشيء من هذا ، كأن امر الكعبة التي جعلتها الاقدار في يد ابيه لا يعنيه . بل كأن الحجاز كله ، بما له من شهرة ومجد . لا يساوي في نظره ساعة واحدة من ساعات لهوه وضعف نفسه ..

وليس لسادن الكعبة الذي تنحني له الجباه ، حيلة في رد ذلك الولد الطائش الى الهدى ، ولم يكن له قوة ، على تقويم ما اعوجّ من اخلاقه ، على رغم جميع وسائل التهديد والنصح التي يلجأ اليها الاباء مع البنين ..!

والخمر .. ان الخمر احب شيء الى المحترش ، يشربها في الصباح وفي المساء ، لا يأنف من شربها ولا يرتوي ، وحبّى ترى كل ذلك بكآبة وألم . لأن اخاها لا يستطيع ان يخلف اباه في السدانة والامارة وهو على الحالة التي قرأت .

اجل . ان والدها شيخ جاوز السبعين ، وقد يموت في ساعة لا يجد فيها امامه ولداً صالحاً يسلم اليه مفاتيح البيت ، وكانت تعلم ان الامارة لا تثبت لأخيها بعد موت حليل . لانه اضعف من ان يقوم بأمور الناس ، فبانت حزينة يملأ صدرها الهم . وهي تفكر في الامر الذي تصير اليه الكعبة بعد موت ابيها الشيخ .

وحبّى في الثامنة عشرة ، غير ان في صدرها نفساً كبيرة عاقلة تعرف جميع

معاني الحياة .. وهي تأبى الزواج ولا تريد ان تنظر في امره .. ان خروجها من بيت ابيها يفقد ذلك البيت نفوذه وقوته ..

وكان الفتيان الاشراف من خزاعة وبكر ، وبني كنانة النازلين في مكة يرون حبّى ، ويتمنى كل واحـد منهم ان تنظر اليه نظرة رضى ليجسر على ان يخطبها الى ابيها حليل ، فلم تكن هذه النظرة لتفلت من عيني الفتاة . ولم يرها الناس تبتسم لفتى ابتسامة حب واغراء .

كانت تعلم نسب اولئك الفتيان وشرفهم ومنزلتهم في القوم ، وكانت ترى العز يمشي حيث يمشون ، والكرامة تكتنفهم حيث يقيمون . والعبيد والخيـل بسروجها المذهبة تتبعهم حيث يرحلون . ولكن ... ولكن جميع هذه المظاهر لا تؤثر في حبّى . ولا تحملها على التفكـــير في امر اولئك الفتيان الا كما تفكر الملكة في الرعية التي سلطها عليها الله .

كأنها لم تجد بين نبلاء مكة . على رغم عواطف الشباب وميوله . فتى كفؤاً لها في المقام . بل لعلها لم تجد كفؤاً لهـا في الاخلاق ... انها لم تكن اكرم نسباً من ابناء قومها الذين ينتمون وتنتمي الى اصل واحد ، ومن بني كنانة المتحدرين من معدّ وهم فرعة اسماعيل .

نعم.وكانت تنظر الى النفس النبيلة قبل ان تنظر الى المحتد النبيل.والشباب الذين يطوفون حول الكعبة . ويجولون في ساحات مكة واسواقها وميادينها لا يعبأون الا بما يخلب الالباب من مظاهر وصور ، هؤلاء الشبـاب لا تريد احداً منهم زوجاً لها ... وعندما كان ابوها يسألها رأيها في فتيان قومه ويحدثها بأمر الزواج . كانت تقول له باسمة : دعني يا ابي فلا ارغب في هذا الآن .. اي ان سادن الكعبة لم يكن يزوج ابنته قبل ان يستشيرها في الامر وذلك ما لم تتعوده العرب في الجاهلية .

كان الناس يخطبون الىالاباء فتياتهم وينتهيامر الزواج دون ان يكون للفتاة رأي . ان المرأة كانت سلعة يساوم بهـا ، بين البائع والشاري كالسلع التي تباع

في الاسواق . !! الا نفر قلائل هذبتهم التجارب ، فلا يزوجون بناتهم الا بعد ان يسألوهنّ وحليل بن حبشية من هؤلاء .

حتى انك لتجد اليوم. في هذا الجيل . الجماعات الكثيرة من الناس ، تقذف بناتها الى المستقبل الاسود لا تحترم لهن عاطفة ولا تسمع لهن رأياً .

الوالد لا ينظر الا الى مصلحته ، والام تخضع لمشيئة زوجها القاسية عن جهل ٍ او عن عجز ، وبين تلك القساوة وهذا الجهل تضيع الفتاة في مجاهل هذه الحياة ...

فكف حليل عن السؤال ، جاعلاً لحبّى مجالا واسعاً لاختيار من تشاء من الرجال .

وحبّى وحدها عزاء ذلك الشيخ، في كآبة نفسه، التي اوجدها طيش اخيها المحترش ، وفساد اخلاقه .

ليلى بنت زياد

كان الناس عندما يفرغون من سوق عكاظ . يقفون في عرفة « موضع بينه وبين مكة بضعة اميال » ثم اذا اتوا منى ، « موضع آخر » وارادوا الذهاب الى مكة . فبنو صوفة وحدهم هم الذين يجيرونهم اي يعطونهم الاذن في المسير ..

ذلك منصب كبير من مناصبهم كان لبني صوفة لا يخطو احد الحجاج خطوةً واحدة بدون اذن هؤلاء . وكانوا يقولون ، عندما يريدون ان يتركوا منى .

« اجيزي صوفة » .

فيمشي القائم بالامر امام الناس ، امام الالوف الذين قدموا ليزوروا البيت. ثم تندفع تلك الالوف بعد ذلك تريد مكة .

نعم ، ليس لأحد من العرب ، ان ينفر من منى يوم النفر . قبل ان ينفر اولئك النبلاء،وقد عرفت العرب ذلك الحق لبني صوفة وجعلوه ديناً في انفسهم

قبل ان تصبح ولاية الكعبة في يد خزاعة،لا ينازعونهم اياه ولا يحاولون الخروج عنه ، كما كانت النسأة « أي تأخير الشهور الحرم » كما مرّ . لبني مالك بن كنانة، وهي منصب آخر له شأنه .

اما أمير صوفة في ذلك الحين فزياد بن كعب ، وهو احد الاشراف الذين يجرون في الحجاز اذيال النعم .. وله ما لأمثاله من النفوذ والجاه .. وقد وفر له الذهب . وكثرت الخيرات بين يديه يعيش منها عبيده ومواليه والمقربون اليه .

وله فتاة هي ليلى ليس له غيرها ..

ولم يتزوج زياد بعد موت امها لئلا ترى من زوجته ما لا تحب ، وهي التي نشأت في احضان الدلال وبلغت الخامسة عشرة من السنين محمولة على اكتاف الجواري والعبيد .

نعم . ان زياد لا يطيق ان يكون في بيته الذي يشبه بلاط ملك ، سلطان فوق سلطان ليلى وصوت يرتفع قبل صوتها ، وقد عرفت الفتاة ذلك . وأكبرت تلك العاطفة العالية التي تجول في صدر ابيها البار .

لأجل هذا ، لم يكن لها همّ الا ان يكون ذلك الوالد راضياً في جميع الايام التي يقضيها في قصره بين ابناء قومه واضيافه ، وكانت توصي جميع غلمانه باعداد وسائل الراحة والعناية به عندما يكون في سفر ، وليس في ديار بني صوفة ، من يعصي لليلى امراً او يرد لها قولا . فهي سيد القوم بعد زياد . ولها الارادة النافذة في جميع الشؤون .

وفي الحجاز كله . من اقصاه الى اقصاه . لا تقع عيون الناس على جمال اروع من جمال ليلى ، ووجهٍ احسن من وجهها الضاحك . كأن الله اراد ان يرسلها آية الجمال ..

عينان فيهما الخلابة وجفنان فيهما الفتور . وثغر هو العذوبة التي ليس لها حدّ . . . .

سبحان من خلق ليلى لقد جعلها في ذلك البهـــاء . وذلك الحسن . فتنة للناظرين ، وفي خفة روحها وابتسامتها الدائمة سحراً خلاباً للعقول .

وكان جدها، ابو زياد حياً ، لا يخرج من المنزل الا ليرى الشمس الطالعة من وراء الجبال ، ويشهد الناس يروحون ويجيئون في اسواق مكة ذاكراً ايام الصبا وحياة الشباب ، وهو من الرجال الذين خبروا العالم من جميع نواحيه ، وقـد تخلى منصبه لزياد . ليستريح من متاعب ماضيه ، ولكي يهذّب المعترك البشري ولده ، وينتشر نفوذه في الحجاز . وهو حي ، فيفرح قلبه . ويرحل الى الآخر مطمئن الضمير ، وهو الشيخ المحترم النافذ الكلمة في بيته ، على زياد وليلى ان يهدا له سبل الهناء والراحة وليس لهما ان يراجعاه في شيء .

وابو زياد احرص الناس على الشرف الموروث وعلى التقاليد التي قدسهـــا اجداده ، لا ينزل عن شيء منها ولو قتلوه .

وكان عزيزاً أبياً . لا يصبر على ضيم . ولا ينام على ذل ..

وليس غريباً ان يكون كذلك . فبنو صوفة قومه يمنعونه في المحن . والعز والاباء شيمه الاشراف والعامة من العرب .

وام ليلى ، التي ماتت منذ اثنتي عشرة سنة ، لم تكن من بني صوفة، بل هي احدى بنات بني الخزرج من المدينة « يثرب » ، ولهـا في المدينة خمسة اخوة ، اخوال ليلى ، جميعهم احياء . ولهم فيها المقام والشرف والمال .

* * *

حبّى وليلى صديقتان . أحبت الواحدة منهما اخلاق الأخرى ووثقت الايام عرى المودة بين الاثنتين .

الأولى في الثامنة عشرة . والثانية في الخامسة عشرة كما قرأت . وهو العمر الذي تثبت فيه العاطفة وتكثر الآمال ..

والقلبان . يغمرهما الشعور والاحساس ولكنهما لا يعرفان الغرام .

كانت الفتاتان مع فريق من بنات النبلاء معهن الجواري يصعدن في الجبل ويهبطن الوادي ؛ فوق مكة وحولها ، يتنزهن في الخلاء . والحياة عند العذراء ذات القلب الخلي ، مرح وطرب . لهو وفرح. لا تعرف تعباً ولا تحمل هماً. وهي لا تشعر بالنار تذيب حشاشتها الا بعد ان تصيبها سهام الحب .

وعلى كثيب او على قمة . تجلس عذارى الحجاز ينظرن الى طوائف النوق تحجب وجه الافق والى الرعاة الفتيان يتغنون ويرتجزون .

وقد يمر بهن فريق من الفتيان النبلاء . هذا يطلب ابله . وهذا يطلب خيله، فتحدق العيون الى جمال حبّى وليلى السافرتين ، ثم تتيه نظرات الفتيان وفي قلوبهم لوعة الغرام .

يستهويهم ذلك الجمال ولكنهم لا يجرأون على الظهور امــام الاميرتين بمظهر المحبـــين .

وكثيراً ما كانت الاثنتان ، تنفردان عن الجماعة لتتحدثا عن هذا الفتى وعن الآخر ، ثم ينتهي الحديث بينهما الى الضحك والاستهزاء .

ان تلك النظرات التي احاطها بها القوم ليس فيها نظرة واحدة تفتح القلبين الخليـــين ..

على ان حبّى لا تستسلم الى الضحـــك حتى تعود الى التفكير في امر اخيها المحترش . وفي هذا العز الذي قد يسلبها اياه الزمان .

فتنقبض نفسها ، وتظهر صورة الألم في عينيها الطافيتين ، وليلى لا ترى تلك الصورة ولا تفكر في الآلام ..

ولولا الخـــامسة عشرة .. اجل لولا سن الاحلام والمنى ، لـكانت ترى في المستقبل خطراً اشد واروع من الخطر الذي يهدد حبّى .

جدها شيخ، وابوها ليس له ولد ذكر يرث منصبه العالي، فاذا مات الاثنان، الجد والوالد ، اصبحت ليلى وحيـــدة في البيت الذي نشأت فيه .. وامتدت الى

امارة زياد ايدي قومها الطامعين .. فتنتقل من عزٍ الى ذل . وقد يجور الزمان فتخسر كل شيء .

وهب ان اباها جعل امارة « النفر » الى واحد من ابناء صوفة ، قبل ان يموت . فالأمر على كل حال خارج من يد ليلى . لان الانثى لا يولونها المناصب التي لا يستطيع القيام بها الا الرجال .

وهل ترضى العرب ان تجيزها فتاة وتنفر قبلها من منى الى مكة ؟؟ وهل مني الحجاز بقحط في الرجال حتى تقوم النساء بأمره ؟

وماذا تصنع ليلى وزياد يرفض الزواج ويكره ان يسلط امرأةً غريبة على ابنته ؟

اذن، فالفتاة على شفير الهاوية وهي لا تدري. وزياد ايضاً الذي هو صاحب الامر لا يفكر فيه .

اما حبّى فقد اضناها التفكير . وعليها ، بالاشتراك مع ليلى ، ان تجد لهما وسيلة . تضمن في الزمن الآتي . بهجة البيتين ، والعز الذي يعيشان فيه .

* * *

بين نبلاء صوفة . فتى ربعة في الخامسة والعشرين من عمره ، اسود العينين صغيرهما . واسع الجبهة كبير الوجه . قصير العنق حتى يبدو كأنه لا عنق له .

وهو ذو مال كثير ، تركه له ابوه كله . كما ترك له المئات من صنوف النوق .

تزوج فتاةً من خزاعة وابوه حي . ثم طلقها بعد موته ، ليختار له فتاة أخرى من بنات الاشراف ، وليس على صاحبنا من بأس . اذا هو اختار في كل يوم زوجة ، بطلاق او بدون طلاق . ان الذهب يملأ جرابه . ومواشيه تملأ السهل . وعاطفته الهوجاء لا تستقر على حال .

اما اسمه فجبير بن عبادة .

وكانت له هيبة في نفوس القوم . ليس لأنه ذو سلطان وذو مال ، بـل لأنه حسود خبيث ، يحب السعاية والشر .

والذكاء الكثير الذي وهبه الله لجبير . وجّهه كله الى الفساد والاكاذيب لا يثنيه شيء ولا يمل ، وهو – بفضل المال الذي انتهى اليه – كثير الخيلاء وكثير الغرور ، وقد يقوم في ذهنه ان مكة بمن فيهـا من النبلاء والامراء . وما حولها من قبائل وأمم ، بحاجة الى رضـاه .. وكثيرون في هـذا الزمن لهم جنون جبير ... حتى دفعه ذلك الغرور الى الطمع بالامارة ، امارة زياد ، وحتى بات واثقاً بان هذه الامارة تسعى اليه ، عندما يرتفع في بني صوفة ، اول صوت له .

لكن مولى له من اليمن ، نصح له بالعـدول عن هذا الرأي ، لان بني صوفة لا يتركون زياداً .. وسائر بني بكر لا يطيعون سواه . وهذان الحيان لا يؤخذان بالسيف .

وطلب الامارة ، في مثل تلك الجرأة الغريبة . يفضي الى حرب تستعر نارها في قلب الحجاز ، وجبير لسوء حظـه ، لا يملك شيئاً من اسباب هذه الحرب ، اضف الى ذلـك ان بني خزاعة انفسهم وعلى رأسهم امير الكعبة ، يكونون عوناً لزياد ، فيكون الموت طعناً بالرماح ، نصيب المغرور .

فلم يقبل جبير نصيحة مولاه . واستمر عـلى رأيه يفكر في امر الحصول على المنصب الكبير الذي لم يخلق الا له .

وعبده اليمني الذي نشأ في بيت عبـادة ابي جبير . لا يطيق ان يرى سيده في ذلك الموقف الصعب الذي لا يستطيع ، اذا اصبح فيه ان ينجو منه ...

ففي ليلة من ليـالي الشتاء هجر النوم جفني جبير فنهض يهم بالذهاب الى عشراء صباه يستشيرهم في امره .. ان الأمل الذي يجول في صدره ، ولم يبح به الا لعبده عدوان لم يعد قادراً على حفظه في ذلك الصدر ، ولم يجد بين رفاقه من يكون عوناً له على بلوغ الغاية ، لكنه لم يلبس قلنسوته ويتناول العباءة ، حتى استفاق عدوان من نومه ، فرأى سيده يهم بالخروج ، فقال له وقد نهض مذعوراً :

ماذا تفعل يا مولاي ؟

قال : اخرج من هذا المنزل كما ترى ..

– : الى اين ؟

– : الى حيث اجد اعواناً يحملون السيف عندما ادعوهم الى حمله .

فقال : اصبر يا مولاي حتى اقص عليك ما رأيته في الحلم .

– : ليست القضية قضية احلام ايها اللعين ..

– : ولكنها قصة جديدة يخيـل اليّ ان ملاكاً من السماء رواها لي وانا بين مستيقظ ونائم ..

– : سيكون حلمك نصيحة اخرى تبعدني عما ارغب فيه فلا حاجة لي اليه .

وجعل عباءته على رأسه ومشى الى الباب .

فتصدى له عدوان وهو يقول :

اسألك بتربة عبادة ان تصغي الى ما اقول .

فتراجع جبير الى فراشه وجلس عليه ثم قال :

أتريد ان تهزأ بي يا عدوان ؟

– : لا ورب الكعبة يا جبير ، ما اردت لك ولأبيك من قبلك الا الخير .

– : واي خير تراه الآن ؟

قال : التمس من مولاي ان يطلعني على اسماء اصحابه الذين اراد ان يفضي اليهم بسره .

فقال : حسبت انك استوقفتني لتقص علي حلمك .

– : هو ذاك يا مولاي ولكن بعد ان تذكر لي هذه الاسماء .

– : واذا أبيت ؟

– : بل تفعل وقد استحلفتك بتربة عبادة .

قال : اذكر لك فلاناً .

قال : هذا لا خير فيه وهو لا يملك الا سيفه .

فذكر له رجلاً آخر فقال :

وهذا يعيش من بيت زياد ..

ثم جعل يذكر اوصاف الرجال الذين سمّاهم جبير فكانوا جميعهم من الفتيان الأغرار . . .

– : اذن فانت لا ترى في بني صوفة الا زياداً أتظن ان عشيرتنا كلهـا تحب صاحبـك ؟

قال : ما رأيت احداً يكرهه يا مولاي .

قال : انا .

– : ولكنك وحدك وهذا لا يكفي .

– : نعم . ولكن سترى بعد قليل ان خلفي جيشاً جراراً يطلبون الامارة في بني صوفة لابن عبادة .

– : واظن انك ستشتري هذا الجيش بالمال :

– : اجل . وزياد لا يستطيع ان يعطي الناس شيئاً .

فابتسم الرجل قائلاً :

خير لك يا مولاي ان تحفظ هذا المال للأيام السود .

قال : أتنحني الرؤوس لابن كعب وانا حي ؟

– : ذلك ارث أجداده لم يستولِ فيه على حق احد .

– : ولكني لا اطيق هذا وانا أغنى رجال العشيرة .

– : وماذا تفعل . ان الحرب لا قبل لك بها وجميع ما عندك من المـــال يذوب في يوم . . .

– : اذن اقتل زياداً وينتهي الأمر .

قال : كأنك نسيت ان الرجل من ابطالَ العرب .

– : أقتله غدراً في ليلةٍ من ليالي هذا الشتاء .

– : وبعد ذلك ؟

— : يثور الانصار الذين حولي ويجعلوني سيد القوم .

قال : أفلا تعلم يا مولاي ان امـــارة زياد بن كعب دين في انفس العرب لا يريدون ان تخرج من بيته ؟

— : ولكنه سيقتل وليس له ولد .

— : عنده ليلى يا مولاي ..

فقهقه جبير ضاحكاً وقال :

وليلى هذه تدفع بالناس من عرفة وتجيزهم لينفروا من منى كما يفعل ابوها ؟

— : قد يكون ذلك .

— : بل لا يكون وفي العرب شرف ..

— : انهم يفعلون هذا ليقهروا قاتل زياد الذي هو انت .

— : اراك تجعل النور في وجه مولاك ظلاماً ، كأنك حليف اعدائه ..

— : ومن هم اعداؤك يا مولاي ؟

— : زياد ومن ينتمي اليه من العرب ..

فاستوى عدوان في مجلسه وهو يقول :

ان هؤلاء لم يفكروا قط في ان يكونوا اعداء لك.. لقد خلقت هذه العداوة الآن .. خلقت في صدرك الطامع بالامارة والناس لا يعلمون عنها شيئاً .. نعم يا مولاي ، ان زياداً وقومه ابرياء ولو رجعت الى نفسك لرأيت انك أنت الجاني . وان الاقدام على قتل البريء جريمة لا تغفرها لك العرب ولا يغفرها الزمان .

— : قلت اني لا اطيق ان يكون رجل من قومي سيداً لي .

— : اذا كان ذلك فادخل على السيادة من الابواب ..

— : ومعنى هذا ؟

— : معناه انك تستطيع ان تخلف زياداً دون ان تهرق الدماء ..

فتردد الرجل في الجواب ثم قال :

بالاستعطاف ام بماذا ؟

— : بالدهاء الذي تصبح معه سيد الناس .

فجعل يتفرس فيه وقد برقت عيناه .

اما عدوان فاستطرد قائلاً :

الا تعرف ليلى ؟

— : اعرفها وهي تلعب في فناء الدار .

— : انها تبلغ الخامسة عشرة من السنين .

— : أجل . وهي اميرة الحسان في الحجاز .. ولكني لم أزر زياداً بعد موت أبي ولم افكر في طفلته ...

قال : واراك ترغب في الزواج وتبحث عن حسان العرب .

قال : نعم .

— : وقد نسيت ليلى كأنك لا تعرفها وكأنك في اليمن او في الشام .

— : أتريد أن اجعل ليلى زوجةً لي ؟

نعم وفي الزواج تضم اليك الجمال والشرف وترث زياداً .

قال : لم أرَ في هذا الرأي شيئاً من الدهاء الذي ذكرت

— : لمــــاذا ؟

— : لأن ابن كعب في مقتبل عمره وقد يموت بعد خمسين سنة ..

— : بل قد تموت قبله وليس هذا الذي أردت .

— : اذن كيف أرث الرجل ؟

— : ترثه وهو حي ..

قال : اما الارث فلا يكون قبل الموت .

— : ألم يكن كعب سيد الناس قبل زياد ؟

— : بـــلى .

— : وأنت ترى الآن زياداً في منصب أبيه وأبوه في الوجود .

— : ولكنه ولده وقد جعله أميراً في حياته ..

— : كما يوليك زياد الامارة بعد أن تصبح زوجاً لليلى .. ان هذه الطفلة هي في نظرك حياة الوالد والجد . وسيدة البيت الذي ولدت فيه ، ولولاها ، أجل لولا ليلى لكان لزياد بضع زوجات له منهن بضعة عشر ولداً .

— : واذا لم ينزل الرجل عن منصبه فماذا نفعل .

— : ان إرادته وإرادة أبيه تضيعان عندما تريد ليلى . فاذا رغبت في السيادة فمن هذه الناحية ليس غير .

فأخذ جبير يفكر فيما سمع وقد بدت له الآمال من وراء ذلك التفكير ثم قال: لكنك نسيت امراً يا عدوان .

— : اذكر هذا الامر يا مولاي .

قال : أليس الرضى هو الشرط الأول للزواج ؟

— : نعم .

— : ومن يضمن لنا رضى ليلاك ..؟

— : ليس لنا أن نضمن رضاها عندما يرضى زياد .

قال : ان هؤلاء الامراء جعلوا الرأي لفتياتهم وعلموهن الدلال .. أفلم ترَ ان حليل بن حبشية سادن الكعبة لا يزّف حبّى الا الى من تختار ؟

— : وهل يكون زياد مثله ؟

— : من يعلم فقد يتردد في الرضى ريثما يسأل ابنته .

قال : لا اظن أن في مكة رجلاً يأبى ان تكون فتاته زوجة لك .

— : وإذا حدث ما لا تظن ؟

— : تعود عندئذٍ إلى رأيك الأول الذي هو الحرب أم القتل .

فقال دون أن يتردد : لقد رضيت . ولم يبق الا أن أرى ليلى .

— : احذر أن تحدثها بأمر الزواج قبل ان ترى أباها .

— : بل اريد أن أرى وجهها بعد أن اضحت سيدة الحسان ، فأين يكون هذا ؟

قال : لو أردت أن ترى جميع عذارى مكة لتمّ لك ذلك .

قال : ان فيهن من لا تنزع عن وجهها الحجاب .

– : ذلك في بيوتهن . اما خارج المدينة فجميعهن سافرات .

– : أتعرف لهنّ موضعاً يخرجن اليه ؟

قال: في هذا الجبل الذي يقوم شرقي مكة بقعة حمراء تنبسط امامها الأرض..

– : أعرفها وهنالك ترعى الخيل والفصلان .

– : ووراء البقعة الحمراء صخراً أملس كبير يسع قبيلة .

– وأعرف هذا أيضاً .

– اذن فأعلم أن حبّى وليلى ومن يتبعهما من الجواري والفتيات يخرجن الى ذلك الموضع مرتين او ثلاثاً كل ثمانية ايام .

– : ومن يلحق بهن من العبيد ؟

– : انك لا ترى وراءهن أحداً .

– : وهل رأيت ليلى عن قرب ؟

– : اكثر من عشرين مرة يا مولاي ... ووجهها يفيض نوراً وعيناهـــا للبيضان سحراً ...

ثم قال : وقد تقع عينيك قبل غروب الشمس على فريق من فتيان مكة يدورون حول ذلك الصخر الاملس كما يدورون حول الكعبة وهم يطمعون بابتسامة ولا ينالونها .

– : وفيهم من بني صوفة ؟

– : من جميع بطون بني بكر وخزاعة . ومن بنى لؤي أنسباء زهرة بن كلاب الكناني ، وليس لحبّى ذكر بين هؤلاء الفتيان يا مولاي .. انهم جميعهم يريدون ليلى التي يحجب جمالها جمال بنت حليل .

– : اذن نذهب غداً إلى البقعة الحمراء فنرى من وصفت .

قال : لقد ذهلت عن هذا الشتاء الغزير الذي ازعجنـا منذ يومين ، فانتظر ربما يصحو الجو ...

قال : اصبت ويظهر أن ليلى ستنسينا كل شيء .

وقد اكتفى بما سمع . فطرح عباءته وقلنسوته وقال لعدوان :

اذهب ونم ملء جفنيك فقد احييت الأمل في هذا الصدر .

واستلقى على فراشه ثم استسلم الى نوم كله احلام .

* * *

أتعرفين يا ليلى هذا الفتى الذي يشمخ بأنفه الى السماء .

— : أعرفه كما أعرف فتيان قومي واحداً واحداً . انه جبين بن عبادة .

— : وهل تعلمين شيئاً عن أخلاقه ؟

— : اما أخلاقه فلا.رأيته على فرس أدهم يوم اجتمعت العرب في مكة للنظر في أمر الخراج الذي يدفعونه لملوك اليمن، وكنت في إحدى شرفات المنزل انظر الى وفود الناس تمر بالقرب منه ، فسألت عبدالله ، مولى جدي أبي زياد ، فقال انه ابن عبادة . وانه ورث أباه وما عنده من مال كثير .

ثم قالت :

وعبدالله يا حبّي . نسابة يعرف أصول العرب . ويحدثك عن جميع فتيان مكة الذين شرف نسبهم . وكثرت اموالهم وسادت اجدادهم . حتى ان ابا زياد في شيخوخته وصمته . لا يستلذ غير أحاديثه . ولا يفتر ثغره لأحـدٍ غيره من الرجال . وقد منع ابي من ان يتخذ له مولىً آخر في حياة عبدالله .

وهو كثير الذكاء وشديد الاخلاص . لا يفارق ابي ساعة ، ولا ينظر الا في وسائل العناية بنا والوفاء لنا . . .

وله،على رغم السنين التي يحمل، قوة الشباب ومروءتهم واستخفافهم بالأخطار، كما انه من رفقاء جدي ابي زياد في الميادين ومن ابطال الحرب . .

فقاطعتها حبى قائلة :

دعينا من عبدالله الآن وانظري الى جبير يدنو منا ... من هذا الذي يماشيه ويومىء بيديه ..؟

– : انه تابعه من اليمن ولا أعرف اسمه . وقد رأيته وراءه في ذلك اليوم .

فابتسمت حبّى ابتسامه خفية كأنها تعرف ابن عبادة قبل اليوم . ثم قالت: لقد وقفا ...

وكان الفتيان قد اصبحا على بعد بضع عشرة خطوة .

فهامس عدوان سيده قائلاً :

وجعلا يتحدثان عن النوق . وينظران إلى الافق كأنهما يريان شيئاً معيناً يدلان عليه ..

يفعلان هذا . خوفاً من أن يستولي الخجل على حبّى ورفيقاتها فينصرفن قبل الغروب .

وهما انما يريدان ان تبقيا ليرى جبير زوجته ليلى بنت زياد ..

ولكن حبّى عرفت الغرض من دنو الاثنين .

غير انها لم تعرف من هي الفتاة التي كان ابن عبادة يفكر فيها في ذلك الحين..

فكثت قليلاً.وحسان مكة يتبعنها وهي تبتسم لهنّ وتحدثهن كأن الرجلين لا وجود لهما .

ومررن امام جبير ومولاه.فجعل الأول منهما يحدّق الى ليلى بعينين ملتهبتين وقد سحره ذلك الجمال .

وعندما توارت الجماعة عن النظر تنهد الفتى وقال لرفيقه :

لقد كنت طامعاً بإمارة زياد .. اما الآن فلا اطمع الا بالحصول على ابنته ..

فأجابه عدوان قائلاً :

وانا أرى انك ستستولي على الاثنين .

* * *

لا اظن ان في الارض كلها فتاة لها وجه ليلى ، ففي اي ذهولٍ كنت ... وكيف لم أرَ هذا الحسن من قبل .

— : قلت لك يا مولاي ان بنت زياد آية الجمال أفرأيت الآن اني كنت صادقاً فيما قلت ؟

— : بل كنت عاجزاً يا عدوان ولم تحسن الوصف . فليلى هبة من السماء ورب الكعبة ...

— : وعلى ماذا عوّلت الآن ؟

— : على ان أخطبها الى ابيها عند الصباح ..

قال : ان الذي يريد ان يسود قومه لا يتعجل في اموره .

— : لا تذكر لي السيادة بعد اليوم فقد تركتها لأصحابها وعدلت عن ذلك الرأي .

فهزّ رأسه قائلاً : لأن ليلى اصبحت في نظرك فوق كل شيء.. وقال في نفسه: والله لو امست ليلى زوجة لك وهي اجمل النساء لمللتها بعد شهر ..

ثم قال : الا تصبر يا مولاي بضعة ايام ؟

— : وأي معنى لهذا الصبر الذي تقترح .

— : معناه اني اريد ان أدرس أحوال زياد وأتبين رأيه ورأي ابنته قبل ان تخطب اليه ..

— : وكيف تستطيع هذا ؟

— : أنسيت عبدالله مولى ابي زياد ؟

— : لا . ولكن هل يعرف عبدالله اسرار ليلى ؟

— : انه كثير الكلام ويعرف أسرار العرب كلها ..

— : ولكن أتبوح للمولى بأمرٍ مثل هذا قبل ان تبوح لسيده ؟

قال : ان عدوان يأخذ اولاً ثم يعطي ..

— : وإذا رفض أن يعطيك قبل أن يأخذ ؟

— : ذلك شأني يا مولاي وأرى أن تنصرف الى عملك وانصرف الى عملي التقي . . .

قال : اما عملك فمعروف ولكن ما هو عملي ايها اللعين .

فقال: تركب جوادك الأدهم مثلاً، ثم تطوف في احياء مكة باحثاً عن حسناء جديدة تجعلها زوجة لك بعد ان تطلق ليلى . . .

فقطب جبير حاجبه قائلاً : وكيف اطلقها وهي لم تزفّ اليّ بعدُ ؟

— : ولكني افترض يا مولاي . . .

قال: افترض ما شئت الا هذا، فليلى اذا اصبحت لي فلا تخرج من هذا البيت الا الى القبر . . .

— : اي انك لا تعمد الى الطلاق عندما تملّ بل الى القتل . .

— : ومن يملك مثل ليلى ويفكر في الطلاق ؟

قال : ذلك الذي يملك جراباً محشواً بالذهب مثل مولاي جبير بن عبادة .

— : اترك المزاح وانظر في الأمر من طريق آخر .

— : سأفعل يا مولاي . .

قال : الآن . . .

— : نعم الآن . وفي هذه الساعة .

فقال: آما أنا فسأسير الى ديار بني هذيل لأرى ابلا لي واعود بعد بضعة ايام.

— : أتترك مكة ؟

— : أجل وأتركها اليوم .

— : ولكن العاشق لا يطيق ان يغيب الحبيب عن عينيه . . .

قال : لو لم تكن ابله ، لعرفت ان الغيبة في بني هذيل خير من الانتظار في مكة . ربما تنتهي مهمتك ، اذهب الآن . . . فخرج عدوان من المنزل وهو يقول : ان الابله هو الذي لا يعرف أن يتزوج ولا يعرف ان يسود . .

* * *

مرّ يومان وعدوان لا يستطيع ان يرى عبدالله ، لا في ظاهر مكة ولا في السوق ، ذلك لان أبا زياد مريض ، وعبدالله وليلى لا يبتعدان عنه ، فقام في ذهنه ان الحظ يخون سيده ، وهب انه استطاع ان يرى عبدالله ، فليس من الدهاء ان يذكر له امر الزواج وابو زياد في فراش مرضه ، ولكنه اخطأ . فالاقدار تخدمه ، من هذه الناحية وتخدم مولاه من حيث لا يعلمان ، وكأنها تمهد للاثنين سبل الاجتماع بمن يريدون .

كان الاشراف من بني صوفة ، يرسلون ابلهم او بعضها الى ديار بني هذيل قبل فصل الشتاء ، وكان رعاتها والغلمان يقيمون معها حتى يقبل الربيع فتنتقل الى موضع آخر ترتبع فيه ، ولزياد بن كعب طائفة كبيرة من النوق في ذلك الحي ، والعرب تعرف صاحبها فلا تعرض لها بسوء ، حتى كانت تلك السنة . وكان العام الماضي مجدباً ، والضيق شديداً ، في الحجاز وفي نجد ، فاخذت القبيلة تغزو القبيلة ، والحي يغير على الحي . بينهم الغازي المعوز والطامع بحق الجار . ولم يبقَ حي من الاحياء الا واشترك في الغزو . هذا يهاجم ديار عدوّه وهذا يدافع عن نفسه او عن حليفه ، وقد استعرت النار ، قبل سفر جبير ببضعة ايام ومعظم اهل مكة لا يعلمون ، فلما قارب ابن عبادة ديار هذيل . رأى الحي خالياً من الرجال فعرف ان القوم في غارة لهم ، وخبّرته النساء والغلمان ان قوماً من جيرانهم بني ثقيف ، استاقوا بعض ابلهم ، بينها ابل زياد ابن كعب سيد بني صوفة .

قال : وابلي وابل القوم ؟

قالوا : في الجهة الاخرى لم تمر بها ثقيف ، فلمعت عينا جبير واشرق جبينه .. ان ماله باقٍ ونوقه لم تمس ...

ونوق زياد في ايدي العرب وقد اغار بنو هذيل ليسترجعوها الى الحي .

وهي نوق ابي ليلي .. وهذه فرصة يبلغ بها ابن عبادة غايته من القوم ، اذن فليمد اصبعه وليدله الغلمان على مكان القتال . ليشترك فيه ..

أجل ، فبنو هذيل رجال شدة وبأس . ولا يلبثون حتى يستعيدوا مـــا سلبهم جيرانهم اياه ، انها ضربة خبير يريد ان يضربها ابن عبـــادة ، ليس عن مروءة تدب في صدره اذ لا تجد في ذلك الصدر أثراً للمروءة . بل لغرض خاص هو الحصول على ليلى كما ترى ، وسيقول بني صوفة في مكة : كان ابن عبـادة وحده من قومنا . في طليعة الرجال الذين حموا المال ، وفي ذلك مـا فيه من شهرة وشرف . تسعى اليه بعدهما ليلى الساحرة ، وعلى هذا الامـل اغار ... وشاءت الاقدار ان يظفر بنو هذيل ويسترجعوا نوقهم ونوق صاحبهم ، فتحدث الناس قائلين : كان ابن عبادة يصرع الرجال من بني ثقيف واحداً بعد واحـد حتى فرّوا من وجهه وتركوا ما سلبوه ..

وبلغ الخبر بني صوفة في مكة . فركب زياد بابطال قومه يريد ان يسترجع ماله . ونهض بنو خزاعة بأمر سادن الكعبة . يعـــدون عدتهم ليكونوا عوناً لاخوانهم قوم زياد.. لكن خبراً آخر ملأ الاحياء هو خبر فرار بني ثقيف وغارة جبير بن عبادة مع بني هذيل غاضباً لكرامة قومه ، فردّ زياد الرجال ومكثوا في مكة ينتظرون رجوع جبير وقد اكبروا مروءته واندفاعه وحده في سبيل شرفه .. وراحت النساء والعذارى يرتجزن وينشدن الاناشيد لحـــامي اموال صوفة الظافر ..

ولم يبالغ الناس في شيء وما ذكروه عن جبير ، فقد كان في تلك الغارة سيد السيف ..

* * *

ماذا فعل صاحبنا جبير يا ليلى ؟

— : انه لم يفعل الا ما يفعله جميع الناس الذين يسودهم زياد .

— : ولكنه كان كبير القلب نبيل القصد عندما لحق بالقوم وحفظ لأبيك مـــاله ...

— : ومع ذلك فليس له فضل يا حبّي. ان ابي يصون اموال صوفة ويحفظها منذ ولاّه جدّي أمر العشيرة وجعله اميراً ..

ـ : اذن فالرجل الذي يدافع عن قومه ويقذف بنفسه بين اشداق الموت ليذود عنهم العار ، ان هذا الرجل لا يكون في نظر ليلى شيئاً ..

قالت : يدعونه بطلاً ، ويحيطه الناس بمظاهر التكريم والاعجاب . وهذا يكفيه .. واما ان يكون له علينا فضل ، فلا ..

قالت : يخيل اليّ ان اباك زياداً سيكون اول المعترفين بهذا الفضل .

ـ : نعم ، سيهز يده ويثني على مروءته امام القوم ..

ـ : بل يجاوز الثناء الى اعظم منه ..

ـ : الى ماذا ؟

ـ : الى الرضى بان يكون جبير زوجاً لابنته ..

فابتسمت ليلى ابتسامة انفة وكبرياء ثم قالت :

أيصبح ابن عبادة زوجاً لي ؟..

ـ : أجل ، وسيخطبك الى ابيك على مرأى ومسمع من القوم فلا يجد زياد سبيلاً الى ردّه ..

قالت : أتظنين ؟

ـ : بل انا واثقة بهذا ..

ـ : اذن يعزّ عليّ ان تجاوزي الحد في هذا الوثوق .

ـ : كما يعزّ عليّ ان تستسلمي الى هذه الكبرياء .

قالت : ان زياداً لا يزوج ابنته قبل ان يسألها ، واذا سألها فلا يكرهها على الزواج بمن لا تحب ..

ـ : مع ان الآباء جميعهم في الحجاز لا يفعلون هذا الا واحداً منهم في مكة هو ابي حليل ..

فاجابتها قائلة : وواحداً آخر هو زياد بن كعب .

قالت : لنفرض ان جبيراً جاءكم خاطباً وقام ابوك يسألك الرضى به فماذا تصنعين ؟

- : ان أبي لا يسألني الرضى بل يسألني إبداء رأيي في ذلك الذي يخطبني اليه . . .

- : واذا كان هذا فماذا تقولين له ؟

- : أرفضه كما رفضت الكثيرين من النبلاء .

- : لكنه شجاع وكثير المال كما ترين ..

- : ليكن اطول الناس سيفاً واكثرهم مالاً فأنا لا ارضاه .

- : وهو جميل الوجه فصيح اللسان ..

- : هي ان له وجه يوسف بن يعقوب الذي يقص علينا اليهود حكاية جماله فلا خير فيه .

- : واذا أراد ابوك ان تذكري له سبب هذا الرفض ؟

قالت : اما السبب فصريح جداً هو اني لا أحبه ..

- : وأي فتاة في العرب تجرؤ على ذكر الحب ؟ ان النساء يا ليلى تماثيل ليس لهن ارادة ولا يملكن حق القبول او الرفض فيما يختاره لهن الرجال . لا سيما عندما تكون القضية قضية زواج ..

- : وعندئذٍ يغضب اذ تذكرين له ذلك وقد يسألك عمن تحبين .

قالت : وعند ذلك اقسم له برأسه اني لا أحب أحداً ولا اريد أن اخرج من بيته لأدخل بيتاً آخر . ثم قالت : كنت اظن انك لا تعرفين ابن عبادة .

- : بل أعرفه كما يعرفه عبدالله الذي دلك عليه .

قالت : الا تذكرين ذلك المساء الذي رأيناه فيه ، في هذا المكان ؟

- : بلى اذكره .

قالت : كنت في ذلك الحين تسأليني عنه كأنك لم تري وجهه من قبل ..

- : ذلك لأني عرفت ان له غرضاً من المجيء الى هذا الصخر الذي نجلس فوقه .

- : واردت أن تكتميني الأمر . لتلمسي بيدك من وراء الستار ذلك الغرض الذي جاء من اجله .

ـ : هو ذاك .

ـ : واليوم ؟

ـ : اما اليوم فقد عرفت غرضه وهو الذي ذكرته لك الآن .

ـ : اي انه اراد أولاً ان يراني ثم ينصرف الى أبي خاطباً أليس كذلك ؟

ـ : هذا الذي يبدو لي يا ليلى وافكر فيه .

فضحكت قائلة : وانا أفكر في الامر من ناحيته الاخرى ...

فاجابتها حبّى وهي تضحك مثلها : أتريدين ان تقولي انه جـــاء ليراني ؟ ليراني أنا ؟

ـ : نعم ثم ينصرف الى سادن الكعبة خاطباً ..

ـ : ولكن هذا لا يكون اذ لا سبيل اليه ..

قالت : وهل وهب لك رب الكعبة قوةً خفية تعرفين بها مـــا في قلوب النـــاس ؟ . .

قالت : لا ولكني اعرف ان ابن عبادة لا يحاول ان يرى حبّى بنت حليل .

ـ : لمـــاذا ؟

ـ : لانه خطبني الى أبي فردّ عليه طلبه .. اسمعي يا ليلى اني أحدثك الآن بجلاء لأن الامر اعظم مما تظنين .

ـ : وانا اسألك قبل ذلك سؤالا .

ـ : سلي ما تشائين .

ـ : ما الذي دعاك الى الاعتقاد ان الرجل سيخطبني الى أبي وهو يستطيع ان يشتري بماله اجمل نساء العرب .

قالت : هذه هي الحكاية التي اريد ان اقصها الآن. النساء كثيرات في الحجاز كما تقولين وليس فيهن من تأبى ان تكون زوجاً لابن عبادة ، غير ان هذا الفتى لا يفكر الآن في الزواج الا لأمر ..

فنظرت اليها ليلى وعلى وجهها دلائل الاستغراب .

قالت : سيزول هـذا الاستغرب عندما تصغين اليّ ، لقد أخطأت في قولي ان الرجـل يفكر في الزواج . وكان عليّ ان اقول انه سيجعل زواجه وسيلة للحصول على أمر آخر .

- : وماذا يكون هذا الامر ؟

فهامستها قائلة : انه يطمع بالامـارة ولا يخطب الا بنات الامراء واحدة بعد واحـدة .

- : وهل يصبح الرجل اميراً عندما يتزوج بنت امير ؟

- : نعم عندما لا يكون لهذا الامير ولد ذكر يرث امارته .. فحنت ليلى رأسها وهي تقول : لقد فهمت الآن .

- : اذن فجبير بن عبادة لم يخطبني الا ليكون سادن الكعبة بعد حليل وهو لا يطلب ليلى الا ليخلف اباها في السيادة .

قالت : انظري فيما تقولين يا حبتي ..

- : لقد تدبرت ما اقول ..

- : ولكنك نسيت امراً لا اعرف سبباً لنسيانه .

: ما نسيت قط ان لابي ولداً ذكراً هو اخي المحترش .. أليس هـذا الذي تعنين ؟

- : أجل .

- : اذن فاعلمي ان المحترش لا يصلح للولاية فكأنه غير موجود .

: ولكنه يرث اباه على كل حال ..

قالت : لا يرثه حتى تخرج الولاية من يده الى رجلٍ اقوى منه . فاكتفي بما سمعته الآن واعلمي ان ابن عبادة يريد ان تكوني زوجة له ليصبح سيد القوم.

: وأبي حي ؟

: من يعلم فقد يموت ابوكِ بطعنة خنجر بعد ان يمضي شهر واحد عـلى الزواج ..

فهمت ليلى بالكلام ، فاسكتتها قائلة: ثم يطلق زوجته ليلى كما طلق زوجته الأولى ويتزوج أخرى لتقيم معه بضعة ايام ثم يعمد الى الطلاق،وهكذا تمر الايام وابن عبادة يتزوج ويطلق وهو لا يبالي بما يسمعه وبما يراه ..

– : اذن فحامي اموالنا لا يستقر على حال ..

قالت : انه يشبه عبادة، اشهر مطلاق عرفته العرب .

– : اراك تصفين الوالد والولد كأنك تعيشين بين الاثنين .

– : ان الذي قص عليّ خبرهما اعظم رجـال الحجـاز شأناً وارفعهم مقاماً وهو لا يعرف الكذب ..

– : ليس في الحجاز اعظم من سادن الكعبة ..

– : اجل ان سادن الكعبة نفسه هو الذي خبرّ ما اذكره الآن .. وهـذا المـال الكثير الذي يراه الناس بين يدي جبير .. آه لو تعرفين يا ليلى قصة هذا المال لصدقت كل ما يقال عن صاحبه ..

– : ولكن أحب ان أعرف كل شيء ..

قالت : انه المال الحرام ، سرقه عبادة لينفقه جبير في الملذات .

– : اذن فأبو جبير سارق ؟

– : وغدار .. قتل حماه وهو نائم ثم سرق .

– : وبعد ذلك ..

– : فرّ من البحرين لاجئاً الى مكة تاركاً زوجته التي خسرته وخسرت اباها الى الابد .

– : وولده ؟

– اما ولده فقد كان في الثانية عشرة يوم الفرار . وهو ابن زوجة أخرى لا يعرفها بنو صوفة حتى ان جبيراً نفسه لا يعرف امه؛ أرأيت فتىً اكرم نسباً من هذا الفتى المغرور الطامع بالرئاسات ؟

قالت : وهل يجهل ابي وجدي ماضي الرجل ؟

— : امـــا زياد فانه يجهل هذ واما ابو زياد ومولاه عبدالله فهما يعلمان كل شيء.. هذا ما قاله لي أبي نقلته اليك كما رواه فانظري في الامر من كل وجوهه.

قالت : لقد أبغضت ابن عبادة قبل ان اعرف ماضي ابيه . أفأحبه الآن وهو يحمل مالاً حراماً ويجر ثوب العار ؟ ثم قالت : واللات والعزّى لا ارضى ابن عبادة زوجاً لي ولو قتلت .

فرأت حبّى عندئذٍ ان تسير في نصحها الى النهاية فقالت: ولكن حبّى بنت حليل . وليلى بنت زياد لا تبقيان بدون زواج ..

قالت : لا نتزوج الا من نحب ..

— : وذلك وحده لا يكفي ..

— : وماذا نفعل اذن ؟

— : اما انا فسأختار من الفتيان من هو اهـل لسدانة الكعبة وان كنت لا احبه ..

— : وهل تعرفين قبل الزواج انه اهل لذلك ؟

— : اجل . اعرف هذا من شمائله الغر ..

— : اذن فانت تستطيعين الآن ان تختاري هذا الزوج لان اباك سادن الكعبة يعرف جميع الفتيان النبلاء من خزاعة ..

قالت : انك لا تجدين في بني خزاعة من ارغب فيه ..

— : وفي بني بكر ؟

— : وليس في بني بكر غير الفتيان الاغرار ..

— : اذن ستصبحين زوجة لرجل ليس من قومك .

— : هذا الذي اراه ويراه ابي .

— : وهذا الذي يدعو سادن الكعبة الى رفض الايدي التي امتدت اليه .

— : نعم ولم يبق في مكة من الاشراف غير بني كنانة ..

— : وهل يرضى حليل بأن يمسي امر الكعبة في ايدي هؤلاء ؟

— : اذا لم يكن في قومه من يقدر على حراسة بيت الله فهو مكره على الرضى ..وسيرضى زياد . أجل سيرضى بما رضي به حليل ، عندما لا يجد في بني صوفة من هو أهل للامارة بعد موته .

فنهضت ليلى وهي تقول: لقد احسست ان في الصدر الآن عواطف جديدة..

قالت : وهـــذا الذي اردت ان يكون ... وكانت الشمس تحتجب وراء الافق عندما تركت الاثنتان الجبل ، راجعتين الى مكة ...

* * *

كان الحداة. اذا خرجت النوق من مرابطها عند الفجر، يحدون لها ويتغنون حتى تخرج من الاحياء ، وتلك هي النوق الرعاوي اي التي ترعى حوالي القوم ولا تفارقهم لحاجتهم اليها ..

وكان بنو صوفة ، اذا خرجت ابلهم يمشون صفاً واحداً الى ظاهر البلد ، في طليعتهم غلمان زياد بن كعب سيد الجمـــاعة ، حتى اذا أصبحوا في المراعي تفرقوا وتفرقت نوقهم وارتفعت اصوات القوم في الرجز والغنـــاء .. وليس في تلك العادة تبديـل وتغيير . النوق تخرج في كل يوم صفت سماؤه ، الا اذا كان اصحابها سفر .

ففي ذلك اليوم الذي نعنيه . كان عبدالله مولى زياد وعدوان مولى جبير في القوم . هذا خرج لغاية له والآخر اراد ان يرى نور الشمس بعد ان تماثـــل ابو زياد من علته .. وقد اجتمعا في مرعى الابل . وعدوان هو الذي مهد سبيل هذا الاجتماع .

كيف تركت ابا زياد يا عبدالله ؟

– : لقد عادت الى ذلك الوجه نضارته ونوره . ولولا هذا لما خطر بالبال ان اخرج مع النوق .

– : وعنده ليلى ترعاه اذا غاب زياد ..

– : ان مولاي لا يترك مكة في الشتاء كما تعلم .. وكأنه عرف ما يجول في خاطر الرجل فقال ، اجل . لقد همّ بالذهاب الى ديار بني ثقيف ليغزوهم ويسترجع ماله . فسبقه بنو هذيل ومعهم مولاك . ان زياداً ينتظر رجوع جبير ليشكره على ما فعل ..

قال : سمعتهم يقولون ان النصر كان لبني ثقيف قبل وصول جبير ..

– : يقولون ...

– : وانه ضرب اكثر من عشرين رأساً .

– : يقولون .

– : وانه اول من ردّ النوق الى الوراء .

فقال : خير لك يا عدوان ان تقول : ان مولاك كان رجل الساعة وينتهي الامر ...

– : ولكن يخيل اليّ أنك تهزأ بي .

– : ليس في القضية مجال للهزء ، لقد سلمت اليك بكل ما ذكرت دون ان اجعل لك سبيلاً الى هذا الاعتقاد .

قيل : أفلم يصبح مولاي بعد هذا الظفر بطل صوفة وحاميها ؟

– : بلى وسيعترف له زياد بهذا ، فبرقت عينا عدوان واشرق جبينه . ان عبدالله لا يعمد الى مثل هذه الصراحة في حديثه الا لخير . ثم قال :

أيعترف له بما ذكرت امام القوم ؟

– : لا تسألني عما لا استطيع ان اعرفه ، ان مولاي يحب ابن عبادة ويثني على مروءته . وهذا يكفي ..

— : ومن يعلم فقد يفضي بهما هذا الحب الى .. الى شيء آخر لا أبوح بـــه الآن ...

فقال عبدالله في نفسه : لقد قرأت سرك في عينيك ايهـا اللعين .. ولكنه بقي هادئاً يتظاهر بالتفكير .

ثم قال عدوان : واي رأي لك في هذا يا عبدالله ؟

— : ليس لي رأي فيما لا اعلم .

— : وهل دبّ الهرم في ذاكرتك ؟

قال : في الذاكرة وفي العقل حتى كاد يقضي على الاثنين . افلا ترى الوجه الذي جعّدته السنون والشعر الذي بيضته الايام ؟ .

— : ولكن القوم في مكة يعترفون لك بالذكاء ..

— : كان ذلك في أيام صبـــاي . وكنت انظر الى وجوه القوم فأعرف اسرارهم .. اما اليوم فقد ذهبت أيام الشباب .. واذا حدثني الناس حدثوني بوضوح دون ان يكون هنالك غموض وابهام .. فاذكر يا عدوان ، اذكر ذلك الشيء الذي تعنيه ولا تخف . اني كنت مخلصاً من قبل محباً لك وانا باق على العهـــد ..

— : وتساعدني في ذلك ؟

— : وهل تريد ان اعدك بشيء لا ادري ما هو ؟

قال : أبوح لك به على هذا الامل .

— : أعدك بالمساعدة اذا قدرت .

— : ألا يريد زياد ان يزوج ليلى يا عبدالله ؟

فقهقه الخبيث ضاحكاً وهو يقول :

هذا هو البله بعينه . أرأيت في العرب كلها رجلاً واحداً يأبى ان يزوج بنته؟

– : وهل يطمع زياد بصهر اعز نفساً وأثبت جناناً واكثر مالاً من جبير ؟
قال : لو طاف بين سكان الارض وسكان الجنة لما وجد مثله .
– : وليلى الحسناء لا يقع نظرها على اكفأ منه .
– : أصبت ولكن ليس عند العرب عدل .
– : لماذا ؟
– : لان الناس ، لو انصفوا ، لجعلوا مولاك سيد الكعبة وكانوا جميعهم من حوله عبيداً .

فترنح الرجل من فرحه كالسكران ثم قال : ليصبح صهراً لزياد بن كعب . ثم ينظر الاثنان بعد ذلك في امر سدانة البيت . أتضمن رضى زياد ؟

– : وهل نسيت ان أبا زياد حي ؟
قال : لا اظن ان لهذا الشيخ رأياً في ذلك .
– : بل ليس للولد رأي وأبوه موجود .
– : اذن ارجو ان تضمن رضى الاثنين .
قال : اعد بالسعي ولا اضمن احداً .
– : وانا واثق بان سعيك ينتهي بالظفر .
قال : لا يتعجل في الحكم فقد يفضي السعي الى ما نكره .
– : أعبدالله يقول هذا ؟ فلم يبالِ باغرائه ، بل اجابه وهو هادىء ، هب ان الاثنين رضيا فالأمر لا يتم لنا كما نشاء .
- وماذا يبقى بعد ذلك ؟
– : تبقى الكلمة الاخيرة التي تقولها ليلى .. فذعر عدوان من هذا الجواب وكيف لا يستولي عليه الذعر وقد سمع بأذنه ان لفتاة من العرب رأياً في الزواج ..
فقال : الكلمة الاخيرة التي تقولها ليلى ؟!

— : اجل . اذا قالت نعم تزوجها جبير . وان قالت لا فقد ضاع الامل .

— : ومن يصدق هذا في الحجاز ؟

— : يصدقه جميع الذين يعرفون زياداً وابنته .

— : اما انا فلا يقوم في ذهني انها تجرؤ على الرفض ، وابوها وجدها يرغبان في جبير ، وهو الفتى الذي تعرفه احياء العرب وساداتها ..

قال : لك ان تظن ما شئت . وعلي ان أمهد لمولاك جميع السبل التي يبلغ بها غايته ، ولكن اخشى ان يكون مولاك مطلاقاً كأبيه ..

قال : الرجل الذي يكون عنده مثل ليلى لا يفكر في الطلاق .

— : ومتى يعود مولاك ؟

— : قد يعود بعد يومين .

— : وهل حدثك بهذا الزواج قبل سفره ؟

قال : لم يذكر شيئاً من هذا .

— : وكيف عرفت انه سيطلب ليلى .

— : ليس لي في ذلك علم ولكني سأحمله على هذا الطلب قبل ان تمسي ليلى لغيره ..

— : اذن انت الذي تختار الزوجات لابن عبادة ..

— : انصح له بان يختار ثم يفعل ما يشاء . وكان عبدالله قد ملّ . فرأى ان يعبث بحدثه من وجه آخر فقال : اي الاثنين أحب اليك يا عدوان ، عبادة أم جبير ؟

قال : ان عبادة قد مات وليس لنا ان نتحدث عنه .

— : نفعل ذلك من باب المزاح ، أتستطيع ان تعد النساء اللواتي طلقهنّ في حياته ؟ ...

قال : وأي شأن لنا بهذا ؟

قال : ألا يدور البحث بيننا على الزواج الآن ؟

– : بـــلى .
– : اذن علينا ان نبحث عن الطلاق لأنه فرع من ذلك الاصل .. مــا هو عدد اولئك النساء ؟
فرأى الآخر ان يمازحه لئلا يغضب فقال : مات عبـــادة وهو في الثانية والسبعين .
– : نعم
– : وقد زوجه ابوه في العشرين من عمره ..
– : نعم .
– : اي انه عاش بعد زواجه الاول اكثر من خمسين سنة .
– : وبعد ذلك ؟
– : فاذا اردت ان تعرف عدد النساء اللواتي تزوجهن فاقسم سني عمره الى اسابيع ...
قال : لقد فعلت ..
قال : واجعل له في كل اسبوع زوجة ، يظهر لك العدد الذي طلبت ..
فملأت ضحكة عبدالله ، ذلك الوادي الصغير القائم بين الجبلين ، قـــال : ولاجل هذا كان الوالد احب اليك من ابنه ، أليس كذلك ؟
قال : أتريد أن تقول اني كنت أسرّ بما أراه .
– : بل اريد ان أقول انك كنت تهيء الاسباب لمولاك لترى في كل اسبوع وجهاً جديداً ... وكان عبادة بخيلاً يا عدوان كما يقولون ..
– : اجل الا على النساء فهو اكرم الناس .
– : وهل تظن ان جبيراً يتبع اباه في هذا ؟
– : اذا تزوج ليلى ضمنت لك انها تبقى في بيته ما بقي والا فليتزوج كل يوم عشرين وثلاثين من النساء .
قال : سأقترح عليك اقتراحاً .
– : ما هو ؟

ـ : هب ان ليلى اصبحت زوجة لمولاك ثم خطر له ان يطلقها بعد شهر او بعد سنة ، اتعرف ماذا افعل ؟

ـ : لا .

قال : اذهب الى فراشك في ساعه من ساعات الليل وانزع قلبك من صدرك بهذه اليد المرتجفة الصفراء ..

قال : ذلك رأي املاه عليك ابليس ومع ذلك فقد رضيت به .

ـ : ولكني اعود الى نفسي فأرى ان الاقدام على الغدر وقتل رجـل آمن في فراشه عيب لا يأتية الا النذل.. فاقترح عليك ان تسلم اليّ رأس جبير عندما يتم طلاق ليلى .

فتردد الرجل قليلاً ثم قال : أفعل ..

ـ : وبعد ذلك تضع رأسك على التراب ثم اضربه بسيفي حتى اقطعـه .. أترضى ؟

قال : أتأخذ رأسين بطلاق ليلى يا عبدالله ؟

ـ : نعم . ولا أبالي .

فأطرق اللعين كأنه يفكر . ثم رفع رأسه قائلاً :

قبلت باقتراحك . قال هذا ولمعت عيناه .

فابتسم عبدالله وهو يقول :

لقد عرفت الآن انك تفكر في قتلي قبل الطلاق بساعة واحدة .

ـ : بل كنت اقول في نفسي الويل لي ولجبير اذا طلق ليلى .

ـ : اذن فقد اتفقنا الآن وسنبدأ بالعمل .

قال : سيكون جبير البادىء بالامر بعد رجوعه وبعد ان تهيىء له جميع الاسباب .

ـ : وعلى هذا الامل ننصرف الآن . ولكن لا تنسَ ما اقترحت عليك .

ـ : سأذكر دائماً ان رأسي لا يثبت على هذا الجسد اذا نسيته ..

ونهض الاثنان يطردان النوق مع الغلمان للرجوع الى مكة .
وعدوان يظن ان عبدالله اصبح عبداً لارادته ..

* * *

- ٥ -

يا عبدالله . ان في صدرك سراً لا تطيق كتمانه ..
- : وكيف عرفت ذلك يا مولاي ؟
فقال ابو زياد : عرفته من عينيك . ومن هذه الابتسامة التي تظهر ثم تغيب
قال : ولكنه سر تضطرب نفسي كلما فكرت فيه .
- : وتحاول ان تكتمني اياه ؟
- : لا يا مولاي بل انتظر اليوم الذي استطيع فيه ان ابوح به ..
فنظر اليه الشيخ نظرة عتاب ثم قال : ليس لك ان تجعل لاسرارك مواعيد
اجلس الآن وخبرني به .
- : وليلى ؟
- : وما هو شأن ليلى ؟
: يجب ان لا تسمع الحديث الذي افضي اليك به . وكانت ليلى بين
جواريها تروح في المنزل وتجيء فقال : اغلقي يا ليلى هذا الباب .. ففعلت دون
ان تتردد في الامر .
: والآن يا عبدالله ؟
: اما الآن يا مولاي فجبير بن عبادة سيخطب الاميرة .
قال : حبّى بنت حليل ؟
: بل ليلى بنت زياد .
فوضع الرجل يده على جبينه الاصفر وتمتم قائلاً :
لقد فكرت في هذا الامر قبل ان تذكره . ان ابن عبادة صهر نفاخر به

العرب .. ومن قال لك ذلك ؟

- : مولاه عدوان .

- : ذلك الرجل اليمني الخبيث القلب ؟

- : نعم وستكون الخطبة اول عمل يأتيه جبير بعد رجوعه من ديار بني هذيل ..

والشيخ كما قرأت كثير الحرص على شرفه وعلى تقاليد اجداده . فقال : اعد عليّ كل ما سمعت يا عبدالله .

فجعل الشيخ الآخر يقص حكايته وابو زياد يعبث بلحيته وهو مطرق لا ينظر اليه حتى ذكر قضية الطلاق واقتراحه على عدوان .

فرفع عندئذٍ رأسه وقال :

وهل تصبح ليلى زوجة للرجل لتذكر الطلاق ؟

فأجابه هادئاً : وماذا يمنعها من هذا ؟

- : يمنعها ان أرفع النساء مقاماً في صوفة لا تزف الى رجل لا يعرف امه .

- : ولكنه يعرف أباه ، وعبادة من الاشراف ..

- : اجل . غير انه ضيع شرفه بهذا المال المسروق الذي تركه لجبير .. أنسيت ماضيه ؟

- : لم أنس شيئاً .. ولكن ..

- : ولكن ماذا ؟

- : ما هو ذنب الفتى يا مولاي ؟

- : ذنبه انه ابن سارق وهذا يكفي ..

- ولكن الناس بينهم مولاي زياد لا يعرفون ذلك .

- : اما انا فقد عرفته . كما اعرف فتاك الكذوب الشرير الذي يطمع بان يصير صهراً لزياد بن كعب ..

- : ومع ذلك فالقوم يحترمونه ويلتفون حوله .

قال : انهم يخافون غدره وشره وليس في ذلك شيء من الاحترام .. واما اولئك الفتيـــان الذين يمشون وراءه فهم الاغرار الذين يبيعون انفسهم بقبضة من المـال ..

قال : والمال يا مولاي سيد الموقف في كل زمان .

– : أيغرنا اللعين به ونحن نبذل منه لقومنا في كل عـام ما لا يستطيع ابن عبادة أن يملك نصفه في كل حياته؟ وحق من رفع البيت لئن رضي زياد به صهراً لاقتلنّ ليلى ..

ولمع الغضب في عينيه وهو يقول :

اخرج من هنا ايها اللعين فلا حاجة لي الى هذه الاسرار التي تسلبني شرفي وانا في آخر العمر .. وهم بالنهوض وجسمه يضطرب .

فانطرح عبدالله على قدميه يقبلها قائلا : أتظن يا مولاي ان عبدالله يرضى بان تكون سيدة نساء الحي زوجة لابن عبـادة ؟ اني أردت أن أسمع رأيك في هذا قبل ان أبوح لك بما في الصدر ، فابتسم بعد ذلك الغضب ثم قـال : ومـاذا رأيت الآن ؟

– : رأيت ان ابن عبادة لا يبلغ غـايته ولو استعان بسكان السماء ، فجعل يقول : اي ورب الكعبة لو استعـــان بالسماء لمـا رضيت به .. ومتى يعود من غزوته ..

– : قد يعود اليوم ..

– : اذن نذكر لليلى شيئاً عنه قبل ان يجيء . افتح الباب .

قال : قد يكون البحث عن ذلك سابقاً لأوانه .

قال : امرتك بان تفعل فلا تتردد ونادِ ليلى .

فخرج الرجل وهو يحدث نفسه قائلاً :

ان في صدر ابي زياد اموراً لم يذكرها لي ..

* * *

واقبلت الفتاة ووراءها عبدالله .

فقـال الشيخ : اجلسي يا ليلى اقص عليك حكاية غريبة اوردهـا اليهود في كتبهم .. فجلست وهي تقول : ولمـاذا يريد مولاي في هذه الساعة ان يقص عليّ الحكايات .

- : لان لي لذة وولعاً في ذكر الاساطير .. ، فعرفت الفتاة ان هنالـك حديثاً خاصاً ، فقالت : وليس شيء أحب اليّ من سماع اخبار الاقدمين .

قال : كان لليهود النازلين في الحجـاز من قديم الزمان امير بعيد الصوت كثير الجاه والمال ..

- : نعم

- : ولهذا الامير فتاة هي احدى نساء الجنة .

- : نعم

- : وقد احبها ابوها الحب كله وسلطها على بيته واحاطها بجميع اسباب العناية والعطف ..

قالت : كما سلطني ابي على جميع ما هو له ..

- : هو ذاك ، حتى ضرب المثل بجمال الفتاة وحب ابيها اياهـا وايثاره رضاها على كل ما في الوجود .

وكانت عينا عبدالله تنظران الى الارض وهو يبتسم ..

ثم قال : وحول الامير ، قومه وابناء عشيرته وجميعهم من النبلاء . وكانت الفتاة في سن الزواج والفتيان الراغبون فيهـا كثيرون لكنهم لا يجسرون على اظهار رغبتهم خوفاً من الفشل .. على انه كان هنالك فتى مغرور كثير الخبث والشر . اراد ان يتزوج الفتاة لينـال في ذلك الزواج غرضاً آخر هو في نظره خير من جميع النساء ..

قالت : وليس للفتاة اخوة يا مولاي أليس كذلك ؟

- : لا . انها وحدها في ذلك البيت الزاهي بنبالة اهله .

فضحكت قائلة : لقد عرفت هذه اليهودية الحسناء .

قال : من هي ؟

- : هي ليلى بنت زياد .

- : انت ؟ ..

- : نعم انا .. وانا كما ترى لست من اليهود .

فحنى عبدالله رأسه ليخفي ابتسامته .

اما ابو زياد فلم تفارق الرصانة وجهه . فقـــال : ولكنها حكاية قديمة كما ذكرت .

قالت : حدثني بجلاء يا مولاي فقد عرفت حـكايتك وانا ارويها عنك اذا شئت .

قال : افعلي ..

قالت : اما الطامع بزواج ليلى فهو جبير بن عبادة .

- : وما هي غايته من الزواج ؟

- : ان يتخلى له زياد عن الامارة فيصبح سيد القوم وينفر من منى قبـل جميع الناس .

فنظر الى مولاه مستغرباً ثم قال : ليلى .. من حدثك بهذا ؟ فقالت وهي لا تبالي : وبعد ان يستقيم له الامر يطرد ليلى من بيته ثم يتزوج أخرى على عادتـه وعادة ابيه .. فقال لعبدالله غاضباً :

أتبوح للفتاة بسر لا يعرفه زياد ؟

قال : لم اذكر لها شيئاً من هذا يا مولاي .

- : ومن اين لليلى ان تعرفه ؟

قالت : قرأته في الاساطير ..

قال : اتركي المزاح فلا مجال له الآن .

قالت : اهذه حكايتك ام ماذا ؟

قال : بلى ..
- : وهل خطبني جبير ؟
- : سيفعل بعد ان يعود . ولكن قولي لي من هو الرجل الذي قص عليك ما تذكرين .
قالت : يكفي ان تعلم يا مولاي اني اعلم من أمر ذلك الفتى ما تعلمه انت .
- : وهذا معناه انه لولا عنايتك بشأنه لما عرفت شيئاً عنه .
قالت : ان حكايتك حديث الناس .
- : بل لا يعرفها في مكة الا ثلاثة رجال رواها لهم شيخ من البحرين فكتموها حفظاً لشرف العشيرة .
- : لعلّ احد هؤلاء الرجال لم يحسن الكتمان .
- : وهذا الذي يجب ان اعرفه الآن .
قالت : الا يجوز يا مولاي ان يروي ذلك الشيخ روايته لغير هؤلاء الثلاثة الذين ذكرت ؟
- : لا . فقد رواها لاول مرة وهو على فراش الموت . ثم مات بعد ذلك ولم يقل كلمة .
ونظر ثانية الى عبدالله .
قالت : اتشك في عبدالله يا مولاي ؟
- : اجل . فهو احد الثلاثة
- : والاثنان الآخران ؟
- : سادن الكعبة نفسه وانا ..
- : اذن فاعلم ان حبّى بنت حليل تعرف ما تعرفون .
فأطرق ملياً ثم قال : وهي التي باحت لك به ؟
- : نعم . وابوها كما تعلم لا يكتمها شيئاً
- : وما هو رأيك الآن ؟
قالت : اسألك سؤالاً قبل ان اذكر هذا الرأي .

- : سلي ما تشائين .

- : أيقوم في ذهنك ان عبدالله فضح عشيرته ؟

- : اما الان فلا .

فقال عبدالله : هذه هي المرة الاولى التي يتهمني فيها مولاي إبو زياد .

قال : لنترك هذا ولننظر في الامر من الوجه الاخر . اهـــذا هو سؤالك يا ليلى ؟

- : لا . ولكني اسأل الان . وسكتت قليلاً وهي تفكر ثم قالت : لقـد ذكرت لي حبّى ان عبادة قتل حماه ثم سرق ماله .. افكانت صادقة ؟

- : يظهر ان حبّى لا تنسى شيئاً . نعم قتله وسرق ماله ونحن نذكر لـك اسم ذلك القتيل فهو ربيعة بن سلول .

- : ومن كان مع عبادة في ذلك الليل ؟

- : جبير وحده وهو غلام .

- : وأهل القتيل ؟

- : ان ربيعة وعبادة كانا في اطراف البحرين يشتريان المسك والعود ومعهما من اهلهما جبير كما قلت . فبينا هم في خيمة لهم على الشاطىء وقد بسط السكون ظله وساد الصمت والهدوء عمد عبادة الى خنجره فأغمده في صدر ربيعة وتناول جراب الرجل من فراشه وخرج من الخيمة مع ولده كما يخرج اللص .

: وجبير يرى ؟ .

- : نعم . وجبير يرى كل هذا ويخيل اليّ انه كان يبتسم للدم المسفوك .

: وجثة ربيعة ؟

- : نقلها بعض الرعاة في اليوم الثاني الى حي لهم ولم يقم لهـــا ذكر من ذلك الحين .

قالت : وهذا هو موضع الريب

- : وكيف ذلك ؟

قالت : قتل ربيعة داخل خيمته في ظلام الليل ولم يرَ عبادة احد من الناس
-- : واذا كان هذا ؟

- : اذا كان هذا فقد يكون الشيخ الذي روى حادثة القتل كاذباً في روايته .. والظنون وحدها تجعل عبادة من المجرمين

- : ولكن الناس يعلمون ان ربيعة كان مع صهره .

- : وهذا وحده لا يكفي يا مولاي ..

- : وانهم لم يروا لذلك الصهر اثراً بعد ذلك الليل .

- : وذلك ما دعاهم الى الظن وليس لهم على ظنونهم دليل .

وكانت تخاطب جدها كما يخاطب محامي الدفاع قضاة المتهمين .

فقال : وما هو عذر عبادة في ذلك الفرار ؟

- : ان له في ذلك اعذاراً كثيرة يا مولاي .

- : اذكري واحداً منها .

قالت : ان صعاليك العرب منتشرون في جميع الاقطار وقد عرف احدهم او بعضهم ان ربيعة بن سلول الذي يطوف في البحرين يحمل جراباً من الذهب فتعقبوه حتى آوى الى خيمته . ودخلوا عليه فقتلوه وعبادة ينظر اليهم ولم يستطع الا ان يفرّ مع ولده خوفاً من ان يجيء دوره .

قال : كان عليه ان يلجأ الى حي من احياء القوم فيقصّ عليهم خبره ..

- : انه غريب وقد لا يصدقونه . بل قد يكون مغفلاً فلم يفكر في هذا .

قال : لو سمع احد غيري وغير عبدالله ما تقولين لخيّل اليك انك تحبين ابن عبادة .

قالت : ليس لنا الان اننبحث عن الحب يا مولاي، ان الرجل من اشراف بني صوفة وسيخطبني الى ابي كما تقولين .

- : نعم

- : وستردونه رداً قبيحاً لانكم واثقون بأنه ابن سارق .

– : نعم .

ولكني لم اجد في ايديكم شيئاً يثبت جريمة ابيه .

قال : لقد اكتفينا بما نعلم .

– : اما انا فلا اسلم بهذا الأمر ..

– : ليلى ؟..

– : نعم .. وسأسأل ابي كما اسألك الآن أن ترضيا .

فلم يصدق مــــا سمع .. ان كلمته في بيته الكلمة الاولى التي لا ترد . وزياد وليلى لا يعصيان له امراً .. فكيف تسأله ليلى الصغيرة السن الكريمة الخلق .. كيف تسأله ، بلهجة هادئة ، ولغة صريحة ، ان يرضى بذلك الخـــاطب الذي يعيش من جريمة ابيه ؟..

ذلك يدل على ان هنالك صلة بين الاثنين .. فقـال هازئاً : وأن لم يتم لك هذا الرضى ؟

– : اعلم عندئذٍ ان لكما من الزواج غرضاً آخر وان خاطبـاً غير جبير بن عبادة تريدان أن تزوجاه .

فاغتصب ابو زياد ابتسامة قصيرة اخفى وراءهـا مرارة نفسه ثم قــال : لم يخطبك احد ولم نفكر في الزواج من قبل ..

– : واذا قلت لك اني أحب الفتى الذي تكره ..

فارتجفت شفتاه قائلا : أوثر أن يختنق في صدرك هذا الحب وان تموتي بعد ذلك على أن اراك عبدة في بيت جبير .

– : وذلك لأن شيخاً من شيوخ البحرين روى لك في ساعة من ساعـــات الذهول حكاية كاذبة عن جراب لا وجود له ..

قالت هذا وهي تتفرس فيه. كأنها تحاول ان تنتزع ذلك السر من صدره..

فقام في ذهنه انها تحب الرجل . وقد فاته انهـا لم تظهر بذلك المظهر الغريب الا ليطلعها جدها على كل شيء كما فعل حليل بن حبشية مع حبّى .

فتنهد قائلا : ان ذلك الشيخ الذي لا تثقين بقوله. هو في نظري ونظر سادن الكعبة اصدق الناس ..

— : لأنه حدثكم بهذا عند الموت ؟

— : بل لأنه رأى بعينه وسمع باذنه ..

— : ولكنك قلت ان حادث القتل لم يره احد .

— : واعيد الآن ذلك القول ..

— : اذن كان ذلك الشيخ جنّياً يرى من الخارج ما يفعله الناس داخل الجدر.

فرفع صوته قائلا :

بل كان ربيعة بن سلول نفسه ..

فتراجعت ليلى الى الوراء وهي تقول :

لا .. لا يا مولاي . ان هذا لا يكون .. والاموات لا يعودون الى هـــذا العــالم . .

— : الا ربيعة فقد مات ثم بعث حياً .

قالت : انك الآن تسخر بي يا مولاي .

— : بل أذكر لك الحادث كما جرى لتثقي بكل ما أقول .

— : اذن فالرجل لم يمت .

— : لا . فان خنجر عبادة غــاص تحت القلب بين الاضلاع فنجـــا ربيعة من المــوت .

— وبعد ذلك ؟

— : نقلوه الى منازل عبد القيس وجعلوا يعالجونه حتى شفي وترك الحي عائداً الى قومه .. ولكنه كتم امره فلم يبح به لأحد وكره ان يذكر للناس غدر ذلك الرجل الذي كان اعز عليه من ولده .. غير انه لم ينس عبادة .. بل كان يبحث عنه طائفاً في بـــلاد العرب بضع سنين وهو لا يعرف مقره حتى قيل له انه في مكة فأقبل عليها يسأل عنه وكان عبادة قد مات .

— : وماذا فعل ؟

— : كان يريـــد ان يراه في السوق ثم يطعنه بخنجره على مرأى ومسمع من الناس قائلا له :

هكذا يموت سارق الاموال. فلما انتهى اليه خبر موته برّح به الأمر واستولى اليأس على قلبه فأغمض الموت عينيه في بيت حليل بـــين يدي عبدالله بعد ان اعترف لنا بكل شيء .

ومن يعرف من أهل مكة انه ربيعة بن سلول ؟

— : انا ..

فنهضت عندئذٍ وضمت ذلك الشيخ الى صدرها وهي تقبل رأسه وتقول لقد احزنت نفسك يا مولاي فاغفر لي ما فعلت .

قال : ولكن أريد أن أعلم اذا كنت تعرفين ابن عبادة ..

قالت : اعرفه كما أعرف سواه من الفتيـــان . ألا تذكر ذلك اليوم الذي اجتمعت فيه العرب امام البيت للنظر في أمر الخراج ؟

— : بـــلى .

— : لقد لفت نظري في ذلك اليوم فرسه الأدهم فسألت عنــه عبدالله . ثم رأيته في ظـــاهر مكة مع مولاه اليمني وكان ذلك آخر العهد به .. والآن مـاذا تريـد ؟

قال : اني اكره هذا الرجل ولا أحب أن أرى وجهه .

— : وأنا أكرهه يا مولاي ولا أطيق ان أنظر اليه . ولكن بقي امر آخر أن تذكره لي .

— : طمعه بالإمارة ..

— : نعم فكيف عرفت هذا وعرفته حبّى ؟

قال: كما عرفه جميع القتيان الاغرار رفاق الفتى في مكة انه هو الذي فضح نفسه واطلع اولئك الرفاق على اسراره .

قالت : وحكايه النوق التي استرجعها من بني ثقيف ؟

– : كان بنو هذيل البادئين بذلك وهو أضعف من ان يجرد وحده سيفاً في وجه القوم ..

– : ولكنها مروءة يا مولاي ..

– : اجل وسيعطيه زياد بعض النوق وبعض المال جزاء له .

فقال عبدالله : لا حاجة له الى شيء من هذا !

– : نهبَ له اذن ما يحتاج اليه ..

– : سيذكر لك حاجته وهي ليلى ..

– : اما ليلى فلا يراها حتى يرى اباه خارجاً من قبره يجر كفنه .

فضحكت الفتاة وهي تقول أليس لربيعة ولد يثأر بأبيه ؟

– : بلى له ولدان يقيمان بالشام .

– : وهما لا يعلمان من أمر أبيهما شيئاً ..

قال : ان ربيعة قبل أن يجيء مكة خبّر اهله بكل ما جرى له واوصاهم بان يطلبوا بدمه اذا هلك .

– اذن فحياة جبير في خطر .

– : قد ينسى ولدا ربيعة ثأرهما ويقضيان العمر كله بعيدين عن الحجاز فجعل عبدالله يهز رأسه ويقول : ما سمعت من قبل ان عربياً ينسى دم أبيه .

* * *

قدم جبير بن عبادة ومعه رهط من بني هذيل .

وقد ذهب له في ذلك الظفر الذي تم له صيت وذكر . حتى ان الناس في

مكة فتيانهم وكهولهم ارادوا ان يروه ويصافحوه .. ذلك كان شأن العرب .. القوة ترفع صاحبها الى العلاء . والسيف يبني له منزلا في الجوزاء .. وقد يكون الرجل صعلوكاً خامل النسب غير ان ضربة سيف واحدة يضربها في ساعة غضب تجعله سيد القوم .. وجبير كما عرفت يرقص بدون دف .. وهو كثير الزهو ومغرور قبل أن يسترجع نوق الحي . فالى اي حد يصل غروره وزهوه وقد قهر بطل بني هذيل غزاة بني ثقيف ..؟ ان الدنيا كلها لا تسعه ويكاد لخيلائه وخفته يسبح في الفضاء .

فلما توسط منازل بني صوفة قال له انصاره : خير لنا أن نمر بقصر زياد بن كعب قبل ان ننصرف ..

وهذا مـا كان يرغب فيه ، ليس لأن الواجب يقضي عليه بزيارة الامير قبل كل شيء ، كما هي العادة ، بل لأن هوى ليلى برّح به فأراد ان يراهـا او يرى خيالها في ذلك القصر .

وكان مولاه عدوان يبتسم له ابتسامة كلها معانٍ وآمال . وهو لا يستطيع ان يقص عليه ولو همساً ، ذلك الحديث الذي دار بينه وبين عبدالله .

الناس كثيرون حولهما . والنساء والغلمان على السطوح وعلى الشرفـات ينظرون الى موكب النصر .. حتى قارب القوم منزل الامير ؛ فاذا زياد ومعه عبدالله بالباب ووراءهما الخدم والعبيد يستقبلون الفتى الظافر الذي حمى مالهم .. ومدّ زياد يده يصافح الفتى ويثني عليه . ثم وضع يده بيده ودخلا ودخل القوم .

وكان أبو زياد في قاعة الجلوس على مقعد من جلود السباع والعباءة على كتفيه فقال زياد : هذا جبير بن عبادة قـاهر بني ثقيف .. فأومأ الشيخ الى الناس بالجلوس وهو يقول : لقد كان مثلاً لأهل مكة في الدفـاع عن شرف العشيرة . حدثنا بما رأيت .

وكان زياد ، يحترم اباه الاحترام كله حتى انه يترك له القول والحكم عندما يجلس للناس ، لا يراجعه ولا يسبقه في سؤال .

فقال جبير رافعاً صوته: كانت نوق الامير مع طوائف من نوق حلفائنا ترعى في موضع يقال له الصخرات .

قال : نعرفه .

– : وقد تفرّق الرعــاة وانتشروا في ذلك السهل لا يحسبون للغزو حساباً ولا يرون في الافق احداً .

قال : والموضع لا يبعد كثيراً عن الحي .

– : لا يا مولاي. وانها لجرأة من بني ثقيف استطاعوا معها ان يسوقوا مالنا ومال هذيل .

قال : لقد فعلها القوم واستهـانوا بنا كأن بني صوفة لا وجود لهم في مكة وكأنهم لا يقدرون على صون حقهم . ومن قتلتم منهم ؟

– : بضعة عشر رجلا ثم تخلوا بعد ذلك عما سلبوه .

– : وهل سلمت النوق ؟

– : جميعها كما كانت في المرعى الا ناقتين جريحتين اصابتهما السهام.

– : وقد قيل لنا انك صرعت الرجال بالسيف ولم تستعن بالسنان .

– : هو ذاك يا مولاي حتى ظن بنو ثقيف اني من الجن . وارسل نظره الى الخارج لعله يرى ليلى . ثم قال : اسأل هؤلاء النفر من بني هذيــل . واشار الى رفــاقه .

فقال ابو زياد : لقد صدقناك وسيدعوك الناس في مكة فارس الحي .

فقال في نفسه : ليت ليلى تسمع حديث جدها الآن ..

واستطرد ابو زياد قائلا : انظر في امر جبير يا زياد فقد دافع عنا ..

وعندئذٍ جاء دور زياد فقال : وانا احفظ له فضله في ذلك الدفاع .. لقد جعلته الرجل الأول الذي ينفر بعدي من منى ..

فشمخ الفتى بأنفه وهزته الخيلاء .

ـ : ويكون له في صوفة الرأي الأول بعد رأيي ورأي أبي زياد .

فجعل يهز رأسه كما يفعل السكران .

ـ : وأعطيته خمساً من النوق التي حماها وفرسين ..

فتجهم وجهه لانه ارفع من ان يأخذ اجراً ..

ـ : وبعد ذلك كله اسأله عن حاجته .

فرأى أن الحظ يخدمه فقال : لي حاجة اذكرها للأمير عند المساء .

فأجابه ابو زياد قائلا : بل تذكرها الآن .

ـ : انها سر يا مولاي .

ـ : ليس بينك وبين زياد اسرار .

ـ : ولكن لا أحب ان يسمعها الناس .

فقال للقوم : انصرفوا الآن فجبير يريد ان يبوح لنا بسره .

فقام القوم فخرجوا وبعضهم يقولون : ستكون ليلى زوجة لابن عبادة ..

* * *

ألم يكن عبادة يا مولاي من أهل الشرف ؟ فحاول زياد ان يجيب فأسكته ابوه قائلا : أتسألنا عن الأموا يا جبير ؟

قال : اجعل هذا السؤال مقدمة لما سأقول .

ـ : نعم كان من اهل الشرف .

ـ : وهل اساء الى قومه ؟

ـ : بل كان باراً بهم وانت تشبهه .

ـ : وكانت له النساء من انبل العرب لا يبخل عليه سيد بابنته يتخذها زوجة له .

قال : لقد عرفنا حاجتك فانت تخطب ليلى .

فتمتم قائلا : هذه هي حاجتي يا مولاي .
فاطرق الشيخ كأنه يفكر ثم قال :
أرأيت ليلى قبل الآن يا ابن عبادة ؟
ــ : نعم وقد سحرني جمالها الخلّاب ..
ــ : واين كان ذلك ؟
ــ : وراء البقعة الحمراء التي تطلق فيها الرعاوى .
ــ : أفلم ترَ انها في الخامسة عشرة لا تعرف معنى الزواج ؟
قال : ان الرجال في الحجاز يطلقون نساءهم في هذه السن .
ــ : اما انا فلم أرَ اميرة تزوجت في سن ليلى . هذه حبّى بنت حليل لماذا لا يزوجها سادن الكعبة .
ــ : لانه لم يجد في قومه من هو اهل له .
قال : أهكذا قال لك حليل عندما اردت ان تخطب حبّى ؟
فاحمرّ وجه الفتى وتلعثم لسانه .
قال : أتسكت يا جبير وانت الآن بحاجه الى الكلام ؟
ــ : ان سدانة الكعبة جعلت ابن حبشية فوق جميع الناس .
ــ : دع عنك هذا الان واذكر جوابه .
قال : لقد رضي بي زوجاً لابنته .
ــ : اذن فحبّى اصبحت لك .
ــ : لا . لانه استشارها فلم تقبل وانا لا اعلم كيف يستشير الامراء بناتهم في امور الزواج !
ــ : وهل نحن اصغر في عينيك من سادن الكعبة يا ابن عبادة .
ــ : بل انتم يا مولاي فرعة الشرف والمحتد الكريم .
ــ : وهل ترى حبّى اسمى عقلاً واصدق رأياً من ليلى ؟
ــ : لقد قيل لي ان لها حكمة جدها ورأي ابيها .
ــ : اذن نفعل كما فعل امير الكعبة فلسنا افضل منه . لقد رضينا بك

زوجاً لابنتنا وخير لنا ولها ان تكون لك من ان تكون لغيرك . ولكن نسألها قبل ان نعدك ونضع يدنا بيدك .

فاستغرب قائلاً : وانتم ايضاً يا مولاي تستشيرون النساء ؟

– : نعم فقد اقسمت واقسم زياد اننا لا نزوج ليلى الا من تشاء .

– : ولكن قد تختار صعلوكاً .

قال : اتريد بالصعلوك الفقير الذي لا يملك مالاً ؟

– : نعم

قال : نؤثر الخلق العالي على المال .

- : وقد تختاره من رعاة النوق ؟

قال : وفي الرعاة من هو اطهر قلباً من الملك .

- : ولكن لا اصدق يا مولاى انكم اطلقتم يدها في الاختيار اذ ما تصنعون لو احبت ليلى عبداً وسألتكم ان تزوجوها اياه ؟

فارتجفت شفتا ابي زياد وهو يقول : كان عليك ان تعلم ان الذي يخاطبك الان لا يكذب . وان ليلى بنت زياد لا تختار زوجها من أوباش العرب .

وعلى رغم هذه السهام الخفية التي ارسلها الشيخ الى صدره لم يشعر ولم يبال كأنه واثق بأن امير صوفة اضعف من ان يهزأ به الى هـــذا الحد ، ثم قال : ألستشيرها الان يا مولاي ؟

– : بل اراك تقبل بأن يكون ذلك غداً .

فالتفت الى عدوان يسأله رأيه بعينيه، فأومأ اليه بأن يرضى والاثنان يظنان ان العيون لا تراهما . مع ان عبدالله رأى كل شيء .

ثم قال : اذن يأذن لي ابو زياد ان انصرف الان على ان أعود غداً او بعـد غد .. ومشى الى الباب وقد اسود وجهه ويكاد لشدة غيظه ان يقع على الارض، وعدوان وراءه وهو مطرق لا يقول كلمة حتى اصبحا خارج المنزل فجعـــل يهامس سيده وهما سائران .

* * *

عاد وجه جبير بعد ذلك التهجم الى الاشراق وهو يقول :
أعبدالله قال لك ذلك ؟

ـ : نعم وقد ضمن لي رضاها ورضى ليلى . ولكنه يخاف الطلاق كما قلت ويخشى ان تعمد اليه بعد ان يمر الاسبوع الاول على الزواج .

قال : لو عرف الابله اي عاطفة تجول في هذا الصدر لما اساء الظن . ان ليلى علمتني الحب .. وستعلمني الاخلاص للنساء اذا اصبحت لي . وحق من روح جبير بيده لخروج الروح من جسدي اهون عليّ من ان تمسي ليلى لغيري . ولكن ابا زياد ضيّق عليّ سبل القول ولم يترك لي مجالاً اليه . وانا الخائف ليس من ابي زياد وحده بل من زياد وابنته فقد رأيت وجه الشيخ يصفر وهو يتحدث عن الزواج . ورأيت ابا ليلى صامتاً ساكتاً سكوت اهل القبور . كأن الفتاة التي أخطبها من فتيات الشام .

فقال عدوان : امـــا زياد فهذه عادته في مجلس ابيه كما تعلم . واما ليلى فستولـّي امرها عبدالله وينتهي الامر .

ـ : واذا فعلت كما فعَلـَت حبّى ؟

قال : لعلّ حبّى تحلم بأبي كرب اسعد ملك اليمن لتصير ربة العرش اليمني.

ـ : بل لو سألها تبّع ان ترضى به زوجاً لأبت وطلبت اعظم منه .

ـ : ولا احسب ليلى تطمع بأعظم منك يا مولاي .

فعضّ على شفته قائلاً :

انها اذا أبت فقد كتب لها ولآل كعب الموت من يدي اني اعرف ان ابغض كما اعرف ان أحب . والويل لبيت زياد اذا استخف اصحابه بابن عبادة . انه يسقط على رؤوسهم في ليلة لا يلمع في سمائها كوكب ..

ـ : مولاي . اتريد ان يتم لك الامر في ساعة واحدة ؟

ـ : وهل اصبر الايام والاسابيع حتى يقتلني هذا الغرام ؟

ـ : ان الرجال تستعين بجميع الحيل لتبلغ الغايات .

– : لقد استعنا الان بالحيلة الاولى وهي عبدالله .
– : واذا اخفق عمدنا الى سواه .
– : اذن نستعين لنتزوج . بجميع الناس ..
قال : لا نلجأ الا الى أهل ليلى .
– : ومن بقي من هؤلاء ؟
– : أراك نسيت أخوالها يا مولاي .
قال : ويلك فمن هم ؟
– : رؤساء الخزرج في يثرب « المدينة » .
فقال : لقد ذكرتم الان ولكن يصعب عليّ ان احني رأسي للعبيد والأحرار حباً بفتاة يشترون مثلها من اسواق العرب ..
– : اذا كان هذا فانت لا تحبها كما تقول ..
– : بل لولا شماتة العرب لسجدت لها في الصباح وفي المساء كما يسجدون لآلهة الكعبة .
وعندئذٍ دخلا بيت جبير ، فقال مولاه : اي انك تؤثر ليلى على كل شيء..؟
قال : لقد عرفت هذا من قبل فلماذا تسألني الان ؟
– : لأقول لك ان الاستعانة بالارض والسماء خير من الفشل .
– : ومتى ترى عبدالله ؟
– : حينما تخرج النوق عند الفجر فسيرى الفتاة في هذا الليل وينقل اليّ غداً ما جرى بينها وبينه . ثم قال يداعب مولاه :
ان الحب قوي يا مولاي حتى انه يجعل الرجال اطفالاً .
قال : لا تحدثني عن شيء لا عهد لك به .
– : ويظهر انه اذا استولى على القلوب سلب العقول .
– : حسبك انك طويت ايام الشباب وعقلك باقٍ لك . وكره ان يتمادى في الحديث . فترك مولاه ومشى الى مرابط الخيل ليفكر وحده في امره .
في ذلك الليل استعرض آل زياد مـــاضي جبير بن عبادة وبسطوا أمره ،

وقد كتموا زياداً من قبل ذلك الامر خوفـاً من ان تثور نفسه ، فيطرد جبيراً من العشيرة ، فلما روى له أبوه الحادث ؛ استيقظت الكبريـاء والعز في صدره وجعل يبتسم ابتسامة الاستخفاف ويقول : لقد أراد ابن عبادة ان يلوثنا بالعار ويفضحنا بين العرب كأنه لم يجد في القطر العربي كله فتاةً تحمل عـاره الا ليلى . أفلم تري يا ليلى ان السماء ارسلت لك هذا الزوج من ملائكتها الاطهار ؟

فقال ابو زياد : ليس في الأمر فضيحة كما تقول . ان العرب تجهل هذا وجبير نفسه يظن انجريمة ابيه دفنت يوم دفنتجثة ربيعة فليس هنالك من يظهرامره.

قال : اما انا فسأظهر هذا الأمر .

– : وما هي الغاية من ذلك ؟

– : ان ادل بني صوفة على السارق فيخلعوه ويتبرأوا منه .

قال : أتسود قومك بمثل هذه الخفة يا زياد ؟

– : واين الخفة في هذا يا مولاي ؟

قال : الامراء الذين يخلقون الحوادث في احيائهم ليسوا على شيء من الدهاء. انك ان فعلت ملأ ابن عبادة مكة أخباراً واقاويل .

– : اما أنا فاخمد صوته قبل ان يرتفع .

: وهنالك اصوات أنصاره ومن ينتمي اليه وقد يستغيثون بحي من احياء العرب فتقع الفتنة بيننا لسببٍ لا يجب العاقل ان يسمعه . ماذا تقولين يا ليلى ؟

قالت : هذا هو الرأي .

فقال زياد : ان رأس ابن عبادة رأس افعى يجب قطعه .

قالت : نتركه ينفث السم .

هذا جبن نندم عليه بعد حين

– : بل هي حكمة يتمشي عليهـا الامراء . ألم يخطب حبّى بنت حليل قبل أن يخطبني يا مولاي ؟

قال . قد يكون سكوت حليل عنه هو الذي جرأه على البحث في بيوت الامراء عن زوجة له ..

قالت : اذا كان سادن الكعبة وهو أمير النـــاس كلهم لم يفضح ابن عبادة المتولى نحن فضيحته فنفضح انفسنا .

— : وماذا يكون جوابنا وهو ينتظره .

— : كما كان جواب حليل . قالوا له ان حبّى لا ترغب في الزواج الآن كما يقولون ان ليلى لا رغبة لها فيه .

— : ومع ذلك فسيكون لي وله شأن .

فقال عبدالله : مسكين جبير .. لقد وعدت مولاه ان امهد امـــامه السبل وسأفعـل ..

— : اذن تولّ عني امر الجواب يا عبدالله لاني لا أريـد ان ارى بعد وجـه ابن عبـادة .

قال : سأرى غداً عدوان في الارض الحمراء واعتذر له عن هذا الفشل الذي لقيته في قضية الزواج .

وقام ابو زياد الى غرفته وهو يقول لخادمه : لقد جعلنا لابن عبادة الآن سبيلاً الى الشر وسيسعرها ناراً آكلة ورب الكعبة ..

* * *

هذا عدوان وعبدالله وراء النوق ..

وعبدالله لا يلتفت الى احد ولا يبتسم كأن الهم الذي يحمله في صدره يـكاد يقتله .. وقلب اليمني يخفق من الخوف ولا يجسر على أن يكون البادىء بالكلام لأنه رأى الخيبة في عيني عبدالله .

لقد علل نفسه بالامل . وقـام في ذهنه ان سيده سيخلف زياداً في الامـارة وزياد حي . ويسعى القوم في مكة لنيل رضـاه كما يسعون الآن للحصول على رضى سواه .. أفتضيع ليلى آماله . وتمحو احلامه في ساعة واحدة ؟ انـه اذن لحظ اسود . افترّ له ثغره لحظة . ثم عبس وجهه .

وعدوان نفسه لا يعلم شيئاً عن جريمة عبـــادة فقد طعن ربيعة في البحرين وهو في الحجاز . واستطاع سيده اخفـاء الحـادثة عنه وعن الناس فلم يذكر له عنها كلمة ..

حتى وصل الرعاة الى المرعى واطلقوا النوق . فقال لعبدالله : اسألك الآن عن ذلك الوعد .. ماذا فعلت ليلى ؟

ففاجأه قائلاً : ان هذه الفتاة الطروب الضاحكة اصلب من الحديد ..

فاضطرب اليمني وهو يقول : أتخالف ليلى أباها وجدهـا في الرأي وهمـا يصبران ؟

قال : ويلك أتريد أن يضربا عنقها ان لم تقبل ؟

– : وماذا تقول العرب اذا عرفت ان لأمير صوفة رغبة في جبير والفتاة لا ترضى بـه ؟

– : لتقل العرب مـــا تشاء فشعرة من رأس ليـلى أثمن في نظر زيـاد من ملك الحجاز كله ، انهـا رفضت بشدة وعنف كأنها لا تريد ان يحدثها احـــد بأمر الزواج ...

قال : لقد أملت عليها حبّى ذلك الرفض ..

– : بل املته عليها فكرة ثابتة لا تتزعزع هي انها تؤثر البقاء في بيت ابيها الى الأبد على الخروج منه لتجلس على عرش .

– : ذلك قول لا يقبله العقل يا عبدالله .

– : ومع ذلك فقد سمعته باذني حتى انها أمرتني بالخروج من غرفتها عندمـا خاطبتها بشأن مولاك ..

– يظهر انها لا تعرف اي فتىً هو ابن عبادة ..

– لقد عرفت كل شيء.. واقسم لك بجميع ما في البيت الحرام من آلهة انها عرفت كل شيء .. وكان ابو زياد يصف لها غنى جبير ويذكر لها جيـاده ونوقه

ومواشيه وعظمة نفسه وهي تبتسم لمـــا تسمع حتى كادت تستهزىء بذلك الشيخ الذي تعبده ..

- : لعلها تعشق احد الفتيان من قومها .

- : لقد خطر ببال زياد ما خطر ببالك الان .. فلما ذكر لها ذلك عتبت اباها واستسلمت الى البكاء .

- : اذن فقد خسر جبير كل شيء .

قال : مثل جبير لا يخسر شيئاً . أفليس عنده الذهب يعجز مثلك عن حمله؟

- : بـــلى .

- : او لا يعرف الناس في كل قطر انه من سادة الحجاز واشرافه وابطاله .

- : واذا كان كما وصفت ؟

- : انه يستطيع وهو في ذلك الغنى وهذا العز ، ان يختـــار من حسان العرب من تكون قلامة ظفرها خيراً من ليلى .

- : ولكنه عاشق يا عبدالله ..

قال: لو قيل لي ان غلاماً من هؤلاء قذف بنفسه من ذروة هذا الجبل وجعل يسبح في الفضاء حتى يسقط في صحن الكعبة لصدقت ، وامـا ان جبيراً وهو ابن ابيه ، يعرف ما هو الحب فذلك ما لا اصدقه ..

- : وانا اعلم انه لو قيل لجبير : ان زياداً لا يزوجك ليلى الا اذا بذلت كل ما تملك لفقراء مكة لا يبقى منه درهم ، لعمد الى ذلك المال فبذله كله في سبيل هذه الغاية ولم يبـــالِ ، قلت لك انه يحبها ولا أدري اذا كان الحب يفضي الى مثل هذا الجنون .

قال : ويخيل الي انه اذا خسر ليلى يموت ..

- : من يعلم فقد يستولي عليه اليأس فيقتل نفسه ..

- : نعم . أو لم ترَ ان اليأس صرعه بعد خسارته حبّى ؟

قالها عبدالله هازئاً وهو يضحك .. فأجابه قائلاً : كان الحب بعيداً عنه في ذلك الحــين .

— : كما هو بعيد عنه الآن .. ومع ذلك فلو استطعت ان أهب له ليـــلى وامارة ابيها لفعلت ..

قال : ليلى وحدها ولك الف دينار .

قال : اني طامع برضى جبير ولا أعبأ بالمال ولكني عاجز وليس في الحجــاز من يقدر على ذلك .

— : اذنْ فكل شيء قد انتهى الآن .

— : هذا الذي اراه؛فلينس ابن عبادة حبه ولو الى حين..ربما يعشق عذراء اخرى من عذارى الحجاز ..

قال : لا ادري كيف انقل اليه هذا الجواب .

قال : أتخافه ؟

— : لا . ولكني لا أريد أن يقتله الغرام ..

وحوّل وجهه عن عبدالله كأنه يفكر فيما سمع . والخبث والغيظ يملآن قلبه الذي يشبه قلب مولاه .. رقد ظن عبدالله انه صدق كل ما رواه له ..

* * *



- ٦ -

لقد ضاعت آمالنا بعبدالله يا مولاي .

فاهتز جسم جبير قائلا : ماذا ؟

قال : ان آل زياد لا يريدون ان يزوجوك ..

فمرت سحابة سوداء أمام عيني الفتى .. ان هذا الجواب الجــاف . طعنه في صدره . واستخفاف لا يرى مثله صعاليك القوم . فقال وهو يرتجف : اعد مــا سمعت ولا تتردد .

- : قلت ان آل زياد ارفع من ان يرضوا بك صهراً ..

وكان الاثنـان في الجانب الشمالي من مكة ومع جبير فرس له ، فاستند الى ذلك الفرس كي لا يسقط ثم قال : اذكر من رأيت من آل زياد .

- : رأيت عبدالله .

- : وهل جرؤ على القول ان القوم لا يزوجونني بليلى ؟

- و لا . ولكني عرفت أسرارهم من وراء الستار .

- لا أسألك عما عرفت بل عما سمعت .

- : لقد جرّب القوم ان يستميلوا ليلى فـلم يستطيعوا فهي ترغب عن الزواج . . .

- : ذلك جواب حبّى بنت حليل نفسه .

- : نعم وهذا معناه ان الاثنين تنطقان من فم واحد ويخفق في صدريهما قلب واحد . بل هذا معناه ان سادن الكعبة وزياداً أرفع منك مقاماً وأكرم نسباً .

قال : كذبت فانا ابن صوفة كما هو زياد ..

- : أعرف ذلك ولكن الاثنين لا يريدان ان يعرفاه .. اتظن يا مولاي ان الاميرين شاورا ابنتيهما في الامر ؟

فسكت جبير . وقد اوغر اللعين صدره .

قال : اقسم بتراب عبادة انهما لم يذكرا لهما عن الزواج كلمة ولكنه عـذر ارادا ان يبدياه ليحجبا كبرياءهما عن العيون .

فظل الفتى ساكتاً . ثم قاد فرسه الى الميدان وعيناه تنظران الى الارض .. او ذلك القول سعّر في احشائه نارين : نار الحقد ونار الحب . أجل وقامت في صدره ثورتان : ثورة نفسه وثورة قلبه ، ولو كان غير جبـير في ذلك الصراع لانتصر القلب على النفس. لكن طبيعته طبيعة شر لا طبيعة عاطفة . كما قرأت. واهون عليه ان يبغض جميع الناس ولا يحب أحداً .

وعدوان وراءه يقول له : لم يبقَ امامنا غير بني الخزرج يا مولاي فهم اهل

شرف ويحبهم زياد .. وكان قد توسط الميدان . فوضع يده على سيفه قائلاً : بل لم يبقَ امامنا غير هذا . ونظر اليه .. فاذا زياد بن كعب على جواد يقفز بـــه قفزاً ...

زياد نفسه ابو ليلى .. !

وهي ساعة يخرج فيها كل يوم الى ذلك الميدان يركض جواده الذي بعثه اليه فتىً من نجد ، وليس معه سلاح ..

فاحمرت عينا جبير وارتجفت ركبتاه .

ورأى عدوان الشر في عينيه فقال له : احذر يا مولاي فأمر ليلى لم ينقض بعد .. فتمتم قائلاً : كلمة واحدة تخرج من فمك تعقبها ضربة سيف .

وكان زياد قد وصل . فقال : ابن عبادة ؟

— : نعم . ابن عبادة كما ترى .

قال : اركب هذا الفرس فأجاولك ..

قال : لا اركبه الا عندما اغزو القوم فأحمي اموال الامراء .. مثلـــك يا ابن كعب ..

فخيل لى زياد ان الرجل قد جنّ . فقال : أتهذي يا جبير ؟

— : بل أرسل الى صدرك هذه السهام لأعلمك الجرأة . ان الهاذي هو ذلك الذي جعلني امنع العرب من ان تتقسم ماله فيستخف بي .

قال : من هو هذا العاجز عن حفظ ماله ؟

— : هو انت

فقهقه الامير ضاحكاً . لأنه عرف عندئذٍ ان ابن عبادة غاضب لكرامته .. لكن ضحكه اخرج الفتى عن حده فجرد سيفه .. فوقف عدوان بين الاثنين وهو يقول : مولاي .. ماذا تفعل يا مولاي ؟

قال : أجرد سيفي ليستعين امير صوفة بسيفه .

فأجابه زياد وهو هادىء : لو رأيت معي سيفاً ايها الجبان لما قدرت على حمل هذا الذي بيدك . اضرب اذا استطعت .

فحاول ان يدفع عدوان بيديه فلم يقدر .

وعدوان يصيح ويستغيث ، ليس عن خلق طيب وعفة نفس بل كان يخاف زياداً على مولاه .

وزاد الامير هياج الفتى اذ قال : أتضرب وانا راكب ؟ انـك ان فعلت لم يبلغ سيفك قدمي ..

وعندئذٍ وقع عدوان على الارض وهمّ جبير بأن يضرب

فدوى في الساحة صوت رجل يقول : ارجع سيفك الى غمده ايها النذل .. والقبل فارس لا يجاوز العشرين وهو يردد ذلك الكلام .. فلما وقع نظره عـلى القوم . قال : ماذا أرى ؟ أمير صوفة ؟؟

فقال الامير : ليست الغرابة ان ترى امير صوفة على فرسه . بل الغرابة ان ترى في ميادين مكة ذئاباً خاطفة .

قال : ما كان الذئب ليقدم على الاسد .. هذا سيفي يا مولاي .

قال : ابقه في يدك فلا حاجة لي اليه الآن . اضرب يا جبير .

قال : لقد اصبحتما الآن اثنين وسنلتقي ..

ـ : ولكن سيفك كان يحصد رؤوس الرجال من بني ثقيف . أتكرّ عـلى الف وتفر من رجلين ؟

ـ : يكفيك الآن ما رأيت وما سمعت .

قال : سمعت هذياً ورأيت غدراً . وانت الآن تلعن الاقدار التي ارسلت الينا هذا الفارس والا لطعنتني بخنجرك من الوراء .

فقال الفارس : ورب الكعبة لئن رفع يده بالسيف لأجعلنّ جسده قطعتين على ظهر فرسه .

فتكلف جبير الابتسام وادار ظهره يريد ان ينصرف .. وكان عدوان

يضطرب من الخوف ، فقفز زياد الى الارض ووقف في وجـــه الفتى قائلاً له : أتنصرف وقد لا نلتقي بعد الآن ؟

– : بل أراك بعد أيام يا ابن كعب .

– : ولكن ليس لي على ذلك صبر .. ونظر الى الفارس قائلاً : قل لي اولاً من انت ؟

قال : جئت يا مولاي عطيك سيفاً على أمل ان لا اقول لك من أنا .

– : أتجود عليّ بسيفك وتبخل باسمك !

– : أما السيف فلكي انقذ به حياة الأمير . واما اسمي فاذا بحت به جرّ عليّ وعلى قومي العار .

– : لماذا ؟

– لأنك اذا عرفته عمدت الى المكافأة وانا لا اريد ان تعطيني ثمناً لمروءتي وشرفي ..

قال : ومن هم قومك ؟

– : قومي أهل المفاخر والامجاد .

– : في مكة ؟

– : نعم في مكة .

فدمعت عينا زياد لهذا الخلق العالي ثم قال : اذن سأرسل وراءك العيون حتى اعرف من نت .

قال : سأحتجب والله ان قدرت وراء غيوم السماء كي لا تراني .

– : افعل ما يطيب لك . ولكن أتعرف هذا الرجل ؟

– : انه ابن عبادة وهذا مولاه من اليمن .

– : ولكنك لا تعرف شيئاً عنه ؟

– : لقد عرفت الآن انه غادر وجبان وهذا يكفي . اتريد يا مولاي ان تطلعني على سبب غدره ؟

: قال‌ما أردت غير هذا فاسمع : لقد أراد ابن عبادة ان يتزوج حبّى بنت حليل فأبى ابوها ان يزوجه :

فقال جبير : بل هي التي أبت . وحاول مرة ثانية ان ينصرف فقال له : احذر ان تنقل من هنا قدماً .

ثم قال: وأراد ان يتزوج ابنتنا ليلى فكرهنا ان نجعله لنا صهراً. أتعلم لماذا؟
- : لا يا مولاي .

- : لان المال الذي ينفقه على لذته ولهوه‌مال حرام تركه له أبوه من السرقة وقتل الابرياء غدراً كما أراد هو ان يقتل اميره الآن .

وجعل الأمير يروي الحادثة ووجه جبير يسودّ وعدوان يصغي الى تلك الحكاية الغريبة التي كتمه اياها عبادة وابنه . وقد ذكر في تلك الساعة ، ان عبادة عندما ذهب الى البحرين ذهب مقلاً ثم عاد منها بعد اشهر كثير المال .. وذلك ما يدعوه الى الوثوق بقول زياد . لكنه يحب سيده الذي ربّاه ولو كان من الأبالسة .

حتى قال الامير :
وكان جبير هذا مع أبيه ليلة غرس خنجره في صدر البريء . فحفظ مثالة الغدر . وقام من ساعته فحمل الذهب المسروق . وما برح محتفظاً به يجر اذيال همته الى الآن .

قالها الأمير وهو يحدّق الى السارق . غير ان هذا كان جباناً بل كان نذلاً فلم يجرد سيفه ساعة لا يغسل عاره الا الدماء .
ثم هزّ الأمير يده قائلاً : اين سيفك لا يبين له أثر ؟
- : هو هذا
قال : أتدافع عن أموالنا ولا تحسن الدفاع عن نفسك ؟
- : كان عليك انت ان تحسن الدفاع قبل ان تستعين بالفتيان الغرباء .
قال : ألم ترَ ان هذا الفتى أقبل يعرض عليّ سيفه دون ان يمدّ اليك يداً ؟

ولكنك خفت من السيف وانت تحاول الفرار منذ ساعة ولا تقدر عليه .

فرفع رأسه وقال : الموت خير من الذل يا ابن كعب .

– : أجل ، فلا خير في حياتك يا ابن السارق . وعمد الى سرج الجواد فنزع ركابه وهو يقول : أخشى اذا رأيت السيف بيدي ان ترتجف يدك فيسقط سيفك . لأجل ذلك سأجعل هذا الركاب ترساً دون ان يكون معي سيف .. وتضربني ثلاثاً يا قاهر بني ثقيف في اي موضع شئت .. فان قتلتني فلك علي العهد ان قومي لا يطلبون بدمي ، ومولاك اليمني وهذا الغريب يشهدان . وان سلمت اعطيتك الركاب وضربتك بسيف الفتى ضربة واحدة ودمك هدر .. فماذا تقول ؟

فصاح الغريب قائلاً : ذلك كثير يا مولاي .

– : لا ورب الكعبة سأفعل هذا ليعلم اللص ان ابن كعب غير من لقي من رعاة بني ثقيف . سيفك يا جبير .

فجحظت عينا عدوان من الذعر .. ان مولاه مقتول على الحالين . اذا ظفر بزياد قتلته صوفة التي لا تحترم عهداً ولا تصغي الى احد. وان لم يظفر ضربه زياد ضربةً لا تضيع .. فصاح كما صاح الشاهد الآخر يقول : اصفح ايها الامير فابن عبادة من قومك .. فلم يبالِ زياد بما سمع .

– : اضرب يا جبير ..

فأهوى له جبير بالسيف فأصابت الضربة الركاب وتثلمت الشفرة .

فقال : الثانية .

فتراجع الفتى الى الوراء وهو يقول : لقد خسرت سيفي .

فمدّ الأمير يده الى الفتى الاخر وتناول سيفه فاعطاه اياه قائلاً : خذ فاضرب بسلاح خصمك . وبدون ان يتردد ذلك النذل ، خطف السيف خطفاً وعاجله بضربة لولا مهارة زياد ورباطة جأشه لفلقت رأسه .

ولشدة الصدمة سقط السيف من يد جبير .

فتناوله صاحبه ورده اليه وقال : ورب الكعبة لو ضربت زياداً الف ضربة لما اصبته بواحدة .. خذ واحذر ان تضيع الثالثة .

فضرب بعنف وهو كالجمل الهائج لا يرى ما حوله . ولكنه لم يضرب الا الحديد .. فقال زياد عندئذٍ لقد جاء دوري الآن ايها المغرور فاوص بما تشاء .

وأعطاه الركاب ثم قال : لو لم تكن غادراً لقتلتك بسيفك المكسور . ولكني لا أضرب بسيف غادر . أعطني هذا وادفع بالآخر ..

وعندما تناولا السيفين . وهم الامير بالضرب . اهوى اللئيم بضربة أخرى اخذها زياد بالسيف وصاح به قائلاً : لقد ضيعت صناعة ابيك يا سارق .. وفي تلك اللحظة ابصر ابن عبادة الموت بعينيه .. وارتفع صوت عدوان يستغيث ويستغفر ..

اجل . كان الموت في سيف زياد . لا يستطيع جبير ان يفر منه الا اذا استطاع ان يطير في الفضاء .. غير ان ذلك السيف كان سيف نبيل فلم يخرج الموت من حده . ولم ينشب مخالبه في عنق الغادر .. ان امير صوفة . لا يريد ان يقتل الفتى . بل يريد ان يريه ويري خادمه اليمني عاقبة ذلك الغرور ، وهو لو اراد قتله لأمر احد خاصته بان يأتيه برأسه دون ان يسأله أحد عما يعمل ..

امرّ سيفه بين سيف جبير وبين الركاب ووضعه على رأسه قائلا :
اعلم الآن ان حياتك بيدي وقد وهبتها لك فقال : بل اقتلني فانا ابغضك ولا اطيق ان أراك .

فأجابه قائلا : ان الشريف القوي ، لا يقتل الجبان .. ضع سيفك المكسور في غمده واحتفظ به الى يوم آخر تنازل فيه بني ثقيف ، وانت يا عدوان كن شاهداً على ما رأيت يوم تسأل عنه ولا تنس .. وانصح لمولاك بأن يتزوج أمة لا حرة .

فرمى ابن عبادة الركاب ولم يعتذر . ومشى الى فرسه وهو ساكت . يريد ان يركبه للرجوع الى مكة .

فكبر الامر على زياد وظهر الغضب عندئذٍ في عينيه .. ان سكوت الفتى عن الاعتذار والشكر ، وان كان جنوناً ، مظهر من مظاهر الاستخفاف الذي لا تطيقه نفس الامير فقال : قف يا جبير فاسمع ما اوصيك به . لقد غفرت لك الآن على رجاء ان ينفعك هـذا الغفران فاذا نفسك الصغيره لا تعرف شيئـاً مما فعلت ..

فقاطعه قائلا : لو لم تخف عاقبة قتلي لما عفوت .

قال : ايثور الحجاز وتسقط السماء عـلى ارضه اذا قيل فيه ان زياداً قتـل ابن عبـادة ؟

— : وهل تظن ان الحجاز لك وليس لغيرك فيه اتباع وأنصار ؟

قال : انصارك كثيرون ولكن لا يخافهم الناس .

— : هم أصحاب السيوف التي لا تغمد ..

— : بل يغمدونها في صدور الابرياء تحت حجب الظلام ليسرقوا اموالهم !

قال : استرجع عفوك فلا اريد ان تكون الحياة منك .

— : لقد وهبت الآن فلا ارجع عما فعلت .. ولكن أصنع شيئاً آخر تهيج له صدور رجالك أصحاب السيوف .

قال : هات .

قال : ستنصرف الآن الى منزلك فتبيت فيه الى الصباح .

فجعل المجنون يبتسم وهو يصغي اليه .

ثم قال : فاذا طلعت الشمس فاجمع كل مـا تركه لك ابوك من متاع ومال واترك مكة على أن لا تعود اليها وأنا حي .

— : وان لم افعل ؟

قال : وحرمة البيت الذي بناه اسماعيل . ورأس كعب وليلى . لئن غربت شمس اليوم الثاني وأنت في مكة لأضربك بالسوط على مرأى ومسمع من العشيرة حتى تلفظ الروح ولأرمين جسدك لكلاب الحي . يميناً صادقة لا ارجع عنها ورب الكعبة . أسمعت يا عدوان ؟ ليس لك في هذا عذر ولا نسمع فيه رجاء او شفاعة . انصرفا الآن .

فارتجفت ركبتا جبير عند الركوب .

فقال زياد : ساعد مولاك ايها اليمني ليعود الى ظهر فرسه .

وأومأ اليهما بالذهاب .

فطار فرس جبير حتى حجبه الجبل القائم وراء الميدان وحجب جبيراً عن العيون . وعدوان يمشي خطوة خطوة وهو مطرق .

وعندئذٍ بكى الفتى المجهول وجعل يكفكف دموعه .

فاستغرب الامير بكاءه وسأله قائلا : أتبكي يا بني ؟

- نعم فخير ما اصنعه في هذا الموقف ، البكاء .

- : واي شيء يبكيك ؟

قال : الكبر والعز اللذان رأيتهما الآن .

قال : ان لم يكن سيد القوم كبيراً ضاعت هيبته وضاع رأسه في ساعة انجود علي الآن بما بخلت به من قبل ؟

- : لا يا مولاي اني من قوم اذا قالوا صدقوا .

- : ومتى تعود الى الحي ؟

قال . عندما يسدل الليل حجابه .

- : بل تنصرف الآن وانا أراك .

قال : لقد خفت جبيراً عليّ يا مولاي ؟ فاعلم ان هذا الفتى اضعف من ان يمد اليّ يداً .

قال : ان الذي يشهر سيفه في وجه سيده لا يعفّ عن شيء .

– : وهذا الذي يخاطبك الآن لا ترتفع نحوه يد ابن عبادة حتى يقطعها بهذا الحسام .
قال : استحلفك بشرف قومك ان تذهب الان .
– : اقسم برأس الأمير اني لا اخطو من هنا خطوة واحدة الا اذا مشيت امامي وسرت وراءك .
قال : كلانا يريد ان يحمي الاخر من سيف الغادر .
– : أجل وحياة الامير اثمن من حيـــاة فتى لا تعرفه مكة . اذهب يا مولاي وخذ سيفي .
قال : سنقابل جبيراً بالنعل لا بالسيف . واخذ يتفرس في ذلك الوجه حتى طبعت صورته في ذهنه .
ومد يديه فضمه اليه وقبّل رأسه . ووثب الى ظهر الجواد فلوى عنقـه . ومشى في الطريق الذي سلكه قبله ابن عبادة . وقبل ان يدور خلف الجبـل التفت الى الوراء فرأى الفتى على فرسه لا يبعد الا بضع خطوات .
ولكنه عندما أقبل على مكة . كان الفتى قـد اختفى ولم يترك له اثراً . فظل سائراً وهو ينظر الى ما حوله عله يرى ابن عبادة ومولاه فلم يرَ احداً فقصد منزله وهو يفكر في الفارس الغريب .
وكان أبو زياد في فراشه وعبدالله بين يديه وهو يقص على ليلى اخبار البيت الحرام وكيف شيدوه .
فلما أقبل زياد قال له أبوه :
ألم تمرّ بسادن الكعبة ؟
– : لا .
قال : لقد طال غيابك فحسبت انك زرته .
فابتسم قائلاً : كدت ازور القبر .
فذعرت ليلى . وحدّق الشيخ الى وجه ولده فرأى دلائل الغضب ، فقال أتمزح يا زياد ؟

- : بل أنا جاد يا مولاي . رآني ابن عبادة في ميدان مكة وشهر عليّ سيفه ولولا فتى كريم الأصل لم أرَ وجهه من قبل لقتلت .

فاستولت الدهشة على الجميع وسألوه ان يقص عليهم ما جرى .

قال : كان علينا ان نزوج الرجل بليلى ليرضى والا فالموت يكن لنا جميعنا في ثوب جبير . وجعل يروي الحادث وعينا ابي زياد تلمعان كعيني النسر الى ان قال : وقد امهلته يوماً واحداً ليغادر مكة والويل له ان لم يفعل فقد اقسمت اني سأقتله ضرباً بالسوط امام الناس .

ففكر الشيخ ملياً ثم قــال : سيكون لهـذا الخائن شأن كما قلت لعبدالله من قبــــل .

قال : واي شأن للثعلب يعوي في البر وهو لا يجسر على دخول الحي ؟

قال : لو جاهر بالعداوة وهو ظاهر لما خفناه . ولكنه سيستعين بالحيــلة والغدر من وراء الستار .

- : بل لا يجرؤ غداً على البقاء في مكة ساعة واحدة بعد غروب الشمس وسترى . اصغ يا عبدالله الى ما اقول . تذهب غداً عند الغروب فتدور حول بيت جبير ثم تطوف في مكة . فاذا وقع نظرك على هذا اللص او على فرس من رفقه ، فانقل اليّ حالاً ما رأيت .

قال : اصفح عنه يا بني .

قال . لا تذكر الصفح يا مولاي فقد حلفت بالبيت وبرأسك ورأس ليــلى اني لــست براجع .

- . اذن ليمت فموته خير لنا وللحي من حياته . اني اتمنى ان يراه غـــــداً عبدالله .

قال . وبعد ذلك تبحث عن ذلك العربي النبيـــــل الذي عرض على مولاك سيفه وانقذه من الموت .

قال . صفه يا مولاي .

قال . ربعة في الرجال . أسمر الوجه كبير العينين . له الجدائل السود يرخي بعضها على صدره وبعضها على كتفيه .

– : تلك صفة معظم فتيان العرب يا مولاي .

– : عندما ترى فتىً يشبه فمه فم الحسناء . واذا نظر اليك جذبتك اليه نظراته الساحرة ، فقل هذا هو ..

فخفق فؤاد ليلى الذي لم يخفق من قبل .. ان الذي انقذ اباها جميل الوجه ساحر النظرات. افيخفق قلبها على مروءته ام على حبه؟ وهل احست بما احست به عن شعور بالمعروف . ام عن عاطفة عذبة اذا استيقظت في الصدر هزت القلوب ؟

ان ليلى .. ليلى الصغيرة لا تستطيع أن تعرف اسباب هذا الاضطراب .

ثم قال زياد : وان رأيته فلا تتركه. امش وراءه اذا مشى . واذا كان راكباً فرسه فتعلق بذيل الفرس حتى تعلم اصله وفصله . اني لا استطيع ان انسى ذلك النبل وذلك السحر اللذين رأيتهما فيه .

– : ولكنه قال لك انه سيحتجب

قال : ايحتجب مثله في الاكواخ والخيام فلا يخرج منها في شأن له في مكة ؟ انه لايستطيع ذلك ، فافعل ما امرتك به واحذر ان يفلت من يدك .

وكانت ليلى في تلك الساعة تحلم .. تحلم وهي في اليقظة ؛ وقد استسلمت الى ذلك الشعور الخفي وما فيه في من امل طائش ولذة غريبة .

اجل ، كانت ليلى غائصة في بحر الاحلام ، وعندما كان ابوها يفكر في قاتله وفي منقذه ، ويأمر خادمه بالبحث عن الاثنين كانت هي تفكر في ذلك المنقذ وحده ، دون ان يستحق ابن عبادة وان كان خطراً على زياد شيئاً من التفكير

وقد بدا لها وجه ذلك الفتى الغريب جميلاً فتانــاً . ورأته ، بقوة التصور والخيال ، احسن فتيان العرب واكرمهم محتداً . وهي لا تخجل من احـــد اذا سألت عنه . ان الاعتراف بالجميل وحده . يدعوهـــا الى مثل ذلك السؤال ، فقالت لأبيها : أواثق انت بان الفتى ليس من قومنا ؟

قال : وهل رأيت اميراً لا يعرف فتيان قومه ؟

– : أوليس من خزاعة ؟

– : اعرف معظم شباب خزاعة فلم أره بينهم قبل اليوم .

– : انه اذن من بني كنانة النازلين في الشعاب والجبال

قال : اولئك اشراف العرب وقد يكون منهم .

قال عبدالله : سأطوف في احيائهم فأراه .

قال : انه يعرفنا جميعاً على مـــا رأيت . فاذا ابصرك في حيه عرف الغاية واستخفى .

قالت : يظهر انه يخرج كل مساء الى ميدان مكة كما تفعل انت يا مولاي فاذا كان هذا فقد عثرنا عليه ..

قال : ولا تنسَ الميدان يا عبدالله .

- : ولكنك يا أبي لم تصف فرسه .

- : فرس حمراء في جبهتها خط ابيض كالهلال ..

فتنهدت قائلة : والافراس الحمر كثيرة في الحجاز ..

قال : وماذا أصنع يا ابنتي وانا لم أرَ غير ذلك .. ثم وضع يده عـلى جبينه وقـــال :

لقد ذكرت الآن .. ان في ابهام يده اليمنى يا عبدالله أثر جرح مستطيـــل يبدو للناظرين الى تلك اليد..فأشرق جبينها وهي تقول : اما الآن فقد احسنت الوصف وصاحب هذا الأثر لا يضيع .. ثم قالت لتستوثق : أحفظت اوصــاف الفتى يا عبدالله ؟

قال : ليست بالاوصاف التي تتعب الذاكرة . لقد عرفتها كما ذكرها مولاي وسأعرف صاحبها بعد حين ..

فقال ابو زياد : ابحثوا عن جبير قبل ان تبحثوا عن الآخر .

قالت : وما ضرّ عبدالله لو بحث في وقت واحد عن الاثنين .

فاجابها وهو هادىء : ننجو اولا من الخطر ثم نفعل بعد ذلك ما نشاء . فلم ترد ان تلج في ذلك الطلب . لئلا تطلّ عاطفتها من عينيها الذابلتين .

وكانت تلك العاطفة كما رأيت اغرب ما في القلوب الحساسة من اسرار .

ورقد القوم . على امـــل ان يستريحوا في اليوم الثاني من ذلك النذل الذي يريد ان يتزوج ليلى بقوة السيف ..

* * *

غربت شمس اليوم الثاني . وعبدالله لم يجد في مكة اثراً لابن عبادة .

وقد قيل له ان الرجل غادر منزله في الليل الماضي ، فقد رأى الناس رعاته يسوقون خيله ومواشيه في ذلك الليل متجهين نحو الشمال .. فقال في نفسه . لقد آثر ابن عبادة الخروج من مكة يستره الظلام . ليستر خوفه .. وقد حفظ في ذلك حياته .

ومنذ ذلك اليوم . لم يروا له وجهاً كأن الأرض اخفته في جوفها مع مولاه اليمني .. مع انه في الحجاز لم يبرحه كما سيجيء .

وجـــار القدر من الوجه الآخر فلم يعثر آل زياد على الفتى المجهول الذي يبحثون عنه .. ومرّت على ذلك بضعة شهور حتى اقبل الشهر الحرام .

* * *

- ٧ -

باحت ليلى بكل ما جرى ، لحبّى بنت حليل ، وسألتها رأيها في ذلك الذي انقذ زياداً من الموت ثم توارى كأنه غير موجود .

فقالت : اما ابن عبادة فسيأتي يوم ترون فيه وجهه وتسمعون صوته. انه من اولئك الناس الذين لا يسكتون الى الابد. واما الفتى الآخر فاذا كان زياد صادقاً في وصفه فقد وجدناه .

- : وكيف ذلك ؟

قالت : لقد اقبلت ايام الحج وطوائف العرب جميعها من الشام والعراق واليمن والحجاز تحج البيت وتجتمع حوله .

- : نعم .

- : فاذا طاف عبدالله حول تلك الصفوف يوم تحج رآه بينها فلا يتخفى بعد ذلك .

قالت : انه رأي يا حبّى ولكن عبدالله أعجز عن ان يتبين وجوه الالوف من الناس . واصابع الايدي ليرى أثر الجرح على الابهام .

- : أجل . غير انه يستطيع ان يتبين السحر في العيون ، أفلم يقل ابوك ان عيني الفتى تجذبان الناظر اليه ؟

قالت : أفيكون وحده بين جميع العرب كبير العينين ساحر النظرات ؟

- : وفرسه والهلال الابيض على جبهته ؟

- : من يعلم اذا كان يركب هذا الفرس في ايام حجه . ماذا تقول يا عبدالله ؟

وكان عبدالله بينهما فقال :

سأعرف اي صف من صفوف العرب اختار للبحث عنه .

- : نعم فهو ليس من خزاعة كما يقول مولاي كما انه ليس من صوفة . فلم يبق الا هؤلاء المضريون بنو كنانة وفروعهم فهو منهم .

قالت حبى : اذا كان هذا فقد هان علينا الأمر وهؤلاء القوم الاشراف منزلون وراء الساحة متي تحيط بقصرنا بعداء عن البيت .

فبان الفرح في وجه ليلى وهي تقول : اذن ننتظر قدوم الحاج ليقوم امير صوفة بدفع ما عليه من الدين .

قالت : سيكون ذلك بعد خمسة ايام. أرأيت الحجاج يطوفون حول الكعبة يا ليلى قبل اليوم.

— : كنت أرى ذلك وانا صغيرة .

— : اذا طاب لك ان تري وفود العرب فتعالي مع عبدالله كل يوم . ومن وراء احدى نوافذ القصر نرى كل شيء .

فنهضت قائلة : الى اللقاء بعد خمسة أيام .

وترك الاثنان ـ ليلى وعبدالله ـ قصر سادن الكعبة والفتاة ترى امامها على صفحة الفضاء ، عينين ساحرتين ..

* * *

اجلس يا عبدالله واذكر لنا اسماء من تعرف من الوفود .

فجلس وجلست الفتاتان . في موضع يرون منه الحجاج . والوفود تمر من امام القصر ..

ثم قالت حبّى: ليس هؤلاء من مكة. انهم قوم يشمخون بأنوفهم وينظرون الى العلاء ..

قال : هذه صفة بني تغلب ..

— : وهؤلاء الذين يترنحون في مشيهم كالسكارى ؟

— : بنو عمهم آل ضبيعة .

وجعل يذكر اسماء البطون من ربيعة القادمة من نجد .

— : وهؤلاء يا عبدالله .

قال : اصحاب القلانس الطويلة الضيقة التي تشبه قلانس الفرس ؟ هؤلاء بنو اياد النازلون في سواد العراق .

ثم رأت قوماً تبدو على وجوههم آثار العز وعليهم ابراد اليمن . فقـالت : مـــن هم ؟

— : هؤلاء عمال التبابعة يا مولاتي ، بنو كندة . وهذه مذحج وراءهم .

ثم مرت بجيله وجذام وهمذان ؛ وعبدالله يصفها كأنه يقرأ انسابها في كتاب امامه لا ينسى منها قوماً .

ثم مرّ قوم ارتفعت قاماتهم واصواتهم فقـــال : القوم الذين تختلط اصواتهم عندما يمشون هم بنو تميم .

— : اما هؤلاء فقد عرفتهم. انهم بنو الأوس. وهؤلاء بنو الخزرج من يثرب بينهم اخوال ليلى . ثم اقبل بنو عبس وذبيان وجديلة وسعد وغيرهم من قبائل قيس عيلان فقالت ليلى :

يظهر ان بني كنانة لم يحجوا .

قال : ان لم يقدموا اليوم قدموا غداً .

ثم ظهرت وفود الشام فقالت :

أرى قوماً صبحت وجوههم وطالت اردانهم .

قال : هؤلاء اصحاب الدول الفاتحة . انهم بنو قضاعة .

واقبل بعدهم بنو كنانة ، فأشرقت الوجوه . فقـال : لقد عرفتم هؤلاء .. هؤلاء بنو كنانة . وهمّ بالنزول من القصر الى السـاحة ، فاستوقفته حبّى قائلة : اجلس حتى تمرّ جميع الوفود .

وبينا هم ينظرون الى القوم ، رأوا وراء الجميع رجلين . هذا كهل بلباس اهل مكة . والآخر فتىً بلباس اهل الشام ، وقد وضع احدهما يده بيد أخيه وهما ينظران الى قصر حليل . والكهل يومىء بيده الى هذا القصر . فقـــال عبدالله :

اما الذي وخط الشيب رأسه فقد عرفته .

فأجابته حبّى قائلة :

وانا اعرفه . هذا زهرة بن كلاب الكناني . ولكن من هو الآخر الذي تلوح على وجهه دلائل الشرف وهو ينظر الى الناس باستخفاف كأنه تبع ؟

قال : لا اذكر اني رأيت هذا الوجه من قبل .

قالت : انظر يا عبدالله . انظري يا ليلى ، عيناه سوداوان كبيرتان .. وفمه صغير كفم الحسناء . ولكن السحر من عينيه لا يصل الينا وليس معه فرس . لعله هو ! انزل يا عبدالله وانظر الى ابهامه ولو سحرتك عيناه .

قال : وهو ربعة في الرجال . لقد وجدناه . ووثب واثباً الى خارج القصر ، وكانت الوفود قد جاوزت الساحة .

ولم يبقَ فيها غير زهرة بن كلاب ورفيقه كأنهما ارادا ان تتقدمها جميع الصفوف . فخرجت حبّى وليلى الى الشرفة وهما سافرتان . لكن سهماً اصاب حبّى في قلبها . فان عيني الفتى نظرتا الى الشرفة فاخترقت النظرة ذلك القلب الخليّ الذي يهزأ بالحب والمحبين . وليس ذلك غريباً ، فالكثيرون من الفتيان والعذارى يسقطون في اشراك الهوى من نظرة واحدة .

فحولت وجهها الى ليلى كي لا ترى الرامي الساحر . ولكنها ما لبثت حتى تفرست فيه . ليس بالعينين فحسب بل بالقلب الذي بدأ بالاضطراب ، فرأت فتىً ليس في مكة مثله بتلك الصورة الجذابة ، وذلك الهدوء الذي ترسله ملامح وجهه ..

وليلى تراه اما قلبها فلم يخفق ، كما يخفق لتلك الصورة الخفية التي وصفها زياد . والفتى ينظر الى الاثنين . ويحادث زهرة بن كلاب برصانة وجلال ، ولا ولا يبدو على وجهه شيء . كأن حبّى وليلى ليستا موجودتين . مع ان عاطفة جديدة فيها عذوبه ولذة تحركت في صدره .

وكان عبدالله قد وصل . ولم ينظر وهو مارّ الا الى يد الفتى الشامي فلم يرَ اثر الجرح . فمشى بضع خطوات؛ ثم رجع وهو يحدق الى تلك اليد دون ان ينظر

الى الوجه . فلم يرَ ذلك الأثر . فتجهم وجهه ورجع الى القصر وهو يقول لليلى :
لا يا سيدتي ما وجدناه .

فقالت حبّى في نفسها : أما أنا فقد وجدته وعسى ان لا يضيع .

وفي تلك اللحظة مشى زهرة بن كلاب والفتى الشامي يريدان الكعبة .

فقالت لعبدالله وهي ترافق الاثنين بالنظر . وماذا تصنع الآن ؟

قال : أقف بباب البيت ريثما يخرج الناس وينصرفون الى مواضع نزولهم فاتبع بني كنانة .

قالت : وتتبع هذين الرجلين فتعرف ضيف زهرة .

قال : مهمة واحدة تكفيني اليوم يا مولاتي فلا استطيع بوقت واحد أن اقوم بقضاء المهمتين .

قالت : تسأل عن الضيف اولاً فتعرف اسمه ثم تذهب للطواف بمضارب كنانة لتعرف الآخر .

قال : وسأرى مولاي زياداً فأشاوره في الأمر .

قالت : اذا شاورته نهاك عن اللحاق بهذا الشامي الذي ليس له شأن معه فافعل ما قلته لك ولا تذكر شيئاً لزياد .. مريه بذلك يا ليلى .

قالت : ألم تسمع يا عبدالله .

– : سمعت وأطعت يا مولاتي فقد عرفت الغاية .

– : ماذا عرفت ؟

قال : رأيت حبّى بنت حليل ، وليلى بنت زياد . تبحثان عن فتى خلّاب المحاسن ساحر .. فوجدت حبّى فتاها اما انت يا سيدتي فلم تجديه وركض بخلة الفتيان يريد الكعبة . فضحكت الاثنتان . ونظرت احداهما الى الاخرى فاذا الخجل ينشر ظله على وجنتي بنت حليل .

* * *

كان الغريب يقول لزهرة وهما سائران : ان هذا القصر الذي رأيناه الآن أعظم قصور مكة .

قال : كما ان صاحبة اعظم رجال الحجاز كما ذكرت لك .

— : وتقول ان اسمه حليل بن حبشية ؟

— : نعم انتهت اليه حجابة البيت وهو فتى . وقد شاخ اليوم وهو يلي الكعبة وأمر مكة .

— : وقومه بنو خزاعة ؟

— : اجل اولئك الذين يلبسون في الحجاز الابراد اليمنية التي يلبس مثلها الكنديون .. انهم يحتفظون بلباس اجدادهم عرب اليمن كما سترى .

قال رأيت الكثيرين في عكاظ يلبسون هذه الابراد .

— : اما ابراد الخزاعيين فلها الخطوط السود والبيض وهي معروفة .

— : وماذا يفعل حاجب البيت ؟

فضحك زهرة قائلاً : لقد اقمت في بلاد الشام عمرك كله اي ثلاثاً وعشرين سنة فلا تعلم من أمر الحجاز شيئاً .. ان ابن حبشية يا أخي ملك الحجاز .. ولكن بدون تاج .

— : والعمال والجنود ؟

— : ليست الحال عندنا كما هي عندكم ! ان في الشام دولاً تغزو دولا وجنوداً تدك الحصون وتفتح الاقاليم . اما دولة الحجاز فتقوم بهذا البيت، بيت اسماعيل الذي تحجه العرب من أقاصي البلاد . وتخضع له الرؤوس المتوجة الجبارة التي اخضع اصحابها الارض .

نعم، انك ترى الملك في قصره تحف به قواده وعبيده وعتي العظمة والجلال

في مواكبه ، ولكنك تراه بباب الكعبة . امام حليل بن حبشية ذليلاً خاشعاً ينتظر ان يفتح له الباب هذا الخزاعي ليستطيع ان يسجد للآلهة .

واهل الحجاز كلهم جنود البيت ، اي جنود حليل . يطيعونه جميعهم كما يطيع اهل ملكهم وبالمال والدماء يفدون الكعبة وسادنها امير الامراء .

واما العمال ، اي رجال الدولة . فبضعة امراء يتولون امر الحج وهم سادن القوم ورؤساؤهم يخضعون جميعهم لحليل هو الرأس الأكبر .

انظر الى الوفود تدخل الكعبة وتخرج منها . ان غلاماً من الغلمان لا يدخل ولا يخرج بدون اذن حليل . والمال يكثر في جيوب بني خزاعة سلالة قحطان . ويقل في جيوبنا نحن بني عدنان سلالة اسماعيل .

فتمتم قائلاً : لأن الموت يبسط جناحيه فوقكم ايها الخاملون .. وقد خفض الفتى صوته فلم يسمع زهرة ما قال ، ثم سأله قائلاً :

واين يقيم قومنا بنو النضر ؟؟ .

: في الشعاب والجبال التي رأيت ، ان مكة بما فيها من قصور ودور ملك الخزاعيين والبكريين وبني صوفة . اشراف بكر يجمعون المال من الحاج والخراج من اهل الحجاز . واشراف صوفة يتقدمون الناس جميعهم من منى فلا ينفر احد منهم قبل ان ينفر سيدهم زياد بن كعب . أفلم ترَ ذلك الرجل الذي أخذ مع رجاله بناحيتي العقبة فوقفت الوفود وراءه لا يخطو واحد منها خطوة واحدة بدون امره ؟ هذا هو زياد .

: وانتم ؟ اي شيء لكم في بلدكم ؟

- : لنا ان ننسأ الشهر الحرام فنجعلها في الوقت الذي نشاء .

فتنهد قائلاً : كان يجب ان يكون لكم اكثر من ذلك .

قال : لو اقمت في الحجاز لرضيت بما رضي قومك .

قال : ولدت في مكة وسأمكث فيهـــا حتى يضمني القبر . اني وان كنت

نشأت في ربوع الشام احنّ الى وطني الذي لا اعرفه. واتمنى ان يزول هذا الفقر الذي اعانيه لأجل بلادي .

قال هذا وسكت وقد اسوّد وجهه ..

فضحك زهرة ثانيةً وهو يقول: لتجعل بلادك زاهية زاهرة كبلاد الشام !! وتبني فيها ملكاً واسعاً يجرّ أذيال العز. انها فكرة عالية أملتها عليك سماء الشام الصافية التي عشت تحتها .. قل لي ماذا تفعل بالمال اذا وهبته لك الاقدار ؟

فظل ينظر الى ذلك الجدار، الجدار العظيم الذي يحيط بالكعبة، وهو ساكت كأنه طائر في سماء الخيال .

فوضع زهرة يده على كتفه ليصحو . ثم قال له :

أتستعيد بالمال مجد بني اسماعيل ؟

فاجابه هادئاً : انك تهزأ بي لأني لا املك منه درهماً ولكن اعلم اني عندما املأ منه راحتي افعل ما اشاء . ورب الكعبة افعل ما اشاء . ثم قال وعيناه تلمعان . والالفاظ التي تخرج من فمه تقذف بها عاطفة قول تجيش في صدره : يا زهرة .. من هم الناس الذين كانوا أولياء هذا البيت قبل هؤلاء الخزاعيين ؟

— : هم جرهم .

— : وقبل هؤلاء ؟

فلم يجب .

فقال : كانوا أجدادك الذين يقيمون بعدهم في الجبال .

قال : ذلك من مئات السنين .

— : نعم . ومرّ السنين جعل بني معدّ او بني مضر . او بني كنانة ، ذرية اسماعيل ، تماثيل من حجر ، لا تذكر ماضيها ولا تشعر . واذ ذكرت ذلك الماضي فبالاستهزاء والسخرية كأن الاستسلام الى الخمول كل ما في الحياة من لذة ونعم ..

فحاول زهرة ان يسكته فلم يسكت . كأن قوة خفية كانت تدفعه الى

الاول .. اي فتى كناني ، بعد ان غلب بنو كنـــانة على امرهم ، اي فتى رفع صوته في الحجاز داعياً قومه الى استرجاع العز الذي خسروه؟انهم يشترون النوق والخيل . ويجمعون المال . وهم راضون بالنسأة التي انعمهم بها هؤلاء الخزاعيون.

قال : لقد اخذت خزاعة ولاية البيت بالسيف ..

— : كما اخذتها جرهم . وكما يأخذها بنو كنانة اذا اتحدوا .

— : اخفض صوتك فانت بباب الكعبة الآن .

فوقف الفتى ، وكأنه ذكر امراً كان قد نسيه فقال وهو يلتفت الى الوراء : ان في الحجاز جمالاً يا زهرة .

قال : لا يطيب ذكر الجمال الا للاغنياء .

— : ومع ذلك فنحن نذكره كما يذكر المرء هـــذه السماء التي فوقه . اي الفتاتين بنت حليل .

قال : أفلم ترَ الواحدة منهما اكبر من الاخرى ؟

— : بـلى .

— : ان الكبرى بنت سادن الكعبه والاخرى بنت زياد وليس لهذا بنون الا ليلى اما حليل فله ذكر يدعى المحترش .

— : والاثنتان مخطوبتان على ما أظن .

— : لا ! فهما لا ترغبان في الزواج كما تقولان وقد خطبهما الكثيرون من الاشراف فلم ترضيا . أتفكر اليوم في الزواج ؟

— ، اني يا اخي افكر في كل شيء وكأني لا أفكر في شيء .. ان الفتاتين جميلتان بل هما آية الجمال .

— : وغداً تخطب احداهما وينتهي الأمر .

قال : امزح ما طاب لك المزاح ولكن لا تستخف بي . أجـــل سأخطب احداهما كما تقول .

— : وانا سأخطب غداً بنت امرىء القيس ملك الحيرة او بنت بهرام ملك الفرس .. انك تخطب ولكن لا تتزوج ..

— : بل ينتهي الأمر بالزواج وسترى ..

قال : لقد تعب الامراء والأشراف فلم يتم الامر .

فبرقت عيناه قائلاً : ليس في الحجاز من هو اكرم مني نسباً . انا ابن كنانة.

— : اعلم ذلك ولكن القوم ارفع منك مقاماً ..

فنظر الى السماء وهو يقول : ألا ترى هذه الشمس ؟

قال : أراها .

قال : سأرفع اسمي ومقامي حتى أساويها في العلو .

وكانا قد أصبحا امام البيت ، فرأى زهرة ان يكف عن الكلام مع هـذا الفتى المجنون .

اما هو فسأله قائلاً : أهذا هو حليل الذي وصفته لي ؟

— : نعم ، وهو في جلاله كالملك على العرش . انظر الى الرؤوس تنحني له احتراماً في الدخول والخروج .

— : وهذا القائم الى جانبه يعبث ببردته ؟

— : هذا ولده المحترش الذي سيتولى امر الكعبة بعد ابيه . انه فتى أبله ينام بين زقاق الخمر ولا يعبأ بأمر البيت !

— : وكيف يسكت أبوه عنه ؟

قال : ليس لحليل هم الا المحترش ، هو يخاف أن يموت فتمتد الأيدي بعـده الى ولاية البيت ويضيع ذكره .

— : أي ان هذا الفتى لم يخلق ليسود الناس .

— : بل خلق ليسكر ، ويملأ مكة عيوباً وعربدة ، أدخل الآن .

قال : لقد غصت الكعبة بالناس فلا ندخل حتى يخرج بعضهم .

ومشى امام زهرة يدور حول الجدار الخارجي وهو يفكر في كل ما رآه .

* * *

هنالك غريبان يجب ان يتعرف عبدالله امرهما كما قرأت .

وعليه ان يبدأ برفيق زهرة بن كلاب ، قبل ان يبحث عن الآخر وذلك هو الرأي .

وكان يعلم ان ذلك الشامي سيزور البيت مع زهرة ، فتبعهما من بعيد وهو يرى الاثنين يتحادثان ، حتى دارا حول ذلك البناء العظيم ، فجعل يدور معهما وينظر الى ما ينظران .

وكانا قد رأياه .. غير انهما لم يظنا به سوءاً . لان زهرة يعرفه . وليس هنالك مجال للظن بمولى زياد . واستمرا ماشين الى ان تمت الدورة . فدخل زهرة متهيباً وهو جار الكعبة ولو شاء لدخلها كل يوم . اما الفتى فقد رفع رأسه كأنه يناجي الآلهة التي سيراها ويسجد لها في الداخل .

وقد ابتسم حليل لزهرة الذي حنى له رأسه وجعل يحدق الى الآخر وقد اعجبته صباحة وجهه ..

ودخل عبدالله .

وماذا ترى اذا دخلت ؟ ترى رؤوساً تلامس الارض .. وصفوفاً تروح ولجيء .. وطوائف من الخلق من جميع الاجناس ؛ هذا ساجد وهذا قائم على اقدام الاصنام . والصمت والجلال يسودان مقر الآلهة التي تحيي وتميت .

والداخل الى الكعبة ، ولو كان جاراً لها ، يضيع . انها مدينة فيها المقاصير والاروقة والدهاليز .. وفيها الاحرام ؛ تحرسها الآلهة . وتنتهي ببابها كبرياء الملوك وسلطانهم .

هذا يرجع عهده الى اسماعيل . وهذا من بقايا العمالقة ولاة البيت في قديم الزمان . وهذا يد جرهم وخزاعة فيه . حتى تمتلىء نفسك وتصفر في عينيك جميع بيوت العبادة وقصور الملوك .

هنا . على اقدام الصنمين . اساف ونائلة . تنحر الذبائح وتقرب القرابين وهنا . امام هبل . اعظم اصنام الكعبة . يضربون بالقداح لانجاز الأمور والوفاء بالنذور .

« القداح . هي السهام قبل ان تنصل » .

وتحت هبل . بئر فيها هدايا الامم والقبائل التي ترسل الى البيت .

وكان زهرة يصف لضيفه جميع ما يراه وما يعرفه . حتى سجد أمام هبل وروح الفتى تخاطب الصنم الاعظم . اي تدعو الله .

وقد رأى عند هبل سبعة اقدح فقال :

كيف يضربون بهذه يا زهرة ؟ لقد سمعت بني قضاعة في ربوع الشام يذكرون ذلك فلم أفهم شيئاً .

فنظر زهرة الى الوراء وكان الناس قد تفرقوا ولم يبقَ غير عبدالله الواضع رأسه على الارض . وفتى آخر يستر وجهه قناع اسود يشبه قناع المرأة التي تغطي به الوجه .

فقال وهو يخفض صوته : هذه تقوم مقام الحاكم الذي لا يرد له قول . انها تنطق من فم هبل

— : وكيف ذلك ؟

قال : كل قدح منها فيه كتاب . انظر هذا فيه كتاب العقل .

— : ومعناه ؟

— : معناه انهم اذا اختلفوا في العقل من يحمله منهم . عمدوا الى القداح فضربوا بها فمن خرج عليه قدح العقل اعترف الناس له به .

— : وهذا ؟

— : وهذا فيه « نعم » فاذا أرادوا امراً ضربوا ، فان خرج قدح « نعم » عملوا بذلك الأمر ، وهذا فيه « لا » فاذا خرج لم يفعلوا .

— : والاربعة الاخرى ؟

— : واحد فيه « منكم » وواحد فيه « ملصق » وواحد فيه « من غيركم » والآخر فيه المياه .

قال : اشرحها يا زهرة .

قال : اما المياه فاذا جاءوا ليحفروا لها ضربوا بالقداح كلها وفيها هذا القدح فحيثما خرج عملوا به .

وعبدالله يرفع رأسه من حين الى آخر كأنه يسأل هبل الرحمة به وبقومه .

وعلى رغم دهائه وصبره لم يعرف اسم الفتى لأن زهرة لم يدعه به ولم يذكره في حديثه ، ثم أومأ زهرة الى رجل جالس في آخر الرواق قائلاً : الرجل الجالس على الارض وظهره الى الجدار هو صاحب القداح .

— : اي الذي يضرب بها ولا يفعل ذلك غيره ؟

— : أجل وهو من اشراف الناس .

— : وما هو قدح « منكم » ؟

قال : اذكرها لك جميعها الآن . انهم اذا أرادوا ان يختنوا غلاماً او يدفنوا ميتاً او شكّوا في نسب احد منهم . حملوه الى هذا الموضع ، امام هبل وحملوا معه مئه درهم وجزوراً « مـــا يجزر من النوق او الغنم » فاعطوها صاحب القدح . ثم يقربون صاحبهم الذي يريدون به ما يريدون ثم يقولون لهبل :

يا الهنا . هذا فلان ابن فلان أردنا به كذا وكذا فأخرج الحق فيه .

وعندئذٍ يضرب صاحب القداح . فان خرج عليه « منكم » كان وسيطاً وان خرج عليه « من غيركم » كان حليفاً . وان خرج عليه « ملصق » كان على منزلته منهم لا نسب له ولا حلف . وان خرج في شيء سوى هذا مما يعملون به «نعم» عملوا به . وان خرج «لا» أخروه عامهم ذلك حتى يأتوا به مرة أخرى .

— : اي انهم ينتهون في أمورهم الى ما تخرج به القداح .

قال : في الامور التي تحمل الشك كما ذكرت .

وعندئذٍ رفع عبدالله رأسه مرة أُخرى .

وكان الفتى المقنع قد نهض ومدّ يده اليمنى يصلح بها قناعه . فخيل الى عبدالله ، على النور الضعيف في جوف الكعبة انه يرى أثر جرح مستطيل على الابهام ، فارتعش ارتعاشاً ظاهراً كأنه رأى ما يخشاه . ونسي زهرة وضيفه وهمّ بالنهوض ليلحق به . ولكن صاحب القناع نظر اليه في تلك اللحظة ، فارتعش مثله ، ومشى بخطوات هادئة الى موضع الصَنَمَيْن ، أساف ونائلة ، وهو يظهر انه خالي الذهن لا يعبأ بمن حوله .

فقام عبدالله وهو يقول في نفسه : اما الآن فقد وجدناك .

ثم جعل يفكر . هذا أثر الجرح قد رآه . والفتى ربعة كما وصفه زياد .. ولكن آثار الجروح كثيرة في ايدي الفتيان اللاعبين بالسيوف في الصباح وفي المساء . وقامات الناس تتشابه حتى لنجد الكثيرين في قوام واحد كأنهم في قالب . وقد يكون هذا المقنّع كهلاً لا فتىً وهو يظنه صاحب مولاه فيجب إذن ان يرى جميع اوصافه . منها العينان الساحرتان . والفم الذي يشبه فم الحسناء . ومنها الفرس الحمراء ذات الهلال الأبيض .

وعندما غاص في لجة التفكير ، وأصيب بشيء من الذهول . كان رجل القناع قد توارى . واختفى بين تلك المقاصير . فأرسل نظره الى الجهات الأربع فلم يره ، فركض في دهاليز الكعبة كما يركض الخائف. حتى وصل الى الصحن الخارجي . فاذا الجماعات المتراصة تخرج صفاً صفاً . ولم يستطع لكثرة الناس واندفاعهم ان يتبين الوجوه ..

ولكنه اراد الخروج في تلك الساعة ولو داسته الاقدام ..

لقد قام في ذهنه ان الرجل باقٍ في الكعبة اذ ليس له جناحان ليطير بهما الى الساحة . وان قناعه سيرشده اليه ولو كان بين الف ، وقد فات عبدالله الذي خبر الزمان ان صاحبه نزع قناعه فلم يبقَ ما يدلّ عليه .. وبين افكاره

وظنونه ، ضاعت آماله .. اذ لم تقع عينه على ذلك القناع الأسود بعد ذلك . على وقوفه امام الجدار وتفرسه في وجوه الزائرين .. وفي ذلك الحين عرف انه ابله . وان المقنّع اكثر دهاءً منه .

ولكن ماذا ينفعه ذلك وقد ضيع تعبه؟ وحبّى وليلى تنتظران رجوعه وهو عارف كل شيء ..

وكادت الخيبة تفقده هداه ، لو لم يرَ زهرة بن كلاب وضيفه بالباب .

وقد استولت الدهشة عليه ، عندما رأى الاثنين يقبّلان يد حليل وهو يبادلهما .. فقال في نفسه اذا كنت قد ضيعت صاحب ليلى فلم اضيع صاحب حبّى !...

ان سادن الكعبة نفسه سيروي لها كل ما يعرفه عن هذا الشامي .

* * *

- ٩ -

مكة في واد . تشرف عليها الجبال من جميع الجهات ..

والوادي حار في الصيف . ان ليله طيب بما فيه من نسيم عليل .. فاذا اراد الحجاج ان يمكثوا في مكة بضعة ايام انتشروا فيها على عرض الوادي يقضوا مناسكهم وينتهي الامر الذي قدموا من اجله .

وكانوا يقولون لما نزل عن المسجد الحرام ، المسفلة . ويسمون ما ارتفع .. المعلاة .

وللكعبة حرم واسع هو بقعة من الارض كبير فيها الاشجار الكثيرة لا يجوز لك ان تقطع شجرة منها كما انه لا يجوز الصيد في ذلك الحرم ، فاذا انتهيت من تلك البقعة فأنت في الحلّ .

وكان بنو كنانة يقيمون في مكة نهاراً . فاذا امسوا خرجوا من الحرم لا يبيتون فيه ولا يريدون ان يبنوا بيتاً مع بيت الله ، فهم اهل عبادة كما ترى

واصحاب عقيدة وايمان.. وكان عبدالله يعرف الموضع الذي يضربون فيه خيامهم ويقوم فيه حيهم ، ولكن .. مـاذا يفعل وقد اقبل المساء .. وظلام الليل يمنعه من ان يتبين الوجوه .. ايذهب فيبيت في حيهم حتى اذا اصبح قـام يبحث عن الضائع ؟

ولكنهم اذ رأوه انكروه ..

ام يصبر حتى يعود الناس في اليوم الثاني الى الكعبة فيفعل غداً مـا فعله اليوم ويعثر على ضالته ؟

ان الصبر هو الرأي . وعليه ان يمر بقصر حليل فينصرف مع ليلى الى المنزل ويدعوه الى الانتظار،وعلى حليل نفسه كما قرأت ان يقص على حبّى خبر ذلك الغريب المـاثل الآن بين يديه .. ومشى على هـذا الامـل حتى دخل القصر والاثنتان تنتظران .

وقد عرفتا من وجهه . انه لم يبلغ الغاية .

ماذا جرى يا عبدالله ؟

قال : سيروي لك غيري يا مولاتي حكاية الفتى الشامي الذي سحرك جماله .

فأجابته حبّى قائـلة : كذبت يا لعين فنحن لا رغبة لنا فيه والشام تبعد شهراً عن الحجاز .

— : اعلم ذلك وقد اكون كاذباً ..

قالت : ومن هو الذي يقص علينا حكايته ؟

قال : ورب الكعبة لا أقول كلمة حتى تعترفي لي .

— : بمـاذا ؟

— : بالعاطفة التي سعرت في هذا الصدر نار الغرام .

فابتسمت قائلة : ايهبط علينا هذا الغرام من السماء يا عبدالله ؟

قال: بل ارسلته عينان سوداوان والعيون يا مولاتي كالسهام تخترق الصدور .

— : اترك المزاح الآن واذكر ما رأيت .

قال : اتحبين ذلك الشامي الفتان ؟.

— : أجل .. واعترف انك اخبث الناس .

قال : اما الذي ينقل اليك خبر صاحبنا فهو ابوك نفسه .

- : أبي ؟ !

— : نعم أبوك سيد هذه الديار .

قالت : اذا عرف سادن الكعبة شيوخ الشام فهو لا يعرف فتيانها .

قال : رأيته الآن يخاطب زهرة بن كلاب ويبتسم له .

- : واذا فعل ؟

— : اذا فعل فقد عرف الغريب الذي معه .

— : واين جرى هذا ؟

— : بباب الكعبة والثلاثة الآن يتحادثون .

فاشرق جبين حبّى واهتزّ قلبها العاشق .

وكانت ليلى ساكتة ، فنظر اليها وهو يقول : اما الآخر ؟

— : فقد ضيعته . فارتجفت شفتاها وتمتمت قائلة : ولعلّ رأيته ؟

— : نعم يا مولاتي كان ساجداً على قدمي هبل وكنت الى جانبه .

— : وفيه الصفة التي ذكرها أبي ؟

قال : لقد قنّع وجهه يا مولاتي فلم أره ولكني رأيت اثر الجرح على الابهام .

— : وبعد ذلك ؟

— : وخيّل اليّ انه يعرف غرضي فقد اختفي داخل جدر الكعبة وأنا وراءه كأن في تلك الجدر ابواباً سحرية يفرّ منها الناس، وفتشت بعد ذلك كثيراً فلم أرَ له اثراً ولم اعلم كيف احتجب عن العيون !

فاغتصبت ضحكة قصيرة وهي تقول : اما انا فقد عرفت الآن امرين اذكرهما لك : الاول انك سيد المغفلين بدوّن جدال .

— : والثاني ؟

– : وأما الثاني فان الفتى قبل ان يختلط بالناس نزع قناعه فصار مثلهم وانت لا تعرفه الا بجرح يده وهكذا قدر ان يهزأ بك .

– : ولكن سأقبض عليه غداً فلا يضيع .

– : ومن قال لك انه سيعود ؟

– : الناس جميعهم يزورون البيت اكثر من مرة .

– : واذا فعل ؟ فهل انت واثق بأنك ستراه .

– : نعم ولو كان في جوف الصنم الاكبر .

فتنهدت قائلة : سنرى ماذا تفعل غداً . قم نرجع الى القصر ولا تنسَ ان تذكر ما رأيت لأبي زياد ، ثم قالت لحبّى : وانت ستقصين علينا غداً ما يقصه عليك ابوك في هذا الليل .

وقامت فخرجت وعبدالله يمشي امامها وهو مطرق . وهي مثله تفكر في صاحب القناع الذي رآه .

* * *

– ١٠ –

لقد خاطبه ابي بباب الكعبة وعرف من هو ، هكذا يقول عبدالله .

اذن فليس في الحجاز من يستطيع ان يصف الفتى كما يصفه سادن الكعبة . وسأسمع ابي الليلة يروي لي خبره دون ان يعلم ان لي شأناً في هذا ..

وذلك ما كانت تقوله حبّى وقد استيقظ في صدرها الحب وامتلأت نفسها بهجة وفرحاً . ولكنها أرفع من ان تسأل اباها عن ذلك الحبيب .

ان في السؤال ذلاً لحبّى ، وهي لا تريد ان تبوح بذلك الحب قبل ان تمهد جميع اسبابه . وقد تخدمها الاقدار فيذكر لها حليل اخبار يومه قبل ان تسأله . وان لم يفعل ؟ ان لم يفعل عمدت الى الحيلة واستدرجته الى الاقرار لتعلم اولاً من هو ذلك الغريب الذي رماها بسهام عينيه .

وبينا هي تفكر في هذا ، وقلبها يرقص على انغام الحب . اقبل ابوها مع المحترش . ووراءهما بعض العبيد الغلمان ، وقد ابتسم حليل وافترّ ثغره . وهو يهمّ بالكلام كأن في صدره سراً لا يطيق ان يكتمه . فقالت له : لقد ذهبت طائفة من الليل وانت في البيت حتى خيّل اليّ انك ستقضي الليل كله فيه .

قال : الحجاج كثيرون في هذا العام وقد اقبلوا على الكعبة جماعات كلها تريد الدخول اليوم . العام عام خير واقبال . وقد طاب للعرب ان تحجَ البيت من جميع الاقطار .. نعم . ما رأيت في زماني قط اكثر مما رأيت اليوم من وفود الحجاج ..

قال هذا ومشى الى قاعة الجلوس ، فلحقت به وجلست الى جانبه .

وكان المحترش قد تركهما .

فهزّ حليـل رأسه وهو يقول : لا يطيب لولدنا الا العزلة ليشرب الخمر .. ان عنده بقية منه ..

قالت : ايشربها في الشهر الحرام ؟

— : اذا رآها نسي الحرام والحلال، ونادى غلامه قائلاً: اين مولاك المحترش؟

: لقد خرج من القصر يا مولاي .

فابتسم قائلاً : لو خيّروه بين تاج الفرس وكأس الخمر لاختار هذه ولم يبالِ. اسمعي ماذا فعل اليوم ، رأيت زهرة بن كلاب بباب الكعبة ومعه فتىً مـن الشام اعجبني هدوءه وجمال وجهه فجعلت اسأله عنه .

فبان الغرام في عيني الفتاة ..

قال : ثم رأيت ان اسأل ذلك الفتى عن بلاد الشام فأخذ يقص عليّ مـا يعرفه واخوك المحترش يضحك ضحك الهازىء حتى قال اخيراً : ولم يكفّ عن الضحك: هنيئاً لأهل الشام فالخمر كثيرة عندهم يشربونها في الصباح والمساء.

— : وماذا قال الآخر ؟

— : نظر الى المحترش نظرة استخفاف ولم يجب ، ولو لم يكن بالباب بعض

سادات بني تميم للطمته على وجهه لطمة تملأ فمه دماً . انه يذلني امـــام اشراف العرب وساداتها ويفضح نفسه كلما ذكر الخمر .

— : ليفعل ما يشاء يا مولاي فلم يبق لك حيلة في رده .. والآن قل لي . ألم ترَ بين وفود العرب من تسأله عن اهله وبلده غير ذلك الشامي ؟

— : لم يكن لي غرض بهذا السؤال الا ان اعرف من هو ..

— : لم افهم يا مولاي .

— : كانت طوائف العرب تمرّ بي وأنا اتبين الوجوه فلم اجد بينها وجهـــاً يجذب الناظر اليه الا وجه هذا الفتى ..

قالت : ألم ترَ هذا الوجه من قبل ؟

— : لا . فالفتى لا يعرف مكة وهي مسقط رأسه ولم يحج البيت الا اليوم

— : اذن هو من الحجاز .

— : نعم ومن اشراف العرب الذين خدموا الكعبة وبذلوا في سبيلها بعض مـــالهم ..

— : وماذا يفعل في الشام ؟

— : له حكاية أرويها لك الآن ..

فأصغت اليه بعاطفتها واحساسها حتى حبست انفاسها كي لا تفوتها كلمة .

قال : في ظاهر مكة قوم من نبلاء العرب يقال لهم بنو النضر بن كنانة .

— : أعرف هذا .

— : ولهؤلاء القوم الجاه العريض والصوت البعيد في الحجاز .

— وأعرف هذا أيضاً .

— : وقد ساعدوا جدنا الأول في الاستيلاء على مكة وكانوا عوناً له عـــلى اصحابها بني جرهم .

قالت : اذكر انك رويت لي اخبار ذلك الفتح .

قال : وتذكرين ايضاً زهرة بن كلاب الكناني .

ـ : نعم وأرى الناس يحبون هذا الرجل ويحترمونه .

ـ : ولكنك لم تعرفي اباه كلاباً لأنه مات قبل ان تخرجي الى هذا الوجود .

فرأت حبّى انه يحدثها باخبار زهرة وهي انما تريد ان تسمع أخبار الآخر .. فقالت : أراك تصف بني كلاب يا مولاي ..

ـ : نعم حتى اصل بهذا الوصف الى الفتى الذي ذكرت.. اسمعي يا حبى.. كان كلاب بن مرة سيداً في عشيرته يطيعه قومه ويحبونه كما يحبون زهرة لجوده واباه نفسه . وكان مضيافاً كثير البذل لا تملك يده مالا حتى ينفقه على الناس .

ـ : ولكنه لم يكن غنياً على ما أرى .

ـ : لا . ان الغني هو الذي يحتفظ بماله فلا يعطي احداً شيئاً منه ..

قالت : أليس لزهرة اخوة يا مولاي ؟

قال : تزوج كلاب فاطمة بنت سعد بن عوف فولدت له زهرةَ هذا واخاه زيـداً .

ـ : ويظهر ان زيداً مات .

ـ : بل مات ابوه وهو صغير وزهرة قد شبّ وكبر ، وبعد أيام قدم مكة رجل من قضاعة يدعى ربيعة بن حرام فتزوج فاطمة ارملة كلاب وحملها الى بلاده في الشام ومعها صغيرها زيد وبقي زهرة في مكة .. وفي الشام ولدت فاطمة لربيعة بن حرام ولداً دعاه ابوه رزاحاً هو اخو زيد وزهرة لأمها فقام في ذهن الفتاة ان رزاحاً هذا هو الفتى الشامي . فقالت : لقد عرفت الآن فتاك .

قال : من هو ؟

ـ : هو رزاح نفسه .

ـ : ان رزاحاً لم يترك الشام . وكان لربيعة ثلاثة بنين من امرأة أخرى هم حنّ بن ربيعة ومحمود وجلهمة رحبوا جميعهم بزيد وأحبوه .

قالت : رأيت وفود بني قضاعه تقصد الكعبة فهل حجّ معها ربيعة بن حرام.

— : وربيعة ايضاً قد مات وليس في هذه الوفود احد من ولده ..

فحارت حبى في الامر .. ان ذلك الشامي لم يزل مجهولا ولم يذكر ابوها اسمه .. وكرهت ان تستعجله في ذكر ذلك الاسم ، اما هو فاستطرد قائلاً :

وشبّ زيد في حجر ربيعة وقـــد استبدلت امه اسمه باسم « قصي » لبعد داره عن دار قومه ، فعرفه الناس منذ ذلك الحين بذلك الاسم ولم يبق « لزيد » ذكر .

— : ومرّ عليه الزمن وهو في ارض الشام ..

— : أجل . مكث بضعـاً وعشرين سنة وهو لا يعرف من امره الا انه ابن ربيعة ، وقد سكتت امه عن نسبه . فلم تذكر له اباه كلاباً . ولم تذكر له مكة ولم يبرح الشام قط ، في ذلك الزمان الذي مرّ .

قالت : لم يبرحها الا اليوم .

فقال ولم يبالِ : حتى كان العام الماضي ، وكان بينه وبين رجل من قضاعة خلاف على جمل . يقول القضاعي هذا لي ويقول قصي هذا لربيعة . حتى قال له ذلك الرجل : ليس لك ان تبحث عن مال ابن حرام لأنك لست ولده بل لست من قضاعة .. فاستولت الدهشة على قصي .. ايجـاوز العشرين من عمره وهو لا يعرف اباه ؟.. ان في ذلك كل العار .. ورجع الى امه ليسألها عما سمع ، فقالت له : ما بالك يا قصي ؟

— : وما بال رجل يعيره الناس بنسبه وهو لا يعرف قومه ؟ ابن من انا ؟

قالت : ومن عـيّرك بنسبك ؟

- : رجل من قضاعة .

فقـــالت له : انت يا بني اكرم منه نفساً ووالداً أنت ابن كلاب بن مرة ابن كنانة ..

— : وأين قومي ؟

— : في مكة عند البيت الحرام .

فكره ان يبقى في الشام بعد ذلك وهمّ بالخروج الى قومه حاملا تلك الكبرياء التي جرحها القضاعي ، فقالت امه ، لا تعجل بالخروج حتى يدخل عليك الشهر الحرام فتخرج في حاج العرب فأني اخشى عليك ان يصيبك بعض البأس .

فأقام بالشام ساكتاً على غل حتى اذا خرج بنو قضاعة الى مكة يحجون البيت خرج فيهم وهو لا يصدق انه يصل الى بيت الله ليرى عنده اخاه وبني قومه . . .

فتنهدت حبى وهي تقول : ذلك هو اذن قصي بن كلاب ..

— : نعم . وهو اجمل فتيان الحجاز وجهاً واعفهم نفساً كما رأيت .

فأشرق جبينها قائلة : افتستطيع يا ابي ان تقرأ نفس الفتى وانت لم تره غير مرة واحدة ؟

— : لا خير في سادن الكعبة ان لم يقرأ على الوجوه ما تخفيه الصدور لقد رأيت والله على جبينه سطور العظمة والجلال .

— : وهل يريد الاقامة بالحجاز ؟ قالت هذا وهي تضطرب ..

فقال : بل يقيم زمانه كله في مكة كما قال لي .

— : وامه فاطمة ؟

— : باقية في الشام مع ولدها الآخر رزاح بن ربيعة .

— : وماذا يملك قصي يا مولاي ؟

— : ليس عنده شيء من المال حتى انه لا يملك ناقة او فرساً يركبها في مسيره.. ولكن مثله لا يطلب المال حتى يجده بين يديه.. عزيمة صادقة. وجنان ثابت . وصبر على المحن.. وطموح الى المجد يبدو على وجهه للناظرين اليه .. نعم يا حبى . ان المال سيكثر بين يديه عندما يسعى اليه .. وسترين !

قالت : لو حدثت غيري الآن لخيّل اليه ان ابن كلاب احد آلهة الكعبة وانت من عباده ..!!

قال : احترمه كما احترم البيت واحبه كما احب هبل ..

وانت ترى ان الاقدار تخدم حبى . لقد ارادت في تلك الساعة ، ان تعرف كل شيء فقالت له : لقد احببت فتىً صعلوكاً يجهله قومه . .

— : بل احببت سيد بني كنانة .

— : اذن فانت واثق بانه سيسود عشيرته .

فرفع عينيه الى العلاء وهو يقول : لقد قام في ذهني يا حبى انه سيمسي سيد الحجاز .. ثم هامسها قائلاً :

وعلى هذا الأمل سأجعل حبى زوجة له اذا استطعت .

فاحمر وجهها من الخجل ..

قـال : لقد رددت جميع النبلاء الذين ارادوا حبى لانفسهم . ولكني الآن امد يدي واسأل ذلك الفقير الصعلوك ان يكون لي صهراً ..

قالت : لا تفعل يا مولاي ..

— : بل سأفعل ورب الكعبة .. واثق بانك لا ترفضين .

قالت : وستعيرك العرب عندئذٍ بقولهـا : ان حاجب البيت الذي هو سيد السادات قذف بابنته الى حضيض الذل .

— : مــــاذا ؟

— : وتتناقل الافواه خبر هذا الزواج ويطمع الصعاليك ببنات الاشراف .

قال : سأفاخر العرب كلها بقصي .

— : وتقول لها انك طمعت بمظاهر المجد التي تحيط به . أتريد يا مولاي ان ترسلني الى بيت لا يملك صاحبه جملا ؟ انك اذا فعلت خرجت امارة الحجاز من يدك وخسرت حجابة البيت .

— : ومن يجسر على هذا ؟

— : بنو خزاعة انفسهم ثم تتبعهم عشائر مكة ومن والاها من قبائل الجزيرة.

— : ذلك رأي فاسد ..

- : بل هو الصواب كله ! أتطيق العرب وقد عرفت بالانفة والعز ان يزف اميرها بنته ، الى رجل ليس له في بلده منزل يأوي اليه ؟ ألم تستعر نار الحرب في الجزيرة ثلاثين واربعين لعلة مثل هذه ؟ ومتى كانت العرب يا مولاي ترضى بالذل ؟

- : وأي شأن للعرب بما تقولين ؟

- : شأنها انك ترد السادات وترضى بالصعاليك .. لقد رفضت اشراف بكر بن عبد مناة واشراف صوفة . ورضيت بفتى جميل الوجه يقيم مع قومه في الشعاب والجبال كأن اولئك الاشراف لم يكونوا اهلاً لما سألوك اياه . وكأن ذلك الفتى افضلهم جميعاً واعظمهم نفوذاً وسلطاناً .

فضحك قائلا : اما فضلهم جميعاً فنعم .. انه ابن كلاب بن مرة الذي ينتمي الى عدنان بن اسماعيل فستكونين اذن زوجة رجل لا يدانيه بالنسب اشراف الحجاز الذين تذكرين ، واما اعظمهم نفوذا فورب البيت لا يمر هذا العام والعام الذي بعده حتى تري الخيل ببابه . وامراء العرب يفدون اليه كما يفدون الى ملوك اليمن وملوك الحيرة .. ثم قال :

والعرب يا ابنتي لا تعبأ بالمال . انها تنظر الى النسب العالي فتخضع له وتحني له الرؤوس .. ففكري فيما اقوله الآن .. واعلمي ان حجابة البيت - اذا ضمني القبر .. لا يحفظها لآل حليل إلا قصي .. ورب الكعبة ، لقد رأيت نور السيادة والقوة يتلألأ على جبينه الوضاح .

فسكتت وهي تتظاهر بالرضى ثم قالت : أفعل ما تشاء يا مولاي ولكن لا تظهر رأيك هذا لأحد من الناس قبل ان يطلبني قصي .

قال : قد لا يجسر على هذا الطلب قبل ان امهد له أسبابه .

قالت : أتسأل الناس ان يتزوجوا ابنتك وانت امير الكعبة ؟

: وماذا أفعل ؟

قالت : اذا طلب اليك ان تزوجه فقد بلغت الغاية والا فالبقاء في بيت ابي خير من الحياة مع رجلٍ انا طلبته لنفسي .

فأحاط عنقها بذراعيه وهو يقول : انك يا حبى اميرة في كل شيء فليكن ما تريدين ..

ونهض الاثنان فتناولا الطعـــام . ثم انصرف كل منهما الى فراشه . وحبى تشكر القدر الطيب القلب . الذي جاد عليها بذلك الحبيب . وقضت ليلهـــا تفكر في قصي . وهي لا تعلم اذا كان ذلك القدر يجود باللقاء ..

* * *

- ١١ -

نام عبدالله ليلته على امل ان يعود في الصباح الى البحث عن صاحب القناع، وزياد وابوه يعلمان ان عبدالله لا يطيب له عيش الا اذا تمّ له مـــا اراد وعرف الرجل الذي انقذ زياداً .

وكان ليل ليلى كثير الاحلام . ونفسها التي لا يسعها صدرها الصغير ، تثور وتهدأ ، في كل ساعة من ساعات ذلك الليل الطويل الذي ليس له حد ، حتى بزغ الفجر ورأت بعينها طلائعه ، فخرجت الى احـــدى الشرفات تنظر نور الصباح ..

وبينا هي تسبح في فضاء كله تصور وخيال وغرام رأت رجلاً خارجاً من غرفة عبدالله وعلى كتفه جراب . وهو بلباس اهل نجد ، غير ان قلنسوته تشبه قلانس اهل العراق الذين اختلطوا بالفرس . وتحت القلنسوة غطاء للرأس كله الا الانف والعينين اللتين امتدّ على صدغيه منهما خطان من الكحل . فذعرت ليلى عندما رأته ، وظنت انه من اولئك الشذاذ الذين يدخـــلون البيوت ليلا ليسرقوا ما تقع عليه العين ، لكن الذعر لم يلبث حتى زال. فوثبت الى الداخل وهي تقول : لص في البيت يا عبدالله ، غير ان ذلك اللص لم يفر . بل وجّه

نظره اليها وجعل يتفرس في وجهها وهو ساكتُ ، فقالت له وصوتها يرتجف :
الويل لك ايها الرجل .. من انت ؟
فاجابها قائلاً : عربي من نجد ثم من العراق كما ترين ..
وكان صوته هادئاً كأنه يخاطب اهل بيته .
— : وكيف دخلت قصر زياد بن كعب ؟
— : حملتني الجن في الهواء،ثم قذفت بي الى الداخل ، فهمت بأن تدعو أباها والعبيد المقيمين في القصر .
فمنعها قائلاً : لا تستعيني بأحد فسأخرج كما دخلت ..
قالت : لعلك قتلت عبدالله ايها اللعين .
قال : لم امدّ يدي اليه ولست قاتلاً .
— : وماذا كنت تفعل في غرفته ؟
— : كنت أباحثه في بعض الشؤون ..
فكانت تختنق من مظاهر ذلك الهدوء ، ثم ابتسم الرجل قائلاً :
اتريدين ان تعرفي ايتها الفتاة ذلك الحديث الذي دار بيني وبين عبدالله ؟
— : اجل ، وفي هذه الساعة .
قال : كنت ادله على الرجل الذي يبحث عنه آل زياد .
— : وتعرف هذا ايضاً ؟
— : نعم كما اعرف ان ليلى التي تخاطبني الآن اكثر القوم اهتماماً بأمر الفتى الذي انقذ أباها من سيف جبير بن عبادة .
فصاحت قائلة : يا عبدالله .
فاجابها ذلك الرجل قائلاً : ماذا تريدين يا ليلى ؟
فجعلت تحدق اليه وتقول : الصوت صوت عبدالله نفسه ، فما هذا ؟
قال : اجل يا مولاتي هذا عبدالله نفسه لا زيادة ولا نقصان .
ثم نزع قلنسوته الضيقة وغطاء وجهه فعرفت ليلى ذلك الوجه ولم تنكر منه

الا ذينك الخطين الاسودين على صدغيه . فضحكت قائلة : أتهزأ بي ايها اللعين ؟

— : وماذا رأيت من مظاهر هذا الهزء ؟

— : القلنسوة العراقية وهذه الثيابَ ثم هـذا الكحل الذي تشبه به نساء يـــثرب ...

قال : رأيت الطواف في مكة ، بهذا الزي الجديد ، خيراً من اظهـــار وجهي للناس ..

— : وما معنى ذلك ؟

— : معناه اني لا استطيع ان اتعرّف امر الرجل الا من وراء الستار .

— : اذن ستبحث عنه اليوم كما قلت .

— : نعم وقد قدمت من نجد لاشتري فرساً من افراس بني كنانة النازلين في الجبال .

— أي انك تسأل عن الفرس ذات الهلال الابيض ثم تعرف صاحبها . انها حيلة لا بأس بها يا عبدالله . ولكن أين يجعل القوم خيلهم ؟

— : ان مرابطها في الجبال وانا اعرفها من قبل .

— : ولكنها تخرج الى المرعى كل صباح .

— : ورأس زياد لو ارسلوها الى الشام للحقت بها باحثـاً عن الفرس ذات الهلال . ثم حجب وجهه ولبس قلنسوته وهامسها قائلاً :

ماذا تعطيني يا مولاتي اذا وجدت الفتى ؟

قالت : سل أبي يعطك ما تشاء . اما انا فلا اعبأ بوجوده الا لأمر .

— : ما هو ؟

- : هو ان يجزيه ابي على ما فعل .

فتمتم يقول : وهذا القلب الخفاق الذي اسمع ضرباته ؟

فمدت يدها الى اناء من نحاس امامها لتضربه به ؛ فركض كما يركض الفتيان وتوارى في ذلك الدهليز الطويل الذي ينتهي بالباب ، فقالت في نفسها : اذا

وجد عبدالله الفرس فقد وجد فارسها وانتهى الأمر . ولكن .. يجب ان أراه كما رأت حبّى ذلك الشامي .

ومشت الى غرفة جدها تقص عليه ما رأت . ثم استيقظ زياد واجتمع الثلاثة في حجرة الشيخ يذكرون حيلة عبدالله ويضحكون .

* * *

عندما طلعت الشمس ، كان عبدالله في شعاب مكة يطوف حول مضارب القوم . وهو ينظر الى الجهات الاربع كأنه يفتش عن شيء ، وليس في المضارب الا الشيوخ والغلمان والنساء .. ان القوم جميعهم في مكة وقد يعودون منها بعد ثلاثة أيام ، ولم يجد خيلاً كأن الخيل مع القوم ، فرأى ان يسأل احد الغلمان عما قدم لأجله .

وكانوا قد رأوا بينهم غريباً فأحدقوا به يسألونه عن عشيرته وعن غرضه فقال لهم :

جئت أرى الخيل في هذه الجبال فقد قيل لي انها اكرم خيل العرب .

: وما هي غايتك ؟

: غايتي ان اشتري فرساً منها لمولاي .

- : ممن انت ؟

: من تميم ..

: ومن هو مولاك ؟

: عاصم بن سعد ..

- : وهل ماتت الخيل في نجد فلم يجد مولاك له فيها فرساً ؟

قال : قدم مكة حاجاً ومعه فرسان سرق احدهما ووهب الآخر لرجل من هوازن ..

فقالوا : ان مولاك من الاجواد ولكن الخيل في قعيقعان « أعلى مكة » اصحابها في حرم البيت ، فان شئت فاشترِ فرساً من حي بني بكر .

قال : لقد وصفوا لمولاي خيل بني كنانة .

— : وبنو بكر بن عبد مناة من بني كنانة ايضاً .

— : اذن اعود وانقل اليه ما سمعت ، فقال عندئذٍ احد الشيوخ :

ألا يعلم مولاك ان قومنا لا يتركون البيت قبـل ان تنصرف قبائل العرب من مكة ؟

— : قيل له انهم يبيتون كل ليلة في الشعاب . ثم خاف ان يفسدوا عليـه امره . فحمل جرابه وشكر الذين حوله وانصرف . ولكنه لم ينزل الى مكة ، بل مشى يريد قعيقعان ، وعلى سطح ذلك الجبل رأى طوائف الخيل .

فجعل يتفرس في الافراس الحمر والغلمان ينظرون اليه وقد اعجبتهم قلنسوته وثيابه .. حتى رأى ذات الهلال الابيض . فابتسم ابتسامة خفية ثم قال :

لمن الخيل ايها الفتيان ؟

— : لاعز اهل الحجاز .

قال : اعز الناس في الحجاز بنو كنانة ..

— : احسنت فماذا تشاء ؟

قال : أتبيعون ؟

فقال فتىً منهم : ويلك اسمعت بين العرب ان خيول بني كنانة تخرج من الشعاب ؟

— : وماذا تفعلون بها وهي طوائف لا تعدّ .

— : نبيع العاجز ليس غير .

قال : ورب الكعبة أدفع ما في هذا الجراب ثمناً لهذه الفرس . لمن هذه ؟

— : لأحسن الفتيان وجهاً واعزهم نفساً ، لصفوان بن الحارث .

— : صفوان بن الحارث ؟ .

— : نعم . ذلك الذي يبيع نفسه كما يباع العبد ولا يبيع فرسه . أتعرفه ؟

- : اني غريب ولا اعرف في مكة احداً .. والآن قل لي . أيبخل صفوان بفرسه . على رجل يدفع له ما يطلب من الذهب ؟

قال : لو كان صفوان حاضراً لما كنت تجرؤ على الطلب ، انه لأجل هذه الفرس ، ضرب رجلاً من بني اسد بالسيف فقطع يده فهو يعيش بيد واحدة الى الآن .

وكان عبدالله يريد ان يسمع من ذلك الغلام صفة صفوان فقال له : وكيف كان ذلك ؟

قال : ذهب صفوان الى خيبر يشتري من اهلها اليهود بعض النوق، فتصدى له الاسدي وسأله ان يركب فرسه ساعة ، فأبى فاستعطفه فلم يرض ، واسمعه ما لا يحب . فأهوى له الاسدي بسيفه فجرح ابهامه ولكن اليد التي ضربه بها طارت عندئذ في الفضاء ..

فقال عبدالله في نفسه : هذه صفة الفتى الذي احبته ليلى .

ولكنه ظل هادئاً كأن امر صفوان لا يعينه . وقد اراد ان يسترسل في الحديث ليعرف الباقي فقال: عجباً.. يحتفظ صفوان بفرسه كأنها باقية الى الابد.. افلا يخشى ان تموت فيخسر المال الذي يعرض عليه .

فضحك الغلام قائلاً انه يملك من الخيل ما يملكه ملك العراق .. انظر الى هذه الافراس التي ترعى وراءك .. انها مع الامهار التي حولها لصفوان .

- : اذن هو سيد القوم ..

قال : لقد بلغ من عز كنانة انهم لا يجعلون لهم سيداً . كل فتى من فتيانهم سيد نفسه .. ولكنهم رأي واحد في الحرب والسلم . لا ينامون على عار ، ولا يصبرون على ذل .

- : ذلك شيء غريب في العرب ..

- : واغرب منه أن الواحد منهم يطيع الآخر كأنه ولي امره .

- : واين يوجد صفوان اليوم ؟

- : مع قومه في مكة ومعه فرسه « المرمحة » ، انه كان يركب هذه الحمراء

كلما هبط مكة غير انه اهملها في هذا العام كأنها ليست له واذا ركبها ففي هذه الجبال وفي الاسفار ..

وذلك دليل جديد على تحجب صفوان ..

واستطرد الغلام قائلاً : ولصفوان شمائل طيبة تعرفها بطون كنانة واحياؤهم منها انه يهب هذه الأفراس كلها لمن يطلب احسانه دون ان ينفخ امامه بالبوق . يطعم الجائع ويغيث المظلوم ، ويقذف بنفسه الى اشداق الموت لينقذ الصعلوك الضعيف وهو في كل ما يفعل متحجب لا يظهر للناس جوده ولا يفاخر احداً في عزة نفسه . ولعل ابغض الاشياء اليه ان يذكر له الفضل او يشكره احدهم على معروف .. وهذا دليل آخر سمعه عبدالله ، فقال : وهل الحارث حي ؟

— : لا ، فقد مات الحارث بن شجنة منذ خمسة اعوام وليس له من الولد غير صفوان ..

— قال : يخيل الي انك من غلمانه ..

— : لا ! فغلمانه اولئك الجالسون على هذه الصخور .

قال : وددت لو اني من غلمانه .. ان هذه الشمائل شمائل اهل الجنة .. صفه لي ايها الفتى .

قال : أصفه بكلمة واحدة لا أقول غيرها هي ان صفوان بن الحارث فتنة الناظرين ..

— : ومن تكون زوجته ؟

— : لم يتزوج وقد جاوز العشرين .. فرأى عبدالله ان ينصرف بعدما عرف كل شيء. لكنه قال قبل ان يحول وجهه: اذن ليس عندكم من الخيل ما نشتريه.

— : لا ..

قال : لولا الحنين الى نجد لجعلت نفسي عبداً للفتى الذي وصفت .

وأخذ ينظر الى الجانبين كأنه يبحث عن الطريق ، فدله الغلام وعبدالله يبتسم في سره ولا يصدق متى يصل الى مكة لينقل الى ليلى خبر صفوان ..

* * *

قضى الناس مناسكهم ثم انصرفوا الى بلادهم .

وقد عرف بنو كنانة ان قصياً الذي نشأ في حضن امه في ارض الشام، ضيف زهرة اخيه ، فاقبلوا يرحبون بالكناني الذي لا يعرف قومه ويسألونه عن بني قضاعة الذين ترعرع في ظلهم : وقد استولى عليهم العجب عندما رأوه ..

لم يكن في كنانة مثله في فصاحة اللسان وادب المجلس وجلال منظره وهيبته التي هي هيبة الملوك..حتى ان شيوخهم وساداتهم كانوا ينظرون اليه كما ينظرون الى حليل بن حبشية حاجب البيت.. وهم يعلمون انه الفتى الفقير الذي حمله احد بني قضاعة الى مكة على ناقة له . وقد بلغ بهم الاعجاب انهم عرضوا عليه النوق والمال ليصلح امره ويتخذ له منزلاً بينهم !

اجل فعلوا ذلك عندما رأوه وحدثوه كأن السماء اوحت اليهم بانه سيكون سيد الحجاز .

وكان الفتيان النابهون في الحي اكثر القوم اعجاباً به وبعذوبة حديثه وهم يرون من اعماق انفسهم انهم اتبـــاع له .. انه سر من اسرار الطبيعة لا تدركه العقول .. الناس في كل زمـــان ومكان يبنون مجدهم عـــلى مر السنين بالسيف والمال وقصي بن كلاب ذلك الفتى العاجز الغريب الجاهل نسبه ، بنى له في اول مجلس من مجالس قومه منزلة في الصدور لا تزول .

ذلك فعل الخلق النبيل الذي هو ابلغ من السيف والذهب .

فلما انفرد الاثنان زهرة وقصي بعد انصراف الناس جعلا . يتحادثان وزهرة يرى ان لهذا الاخ الصغير سلطاناً عليه يشبه سلطان ابيه ..

وكان همّ قصي ان يدرس احـــوال البيت الذي يعظمه العرب . واسرار حاجبه وعاداته، والتقاليد التي تتبعها العرب في العبادة والدين ، بل لم يكن همه الا ان يستولي على الحجاز .. والاستيلاء على ذلك القطر لا يتمّ له الا اذا كانت له الكعبة .

لقد خرج من الشام وهو لا وطن له . ولكنه اقسم لامه قبل ان يقدم مكة انه سيجعل الوطن الذي تطأه قدماه ملكاً له . لا يقيم فيه عربي الا باذنه . والكعبة وحدها طريقه الى العلياء .

هي قدس الاقداس عند العرب من دخلها كان آمناً ولو طلبته الملوك . ومن احدث في بلد حدثاً ثم لجأ اليها فقد نجـــا . سادات العرب وامراؤها يعظمون البيت . والناس كلهم يخضعون لذلك القائم ببابه يفتحه ويغلقه ساعة يشاء .. وعلى قصي كما قرأت ان يعرف كل شيء ليكون قادراً على شيء . انه حلم لا يعلم اذا كانت تضمحل صوره عندما يستيقظ .. فقال لأخيه : لقد قيل لي ان عمراً اول ملوك خزاعة ، اول من جعل الاصنام على الكعبة . فهل تعرف هذا ؟

— : نعم وهو اول من عبدها فاطاعته العرب وعبدوها معه .

— : وكيف كان ذلك ؟

— : أتعرف تلك الأرض وكنت اذهب اليها مع ربيعة بن حرام .

قال : سار اليها عمرو بن لحي بعد فتحه مكة بعامين فرأى فيهـــا قوماً يعبدون الاصنام فسألهم عنها فقالوا : هذه أرباب اتخذناها على شكل الهياكل العلوية والاشخاص البشرية . نستنصر بها فننصر ، ونستشفي بهـــا فنشفى ، ونستقي بها فنسقى ، فاعجبه ذلك فطلب منهم صنماً فدفعوه اليه وسار بـه الى مكة فوضعه على الكعبة .

— : وذلك هو هبل .

— : أجل . هبل كبير الآلهة واستصحب ايضاً صنمين يقال لهما اساف ونائلة هما اللذان تنحر امامها الذبائح كما رأيت .

— : ومنذ ذلك الحين عرفت مكة الاصنام ..

— : نعم فقد دعا العرب الى تعظيمها والتقرب اليها فأجابوه .

قال : وفي الكعبة اموال يا زهرة ؟

قال : فيها من المال ما يشتري الجزيرة وليس في بلاط ملك مـــا في الكعبة

من متاع وذهب .

– : وكل ذلك من العرب ؟

– : من العرب ومن الفرس .

فهزّ رأسه قائلا : اتعظم الفرس البيت ؟

قال : كانت الفرس في الزمان الاول تهدي الى الكعبة الجواهر والاموال وقد أهدى ملكها ابن ساسان بن بابك غزالين من الذهب .

– : وقيل لي ان فيها السيوف المحلاة بالذهب والفضة ..

فاجابه قائلاً : أتعرف صاحب هذه السيوف ؟

– : لا .

– : انه ابوك كلاب بن مرة .

فاشرق جبين قصي . . ان لأبيه فضلاً على البيت وهو يجهل ذلك . ثم قال : من يعترف بما تقول ؟

– : يعترف به سادن الكعبة نفسه وتعترف به العرب ، فأبي اول من علق في الكعبة السيوف ذخيرة لها .

– : اذن فلبني كنانة شأن في مكة .

قال بمرارة واستخفاف .

فقال : لهم ما لغيرهم من اهلها فدع عنك هذا الآن .

قال : اني لم اخاطبك الساعة الا لأقول هذا اتظن ان الأبي يرضى بما رضيتم .

فاراد زهرة ان يداعب اخاه . فقال :

ألسنا أعز القوم في الحجاز ؟

– : بلى ولاجل هذا لا تجسرون على ان تبنوا في مكة بيتاً تأوون اليه !

– : ذلك لاننا نحترم بيت الله .

– : بل لانكم تخافون ان يطردكم بنو خزاعة .

– : ولماذا لم يطردوا ابناء عمنا بني بكر بن عبد مناة ؟

– : لانهم حالفوهم كما ذكرت لي من قبل . انكم وحدكم تحترمون البيت

فلا تبنون بجواره منزلاً . قلت لك منذ ثلاثة ايام انكم القوم الذين ينامون على الهوان . والا لكانت لكم حجابة البيت نفسها قبل كل شيء .

قال : رضينا بالحال التي تركها لنا كلاب بن مرة وكان عظيماً في قومه .

– : كان عظيماً عندكم وضعيفاً عند الآخرين .

– : انه ابوك يا قصي .

– : اجل وقد صرعه القضاء وانا صغير فلم اعرفه ولكني لو كنت في العشرين من عمري كما كنت انت يوم مات لأغمض عينيه وهو يرى بهما مجد بنيه وعشيرته يملأ الجزيرة ..

قال : كان أبي يبغض الحروب لأجل هذا ولم يشأ ان ينازع خزاعة السلطان خوفاً من ان يسقط الحجاز في اتون النار ..

– : أكان يقول لك ذلك ؟

– : نعم وقد اكتفى بان تكون النسأة لنا وهي من اعظم المناصب وصاحبها سيد الحجاج . الا تذكر ما يقوله القلمس الكناني للعرب اذا هموا بالصدور من الموسم ؟

– : لا .

قال . يقوم فيخطب قائلاً :

لا مرد لما قضيت ، انا الذي لا اعاب ولا اجاب ولا يرد لي قضاء . فيقول له الناس : لبيك . ثم يسألونه ان ينسئهم شهراً يغزون فيه فيقول :

« ان صفر العام حرام » فاذا قال ذلك حلوا الاوتار ونزعوا الاسنة . وان قال حلال عقدوا الاوتار واغاروا ، وفي هذا يا قصي من العز والسؤدد ما فيه ، والقلمس اول من نسأ الشهور على العرب ..

قال ذكرت الآن ابن عمنا الكناني .. وماذا يقول سيد صوفة عندما يجيز الناس ؟ أعد عليّ قوله فقد نسيته ..

قال : يتقدم الناس على حمار ثم يقول :

« اللهم اصلح بين نسائنا وعادِ بين رعائنا . واجعل المال في سمحائنا، اوفوا

بعهدكم واكرموا جاركم واقروا ضيفكم ، ثم يقول : اشرق بشير كيما نفير؛ ثم ينفر ويتبعه الناس » .

قال : انك تحفظ القولين يا زهرة وهذا كافٍ ..

— : ولو كنت انت في مكة في الزمن الذي مرّ لحفظته ورددتــــه كما اردده الآن ..

— : بل لو كنت في مكة لحفظته لكي اقوله للناس في عرفة ، وقبل الصدور من الموسم ، أفهمت ؟

— : اي انك كنت تنسأ الشهور وتجبر الحجاج ؟

— : نعم فلا يخطو احد من العرب خطوة الا اذا اردت .

— : ذلك كثير يا قصي ..

— : انه اقل مما انا اهل له . فاصبر يا زهرة .. اصبر .. ورب البيت الذي نعبد لا يمر بعض الاعوام حتى ترى الحجاز خاضعاً لي .

قال : كنت امازحك الساعة ، اما الآن فارجو ان تجيبني عما أسألك .

— : سل عما تشاء .

— : بأي شيء تخضع الحجاز ؟

— : لا استطيع ان أقول الآن كلمة ..

— : بل تقول وتذكر لي هذه القوى التي تسود بها العرب ؟

— : بهذه الإرادة الحديدية وبالدهاء ثم نستعين بالسيف ..

قال : اراك تستهين بالقوم وهم اصحاب الامر.. ان سيوفهم اطول من سيوفنا ومالهم اكثر من مالنا ، ورجالهم رجال الشدة والحرب .

فضحك وهو يقول: اذا كانوا أعظم شأناً في كل ما ذكرت فلا نجرد السيف.

فعاد زهرة الى المزاح قائلاً : يخيل اليّ اني أراك بباب الكعبة تأذن للناس في الدخول . وارى مـــلوك كندة وغسان وامراء الجزيرة يحنون رؤوسهم في الدخول والخروج ويظهرون للقائم بأمر البيت قصي بن كلاب ..

– : انا أرى هذا التصور الذي تسخر مني به سيمسي حقيقة تلمسها بيدك وينظر اليها أهل الحجاز باعجاب .. انك يا زهرة من سادات القوم واشرافهم ولكنك راض بما قسم لك الزمان .. اما انا فلست راضياً .. سأطلب المال ولو في الفضاء . وسأذهب الى اليمن والى العراق والى الشام . حتى يصبح بين يديّ منه ما يكفيني فلا امد يدي الى احد . وبعد ذلك .. انظر في الامر الذي استرجع معه مجد آبائي . وأجعل الحجازي سيد نفسه فأعيد اليه امارة البلد الذي يقيم فيه منذ اجيال ..

– : ونسيت الزواج ؟

– : لا لم انس . ولكنها فكرة قبل أوانها الآن . ما رأيك في الفتاتين اللتين رأيناهما ؟

– : لقد ذكرت لك ما يجب ذكره في هذا الشأن .

– : لم تذكر لي الا ان بنت سادن الكعبة اكبر سناً من الأخرى ، وهذا لا يكفي .

– : اذن فاعلم ان ليلى اجمل وجهاً من حبّى .

– : ليلى بنت زياد ؟

– : نعم والاثنتان خير نساء العرب ..

قال : لم افكر قط في النظر الى جمال الوجوه ..

– : وللفتاتين الادب العالي والخلق الكريم وذلك ما تقوله عنهما نساء الحي .

– : هذا حسن .. فلنترك اذن بنت زياد وخبرني بما تعلم عن بنت حليل .. ألم تقل انها ليست مخطوبة ؟

– : بلى وقد خطبها الكثيرون فلم يزوجها حليل كما علمت ..

– : اذكر لي سبباً من اسباب الرفض .

– : لا أعرف شيئاً عن هذا . ان حاجب البيت من صف الملوك وقد لا يزوج بنته الا لملك ..

– : اذا كان ذلك فانا بدون تاج ..

فقهقه زهرة وقال : وقد يكون الأمر غير ما ذكرت ، يقولون ان الامير لا يزوج الا من ترغب بنته فيه .. فبرقت عيناه قائلاً : لقد اعدت الى الصدر الآن ذلك الامل الذي كاد يضيع ..

— : ولكني لست واثقاً بما أقول .. افلا يجوز ان تكون الكبرياء وحدها هي التي تملي على حاجب البيت ذلك الرفض ؟

فاطرق قصي ..

فقال اخوه : اتفكر في حبى ؟

— : اجل فكبرياء سادن الكعبة من هذه الناحية لم تخطر لي ببال .

— : أذن فانظر في امر الزواج من الناحية الاخرى ..

— : وماذا تعني ؟

— : اعني انه إذا كانت حبى تريد ملكاً وانت لا تستطيع ان تكون ذلك الملك ؛ فاخطب ليلى ..

وارتفع صوت زهرة بالضحك .

فاجابه قصي وهو هاديء كأنه لم ير دلائل الاستهزاء على وجه اخيه ، أرأيت يا زهرة اني راغب في الزواج الى حد ان تعد لي نساء مكة حتى تعجبني واحدة منهن ؟

وماذا اذن ؟

قال : كنت في الشام ولم افكر في الزواج ؛ ولكني عرفت فجأة وانا معك امام الكعبة ان امارة الحجاز لا تصبح في يدي الا اذا تزوجت ..

فحدق اليه ولم يفهم شيئاً ..

قال : ايحيرك هذا القول ؟

— : نعم انه لغز لا يدركه العقل ، أفلا يستطيع الرجل ان يسود الحجاز الا اذا تزوج ؟؟

فخفض صوته قائلاً : لا يصبح قصي بن كلاب سيد العرب الا بعد زواجه ..

— : كأن للحجاز باباً عليه طلسم الساحر فلا يفتحه الا المرأة ..!!

— : أجل وتلك المرأة التي تفتحه هي حبّى .. أفهمت الآن ؟؟

وكأن زهرة اصيب بالذهول في تلك الساعة فلم يرَ ما رآه أخوه ، فقال : حدثني بجلاء .

— : ألم تقل لي ان لسادن الكعبة ولداً يدعى المحترش ؟

— : بــلى ،

— : وانه جهل قدر حجابة البيت فلم يعبأ الا بالخمر ؟

— : نعم ..

— : اذن فقل لي الآن الى من تنتهي هذه الحجابة بعد ان يموت حليل ؟

— : الى المحترش نفسه فهو الوارث ..

— : ولكن السكران الذي لا يصحو لا يقدر ان يسود الناس ..

— : وماذا يحدث عندئذ ؟

— : يحدث ان الطامعين بالامارة ينازعون المحترش اياها وهو أضعف من ان يتصدى لهم فتخرج من يده الى الحزب الأقوى ولا يجد وراءه من ينتصر له ..

— : غير ان العرب لا ترضى بأن تخرج الامارة من سلالة حليل وتلك عادتهم في الدفاع عن صاحب الحق ..

قال : ذلك وهمٌ لا احب ان يقوم في ذهن زهرة بن كلاب ، ألم تكن جرهم صاحبة الامر فأخرجتها خزاعة من مكة بحد السيف ؟؟ ان شيوخ قضاعة قصّوا عليّ هذا وهم يقولون انه لم يقم في العرب من يمنع الفاتح الخزاعي عن ذلك .

— : ومعنى هذا ؟

— : معناه ان السيف وحده صاحب السلطان الذي لا يرد .

— : وكيف تحفظ حبّى ما يعجز المحترش عن حفظه ؟

— : بقوة ذلك الرجــل الذي تزف اليه وقوة قومه اذ يصبح شريكاً لآل حبشية في الدفاع . وذلك الرجل الذي يمنع الناس من الوصول الى الحجــابة هو انا . . !!

ثم قال :

إذن لست راغباً في الزواج طمعاً بالمرأة ، بل طمعاً بجبى وحدها التي تسلم اليّ مفاتيح الكعبة وقد يعطي المحترش اياها بملء رضاه. افلا تسلم الآن بالنظر في امر ليلى بنت زياد ، قضية خارجة ليس لنا فيها شأن .

– : سلمت بكل ما تقول ولكني لا أعلم كيف تكون لك بنت حليل وقد تقدمك الاشراف فلم يبلغوا الغاية .

– : اما انا فسأعلم بعد حين ، خبرني يا زهرة بما تعلمه عن أحوال العرب وعاداتها .. اني اريد أن أعرف كل شيء .. أي ملك يأخذ خراج العرب ؟.

قال : كان خراج الجزيرة في الزمن الماضي لليمن ثم امسى بعضه لملوك الفرس، اما اليوم فقد تمتنع بعض القبائل عن دفع هذا الخراج عندما تستطيع فتستعر نار نار الحرب . ثم تخمد .. ثم تعود كما هي الحال في جميع الامم .. العصيان نتيجة القوة . وقد يكون نتيجة الغرور .. والخضوع نتيجة الاستسلام والضعف .. وانت تعلم ان العرب لو اجتمعت لما دفعت من مالها لاحد درهماً .. الضغائن والدم والثأر تفرق شملها وتبعد العشيرة عن العشيرة والحي عن الحي.. خراجهم يأخذه الآن مولاك اليمني وعمال الفرس ملوك الحيرة ليبعثوا الى بهرام جور بحصته منه. ان هذا الملك الفارسي عظيم القوة بعيد النفوذ لا يلبث حتى يستولي بفضل اللخميين على معظم الجزيرة .

– : وملوك اليمن ؟

– : انهم في قمة السؤدد والسلطان ..

– : وقبائل الحجاز تدفع مالا ؟

– : نعم الا بعضها . اما مكة فليس لأحد الملوك ان يطمع بمال أهلها .

– : ألا تدفع مكة خراجاً ؟

– : لا . انها لقاح لا تدين لملك ولم يؤدِ اهلها خراجاً قط لملوك الاقطار ..

قال : لم أرَ بين الحجاج وفداً من اليمن ..

– : ان أهل اليمن يحجون ولكن ملوكهم لم يفعلوا .

- : لمـــاذا ؟

- : لأن عندهم اصناماً يعبدونها في بلادهم .

قال : وفي بعض احياء العرب بل في البيوت أصنام كثيرة يحجّ أصحابها البيت ..؟

- : انهم يفعلون ذلك تعظيماً للكعبة .. يحجون البيت ويعتمرون ويطوفون. فاذا أرادوا الانصراف اخذ الرجل منهم حجراً من حجـارة الحرم فنحته على صورة الاصنام وجعله قبلة له في طريقه يطوف حوله ويتمسح به ويصلي له تشبيهاً له باصنام مكة .. !

قال : وقد يفضي الامر بهم الى ان يأخذ الرجـل من الحرم حجراً فيعبده في منزله ..؟

- : لك ان تظن في هذا المعنى ما تشاء . فقد بلغ من تعظيمهم البيت ان العربي يطعن بخنجره عربياً آخر فيقتله على قدمي هبل فلا يرتفع لأهـــل القتيل صـوت .

- : ولكنهم يثأرون بعد ذلك ..

- : نعم والثائر مقدس لا يسكت عنه الا" الانذال الذين يخافون على انفسهم ولا يحترمون الدم المسفوك .

قال : تلك عادة اعرفها كما تعرفها انت .. اذكر ما لم تذكره لي قضاعة في الشام .

- : سل يا قصي .

- : ذكروا لي عادة ً لم أرها في أحياء قضاعة ولم اصدق انها توجد في العرب. ما هي ؟

- : يقولون ان الرجل منهم عندما تولد له بنت يدفنها وهي حية ..!

فاصفر وجه زهرة ولم يجب، لكن قصياً لم يرَ ذلك الاصفرار ، فقال ! أكان ذلك صحيحاً ؟ فتمتم يقول ! نعم ..

- : وكيف يفعلون هذا ؟

فتنهد زهرة قائلاً : لا تسألني عن ذلك يا قصي .
— : لمـــاذا ؟
— : لأني كلما ذكرت الوأد امتلأت نفسى ألماً ..
فأحس قصي كأن سهماً أصابه في قلبه . ان لهجة أخيه لهجة والد دس بنته في التراب عندما ابصرت هذا الوجود .. فقال له :
أكانت لك بنت قبل « سودة » ؟
— : لا ،
— : وهل ولد لك غيرها بعدها ؟
— : لا ..
— : اذن لماذا طلبت الي ان أكف عن السؤال ؟
— : لان سودة نفسها وضعت في التراب ثم نجت من الموت ..
قال : أفعلتها ؟
— : نعم واني الى هذه الساعة اذكر ما جرى وأذوب ندماً .
قال : ان لسودة نظراً ورأياً . وعندما حدثتها امس رأيت الحكمة كلها في ذلك الحديث .
— : انها كاهنة الحي يا قصي « وهي المعروفة بكاهنة قريش » .
— : مثلها يصلح للكهانة وسأستشيرها في جميع الامور منذ الآن .. وهل ولدت كسحاء كما هي ؟
— : اجل ولولا هذا العيب لما فكرت في وأدها وليس لي سواها ..
ثم قال : ان للعرب مذاهب مختلفة في الوأد بعضهم من يئد من البنات من كانت زرقاء او سوداء او كسحاء او بها برص ، تشاؤماً منهن بهذه الصفات ..
— : وانت يا زهرة من هذا البعض .. !
— : نعم ولكن لن أدع أحداً من أهلي يفعل ذلك بعد الآن .
— : وكيف نجت سودة من الموت ؟
قال : « ارسلتها مع الحافر الى الحجون ، وأمرته بأن يدفنها هناك . فلمـــا

حفر لها وأراد دفنها سمع هاتفاً يقول : لا تئد الصبية وخلها . وأعاد القول . فرجع اليّ فخبرني بما سمع ، فقلت : ان لها لشأناً وتركتها فكانت كاهنة القوم كما رأيت .. »

— : ومذاهب الآخرين ؟

— : اما مذاهب الآخرين فكثيرة . منهم من يئد البنات للغيرة ومخافة ان يلحق العار بهم من اجلهنّ وهم بنو تميم وكندة وغيرهما .

— : وما هو السبب في ذلك ؟

— : ان بني تميم امتنعت عن دفع الخراج لملك الحيرة ، فجرد عليهم أخاه مع كتيبة له معظم رجالها من بكر بن وائل . فاستاق نعمهم وسبى النساء. فوفدت وفود القوم على الملك العربي وكلموه في النساء ؛ فحكم الملك بان يجعل الخيار في في ذلك اليهنّ فأية امرأة اختارت زوجها ردّت اليه . فاختلفن في الخيار .. وكانت فيهن بنت لابن عاصم . فاختارت سابيها على زوجها فلحق بتميم العار من اجل ذلك . ولهم نظرة جديدة في أمور البنات اللواتي يولدن .

— : اي انهم اضمروا لهن الموت .

— : اجل ونذر ابن عاصم ان يدس كل بنت تولد له في التراب فوأد بضع عشرة بنتاً .. ويقولون ان ربيعة اول قبيلة وأدت بناتها . فكانت الحامل اذا قربت ولادتها حفرت حفرةً فمخضت على رأس تلك الحفرة فاذا ولدت ولداً حبسته . ! ومنهم من يئد بنته في سنتها السادسة فيقول لامها : طيبيها وزينيها فتفعل . ثم يذهب بها الى بئر حفرها في الصحراء حتى اذا بلغها يقول لها :

انظري فيها . ثم يدفعها من خلفها ويهيل عليها التراب حتى تستوي البئر بالارض .

قال : لقد صدق الرواة الذين نقلوا اليّ هذا .

قال : وللوأد حوادث كثيرة واخبار لا اريد ان اذكرها فذكرها يبعث الكآبة الى النفس .

— : وقيل لي انهم يقتلون اولادهم خوف الفقر .

— : اولئك هم الصعاليك الذين لا يملكون شيئاً .

قال : عجباً أفلا يوجـد في العرب من يطعم هؤلاء الصعاليك ويكسوهم ويبعد عن أولادهم الموت ؟

— : بلى في كل عشيرة انصار للمعوز والمحتاج . والكثيرون من عقلاء العرب واشرافهم لا يرضون بأن يئد العربي بنته فهم يفتدونها ويكفونه مؤونتها .

— : هكذا يجب ان نفعل نحن بني كعب بن كنانة . ان الانسان لا يدفن اخاه الانسان وهو حي . فاذا اخطأت واحدة من النساء فليس من العدل ان نقتل بتلك الخطيئة جنسهن جميعه . واما ذلك الذي يقتل بنته خوفاً من ان تجوع فهو الجبان الذي تشبه نفسه نفس الثعلب . ما وراءك ايضاً ؟

قال : أعرف عادات العرب ومفاخرها كلها فما عليك الا ان تسأل .

قال : لنبحث الآن وقبل كل شيء عن المال . اني بحاجة اليه كما ترى وليس لي ان اخطو خطوة الى الامام قبل ان يجتمع لديّ منه ما يكفي . قصّ عليّ ما تعلم عن اسواق العرب التي يكثر فيها البيع والشراء .

— : أأذكر لك القريب منها ام ماذا ؟

— : بل اذكرها كلها فقد ننتقل من هذه السوق الى الاخرى في عام واحد نبحث عن الذهب ..

قال : ينزلون دومة الجندل اول يوم من ربيع الاول والبيع فيها بيع الحصاة

— : وكيف ذلك ؟

— : « يقول احد المتبايعين للآخر : ارمِ هذه الحصاة فعلى اي ثوب وقعت فهو لك بدرهم » .

— : اذن يعود ذلك الى الحظ .

— : نعم وقد يقول : « اي شاة اصابتها هـذه الحصاة فهي لك بكذا » فبيعهم هذا شبيه بالقمار من كل وجوهه ، ولكن للربح لا للمفاخرة .

قال : وأسألك عن القمار لأرى اذا كان كما هو في الشام .

قال : لم نذكر الاسواق بعد « ان دومة الجندل تقوم سوقها الى نصف الشهر

وقد تطول الى آخره . ورؤساؤها بنو كلب » وسوق هجر : « اسم لجميع ارض البحرين ينتقلون اليها في شهر ربيع الآخر ويتولى امرهم بنو دارم » ، وسوق المشقر « في البحرين » تقام من اول جمادى الاخرى، والبيع فيها بالملامسة والايماء » .

— : وعلى أي وجه ؟

— : « على أنواع كثيرة؛ فقد يؤتى بثوب مطوي او في ظلمة فيلمسه الطالب ويقول له صاحب الثوب :

بعتكه بكذا بشرط ان يقوم اللمس مقام النظر ولا خيار لك اذا رأيته » ، وسوق الشحر بين عمان وعدن في ساحل البحر وبيعها يشبه البيع في دومة الجندل ، وسوق ذي المجاز القريبة من مكة وهي على فرسخ من عرفة واصحابها بنو هذيل . واعظم المواسم كما تعلم موسم عكاظ .

« لقد ذكرنا بعض هذه الاسواق في روايتنا السابقة » .

قال : اما عكاظ فقد عرفتها هذا العام ولكني لم أسألك عما رأيته فيها من تحجب بعض الرجال . رأيت الرجل يلف بعمامته معظم وجهه وينزل السوق .

قال : لذلك أسباب يجب ان تعرفها . ان كل شريف في العرب انما يحضر سوق بلده ليس غير ، الا سوق عكاظ فانهم يفدون اليها من جميع الاقاليم هذا له اسير يسعى في فدائه . والآخر مظلوم يشكو الى سادة السوق امره . وهكذا على اختلاف الغايات والحاجات .

فقاطعه قائلاً : من هم سادة عكاظ ؟

— : بنو تميم والحكومة لهم . فاذا اجتمعت العرب في السوق اجتمع العدو بعدوه واهل القاتل بأهل القتيل . فيغلي الدم وتستيقظ الضغائن ثم تجرد السيوف وتستعر نار الحرب .

والثأر لا يموت يا قصي كما علمت فاذا هاجت الصدور تحولت السوق الى ميدان تبارز فيه الفرسان ، واصبحت تلك الساحات بحراً من الدماء تغوص فيه رجال العرب واشرافها فيجرفهم تيار الموت الى الفناء .

فعرف قصي الغاية من ذلك التحجب فقال :
ولأجل ذلك لفّوا العمائم كي لا تبين الوجوه .
- : نعم فقد يساوم القاتل ابن القتيل وهو لا يعرفه .
- : ولكن قد يعرف احدهما الآخر بصوته .
- : « أجل ولذلك عمدوا الى وسيلة اخرى يخفي بها الرجل صوته ، عندما تحضر ساعة الخطب والشعر . يقوم الى جانب الخطيب او الشاعر رجل يسمّونه المبلّغ ينقل الى الناس ما يلقنه اياه صاحبه » .
- : وهذا لا يمنع سوء العاقبة .
- : صدقت ، فلما رأوا ان هذه الوسائل لا تكفي دفعوا سلاحهم في عكاظ الى نبيل منهم حتى يفرغوا من السوق والحج ثم يردها عليهم .
قال : والقمار ؟
- : انه على قياس واحد هنا وفي الشام .
- : وهو احدى المفاخر يا زهرة .
- : نعم ، ولا يقامر الا الغني الأبي الجواد . يجيء عشرة من أهل الثروة والمروءة فينحرون جزوراً ويجعلونها عشرة اجزاء يسمونها الاسهم ، ثم يأتون بعشرة قداح « ويقال لها الازلام والاقلام » لكل منها اسم معين ونصيب معين ، يربح من الاسهم بمقداره ان ربح ، ويغرم من ثمن الجزور بمقداره ان خسر . وقد رأيت القداح في الكعبة وحدثتك بأمرها . وهذه القداح « وهي من نبات ينبت في الجبال اسمه النبع ، يتخذون منه السهام والقسي » ، ينحتونها حتى تصير في طول واحد ، ويعينون قيمتها بجزور « خطوط » يفرضونها فيها فيجعلون في القدح الاول خطاً واحداً ، وفي الثاني خطين ، وهكذا الى السابع منها ففيه سبعة خطوط ، اما الثلاثة الاخيرة فلا خطوط فيها .

ثم يقف صاحب القداح ، وخلفه رجل رقيب هو الحكم ، ويضع القداح في خطوط تدعى الربابة او يدفنها في الرمل بعد ان يخلطها خلطاً يمنع تميز احدها

من غيره ، ثم يضرب « اي يسحب » سهماً ، فان خرج معلماً ربـــح صاحبه بمقدار الخطوط التي فيه . أهكذا يفعلون في الشام ؟

— : نعم . ولهذه القداح اسماء معروفة ربما كانت الاسماء نفسها التي هي في الحجاز اذكرها يا زهرة .

قال : هي : الفذ والتوأم والرقيب والحلس والنـافس والمسبل والمعلـّى والمنيح والسفيح والوغد . فللأول وهو الفذ سهم ان فاز . وللتوأم سهمان حتى تصل الى المعلـّى وله سبعة اسهم وعليه غرم سبعة .

قال : هكذا يفعل الشامي في قماره فالعادة واحدة ، وماذا يصنعون اذا ربحوا ؟

— : أما الربح فيعطونه الفقراء والمساكين لا يأكل احدهم منه شيئاً ويذمون من لا يدخل في هذا ويسمونه « الـــبرم » وهو الذي لا مروءة له ، وتلك هي المفاخر التي ذكرت .. واما العظم وما عليه فيأخذه الجزار . قـل لي يا قصي . أكنت تقامر فتيان قضاعة ؟

فابتسم قائلاً : الرجل الذي لا مال له لا يقامر احداً ، انظر الآن في امر الاسواق فسأذهب اليها واحده بعد واحدة .

— : وتستطيع ان تأخذ معك ما يطيب لك فمالي كله بين يديك .

قال : سأفعل وسأرى سودة قبل السفر وأباحث عقلاء الحي في الامر .

— : اتستشير بنت اخيك كما قلت ؟

— : اجل فهي خير من شيوخ القوم .

ونهض وهو يفكر في ذلك المجد الذي سيبنيه بقوة ارادتـه ، وكان زهرة يقول في نفسه : كنت أقرأ على وجه هذا الأخ الفتى دلائل الجنون . امـا الآن فيخيل اليّ اني عبد له وانه اعقل الرجال ، وسيكون له شأن كما قال .

* * *

عندما كان عبدالله في قعيقعان يبحث عن منقذ مولاه صاحب الفرس ذات الهلال ، كان صفوان بن الحارث الذي هو نفسه ذلك المنقذ ، يطوف في احياء مكة مع بعض ابناء قومه ولثامه يخفي معظم وجهه ، وكان ابناء عشيرته يعرفون عادته فلم يستغربوا تنكره .

أجل . كانوا يعرفون ان صفوان اذا احسن في بلد الى احد الناس عمد الى التحجب في ذلك البلد لا يظهر نفسه الا لقومه ، حتى يمر الزمن وينسى الرجل الذي أحسن اليه انه أسير فضله . ولم يكن أحد يسأله عما صنع . بل يكتفون بأن يروا تنكره ليعلموا انه اغاث مظلوماً او أنقذ نفساً، حتى انه اصبح مضرب المثل في حيه ، في ذلك التنكر الذي هو كل المروءة وكل العز .. وهو يعلم ان ذلك الشذوذ لا يأتيه احد غيره ولكنه كان يستلذه ويطيب له ان يتخفى بعد معروفه واحسانه ، ولم يقم في ذهن صفوان ان امير صوفة يبث عليه العيون في مكة ويرسل مولاه الى الشعاب ليعرف المحسن اليه ، بل لم يقم في ذهنه قط ان الجرح في ابهامه سيدل عليه . وان ذلك الهلال في جبهة فرسه سيفضح سره .

ولو خطر ذلك بباله لأوصى غلمانه بأن لا يبوحوا لأحد باسمه .

لقد رأى عبدالله جاثياً على قدمي هبل ، وهو يعرفه كما يعرف مولاه ، فخيل اليه انه يخاطب الآلهة ويصلي كما يصلي حجاج البيت . ولكنه عندما همّ بالخروج ونهض عبدالله ليخرج وراءه وهو يحدق اليه دبت الريبة في صدره ، وقام فمشى كأنه لا يبالي به حتى اختلط بالناس وعبدالله سابح في فضاء الخيال ثم نزع لثامه وخرج مع الوفود وكان ذلك آخر العهد به ..

وفي اليوم الثاني عاد الى التحجب وهو لا يعلم ان عبدالله يبحث عن فرسه في ذلك اليوم ولا يبحث عنه ، وبعدما زار الكعبة مرتين . خرج مع رهط من اخوانه يروحون ويجيئون حتى اقبل المساء .

فبينا هو بالقرب من المطاف وقد رفع عمامته عن وجهه لكثرة الحر ابصر

وجهاً ليس غريباً عنه ولكنه لا يذكر اين رآه ، فقال لقومه : اريد ان اعرف هذا الرجل ، وخطا اليه بضع خطوات ثم تفرس فيه قائلاً :

اتعرف من انا ؟

فنظر اليه وهو يتظاهر بالخوف ثم قال : اما هذا الوجه فقد رأيته وهـذا الصوت فقد سمعته من قبل . ولكني لا اعرف من انت يا مولاي .

– : اذكر اسمك .

قال : انك لا تعرفني ولو ذكرته . اسمي عدوان ..

فوضع صفوان يده على جبينه فلم يذكر شيئاً . فقال الرجل: اني مولى جبير ابن عبادة يا مولاي .

– : جبير بن عبادة .. ذلك اللعين الغدار الذي كاد يقتل ..

فقال : الذي كاد يقتل امير صوفة في ميدان مكة .

فانتهره قائلا : اسكت والا ..

– : والا ماذا يا مولاي ؟ أتقتلني في الشهر الذي لا تحمل فيه العرب سلاحاً وانا بجوار الكعبه اطوف حولها ؟ انك لا تقتل الناس بـل تنقذهم من القتل كما انقذت زياداً في ذلك اليوم .

فضحك القوم قائلين : لقد عرفنا صاحبك يا صفوان فهو الأمير الذي يجـيز الناس من عرفة ..

قال : لقد فضحتني ايها اللعين فاستعد للموت .

– : ألآن ؟؟

– : الآن ولو كنت في جوف الكعبة ..

قال : ورب البيت لو رأيت السيف في يدك ثم أحسست به يحز عنقي لـما صدقت انك تفعل .. دعني اقص على سادات العرب ما صنعت بجبير ..

فقال القوم : اذكر ماصنع ولا تخف .

فقال صفوان : احذر ..

قال : أتخوفني بالموت، والموت نفسه يحترم الشهر الحرام؟ اسمعوا أيها القوم،

كان زياد بن كعب على فرس له يركضه في الميدان فتصدى له جبير بن عبـــادة ليقتله ، فحال هذا الفتى بين الاثنين .

قالوا : ولكن لم يكن معه سلاح .

فمدّ صفوان يده الى عنق الرجل وهم بان يجذبه اليه .

فقال احدهم : اسألك بتربة الحـارث وبكل مـا في الكعبة من أقداس ان تأذن لهذا الرجل في القول .

قال : ايفضح اسراري وانا انظر اليه ؟

قال : لم يبق هنالك من اسرار . لقد باح بما كتمتنا اياه وانتهى الامر . قل ماذا جرى ايها الرجل .

قال : وقـد عرض صفوان سيفه على زياد فأبى هذا أن يقتل جبيراً واكتفى بان خيّره بين الرحيل عن مكة الى الابد وبين الموت .

– : وماذا فعل جبير ؟

– : آثر الرحيل لأنه لا يطيق ان يعصى زياداً .

– : ولأي سبب أراد ان يغدر به ؟

– لأنه أبى ان يزوجه بنته .

– : ليلى ؟

– : نعم ليلى وجبير يكاد يموت غماً وغراماً .

قال : عرفت ليلى فلم أرَ أجمل منها وجهاً..ما رأيك يا صفوان في الجمال؟..

وكان صفوان قد استند الى الجدار وهو ساكت فقال: ليس لي فيما لا أعـــلم رأي .. أتعني جمال بنت زياد ؟

– : نعم فهي حسناء الحجاز .

فقال آخر : صف لصفوان الخيل ولا تصف له النساء .. انه لا يطيب له العيش الا بين الجياد ..

قال : لو رأى ليلى لنسي « المرحة » و « روحاء » و « العقاب » وجميع ما يملك من أفراس .. ونظر اليه وهو يبتسم .

فقال : دعونا من هذا الآن وقل لنا ايها اللعين أين ذهب مولاك ابن عبادة

قال : ترك مكة الى حيث لا أعلم ..

— : وماشيته وامواله ؟

— : أخذها كلها لم يبق منها شيئاً .

— : وانت ماذا تصنع في مكة اتبحث بعد عن زياد بن كعب لتطعنه من الوراء كما اراد مولاك ان يفعل ؟

قال : لقد تركت جبيراً يا مولاي فانا اليوم حر .

— : كذبت يا لعين فاذا كان ابن عبادة هو الذي عرفته فانت باقٍ عنده ولست من الاحرار . ان ذلك الوغد لا يجعل عبيده أحراراً ..

وقال : صدقني يا مولاي فانا لا أجسر على الكذب ..

— : وهل بلغ به الجود والاباء ان يطلق عبداً ؟

— : كانت حريتي نتيجة خوفه يا مولاي .

— : وماذا يخاف ؟

قال : ألم أكن شاهداً على غدره في حادثة زياد بن كعب ؟

— : بـــلى .

— : لقد خاف ان أبوح لاشراف العرب بما رأيت فجعلني سيد نفسي وأمرني بالرحيل الى اليمن ..

— : لو كان ذلك صحيحاً لدعاه خوفه الى الاحتفاظ بك لكي لا تفشي سره وهل يخشى العــــار مثل ابن عبادة وهو يكمن للناس في وضح النهار ليخطف ارواحهم ؟

— : لقد جعل حريتي قيداً لي مولاي ..

— : في ي شيء ؟

— : وهبها لي وشرط عليّ الكتمان والانصراف الى بلاد قومي ..

— : وكيف لم تفِ بما وعدته ؟

— : لاني آثرت البقاء في مكة على الذهاب الى بلد تركته صغيراً ولا أعرف فيه احداً وليس لي فيه أهل ..

— : واذا عرف انك باقٍ ؟

— : كان نصيبي الموت ولكنه غـادر المدينة على أمـل أن لا يعود اليهـا وزيـاد حي .

قال : لو رأيتك أمـام هبل ، وسمعتك تقسم على قدميه بجميع آلهة الكعبة لما خطر لي انك صادق ، في أي منزل تقيم ايها الرجل ؟

— : في منازل الغرباء .

— : وتنفق من المال الذي اعطاك اياه جبير . أليس كذلك ؟

— : نعم لقد أعطاني ما يكفيني سنة ..

— : وعندما ينفد هذا المال ؟

— : أمد يدي الى المحسنين من العرب ..

ففاجأه قائلا : اذن تتبعني منذ الآن وتكون خادماً لي ..

فأجابه دون ان يتردد : لا اخدم أحداً بعد الآن فقد مكثت في بيت عبادة أربعين سنة وهذا يكفي .

فضحك صفوان والتفت الى الجماعة وهو يقول: انظروا الى هذا اليمني الذي لا يطيب له الا ان يخدم السارقين .

قال : لقد مللت الخدمة يا مولاي .

قال : أجعلك رئيس الرعاة ..

— : وتعبت من رعي النوق ..

— : اذن سأسأل حليل بن حبشية ان يعتزل سدانة الكعبة . وأسأل العرب ان تجعلك سادنها فينتهي الامر .

قال : لو أعطيتني حجابة البيت لما رضيت .

— : وماذا يرضيك ؟

— : خدمة في بيت زياد بن كعب .

– : أتؤثر خدمة زياد على الامارة ؟

– : بل أوثرها على ملك العرب ..

فقال ابن عم لصفوان : ان لذلك حكاية ايها اليمني .

– : أجل . وهي ان ملك العرب لا يساوي نظرة من عيني ليلى الخلابتين .

– : ذلك اغرب ما سمعت ايها القوم .. ارأيتم عبداً يعشق عندما يعشق مولاه ويبغض حينما يبغض ؟

قال : اما العشق فبعيد عن الشيوخ ولست من العاشقين، ولكن ليلى احسن من في الحجاز من النساء ، والنظر اليها كل صباح احدى النعم .. ورب الكعبة لو رآها صفوان هذا لنسي جبيراً وكل ما في مكة من صور ، ونسي خيله التي تذكرون . انها ايها الاشراف تفتن العابد الذي لا يخرج من هذا البيت ، بيت الله .. وأظن ان زياداً يزوجه اياها لانه انقذه من الموت . اجل . ولتكن ليلى لك يا صفوان .. يا مولاي .. فليس في مكة من الرجال من يليق بأن يكون لها عبداً ..

ثم قال : ألست يا مولاي من اشراف هذا البلد ؟

فأجابه صفوان قائلاً . اتجهل بني كنانة ايها اللعين وهم سادة الحجاز ؟

– : عفوك يا مولاي فانا أعلم أنك من هؤلاء القوم. سمعتهم يستحلفونك بتربة الحارث فأي حارث هذا ؟

فقال : لقد حزرت الآن . انك تريد ان تعرف من انا لتنقل خبري الى مولاك فيستعيد شرفه .

– : أتعود الى ذكر الرجل وانا لا اعلم اين هو !

– : قل ما شئت فانت كاذب وانا لا ابالي بمولاك فاذكر له كل شيء . قل له أن الرجل الذي تصدّى لك في ميدان مكة وعرض سيفه على زياد ليقتلك به هو صفوان بن الحارث بن شجنة . فاذا أحب أن يغدر بي فليستعن بظلام الليل وليحمل سلاحه تحت ثيابه فيطعن به صدري في ساعة لا أرى فيها حولي احداً ولا استغيث بأحد .

فقال اللعين في نفسه : لقد عرفتك الآن . وبقي عليّ ان تسأل زياداً ان يزوجك ليلى . فاذا رضي فقد قتلت وقتل زياد .

وجعل يبتسم ويقول : لو كان ابن عبادة في مكة لفضلت الموت على المثول بين يديه . اني لا اجسر على الظهور في مكة وهو فيها كما قلت . سأذهب الان يا مولاي وقد لا اراك فيما بعد . افتأذن لي في كلمة اقولها وانصرف .

فتردد في الجواب .

فقال احد الفتيان : ماذا ؟

قال : لا تنسوا زياداً وابنته فليطلبها صفوان قبل ان تمسي زوجة لرجل مثل جبير ..

فاستشاط صفوان غضباً واسكت ابن عمه قائلاً :

أيكون لهذا الرجل رأي في زواجي ؟ اي شأن له مع ليلى بنت زياد ولماذا الح في هذا الطلب الذي لا يعنيه ؟.

ومشى اليه وهو يقول : لو لم يكن مس السلاح حراماً في هذا الشهر لعلمتك كيف يسكت مثلك الى الابد . اذهب الى لعنة الله والا فانا قاتلك .

فرأى عدوان ان لهجته لهجة قاتل وخير له ان يصون حياته بالانصراف فقد عرف ما اراد ان يعرفه ، بفضل القضاء والقدر .

فترك الجماعة وهو يتلفت الى الوراء ويقول :

يا صفوان بن الحارث . ان هذا العبد اليمني الذي تستخف به سيكون جلادك وجلّاد ابن كعب ، وجبير بن عبادة الغدّار سيأخذ ليلى بنت زياد ولو كانت بين يديك .

وكان الليل قد سدل حجابه فاختفى في الظلمات .

* * *

أتعود بعد الى التحجب يا صفوان ؟

قالها رجل من الجماعة وهم قائمون الى جانب المطاف .

فاجابه قائلاً : تريد ان تقول ان التحجب لا خير فيه بعد ان فضحني اليمني.

— : نعم ، فقد عرفنا الآن انك انقذت اميراً من الموت. ولهذا الامير الذي تعرفه العرب بنت هي سيدة الحسان . لقد كان لهذا اليمني فضل فيما قصه علينا الليلة . انه أنقذك من ذلك اللثام الذي تختنق صاحبه . ما رأيـك في الاقتراح الذي سمعته ؟

أي اقتراح هذا ؟

— : أنسيت ليلى ؟

— : قلت لك من قبل انه لا رأي لي في امر لا اعرفه .

— : ولكن نريد ان يكون لك هذا الرأي .

— : أما انا فلا أعلم ماذا تريدون .

قال : تذهب غداً او بعد غد فتخطب الفتاة .

— أخطبها لك او لسواك ؟

— : بل تخطبها لنفسك فليلى احدى النعم كما قال صاحبنا الآن .

— : هب انها احدى نساء الجنة فانا لا ارغب في الزواج ولا افكر في النعم

— : وتتركها لجبير ؟

— : ماذا يفعل جبير وابوها لا يزوجه ؟

قال : ستصلح الشيوخ بين الاثنين .

— : لم يبق زياد سبيلاً الى الصلح . انه يطرد ابن عبادة من بيته كما يطرد الكلب ولو كان مع حاجب الكعبة .

قال : اذا قال حليل كلمته انتهى كل شيء .

— : اما حليل فلا يقول هذه الكلمة .

— : من يعلم ؟

— : أنا .. ان جبيراً طلب حبى قبل ان يطلب ليلى فلم يستجب الامير ذلك الطلب . أتعرف لماذا ؟

— : لا .

— : لان جبيراً يملك بعد ابيه المال الحرام ، ألم تسمع ؟ انه ابن سارق وقص

على القوم ما يعرفه عن الرجل .

فقال : ولكن الغرام الذي يتغلغل في صدره يدفعه الى ما لا يحب زياد ولو استقبل الموت .

— : اي انه يدفعه الى القتل .

— : لا . بل يأخذ ليلى على الرغم من ابيها ولو كان امـــير صوفة الذي يجيز الناس .

— : وكيف يفعل ؟

— : يخطفها كما يخطف الذئب الشاة .

— : ولكن صفوان بن الحارث يخطف روحه من بين جنبيه .

— : اذا قدرت .

قال : وتربة ابي لا يمس ابن عبادة ليلى وانا حي .

— : اذن فانت تضمر الشر لفتى لم ترَه غير مرة واحدة .

— : بل رأيته كثيراً قبل ذلك اليوم . اجل انه لم يكن عدواً لي من قبـــل ولكنه اصبح ، بعد تلك النذالة التي رأيت من ألد الاعداء . اني عدو النذل اينما وجد ، وعبد للرجل الشريف في كل زمان . وانا لم اصدق كلمة من ذلك الكلام الكثير الذي قاله اليمني لانه مثل مولاه .

قال : أرأيت ابن عبادة بعد تلك الحادثة ؟

— : لم أرَ له وجهاً .

— : وهل سمعت ان احداً رآه في مكة ؟

— : لا . ولماذا تسأل عن هذا ؟

— : لأرى اذا كان باقياً فيها واعرف اذا كان ذلك اليمني كاذباً كما تقول .

قال : وانا بدوري اسألك سؤالاً .

قال : سل ما تشاء .

قال : أتعرف كم هو الزمن الذي قضاه عدوان في بيت عبادة ؟ لقد مضى عليه اربعون سنة وهو في ذلك البيت .

— : واذا كان ذلك .

قال : ألم تسمعه يذم مولاه وهو الذي رباه؟ انه اذا كان صادقاً فيما رواه عن رحيله ، فلا تنس انه كان من الناحية الاخرى نبيلاً جداً في ذلك الذم .

قال : وماذا تريد الآن ؟

— : لا اريد الا ان يسلم زياد بن كعب من شر الغادر ، لقد أصبحت الآن واثقاً بأن جبيراً لم يترك مكة وانه سيمد يد الأذى الى الرجل وابنته .

— : اذن لم يبقَ عليك الا ان تحمي الاثنين ..

فقال فتىً آخر : وانا أرى ان تحمي نفسك قبل ان تحمي الناس .

— : أتظن ؟

قال : اذا كانت هذه صفات صاحبك فحياتك في خطر وقد عرف جبير من أنت .

قال : انها حرب لا يعرف فيها العدو من هو عدوه ..

— : وهذا هو موضع الخوف . اتفعل ما اقوله لك يا صفوان ؟

— : مـــاذا ؟

قـال : ارى ان تزور زياداً في قصره وتنقل اليه أنك رأيت مولى جبير في مكة وان خاطب ابنته لم يبرحها كما ظهر له .

— : وماذا يجري بعد ذلك ؟

— : تبثون العيون على الرجل وتكونون جميعكم اعواناً عليه .

فاطرق صفوان يفكر في ذلك الرأي .

قال : وأرى ان تعود الى التحجب كما كنت .

— : اما التحجب فلا بد منه كما رأيت ، واما ان ازور امير صوفة فهذا ما لا افعله اليوم ..

— : لأني اكره ان يظن بي زياد الظنون ..

قال : ذلك وهمٌ ليس لك فيه عذر ..

— : بل هي فكرة يمليها عليّ الشرف والمروءة.. أأنقذ زياداً من الموت وهو

لا يعرفني ثم اذهب اليه فأقول له انا الذي عرضت عليك سيفي ؟

– : بل تسأله الاستعانة بهذا السيف مرةً ثانية اذا أراد وهذا منتهى الشرف ..

قال : ذلك منتهى اللؤم .. ويخيل اليّ ان زياداً سيقول : لم يظهر لي هذا الفتى نفسه الا لغرض من الأغراض .. هذا يفعله من يطلب مكافأة واحساناً .. وابن الحارث لا يكون صغيراً الى هذا الحد ..

قال : يعرض عليك فتأبى وينتهي الامر ..

– : ورب هذا البيت لا أطيق ان يوجه الي كلمة شكر على ما فعلت .

– : اذن كتب لك ولزياد بن كعب ، ان تموتا عن يد جبير بن عبادة . وستندم في ساعة لا ينفعك فيها شيء ..

فغطّى صفوان وجهه من جديد وهو يقول : سأبحث عن الرجل وانا مقنع وسترى من يفوز .. وعندئذٍ سمعوا حركة بالقرب منهم ..

وخيل الى احدهم انه يرى شبحاً يتردد بجلباب الظلام .. فانصتوا .. ثم راجعوا بحذر الى الوراء فلم يبصروا احداً ، فمشوا يريدون مضاربهم في الحلّ وهم لا يعلمون ان عدوان سمع حديثهم من اوله ..

* * *

من انت أيها الرجل ؟

– : انا نجدي لا تعرف اسمي اذا ذكرته .

– : وماذا تريد ؟

– : جئت اسأل مولاي امير صوفة ان يحسن اليّ ..

فنظر زياد الى ابيه كأنه يسأله عن صوته فرأى ليلى تضحك وهي تنظر الى النجدي .. فذكر عندئذٍ حكاية ذلك الغريب الذي رأته ليلى خارجاً من غرفة عبدالله .. فقال :

عبدالله ؟

– : أجل عبدالله يا مولاي بقلنسوته وكحل عينيه ..

فحدقت اليه العيون .

ثم قال زياد : يخيل الي انك لمست بيدك افراس بني كنـــانة جميعها لم تترك منها واحدة .

– : نعم يا مولاي حتى وضعت يدي على الحمراء ذات الهلال ..

فاشرق جبينه قائلاً : أعرفتها ؟

– : اجل وعرفت صاحبها فهو صفوان بن الحارث .

فجعلت ليلى تلتفت الى جدها وابيها لترى تأثير ذلك القول .. فردد الاثنان قائلين : ابن الحارث ؟

قال : الحارث بن شجنة وهو من سادة القوم ..

فقال ابو زياد : عرفته ورب الكعبة فهو من أعز العرب ..

– : الوالد ام الولد يا مولاي ؟

– : اما الولد فقد اعتزلت الامـــارة قبل ان يولد ولكني عرفت اباه .. ابن شجنة.. اي ورب الكعبة لقد عرفته.. ابن شرف ونعمة.. لقد ذكرت الآن.. وكان يملك من الخيل ما لا يملكه الحي كله .. كيف رأيت الفتى يا عبدالله ؟

– : ان الفتى في مكة يا مولاي والخيل في قيقعان .

– : اذن رأيت الفرس ولم ترَ فارسها ..

– : اجل ويكفي اني حفظت اسمه ..

– : وفي اي حي هو ؟

– : أتسأل عن أحياء الحجاج يا مولاي ؟ انهم يزورون الكعبة ثم يتفرقون في الوادي .

– : احسنت وبنو كنانة يبيتون خارج الحرم ..

وكانت ليلى ساكتة وقد اعجبها ان صفوان من اشراف الناس . وخفق فؤادها لذكره ولم تشأ ان توجه الى عبدالله سؤالاً خوفاً من ان يبوح اللسان بما في القلب .

ثم عاد الشيخ الى الحديث فقال : من رأيت من القوم ؟

— : الرعاة وحدهم ليس غير .

— : وماذا قالوا عن الرجل ؟

— : انهم يصفونه كما يصفون الملوك ، وقد قصوا عليّ يا مولاي اخبار مروءته وكبر نفسه ..

— : وهل كانت مروءة الفتى حديث الناس ؟

— : نعم ، ولعل اروع ما تسمعه هو انه اذا أحسن الى احد كان احسانه من وراء الستار . اتعلم لماذا لم يبح باسمه لمولاي زياد ؟ انه لم يفعل كي لا يصل اليه احسان الامير .

قال : وقد تحجب كي لا يعرفه أحد وتلك مروءة جاوز فيها الحد .. ولكن بقيت عليك مهمة اخرى يا عبدالله ..

قال : هي ان أرى صفوان نفسه في مكة وأسأله المجيء الى هذا القصر ليرى من فيه ...

وارسل نظره الى ليلى ..

فقال زياد : هو ذاك .

اما ليلى فجعلت تهز رأسها استغراباً .

فقال ابوها : ليستَ ليلى من هذا الرأي .

قالت : اجل ، لقد رأيت غيره يا مولاى ، ايحسن اليك هذا الفتى وهو من اشراف القوم ، فتدعوه الى منزلك لتقوم بواجب شكره ، انها بدعة جديدة يوجدها زياد بن كعب في العرب .

— وماذا نصنع ؟

— : يذهب عبدالله فيطوف مرة اخرى في مكة ليرى صفوان .. ان الامر لم ينقضِ بعد ..

— : اتقولين هذا وقد سمعت عبدالله الآن يروي لك حكاية الرجل ؟ اذن فانت لا تثقين بما تسمعين ..

— : بل انا اشدكم وثوقاً به ، ولكنهم وصفوا له صاحب الفرس الحمراء التي يلمع على جبهتها هلال ابيض ..

— : نعم .

— : فلنفرض يا مولاي ان في الخيل فرسين لهما ذلك الهلال وان الذي وصف لعبدالله ليس صاحبك .

قال : وتلك المروءة التي هي صفة صاحبي ؟

قالت : لم يصب الحجاز بقحط في الرجال حتى يجمع ذلك الفتى نبالة الخلق وحده .. ان في العرب يا مولاي اشرافاً غيره ..

فحنى جدها رأسه وقد استحسن ذلك القول .

ثم قـــالت . يرى عبدالله صفوان كما قلت .. يرى عينيه وأثر جرحه .. ثم يقول له بعد ذلك بلغنا الغاية ؟

قال ومتى فعل ذلك بلغنا الغاية ؟

قالت : تبلغ الغاية يا مولاي عندما تذهب الى منزل الرجل في حيه ، وتقول لبني قومه ، صاحبكم هذا انقذني من الموت ، ثم تبعث اليه من خيلك بفرسين ، احدهما الفرس الذي ركبته الى الميدان في ذلك اليوم .

فقال عبدالله : ستنظرون في هذا بعد ان نرى الرجل .

قالت : اما وقد عرفت اسمه فستراه عندما تسأل عنه .

— : وقد ينكر ما جرى على عادته في مثل هذه الامور .

فقال زياد : ليفعل ما يشاء فاذهب الآن .. وابتسم لابنته وهو يقول : اذا كان الرجل صفوان بن الحارث او غيره . فسيكون احساننا اليه اكثر مما تظنين . . .

واقام الثلاثة يتحدثون وقد قام في اذهـــانهم ان صاحبهم هو صفوان بن الحارث نفسه ، وان عبدالله لا يعود الا وقد رآه ..

* * *

من يعرف صفوان بن الحارث ايها القوم ؟
فضحك احدهم قائلاً :
انك تسألنا عمن لا نعلم .
وقال آخر : من أي قوم صاحبك هذا ؟
وقال آخر : يخيل الي ان صفوان هذا من صعاليك العرب ..
فقال عبدالله : ممن انتم ؟
— : اذكر لنا من انت اولاً .
— : أنا مولى زياد بن كعب امير صوفة .
فاجابه احد الفتيان : اذا كان هنالك امراء فنحن نـدلك على الرجل فهو ابن عمنا .
— : واين اجده ؟
— : يجب ان تطوف حول البيت عشر مرات حتى تجده .
— : مع الحجاج ؟
— : اجل معهم . وان لم يقع نظرك عليه فاقصد الصفوف المنتشرة عـلى عرض الوادي وانظر بينها الى جماعات الفقراء فهو معهم يغيث مظلومهم .
فهمّ عبدالله بالذهاب .
فاستوقفه قائلاً : ولكن لا تنسَ ان صفوان يغطي وجهه بعد كل مأثرة من مآثره ..
فقال في نفسه : هذا هو اذن وليس في القوم غيره . ومشى وهو ينظر الى جانبيه ، حتى وصـل الى البيت ، ولم يكن للحجاج نظام في تلك الساعة .. فخيّل اليه ان عينين كعيني عدوان تحدقان اليه من بـين الصفوف ، فخفق فؤاده . ثم مشى مسرعاً الى حيث رأى الرجل فـلم يبصر الا الوجوه التي لا يعرف ، فقام في ذهنه انه مخطىء . ولكنه لم يكن يفكر في عدوان ليمثل امام عينيه ، بل كان قد نسيه كما نسي مولاه .
غير ان العينين اللتين حدقتا اليه هما عينا ذلك اليمني .. ولم يكن عبدالله

مخطئاً في تصوره . فقال في نفسه : لقـد كتب لي ان ابحث عن الكثيرين من الرجال .. خدعنا ابن عبادة وتخفى حتى قـام في اذهاننا انه ترك مكة الى الأبد . ورب الكعبة ان له في هذا الاستخفاء لغرضاً . فاصبر يا عدوان . اصبر ريثما اجد صفوان بن الحارث فاعود الى البحث عنك وعن مولاك . وتغلغل في الصفوف وهو يرسل النظرات الخفية الحادة فلم يجد لعدوان أثراً ، فلم يبالِ ، وانصرف الى ذلك الشأن الذي قدم لاجله ، حتى توسط الوادي ، وقبائـــل العرب تقوم على جانبيه وقد اختلط سيد القوم بالصعاليك . وضاع الرؤساء والنبلاء بين فرق العامة من كل جنس .

ولكن عبدالله اعظم من ان يستسلم الى اليأس . انـه سيتبين وجوه القوم واحداً بعد واحد حتى يرى وجه صاحبه ، واذا كانت العمامة تغطي ذلـك الوجه فقد عرفه وانتهى الامر ، وبينا هو يطوف حول الناس سمع رجلاً يقول لآخر : انه يقضي حاجات الفقراء كأنه ملك .

فاجابه رفيقه قائلاً : لعله احد امراء كندة .

قال : الامراء بين الحجاج كثيرون فلا يعرف من اي قوم هو .

— : ويظهر انه كثير المال .

فتصدى لهما عبدالله وهو يقول : من هو هذا الرجل الذي تذكران ؟

وكان الاثنان من بني عبس فقال احدهما :

لو عرفناه لذكرنا لك اسمه . انه ملاك بعثه الى الحجاج سيدنا اسماعيل .

— : وتقولان انه يعطي الفقراء ؟؟

— : أجل ولا يرد سائلاً .

وكان عبدالله يريد ان يعرف صفته . فقال :

يخيّل اليّ اني رأيته امام البيت منذ يومين فهو شيخ ابيض اللحية والرأس .

فقهقه الرجل ثم قال :

— : لقد غطّى رأسه ولحيته بقناع فلم نرَ شيئاً ممـــا ذكرت . لقد سمعنا صوته وهذا يكفي .

قال : والرجال تعرف من اصواتها فماذا بدا لكما ؟؟

— : بدا لنا انه من الفتيان .

— : ولهجته ؟؟

— : لهجة اهل الحجاز . ألست حجازياً ؟

— : بلى .

— : وتجهل المحسنين من قومك ؟

— : لم اجد في قومي من يحسن الى المعوزين وانا منهم . فهل اعطاكما شيئاً ؟

فقال : ملأ راحتي مالاً ولم يسألني ممن انا .

قال : ارشداني اليه لعلي اصيب بعض هذا المال .

— : الا ترى هذه الخيام السود ؟

— : أراها .

— : وذلك الدخان الذي يحجب وراءها الأفق ؟

— : أراه .

قال : ان الرجل مع اصحاب الحاجات بالقرب منه .

فشكرها عبدالله وركض لئلا يفوته .

وهناك .. في سفح ذلك الجبل . رأى عبدالله بضعة وعشرين رجلاً يحدقون بالفتى المقنّع الذي يطلبه ، وهو يعطي الواحد منهم ثم يصرفه لينظر في أمر غيره . فلم يجسر على الدنو منه خوفاً من ان يضيعه . وهو لم ينسَ فشله في المرة الاولى واحتجاب الفتى في دهاليز البيت ، وقد رأى ان يصبر حتى يتفرق اولئك الصعاليك الذين يمدون ايديهم لأخذ المال ..

وكان قد نسي كل ما حوله من مشاهد ومن حجاج ولم يفكر الا في صاحب القناع وهو واثق بأن صفوان بن الحارث لا سواه ، وجعل ينظر اليه والى الفقراء الذين يدعون له ، وقلبه يضطرب في صدره . ولو ارسل عبدالله نظره الى خيمة منفردة تقوم الى الجانب الآخر لأبصر رجلين اثنين ينظران اليه والى فتاة بعيون تتقد فيها النار ..

ولو كان قريباً منهما لسمع احدهما يقول للآخر :
ليبذل هذا المجنون ماله فسيموت قبل ان يرى ليلى بنت زياد .

* * *

- ١٣ -

مدّ الظلام رواقه فوق ذلك الوادي الذي تبيت فيه العرب .

وتصاعد دخان الحجاج في الفضاء .

اما ذو القناع فلم يترك الجماعة الا عندما آوى الناس الى المضارب .

وعند ذلك نزع قناعه ومشى يريد قومه ولكنه لم يكن وحده في طريق الوادي بل كان هنالك ثلاثة رجال يتبعون أثره ، عبدالله ، والاثنان الآخران ، وهو لا يعلم ان العيون تنظر إليه من الوراء .

كما ان عبدالله لم يكن يعلم شيئاً من هذا .

حتى وصل صاحبنا الى البيت فوقف ينظر لى وجوه القوم القائمين حوله كأنه يطلب رفاقاً له ، وامام البيت تقوم الانوار .. فتقدم عبدالله بقدم ثابتة وهو يقول : اعطني يا مولاي كما أعطيت اولئك الفقراء . ومدّ اليه يده يسأله احساناً .. فبغت الفتى وأخذ ينظر الى محدثه ، ثم تلجلج صوته قائلاً : أفقير أنت ؟

— : نعم وبحاجة الى القوت ..

قال : هب انك محتاج فمن قال لك اني من المحسنين ؟

— : رأيتك تهب مالك باليدين ..

— : كذبت فلست من الاغنياء ، وحوّل عنه وجهه وقد عرف انه مولى زياد بن كعب .

لكن عبدالله كان وقحاً فقال : كلمة يا مولاي .

قال : قل كلمتين ايها اللعين فقد عرفت من أنت .

لقد عرف أحدنا الآخر فلا سبيل الى الكتمان .

قال : انك مولى زياد بن كعب .

— : وانت يا مولاي صفوان بن الحارث .

— : وأي غرض لك ؟

— : وهل تجهل غرضي وغرض مولاي الذي أنقذته من الموت .

فارتجف صفوان ثم قال : ان مولاك لا يحتـــاج الى مثلي . وضحك ضحك الساخر الهازىء بما يراه .

فاضطرب عبدالله . وخيّل اليه انه يخاطب رجلاً ليس بينه وبين صفوان وجه شبه ، فقال : اتعود الى التحجب يا مولاي وانا ابحث عنك باسم زياد وقــد طفت غير مرة في مكــة وفي الجبال حتى رأيت وجهك ؟

فحاول الفتى بدوره ان يخدعه فقال له :

انك لم ترَ بعـــد ذلك الرجل الذي طلبت .. اني من يثرب ولا أعرف صفوان ...

— : بل انت هو وقد رأيت هذه العمامة من قبل .

— : أين ؟

— : في جوف الكعبة امام الصنم الأكبر ثم ضيعتك .

— : اخطأت فالعرب جميعها تلبس العمائم مثل هذه .

— : وقد وُصِفت لي عيناك الساحرتان اللتان أراهما الآن .

— : وفي عيون العرب كلها شيء من السحر ، فاذهب الى مولاك واذكر له ما سمعت ..

— : بقي شيء آخر لا انصرف حتى أسألك عنـــه وأراه بعيني ، وألمسه بيدي ، ثم لك ان تأمرني بعد ذلك بما تشاء .

— : وما هو هذ

لقد قيل لي ان في ابهام يدك اليمنى جرحاً .

فأخفى الرجل يده .

فقال : اعطني يدك يا مولاي لأرى ما وُصف لي .

فوضع يده على كتفه وهو يقول :

أرى ان مولاك لم يترك في وجهي وفي يــدي شيئاً الا وصفه لك .. أنا هو صفوان بن الحارث فماذا تريد الآن ؟

فتنهد عبدالله قائلاً : أمرني مولاي بأن أعرف المحسن اليه وقد عرفته .

— : وبعد ذلك ؟

— : انقل الخبر الى زياد ثم انتظر امراً آخر .

فقال : ان مولاك لم يسأل عن الفتى الذي عرض عليه سيفه الا ليجزيه على ما فعل أليس كذلك ؟

— : لا أعلم فقد يكون ذلك غرضه .

— : وأنا أريد الآن ان تحفظ ما أقوله لك لتنقله اليه دون ان تنسى منــه كلمة . أتعدني بهذ

قال : اقسم لك اني أعيد عليه قولك كله كما اسمعه .

فقال : اني صفوان بن الحارث كما رأيت وانا من كنانة ، وهذه يدي والجرح الذي ذكرت ، فقل لمولاك ان ابن الحارث الكناني لا يقبل جزاءً ولا يريد ان تمتد اليه يد ملك او امير بعطاء، لقد فعلت ما ملاه عليّ خلقي ومروءة العرب . وسأجعل حياتي كلها محامد دون ان يكون لأحد عليّ فضل ، فاذا أحب زياد ان يعطيني شيئاً من ماله فليعطه صعاليك العرب وفقراء الحجاج ذلك خير من ان يبذله لكنعاني لا يحتاج اليه ..

ان مولاك من امراء مكة واشرافها واصحاب الشأن في الحجاز ، وانا فتى لا يعرفني غير قومي وليس لي في هذا البلد رأي ومع ذلك فانا راض بما انا فيه ولا ارغب في جزاء احني له رأسي الى الابد وشهرة تنسيني نفسي وتخرجني عن حدي.. فليعلم زياد بن كعب امير صوفة اني عرضت عليه سيفي في ذلك الموقف الغريب لأنقذ حياة الشريف العربي من غدر الجبان. ولأقطع يد النذل قبل ان تمتد بسوء

الى رؤوس النبلاء .. وهو عمل ليس لي فيه فضل كما ذكرت ، ولا أمن به على احد .. اسمعت كل هذا يا عبدالله ؟؟

– : نعم يا مولاي وانا معجب بما سمعت .

– : وليثق زياد بان سيفي الذي لم يجرد من غمده ، هو له في جميع مواقف الخطر الذي يهدد حياته . اضرب به عدوه ولو كان سادن الكعبة نفسه .. واطرحه عند قدميه عندما يحتاج اليه ، على امل ان لا يذكر المعروف ولا يعمد الى الجزاء ..

قال هذا ومشى كأنه لا يريد ان يسمع جواباً .

فقال عبدالله : ولكن مولاي يرغب في ان يراك واعتقد انك تأذن في هذا .

– : انه يرغب في ذلك ليسمعني كلمات الشكر الذي اهرب منه ولا اطيقه ..!!

– : ولأجل هذه الغاية سيزورك في الحي ..

– : ولكنه لا يجدني في المنزل اذا فعل .

– : ان صفوان بن الحارث لا يفر من الناس .

– : سأفر ورب الكعبة .. ثم تمتم قائلاً : اجل اني اريد .. ويجب ان اراه . . .

فبرقت عينا عبدالله وهو يقول : لقد انتهى الأمر الآن وسيزورك غداً .

– : بل اذهب اليه عند الصباح قبل ان يقع ما اخشاه .

فدب الخوف في قلب الشيخ وارتجفت ركبتاه ..

فما هذا الذي يخشى صفوان وقوعه وأي خطر يكمن لزياد وقد نجا من غدر جبير ؟

انه لغز لا يدركه عقل عبدالله ، فقال : أتأذن لي يا مولاي ان اسألك عما سمعت الآن ؟

قال: ستعرف غداً ما تريد ان تعرفه الآن .. ان في مكة افعى تطوف حول بيت مولاك لتنفث فيه السم .. نعم سأزوره غداً وان كنت أكره زيارته ..

وسأمضي في الدفاع عنه الى النهاية فهذا ما كتب لي.. ثم قال : وماذا جرى لأبن عبادة يا عبدالله ؟

ــ : لقد تر مكة يا مولاي ولا نعلم في أي بلدٍ هو .

ــ : ومولاه اليمني ؟

ــ : عدوان ؟

ــ : نعم عدوان ..

فتردد في الجواب ثم قال : ان هـذا اليمني لا يترك سيده .. ومع ذلك فقد خيل الي اني رأيته ..

فاظهر الفتى الاستغراب قائلاً :

متى كان ذلك ؟؟

ــ : في هذا اليوم قبل غروب الشمس .

ــ : أواثق انت ؟؟

ــ : بعض الوثوق يا مولاي فقد رأيت عينين ناريتين تشبها عينيه ..

ــ : ثم اكتفيت بما رأيت ..

ــ : بل هممت باللحاق به فمنعتني صفوف الحجاج من الوصول اليه .

ــ : اما انا فقد كنت اسعد حظاً منك .

ــ : ماذا ؟ ..

ــ : لك ان تعلم ان الاقدار تدفعني الى زياد بن كعب وانا احـــاول الهرب منه .. ولم يبق بد من الذهاب اليه .. فارض بما سمعت والى اللقاء عند الصباح.

وتركه واتجه نحو المطاف ..

فأطرق عبدالله قليـــلا ثم سار بخطى مضطربة يريــد قصر زياد ، وفي الوقت نفسه . أجل في الوقت نفسه تغلـل رجلان في الظلام وهما يتهامسان .. وعلى الواحد منهما قناع كقناع صفوان ..

وقد عرف القارىء انهما جبير وعدوان .. وقد سمعا كل ما قيل ..

* * *

يـــثرب

المدينة الثانية في الحجاز بعد مكة . فيها النخيل والزروع تسقي من الآبار عليها العبيد . ولها سور يعود عهده الى الزمان القديم .

وهي تبعد عشر مراحل عن عاصمة الحجاز ، وحولهـــا . لأهلها ، المزارع والضياع جنات غناء .

يحيط بها مواضع ذكرتهـــا كتب العرب ووردت في الاشعار ، منها بقيع الفرقد من الشرق ، وقباء على نحو ميلين الى ما يلي الجنوب ، وأحُد ، جبلٌ في شماليها وهو اقرب الجبال اليها يبعد مقدار فرسخين ، ووادي العقيق بينها وبين الفرع والفرع يبعد عنه من الجنوب اربعة أيام .

واعذب مياه تلك النواحي آبار العقيق وقد وصفها غير واحـد من الشعراء ومن البحرين الى المدينة كما يقول ياقوت نحو خمس عشرة مرحلة ومنها الى الكوفة نحو عشرين والى دمشق مثلها .

واول من أقام فيها العماليق اصحاب الحجاز الأولون كما قرأت ، ثم جـاء بعدهم اليهود غزاة فاتحين ، فجعلوهـا وجعلوا خيبر ، القريبة منها ، مقراً لهم ، وفي المدينتين وغيرهما من القرى جرروا اذيال النعم والرفاه .

ولهذين الشعبين وغيرهما ممن نزل يثرب حكايات ذكرها ياقوت وابو الفرج والكثيرون من المؤرخين ، نوردها لك ، على قياس العلم بالشيء ولا الجهل به ..

قال صاحب الاغاني :

« كان ساكنو المدينة في اول الدهر قبل بني اسرائيل قوماً من الامم الماضية يقال لهم العماليق وكانوا قد تفرقوا في البلاد وهم أهل عز وبغي شديد .

وكان ساكنو المدينة منهم . بنو هف وبنو سعد وبنو الازرق. وبنو مطروق وملك الحجاز يومئذٍ رجل يقال له الارقم ينزل ما بين تيماء الى فدك . وكانوا قد ملأوا المدينة ولهم بها نخل كثير وزروع .

وكان موسى بن عمران عليه السلام في عنفوان مجـــده وقد بعث الجنود الى الجبابرة من اهل القرى يغزونهم ، وبعث الى العماليق جيشاً من بني اسرائيل ، وامرهم بان يقتلوهم جميعاً ، اذا ظهروا عليهم ولا يستبقوا منهم احداً .

فقدم الجيش الحجاز . فاظهرهم الله عز وجل على العماليق فقتلوهم أجمعين الا ابناً للارقم ، فــانه كان وضيئاً جميلاً فضنوا به عن القتل وقالوا : نذهب به الى موسى فيرى فيه رأيه . فرجعوا الى الشام فوجدوا موسى عليه السلام قد توفي . فقالت لهم بنو اسرائيل : ما صنعتم . فقــالوا أظهرنا الله جل وعز عليهم فقتلناهم ولم يبق منهم احد غير غلام كان شاباً جميلاً فنفسنا به عن القتل وقلنـــا نأتي به موسى عليه السلام فيرى فيه رأيه .

فقالوا لهم: هذه معصية .قد أمرتم ان لا تستبقوا منهم احداً والله لا تدخلون علينا الشام أبداً .

فلما صنعوا ذلك قالوا : مـــا كان خيراً لنا من منازل القوم الذين قتلناهم بالحجاز. نرجع اليهم فنقيم بها.فرجعوا على حاميتهم حتى قدموا المدينة فنزلوها. وانتشروا في نواحيها كلها الى العالية فاتخذوا بهـا الآطام « الحصون » والاموال والمزارع . ولبثوا بها زماناً طويلاً . .

ثم ظهرت الروم على بني اسرائيل جميعاً بالشام فوطـأوهم وقتلوهم . فخرج بنو النضير وبنو بهدل « اليهود » هاربين منهم الى من بالحجاز من بني قومهم لمـا غلبتهم الروم على الشام .

فلما فصلوا عنها باهليهم بعث ملك الروم في طلبهم ليردهم فأعجزوه وكان ما بين الشام والحجاز مفاوز . فلما بلغ طلب الروم الثمد . انقطعت اعنـــاقهم عطشاً فماتوا . وسمي الموضع ، الروم ثمد ، فهو اسمه الى اليوم .

فلــا قدم بنو النضير وقريظة وبهدل المدينة نزلوا الغابة فوجدوها وبيئة . فكرهوها . وبعثوا رائداً امروه ان يلتمس لهم منزلاً سواها .

فخرج حتى اتى العالية ، وهي بطحــان ومهزور ، واديان على تلاع أرض

عذبة بها مياه عذبة تنبت حر الشجر ، فرجع اليهم فقال : قد وجدت لكم بلداً طيباً فيه واديان على تلاع عذبة في متأخر الحرة ، فتحول القوم اليها من منزلهم ذلك. فنزل بنو النضير ومن معهم على بطحان . وكانت لهم ابل نواعم فاتخذوها اموالاً . ونزلت قريظة وبهدل ومن معهم على مهزور فكانت لهم تلاعة وما سقي من أرضه .

وكان يسكن يثرب جماعة من ابناء اليهود فيهم الشرف والثروة والعز على سائر اليهود .

وكان بنو مرانة في موضع بني حارثة . ولهم كان الأطم الذي يقال له الخال. وكان معهم من غير بني اسرائيل بطون من العرب . منهم بنو الحرمان حي من اليمن . وبنو مرشد حي من بلى ، وبنو معاوية حي من بني سليم . وبنو الشظية حي من غسان . وكان يقال لبني قريظة وبني النضير ، خاصة من اليهود ، الكاهنان ، « نسبوا بذلك الى جدهم الذي يقال له الكاهن كما يقال العمران والحسنان والقمران » ، فلما أرسل الله سيل العرم على اهل مأرب وهم الأزد قام رائدهم فقال :

من كان ذا جمل مغنٍ ووطب مدنٍ فلينقلب عن بقرات النعم فهذا اليوم يوم هم وليلحق بالثني من شن « موضع بالشراة » فكان الذين نزلوه ازدشنوءة .

ثم قال لهم : ومن كان ذا فاقه وفقر وصبر على ازمات الدهر فليلحق ببطن مرّ . فكان الذين سكنوه خزاعة . اصحاب مكة .

ثم قال لهم : « من كان منكم يريد الخمر والخمير والأمر والتأمير ، والديباج والحرير فليلحق ببصري والحفير وهي من ارض الشام فكان الذين سكنوه غسان . ثم قال لهم : ومن كان منكم ذا هم بعيد وحمل شديد ، فليلحق بقصر عمان المشيد فكان الذين نزلوه ازدعمان . ثم قال : ومن كان يريد الراسخات في الوحل المطعمات في المحل فليلحق بيثرب ذات النخل فكان الذين نزلوها الاوس والخزرج .

فلما توجهوا الى المدينة تفرقوا . منهم من لجأ الى عفاء من الارض لا ساكن فيه فنزلوا به . ومنهم من لجأ الى قريه من قراها فكانوا مع اهلها ، واقـاموا في منازلهم التي نزلوها بالمدينة في جهد وضيق في المعاش ليسوا باصحـاب ابل ولا شاء لأن المدينة ليست بلاد نعم، وليسوا باصحاب نخل ولا زرع ، وليس للرجل منهم الا الاغـداق اليسيرة والمزرعة يستخرجهـا من ارض موات ، والاموال لليهود . فلبثت الاوس والخزرج بذلك حيناً » .

ذلك مـا رواه مؤرخو العرب عن الشعوب التي ذكرت . ثم كتبوا بعده الروايات عن الاوس والخزرج النازلين بين اليهود قالوا :

« وفد رجل من بني الخزرج يدعى مالك بن العجلان الى ابي جبيلة الغساني وهو يومئذٍ ملك غسان .

[ليس في ملوك غسان ملك يدعى ابا جبيلة ولعله احد امرائهم]

فسأله الامير عن قومه وعن منزلتهم . فأخبره بحـالهم وضيق معاشهم فقال له ابو جبيلة : والله ما نزل قوم منا بلداً الا غلبوا أهله عليه فما بالكم ؟ ثم امره بالمضي الى قومه وقال له : اعلمهم اني سائر اليهم ، فرجع مـالك بن العجلان فأخبرهم بأمر ابي جبيلة ثم قـال لليهود : ان الملك يريـد زيارتكم فأعدوا نزلاً ، فأعدوه ، واقبل ابو جبيلة سائراً من الشام في جمع كثيف حتى قدم المدينة فنزل بذي حرض .

ثم ارسل الى الاوس والخزرج فذكر لهم الذي قدم له واراد ان يمكر باليهود حتى يقتل رؤوسهم واشرافهم وخشي ان لم يمكر بهم ان يتحصنوا في اطـامهم فيمنعوا منه حتى يطول حصاره اياهم .

فأمر ببنيان حائر واسع فبني ثم ارسل الى اليهود : ان أبا جبيلة الملك قـد قد احب ان تأتوه

فلم يبق وجه من وجوه القوم الا اتاه وجعل الرجل يأتي معه بخاصته وحشمه رجاء ان يحبوهم ويحسن اليهم ، فلما اجتمعوا ببابه أمر رجالاً من جنده ان

يدخلوا الحائر الذي بني ثم يقتلوا كل من يدخل عليهم من اليهود .. وامر حجابه بان يأذنوا لهم في الحائر ويدخلوهم رجلاً رجلاً .

فاذن لهم الحجاب وجعل الجند الذين في الحائر يقتلونهم حتى أتوا على آخرهم، فقالت سارة القريظية ترثي من قتل منهم :

بنفسي امة لم تغن شيئاً ... بذي حرض تعفيها الرياح
كهول من قريظة اتلفتهم ... سيوف الخزرجية والرماح
رزئنا والرزية ذات ثقل ... يمر لأهلها الماء القراح
ولو اذنوا بامرهم لحالت ... هنالك دونهم حرب رداح

وقال الرمق وهو عبيد بن سالم احد بني الخزرج من قصيدة يمدح بها ابا جبيلة:

وابو جبيلة خير من يمشي واوفاهم يمينا
وأبرهم براً وأعلمهم بفضل الصالحينا
ابقت لنا الأيام والحرب المهمة تعترينا
كبشاً لنا ذكراً يفل حسامه الذكر السمينا
ومعاقلاً شماً واسيافاً يقمن وينحنينا

فلما أنشدوا أبا جبيلة ما قال الرمق . ارسل اليه فجيء به . وكان رجلاً ضئيلاً غير وضي . فلما رآه قال : عسل طيب ووعاء سوء . فذهب مثلاً ، ثم للأوس والخزرج : ان لم تغلبوا على هذه البلاد بعد من قتلت من أشراف اهلها فلا خير فيكم . ثم رحل الى الشام .

وأقاموا زمناً بعدما صنع واليهود تعترض عليهم وتناوؤهم . فقال مالك بن عجلان لقومه :

والله ما اثخنا يهود غلبة كما نريد . فهل لكم ان اصنع لكم طعاماً ثم أرسل في مائة من اشراف من بقي من اليهود فاذا جاؤوني فاقتلوهم جميعاً .

فقالوا نفعل . فلما جاءهم رسول مالك قالوا : والله لا نأتيهم ابداً وقد قتل ابو جبيلة منا من قتل .

فقال لهم مالك : ان ذلك كان على غير هوىً منــا وانما اردنا ان نمحوه وتعلموا حالكم عندنا . فأجابوه. فجعل كلما دخل عليه رجل منهم أمر به مالك فقتل . حتى قتل منهم بضعة وثمانين رجلاً ، ثم ان رجلاً منهم أقبل حتى قام على باب مالك فتسمع فلم يسمع صوتاً فقال : أرى أسرع ورد وأبعد صدر .

فرجع وحذر اصحابه الذين بقوا فلم يأتِ منهم احد .

قالوا : وصورت اليهود مالكاً في بيعهم وكنائسهم فكانوا يلعنونه كلمـا دخلوها ، فلما قتل من قتل منهم ذلوا وقلّ امتناعهم وخافوا خوفـاً شديداً وجعلوا كلما هاجمهم احد من الأوس والخزرج بشيء يكرهونه لم يمشِ بعضهم الى البعض الآخر كما كانوا يفعلون قبل ذلك . ولكن يذهبون الى جيرانه الذي هو بين ظهرانيهم فيقول : انما نحن جيرانكم ومواليكم . فكان كل قوم منهم قد لجأوا الى بطن من الأوس والخزرج يتعزرون به .

ذلك هو تاريخ المدينة بسطناه لك كما ورد لان للمدينة شأناً في الحجـاز ولكي تزداد علماً بذلك التاريخ ونورد لك حوادث أخرى لها علاقة بما قرأت حوادث زعزعت اركان ذلك الاتحاد العربي في يثرب وجعلت الرجل فيها عدو أخيه لا يعبأ بصلة الرحم يدوسها بقدميه ولا يبالي بالجار يحمل له الموت بين يديه.

* * *

اصبحت الأوس والخزرج بعد نكبة اليهود اعز اهل يثرب واعظمهم نفوذاً، فكثرت اموالهم وبعد ذكرهم . وما لبثوا حتى شيدوا الحصون والقصور وهم مجتمعون متحدون ؛ السماء صافية فوقهم والدنيا تضحك لهم والارض تخرج لهم من جوفها النعم .

وللقوم سيدان هما صاحبا السلطان والرأي ، مالك بن العجلان سيد بني الخزرج . وأحيحة بن الجلاح سيد الاوس .

فبينا القوم على ما رأيت من الهدوء بعث رجل من غطفان من بني ثعلبة بن

ذبيان الى يثرب بفرس وحلة مع رجل من قومه وقال له : « أدفع الفرس والحلة الى أعز أهل يثرب .

فجاء الرسول بهما حتى ورد سوق بني قينقاع فقال ما أمر به ، فوثب اليه رجل من غطفان كان جاراً لمالك بن العجلان الخزرجي يقال له كعب الثعلبي فقال : مالك بن العجلان اعز اهل يثرب ، وقام رجل آخر فقال : بل احيحة ابن الجلاح اعز اهل يثرب . وكثر الكلام . فقبل الرسول الغطفاني قول الثعلبي الذي كان جاراً لمالك بن العجلان ودفعهما الى مالك .

فقال كعب الثعلبي : ألم اقل لكم ان حليفي اعزكم وافضلكم ، فغضب رجل من الأوس من بني عمرو بن عوف يقال له سمير فرصد الثعلبي حتى قتله ، فأخبر مالك بذلك ، فأرسل الى بني عوف بن عمرو بن مالك بن الأوس :

انكم قتلتم منا قتيلاً فارسلوا الينا بقاتله .. فلما جاءهم رسول مالك تراموا به ، فقالت بنو زيد : انما قتلته بنو جحجبا ، وقالت بنو جحجبا : انما قتلته بنو زيد . ثم أرسلوا الى مالك : انه قد كان في السوق التي قتل فيها صاحبكم ناس كثير ولا يدري ايهم قتله ، فأمر مالك اهل تلك السوق بان يتفرقوا ، فلم يبقَ فيها غير سمير وكعب ، فارسل مالك الى بني عمرو بن عوف بالذي بلغه من ذلك وقال :

انما قتله سمير فارسلوا به اليّ اقتله .

فأرسلوا اليه : انه ليس لك ان تقتل سميراً بغير بيّنة .

وكثرت الرسل بينهم في ذلك يسألهم مالك ان يعطوه سميراً ويأبون ان يعطوه اياه ..

ثم ان بني عمرو بن عوف كرهوا ان ينشبوا بينهم وبين مالك حرباً فأرسلوا اليه : ان صاحبكم حليف وليس لكم فيه الا نصف الدية .

فغضب مالك وأبى ان يأخذ فيه الا الدية كاملة او يقتل سميراً .. فابت بنو عمرو بن عوف ان يعطوه الا دية الحليف وهي نصف الدية ، ثم دعوه ان يحكم

بينهم وبينه عمرو بن امرىء القيس احد بني الحرث بن الخزرج وهو جد عبدالله ابن رواحة ، ففعل . فانطلقوا حتى جاءوه في بني الخزرج فقضى على مالك بن العجلان انه ليس له في حليفه الا دية الحليف ، فابى مالك ان يرضى بذلك وآذن بني عمرو بن عوف بالحرب واستنصر قبائل الخزرج،فأبت بنو الحرث بن الخزرج ان تنصره غضباً حين ردّ قضاء عمرو بن امرىء القيس .

فقال مالك بن العجلان يذكر خذلان بني الحرث بن الخزرج له وعطف بني عمرو بن عوف على سمير ويحرض بني النجار على نصرته من قصيدة :

ان سميراً ارى عشيرته ... قد حدبوا دونه وقد انفوا

لا يسلمونا لمعشر ابداً ... ما دام منا ببطنها شرف

وقال درهم اخو سمير في ذلك :

يا قوم لا تقتلوا سمير فان ... القتل فيه البوار والاسف

ان تقتلوه ترنّ نسوتكم ... على كريم ويفزع السلف

ثم ارسل مالك بن العجلان الى بني عمرو بن عوف يؤذنهم بالحرب ويعدهم يوماً يلتقون فيه . وأمر قومه فتهيأوا وتحاشد الحيان . وجمع بعضهم للبعض الآخر ..

وكانت اليهود قد حالفت قبائل الأوس والخزرج الا بني قريظة وبني النضير فانهم لم يحالفوا احداً منهم . حتى كان هذا الجمع فارسلت اليهم الأوس والخزرج كل يدعوهم الى نفسه . فاجابوا الأوس وحالفوهم .

ثم زحف مالك بمن معه من الخزرج . وزحفت الاوس بمن معها من حلفائها من قريظة والنضير . فالتقوا بفضاء كان بين بني سالم وقباء . وكان اول يوم التقوا فيه . فاقتتلوا قتالاً شديداً ثم انصرفوا وهم منتصفون جميعاً ثم التقوا مرة اخرى عند اطم بني قينقاع حتى حجز الليل بينهم . وكان الظفر يومئذ للأوس على الخزرج .

ولبث القوم متحاربين عشرين سنة في امر سمير يتعاودون القتال في تلك السنين وكانت لهم فيها ايام لم تحفظ .

فلما رأت الأوس طول الشر وان مالكاً لا يفرغ قال لهم سويد بن صامت الأوسي وكان يقال له الكامل في الجاهلية .

يا قوم أرضوا هذا الرجل من حليفه ولا تقيموا على حرب اخوتكم فيقتل بعضكم بعضاً ويطمع فيكم غيركم وان حملتهم على انفسكم بعض الحمل .

فارسلت الاوس الى مالك بن العجلان يدعونه الى ان يحكم بينه وبينهم المنذر ابن حرام جد الشاعر العربي حسان بن ثابت .

فاجابهم الى ذلك .

فخرجوا حتى اتوا المنذر وهو في البئر التي يقال لها سميحة فقالوا : انّا قد حكّمناك بيننا .

قال : لا حاجة لي في ذلك .

قالوا : ولمَ ؟؟

قال : أخاف ان تردوا حكمي كما رددتم حكم عمرو بن امرىء القيس .

قالوا : فانّا لا نرد حكمك فأحكم بيننا .

قال : لا احكم حتى تعطوني موثقاً وعهداً لترضون بحكمي وما قضيت به .

فاعطوه على ذلك عهودهم ومواثيقهم . فحكم بان يؤدي حليف مالك دية الصريح ثم تكون السنة فيهم بعده على ما كانت عليه في الصريح على ديته والحليف على ديته وان تعد القتلى الذين اصاب بعضهم من بعض في حربهم ثم يعطوا الدية لمن كان له فضل في القتلى من الفريقين .

فرضي بذلك مالك وسلمت الاوس وتفرقوا على ان أهل بني النجار نصف دية جار مالك معونة لاخوتهم . وعلى بني عمرو بن عوف نصفها .

فرأت بنو عمرو بن عوف انهم لم يخرجوا الا الذي كان عليهم . ورأى مالك انه قد أدرك ما كان يطلب . وودى جاره دية الصريح .

والأوس والخزرج هم القوم الذين عرفوا بعد الاسلام بالانصار ، انصار النبي العربي الكريم .

* * *

هذا عمك قصي يا سودة يريد ان يستشيرك في بعض اموره فهل تأذنين له في الدخول ؟؟ فابتسمت تلك الفتاة الكسحاء لابيهـا قائلة : عمي سيد العرب وله ان يدخل عندما يشاء !!

فسمع قصي وكان بالباب فدخل وهو يقول : ان عمك اليوم احد الصعاليك وليس في يده ما يسود به قومه .

فقالت له : لو كان المال يرفع الناس لارتفع الكثيرون في مكة الى السماء .. ان القوة الكامنة في صدرك ستجعل لك في الحجاز عرش ملك ..

فنظر الى أخيه زهرة نظرة ظافر ثم قال : اما القوة وحدها فلا تكفي .

فجعلت تتفرس في عينيه وفي جبينه وعيناهـا تلمعان ووجهها يفيض بهجة ونوراً .. ثم دعت اباها وعمها الى الجلوس قائلة :

أتترك مكة يا عم ؟

— : اجل . أتركها بضعة أشهر . ومن قال لك هذا ؟

— : سمعتك تقول المال والمال لا يطلبه الرجل وهو في بيته .

قال : لقد كتب لبعض الناس ان يناموا فوق الذهب وهم لم ينقلوا في سبيله قدماً ..

— : هنا في الحجاز ؟

— : بل في مكة جيران الكعبة .

فعرفت سودة ما أراد فقالت : اولئك هم الامراء يهبط عليهم الذهب من فوق ..

— : وتنحني لهم الجباه كأنهم آلهة ..

قالت : سيصبح عز هؤلاء كلهم بين يديك . الى اين انت ذاهب اليوم ؟

— : فكرت في الذهاب الى البحرين ثم اعود منها الى يثرب .

فقال زهرة : وماذا تفعل في البحرين ؟

— : احمل اليها انسجة الشام ..

قال : لم تقم السوق في البحرين وقد لا تجد فيها ما تطلبه .

— : اذن اسير الى الحبشة او الى فارس .. ألم تقل لي ان بني قومنا يحملون منها الشمع والسكر في كل عام ؟؟

— بلى ولكن قومنا لا يرحلون الى اليمن والى بلاد الفرس الا في الشتاء .

— : اما انا فارحل اليوم ..

فدهش زهرة قائلا : ومن رفقاؤك يا قصي ؟؟

— : لم افكر في هؤلاء الرفقاء .

— : اي انك لم تفكر الا في الانسجة تبيعها ثم تشتري بثمنها ما يطيب لك.

— : اجل واي شأن لي مع غيري من الناس ؟

— : شأنك ان الحجازي لا يترك الحجاز وحده سائراً الى الحبشة او الى اليمن الا اذا كان مجنوناً ..

قال : لم افهم هذا فاعمد الى الجلاء ..

قال : اذا خرج اهل الحجاز الى البلد البعيد للبيع والشراء خرجوا طوائف وفرقاً عليها القواد والرؤساء .

— : ومعنى ذلك ؟

— : معناه انهم اذا حملوا انسجتهم الى ذلك البلد وجب ان يحموا ما يحملون ...

— : ممن ؟

— : من جميع الناس الذين يمرون بينهم . ان الغزو يسود في بلاد الناس كما يسود في بلاد العرب ، واطماع الشعوب من جميع الاجناس ليس لها حد . والشذاذ والصعاليك كثيرون ، وهم يرون في كل ركب يروح او يجيء مطمعاً يبلغون به اغراضهم ، أتسير وحدك يا قصي ورحلة مثل هذه لا يرجع منها الا الجيش الجرار ؟

فالتفت قصي الى سودة فاذا هي ذاهلة وقد اغمضت عينيها فقال : ألا تسمعين يا بنية ؟

فاجابته قائلة : لقد سمعت والصواب فيما يقوله .

– : وما الرأي ؟

– : أرى ان لا تتجاوز الحجاز الا مع القوم في الشتاء .

– : ولكن ألا تظنين ان الخطر الذي يخافه زهرة لا وجود له ؟

– : ليس في كل ما قاله أبي غلو . ان الخطر في اول خطوة تخطوها خارج الحجاز ..

– ولماذا لا يوجد هذا الخطر الذي تذكرين في الحجاز نفسه ؟

– : لانك اذا ذكرت نسبك لأهله عرفوا مقامك ولم يعرضوا لـك بسوء . انك من القوم الذين تحترمهم العرب في هذا القطر .

– : أليس لكنانة ذكر الا فيه ؟

– : هب ان لهم ذكراً في غيره فليس لهم فيه نفوذ . انظر الى ملوك كندة واليمن والعراق . ان الملك منهم اذا رحل رحلة صيد مشت الجنود امامـه ووراءه يمنعون الشذاذ من الوصول اليه .

قال : يدفعهم الى ذلك ابهة الملك ..

– : بل الخوف من طوائف معروفة لا تبالي بالملوك . هذا تبّع ابو كرب اعظم ملوك العرب قتل ابنه غيلةً ولم يعبأ به .

– : ومن هو قاتله ؟

– : اهل يثرب فليروِ لك ابي خبر قتله .

قال : هـات يا زهرة .. لقد سمعت خـبر ابي كرب وانا في الشام . ولكني لا اذكره .

قال : ألم ترَ تلك الحبر اليمنية في الكعبة .

– : رأيتها فما هي ؟

– : هي الكسوة التي كسى بها الكعبة تبع الذي ذكرت . وهو اول من فعل ذلك تعظيماً لها .

قال : أهذا حديث القتل ؟

— : ليس كله بل بعضه . وابو كرب هو الذي جعل للكعبة باباً يغلق .

— : ولم يكن لها باب من قبل ؟

— : لا .

— : هات ايضاً

قال : سأعطيك .. ان ابا كرب هذا من الرجال المغاوير .. كان بعيد الصوت كثير المغازي ، ينتقل من بلد الى بلد ، ومن فتح الى فتح والنصر يخفق مع بنوده ..

قال : ذلك من احب من الرجال ؟

— : وقد غزا المشرق فاخضع الشعوب واذلّ الملوك وعاد الى اليمن يحمل الوية الظفر .

— : ولكن ..

— : ولكنه يحمل مع ظفره هماً انساه كل ما لقيه من مجد هو حزنه على ولده الذي قتلوه .

قال : لقد وصلنا الآن .

— : نعم ، ان ابا كرب مرّ بالمدينة في طريقه الى المشرق .

— : وحمّل اهلها ما لا يطيقون حمله فقتلوا ابنه ..

قال : مرّ ولم يعرض لهم ولم يهج احداً وترك بينهم ابناً له يقيم بيثرب حتى يعود .

— : فلما سار مع جنوده لاخضاع الاقطار غدروا بولده

— : اجل ولم يبالوا بذلك الغازي الجبار الذي تهابه الجن .

— : وماذا جرى بعد ذلك ؟

— : عاد تبع فقيل له ان ولده قد قتل ولم يعرف قاتله ، وزادوا على ذلك ان رجلاً من بني النجار يقال له احمر قتل ضابطاً من ضباط ابي كرب والقاه حين قتله في بئر من آبارهم يقال لها ذات تومان .

قال : ذكرت الآن ان الحرب نشبت بينهم وبين الملك اليمني لهذا السبب .

— : نعم ورئيس القوم يومئذٍ عمرو بن الطــــلة من الخزرج ، ويقولون انهم كانوا يقاتلونه في النهار ويطعمون جيشه في الليل ..

— : ذلك خبر جديد لم اسمعه ..

— : وهو غريب كما ترى ، ومع ذلك فالناس يروونه وبينهم من كان في يثرب في ذلك العهد..

— : وكيف انتهت الحرب ؟

قال : كان اليهود اصحاب يثرب كما تعلم .

— : نعم

— : وبينهم الاحبار والعلماء اصحاب الرأي فأقبل منهم اثنان من بني قريظة يسألان الملك ان يكف عن الحرب فرضي واغمد سيفه .

— : ودم ولده ؟

— : تركه كما يترك الملك ثأره وهو قادر عليه ونسي ذلك الدم الذكي كما ينسى الأبي النبيل غـدر الضعيف . ولكنه سأل الحبرين ان يخرجا معه الى اليمن وقد اعجبه دين اليهود وسمعنا بعد ذلك انه تهوّد مع قومه ..

قال اسألك عن الأوس والخزرج أكانوا يدفعون خراجاً لليهود من قبل ؟

— : اجل واليهود بدورهم يؤدون الخراج للفرس .

— : اذن يدفع القوم خراجين .

— : نعم خراج الفرس لعاملهم على تهامة والمدينة وخراج قريظة والنضير .

— : وماذا كان من امر كسوة البيت ؟

قال : ترك تبّع المدينة قاصداً مكة وهي طريقه الى اليمن . حتى اذا كان بالدّف من جمدان بين عسفان وأحج ، اتاه نفر من هذيل يسألونه ان يستولي على مال الكعبة .

— : من هذيل ؟؟ وهل في الحجاز قوم يستهينون بالبيت ؟

قال : لا ولكنهم ارادوا ان يهلــك تبّع في مكة اذا هو استخف بكعبة العرب .. ان جميع الذين استخفوا بها هلكوا.. قالوا له : « ايها الملك ألا ندلك

على بيت مال داثر قد اغفلته الملوك قبلـــك فيه اللؤلؤة والزبرجد والياقوت والذهب ؟

قال : بلى .

قالوا : « بيت بمكة يعبده اهله ويصلون عنده »

فارسل الى الحبرين اللذين معه يسألهما عن ذلـــك فقالا له : لم يرد القوم الا هلاكك وهـلاك جندك ولئن فعلت ما دعوك اليه لتهلكن وليهلكن من معـك جميعـــاً » .

قال : فماذا اصنع ؟

قالا: «اذا قدمت مكة فاصنع عند البيت ما يصنع اهله. تطوف به وتعظمه وتتذلل له حتى تخرج » .

— : ما يمنع اليهود من ذلك ؟

قالوا : « لقد حال اهله بيننا وبينه بالاوثان التي نصبوا حوله وبالدمـــاء التي يهرقون عنده » .

فقال قصي : أتقول اليهود هذا وتسكت العرب ؟

— : لم تعرف العرب ذلك الا بعد ان انقضى الزمان .

فجعل يهز رأسه وهو يقول :

حتى ان اليهود وهم في الحجاز يستهينون بالعرب .. وبعد ذلك ؟

— : « بعد ذلك قرّب الملك النفر من هذيل فقطع ايديهم وارجلهم ثم مضى حتى قدم مكة » .

« وقد اري في المنام ان يكسو البيت فكساه الخصف « الاثواب الغليظة » ثم أري ان يكسوه احسن من ذلك فكساه المغافر . ثم أري ان يكسوه احسن من ذلك فكساه الملاءَة والوصائل وكان تبّع هذا اول من كساه وأوصى به ولاته وجعل له باباً ومفتاحاً » .

قال : لقد خرجنا عن الأمر الذي قـدمت لاجله . اني جئت لاستشير سودة

في امر السفر فكانت هـذه الاستشارة حديثاً عن التبابعة وعن اليمن ، انعدل عن السفر بعد ان هممنا به ؟

فقالت سودة : ارجو منك يا عم ان لا تتجاوز الحجاز كما قلت لك ، لقد اردت السفر الى البحرين والرجوع منها الى يثرب فاترك البحرين الآن فلا سوق فيهاوا كتفِ بالذهاب الى المدينة ففيها الغنى ..

قال : اذهب الى الشام اولاً فأحمل انسجتها .

— : بل تترك الشام فطريقهم مثـل طريق البحرين والخطر كثير . أو لم تر الحجاج اذا قدموا منها قدموا مجتمعين .

— : وماذا افعل في المدينه اذن ؟

- : يعطيك ابي بعض ماله فتشتري الصوف ..

فقال زهرة : ان مالي كله لك يا قصي . وقد وهبت لك النوق التي تحمـل صوفك ..

قال : سأردها ضعفين .

قالت : بل تعطيه بعد قليل عطايا الملوك ..!

قال : أأصير ملكا بنية ؟؟

— : نعم ويمتد رواق هذا الملك فوق الحجاز كله .

— : ومن اوحى اليك بهذا ؟

فقالت دون ان تتردد : ذلك الذي اوحى اليك بان تخطب حبّى بنت حليل لتمهد لك طريق العرش ..

فنظر الى زهرة نظرة عتاب

وقد قام في ذهنه انه قصّ على سودة ذلك الحديث الذي دار بينه وبينه .

فعرف زهرة معنى تلك النظرة القاسية فقال :

لم اذكر لها شيئاً ورب الكعبة .

قال : اذن فانت تعرفين ما في القلوب يا سودة ..

قالت : وأي شأن للكهانة في العرب اذا كان صاحبها جـاهلاً ؟ اني اعرف

من امرك يا عم ما تعرفه انت .

قال : حدثيني بهذا الأمر ..

— : لا ابوح لك الآن الا بما سمعت .

— : تبوحين لي ببعض امري وتكتمينني البعض الآخر ؟ .. ذلك مـــا لا أرضـــاه .

— : بل ترضى فأنا مكرهة عـــلى السكوت وليس ذلك البعض في يدي لأبوح بـــه .

— : الا تذكرين لي شيئاً منه ؟

— : اذكر لك ان بينك وبين العرش الذي ستبنيه حروبـــاً تملأ مكة وجوارها جثثاً ..

فارتعش قائلاً : سودة ..

قالت : وسيقوم من ابناء عمنا من يشهر عليك السيف ..

فقال في نفسه : اولئك هم بنو بكر بن عبد مناة .. انهم فرع من كنانة .

ثم قال لها : وبينهم الامراء ..؟

— بينهم وجوه كثيرة لا اعرفها ..

— : ومن يقاتلني من اصحاب حليل ؟؟

— فابتسمت قائلة : لا اعلم .

بل تعلمين .. قولي كلمة ليس غير .

— : قلت اني لا أعلم فأرجو ان تكف عن السؤال .

— : وبنو صوفة !

— : ماذا ؟

— : ايكونون لي ام عليّ ؟

— : وهذا ما لا اعرفه

ثم ارادت ان تغيّر الحديث فقالت : اذا بعت الصوف فاشترِ من اهل المدينة بعض الادراع .

قال : اليوم ؟

– : نعم اليوم حتى يجتمع لديك منها العدد الكثير عندما تستعر النار .

فارتجفت شفتا قصي عندما سمع تلك الكسحاء تخاطبه بأمر مستقبله وتوصيه بان يعد للحرب عدتها من الآن .. ولكن البهجة كانت تملأ نفسه والاعجاب بسودة يملك عليه مشاعره ، انها تعلم كل شيء .. وقد ذكرت له بعض اسراره والاطماع التي تجول في صدره وتنبأت له بأنه سيبني العرش الذي يفكر فيه .. ولكنه اراد على رغم ما رأى . ان يمعن في الاختبار ويسأل سؤالاً آخر قبل ان يغادر مكة فقال لها : اسألك سؤالاً آخر يا بنية .

فاجابته وهي تنظر الى الارض تريد ان تسألني عن حليل بن حبشية ..!

قال : أجل ، فهل يرضى بي زوجاً لابنته ؟

قالت : وهذا ايضاً ليس في يدي لأقول لك عنه ولكني اعلم ان حبى ابنته تفكر فيك .

فتمتم قائلاً : هذا يكفي فقد رأتني مع زهرة امام القصر .

قالت : اتحبها يا عم ؟

– : لقد بدأت الآن في هذه الساعة اشعر بهذا الحب ..

– : كما انت تشعر منذ ايام بان في يد حبى مفتاح الكعبة ..

فقال لأخيه : يخيل الي انك حدثتها بأمري .

قال : وتربة كلاب بن مرة لم افعل .

فضحكت سودة وهي تعبث بخيزرانة في يدها .

قال : اراكِ تضحكين .

فلم تجب . لان عمها لم يكن واثقاً بما تقول ..

فقال : خبريني يا سودة .

– : ليس عندي ما اقوله لك .

– آمرك بان تفعلي ..

فبرقت عيناها وهي تقول : لك ان تأمر الناس عندما تصير ملكاً ..

ـ اذكري ما تعلمين عن بنت حليل ..

ـ : اما الآن فلا ..

قال : ارجع في هذا الليل ؟

قالت : اذا رجعت فلا تسمع شيئاً ولكن اصبر ريثما تعود من المدينة ومعك الأدراع ..

ـ : اين توجد هذه الادراع يا زهرة ؟

ـ : عند الاوس والخزرج وقد نجد منها في احياء اليهود .

فاطرق ملياً ثم قال :

أأشتري بمالك عدة الحرب وقد تكون احوج مني الى هذا المال ؟

فقاطعته سودة قائله : ليس كثيراً على قومنا ان يبذلوا في سبيل سيدهم وملكهم ماهم كله ..

قال : لقد احسست الآن اني ملك .. وارتسمت على جبينه دلائل الوقار والعز . . .

فقالت له : اشترِ بمال قومك ما تشاء .. فلا يرتفع لقومك ذكر الا اذا فعلت ما تشاء ..

قال : سأترك مكة وانا افكر في حبى ..

قالت : ولا تنسَ ان تشتري لها درعاً فربما خاضت معك غمار الحرب .

ضحكت كعادتها والقت الخيزرانة من يدها كأنها تقول : ان الحديث قد انتهى الآن ..

فلم يرَ قصي ان يحدثها بشيء بعدما رأى اصرارها على الكتمان .. وخرج مع زهرة وهو لا يدري لشدة فرحه اين يضع قدميه ؛ فقد وثق بذلك القول الذي سمعه وبان الدهر سيبسم له ..

* * *

عرفت مولاي فهو صفوان بن الحارث نفسه ، فاضطربت ليلى وحبست انفاسها .

فقال ابو زياد : احدثته يا عبدالله ؟

– : نعم وطال حديثنا وقد تركت صفوان عند الكعبة .

ومتى كان ذلك ؟

– : الآن .

فجلس زياد الى جانب ابيه وبينهما ليلى وهي تقول : سيقص علينا عبدالله الآن حكاية جديدة ..

– : نعم يا مولاتي وهي حكاية ذات اقسام .

قالت : نسمع القسم الاول منها .

– : اما الاول فصفوان فتىً لا تقع العين على احسن منه في عذوبة الحديث وجمال الوجه ، انه كما وصفه مولاي زياد فتان ساحر النظرات .

فقاطعه زياد قائلاً : لقد عرفنا هذا فاذكر ما لا نعرفه .

– : وهو من الفتيان الذين اذا حدثتهم بدت لك نبالة اخلاقهم وعظمة نفوسهم

فقالت ليلى ضاحكة : نحن لم نزل في القسم الاول يا عبدالله ..

– : نعم ومن هذا القسم ان صفوان ذو قناع لا ينزعه عن وجهه الا عندما يجن الظلام ..

قالت : تلك رواية قديمة رويتها لنا من قبل .. فهات القسم الثاني اذا شئت.

قال : واما الثاني فان الرجل حاول التحجب عندما تصديت له وهو يعرف اني مولى زياد بن كعب .

– : وماذا صنعت عندئذ ؟

– : لحقت به ومددت اليه يدي اسأله الاحسان .

– : ويلك اتكون مولى زياد وتفعل هذا ؟!

– : وهل تريد يا سيدتي ان امره بالوقوف فيمتثل كأنه عبدٌ لي ؟ لقد رأيته قبل الغروب يبذل ماله لفقراء الحجاج فسألته عندما سدل الليل حجابه ان يحسن الي كما احسن اليهم فعرف حيلتي وهزأ بي .

– : وبعد ذلك ؟

– : وبعد ذلك تعارفنا فذكرت له الامر الذي ابحث عنه لاجله ونقلت اليه ان مولاي مدين له بالحياة وهو يحب ان يعرف الذي انقذه من جبير بن عبادة .

قال زياد : وماذا كان جوابه ؟

: لم اذكر له ذلك حتى ابتسم قائلا : ان مولاك يريد ان يذلني في بحثه عني كأنه يظن اني من اولئك الناس الذين ينتظرون جوائز الامراء على الوجب الذين يقومون به ..

فنظر زياد الى ابيه مستغرباً . فقال ابو زياد :

اذا لم يقبل الفتى الجائزة فليقبل الشكر ..

قال : ذكرت له ذلك فابى ان يزوره مولاي لهذه الغاية كما انه أبى ان يقدم هو لزيارته .

قال : لقد عرفناه وسننظر في امره .

– : ولكن بقي القسم الثالث يا مولاي .

– : وتنتهي حكايتك بعده ؟.

– : نعم ، فقد سألني سؤالا غيّر رأيه بعده ووعدني بانه يجيء غداً عند الصباح. فوضعت ليلى يدها على صدرها تمنع قلبها المضطرب من الوثوب، وعينا عبدالله تنظران اليها .

فقال زياد : أيجيئنا صفوان غداً ؟

– : نعم فهكذا وعد واظن انه سيفي بوعده .

– : وكيف انتقل فجاةً من الرفض الى الرضى ؟

– : دعاه الى ذلك الانتقال سؤاله الذي ذكرت .

– : اعد علينا ذلك السؤال يا عبدالله .

– : سألني عن مقر جبير .

– : وماذا قلت له ؟

– : خبرته انه ترك مكة الى حيث لا نعلم. ولكني لم اكد افعل حتى ابتسم

هازئاً وهو يقول : سأزور مولاك غداً في قصره فهذا ما كتب لي :
فساد الصمت قليلاً والثلاثة يفكرون في الامر .
ثم تولى الحديث ابو زياد قائلا : قل لي يا عبدالله ماذا فهمت من حديثه ؟
— : فهمت انه سيحدث مولاتي بشأن ابن عبادة .
— : اصبت فهو يعلم من امر الرجل ما لا نعلمه نحن .
— : كما ان مولاك عبدالله يعلم ما لا تعلمون ..
— : اذكر ما تعلم .
قال : ان عدوان في مكة وقد رأيته ..
فرقصت لحية الشيخ ابي زياد .
اما زياد فلم يبد على جبينه شيء من الاستغراب بل جعل يردد قائلاً : انه قدم مع الحجاج .. واين رأيته ؟
— : بين الصفوف وقد ارسل الي من عينيه سهمين ناريين ثم تغلل بين القوم واختفى كأنه لم يكن .
قال: ليس في القسم الثالث من حكايتك ما يستحق الذكر الا مجيء صفوان.
قال : ألم تستغرب وجود عدوان في مكة يا مولاي ؟
— : وكيف استغربه وهو عربي وله ان يحج البيت مع الناس ..
— : ومولاه ابن عبادة من العرب ايضاً ..
— : نعم وله ان يحج مثله فالكعبة لجميع العرب من كل جنس بل هي لجميع الشعوب والامم ..
قال : لو كان الحج غاية عدوان لهان الأمر .
— : وما هي غايته اذن ؟
— : اخشى ان يكون باقياً مع جبير في مكة ..
— : وما الذي تخشاه يا عبد الله . اتخاف جبيراً على مولاك كأن لا حياة لي في مكة اذا بقي فيها ؟ وهل تظن ان هذا الغادر يجسر على الظهور في السوق وانا حي ؟ ورب الكعبة لئن رأيته في حضن حليل بن حبشية لأضربنه بالسيف.

هكذا قلت له من قبل وهكذا سأصنع . والويل له اذا رأيت وجهه .

قال لا تغضب يا مولاي فانا لا اخافه ولكني اخاف غدره .

قال : ايدخل عليّ في ظلام الليل فيضرب عنقي ؟

— : بل يكمن كما يكمن الثعلب ثم يثب كالذئب ويطعن من الوراء .

— : انه اضعف من ذلك .

فقال ابو زياد : دعوا البحث في هذا الآن وانظروا في امر صفوان بن الحارث ، ماذا تريد ان تعطيه يا زياد ؟

قال : لو طلب اليّ هذا القصر لوهبته له .

فقال عبد الله : ان مثله لا يطلب شيئاً ..

قال : اعرض عليه كل ما املك حتى يرضى ..

— : وسيكون اعظم من ان يمدّ يده ..

— : ألم تقل انه من عشاق الخيل ؟

— : بلى .

— : اذن اعطيه « ام الجنادب » « والريان » والمهر الذي ركبته يوم عرض عليّ سيفه في الميدان .

— : ومع ذلك فسيأبى على ما أرى .

— : واعطيه جميع النوق التي حماها جبير ..

— : انه لا يستطيع ان يعد النوق التي يملك ..

— : اذن اتخلى له عن الامارة وينتهي الامر .

فابتسم قائلاً : لنفرض أن له حاجة يا مولاي ..

قال : يكفي ان يذكرها حتى نقضيها له . ولكن ما بالك تقول هذا وانت القائل الآن انه لا يطلب شيئاً .

قال : لا اعلم غرضه من القدوم اليك ولكني افترض ..

قال : كن واثقاً يا عبدالله بان مولاك لا ينسى فضل المحسن اليه ليطلب دمي ابذله وهذا كل ما عندي فلا تعد الى هذا الافتراض .

فهمّ عبدالله بالجواب فاسكته قائلاً : اذا كان لك مـــا تقوله فافعل ولكن لا تفترض ..

قال : اظن ان صفوان سيطلب ..

فضحك زياد وابوه ؛ اما ليلى فقطبت حاجبيها كأنها لا تريد ان يحدثها احد بامر الزواج .. ولما لم يسمع عبدالله جواباً اعاد قوله ..

فقال زياد : هل سمعت صفوان يذكر ليلى ؟

– : لا يا مولاي .

– وهل يعرف ليلى من قبل ؟

– : لم اسأله عن هذا .

– : وما الذي دعاك الى هذا الظن يا لعين ؟

قال : اسباب كثيرة يا مولاي ، منهـا ان صفوان اجمل فتيان مكة وليلى اجمل حسانهـــا فمن العدل ان يزّف ذلك الفاتن الى هذه الفاتنة فنستريح من كل شيء ..

وضحك قائلا : وعندئذٍ تنسى ليلى ابن عبادة الذي تكاد تجن بهواه ..

وليلى على رغم ذلك القول لم تبتسم ..

اما زياد فكان يقول وهو لم يكف عن الضحك: ومن اين لها ان تنساه وهي اسيرة غرامه . ثم قال : وهل بقي شيء يا عبدالله ؟

– : بقي ان اعلم ماذا تجيب الرجل اذا سال هذا السؤال ..

– اذن فاعلم ان ليلى وحدها هي التي تتولى غندئذٍ امر الجواب ..

وكان الليل قد انقضى نصفه فانصرفوا الى مضاجعهم وليس لليلى همّ الا ان يطلع الصباح .

وكان عبدالله يقول في نفسه :

ساجعل صفوان زوجاً لليلى ولو خربت مكة ..

ولم يغمض له جفن في ذلك الليـــل . فقد احب صفوان منذ رآه ، كما يحب

مولاه ، ونام الجميع على ان يستقبلوا في الصباح ذلك الفتى الكناني الذي انقذ زيــــاداً

* * *

هذا زهرة بن كلاب يا مولاي .

– : ومن معه ?

– : فتى لم أرَ وجهه من قبل .

وكان المتكلم احد العبيد في قصر سادن الكعبة حليل بن حبشية .

فقال له حليل : لقد أذنا لهما في الدخول .

وهمس في اذن حبى قائــــلاً : سترين اني كنت مصيباً فيما ذكرته عن الفتى الشامي ، ثم التفت الى المحترش وكان الى جانبه يقول له : استقبل ولدي كلاب ابن مرة يا بني ، فخرج المحترش يرحب بالقادمين . ودخـــــل زهرة وقصي ، ولم يشأ سادن الكعبة ان تنصرف حبى الى غرفة ثانية او تسدل على وجهها الحجاب.

ذلك لانه أراد ان ترى قصياً وتسمع حديثه العذب ..

وابتسم للزائرين قائلاً : أهلاً يا بني كلاب . ان كلاباً كان سيد كنانة .. اجلس يا زهرة . اجلس يا قصي . وخبرني بما رأيت في مكة .

فقبّل الاثنان يد الامير الاكبر وجلسا . ثم قال : هذا ولدي المحترش وقد رأيته يا بني بباب الكعبة . وهذه ابنتي حبى . وهذا قصي بن كلاب الذي نشأ في حي قضاعه في ربوع الشام .

وهكذا تمّ التعارف بين قصي والأخوين .

وجعل حليل يردد : اهلاً بزهرة وقصي. اننا لا نراك كثيراً يا زهرة. كأنك ناسك من اولئك النساك المقيمين بالعراق . ألا تعلم يا بني انك اعز من في مكة على حاجب البيت . اني اذكر اباك كلاباً ذلــــك الكناني الجواد الذي وهب للكعبة سيوف الذهب .

وسكت قليلاً ثم قال : لقد سمعت بعض سادات العرب ينقلون الاخبار عن سودة الكاهنة . سودة بنتك يا زهرة . وليس غريباً أن يقوم الكهان من ولد

كلاب . انكم أهل لهذا وأحب ان أرى سودة .

وكثر حديث حليل والاثنان يسمعان حتى انتهى الى ان قال : والآن ماذا رأيت عندنا يا قصي ؟

وكان قصي هادئاً ينظر برصانة الى الأمير كأنه وحده في ذلك المجلس لا يرى احداً غيره .

فقال : وماذا يرى المرء في مكة يا مولاي ؟ يرى بلداً آهلاً بالنبـــلاء من العرب . وبيتاً تحجـــه السادات والملوك ، وحليل بن حبشية يملأ هذا البيت جلالاً وهيبة .

فنظرت اليه حبى باعجاب وكان أخوها المحترش يفكر عندئـــذ في كأس الشراب ..

ثم قال قصي : وانا اسألك يا مولاي عن احوال العرب .

قال : اما العرب فقبائل كثيرة لا اعرف عنها شيئاً الا عندما تقدم مكة ، ان حاجب البيت يا بني لا يعنيه من أمر العرب الا النظر في شؤون الحجاج .

— : مع انك يا مولاي سيد العرب جميعها .

فضحك حليل قائلاً : اما اني سيد العرب جميعها فذلك بالاسم ، اجل ، ان لحاجب البيت مقاماً في جميع الاقطار . في اليمن والبحرين ، وتهامة ، ونجد ، والعراق ، والشام ، ولكن ليس له فيها سلطان ، القوة والنفوذ لأولئك الملوك والأمراء الجالسين على العروش . نعم ، وبـــلادهم بلاد نعم وخصب ، وعندهم الجند والحصون والاموال يبذلونها عندما يشاؤون ، ويمنعونها عندما يشاؤون . واما مكة فوادٍ كما ترى لا ينبت لنا شيئاً ، وصاحبها لا ترى المال عيناه الا في أيام الحج كما قلت .. وهو يحمل حملاً ثقيلاً يا قصي . هذا نكب بماله ، وهـــذا سرق فرسه ، والآخر سلبوه حقه . وسادن الكعبه قاضٍ ينظر في كل هــــذا ويقضي الحاجات . ان الحجابة منصب قديم من مناصب اليهود ، كان عندهم كاهن خاص يقوم بحراسة الهيكل ويدعونه حافـظ الباب . وليس له ان يفعل شيئاً الا الحجابة ، اما العرب فقد جعلت هذا المنصب مرجعاً لكل شيء ، لا

تطرف عين في مكة الا بإذن صاحبه .

قال : يخيل اليّ انك مللت الحجابه يا مولاي .

قال : وماذا يفعل الشيخ الذي اتعبته الايام وكثرت حوله اطماع الامراء في مكة ؟ اسمع . ان الذي يسقي الحجاج لا يرضى بمنصبه ، والذي يجيز الناس غير راض ، وقد يكون ابن عمكم الكناني ، ذلك الذي ينسأ الشهور طامعاً بمنصب آخر غير منصبه . وأنا أرى كل هذا وأحول وجهي عنه ، تاركاً الأمر للزمان حتى يسلم الحجاز ولا تهرق فيه الدماء .

قال : ان الزمان يا مولاي لا يسكت الاطماع .

فهزّ رأسه قائلاً : ستمر الأيام الباقية لي كما يمر السحاب فانزل الى القبر لا عليّ ولا لي .

— : واذا اكرهوك على حمل السيف ؟

— : حملته بيدي المرتجفة واقتحمت الجمال ضارباً عدو مكـة حتى يسود الأمن ، وتموت الاطماع في الصدور . ثم تنهـد وهو يقول : ولكن الحرب ! آه من الحرب انها قضاء الله يجتاح الناس كما تجتاح العاصفة الطائشة اغصان النخيل

فتحير قصي في موقفه . انه لا يرى مظـاهر الضعف ، حتى يرى مظاهر القوة . ولا يسمع شكوى الشيخوخة حتى يبصر زهو الشباب .

أجل ، كان حليل بن حبشية قوياً وضعيفاً في وقت واحد ولم يعلم قصي ، ان ذينك المظهرين ، حيلة ودهاء ، عمد اليها سادن الكعبة ليقرأ نفس الفتى الذي يحدثه .

على ان قصياً ، رأى في تلك الساعة ان يعمد بدوره الى الاختبار ، فقال : أأقول وانا آمن يا مولاي ؟

— : قل ما تشاء .

قال : الا تذكر يا مولاي ان قومنـا بني كنانة كانوا اعواناً لكم يوم فتحتم هذا البلد وطردتم بني جرهم ؟

فاجابه قائلاً : نذكر ذلك ولا ندري ما الذي يدعوك الآن الى هذا القول .

فقال المحترش : انه يمنّ علينا ..

فتجهم وجه قصي . لكن حبى تداركت الامر قائلة :

اما انا فقد عرفت ما الذي دعاه اليه .

فافتر ثغر الفتى وسكت ينتظر الجواب .

فقال حليل : اذكري يا حبى ما تعرفين .

قالت : يريد ان يقول ان قومه الذين ساعدوا جدنا الاول في فتح مكة هم الذين يساعدون سادن الكعبة في اخضاع الطامعين .

فاشرق جبين قصي وقال : لقد عرفت يا سيدتي ما يجول في هذا القلب : وفي تلك اللحظة تلاقى النظران . فقرأ كلاهما في عيني صاحبه عذوبة الحب .

ثم قال حليل : أهذا الذي أردته يا ابن كلاب .

— : نعم يا مولاي ، وتلك السيوف التي جردناها لنغمدها في صدور جرهم هي نفسها نجردها اليوم لنغمدها في صدر عدوك .

قال : اعلم يا ابن كلاب انه ليس لحاجب البيت عدو .

— : لقد عنيت اعداء مكة يا مولاي .

— : احسنت ولكن قل لي أتتكلم عن نفسك ام عن قومك ؟

قال : أتكلم بلسان تلك الفئة الكبيرة التي تقيم في الشعاب والجبال لا استثني منها أحداً .

— : ومن ندبكَ الى ذلك ؟

— : نفسي ..

فكاد حليل لشدة اعجابه يفتح للفتى ذراعيه ويضمه الى صدره . لكنه تكلف الهدوء قائلاً :

— : مع انك لا تعرف احداً من قومك .

— : يكفي ان يعرفوا يا مولاي اني ابن كلاب .

— : وفيهم السادات والرؤساء يا قصي .

قال : احملهم على الاعتراف بأني سيدهم .

— : ذلك زهو العشرين يا بني .

قال : سترى يا مولاي شيوخ قومي الذين بلغوا الثمانين ينحنون امام هذا الفتى الذي يخاطبك الآن .

فحولت حبى وجهها كي لا يرى القوم الدموع في عينيها السوداوين .

وعاد حليل الى الحديث قائلاً : بقي علينا ان نعلم في اي شيء تسود قومك.

— : لك ان تعلم يا مولاي ان بني كنانة جنـــد لك دون ان تسأل عن السبب في ذلك .

— : واذا اعتزلت الحجابة ؟

قال : عرفت ما تعنيه يا مولاي انك تريد ان تعلم اذا كان بنو كنانة عوناً لحاجب البيت أياً كان ام لحليل بن حبشية ، أليس كذلك ؟

— : نعم .

— : اذن فاعلم اننا انصار حليل .

قال : سأعتزل الولاية لولدي المحترش .

قال : ونحن انصاره .

— : ويقوم الامراء فيطلبونها لانفسهم .

فمدّ يده الى الامام قائلاً : اقسم بمن بنى البيت ان الحجابة لا تكون لغير حليل بن حبشية وانا حي .

فضحك قائلاً : لا يقدم على هذا القسم الا الملك البعيد الصوت الذي تقوم الجنود وراءه .

قال : ورائي ليوث في ايديها السيوف يا مولاي فلا تستخف بي . اجــل انك تقول في سرك الآن اني لا املك شيئاً . نعم يا مولاي . ولكن لا ينقضي هذا العام والعام الذي بعده حتى ترى ذلك الذي لا يملك شيئاً يملك كل شيء ..

وارتسم الجلال على جبينه . فخيل الى حبى انها ترى ملكاً يلمع فوق مفرقه التـــاج ..

وفي تلك الساعة تكلم زهرة قائلاً :

جميع ما في ايدينا يا مولاي هو لقصي .

قال : وبماذا استحق حليل بن حبشية هذا الحب ؟

فقال قصي : رأيت قومنا يضمرون لك الحب فكنت مثلهم ؛ وسمعت الحجاج من اشراف العرب من قضاعة وكندة وتميم وطيء يتناقلون الثناء على حاجب البيت فوضعت يدي حيث وضعوا ايديهم واقسمت اني سأكون له ولداً ولو لم يرد ان يكون لي أباً ..

فنظر حليل الى حبى كأنه يذكرها ذلك الحديث الذي دار بينه وبينها عن قصي ، ثم قال : وحاجب البيت يقسم لك الآن انه سيكون لك ولقومك الوالد البار .. قل الآن ماذا تريد ان تصنع في مكة .

— : سأغادرها بعد ايام يا مولاي .

— : الى أين ؟

وقد استولت الكآبة على الفتاة العاشقة ..

فقال : هممت بالذهاب الى الشام ثم اعود منها لأسير الى البحرين ثم ارجع الى يثرب ..

فقال المحترش : لو كان الأمر بيدي لذهبت الى الشام مع قصي ..

فغمغم حليل قائلاً : وفي الشام تكثر الخمر ثم قال :

اما ما هممت به يا قصي فهو الجنون .

قال : لقد ذكروا لي اخطار هذه الرحلة فعدلت .

— : حسناً صنعت فامكث في مكة الآن .

— : ولكني سأذهب الى يثرب .

— : ليس عليك في الحجاز من بأس . ماذا تحمل اليها ؟

— : الصوف يا مولاي من مال أخي زهرة ..

— : ونحن نعطيك من مالنا ما تشاء ..

قال : اتعطيني مالك ليكون حبي اياك مبنياً على المنفعة ؟ ان هذا لا يكون يا مولاي .

— : لقد اثبت هذا الحب قبل اخذك المال .
— : ومع ذلك فالمال وسيلة من وسائل الاغراء .. اني أوثر نصائح مولاي على الذهب .
— : سيعلمك الزمان ما لا يعلمك اياه الناس . اتعرف بماذا اوصيك ؟
قال : لو كتب لي ان اعرف مـــا في قلوب الناس لكنت أعظم من هبل . بماذا يوصيني مولاي .
— : بان تقصر ايام رحلتك فتعود الينا بعد شهر .
— : ذلك ما افكر فيه يا مولاي .
— : وبأن تختار كرام قومك رفيقاً لك في سفرك .
— : سأفعل وسأستعين برأي اخي زهرة على الحصول عليه .
فقال زهرة : لقد اظهر الكثيرون من قومنا رغبتهم في السفر مع قصي .
— : ومن تختار منهم ؟
— : لا نعلم الآن ولكن سيكون ذلك الرفيق من الفتيان النبلاء اصحاب المقام في كنانة ..
قال : احذروا اخوان السوء فقد كثروا في مكة ..
قال قصي : سأستشير سودة في امره .
قال : ان أحسنت الاختيار طـاب سفرك .. وصفت لك الموارد في الرواح والمجيء .. ان الفرس الكريم والرفيق الامين خير ما يلجأ اليه المرء في اسفـاره
ثم قال : واحمل لنا شيئاً من طيب المدينة يا قصي فقد مهر اليهود في صنعه .
— : سأحمل منه الشيء الكثير يا مولاي .
قال : واذا رأيت ان تزورنا مرة ثانية قبل سفرك فافعل .
قال : لقد غمرني مولاي بفضله وانا لا استحقه . وليعلم مولاي ان المثول بين يديه أحب شيء الي ..

وساد السكوت .. فخافت حبى ان ينتهي الحديث وينصرف قصي قبـل ان تعرف ما تتوق اليه ؛ فقالت له وهي تنظر اليه وكأنها لا تعرف شيئاً عنه ،

متى تركت مكة يا ابن كلاب ؟

— : تركتها يا سيدتي وانا طفل في حضن امي وعدت اليها اليوم وقد جاوزت العشرين .

— : اذن انت لم تعرفها من قبل .

— : لا يا سيدتي لم أرَ ما فيها من المحاسن الى اليوم .

— : ان محاسن مكة لا تذكر اذا ذكرت محاسن الشام .

قال : لا اعني محاسن البلد يا سيدتي ..

— : وماذا تعني اذن ؟

— : محاسن القوم الذين يقيمون به ..

فابتسمت قائلة : أراك تصف محاسن قومك فانت لم ترَ غيرهم بعد ..

— : بل رأيت مولاي سادن الكعبة واهل بيته وهذا يكفي .

فقال حليل في نفسه : لقد اعجبته حبى وهذا ما ارغب فيه .

واطرقت حبى وقد احمر وجهها من الخجل .

فرأى قصي ان ينصرف مع اخيه ويسكت عند هذا الحد .

ونهض يسأل الامير الاذن في الخروج .

فمد حليل يده وهو يقول :

لا تنسَ يا زهرة ان تختار لقصي رفيقاً كما قلت ..

وخرج الاثنان وتبعهما المحترش يريد ان ينفرد ببعض اتباعه وراء الجدر ليشرب الخمر ..

اما حبى فقد احست ان قلبها وثب من صدرها ليذهب مع قصي ..

ولم يشأ قصي ان ينظر الى الوراء .. ففي تلك النظرة ضعف . وهو ارفع من ان يظهر ضعفاً ..

* * *

— ١٥ —

في صباح ذلك اليوم الذي ذكره عبدالله اقبل صفوان بن الحارث على قصر

زياد بن كعب وكان يتردد في الدخول ، كأن مجيئه في ذلك الصباح يجرح عزة نفسه !

وبباب زياد العبيد والحجاب ..

فأومأ الى احدهم بان يأخذ فرسه . ثم تقدم وهو يقول لآخر : قل لمولاك ان صفوان بن الحارث يريد ان يراه ..

فاجابه الحاجب قائلاً : اذا كنت صفوان فادخل .

— : وان كنت غيره !

— : لقد امرنا مولانا بادخال الرجل الذي ذكرت ، فدخل وهو يقول في نفسه : لقد بدأت ارى مظاهر العناية والشكر ، وهذا ما لا ارضاه ..

وكان زياد وابوه في قاعة الجلوس . وليلى معهما . وامامها وعاء تفوح منه رائحة الطيب ، فوضع صفوان سيفه على مقعد في الدهليز ومشى بقدم ثابتة الى حيث وقعت عليه العيون.. فوثب زياد الى الخارج قائلاً : انت هو صاحبي ورب الكعبة ، وعانقه بفرح ولم يعطه يده كما هي عادة الأمراء . ثم اخذه بيده وهو يقول لأبيه : لقد رأيت الآن المحسن الى ولدك .

فقبل صفوان ركبتي الشيخ ثم انحنى امام ليلى العاشقة .. المرتجفة .. الخافقة القلب ..

وفي تلك اللحظة . اجل في تلك اللحظة ، ذكر الفتى قول عدوان اليمني ان ليلى فتنة الناظرين .. واحس ان تينك العينين الذابلتين اصابتا قلبه الخلي .

فتمتم قائلاً : لم أكن محسناً اليك ايها الامير بل كنت كنانياً رأى العبد يحاول ان يضرب مولاه فحال بينه وبينه ووقف بجانب الامير يعرض عليه سيفه.

فقال ابو زياد : وكأنك لم تفعل شيئاً يا ابن الحارث ؟

— : ألست حجازياً يا مولاي ؟

— : نعم .

— : وما هو فضل الحجازي اذا جرّد سيفه للدفاع عن حياة امير من امراء بلده ؟

— : الامير وحده يعرف هذا الفضل ان لم تعرفه انت .

فرفع رأسه وهو يقول : لقد جئت هذا الصباح انقل الى مولاي الامير خبراً لا يعرفه وانا لا احب ان اسمع من فمه كلمة ثناء على ما فعلت .

— : ذلك شأن صفوان بن الحـــارث الذي يضع العمامة على وجهه ليخفي احسانه .. اما نحن فمن شأننا ان نجزي الذي احسن الينا على ما فعل دون ان يكون لأحد رأي في الامر .

فذعر الفتى عندما سمع لفظة الجزاء وقال اتذكر الجزاء ايها الامير ؟؟

— : نذكره ونسأل الفتى العربي الشريف ان يذكر حاجته فهكذا تفعل اشراف العرب وليس في ذلك ذل ..

فنهض قائلاً : أستأذن الامير في الانصراف فليس لي حاجة اذكرهـــا ولا خبر اقصه عليه ..

فاستوقفه زياد بقوله : ألم تكن المروءة هي التي اوحت اليك بما فعلت ؟

— : سمّ ذاك الفعل ما تشاء يا مولاي .

قـــال : هذا الذي اعرفه يا صفوان فارجو ان تكون جواداً بكل شيء كما كنت جواداً بسيفك .

— : وماذا يريد الامير الآن ؟

— : يريد ان يثبت لابن الحارث انه يعرف جميله ..

— : وانا لا اطيق ان تذكر لي هذا الجميل ..

وعندئذ اقبل عبدالله وكان في الدهليز فقال :

أبيت اللعن يا صاحب العمامة الخضراء.فابتسم قائلاً لقد جعلتني من الامراء..

— : ورب الكعبة لم أرَ اميراً أعز نفساً منك .

قال زياد : ولكنه يأبى ان نعترف له بفضله .

— : ذلك ما ذكرته لك يا مولاي . ولكن لي كلمة اقولها .

— : ما هي ؟

قال : عندما تختلف العرب تعمد الى رجل منها تجعله حكماً ..

— : انجعلك ذلك الحكم ايها اللعين ؟

— : لا يا مولاي بل تجعلون ليلى ..

فاجابه صفوان دون ان يتلجلج صوته قائلاً : لقد رضيت .

— : وانت يا ليلى ؟

— : لم اسمع قط ان العرب احتكمت الى النساء .

قال : سواء أكان هذا ام لم يكن فليس لك الا ان ترفضي او ترضي به

— : استشير جدي في الامر ماذا تقول يا مولاي ؟

قال : أسألك الرضى يا ابنتي فاري كيف تقضين بيننا .

— : على رجاء ان لا ترد حكمي يا ابن الحارث .

قال : ما رضيت به لكي أرده .

فنظرت اليه والغرام يتغلغل في صدرها قائلة :

اذكر الآن ما تشاء .

— : لقد ذكرت يا سيدتي كل ما يجب ذكره .

— : اذن انت تعترف بانك انقذت ابي من الموت .

— : لم يكن هنالك موت كما يريد الامير ان يقول ، ولكني سمعت ابن عبادة يغلظ لأبيك القول. ورأيت الفتى يحمل سلاحه وليس مع الامير سلاح فخفت ان يضرب الغادر ضربته فيشفي غليله .

— : وعندئذٍ عرضت على الامير سيفك ليستطيع الدفاع عن نفسه ، أليس كذلك ؟

— : نعم .

قالت : هب انك لم تكن في الميدان في ذلك اليوم .

— : ثم ماذا ؟

— : وقام جبير فضرب الامير فجرحه ولم يقتله وانتهى بينهما الأمر عند ذلك الحد أترى يا سيدي ان جرح الامير لا يعد شيئاً ؟

فسكت قليلاً ثم قال : تريدين ان تقولي اني اذا كنت لم انقذ الامير من الموت

فقد انقذته من شيء آخر .

— : بل اريد ان اقول انك منعت ابن عبادة من الوصول الى أبي ولا أقول غير هذا أتعترف بذلك ام لا ؟

فنظر اليها نظرة الضعيف يستغيث بالقوي ثم قال : يخيل اليّ يا سيدتي انك ستحكين للامير .

— : أرجو ان تنتظر هذا الحكم بصبر وتثق بي ، ثم قالت لأبيها : اذكر قضيتك يا مولاي .

قال: اما هذه القضية فلا أذكرها لأني رددتها عشرين مرة وانا اجهل صفوان. ولكني اذكر انه عرض عليّ سيفه في ساعة ضيق وهذا يكفي .

فقاطعه قائلاً : لقد اقسمت يميناً يا مولاي

قالت ليلى : اتقص علينا حكاية هذه اليمين ؟

— : نعم حلفت اني لا اتناول جزاء على معروف ولو كان من ملك .

— : ومتى فعلت ذلك ؟

— : يوم حمل الناس جثة ابي الى القبر .

قالت : لقد حلفتها في يوم لا تنساه ما الذي دعاك الى هذا ؟

— : قصة جرت لأبي مع امير من امراء العرب لا اسميه .

— : ولكن تذكر قصته ؟

— : نعم . ان ذلك الامير أعطى ابي بدرتين من الذهب ثم رآه في عكاظ فمنّ عليه امام فريق من السادات والنبلاء . فرجع أبي الى مكة وهو غاضب لكرامته وأقسم انه لا يقبل عطية احد .

— : وكيف كان قسمك ؟

قال : فلما كان اليوم الذي اسلم فيه الروح ، أمرني بأن اصنع المعروف واستخفي حتى لا اسمع شكراً ، وبأن اقسم على قبره اني لا اقبل جزاءً ولو كان من ملك . ففعلت .

فاجابه زياد قائلاً : وانا قد حلفت يميناً امام الصنم الاكبر ان لا اترك محسناً

بدون جزاء ولو كان ملكاً .

ــ : واذا رفض ؟

ــ : احسنت الى الشخص الاقرب اليه .

ــ : ومعنى ذلك يا مولاي ؟

ــ : معناه ان ابن كعب لا يكون امير صوفة وهو لا مروءة له .

ــ : وماذا نفعل الآن ؟

فقالت ليلى : لقد حكمت .

قال : مولاتي .

ــ : مهلا فقد رضيت بهذا الحكم قبل صدوره . سيبرّ ابي في يمينه فيعطيك ما يشاء . ثم قالت لأبيها : ما هي عطيتك يا مولاي ؟

قال : أعطيته فرسي ام الجنادب .

فاطرق صفوان وهو متحير في أمره . ان ذلك الحكم لم يكن عادلاً كما أظن . وذلك الوثوق بليلى لم يكن في موضعه . ثم سمع ليلى تقول : أرضيت يـــا ابن الحارث ؟

فرفع رأسه بكآبة وهو لا يعرف ماذا يقول .

أيقول لا وقد رضي مختاراً منذ ساعة بذلك الحكم ام يقول نعم وينسى يمينه التي حلفها فوق جثة ابيه ؟ انه موقف يصعب الخروج منه على الشريف العربي .

وكان يهم بالجواب فتقف الالفاظ عند شفتيه .. وعبدالله ينظر الى ليـــلى باستعطاف . حتى خرج صفوان من ذلك الموقف مجروح الكرامة وهو يقول : نعم ..

فقالت لجدها : وأنت يا مولاي ماذا تعطيه ؟

ــ : السيف والدرع اللذين تركهما لي ابي .

فمد صفوان يديه الاثنتين قائلا :

أسألك سؤالاً واحداً يا سيدتي واستحلفك بشرف قومك ان تسمعي لي .

ــ : ما هو سؤالك .

قال : خذي السيف الذي اعطانيه ابو زياد واضربيني به حتى اموت في هذا المكان .

– : انفعل هذا ونحن جميعنا نريد لك الحياة !

قال : اذا اردتموها انتم فقد كرهتها انا . اعطوني الدرع والسيف واسرجوا لي فرس الامير .

قالت : اتنصرف الآن ؟

– : أجل وفي هذه الساعة ..

فابتسمت كما يبتسم القاضي الطاهر الوجدان ثم قالت : لا نعطيك ما طلبت الا اذا أعطيتنا عهداً .

– : واي عهد يعطيه رجل لا يقدر ان يبر فيه ؟ ما هو هذا العهد؟ اذكريه.

– : تقسم الآن انك لا تقتل نفسك ..

– : او لم اقسم من قبل اني لا اقبل جزاءً ؟

– : بـــلى .

– : وكيف قبلت الآن هذا الجزاء ؟ اني يا سيدتي نذل لا استطيع ان أفي بالعهود والوعود .

– : ومع ذلك نريد ان تحلف لنا .

فنهض قائلاً : اذن احلف اني لا اخرج من هذا القصر حياً .

فلم يستغرب للقوم ذلك القول ..

اما ليلى فقالت بهدوء : أتموت يا صفوان ؟

– : وهل تريدين ايتها الاميرة ان يخرج صفوان بن الحارث الى العالم حاملاً ذله وعاره ؟ ورب الكعبة لا اخرج من هنا الا على الاعواد ..

قالت : لا تعطيه السيف يا عبدالله ..

فمشى الى الدهليز وهو يقول :

سيقتلني السيف الذي احمله .

قال عبدالله : ولكني اخفيته .

فعمد الى خنجر في حزامه فأخرجه وهو يزأر كالأسد ثم قال :
هذا يفعل ما يفعله السيف .
واهوى به لصدره .. ولكن يداً حديدية ، هي يد زياد . ابعدت الخنجر عن ذلك الصدر .. وسمع الفتى صوت ليلى وهي تقول :
ستبرّ في يمينك يا صفوان .
فبغت قائلاً : لقد حكمت وانقضى الأمر .
قالت : ولن ارجع عن هذا الحكم ، فاسمع : ان السيف والدرع في هذه الحجرة التي ترى . ولومأت اليهـا ، وام الجنادب امام القصر وهي مسرجة ، فلكي لا ترى عينيك ما وهبناه لك ، اخرج الى هـذه الشرفة واعط كل ذلك ، اول قادم من ناحية الكعبة فتبرّ في يمينك .
فوضع يده على جبينه وقال : ورب الكعبة ان في ذلك مخرجـاً .. ولكن أفعل غير هذا ..
— : وكيف ذلك ؟
— : اني اذا وهبت عطية أبيك لاول قـادم فقد قبلت الجزاء وتصرفت به تصرف المالك ..
— : ولكنك تملكه الآن .
— : اجل . وبمـا انه اصبح مالاً لي فقد وهبته .. وهبت الفرس والسيف والدرع لابيك هذا ..
فضحك ابو زياد قائلاً : اجلس يا ابن كنانة فقد كان عبدالله صادقاً في كل ما نقله عنك .
وقام زياد وليلى يصافحانه والجميع يضحكون .
فعرف صفوان عندئذٍ ان القوم دبروا خطتهم في ظلام الليل ليلمسوا بأيديهم ما ذكر لهم عنه . وعاد الى مقعده وهو ينظر الى الجماعة نظرات الشكر . والى ليلى نظرات الغرام .

* * *

فاحت رائحة المسك . وقد طابت نفس صفوان .
فقال زياد : اما الآن فستذكر لنا الغاية التي جئتنا من اجلها في هذا الصباح
— : نعم يا مولاي وكدت انساها . ألم تقل لقومك اني حفظت حياتك ؟
— : نعم وسأقول ذلك الى الابد .
— : مع اني لم احفظها كما تظن .
— : لماذا ؟
— : لان ذلك النذل الذي اراد ان يغدر بك باقٍ في مكة مع مولاه !!
وكان زياد قد سمع ذلك الخبر من عبدالله . فقال :
وماذا تعني يا صفوان ؟
— : أعني ان الحقد لم يزل في صدره والسيف في يده وهو ابن ابيه ..
— : ولكني لا أعبأ بذلك الحقد وبهذا السيف .
— : بل لا تعبأ بالجيش تقتحمه في الميادين . واما الغدر فالويل لمن لا يباليبه
قال : هب ان جبيراً بقي في مكة ليستريح من زياد بن كعب فأي شأن بهذا لصفوان بن الحارث .
— : قبل ان اذكر لك هذا الشأن اسألك سؤالاً ؟
— : قل .
— : ألم نأمر ابن عبادة بان يغادر مكة ؟
— : بلى .
— : فماذا تقول لو نقل اليك الناس انه باقٍ فيها ؟
— : أقول انه الجبان الذي تخفى خوفاً من زياد .
— وانا اقول انه الجريء المستخف بأمر سيده والمتمرد الغادر الذي يبحث في ظلام الليل عن أمير صوفة ليشرب من دمه حتى يروي حقده .
— : أيجترىء عليّ ابن عبادة ؟
ان الذي يجترىء عليك في وضح النهار وانت على ظهر فرسك ، يجترىء عليك وانت امام قصرك عندما يسدل الظلام حجابه .

فقال عبدالله في نفسه : أرى مولاي يعيد الكلام الذي قاله لي .
وكانت ابتسامة السخرية على شفتي زياد وهو يقول : مهما يكن الامر فابن عبادة لا نخشاه .
— : انا ادعوك الى الحذر يا مولاي واعلم انك لا تخاف .
قال : انحذر رجلا لا نرى له وجهاً ؟
— : نعم لأنك تعرفه وقد يمشي حيث تمشي ويقيم حيث تقيم .
فقالت ليلى : لقد أصاب صفوان فالحذر لا بدّ منه .
فاجابها زياد قائلا : أجل ويجب ان نخرج الى سوق مكة ونحن لابسون عدة الحرب . ولماذا نفعل ذلك ؟ لأنه خيّل الى مولانا عبدالله انه رأى عينين لشبهان عيني عدوان .
فقال صفوان : اما انا فقد رأيته وحدثته بعد غروب الشمس عند المطاف .
— : وماذا قال لك ؟
— : قال ان مولاه طرده من خدمته وترك مكة الى حيث لا يعلم .
فقال ابو زياد : كاذب ورب الكعبة .
— : اجل يا مولاي . ومن يصدق ان ذلك اليمني الذي قضى اربعين عاماً في بيت عبادة يترك سيده ليطوف في بلاد العرب ماداً يديه للمحسنين .

فاطرق زياد واضعاً رأسه بين يديه .. ولم يكن واثقــاً قبل ان يقص عليه صفوان ذلك الخبر بان جبيراً يجرؤ على البقاء في عاصمة الحجاز بعد ان امره بان يختار له بلداً غيرها ، اذن فوجود عدوان عند المطاف يعني وجود جبير بالقرب منه ، والغدر ، اجل الغدر وحده غرض الاثنين .. ثم رفع رأسه فقال : أعـد علي يا صفوان حديث اليمني .
قال : ان في هذا الحديث ما لا أذكره الا لك ..
— : أكان بينك وبينه اسرار ؟
قال : لم اره غير مرتين . يوم كان الى جانب سيده في الميدان . وفي تلك الساعة التي ذكرت .

قال : لا نكتم ابا زياد وليلى شيئاً فبح لنا بتلك الاسرار .
فخفض صوته قائلاً : لقد وصف لي محاسن ليلى وذكر لي انها اجمل نساء الحجاز .
فاستولى الاستغراب على القوم . ان تلك الكلمة تبعث الريب الى الصدور .
واستطرد صفوان قائلاً : وكان يسألني باستعطاف وذل ان اخطبها اليك قبل ان يخطبها سواي ..
فاحمرت وجنتا الفتاة ..
اما زياد فنظر الى ابيه ينتظر جوابه ، فلم يسمع ذلك الجواب .
فقال عبدالله : اتعلمون ما هو غرضه ؟
قال صفوان : اذا أذن لي الامير ذكرت ما اعلم .
— : قل يا صفوان .
— : يريد ان يدفعني الى طلب الزواج ليعرف موقف ليلى وموقف آل كعب .
— : واي موقف هذا ؟
— : موقف الرضى او موقف الرفض .
قال : افترض اذن احد الموقفين ..
— : لنفترض الرضى يا مولاي .
— : نعم .
— : ثم لنفترض ايضاً ان الخبر بلغ ابن عبادة .
— : فماذا يجري ؟
— : يعمد الرجل الى قتلي ليقول لزياد بن كعب بكل صراحة وجلاء : ان ليلى لا تزّف الى عربي وهو حي .
اذن فزياد بن كعب لا يقدر ان يزوج ابنته !
قال : يستطيع ان يزوجها ولكن الراغب في ذلك الزواج يموت ..
— : وبعدئذٍ ؟
— : يقتل الغـــادر اثنين او ثلاثة من اشراف العرب فيرضى بذلك القتل كرامته التي جرحها امير صوفة ..

- : ثم يأذن لنا بعد ذلك ان نفعل ..

- : لا يا مولاي بل يعمد بعد ذلك الى أفظع من هذا كله. انه يقتل الامير نفسه.

فابتسم قائلاً : افترض الرفض يا صفوان فذلك خير لنا ..

قال : ان حياة الامير في الموقفين تكتنفها الاخطاء

فقال عبدالله ورأس مولاي هذا ما أفكر فيه .

فقال زياد : لم يبق الا ان تقوم الحراس حولنا في الدخول والخروج .

فارتفع صوت الفتى وهو نقول : سيكون رجل غريب عنك يقوم وحده بهذه الحراسة ..

- : من هو ؟

- : أنا ...

فتنهدت ليلى كما يتنهد العشاق .. وتساقطت الدموع على لحية ابي زياد ..

اما عبدالله فكان قلبه يرقص من الفرح ..

فقال زياد هادئاً : أتتبعني كما يتبع العبد مولاه لتنقذ حياتي من الموت ؟

- : نعم .

- : ولكن يجب ان أعرف السبب .

قال : اقسم لك بكل ما في البيت من آلهة اني لا اعرف هذا السبب لأذكره لك ، فمسح ابو زياد دموعه وهو يردد قائلاً : الحارث بن شجنة .. لقد كان فتى المحامد والمكرمات كما كان فتى الحرب.. انك صورة ابيك يا صفوان واني لأشعر الآن باني اخاطبه وان صوتك صوته. الا تعرف يا بني لماذا تصنع المعروف مع الناس؟

قال: لقد كتب لي ان ارى مولاي زياداً في ميدان مكة واعرض عليه سيفي، ثم رأيت ان احمل هذا السيف لأدافع عنه .. ثم رأيت ان ابذل حياتي لأنقذ حياته .. وأنا في كل ذلك لا اعلم ما الذي يدفعني الى هذا ..

-: اما نحن فنعلم ان النبالة التي غرسها ابوك الحارث في صدرك هي التي تدفعك اليه .

- : لنترك هذا الآن يا مولاي .

— : ولننظر في امر جبير .
— : نعم .
فقاطعه عبدالله قائلاً ؟
لي ما اقوله في هذا المعنى ..
فقال زياد : ذلك رأي جديد نسمعه منك .. هات يا عبدالله .
قال : في مكة رجل تخافون غدره أليس كذلك ؟
— : أجل .
— : وانتم لا تعلمون في اي مكان يقيم وأي موضع يتهيأ فيه للشر .
— : واذا كان ذلك ؟
— : اذا كان ذلك فأرسلوني ابحث عنه فاجيئكم به واضمن سكوته الى الابد.
— : وكيف تضمن ذلك السكوت ايها اللعين .
— : اقول له ان مولاي يدعوك ليزوجك ليلى فينتهي كل شيء .
— : اي انك تريد ان تنصب له شركاً ..
— : لا يا مولاي بل اريد ان تزّف ليلى اليه فيستريح هو ونستريح نحن .
فقالت ليلى: وانا اقترح على ابي ان يقطع هذا اللسان الذي يشبه لسان الحية.
قال : لماذا يا مولاتي وجبير اكرم محتداً وارفع منزلة ونفساً من صفوان بن الحارث .. وقد اراد بهذا الكلام ان يستدرج صفوان الى القول .
فقال صفوان : اعترف باني اضعف اهل الحجاز شأناً ، واما ان ابن عبادة اكرم مني محتداً فهذا ما لا اعترف به ..
فلم يبال عبدالله بما سمع بل قال لليلى: أتؤثرين صفوان بن الحارث على الرجل؟
قالت : اسكت يا لعين فأي رأي لليلى فيما تقول ؟
قال: ظننت ان القضية قضية زواج فرأيت ان تختاري جبيراً فهو خير من هذا.
فقال ابو زياد اذا كانت القضية كما ذكرت فانت لا تستطيع ان تجد في مكة خيراً منه ..
قال: من أغرب ما رأيت يامولاي اني اخاطب ليلى فتتولى انت امر الجواب .

— : أولم تعلم لماذا ؟
— : لا .
— لانك من اخبث الناس .. فضحك الجميع ..

على ان صفوان لم يذكر الزواج كما ظن عبدالله .. اجل . لقد احس في ذلك الموقف انه عبد لليلى وأسير هواها. وان خير ما يصنعه في حياته ان تكون زوجة له . ولكنه ، وهو الشريف الأبي ذو الخلق العالي لم يشأ ان يعكر صفو اخلاصه لعرض من اغراضه الخاصة .. فترك البحث في امر الزواج على امل ان يخطب ليلى في وقت آخر وعاد الى حديثه الاول قائلاً : سيطوف عبدالله في مكة باحثاً عن جبير واكون انا من حراس الامير ..

فقال زياد : وماذا يقول الناس عن هـذا الامين عندما يرون الحراس تسير وراءه ؟ سيقولون ان امير صوفة يفعل كما تفعل الملوك ..

— : ليس هنالك حراس يا مولاي انهم سيرون فتى على وجهه قناع ، ماشياً وراء زياد بن كعب كما يمشي الناس ..

فضحك قائلاً وهذا يكفي ..

قال : ليقل الناس ان لزياد بن كعب تابعاً لا ينفصل عنه . افلا ترى ان لرؤساء العشائر والامراء اتباعاً كثيرين ..

— : ذلك هو الضعف والعجز ..
— : بل هو العز يملي عليهم بان يتشبهوا بالملوك .

فقال عبدالله : وهذه العمامة الخضراء التي جعلتها قناعاً ؟؟

— : ماذا تعني ؟
— : ألا تتغير ؟
— : ابداً فقناعي اخضر زاه كما ترى. ثم قال: والآن فانا ذاهب اذا اراد الامير.
— : ومتى تصبح من الحراس ..؟
— : ليس لك ان تسألني عن ذلك .. ان الامير يستطيع منذ الآن ان يثق بقائد حرسه .. وجعل ينظر الى جانبيه .

فقال ابو زياد : ان حارسنا يفتش عن سيفه .

— : نعم يا مولاي فانا لا أخطو خطوة واحدة بدون هذا السيف .

فخرج عبدالله الى الدهليز ثم حمله اليه ، فتقلده بهدوء ثم شدّ عمامته وأرسل من تحتها عينيه الساحرتين وتمتم قائلاً : الى اللقاء .

فقال زياد : على قائد الحرس ان لا يهجر قصر اميره هجراً طويلا

قال : أرجو ان تأذن لي من الآن في الدخول عليك ساعة أشاء .

— : ان صفوان بن الحارث يأذن للناس .

فوضع يده على قبضة سيفه ووجّه الى ليلى نظرة قصيرة اطلّ معها فؤاده الخافق وخرج وهو يردد قول عدوان اليمني كما فعل عند دخوله .

ان ليلى فتنة الحجاز ..

أجل ، قدم صفوان قصر زياد وهو خليّ القلب لا يعرف الهوى ثم خرج منه وذلك القلب الخليّ يخفق على الغرام .

* * *

- ١٦ -

جمع زهرة بن كلاب قومه عندما همّ قصي بالسفر الى يثرب وحدثهم بالأمر ، وقصي ساكت يتبين القلوب . مما على الوجوه وفي العيون . فتسابق الفتيان الى اظهار الرغبه في السفر معه ، وصفوان بن الحارث مع القوم . ولكنه لم يبدِ رغبته في ذلك ولم يقل كلمة . مع انه يحس بميل قوي الى قصي ويكاد يعبد الهيبة والجلال اللذين يراهما فيه . فلما كثر الراغبون في السفر قام زهرة فقال : اختر يا قصي ما تشاء من قومك .

فاجابه قائلاً : لا أوثر احدهم على الآخر ولكن استشير سودة .

فنهض زهرة الى حجرة الكاهنة وقص عليها مـــا جرى في مجلس القوم ، فقالت : وماذا تريد الآن ؟

— : أريد ان ترشدنا الى الفتى الذي يرافق قصياً .

قالت : ليس لكم ان تختاروا يا مولاي ففي الاختيار اهانة لبني عمك .

ـ : وكيف نفعل اذن ؟

ـ : اضربوا على ذلك الرفيق بالقداح فالذي تخرج عليه فهو صاحبكم .

قال : ذلك هو الرأي ورب الكعبة ، ثم خرج قائلا لقومه : القداح يا قوم.

فجاءوا بها وجعلوا يضربون فخرجت على صفوان . صفوان بن الحارث نفسه كأن ذلك الضارب كان يتعمده في ضربه ،

فصافح قصي رفيقه وهو ينظر اليه نظرة الارتياح .

النبالة والاخلاص على جبينه. والسحر والصفاء في عينيه . والجرأة والاقدام في كل مظهر من مظاهره . وقد عرف قصي من قبل اي فتى هو صفوان .

ولكن صفوان ظل ساكتاً كأن الأمر لا يعنيه .

فقال قصي : ان السفر لا يطيب لابن عمنا على ما أرى .

فقال : بل يطيب لي الموت وانا معك .. ولكن .

ـ : ولكن ماذا ؟

ـ : لقد حلفت امس يميناً يا ابن العم .

ـ : ان لا ترافقنا في سفر ؟

ـ : لا ولكنها يمين تقضي عليّ بالبقاء في مكة .

فنظر القوم بعضهم الى البعض الآخر :

اما قصي فابتسم قائلا : القداح . مرة اخرى يا زهرة . فقد حالت اليمين بيننا وبين هذا .

فاجابه صفوان قائلا : ذلك ما لا يرضاه عربي . ولكني اذهب الليلة ثم اعود وانا احمل القبول او الرفض .

ـ : أتستشير أحداً ؟

ـ أستشير ذلك الذي اقسمت له .

ـ : من هو ؟

ـ : لقد نسيت اسمه يا قصي الى الابد .

: ولكنك تذكر اليمين على الاقل .

– : ونسيت هذه اليمين فلا اذكر منها غير الشرف الذي يملي عليّ البر فيها.
ففهم القوم ان للفتى سراً يريد كتمانه وهم يعلمون ان اسراره اسرار محامدواخلاق.

فقال قصي : ومتى تعود يا صفوان ؟

– : صباح غدٍ عندما تخرج النوق الى المرعى ، وقام فخرج قبل ان يسمع جواباً .

فقال احدهم : ليس في الحجاز من هو أكتم لسره من صفوان .

وقال آخر : وقد لا تجد في العرب من هو اعز نفساً منه ، فازداد اعجاب قصي بالرجل وامسى شديد الشوق الى سماع جوابه عند الصباح ، ولم يشأ زهرة ان يخبر سودة بالامر ، بل اجمع القوم على الانتظار . وقصي يقول في نفسه : لو كان الحجاز كله حزباً عليّ لما رضيت بغير صفوان رفيقاً لي .

* * *

مشى صفوان يريد قصر زياد بن كعب ، وقد استولى الهم عليه وملأت الكآبة نفسه . انه الآن بين أمرين لا ثالث لهما . اما ان يترك قصياً ليقوم بحراسة زياد ، واما ان يترك زياداً ليرافق بن كلاب الى المدينة . ولولا تلك اليمين التي حلفها لاختار السفر مع ابن عمه ، لانه يحب الاسفار ، ولان قومه ينظرون الى قصي ، قصي الفقير الذي لا يملك فرساً ، كما تنظر الرعية الى الامير . وكان يقول في نفسه : لقد خرجت القداح عليّ فترددت . وذلك هو العار . ان العربي لا يرد حكم الآلهة . ولم تكن القداح غير ارادة هبل ، إله الكعبة الاكبر .

فاذا اصرّ على الرفض فقد اغضب الإله والويل له اذا فعل .

غير ان هنالك وعداً . وهنالك ليلى . الشرف والغرام . وهو اعظم واقوى من ان يضيع واحداً من الاثنين . حتى وصل الى قصر زياد وهو يرى ان السفر لا سبيل اليه الا اذا أذن له فيه صاحب ذلك القصر .

وكان مجلس زياد، في ذلك الليل، غاصاً بنبلاء بني بكر وبني صوفة، يتحدثون عن الحجاج في ذلك العام ، فشد عمامته ودخل . فرأى ليلى وعبدالله جالسين في الدهليز وهما يتهامسان . فنهض عبدالله قائلاً : أهلاً بابن الحارث .. فاومأ اليه

مالسكوت وهو يقول : اريد ان أرى الامير ، قالها وقد خفض صوته المرتجف .
فاحمر وجه ليلى ..
ثم اضطربت اضطرباً ظاهراً لخاطر خطر لها في تلك الساعة ، ان صفوان لا يجيئهم في مثل ذلك الليل الا لأمر .. وقد يكون رأى جبير . وزياد في خطر .
اما عبدالله فكان يبتسم ومعنى تلك الابتسامة انه استلذ الفكر الذي قـــام بذهنه .. ثم قال ماذا تريد يا مولاي ؟
– :اريد ان أرى الامير ، وتنهد وهو ينظر الى الفتاة .
فقال الآن ؟
قال : في هذه اللحظة واحذر ان تذكر اسمي امام القوم
فهامسه قـائلاً : لقد عرفت الغرض من قدومك الليلة افلا تقوله لي قبل ان ترى مولاي ؟
– : ادعُ مولاك فستعلم كل شيء ..
قال : أليست القضية قضية خطبة ؟..
فارتعش قائلاً : لو كتب لي ان أخطب ليلى ايهـا الابله لجئت زياداً في وضح النهار . ودفعه بيده الى الداخل .. وعندئذٍ سمع ليلى تقول :
يخيل الي انك رأيت ابن عبادة ..
– : لا يا سيدتي بل رأيت حظي الاسود يخفق له جناحان في الفضاء .
فكادت ليلى تقع على الارض .. ان صوت صفوان يتردد في حلقه . والالفاظ تخرج مضطربة بين شفتيه . وهمت بالجواب .. لكن اباها كان قد اقبل ، فصافح الفتى وهو لا يستطيع ان يخفي دهشته ، ثم دخل الجميع حجرة صغيرة في آخر الدهليز هي حجرة السلاح الموروث ،ومد نبلاء المجلس اعناقهم ليروا ذلك الضيف الذي تركهم زياد من اجله .
فابصروا رجلاً على وجه عمامة خضراء ، فقال بعضهم للبعض الآخر : ضيف ذو قناع ..
ثم قالوا : انه رسول احد الامراء ..

ثم قالوا : وقد يكون اميراً فزياد لا يخرج لأجل رسول ..

وكان ابو زياد قد لحق بابنه ، فقال لصفوان : ان لك لغرضاً في هذا الليل ، فما هو ؟

قال : أيستطيع العربي ان يرفض امراً ضرب عليه بالقداح ؟

– : ذلك ما لا تفعله العرب فماذا جرى ؟

– : كنا الليلة في منزل زهرة بن كلاب .

فقال زياد : سمعت النـــاس يتحدثون عن أخيه قصي الذي نشأ في الشام ويقولون انه مقيم معه ..

– : نعم ولاجل قصي دعا زهرة قومه .

– : وهو يريد ان يزوجه على ما أرى .

– : لا يا مولاي بل اراد ان يختـار له رجلا من قومه يسير معه الى يثرب ليبيع الصوف ..

فضحك قائلا : كأنه لا يجرؤ على السفر وحده ويثرب في قلب الحجاز ؟

قال: ان قصياً اعظم من ان يخاف شيئاً يا مولاي ، له قلب يشبه صخور مكة وجنان اثبت من الحديد وعزيمة اقوى من الفولاذ وهو لم يكن له رأي في هذا الرفيق.

– : ولماذا اذن ؟

– : ان الفتى لم يعرف الحجاز من قبـل .. وزهرة لا يحب ان يقذف به الى بلد لا يعرف احداً من اهـله ، وانت تعلم يا مولاي ان لزهرة مقاماً في كنانة ومنزلة تشبه منزلة أبيه .

قال : وانت كثير الاعجاب بقصي يا صفوان .

– : نعم فهو خير فتيان كنانة وقد بدأ يسود قومه ويسحرهم بعظمة نفسه وصدق نظره ..

– : وسيصبح بعد قليل امير الشعاب ..

قال : هكذا كان ابوه وسيخلفه في النفوذ .

فأحس زياد في ذلك الحين ان في صدره عاطفة بغض لقصي .. وذلك عامل

من هوامل النفس التي لا تدركها العقول .. ثم قال ومن اختار منكم ؟

— : تسابق القوم الى السفر معه فلم يروا الا ان يعمدوا أخيراً الى القداح وهكذا فعلوا .

— : وعلى اي فتى خرجت ؟

— : على صفوان بن الحارث ..

فاهتز جسم ليلى ورأت عندئذٍ ذلك الحظ الاسود يخفق له جناحان في الفضاء .. ان صفوان لم تكن له رغبة في ذلك السفر.. ولو كانت له تلك الرغبة لما ذكر لليلى حظه .. اذن فهو يحبها .. ومن اجل هذا الحب وحده ترك قومه وهبط مكة ليستشير اباها في امره .. ذلك ما كانت تفكر فيه ، وكانت تقول في نفسها : لقد رأيت قصياً هذا وانا على شرفة قصر حليل مع حبى.. انه الفتى الذي اختارته حبى ليكون زوجاً لها .. لقد اتفقت بنت حليل وبنت زياد كما اتفق ابن الحارث وابن كلاب ..

وعندما قال صفوان كلمته عرف القوم غرضه من المجيء في تلك الساعة فاجابه زياد قائلاً :

وقد ترددت في القبول يا صفوان أليس كذلك ؟

— : وكيف لا اتردد يا مولاي وقد اقسمت يميناً في هذا البيت الا افارق صاحبه ؟

— : وماذا فعلت ؟

— : سألت القوم ان ينتظروني الى الصباح .

— : وجئت تستشيرنا في ذلك ؟

— : نعم .

قال : اي الامرين أحب اليك ؟

— : وان في كليهما شرفاً يا مولاي .. لقد وعدت اني سأكون تابعاً للأمير وجاءت القداح تفسد علي هذا الوعد ، فما هو الرأي ؟

فظهرت العظمة على جبين ابن كعب وقال : لا يستطيع احد ان يفسد

عليك وعدك يا ابن الحارث .
- وكيف ذلك يا مولاي ؟
قال : تذهب الى يثرب مع قصي لئلا يظن قومك الظنون ..
- : وجبير ؟
قال : ان الامير يقدر ان يحمي نفسه ريثما تعود وبعد ذلك تبر في اليمين التي حلفت ..
- : أخشى ان تستخف بما سمعته عن جبير فيقع ما لا نحب .
- : لا تخشَ شيئاً يا بني ان الموت لا بد منه ونحن لا نعلم أتجيئنا من جبير ابن عبادة ام من سواه .. ولكن قل لي يا صفوان اذكرت يمينك لبني قومك ؟
فرفع رأسه قائلاً : انا ابن الحارث يا مولاي ..
قال : وبماذا اعتذرت ؟
- : قلت اني مقيد بيمين وسأستشير الذي حلفتها له ، ثم قال : وانت يا ابا زياد افلا ترى ان في سفري نقضاً للعهد ؟
فقال الشيخ: بل أرى ان الشرف كله في هذا السفر الذي تخشاه. ان العرب ولو عرفت يمينك لا تقبل لك عذراً في ردك حكم الآلهة. فاذهب مع قصي بن كلاب فأمير صوفة يأذن لك في ذلك وستقوم بحراسته كما وعدت بعد رجوعك من يثرب.
فقال عبدالله : اتمكثون طويلاً فيها ؟
- : الامر بيد قصي ولست غير رفيق له .
قال : يظهر ان قصياً كثير المال .
قال : لولا قومه لما وجد منزلاً يأوي اليه وليس في يده درهم .
فقال زياد : اذن هو يخرج في مال قومه .
- : في مال اخيه يا مولاي ثم يصبح ذلك المال بما يتبعه .
- : وقد يكون تاجراً حكيماً مثل بني قومه فيكثر ماله في شهر واحد، ان بني كنانة يملكون نواصي التجارة في الحجاز فاذهب وليحرسك هبل .
فالتفت الى عبدالله قائلاً : احذر يا عبدالله.. يريد بذلك ان يحذره من جبير.

فقال: لقد عرف عبدالله من قبل ان يحرس سيده ولكني اخاف جبيراً عليك.
قال : ايتبعني الى يثرب ؟
- : من يعلم فقد يسير مع غلمانك وانت تدري ..
فرفعت ليلى نظرها الى صفوان وهي خائفة ..
فقال : خير لي ان اراه في يثرب من ان أراه في مكة .
ومد يده فصافحهم واحداً واحداً وهو يقول :
سأذكر وعدي ولا أنساه وسأفي به اذا رجعت .. قالها وهو يهز يد ليلى .
فعرفت الفتاة عندئذ انه يعنيها بذلك القول .. ولو نظر الاثنان الى عبدالله
ا رأيا تلك الابتسامة المعنوية على شفتيه .. ومعناها انه عرف ما يجول عندئذٍ في
خاطر العاشقين.
وبعد خروج صفوان قال زياد لأبيه : لم أرَ قط فتىً اكرم محتداً من هذا.
فقال : كلما رأيته ذكرت اباه وطهارة نفسه فهو كأبيه لا زيادة ولا نقصان.

* * *

حدثنا بما تعلم يا عبدالله عن قصي بن كلاب .
- : ومن قال اني اعلم شيئاً عن الرجل ؟
قال : افلم تذكر لنا انك رأيته ؟
: بلى رأيت فتى يسير مع زهرة بن كلاب الى الكعبة وهو بلباس اهل
الشام وقد ذكرت لك كيف رأيته بعد ذلك على قدمي هبل مع اخيه. وانا ابحث
حول الكعبة عن المحسن اليك .
: وماذا رأيت غير ذلك ؟
: رأيت الاخوين يحدثان سادن الكعبة وهما خارجان وحليل يبتسم لها .
قال : لقد خبرتنا ما رأيت فقص علينا ما سمعت ..
: وسمعت من الناس ان قصياً زار سادن الكعبة في قصر مع زهرة اخيه.
ثم سمعت شيئاً آخر ذكره المقربون الى جانب البيت وانا غير واثق به
: ما هو ؟

– : ان قصياً سيخطب حبى ..

فقهقه زياد وهو يقول : ذلك حديث الغلمان والعبيد .. أيجسر هذا الفتى ان يطلب بنت حليل .

– : ولماذا لا يجسر وهو من اشراف الناس ؟

قال : لقد تقدمه الكثيرون من اشراف الحجاز فلم يتم لهم الامر .

قال : لو كنت سادن الكعبة لزوجته ابنتي ولم احفل بابناء الملوك ..

– : لماذا ؟

– : لأن العين لا تقع على احسن منه يا مولاي .

قال : وجه فوق اطمار بالية ..

قال : سيصير غنياً بفضل قومه. ويقول اهل الشعاب ان مالهم كله يبذلونه له.

فاطرق زياد يفكر في ذلك .

فقال له ابوه : في اي شيء يستحق قصي مثل هذا التفكير يا بني ؟

قال : ألا ترى يا مولاي انه اذا أمسى زوجاً لحبى امسى امر الحجابة بين يديه ؟

قال : اينتهي بك الامر الى هذا الحد ؟

– : نعم يا مولاي فالمحترش لا يصلح للحجابة وقد يعتزل حليل منصبه لهذا الكناني .

قال : اما ان المحترش غير اهل فهذا صحيح وفي خزاعة من هو اهل بعد حليل . واما ان يعتزل ابن حبشية سدانة الكعبة فذلك لا يكون وهو قادر على فتح الباب واغلاقه . أتظن يا زياد ان رجلاً يخضع له الحجاز ويهب سلطانه ونفوذه لسواه . وهو يملك قواه ! .

قال : ستنتهي الحجابة على كل حال الى الرجل الذي يتزوج حبّى .

– : نعم اذا كان من خزاعة .

– : واذا كان من كنانة ؟

– : يثور ابناء عمنا فيأخذون الحجابة منه بالسيف

- : وتستعر النار في الحجاز بيننا وبين أهل الشعاب .

- : لتستعر ، وليسقط الحجاز على رؤوس اصحابه على ان تكون الحجابة اليوم حليل .

قال عبدالله : أراكم تخافون شيئاً لا وجود له الآن .

قال زياد : لو كان موجوداً لمشينا اليه بالسيوف .

- : أتطمع بالحجابة يا مولاي ؟

قال : اذا رأيت انها ستخرج من يد خزاعة طلبتها لنفسي .

قال : هب ان حاجب البيت اختار صعلوكاً من صعاليك العرب وزوّجه ابنته فماذا تقول ؟

قال : ذلك حديث لا أريد ان أسمعه لانه لا يكون .

- : واذا اختار رجلا فقيراً مثل قصي لا يملك غير شرف المحتد فأي شأن لزياد بن كعب بهذا الزواج ؟

- : ليس له شأن .

- : اذن ليفعل حليل ما يطيب له على ان تبقى لك الامارة .

قال : أخشى ان اخسر هذه الامارة عندما يخسر بنو خزاعة حجابتهم .

- : وكل ذلك يفعله قصي يا مولاي ؟

- : نعم .

- : بقوة هبل ام بقوة الجيش الذي يقوده .

قال : ان قصياً الذي لا يملك اليوم مالاً ولا يقود جيشاً يمطره الحجاز ذهباً ، جالا عندما يصير سيده . والفقير الذي يخرج اليوم الى يثرب في مال اخيه ،بيع الصوف تكثر وفود العرب ببابه عندما يستولي على الكعبة وتطرح الاموال على قدميه كما تطرح على أقدام الآلهة . ثم قال : وحبى . حبى وحدهـا هي الطريق الذي يسلكه قصي للوصول الى الحجابة . أجـل اني لا اعرف الفتى الشامي ولم أرَه . ولكن قلبي يحدثني بأنه سيكون له في الحجـاز شأن وفي حديث هذا القلب همس خفي تضطرب له نفسي .

فنهض ابو زياد وهو يقول :

نعم .. نعم .. سيخلق لنا هذا الكناني حرباً . وخرج من الحجرة الى قاعة الجلوس . فقال له النبلاء : من هو صاحب العمامة الخضراء ايها الامير ؟

قال : حجازي يسألنا قضاء حاجة له .

ــ : واين الامير زياد ؟

ــ : مع عبدالله وسيجيء الآن .

* * *

لي كلمة أقولها يا مولاي .

قالها عبدالله لزياد وهو يخفض صوته ، فأجابه قائلاً : عجّـــل فسأعود الى مجلس القوم .

قال : أي رأي لك في بني كنانة ؟

ــ : هم القوم الإشراف اصحاب المفاخر .

ــ : ألا ترى ان تضع يدك بأيديهم فيصبحوا لك .

ــ : وكيف ذلك ؟

ــ : انت تخشى ان يصبح ابن كلاب زوجاً لحبى فتنتقل السدانة اليه .

قال : وتنتقل الامارات واحدة بعد واحدة الى بني قومـــه ، ونخسر كل شيء ، ان الكنانيين ابطال اشداء ، وقد يخرج علينا فريق من قوم حليل من خزاعة . فيضيع كل أمل .

قال : افعل ما يفعله حليل يا مولاي .

فحدق اليه قائلاً : أفعل ماذا ؟

قال : اذا زفت حبى الى قصي زففت ليلى الى شريف آخر .

ــ : ومعنى ذلك ؟

ــ : معناه ان هـــذا الزواج يضمن سكوت القوم ويجعلهم حلفاء لزياد كما يجعلهم زواج حبى حلفاء لحليل .

قال : ليس القوم اعداء لنا اليوم ولكنهم اذا استووا في العرش جاهروا

بالمداوة ..

- : وعندئذٍ يمنعهم زوج ليلى من هذا .

فابتسم قائلا : ومن هو هذا الزوج ؟

- : هو صفوان يا مولاي .

فقامت ليلى وهمت بالخروج .

فاستوقفها زياد قائلا : امكثي يا ليلى فلا نريد ان نكتمك امراً . امكثي واسمعي حكمة عبدالله في هذا الرأي . هات يا عبدالله .

قال : ان صفوان بن الحارث ابن عم قصي ، هذا سيد في قومه والآخر مثله ، وسيكون رفيقاً له في سفره الى يثرب ، فاذا امسى قصي بعد زواجه غولاً يبتلع الحجاز كله كما تظنون كان صفوان وهو الذي لا تخشون الى جانب ذلك الغول يرده الى الهدى وينتزع من يده السيف الذي يخضع به الرؤساء والأمراء .

قالها وهو يضحك كأنه هازيء .

فاجابه زياد قائلا : انها لحكمة كما قلت لو لم تكن اعترافاً بالعجز . أتريد يا عبدالله ان يزفّ زياد ابنته الى رجل يخشى حربه ؟ انه زواج سياسي لا ترتاح ليلى اليه .

قال : لنترك السياسة يا مولاي ولننظر في الامر من الجانب الآخر . ألم يكن صفوان محسناً الى آل زياد ؟

- : بلى .

- : فهب انه جاءك خاطباً ليلى فماذا تقول له ؟

قال : لا ارده الا اذا ردته هذه ، وأومأ الى ابنته قائلا : لقد جاءك ابن الحارث الكناني خاطباً أتردينه ام تقبلين ؟

فأرخت نظرها الى الارض وقد استيقظت في صدرها عاطفة الحب ... ولم يسمع زياد جواباً .

فقال : ليلى . هي ان صفوان ينتظر الجواب الآن .

فقالت : ليس في الزواج رأي الا اذا كان طالبه جبير بن عبدة .

— : أي انك ترضين بجميع الناس .

—: أرضي بمن يرضاه ابي لي .

— : رضيت بصفوان ؟

— : وأنا قد رضيت .

فالتفت الى عبدالله وقال : بقي ان يجيئنا صفوان طالباً ليلى . هات ايضاً يا عبدالله .

قال : اذا جاز لي ان اذكر كل شيء قلت ان صفوان عاشق .. عاشق يذيبه الغرام .

— : وكيف اتاه غرامه ؟

— : ارسلته اليه عينان ساحرتان في قصر بن كعب واقسم برب الكعبة انه يحب ليلى ولولا عزة نفسه لخطبها الليلة .

قال : كأن الحب وعزة النفس لا يتفقان ايها اللعين ؟

— : بلى يا مولاي ولكن فتىً مثل صفوان يكره ان يطلب اليوم شيئاً لئلا يظن انه يسأل جزاءً .

قال: احسنت فستكون ليلى له عندما يشاء وسننظر مرة أخرى في امر قصي.

وحاول الأمير كثيراً ان يمحو عاطفة البغض التي تغللت في صدره فلم يستطع. ولم يعلم ما هو ذلك الصوت الخفي الذي يهامس اعماق نفسه .

ولو ذكر ذلك البغض لعبدالله لقال له :

انك يا مولاي تخاف هذا الفتى الكناني الفقير الذي يتحدث بأمره أهل مكة والذي لا حول له ولا طول .

وكانت ليلى مطرقة وهي لا تدري أكان أبوها هازئاً ام جاداً فيما ذكره عن الزواج . وحسب عبدالله اجل حسبه ان ليلى تعشق صفوان وهو لا يعبأ عندما يوجد الحب بارادة زياد وابي زياد فالاثنان لا يغضبان ليلى اذا اختارت لها زوجاً مثل صفوان .

* * *

أحبها حباً ملك عليه جميع مشاعره . حتى ان الليل انطوى كله وعيناه ساهرتان لم يغمض لهما جفن ، وكان يقول في نفسه :

يكفي زياد بن كعب ان يكون عنده مثل ليلى لتجتمع قلوب الناس على حبه.

وكان يفكر في الزواج ولولا تلك الكبرياء لعاد من الشعاب الى مكة يحمل قلبه بيديه ليطرحه على قدمي التي احب ، اجل . ان الكبرياء وحدها ، كانت تمنعه من اظهار غرامه كما قال عبد الله ، وهو يخشى ان يقول القوم في انفسهم : كانت ليلى جزاءً لابن الحارث على ذلك المعروف .. ولم يكن يرى ، لشدة وثوقه بنفسه ، ان زياداً يرده اذا طلب ليلى ، او ان ليلى تأبى ان تكون زوجة له ، ولكن شيئاً واحداً كان يقطع عليه احلامه هو انه لم يكن يعلم ، اذا كان في صدر ليلى شيء من ذلك الحب الذي يعذبه ..

حتى طلع الصباح وهو يناجي طيف الحبيب .. فذكر عندئذٍ وعده وقام فانصرف الى منزل زهرة بن كلاب ليرى اخاه .

فلما وصل اليه كان قصي واقفاً امام خيمة له ينظر الى مكة الجاثية على قدميه كأنه يعرض ما فيها من احياء وقصور كما يعرض القائد جنده قبل ان يخوض المجال ، وقد وضع يده على جبينه مبتسماً لحلمه الذهبي ..

ولم يرَ صفوان حين وصوله لان عينيه كانتا تنظران الى ابعد منه ..

فقال صفوان مازحاً : ابيت اللعن ايها الامير .

فالتفت اليه قائلاً : اراك بدأت تسلم بالامارة يا ابن الحارث ؟

قال : نعم لاني رأيتك الآن اعظم الامراء .. وتغيرت لهجة صفوان عندما ابصر ذلك الجلال ..

فمشى امامه الى الخيمة وهو يقول : خبّرني ماذا فعلت بيمينك ؟

قال : لقد انتهيت منها الآن وسأبن فيها بعد رجوعي .

قال : لا اسألك عنها لاني احترم اسرار الناس ولكني اريد ان ترافقني بضمير هادىء وقلب مطمئن ..

– : لو لم يكن ضميري هادئاً لجئتك الآن معتذراً ، متى نسافر ؟
قال : النوق تعج وراء الخيام وقد اعد الغلمـان كل شيء .. نترك مكة غداً عند المساء فاختر لك ناقة تركبها ..
قال : اتركب النوق يا قصي ؟
– : اجل فهي خير الدواب في الاسفار .
– : ولكني لا اركب غير فرسي وقد اعددت لـك فرساً آخر اهبه لتاجر الصوف ..
قال : دعها في الشعاب فلا حاجة لي الى الخيل .
قال : اترفض هديتي ؟
– : اقسمت اني لا آخذ من احد شيئاً الا اذا اصبحت ذا مال .
– : وكيف تأخذ من زهرة ما تشاء ؟
– : ذلك مال آل كلاب وانا منهم فلا تعد الى مثل هذا واترك ذلك الفرس ريثما اعود .
ومتى قال قصي كلمة فكلمته قضاء لا يرد ، فلم يلج صفوان في طلبه بل قال: سأتركه اذاً ريثما تعود وبين يديك المال .
قال : وعندئذٍ نبحث عن شيء آخر ..
فلم يعلم الفتى ما الذي عناه فقال له : ما هو ذلك الشيء ؟
– : ستعرفه بعد ان نبيع صوفنا في يثرب .. انـــك يا صفوان فتىً باسل وتحب الحرب .. أليس كذلك ؟
فابتسم قائلاً : وهل نخوض غمار الحرب في يثرب يا قصي ؟
فقال وعيناه تلمعان : اما في يثرب فلا .. ثم قال : ولكن من يعـــلم اين تشتعل النار ..
قال : انك تحدثني بما لا اعلم ..
– : اصبر فقد عودنا الزمان الصبر ..
ومد يده الى الافق .. فوق جبال مكة واخـــذ يقول : سنحارب هذا

السحاب الاسود الذي يجر ذيوله فوق الحجاز حتى ينجلي .. اذهب يا صفوان وأعدّ ما تحتاج اليه ..

قال : الفرس ملجم . والسيف بالسرج .. وسآخذ معي بعض المال انفقه في يثرب واشتري ، ان بقي منه شيء درعاً من دروع الاوس .

قال : اما الدرع فأهبها لك .

فلمعت عيناه قائلا : لقد اقسمت انت يا قصي انك لا تأخذ من احد شيئاً الا اذا اصبحت ذا مال . اما انا فاقسمت اني لا آخذ من أحدٍ شيئاً ما بقيت .

فقال : صدق الذين قالوا انك اعز الناس .. ودخل زهرة في تلك الساعة فقال : ألا ترى الكاهنة قبل سفرك يا قصي ؟ فنهض وهو يقول : اراها الساعة لوجه السماء مكفهر . والغيوم كثيرة سوداء .

فقال صفوان : اما انا فأرى السماء صافية والافق يبسم لي ..

وقام فخرج وهو لا يفهم شيئاً من هذه الالغاز التي يرددها ابن كلاب ، ولكنه كان واثقاً بان قصياً سيفضي له في يثرب بجميع ما عنده من اسرار كما قال ، وجعل يفكر في الرجوع الى مكة ليرى ليلى . غير ان الكبرياء انتصرت على العاطفة في ذلك الحين ..

* * *

عشرون ناقة باحمالها ، وثمانية من العبيد يتبعهم قصي على بعيرٍ له وصفوان على فرسه الحمراء ذات الهلال .

والاثنان يتلفتان الى الوراء ، الى مكة .. هذا يفكر في اطماعه واحلامه وهذا يفكر في غرامه ..

وفي الاثنين الاطماع والحب ، عاطفة فياضة هائجة ، واستسلام الى اللذة .

كان قصي بن كلاب يحلم بالاستيلاء على الكعبة ؛ وخيال حبى يمر امام عينيه ، وصفوان بن الحارث يحلم بالاستيلاء على قلب ليلى بنت زياد ..

وكاد ينسى ابن عبادة ..

اي ان الفتيين اللذين هما في زهرة العمر كانا يفكران في الفتح. ولكل واحد

منها كعبة تتجه اليها عاطفته واحساسه .

وكانا ساكتين حتى احتجبت مكة وراء الجبـــال .. فرفع صفوان رأسه قائلاً : والآن يا قصي ..؟

قال : اما الآن فلا شيء ..

– : أتحب الرجوع الى الشام ..؟ فاستفاق من ذهوله وهو يقول :

ما تركت الشام لأعود اليها .. ولكني اذكرها وفي الذكرى مرارة وألم ..

فخيل الى صفوان ان قصياً احب احدى الحسان في الشام وفصلـــته عنها الاقدار . فقال له : اذا كان في الذكرى ألم فانت من العاشقين ..

فابتسم قائلاً : اجل ولكني لا اعشق النساء . وليس في الشام كلهـــا امرأة يخفق لذكرها القلب غير فاطمة بنت سعد ..

– : وهذا يكفي ..

قال : انها امي .. وانا لا اذكر غيرها من نساء الشام الساحرات العقول .

قال : وما معنى هذا الألم ؟

فتنهد قائلاً: معناه اني رأيت الشام والحجاز فلمست القوة في الأولى وابصرت الضعف في هذا ، فتألمت .. وسيستمر هذا الألم حتى ارى هنا ما رأيته هناك .

قال : في الشام يقوم النزاع والحرب ..

– : وفي الحجاز يقوم الخمول ويعقبه الموت ..

قال : ورب الكعبة لئن حدثتني بعد بمثل هذا الغموض لأرجعن الى مكة.. اي خمول رأيت ؟

قال : اما الغموض فسيزول في هذه الرحلة ، واما الخمول الذي رأيت فـلا يزول حتى يذكر الماضي بنو كنانة ..

– : نحن ؟

– : نحن !

قال : أكانت قضاعة التي نشأت بينها اعزّ من قومك .

– وهل تذكرون العز يا ابن الحارث وانتم عبيـــد هؤلاء اليمنيين ، الذين

سادوا بلدهم ، واستولوا على بيتكم بيت العرب الاكبر ، وضربوا عليكم خراجاً تدفعونه كل عام وانتم صاغرون .. اتذكرون العز واعظم سيد فيكم لا يجسر ان يبني في مكة بيتاً يأوي اليه عندما يحن الظلام ؟.. انكم من نبلاء العرب ومن ساداتهـا . ولكنكم تحبون بيع السكر والشمع .. وتعقدون اذناب الخيل في الميادين .. وترسلون رماحكم في الفضاء فتخترق الهواء ، وانتم ترون انهـا تخترق صدور الاعداء .. اجل يا اشراف الحجـاز ، مرّوا بباب الكعبة وارفعوا رؤوسكم امام حاجبها اذا استطعتم ، بل اذهبوا الى آلهتكم وصلّوا لها دون أن تستأذنوه .. انظر يا صفوان .. انظر الى تلك الحياض التي تملأ ماء للحجاج بفناء الكعبة . أيجروء احدكم ان يرتوي منها في ساعات الحر بدون امره .؟ ان عزكم في رؤوس الجبال .. وعلى قمم الصخور الحمر والسود .. وفي الشعاب التي تقوم حولها الجدر الملساء .

ثم غير لهجته قائلا : أو لم تقل لي يا صفوان انك ستشتري في يثرب درعاً من دروع بني الاوس ؟

– : بلى .

– : ولكن قل لي اية حاجة لك الى الدروع ؟

فاجابه ضاحكاً : ألبسها يوم تغير على خزاعة ومن حولها من اليمنيين ..

قال: لقد هزىء زهرة قبلك كما تهزأ انت. حدثني اذاً بما تعلم عن بيع الصوف وعن سوقه .

– : بل اسألك عن قضاعة التي اوحت اليك هذه القوة، الا يبيعون هنالك السكر والشمع ؟

– بلى ، ولكنهم يبيعون شيئاً آخر عندما يعبس وجه الزمان .. انهم يبيعون ارواحهم يا صفوان ليحفظوا مجد آبائهم ويصونوا كرامتهم . اما نحن فقد استسلمنا الى اللذات وبذلنا دماءنا ومالنا في سبيل هؤلاء اليمنيين ، ليتربعوا في العرش الذي خلق لنا . ويستولوا على البيت الذي بناه جدنا اسماعيل ..

وكان يتكلم واطماعه ترتسم على جبينه والابتسامة ، ابتسامة الواثق بنفسه

لا تفارق شفتيه ..

ثم قال : ابناء عدنان ينشئون في العراق والشام ، دولاً يعترف بهـا الفرس والروم، وفي الحجاز ، يخسرون عزهم وينسون امجادهم، كأن السماء التي يعيشون تحتها غير السماء التي يستظل بها الآخرون ، وكأن الهواء الذي يكتنفهم لا يحمل فوق اجنحته نسمات الحياة ..

فأحس صفوان ان روحاً جديدة تخفق في صدره ، وان الالفاظ التي يرسلها قصي نار تحرق احشاءه ..

فمن هو هذا الفتى الذي قدم من الشام لينفخ في بوق الثورة ؟

ان بني كنانة اشراف الحجاز ولكنهم عبيد .. انهم حفدة اسمـاعيل وبيت اسماعيل في يد الاجنبي .. وانهم سلالة عدنان وهم خاضعون لابناء قحطان ..

وذلك هو العجز والضعف . والذل والهوان ..

ومثل صفوان بكبريائه وعزة نفسه ، لا يحتاج الى المزيد في البيـان فقال : ورب الكعبة لا اجد ما ادافع به عن قومي. انهم كما ذكرت يا قصي ولا يفكرون في غير البيع والشراء ..

— : وانت في اي شيء فكرت قبل الآن..؟انك تجمع الخيل ازواجاً وتجعل على ظهورها سروج الذهب.واذا حملت السيف فلكي يعلم الناس انك ابن الحارث ابن شجنة وانك من النبلاء الاغنياء ..

فأرخى الفتى عينيه الى الارض وهو يقول : أصبت ورب الكعبة..ولكني لا احب الظهور كما قلت . وهذه العمامة التي اجعلها على وجهي تشهد لي .

قال : سمعتهم يقولون في مكة انك تبذل المال للفقراء بسخاء .. فماذا فعلت لقومك ؟؟

— : اغيثهم بهذا المال في ايام الضيق .

— : ولكنك لم تمحُ ذلهم ولم تسترجع مجدهم ..

— : لو كنت قادراً لفعلت .

فرفع عينيه الى العلاء قائلاً : امـــا انا فسأفعل ولا احتاج بعد الحصول على

المال الا الى بني قومي يضعون ايديهم بيدي لأبلغ الغاية .

فوقف الفتى ومد يده وقال :

هذه يد صفوان بن الحارث اول من يمشي تحت لواء المجد ..

قال : اتعاهدني على الوفاء ؟

فاجابه قائلاً : لا نعد الا لنفي بما وعدنا .

— : ولكني كثير الاطماع يا صفوان ولا تخمد نار اطماعي الا اذا بلغت قمة العز .

— : ذلك ما ارغب فيه .

— : والطريق صعب يكمن لنا فيها الموت ..

قال : ما خلقت الا لأقتحم الاخطار .

— : واذا خطوت الخطوة الاولى فلا أرجع .

قال : سأضع قدمي حيث تضع قدمك .

— : وقد توقد النار في الحجاز ويمتد لهيبها الى قومك .

قال : قصي بن كلاب خير من عرفت من قومي وسأخوض معه هذه النار .

— : والآن فاقسم لي انك تطيعني كما يطيع الجندي قائده وانك لا تسألني عما افعل ..

فقال ولم يتردد : ورب الكعبة ..

فقاطعه قصي قائلاً : كفى فقد وثقت بك يا ابن العم كما اثق بنفسي .

ومد يده فتصافح الاثنان .. القائد واركان حربه . وهذا الاخير لا يعرف الطريق الذي يسلكه قائده ..

* * *

لم يكن قصي يعرف يثرب «المدينة» الا كما يعرفها القادم من الشام الى مكة، وهو لم يقدم مكة الا هذه المرة . وكان مروره بيثرب مع جماعات الحاج من قضاعة . اما صفوان فكان يعرفها كما يعرف عاصمة الحجاز وله بين فتيان الأوس والخزرج اخوان مودة وولاء ، فلما وصلا اليها ، رأيا السهل الشرقي الذي يضيق حتى يبلغ بقيع الفرقد غاصاً بالناس ، وتلك الساحات خارج السور وداخله

تعج فيهـــا النوق وتصهل الخيل ، فخيل اليهما ان يثرب في حرب . لولا تلك الفوضى في الصفوف واختلاط الناس على غير نظام .

ولم يلبث قصي حتى عرف ان اولئك الناس من اهـــل الشام بدليل تلك الثياب التي يلبسون . فقال لصفوان : لم يلجأ اهل الشام الى الحجاز الا لأمر .. اسأل هذا الرجل الواقف كجذع النخلة وراء الصفوف .

فأومأ الفتى الى الرجل فأقبل . فقال له : متى قدمت من الشام ؟

فسمع الرجل صوتاً عذباً ورأى وجهين يطفحـان بشراً وجمالاً ، فظن انهما من ابناء الملوك فقال : قدمت من يومين ، وهذا الثالث .

— : وهؤلاء الناس جميعهم من الشام ؟

— : نعم .

— : وماذا جرى عندكم ؟

— : ما يجري في كل بلد تعصف به الحرب .

فقال قصي : هل لك ان تتبعنا الى السوق فتحدثنا بما تعلم .

قال : افعل .

فترجلا،ومشى الثلاثة معاً يتقدمهم صفوان الى سوق يثرب..وكانت طوائف العرب تروح وتجيء في تلك السوق .

فقال صفوان : نبيـع صوفنا الآن ثم ننظر بعد ذلك في الامر الذي نشاء

قال : افعل ما يطيب لك .

ولم تكن غير لحظة حتى راح غلمان عريف السوق ينادون :

صوف مكة في الساحة .

وجعلوا يرددون نداءهم كما يفعل الدلال اليوم ، فأقبل القوم . واخـذ قصي يساوم بصوفه وهم يترددون حتى اصلح الدلال الاكبر بين قصي وبين الشاري وتم البيـع .

وكان زهرة بن كلاب قد علّم اخاه شيئاً من فنون الاخذ والعطاء .. فلمـا قبض الثمن دفعه كله الى صفوان وهو يقول : ما تعودت ان احمل مالاً فاجعله في

سرج فرسك .. فتناول صفوان المـال ودفعه بدوره الى احد غلمـانه ، ثم مشى امام رفيقيه الى حي بني الاوس ليشتري درعاً كما قال .

فرأوا رجلاً يدعى الجلّاح جالساً بباب منزله الذي يشبه الحصن وهو احـد رؤساء الأوس وقد جاوز السبعين ، وحوله فريق من فتيـان قومه . يصف لهم بعض حروب العرب ويذكر الميادين التي خاضها في سبيل الشرف .

فقال صفوان : هـذا الجلّاح زعيم الاوس يا قصي وعنده الدروع ترسل اليه من اليمن .

ـ : والآخرون ؟

ـ : هم فتيان الحي .

قال : اتذهب اليه ؟

ـ : اجل وسأختار الدرع التي اشاء .

فقال قصي وهو يبتسم : لقد دفعتني الاقدار الى الرجل الذي يبيع العرب دروعها ، وذكر عندئذ قول سودة .

فقال صفوان : واي شأن لك مع الجلاح ؟؟

ـ : أرى دروعه التي وصفت ثم اشتري منها اذا طاب لي الشراء .

قال : اتتهيأ للحرب ؟

ـ : اعد لها العدة فقد تستعر نارها في يوم لا نجد فيه واحداً من قومنـــا يلبس درعاً .

وكانا قد وصلا والشامي وراءهما ، فقال الجلّاح يخاطب صفوان : لقد رأيناك اخيراً يا ابن الحارث .

فاجابه قائلاً : لا نقدم المدينة حتى نبادر الى المثول بين يديك .

قال : وأرى معك فتى من قومك .

ـ : وكيف عرفت ذلك ؟

قال : اعرف فتيان كنانة من صباحة الوجوه ، فمن هو ؟

ـ : قصي بن كلاب .

فدهش قائلاً : لا اعرف لكلاب بن مرة ولداً غير زهرة ..

قال : نشأ قصي في الشام في حضنَ امه . فلما اطلعته على نسبه ترك قضاعة وقدم مكة في الشهر الحرام لاحقاً بقومه .

قال : مرحباً بالنبيلين من كنانة،ومن هذا ؟ واشار الى الرجل الآخر الطويل القامة الذي يتبعهما .

قال : هذا احد اضياف يثرب وقد دعوناه الآن لنسأله عما حدث في الشام .

فلما رأى الشامي ان الفتيين ليسا من ابنـــاء الملوك وانهما من اشراف مكة لمعت عيناه ببارق غريب وجعل يتفرس فيهما وقلبه يخفق في صدره .

فقال الجلاح : اجلسوا اقل لكم ماذا حدث في الشام .. لقد طاف بهـا الوباء ايها الشامي أليس كذلك ؟

— : اجل وطاف وراءه الموت ..

فقال قصي : واي وباء هذا ؟

قال : النعمان بن امرىء القيس ملك العراق ..

فقال ضاحكاً : متى كانت الملوك وباء ؟

فاجابه الجلاح قائلا : عندمـا يمشون عـــلى رأس جيشهم ويكونون رسل الفناء والدمار ..

وجلسوا وقصي يسأل الرجل ان يقص عليه اخبار الحرب .

فقال : وماذا أقص عليك من هذه الاخبار . عاصفة طائشة ، هوجـــاء ، مجنونة ، تهدم القصور والابراج وتدك الحصون والاسوار ، ويصرع تيارها كل من يتصدى له من الناس . تلك هي حرب ملك العراق في الشام ، ذبح وهدم . وسبي وغنم . واكثر المصائب في اهل ذلك القطر ، حتى فر القادرون على الفرار لاجئين الى بلاد الله . هذا الى فلسطين وهذا الى شواطىء البحر . والآخر الى الحجاز ريثما يصفو وجه السماء وتهدأ العاصفة .

ثم قال : ملك عربي يحارب ملكاً عربياً آخر . لخم وغسان يتنازعان النفوذ والسلطان . هؤلاء يدفعهم قيصر الروم . والآخرون يمدهم بفيلته وجنوده ملك

الفرس . وليقتل العربي اخاه ليسلم العرشان اللذان يسودان نصف العالم . انها والله حرب لا تشرّف اصحابها ، ولا يعظم لهم بعدها شأن .

وقصي كما رأيت رجل طماح الى المجد تدفعه ارادته الحديدية وكبرياؤه الى العرش بخطى جبارة واسعة . رجل حرب يؤثر الموت على الذل ، فلا يطيق ان يسمع فلسفة ذلك الرجل الجبان ، الفار من الميدان . فقال له :

أتريد ان تصبر الملوك على ضيم ؟ وتسكت على غل ؟ فتزول هيبتهم وتضمحل قوتهم ، ثم تهوي العروش من تحتهم الى درك الذل ؟ وكيف يستطيع هؤلاء ان يحفظوا تيجانهم دون ان يغزوا بلداً او يجردوا سيفاً ؟ ان النعمان في حربه ، جبار عربي ، يحب ان يمد رواق ملكه فوق ربوع الشام اذا استطاع ، وفي هذا وحده . أجل في هذا وحده ، دليل على انه خير من تقدمه من الملوك على عرش العراق .

فسكت الرجل . اما الجلّاح فقال :

ان الحرب لا بد منها وان تكن رسول الموت . يجيئنا العربي من تهامة او من نجد او من العراق حاملاً سيفه ولابساً عدة حربه ، فيسوق نوقنا واموالنا ويسبي نساءنا واطفالنا . ونحن ساكتون ! انها والله شريعة لا تعرفها العرب . اسمع يا ابن كلاب . كنت منذ عشرة اعوام في ضيعة لي في سفح أُحُد . فبينا انا اطارد ظبياً على فرسي ذات الجناحين عرض لي فارس هو محارب بن الليث الكندي وكان قد قتل منا ثلاثة رجال وسلبهم ما يحملون وكان سيفه بيده وهو يومىء اليّ به ، فوقفت فرسي وقلت : ماذا تطلب ؟ فقال : واحداً من شيئين : اما رأسك واما هذه الفرس . وانا اعلم ان محارباً من فرسان العرب . فترجلت وترجل ثم أهويت له بالسيف فوثب الى ما وراء فرسه فاصابت الضربة عنق الفرس فتدلى حتى اصبح كالمخلاة . وفرّ محارب . أفكان عليّ ان اتخلى لهذا الكندي عن فرسي فتتحدث بي العرب ؟ ورب الكعبة لو عرض لي النعمان كما عرض لي محارب لضربته بالسيف ولم أبالِ .

قال : لقد احببت النعمان وانا لا أعرفه وأحببت وباءه .

قال : يظهر انك من رجال السيف يا بني ؟!

– : احترم الحرب في سبيل الشرف وان لم اكن من هؤلاء الرجـال . من يعرف هذا الملك الذي نتحدث عنه ؟

– : عرفته يوم استخلفه يزدجرد الفارسي بعد أبيه كما اعرف اباه امرءالقيس المحرق الاول ، وكما اعرف امه شقيقة ابنة ابي ربيعة بن شيبـان . . هو اعور يا قصي ولكن عينه الاخرى عين نمر ترى ما لا تراه العيون .. رأيته في ساحـة الحيرة يبسم للناس الهاتفين له ابتسامة الهازىء بجميع مظاهر الحيـاة ، ورأيت حراسه ابناء فارس ، لا يجسرون على النظر الى وجهه . كأنه النمر نفسه يبعث الهيبة الى النفوس . انه ورب الكعبة اعظم من رأيت من الملوك .

– : ولماذا قيل لأبيه محرق الاول ؟

– : لأنه اول من عاقب بالنار من ملوك الحيرة ، وقد ذكر لي بعض المقربين اليه ، ان في قصره دروعاً أراد بعض ولده ان يبيعها فلما بلغ الخبر النعمان قال لقهرمانه : خير لنا ان نبيع اولادنا من ان نبيع دروعنا .

وعندئذٍ قال صفوان : ألا تريد يا قصي ان ترى دروع الجلاح ؟

فاجابه هادئاً : ونشتري بعضها لفتيان الحي .

فقال الجلاح : وعندي منها مـا نسج من الزرد الابيض . اتعرفون عدوان اليمني مولى جبير بن عبادة ، احد فتيان مكة ؟

فقال قصي : لا اذكر اني اعرف فتىً يدعى جبيراً .

اما صفوان فقال : لقد عرفت جبيراً هذا بعد واقعة اشتهر فيهـا ، اين هو اليوم ؟

– : أتسألني عن ذلك وهو جار الكعبة ؟

– : سمعت انه ترك مكة الى نجد .

– : قد يكون ذلك فانا لم أسأل مولاه عنه .

فمرت سحابة سوداء امام عيني صفوان . قد يكون ابن عبادة في يثرب وهو فيها فلماذا لا يبحث عنه . ولكنه اذا سأل الناس لفت اليه نظرهم وفضح نفسه.

وقد يبلغ الخبر جبيراً وهو في مخبئه فيتخفى في بطن الارض .

ولو نظر صفوان في تلك الساعة الى الرجـــل الشامي الواقف وراءه لرأى الدم ، دم الحقد في عينيه المختلجتين .

وعاد الجلاح الى القول وهو لا يبالي .

أجل . بعث عذوان اليمني درعاً جديدة نسجت من الزرد الابيض يحملهـا الى سيده . بعثه اياها بفصيلين « الفصيل ولد الناقة اذا فصل عن امه » .

ومشى امامهم ليعرض الادرع .

فأزاح الشامي العباءة عن صـــدره ، ولمس الدرع التي يلبسها ثم مشى معهم كأنه لم يسمع شيئاً .

وفي منزل الجلاح ، في ذلك الحصن عـــدّ قصي الدروع التي اختارها له صفوان على ان يعودوا فيأخذوها يوم يتركون يثرب . وخرجوا وصفوان يقول في نفسه :

لو قيل لي ان ابن عبادة يقيم ببئر من آبار هذا البلد لحفرتها جميعها حتى اقبض عليه ، وكان يفكر في تلك الدروع التي اشتراها قصي بالمال الذي ربحه .

اما قصي فلم يكن يفكر في تلك الساعة الا في ذلك الملك العربي الفاتـــح الذي يغزو الاقطار ، ونفسه تحدثه بانه سيجرد سيفه لاخضاع اعدائه يوم يصبح صاحب تاج ، كما يفعل النعمان بن امرىء القيس ملك العراق .

* * *

مطـامع قصي

قال المؤرخون ، بينهم ياقوت الحموي ـ ان قصياً كان في ايام المنذر بن النعمان ملك الحيرة وبهرام جور ملك الفرس .

وقال ابن الأثير : بهرام جور كان في ايام النعمان بن امرىء القيس والد المنذر .

اما ابو جعفر الطبري ففي كتابه ما يثبت ان الملك الفارسي المشار اليـه عاصر الملكين العربيين ، الوالد وولده المذكورين .

وهو القول الاصح الذي تقوم عليه الشواهد ؛ فان يزدجرد استخلف النعمان ثم مات يزدجرد وملك بهرام جور، ثم مات النعمان وملك المنذر ابنه وبهرام حي.

ولكي تعلم من هو بهرام جور ومن هو النعمان بن امرىء القيس وهما الملكان اللذان كان قصي في ايامها . نورد لك بعض ما ذكروه عن الاثنين اذ لا يجوز ان تقرأ اسميهما في فصول الرواية دون ان تعرف شيئاً عنهما .

ولا ننسى انك قرأت في رواية النعمان الثالث التي صدرت قبل رواية زينب كلمة مختصرة عن النعمان الاول ابن امرىء القيس ، ولكنك لم تقرأ تلك الكلمة عن بهرام الفارسي ، وليس عليك من بأس على كل حال ، اذا ذكر لك اليوم ما ذكر لك امس ، عن ملك له صلة بالموضوع الذي تهتم به .

النعمان الاول هو صـاحب الخورنق ، والخورنق احد قصور العرب وقد ذكره الشعراء وكتب الادب ، كما يذكرون اليوم قصور اللوفر وفرسايل والفاتيكان ، والبيت الابيض .

وكان النعمان اعور كما مر ، وهو من اشد ملوك العرب نكايةً باعدائـه ، كما

يقول الطبري ، وابعـدهم مغاراً واعظمهم شأناً ، وقد غزا الشام اكثر من مرة وامطر اهلها مصائب وذلاً .

اما الخورنق فيذكرون لبنائه سبباً قد لا يكون صحيحاً قالوا :

« ان يزدجرد الاثيم ابن بهرام كرمان شاه بن سابور ذي الاكتاف ، كان لا يبقى له ولد ، فسأل عن منزل بريء صحيح من الادواء والاسقام ، فدلوه على ظهر الحيرة عاصمة ملوك العراق، فدفع ابنه بهرام جور الى النعمان الاعور وامره ببناء الخورنق مسكناً له . وانزله اياه وامره باخراجه الى بوادي العرب .

« وكان الذي بنى الخورنق رجلاً يقال له سنّمار ، فلما فرغ من بنائه تعجبوا من حسنه واتقان عمله فقال :

« لو علمت انكم توفوني اجري ، وتصنعون بي ما انا اهله بنيته بناء يدور مع الشمس حيث ما دارت ، فقال النعمان : وانك لتقدر على ان تبني مـــا هو افضل منه ثم لم تبنه ؟ فأمر به فطرح من رأس الخورنق »

وفي هذا الحادث يقول ابو الطحان القيني :

جزاء سنّمار جزاها وربها وباللات والعزّى جزاء المكفر

وقال سليط بن سعد :

جزى بنوه أبا الغيلان عن كبرٍ وحسن فعلٍ كما يجزى سنّمار

وقال غيرهما اشعاراً كثيرة فيه :

واما بناء الخورنق ، فلم يكن سببه يزدجرد او بهرام جور كما رأيت ، وانما دعاه الى بنائه التبسط في العيش، والتشبه بملوك اليمن وملوك الفرس ، والذهب الكثير الذي ملأ به بيت ماله ، وقد رأى وهو الملك الجبـــار ، الذي تدين له العرب ، ان يتخذ له قصراً يشرف منه على الحيرة ، ويطل على النجف وما يليه من البساتين والنخل، والجنان والانهار من ناحية المغرب ، وعلى الفرات وما على ضفتيه من ناحية الشرق كما فعل الملوك قبله في بناء قصورهم واظهار عزة الملك .

واجتمع للنعمان الاول من العبيد والخول والاموال ما لم يملـك مثله احد من ملوك الحيرة لا قبله ولا بعده ..

وكان النعمان هذا صهراً لزهير بن قيس بن جذيمة العبسي « الذي تعرفه من قصة عنتر » .

فأرسل الى زهير يستزيره بعض اولاده ، فأرسل ابنه شاساً ، فأكرمه النعمان واعطاه مالاً وطيباً ، فلما رجع شاس يريد قومه، قتله في الطريق رباح بن الاشل الغنوي ، واخذ ما كان معه وهو لا يعرفه ..

وزهير يومئذ سيد قبائل قيس عيلان ، فبلغه ان ابنه اقبل من الحيرة وكان آخر العهد به بماء من مياه غني ، فبذل زهير جهده في البحث، حتى عرف القاتل فجعل يغير على بني غني ويقتل منهم وكانوا حلفاء بني عامر بن صعصعة وهم بطن من هوازن ، فنشبت الحرب بين عبس وهوازن .

وفي اثناء ذلك خرج زهير في اهل بيته بالشهر الحرام الى عكاظ كعادته في كل عام ، وكان هنالك خالد بن جعفر سيد هوازن فقال له خالد « لقد طال شرنا منك يا زهير .

فقال : اما والله ، ما دامت لي قوة ادرك بها ثأراً فلا انصرام له ».

وكانت هوازن تعطي زهيراً كل سنة في عكاظ خراج ارضها ، لانها فرع من قيس عيلان ، وزهير يسومها الذل وفي انفسها منه غيظ وحقد ، ثم عاد زهير وخالد الى قوميها ، وسبق خالد زهيراً فجمع قومه وندبهم الى القتال فاجابوه ، وتأهبوا للحرب ، وخرجوا يريدون زهيراً .

اما زهير فنزل باطراف بلاد هوازن ، فقال له ابنه قيس « صاحب حرب داحس والغبراء » :

انج بنا من هذه الارض فانت قريب من عدوك »

فقال له يا عاجز ، ما الذي تخوفني به من هوازن وتتقي شرهـا ، فانا اعلم الناس بها ، فقال ابنه ، دع عنك اللجاج واطعني وسر بنا فاني خائف عاديته ، فلم يطعه .. وكان خالد يتجسس اخبارهم، فلما علم بمكان زهير ركب اليه واقتتلا فقتل زهير ، وخالد يعلم انه سيد غطفان وعبس وذبيان ، فخاف ان تطلبه ، فسار الى النعمان بالحيرة فاستجاره فأجاره وضرب له قبة ..

اما ابناء زهير فجمعوا لهوازن ، فقـــال الحارث بن ظالم المريّ : اكفوني حرب هوازن فاكفيكم خالد بن جعفر .

وسار الحارث الى النعمان فدخل عليه وعنده خالد وهما يأكلان تمراً ، فأقبل النعمان على الحارث يسأله عن قومه ، فحسده خالد فقال للملك :

أبيت اللعن هذا رجل لي عنده يد عظيمة ، قتلت زهيراً وهو سيد غطفان فصار هو سيدها .

فقال الحارث: سأجزيك على يدك عندي ، وجعل يتناول التمر ليأكله فيقع من بين اصابعه من الغضب ..

وكان عروة اخو خالد حاضراً ، فقال لأخيه :

ما اردت بكلامه وقد عرفته فتاكاً ؟

فقال : وما تخوفني منه ، فوالله لو رآني نائماً مـــا ايقظني ، ثم خرج خالد واخوه الى القبة فاغلقا بابها ونامخالد وعروة عند رأسه تحرسه، فلما اظلم الليل ، انطلق الحارث الا خالد ، فقطع شرج القبة ودخلها وقال لعروة :

لئن تكلمت قتلتك .. ثم ايقظ خالداً فلما استيقظ قال : اتعرفني يا خالد ؟

قال : انت الحارث ؟

قال : خذ جزاء يدك عندي ، وضربه بسيفه المعلوب فقتله ثم خرج وركب راحلته وسار .

وخرج عروة من القبة يستغيث حتى اتى باب النعمان فدخـــل عليه واخبره فبث الرجال في طلب الحارث ..

قال الحارث يحدث بعضهم : فلمـــا سرت قليلاً خفت ان اكون لم اقتله فعدت متنكراً واختلطت بالناس ودخلت عليه فضربته بالسيف حتى تيقنت انه مقتول وعدت فلحقت بقومي .

فأصبح الحارث بن ظالم بين طالبين : النعمان يطلبه ليقتله بجاره ؛ وهوازن تطلبه لتقتله بسيدها ، فاستجار بتميم فأجاروه ، فلما علم النعمان بذلـــك جهز جيشاً حمل به على تميم ، واعانهم اهل خالد ببني عامر . واتى قيس بن زهير في

بني عبس وذبيان ، فانهزمت عامر وجيش النعمان ، بعد معركة كبيرة في وادي رحرحان لم يشتفِ بها قيس .

ذلك هو شرف العرب ووفاؤهم ، ونبالة اخلاقهم . يجيء خالد بن جعفر قاتل زهير ، نسيب الملك ، فيحميه هذا الملك ويجيره ، ثم هو ما لبث حتى جرّد الجيش يطلب الحارث بن ظالم الذي قتله لا يعبأ بصلة الرحم في سبيل وفائه ..

ومرت الايام والملك في قمة مجده وزهو ملكه .. فبينا هو على متن النجف في يوم من ايام الربيع وقد اعجبه ما رأى من الخضرة والانوار والنور ، قال لوزيره وصاحبه : هل رأيت مثل هذا المنظر قط .

قال : لا لو كان يدوم .

قال : فما الذي يدوم ؟

– ما عند الله في الآخرة .

قال : فبما ينال ذاك ؟

– بترك الدنيا وعبادة الله والتماس ما عنده .

فترك ملكه من ليلته ، ولبس المسوح ، وخرج مستخفياً هارباً لا يعلم به واصبح الناس لا يعلمون بحاله .. وقد وقفوا ببابه في اليوم الثاني ولم يؤذن لهم عليه كما كان يفعل فلما ابطأ الاذن سألوا عنه فلم يجدوه .

وعرف بعد ذلك بالنعمان السائح .

بهرام جور

وعاد الطبري فقال عن بهرام‌جور نقلاً عن علماء الفرس ان اباه يزدجرد دعا بالمنذر بن النعمان واستحضنه بهرام ، وشرفه وملكه على العرب ، وحباه بالمراتب ، وأمر له بصلة وكسوة ، وأمره أن يسير ببهرام الى بلاد العرب .

فسار به المنذر الى الحيرة ، واختار لرضاعه ثلاث نسوة ذوات اجسام صحيحة ، وأذهان ذكية من بنات الاشراف ، منهن اثنتان من نساء العرب ، والاخرى من بنات العجم ، وأمر لهن بما اصلحهن من الكسوة والمطعم والمشرب

وسائر ما احتجن اليه .

فتداولت النساء رضاعه ثلاث سنين ، وفطم في الرابعه ، حتى اذا اتت له خمس سنين ، احضر له المنذر المؤدبين ذوي العلم ، المدربين بالتعليم ، ليعلموه الكتابة والفقه ، والرماة ليعلموه الرمي . ثم جمع له الحكماء من الفرس والروم ، فألزمهم اياه ، ووقت لاصحاب كل مذهب وقتاً يأتونه فيه ، وقدر لهم قدراً يفيدونه ما عندهم ، فتفرغ بهرام للاستماع من اهل الحكمة ، ووعى كل ما استمع حتى فاق معلميه ، ومن حضر من اهل الأدب وهو في الثانية عشرة .

ويقولون ان بهرام جور ، ركب ذات يوم فرساً اشقر وهبه له المنذر ، الى الصيد ، فبصر بأسد قد شدّ على عير ، فتناول ظهره بفيه ليفترسه ، فرماه بهرام رمية في ظهره فنفذت النشابة من بطنه وظهر العير وسرّته ، حتى افضت الى الارض ، فساخت فيها الى قريب من ثلثها ، وكان ذلك بمشهد ناس من العرب وحرس بهرام .. !

ثم ان بهرام اعلم المنذر انه يشخص الى أبيه وكان ابوه يزدجرد لسوء خلقه ، لا يحفل بولدٍ له ، فاتخذ بهرام للخدمة ، فلقي من ذلك عناء .. ثم انصرف الى بلاد العرب ، واقبل على التنعم ، فهلك يزدجرد وبهرام غائب . فتعاقد الناس من العظماء واهل بيوتات الفرس ، ان لا يملكوا احداً من ذرية يزدجرد لسوء سيرته ، وقالوا ان يزدجرد لم يخلف ولداً يحتمل الملك غير بهرام ، ولم يلِ بهرام ولاية قط يتلى بها خبره ويعرف بها حاله .

وقالوا ايضاً : لم يتأدب بأدب العجم وانما ادبه ادب العرب وخلقه كخلقهم .. واجتمعت كلمتهم وكلمة العامة على صرف الملك عن بهرام الى رجل من ذرية اردشير بن بابك يقال له كسرى ، وملكوه .

وانتهى الخبر الى بهرام وهو ببادية العرب ، فدعا بالمنذر وابنه وغيرهما من اشراف القوم وقال لهم :

اني لا احسبكم تجحدون نعمة ابي واحسانه ، وقد أتى الناعي ينعى يزدجرد ، ويخبر ان الفرس ملكوا رجلاً من ولد اردشير .

فدعاه المنذر الى الصبر ، ثم جهز جيشاً من العرب وسار مع بهرام على رأسه ، حتى اتى القوم ، فدعا عظماءهم ، وسألهم ان يرضوا ببهرام ، فأجابوه وتربع بهرام في العرش .

غير انه لم يلبث حتى عاد الى لهوه ، فطمع به الملوك وحاربوه ، فترك لهوه ولجأ الى السيف فغلبهم ، وقتل بعضهم وكل ذلك بفضل المنذر الملك العربي .

* * *

نام قصي وهو يفكر في النعمان الفاتح كما مرّ ، اما صفوان فلم ينم ، وقد اعجبه هدوء ذلك الفتى القادم من الشام ، وآنس في صحبته اياه ، ذلك اليوم ، خلقاً كريماً ، ورصانة يحترمها الناظر ، معما يتبعها من مظاهر النبالة والادب ، وقد رأى ان الرجل لا يطيق ان يفارقه وان في صدره سراً تبوح عيناه بالرغبة في افشائه ، فقال له وهما جالسان في فناء البيت الذي ينزلان فيه :

لقد حان لي ان اسألك سؤالاً .

قال : سل ما تشاء يا صفوان ..

قال حفظت اسمي وانا لا اعرف اسمك .

– اما اسمي فيزيد .

– ذلك لا يكفي فمن هو ابوك ومن انت ؟

قال : لنترك اسم ابي فلا سبيل الى ذكره . واما قومي فموطنهم البحرين وانت لا تعرفها على ما اظن ؟

– ومتى قدمت من تلك الديار ؟

– منذ زمن لا اذكر اوله .

فقام في ذهن صفوان ان هذه الالغاز انما هي لغاية له ، فازداد ميلاً الى الاطلاع على ذلك السر ، فقال : اراك نسيت نفسك يا يزيد ؟

– اجل ، وسأنسى كل ما حولي بعد حين .

– لو لم يكن هنالك ما يدعوك الى ترك البحرين ، البلد النائي البعيد ،

والقدوم الى الشام لما فعلت .

قـــال : اتستغرب قدوم العربي من اقصى الشرق الى اقصاه ، وانت احد الحجازيين ، الذين لا تراهم في هذا القطر حتى تراهم في القطر الآخر ؟

– ان العربي لا يهجر بلده الا اذا اكره على الهجر .

– اصبت وانا عربي اكرهتني الأقــدار على ترك بلدي ولا ادري الى اي بلدٍ غيره تقذف بي .

فخيل اليه ان الرجل يفتش عن اسباب العيش فقال له : وهل تركت اهلك في الشام ؟

فابتسم قائلاً : أيفر الرجل من بلد ويترك اهله فيه ؟ كان لي من الأهل أب وأخ تخطفتهما يد الموت .

– في الشام ؟

– اما أخي فنعم . واما ابي ففي ديار قومه .

واسود جبينه وارتجفت شفتاه .

قال : لقد كتب للاثنين ان يموتا بطعن الخناجر ، قتل اخي فارسي في جيش النعمان ، طعناً من الوراء ، ولم يكونا في ساحة الحرب ، وقتل ابي رجل لا اعلم من اي بلد هو .

– اذن فقد ضيعت املك بالثأر .

قال : لا يضيع شيء وانا حي ..

– وكيف ذلك وانت لا تعرف اسم القاتل ؟

– اعود الى البحرين فــابحث عن ذلك الاسم ثم اطوف في بلاد العرب حتى اعثر عليه واجثو على قدميه طالباً منه ان يعطيني دماً بدم ..

– ولماذا لم تفعل قبل قدومك !

– لأن القاتل ضرب ضربته وانا في ربوع الشام .

– ودفن ابوك وانت لم تره ؟

– اجل فقد نقلوا الي خبر القتل بعد سنة .

قال : اترك الثأر يا يزيد فلا سبيل اليه .

– أتنصح لي وانت الحجازي الشريف بأن اكون من انذال العرب انك ابن كنانة كما يقول الجلاح وبنو كنانة اشراف من في الحجاز .. ثم قال : متى تعود الى مكة يا صفوان ؟

– يوم يعود قصي فالأمر له وحده ..

– ومن يكون هذا ؟

– هو ابن كلاب احد ساداتنا وسيخلف اباه في السيادة كما أرى وقد اقسمت اني اطيعه .

قال : رأيت نور السيادة يلمع في عينيه ..

– وانا اقترح عليك ان تنصرف معي الى مكة فتمكث فيها ونكون نحن الاثنين عوناً له في جميع اموره فتردد في الجواب ..

فقال صفوان : ما بالك يا يزيد ؟

فرفع رأسه وهو يتمتم قائلاً : الثأر قبل كل شيء .

قال : ستقضي العمر كله دون ان تعرف القاتل لأنك تجهل اسمه كما قلت ، اني مثلك يا يزيد، افتش عن رجل في الحجاز وانا اعرفه ، واعرف أصله وفصله، ومع ذلك فلم اجد له اثراً .

– ومن قتل من قومك ؟

– هو اضعف من ان يمد يده الى واحد من قومه ولكنه غدار وانا أخشى شره.

– اي انك تخافه وتريد ان تقضي عليه قبل ان يغدر بك .

– بل قبل ان يغدر بغيري فانه عدو احدهم .

– عدو قصي ؟

– لا فقصي لا يعرفه بل يكاد لا يعرف في مكة غير عشيرته وسادن الكعبة حليل بن حبشية ، ولكنه عدو احد الامراء ..

– ومن هو هذا الامير ؟

فضحك قائلاً : ذلك سري فلا ابوح به .

قال : لكل منا سره يا صفوان .

– أجل وكلانا يكتم الآخر هذا السر ، قل يا يزيد أتذهب معي الى مكة ؟

قال : أتظن اني أترك الحجاز قبل ان أزور البيت ؟ نعم اذهب وسأمكث بها بضعة ايام او بضعة اشهر .

– وقد تطيب لك الاقامة فتمكث بها اعوام نكون فيها أخوين ..

فتنهد الفتى كأن سره يكاد يخنقه .

فقال صفوان : اذا كانت لك في الحجاز حاجة فاذكرها. انك ورب الكعبة لم تقدم الحجاز الا لأجل هذه الحاجة .

– وما يدلك على هذا ؟

قال : لا أذكر مكة حتى يكفهر جبينك وتبرق عيناك ..

قال : اما الجبين فيكفهر عندما أرى ان هذا الطواف في البلاد سينسيني ثأري ، واما بريق عيني فلأني سأزور البيت .

– وليس هنالك شيء آخر ؟

فاطرق قليلاً ثم رفع رأسه قائلاً :

وهل تريد ان ابوح لك بجميع اسراري وانت تكتمني كل ما في صدرك ؟ اجل ، قد يكون هنالك شيء آخر ولكن لا اذكره لك .

– وذلك الشيء في مكة ؟

– نعم ولا ..

قال : انك تهزأ بي على ما أرى .

– بل هذا هو الواقع .

قال : انك شديد المراس يا يزيد لا تلين ألا تريد ان نتفق ..

– على ماذا ؟

– على ان اكون مثل اخيك الذي قتلته الحرب .

فتلألأ الدمع في عينيه ولم يجب ، ثم استطرد صفوان قائلاً : وعلى ان تبوح لي بكل ما عندك فأبوح لك بما عندي ..

فمسح دموعه وهو يقول : وتعاهدني على الوفاء ؟

قال : لقد قلت كلمتي الآن وستعرف بعد حين من هو صفوان بن الحارث الذي يمد اليك يده .

فقال ولم يتردد : اذن فاعلم اني لم اترك الشام هارباً من جيش العراق كما قلت ..

قال : احسنت فقد خيل الي من قبل انك الفتى الجبان الذي يفرّ عندما يرى السيف ، ولماذا قدمت يثرب ؟

– لأني خفت أن اموت في الشام كما قتل اخي فينزل ثأري معي الى القبر.

– اذن كنت صادقاً فيما رويته لي عن قتل ابيك في البحرين .

قال : ضرب ابي بخنجر القاتل ولكنه لم يمت في ذلك الحين بل دفعته الاقدار الى بلد آخر مات فيه .

فوضع صفوان يده على جبينه وهو يفكر في حكاية سمعها من قبل.. ثم قال: اي ان أباك طاف في البلاد بعد شفائه يبحث عن قاتله .

– هو ذاك .

– ولم يغدر به القاتل الا ليسلبه ماله .

– اجل .

– وكان ذلك القاتل حجازياً .

فتمتم يقول : نعم كان حجازياً .

قال : ومن مكة .

فدهش يزيد ولم يستطع اخفاء دهشته .

وصفوان يقول: نعم من مكة وقد جاءها ابوك ليضربه مثل ضربته ولكنه!

فصاح قائلاً : كفى فانت من الانبياء .

– بل انا مثل جميع الناس .. اسمع يا يزيد .. كان ابوك قد اوصى قومه في البحرين بان يطلبوا بدمه اذا دهمه الموت .

فجعل يحدق اليه ويقول : لم أر أغرب من هذا ورب الكعبة ، انك تصف

الحادث كأنه الآن امـام عينيك ولو لم اسمع الجلاح يدعوك صفوان لقام في ذهني انك القاتل نفسه .

– مع ان الجلاح ذكر لك اسمـه وهو لا يدري ، كما اذكره لك الآن وانا ادري ، انه عبادة ابو جبير ، وابوك ربيعة بن سلول .

فجثا يزيد عـلى ركبتيه امام صفوان وهو يبكي كما يبكي الطفل اخذوه من حضن امه . فقال له : ما الذي يبكيك ؟.

قال : حزني على ذلك الوالد الذي دفن بمكة ولم أره وفرحي بالعثور عـلى الغادر اللص الذي كادت الحرب تقذف بي الى القبر قبل ان أعرفه . ثم قال : انه في مكة يا صفوان أليس كذلك ؟

– نعم ولكنه رفات بال تحت التراب .

فقال وصوته يضطرب : أمات عبادة ؟

– اجل ولكن الثأر لا يموت وابنه جبير حي .

فخفض صوته قائلا : وتربة ربيعة لا تقع عيني على جبير بن عبـادة حتى اضرب عنقه بهذا السيف ولو كان في الكعبة .

قال : واين سيفك ؟

فرفع عباءته فبان السيف والخنجر والدرع .

فقال : اما الآن فقد ثبت لي انك من ابطال العرب .. ولكن أتغدر به كما غدر عبادة بأبيك ؟

- لا ورب الكعبة لا اضربه الا والسيف في يده . قم نذهب الى مكة في هذا الليل ..

قال : لقد نسيت اشياء كثيرة يا ابن ربيعة .

قال : ماذا ؟

فقال : ألم اذكر لك ان امر العودة بيد قصي .

– بلى ولكن اخشى ان يخونني الصبر .

قال كأنك واثق بان جبيراً ينتظرك في سوق مكة حاملا سيفه بيده ؟ ان اللعين ليس له أثر في عاصمة الحجاز .

فامتقع لونه قائلا : واين هو اذن ؟

– لو كنت اعرف مقره لسبقتك اليه ..

– وأي شأن لك معه ؟

– اطلبه كما تطلبه انت وهو الرجل الذي ذكرته لك ..

قال : لقد اتفقنا في كل شيء يا صفوان حتى في الثأر فمن هو الامير الذي تخشاه عليه ؟

قال : لقد جاء دوري الآن فاسمع ، واخذ يقص عليه حكاية ليلى وزياد الى ان قال : وبعد ان أمره الامير بمغادرة مكة فتحت الارض فاها وابتلعته حتى كدنا ننساه لو لم يظهر فجأة مولاه اليمني امام البيت كما ذكرت ..

– والآن ؟

– اما الآن فجبير بن عبادة بين طالبين كما ترى وسيظفرنا الله به ، ألم يخبرنا الجلاح ان مولاه اشترى له درعاً ؟ .

– أجل ، ولكن ما معنى هذا ؟

– معناه ان الفتى لم يغادر الحجاز كما ظننت واننا ان لم نجده في يثرب ، نجده في الطائف او بين احياء العرب التي تجاوز المدن في هذه الديار .

قال : أفلا تبحث عنه في هذه المدينة ؟

– بلى وسنبدأ البحث عند الصباح ، فقل لي الآن يا يزيد ، ماذا تحمل من المال ؟

قال : اما مال ابي فيحمله جبير في الجراب الذي سرقه أبوه ، وأما المال الذي جمعته مع أخي في الشام فلم يبق منه غير القليل الذي لا يكفيني .. وماذا تريد بهذا السؤال ؟

– أريد أن أقول لك من الآن ان مالي كله بين يديك .

قال : كافأك الله يا أخي فأنت أكرم من رأيت .

قال : ويكون العهد بيننا الى الابد فلا تسأل أحداً في مكة قضاء حاجة الك الا صفوان ..

فكفكف الدمع المتساقط على خديه وهو يقول : لقد اصبح أغنى هل البحرين فقيراً ينزل العمر كله ضيفاً ثقيلا على الاشراف.اني لا أرضى بهذا العار .

– بل ترضى بكل شيء حتى تبلغ الغاية وتبر في يمينك .

– وبعد ذلك .

– تصبح بعد ذلك حراً ان شئت تركت مكة وان شئت بقيت . وغداً عندما يستفيق قصي تعرض عليه سيفك كما فعلت انا حتى اذا رجعنا الى مكة كنا كالاخوة لا يفرق بينهم الا الموت .

فحنى يزيد رأسه وقد رضي بهذا واستسلم الى الاقدار ..

واسترسل الاثنان الى التفكير .

ثم جعل صفوان يقول: أرى ان وجه الحجاز سيتغير بعد حين يا يزيد وهذا الفتى النائم في هذا المنزل هو الذي يغيره .

– وكيف ذلك ؟

– لا أعلم الآن ولكني أرى ان العاصفة ستثور لان السحب السود تغطي الفضاء ...

قال : أرى انك تحب قصياً كما تحب الآلهة !

– وستحبه انت بعد قليل كما تحب نفسك . ولكن احذر ان تذكر له شيئاً مما قلته لك الآن .

قال : أيكون لك هذا الاخلاص وتكتمه سرك ؟

– انه لا يعرف امراء مكة وفتيانها ولا أريد ان اطلعه على ما لا يعنيه الآن

– ولكنه سيعرف كل شيء .

– أجل ولكني سأكتمه سري ريثما يخطو الخطوة الأولى في سبيل غايته .

– أي انك لا تبوح له الآن بما في صدرك من عاطفة الحب .

– ولا اذكر له ليلى قبل ان يحدثني بأمر زواجه . واما انت فسأقص عليه

كل ما عرفته عنك وما كان من أمر عبادة مع أبيك فلعل له في ذلك رأياً .

قال : والآن فما هي غايته التي عرفت ؟

– لا تسألني عن هذه الغاية فهي لغز لم احلّ الطلاسم التي تكتنفه ، ان شيئاً واحداً استطيع ان اقوله لك ، هو ان له نفساً طماحة وارادة جبارة لا تنتهيان عند حدّ ، ومن يدري يا يزيد ، اجل من يدري ، فقد ترفعه نفسه الى ذروة المجد ، او تقذف به الى حضيض الهوان .

قال : ومن اجل ذلك رأيته ينتصر للنعمان بن امرىء القيس . انه اذن رجل حرب .

– هذا ما ظهر لي بعد ان عرفته ، وقد لا يطيق ان يبقى أمر مكة كما هو ، أتضع يدك بيده وتمشي مثلي وراء طموحه واطماعه !!

قال : افعل ولك ان تأمر لأطيع .

قال : فاذا رفعته الاقدار ارتفعنا معه وكان لنا شأن في الحجاز ، واذا خانه الحظ وحطّه القدر فلسنا خيراً منه .

وهكذا اتفق الاثنان في كل شيء ، في اباء النفس ، والعاطفة والاخلاق ، ويكفي ان يكون هنالك ذلك البغض ليجمع القلبين ، ويوحد الرأيين .

* * *

استفاق قصي وهو يبسم للاحلام والمنى . كأنه قضى ذلك الليل على العرش الذي يفكر فيه ، وأهل الحجاز يلتفون حوله . وكان صفوان يتهيأ مع يزيد للطواف في يثرب ، وقد بدأ يزيد يحسّ بالاحترام ، والاعجاب يملآن نفسه ، وكأن قصياً اصبح في نظره صاحب تاج .

فلما نهض قصي ، دخل عليه صفوان وهو يقول : كنا في يثرب اخوين فأمسينا ثلاثة . فنظر اليه قائلاً : اما الثالث فهذا ؟ وأشار الى يزيد .

– نعم وهو يزيد بن ربيعة من البحرين .

قال : وكان امس من الشام !

– كما انه كان فاراً من جيش النعمان .

– واليوم ؟

– اما اليوم فلم يكن شامياً كما رأيت وليس يزيد من الناس الذين يفرون من الحرب .

– اذن لم يكن صادقاً فيما رواه يا صفوان ؟

– لا ، ولم يخطر بالبال ان له حكاية تدعوه الى الكتمان .

– وهل تقصّ علينا حكايته ؟

– اجل ، ولكن بعد ان تهز يده التي يمدّها اليك .

فصافحه قصي وهو يبتسم ، كما صافح صفوان من قبل . وتعاهدا على الولاء والوفاء .

فقال صفوان : كان ربيعة بن سلول من اغنى تجار البحرين وله صهر من ابناء الحجاز يرافقه في رحلاته ويعطيه ربيعة من ماله . وكان يزيد واخوه في الشام لا يفكران في الرجوع الى البحرين الا بعد ان يكثر مالهما كما فعل ابوهما وهو في زهرة العمر . والجو صاف والزمان يبسم لها . ولكن رسولاً من البحرين ، حمل اليهما ان ذلك الصهر الحجازي أغمد خنجره في صدر ربيعة وهو نائم وسرق جراب الذهب الذي يحمله واحتجب عن العيون .

ومرت الايام يا قصي ، فاذا ربيعة ينجو من الموت ويطوف في بلاد العرب باحثاً عن قاتله ، غير ان هذا الموت كان كامناً له ، فلم تطأ قدماه أرض مكة حتى فتح له ذراعيه وضمّه اليه في قصر امير مكة حليل بن حبشية . ولكنه باح بسره لحاجب البيت قبل ان يغمض عينيه .

– والقاتل ؟

– كان القاتل قد مات وله في مكة ولد يتمرغ في المال المسروق ويفاخر قومه بذلك المال .

فقاطعه قائلا : كفى فقد عرفت الباقي .

قال : ماذا ؟

قال : جاء يزيد من الشام بعـد قتل اخيه يطلب بدم ربيعة .. فمن هو هذا الوارث النبيل ؟

- انك لا تعرفه يا قصي ولو ذكرت لك اسمه ، هو جبير بن عبادة .

- وقومه ؟

- بنو صوفة .

فوضع يده على جبينه قائلاً : وزياد بن كعب سيد قوم أليس كذلك ؟

- نعم وهو خير الامراء .

- ولكنه يعرف ذلك ويسكت عنه ..

فسكت صفوان لئلا يفضح نفسه ..

ثم قال قصي : وماذا تريد الآن يا يزيد ؟

فأجابه هادئاً : اريد ان أسقي هذا السيف من دم جبير .

فاطرق قصي ملياً .. ان ذلـك الثأر لم يكن من رأيه الآن .. ولو لم يكن عاهد الفتى على الوفاء لما كان له في ذلك رأي .. يُقتل جبير ، فتثور صوفة ، فيدعوه وفاؤه الى الدفاع عن يزيد ، وهو في زمن لا يهمه منه ، الا ان يسود فيه السكون والهدوء .

ثم رفع رأسه قائلاً لصفوان : الا تعلم ان مقتل جبير يسعر النـار في مكة ؟

فضحك قائلاً : ومن يسعّرها يا قصي ؟

- قومه وانصاره ..

قال : ليس له في قومه انصار ..

- اذن هو خليع .

- لم يخلعوه بعد ولكنهم لا يحبونه ..

قال : أيبغضه قومه والناس في كل زمان ومكان عبيد الاغنياء مثله ؟؟

قال : الناس يبغضون الغني الذي يعبد ذهبه ولا يبذل منه درهماً واحداً في سبيل قومه ..

- اخشى ان يفسد عليّ ثأر يزيد أمري .

– ليس هناك ما يفسد امراً كما تظن ..
– أتضمن يا صفوان ؟
– نعم وسترى ان أهل مكة بعد مقتل جبير لا يرتفع لهم صوت .
– بقي شيء آخر لا تفكر فيه ولا تحسب له حساباً .
– ما هو ؟
– ألا يجوز ان يقتل يزيد ويسلم عدوّه ؟
فقال يزيد : بلى ولكني اوصي من الآن بان دمي هدر ولا اريد ان يطلب به احد ..
قال : يا صفوان صف لي صاحبنا ابن عبادة .
فاجابه قائلاً : اذكر لك اوصاف الذئب التي هي اوصافه .
– اراك تبغض الرجل كأن دم ربيعة بن سلول ، دم ابيك الحارث بن شجنة ..!
– أجل وليس في ذلك ما يدعو الى العجب ، فيزيد ، بقوة هذا العهد بيني وبينه ، اصبح أخاً لصفوان ..
– كما انه اضحى اخاً لقصي .. واين هو جبير اليوم .
– هذا ما لا يعرفه الا الله .
– الا يقيم بمكة ؟
– قد يكون فيها ولكنه يتخفى كما يتخفى اللص ولا يخرج من منزله الا اذا جنّ الظلام ..
ولم يقل له كلمة عما يعلم .. ثم قام مع يزيد يهمّان بالخروج .
فقال : الى اين ؟
– الى جنان يثرب واسواقها وآبارها نبحث عن الوارث النبيل .. ثم قال : أتعرف الى اي قوم ينتمي يزيد ؟
قال : وهل له قوم آخرون ينتمي اليهم ؟
– نعم ! هو من قضاعة وقد ترك الشام ليقيم بمكة مع رفيقه قصي بن كلاب ..

فضحك وهو يقول : كما تشاء يا صفوان. فيزيد قضاعي ، وقد نشأ في الشام رفيقاً لي .. وارتفعت اصواتهم بالضحك .

ثم عمد صفوان الى عمامته فغطى بها وجهه وخرج مع يزيد وهو يقول له : لا تعجب لما تراه فهذه العمامة هي حجابي الدائم .. واختلطا بالناس ..

* * *

ليس لجبير بن عبادة ظل في يثرب .. فقد طاف صفوان في جميع احيائها فلم ير له وجهاً ، ولم يكن هنالك اثر من آثار عدوان ، فترك المدينة واتجه الى الجنان .. ولكنه ابصر وجوها لا يعرفها .. فعمد الى الخيام والاكواخ خارج السور يتبين الوجوه الاخرى فلم يبلغ غايته ولم يكن يريد ان يسأل احداً عن جبير اذ ليس في السؤال شيء من الدهاء .

فقال ليزيد : يكفي ان يكون عدوان اليمني من رجال ابن عبادة ليكون نابغة في تخفيه ..

– ولكن عدوان يخرج الى المدن كما رأيت .

– واذا فعل ؟

– تستطيع بهذا السيف ان تنتزع سره من صدره .

قال : لو حملت جسم عدوان على رؤوس الاسنة لما خان سيده ولما باح بشيء

– اذن نعمد الى تدبير آخر .

قال : هو ان نتبع آثاره عندما نراه فنعرف اين يختبىء مولاه .

– نعم .

– ذلك ما افكر فيه يا يزيد ولكنه يخدعنا في جميع مظاهره .. انه داهية يفعل ما لا تفعله الجنّ ..

قال : لم يبق الا ان نستعين ببعض الناس نجعلهم عيوناً عليه حتى يسقط في الشرك ..

– سننظر في هذا بعد رجوعنا الى مكة لان لعبد الله مولى زياد بن كعب الذي ذكرته لك يداً في الأمر ورأياً .

-- وقد يكون الرجل في يثرب فلا تقع عليه عين عبدالله .. أليس لـك في هذه المدينة من يسمع لك ؟

– اعرف بعض الفتيان من الأوس والخزرج ..

قال : ذا انصرفت الى مكة فاجعلهم عيوناً كما قلت .

– أنجعلهم يا يزيد عيوناً على من لا يعرفون ؟

قال : اما الجلاح فيعرف الاثنين .

فابتسم قائلاً : واذا كان هذا ؟

– يستطيع ان يقوم بما لا يقوم به فتيان قومه ..

– ذلك هو الخطأ كله ، أنجيء الجـــلاح وهو سيد الأوس الاكبر فنقول له سنجعلك عيناً لنا على الناس ؟

– وماذا نفعل اذن ؟

– نرجع الى مكة كما قلت ثم نرى بعد ذلك .. وعـادا الى حيث ينتظرهما قصي . وصفوان يقول : اذا ضيعنا املنا اليوم فلا نضيعه غداً .

فقال قصي : ان الذي صبر بضعة اعوام يستطيع ان يصبر بضعة ايام .

* * *

– ٢ –

في تلك البقعة الحمراء التي تشرف على مكة جلست الفتاتان ، ليلى وحبّى ، بعد غيبة طالت ايامها ، وذلك الغرام الذي تتلظى ناره في صدريهما ، تبوح بـه العيون ، ويبدو بأجلى المظاهر وأروعها ، على ذينك الوجهين الزاهيين .

وعلى صخر آخر يبعد عشرين ذراعاً جلست الجواري الاربع وهنّ يبتسمن كالأميرتين للآمـال الضاحكة .. وبالقرب من الجمع ، امرأة سوداء على وجهها حجاب ، ترعى ناقـة لها ، في موضع ينبت غير الشوك .! وكانت ترفع ذلك الحجاب من حين الى حين لتتبين وجوه العذارى بوضوح وجلاء ..

فقالت ليلى : من تكون هذه المرأة ؟ ني لم ارها في هذا الموضع من قبل .

فاجابتها حبّى قائلة : جئت هذا المكان مع جواريّ ثلاث مرات ، وكنت كل مرة اراها ترعى هذه الناقة .. ان في مكة طائفة كبيرة من الجنس الاسود .

قالت : أترعى ناقتها بين الصخور حيث لا تقع العين على نبات أخضر ؟

– وهل تريدين ان تـذهب المرأة مع رعاة النوق كل يوم ؟ ان وجودها بين هذه الصخور ، خير لها من الذهاب مع الفتيـــان .. ثم قالت : ألم تري وجهاً احسن من وجه هذه السوداء نتحدث عنه ؟

فابتسمت قائلة : سأحدثك عن احسن الوجوه في الحجاز ، مــاذا تقولين لو سألتك عن قصي بن كلاب ؟..

فاحمرّ وجه حبّى واطلّ الحب من عينيها الذابلتين: ثم خفضت صوتها وهي تقول : تسألينني عن رجل لم اره غير مرة واحدة ؟

– اجل ومرة واحـــدة تكفي لمثل هذا السؤال ، ألم يزر سادن الكعبة في قصره ؟

– بلى وكان معه اخوه زهرة .

– وماذا جرى ؟

– دار الحديث بين الجميع على الحجاز والشام ..

– وانت تسمعين ؟

– نعم وكنت في مجلس القوم .

– في مكة خبر تتناقله الافواه وقد ملأ المسامع والاذهان .

– اذكريه يا ليلى .

– يقولون ان قصياً خطب حبّى

وهل صدقت ما يقولون ؟

– لم استغرب الخبر الا من ناحية واحدة هي ان سادن الكعبـــة لا يزوج رجلاً لا يعرفه ..

– ويجب ان تستغربيه من ناحية اخرى هي ان هذا الرجل لا يخطب الفتاة التي لا يعرف عنها شيئاً .

– اذن لم يكن ذلك القول صحيحاً ..
– لا ولم تذكر الخطبة في ذلك اليوم .
– واين هو قصي الآن ؟
– في يثرب وقد ذكر لأبي امر سفره اليها فأوصاه بأن يختار رفيقاً له من نبلاء قومه ..
– ومن كان ذلك الرفيق ؟
– قيل لأبي انه احد اشراف كنانة ..
– واسمه ؟..
– واسمه صفوان بن الحارث ..
فارتجف صوت ليلى وهي تقول :وانت تجهلين الفتى الذي تذكرين ..
– نعم ، اما أبي فلما نقلوا اليه الخبر قال : هذا خير فتيان اهل الشعاب .
– اي انه يعرفه من قبل .
– أجل ،
– كما عرفه ابي وعرفته انا ..
– انت يا ليلى ؟!
– نعم قد رأيته وحدثته قبل سفره الى يثرب مع قصي بن كلاب .
قالت : اني لا افهم ما تقولين .
– ولكنك ستفهمين كل شيء في هذه الساعة ألم يعرض احد فتيان مكة صيفه على امير صوفة في ذلك اليوم الذي تعلمين ؟
– بلى .
– ألم يبذل أبي الجهد كله ليعرف صاحب ذلك السيف ؟
– اذكر ذلك واذكر ان عبدالله ضيع آماله بالبحث عنه .
– ولكن يجب ان تعلمي الآن اننا وجدنا الذي ضيعناه ..
– وعرف ابوك صاحبه ؟
– نعم وعندما اراد ان يعطيه بعض الجزاء استخف بالأمير ورد عطيته .

بكل ما في الاباء من عظمة وروعة .

قالت : ومن يكون هذا الفتى ؟

- رفيق قصي الى يثرب ..

فدهشت قائلة : صفوان بن الحارث ؟

- اجل يا حبّى ولقد اصاب ابوك في قوله انه خير الفتيان .. وجعلت تقص عليها كل ما جرى لا تخفي أمراً .

فلما خبرتها كل شيء قالت حبى :

لقد تم لنا الامر نحن الاثنين كما نشتهي فقولي لي أتحبين صفوان اليوم كما كنت تحبينه قبل ان تعرفيه ؟

فأجابتها قائلة : اسألك مثل هذا السؤال عن قصي ..

قالت : اما انا فأكاد اذوب حباً .

- وانا أخشى ان يصرعني هذا الغرام ..

وضحكت الاثنتان.. غير ان ذلك الضحك لم يمتد ، لأن تلك المرأة السوداء كانت قد اصبحت منهما على قيد خطوتين .. وقد سدلت حجابهـــا ومشت ، بقامتها القصيرة ، وقدميهـــا الثقيلتين ، تطلب الشوك لناقتهـــا الجرباء بالقرب من الاميرتين .

فقام في ذهن ليلى انها سمعت كل ما قيل.واضطربت اضطراباً لم تعلم له سبباً.

فقالت لها : الا تلتمسين لك مكاناً آخر ايتها السوداء ؟

فرفعت المرأة رأسهـــا وحدقت اليهـــا من تحت الحجاب ، بعينين تتقدان ناراً .. ولم تجب .

ولما همت ليلى بأن تدعو جواريها انثنت تلك المرأة كأنها لم تسمع شيئاً .

ثم قادت ناقتها وانصرفت ..

فقالت ليلى : ان هذا الوجه وجه شؤم وانا خائفة .

قالت : أتخافين وجهاً لم تريه ؟ انهـــا من عجائز مكة اللواتي يتنصتن لكل حديث يجري بين اثنين ..

– ولكني أخشى ان تكون عيناً لأحدهم ..

قالت : متى كان اهل مكة يجعلون العيون على النساء ؟؟

فاجابتها قائلة : عندما يكون بينهم رجال انذال مثل ابن عبادة ..

وكان قلب ليلى يحدثها بأن لهذه المرأة شأناً من الشؤون .

* * *

تقوم في اسفل مكة، على جانب الوادي الغربي مضارب وخيام كثيرة ، تشد اطنابها الى الاشجار الكبيرة التي ترسل ظلها البعيد .

وأهل تلك الخيام خليط من العرب ، هذا يقيم بمكة شهراً وهذا يقيم شهرين والآخر لا يتركها قبل انقضاء العام . لحاجات لهم تضيق وتمتد .. ومعهم النساء والاطفال، والخيل والنوق واشياء كثير يبيعونها امام الكعبة، حتى انك لتقول، ان ذلك الجانب الغربي ، بما فيه من مظاهر الحياة قرية صغيرة من قرى الحجاز تؤثر الانفراد والسكون على كل شيء .

ثم يجيء شهر من شهور السنة ، لا تجـد فيه مضرباً واحداً من المضارب التي ذكرت ، ولا تقع العين الا على اثار البلد الصغير ، الذي انتقل بمن فيه الى موضع آخر ، وليس هنالك ، بين ذلك الخليط من الناس تمازج الا بالعادات .. وقد لا تجد خلقين ، متحدين ، متجانسين .. وليس الامر غريباً كما ترى ، فمن كل قطر رجل لا يعرف الآخر ، ولم يكن معه قط صلة تعارف وولاء ، ومع ذلك فقد تراهم مجتمعين ولكن لا رابط لهم ، كالغرباء النازلين ضيوفاً على احدهم ، يقص بعضهم على البعض الآخر ، حوادث الزمان والحكايات .

وقد يرحـــل الواحد منهم الى بلده ، دون ان يقول لجيرانه كلمة عن ذلك الرحيل ، ودون ان يذكر سبباً من اسبابه .

وهم ، في ذلك المحيط الغريب الشاذ ، لا يستغربون شيئاً مما يرون ولا يبالون الا بتلك الحاجات يقضونها ثم يتركون مكة ..

والناظر الى مضارب هؤلاء ، يرى خيمة منفردة قائمة على شفير الوادي يلجأ اليها شيخ بيضت الايام رأسه ، وزوجة كهلة لم يرها احد سافرة الوجه ، كأن

ذلك الحجاب الذي تغطي به وجهها ثابت على رأسها لا تنزعه الا يد الموت ..

وكان فتى ربعة قصير العنق ، يدخل تلك الخيمة ويخرج منها ، من ساعات الليل ، او في وضح النهار ، من حين الى حين .

على ان مـــا يدعو الى العجب ، ان ذلك الفتى تـ ستر وجهه عمامة خضراء كتلك العمامة التي رأيتها على وجه صفوان .. واغرب من هذا كله ان المرأة المحجبة يختفي أثرهـا عندما يكون الفتى في الخيمة ، كأن وجود الاثنين تحت سقف بيت واحد ، لا سبيل اليه .. أو كأن الاثنين شخص واحد ، يلبس ثوب المرأة وثوب الرجل عندما يشاء ..!

ولم يكن في الخيمة مظهر واحد من مظاهر السعة والرخاء ، فأصحابها فقراء كما يبدو لك وهم لا يملكون غير ناقة واحدة بلغت آخر العمر ..

امـا الشيخ فقوي البنية خفيف الحركة ، مـا استطاعت السنون ان تسلبه الهمة التي كانت له وهو في عنفوان صباه .. وكان يقول لمن حوله : ان المرأة زوجتي ، والفتى ولدي من زوجة أخرى ، وهمـا لا يتفقان .. واذا سألوه عن بلده قال لقد نشأت في البادية فلا اعرف بلداً لي .

والناس يصدقونه ولا يعبأون بما يرون ولا يسألونه عن تلك الزوجة السوداء.

اجل .. كانت زوجته سوداء .. ولعلها المرأة التي رأيتهـا في البقعة الحمراء ترسل نظراتها الحادة من تحت الحجـاب الى الاميرتين حبى وليلى .. نعم ، انها تلك المرأة نفسهـــا ، لا اكثر ولا اقل ... ولتلك النظرات الغريبة حكاية نوردها لك ...

* * *

عد قليلاً الى الماضي ..

واذكر ان جبيراً غادر ميدان مكة مع مولاه عدوان وهما يتعثران بالفشل الذي رأياه .. وقد اقسم جبير في تلك الساعة ، اي بعد نجاته من سيف زياد بن كعب ، ان يسفك دم الامــير الذي عفا عنه ، ويقتل كل من يتصدى لغرامه .. والويل لصفوان بن الحارث الذي عرض سيفه على الامير .. انه سيموت من يده.

بعد ان يمهد له سبل الوصول الى ليلى والوقوع في شرك الحب ، كما وقع هو.. فلما وصل الى منزله ، قال لعدوان :

لا تذكر كلمه مما جرى بل خبرني بماذا فكرت .

قال : وهل يسع الصدر الآن لغير الانتقام ؟

قال : لا أسألك عن الانتقام بل عن الموقف الذي نحن فيه .. ألم تسمع زياداً يأمرنا بترك مكة الى الابد ؟

فاجابه وهو هادىء : له ان يأمرنا وعلينا ان نطيع ..

فانتهره قليلاً : اذا بقي فليفعل ما يطيب له .

– اي انك عولت على قتله يا مولاي ؟

– نعم وسأقطع يدي هذه ان لم يقع الخنجر في القلب ..!

– ولكنك لا تقتله الليلة على ما ارى ..

– لا ، فقد كتب له ان يعيش بضعة ايام .

فجعل اللعين يهز برأسه وهو يبتسم .

فقال اتضحك وانا اكاد اموت من الغيظ ؟

– وهل تريد ان استسلم الى غرور الصبا واحلام الشباب ؟ انك اذن تحفر قبرك بيدك وانت لا تعلم ..

– وكيف ذلك ؟

قال : اتسمع لي ؟

– اذا اردت الرحمة فلا ..

قال:اني اشد ظمأً منك الى الانتقام، ولكني انظر الى الامر من ناحية اخرى.

– وكيف ذلك ؟

– : نترك مكة في هذا الليل كما امر ابن كعب .

بل لا اخطو خطوة قبل ان اقضي عليه .

– اذن فاذا اردت ان ترى احداً قبل موتك فافعل ..

قال : اراك تهددني كأنك امر صوفة نفسه .

— : نعم لان الامير سيحمل سيفه غداً ويتبعه رجاله للقضاء عليك .

فهم بالجواب فأسكته قائلاً :

انظر فيما اقوله لك الان .. نغادر المنزل في هذا الليل فلا يطلع الصبح حتى يختفي كل اثر لنا فيطمئن زياد ويقوم في ذهنه اننا هجرنا الحجاز الى الابد .

— واين نقيم ؟

— في الوادي .. اي اننا نترك مكة ونبقى فيها ..

— وكيف نستطيع البقاء في بلد يعرفنا اهله ؟

— نتخفى عن العيون واذا اردنا الطواف في البلد ففي ظلام الليل .

— وينتهي الامر ؟؟

— لا فهذا الامر لا ينتهي حتى تنتهي حياة الامير وانصاره .

قال : حدثني بجلاء ..

— لا احدثك الآن بشيء لاني لا اعرف ماذا افعل ولم افكر في الامر من كل نواحيه ، ثم نذهب والعبيد يضربون لنا خيمة تجاور خيام العرب في الموضع الذي ذكرت وفي ذلك الجانب من الوادي ننظر في الامر .

وهكذا فعل الاثنان ، وارسلت المواشي الى خيبر ، ثم اقاما بخيمتهما لا يخرجان منها الا اذا جن الليل

حتى عرف عدوان ان صفوان بن الحارث ، ذو عمامة خضراء يحجب بها وجهه ، فابتاع لمولاه عمامة مثلها يجعلها حجاباً عندما يخرج من مضربه وهو يرى ان تلك العمامة ستكون القاضية على صفوان كما سيجي ..!

ثم باح لمولاه بسره وبما يفكر فيه من وسائل الانتقام ، فارتاح جبير الى ذلك السر ، وكان في خيمته كالعبد يطيع سيده طاعة عمياء ..

ولكي تتم غاية اليمني ، عمد الى تدبير جديد لا يخلو من الخطر ، هو انه اظهر نفسه لصفوان بن الحارث في المطاف ، كما مرّ واخذ يصف له جمال ليلى ابنة زياد ، ويغريه بذلك الحسن الخلاب ، داعياً اياه بدهائه الذي قرأت الى الخطبة ثم الى الزواج ..

وكان غرضه من ذلك ، ان يوثق عرى الولاء بين الاثنين تنفيذاً لذلك الفكر الهائل الذي خطر بباله .. لكنه خاف عندما ابصر عبدالله بين الصفوف ، وهو لا يخاف احداً سواه، فاستخفى بضعة ايام بعد تلك الليلة، ثم ظهر مع جبير بمظهر جديد غريب، مظهر يدل على عاطفة البغض التي تجول في صدره وصدر مولاه ، هو ان جبيراً اصبح من النساء . واظنك عرفت الآن انه ، هو نفسه تلك المرأة السوداء .. صاحبة الناقة الجرباء .

فاذا نزعت العمامة عن رأس جبير .. لم يبق في خيمة الشيخ الا المرأة .. ثم أشاع عدوان الابيض الرأس ، ان ولده الفتى غادر الحجاز الى اليمن .

واخذت ، تلك الزنجية القصيرة العنق ، تجول وتطوف في مكة في النهار والليل ، وتقود ناقتها الى المرعى ساعة تشاء ، وتدفعها ايضاً ، ساعة تشاء الى البقعة الحمراء ..

ولو كان لعبدالله عينان تخترقـان الحجب ، لرآها كل ليلة تدور حول قصر زياد ، مع عجوز بيضاء الوجه هي عدوان .. والاثنتان رأتا صفوان بن الحارث يدخل القصر ، ثم انتظرتاه حتى خرج منه في المرتين ..

وجبير يرى عمامة صفوان فيسأل اليمني : ما هو غرضك بالعمامة التي اشتريت؟ فيقول له : ان فتى ربعة ، على وجهه عمامة خضراء ، طعن امير صوفة طعنة لفظ بعدهـا روحه . ثم يبحث النـاس عن ذلك الضارب فـلا يجدون غير صفوان أفهمت الآن ؟؟

لكن جبيراً يحب الصراحة فيقول : وذلك الضارب هو أنا .

— نعم ، فجبير بن عبادة، سيكون بفضل هذه العمامة، صفوان بن الحارث، لا زيادة ولا نقصان .

وتبرق عند ذلك عينا النذل ، ببارق الحقد ، ويرقص قلبـه فرحاً لذكر الدم البريء . !

ولم يبق الا ان يعين الاثنان موعد القتل . ولكن هذا الموعد لا يعين الا يوم يصبح صفوان وليلى عاشقين . وقد فاتها ، ان ذلك العشق يملأ القلبين ...

- ٣ -

ليس غريباً ان يزور زياد بن كعب امير صوفة ، سادن الكعبة ابن حبشية في قصره ، ان الامراء يتزاورون ويتشاورون . غير ان الغرابة في ذلك الحديث الذي افضى به اليه .

وكانت حبى في المجلس ، والغلمان يروحون ويجيئون وزياد يقول ولا يبالي : لا استطيع يا مولاي الأمير الا ان أسألك عن خبر تتناقله الأفواه ويملأ مكة .

فقال حليل : وما هو هذا الخبر ؟

– سمعتهم يذكرون ابن كلاب القادم من الشام ويقولون انه زار حاجب البيت ! .

فقال مستغرباً : وبمثل هذا يتحدث الناس ؟ ان قصرنا يغص كل يوم بوفود العرب من كل قطر .

– نعم ولكنهم قالوا ان قصياً يخفي وراء زيارته غرضاً من الاغراض .

فابتسم قائلاً : لعلهم يظنون انه جاء ليسرق ما في الكعبة ويبيعه في اسواق الشام .. !

– بل يظنون انه خطب اليك حبى .

فاراد حليل ان يعلم ما في نفسه ، فقال :

لقد اصاب الناس في ظنونهم فهو لم يقدم مكة الا لهذه الغاية ، كما رأينا .

– وهل طلب حبى يا مولاي ؟

– اجل ، ولجّ في طلبه كأنه لا يطيق الاقامة بيننا الا اذا زفت حبى اليه .

– وكأن حبى سلعة يشتريها من يشاء ؟ وماذا كان جواب الأمير ؟

– طلبنا اليه ان يصبر ريثما يعود من يثرب .

فنظر زياد الى الفتاة وكانت مطرقة ، فقال : أتصبح الأميرة زوجة لابن كلاب بعد رجوعه ؟

– نعم وقد وعدناه بهذا "

– ومن هو قصي حتى يمسي صهراً لأمير امراء الحجاز ؟

قال : أتسألني يا زياد عن نسب الفتى ؟ انــه ابن كلاب ، وكلاب بن كنانة وكنانة بن مضر ، ومضر بن عدنان ، وعدنان بن اسماعيل ، فاذا طاب لك ان تسألني عن شيء آخر فافعل .

فاجابه هازئاً : انحني امام هذا النسب العـــالي الذي لا انكره ، ولكني عرفت ان الرجل ...

– عرفت ان الرجل لا يملك مالاً .

– بل لا يملك شيئاً .

– أصبت ، غير اني رضيت به صهراً ورضيت حبى به زوجاً ولم يبق الا ان نضمه الينا فيصبح منا ..

– ويعيش عيش الامراء بفضل مالك .

– نعم وليس في ذلك شيء من العار .

– بل هو العار كله ، الم يكن في بيوت الامراء من تجعله صهراً لك ؟

– وهل في بيوت الامراء مثل قصي ؟ انــك لو كنت سادن الكعبة وعرفته لفعلت كما فعلت .. ثم قال : اذكر ايها الأمير ما اتيت لأجله .

– اتيت لأسألك هذا السؤال ثم انصرف .

– ولكني اراك غير راضٍ ؟

– اجل وانا اخشى ان ينتهي بك الأمر الى الندم .

– لماذا ؟

– لأن خزاعة لا ترضى ، ولأن الزواج لم يكن غرض قصي كما يظهر .

– اذن تظن ان له غرضاً آخر .

– نعم وقد اراد ان يجعل حبى وسيلة للوصول اليه .

– الا تذكره لنا يا زياد ؟

– اذكره ولا اتردّد في ذلك ، انه يطمع بحجابة البيت .. ونظر الى جانبيه ليرى اذا كان المحترش في قاعة الجلوس .

فنهضت الفتاة تريد الانصراف ، فقال حليل :

اجلسي يا حبى فمن الرأي ان تسمعي كل شيء .

ثم وجه حديثه الى زياد قائلاً :

أيحلم ابن كلاب الكناني بسدانة الكعبة اذا زوجناه ؟؟ وكيف يسلبنا اياها ونحن احياء ؟

قال : تلتف كنانة حوله وتستغيث حبى بأبيها فيتخلى له عنها ، وبين ليلة وضحاها يصبح سيد الحجاز .

– ولكنك نسيت بني خزاعة وبني صوفة . والفريقان يغضب لغضبهما بنو بكر ..

قال : ومن يعلم ماذا تفعل الحرب ؟ انها لا تكون لنا حتى تمسي علينا ، فنخسر العز الذي عاش ثلاثة اجيال ..

– واذا لم نتخلّ له عن الحجابة كما ذكرت ؟

فسكت زياد ...

فقال : أتراه يطردنا من البيت ويضع يده على الامارة ؟؟.

قال : اذا لم يفعل ذلك وانت حي فعله بعد موتك .

– وانتم تكرهون ان تخرج السيادة من بيتنا أليس كذلك ؟

– نعم يا مولاي .

فغيّر لهجته قائلاً : لنعمد اذن الى الصراحة يا زياد .

قال : ليس شيء احب اليّ منها .

– اذن فمن قال لك ان قصياً خطب حبى ؟

قال : لا اذكر من قال لي ذلك ، ولكنه خبرٌ يردده الرجال والنساء كما قلت .

– وجئت تقترح علي اقتراحاً هو ان ارد ابن كلاب ولا ازوجه .

– نعم جئت من اجل هذا ولم اكن اعلم ان كل شيء قد انتهى وسيتم الزواج بعد رجوع قصي .

قال : سنتردد في الوفاء بالوعد يا زياد اذا سمعت لنا كما نسمع لك .

قال : ماذا ؟

قال : تختار لحبى من تشاء من فتيان الحجاز ونختار لليلى منهم من نشاء .. ابدأ بالاختيار ونحن راضون ..

– ولكني اقسمت اني لا ازف ليلى الا الى من تحب

فقهقه ضاحكاً ثم قال :

واذا كان حاجب البيت مقيداً بمثل هذا القسم فماذا تقول ؟؟

فعاد الى السكوت ، وحليل يضحك .. وكاد صوت حبى يرتفع بالضحك ، وقد اعجبها ذلك الدور يمثله ابوها مع امير من امرائه ...

ثم قال حليل : أيكون جميع الناس احراراً في شؤونهم الخاصة ، ولا يملك امير مكة حريته .

فتمتم قائلاً : والسدانة يا مولاي ؟

– اما السدانة فتحتفظ بها ما بقينا وعندما تأتي ساعتنا نوصي بهـا لولدنا المحترش فلا يطمع بها احد كما تظن، وهب ان قصياً ارادها لنفسه وقامت خزاعة لتصدي له ولم تستطع فخير لمكـة ولأهل الحجاز ان يكون سيدهم فتى يرفع نفسه الى القمة ويخفض الآخرين بقوة سيفه ..!

انكم تخافون ان تنتقل الامارة بعد موتنـا الى آل كلاب ، فاذا كنتم رجالاً فامنعوا الأيدي من أن تمتد اليها وصونوا نفوذكم كمـا صانه الاجداد ولا تحلفوا بالفتى الشامي يرغب في الانتماء الينا ويسألنا ان نزوجه ..!

قلت اني سأعمد الى الصراحة وانا فاعل ، فاعلم الآن اننا لم نعد قصياً بشيء مما ذكرنا لانه لم يطلب حبّى ، ولعله لا يفكر في مثل هذا الطلب الذي يمـلأ مكة كما تقول ، ولكن لا نتردد قط في الاعتراف ، باننا نرضى به صهراً لنا اذا سألنا ذلك .

فتنفس زياد ملء رئتيه ..

اما حليل فاستطرد قائلاً :

والآن نسألك سؤالاً ، فقل لنا يا زياد مـــا هي القوة التي تصون العروش وتحفظ التيجان على رؤوس الملوك ؟

قال : ليس هنالك قوة الا السيف ..

قال : ونحن اصحاب عروش صغيرة في الحجـاز ، فاذا جاءنا غداً ملك من ملوك كندة او من ملوك العراق يريد ان يجعـل مكة ميداناً لخيله فماذا تفعل ؟

ـ ندافع حتى تتكسر السيوف في الايدي .

ـ واذا كان ذلك العدو كنانياً من اهل الشعاب ؟

ـ ضربناه كما نضرب سواه ولا نبالي .

ـ اي انكم مجمعون على الدفاع ولو بارزكم جميع العرب ..

ـ نعم .

ـ اذن فليكن هذا الزواج الذي تخافه ، فابن كلاب لا يستطيع ان يبتلع مكة وانا لا اخشى ان تخرج الحجابة من خزاعة .

قال : يخيل الي ان هذا الزواج ان لم يقع اليوم وقع غداً .

ـ اجل فلو جاءنا قصي غداً يطلب ابنتنا لما ترددنا في القبول .. ذلك امر لا شأن لكم به يا زياد ، وليس عليكم ان كنتم تخافونه الا ان تتهيأوا للحرب ...

والآن ، لنتكلم عن قصي ، انــه احد افراد العرب في الدهاء كما ظهر لي ، وانا واثق بأنك ستضع يدك بيده ، يوم تعرفه لانه اقرب الناس الى القلوب .

قال : اما هذا فلا اجد اليه سبيلاً اذ لا يقوم في ذهني ان اصافح رجـــلاً سيكون عدواً لي ولقومي ..

ـ ومن دلك على هذا ايها الأمير ؟

ـ نفسي .! فانا منذ بضعة ايام لا افكر الا في هذا الأمر .

ـ ولكن سترى انك لم تكن على صواب .

قال : متى يعود من يثرب ؟

ـ لا اعلم فهو لم يعين لرجوعه اجلاً . أتريد ان تراه ؟

ـ نعم ، ثم احدثه ، ثم قرأ في عينيه ما في صدره من اسرار .

وسكت قليلاً ثم قال لحبى .

أترفضين فتيان قومك ايتها الاميرة لتصبحي زوجـــة لابن كلاب وتقيمي بالشعاب ؟؟

فأجابته وهي تبتسم : ليس لك ان تسألني عن شيء لا وجود له ايها الامير.

ـ واذا وجد ؟

ـ اذا وجد فأبي يتولى عني امر الكلام .

ـ وهل رأيت قصياً ؟

ـ كما أراك الآن وسمعت كل ما قيل في هذه القاعة .

ـ وليس لك رأي فيه ؟

قالت : ان الذي يعرفه ابي لا اعرفه انا كما ان ليلى لا تعرف ما يعرفه ابوها.

قال : ما اردت الا ان يكون لليلى رأي في قضية الزواج ..

فقالت : أتأذن لي في سؤال ؟

ـ نعم .

ـ ألا يجوز ان يجيئك غداً نبيل عربي فيطلب ليلى ؟

ـ نعم .

ـ وقد يكون هذا العربي كنانياً ففي كنانة فتيان كثيرون كما تعلم .

ـ واذا كان هذا ؟

ـ ان سؤالي لم ينتهِ بعد افلا يجوز ايضاً ان ترغب ليلى فيه فتزفها اليه ؟

ـ بلى .

ـ ولكن العشيرة لا ترضى وهنا عذرها فهي تتمم في ذلك شريعة اميرهـا زياد بن كعب .

قال : أية شريعة ؟

ـ شريعة عدم الرضى ، انك تخاف ان تمسي ابنة حاجب البيت زوجـــة لكناني فتنتقل الحجابة اليه ـ وبنو صوفة قومك يخافون ان تمسي ليلى زوجة

لرجل ليس منهم فتنتقل الامارة اليه . وهذه مثـــل تلك يا سيدي الامير فماذا تقول ؟

قال : ليست الامارة كالسدانة .

قالت : اصبت ولكن الحق الذي يملي عليك ما تقوله الآن ، هو ذلك الحق الذي يدعو قومك الى الرفض الذي افترضنا وجوده .

فرأى زياد ان حجة حبى لا ترد ، فقال :

حسبي اني نصحت للأمير بما رأيته صواباً .

فقال حليل : ونحن نشكر لك هذه النصيحة ونعدك بان الحجابة ستبقى لنا ما بقينا وهو وعد نقدر على الوفاء به .

فنهض قائلاً : وهذا ما نرغب فيه ولتزفّ حبّى الى من تشاء ..

– ولكن تحب ان ترى قصياً كما تقول ..

– : نعم وارجو ان يكون اللقاء في قصرك ..

قال : سندعوك اليه يوم يكون فيه قصي ونرى بعد ذلك ما يكون .

فخرج زياد وهو يقول في نفسه :

من يصدق ان زياداً امير صوفة يكره رجلاً لم ير له وجهاً ؟ ومن هو قصي بن كلاب حتى تستيقظ له في الصدر عاطفة البغض ؟

وكأن عبدالله ، الذي يمشي وراءه عرف مـــا يجول في صدر مولاه في تلك الساعة ، فقال له :

لقد سمعت بعض الحديث يا مولاي ..

قال : لم يكن هذا الحديث سرياً كما رأيت .

– واعرف الخاطر الذي يخطر لك الآن .

– ما هو ؟

– انك تفكر في ذلك الرجل الذي تخــافه ، وتضطرب لذكره ، وصدرك يغلي فيه الحقد عليه وانت لا تعلم لكل ذلك سبباً ..

قال : هو ذاك .

– ولكن الرجل يستحق اعجابك لا بغضك ..
قال : كدت انسى هذا البغض عندما رأيت دلائل الحب على وجه حبّى .
– وانت خبير بقراءة سطور الغرام يا مولاي ..
قال : واعجب لهذا الحب كيف يملك ، ويستوي في لحظة واحدة في عرشه.
قال : ألم ترَ صفوان بن الحارث ? انك اذن قرأت الغرام على جبينه ..
فهامسه قائلا : كما قرأته عــــلى جبين ليلى .. اتظن يا عبدالله ان عيني لا تبصران ما تبصره انت ?
قال : اذا كان هـــــذا فقد تم الرضى والاتفاق بين العاشقين كما اردت ... كما اردت انا يا مولاي ..
قال : انك كثير التفكير في هذا الزواج يا لعين ..
– اجل فقد رأيت صفوان اهلاً لليلى وانتهى الأمر .
فضحك قائلاً : اما الآن فضع يدك على قبضة سيفك كأنك في الميدان .
– لماذا ?
– لئلا يثب جبير بن عبادة من بطن الارض ويجعل صدري غمداً لخنجره ..
فذعر عبدالله وقال : انك تهزأ بأمر انا واثق به ..
وتلفت كما يتلفت المذعور الى الجانبين ويده لا تفارق قبضة السيف .
وزياد لا يكف عن الضحك ..

* * *

كانت سودة ابنة زهرة « كاهنة قريش » تجمع الى الحكمة الذكاء والدهاء كما قرأت ، ولتلك الفتاة الكسحاء كلمة نافذة في القوم ، كما كانت الحال مع جميع الكهان ، في ذلك الزمان .. وهي مرجع آل النضر في بعض شؤونهم الخاصة ، تلك الشؤون التي تعني الكهانة في جميع نواحيها ، تكتنفها في كل ذلك منهم مظاهر الاحترام .

اجل ، وقد عرفت سودة ان عمها قصياً ذو نفس طماحة الى العلياء ، وقلب مشغوف بالمجد ، وعزيمة ثابتة صادقة لا تستسلم الى الخور والضعف فجعلت تقرأ

حظه المتلألىء على الصفحات الخفية ، التي تظهر امام عينيها النـــاريتين .. ثم استشارت ملائكة الجنة في امره ، فبدا لها انه أعظم حجازي في ذلك الجيل .. فحدثت قومها بتلك العظمة وهيأت لها القلوب . وعندما عاد قصي من يثرب ، مع صفوان ويزيد كان في نظر قومــــه نصف إله .. حتى انهم جميعهم ظهروا بمظاهر العيد ، ورأى أهـــل مكة تلك المظاهر فذاع ذكر قصي وبعد صيته ، واشتدت الرغبة في رؤية الفتى الذي سحر قومه .

وطالع قصي طالع سعد كما مر ، فقد رجع من يثرب يحمل ثمن صوفه وستين درعاً من ادراع الجلاح ، وتقدمته الشهرة الخلابة الى عاصمة الحجاز ، وذلك هو الدور الاول من أدوار حياته اللامعة .

على ان ذلك لا يكفيه ، ان المال قليل ، والدروع لا تبرد غليل قومه ، وتلك الشهرة التي لا تعقبها السيادة المطلقة لا تستهويه ، وكان يقول لصفوان : لا يكثر المال بين يدي الا في ربوع الشام .

ثم أظهر لقومه ليلة وصوله ، رغبته في رحلة أخرى الى البلاد التي نشأ فيها وهو يخفي غرضاً من اغراضه وراء ستار التجارة والمال .

فقال زهرة : لقد سمعنا هذه النغمة من قبل يا قصي ! أفتعود الى مثل هــذا ولا تبــالي ؟

قال : نعم اذهب ولا ابالي ..

– ولكن قومك لا يرضون وهذا يكفي ..

– ان قومي يخافون عليّ الاخطار وانا لا أخاف شيئاً .. ومع ذلك فليس لي الا ان اختار ما يختارونه لي .

فأجابه احدهم قائلاً : لقد اخترنا لك الاقــامة بمكة الى الابد لا تنصرف الى بلد آخر ..

فابتسم وهو يقول : ما أردت ان تختاروا لي العجز والضعف ، بل الا التي تبعد عني الخطر الذي ترون ، ان السفر لا بـد منه فانظروا فيه واضربوا له موعداً ..

فقال زهرة : ان سودة وحدها هي التي تفعل ذلك ..
قال : اصبت وسأراها قبل الانصراف الى النوم .
وطال حديث الناس عن يثرب ، حتى ذكرت الدروع ، فقال :
اين هي يا يزيد ؟
– في الفناء حيث اناخوا النوق .
قال : ليجتمع فتيان قومنا في هذا الفناء الآن .
قال زهرة : لماذا ؟
واحضروا القداح واضربوا فيتناول درعاً كل صاحب حظ .
فقال صفوان : لتحفظ في بيت زهرة الى زمن آخر ...
– بل توزع الآن كما ذكرت فلا تترددوا في ذلك .

وهي عاطفة كبيرة يظهرها قصي لقومه، بل هو الجواد يخلب به البابهم بل قل هو الدهاء يضع به اسس البنـاء . لقد بدأ بفتح القلوب ، بقوة ذلك السلاح النافذ الذي هو الكرم .. قبل ان يبدأ بفتح الاقطار بقوة السيف ، وكيف يدفع بني كنانة الى الحرب ، كما يدفع القائد جنوده الى ساحات الوغى ، ان لم يكن أعظم منهم جميعاً في كل شيء ؟. يفتنهم ببذله وكبر نفسه ، ويبهر عيونهم بمظاهر العناية والعطف ، ثم يقذف بهم الى اشداق الموت ولا يسألونه .

هكذا تفعل النوابغ من الرجـال ، وهكذا يرتفع الفقير القوي الى القمة ويجلس العصامي الخامل الذكر ، على العرش .

* * *

ستون فتى من كنانة ، حملوا الى بيوتهم في ذلك الليـل ، ستين درعاً من ادرع الجلاح ، وهم يهتفون لابن كلاب الذي لا يملك درعاً واحدة يقي بها نفسه. !
وكان الشيوخ المجربون يرددون ذلك الهتاف فيملأ هتافهم الجبال والشعاب .
وفي تلك العطية الصغيرة ، كما ترى ، خطا قصي خطوته الأولى الى النفوذ الذي لا ينازعه اياه كبير في القوم ، حتى انصرف الناس الى مضـاجعهم عند

نصف الليل ، فنهض مع يزيد وصفوان قائلاً :
ان سودة لم تنم فلندخل .
وقد اراد ان يلمس بيـــده مرة اخرى ، قوة الكهانة ، التي تشبه في نظر العرب قوة السحر ، وفي صدره امران يريد ان يسألها عنهما ، كما سترى ، دون ان يبوح بهما لرفيقيه .
وكانت سودة تنتظر عمها ، فلمـــا دخل الثلاثة رفعت نظرها الى يزيد قائلة لقصي :
أرى رجلاً غريباً عن الحي .
فقال : اتعرفين فتيان قومك واحداً واحداً ايتها الكاهنة ؟
– نعم واعرف نساءهم وشيوخهم واطفـــالهم لا اغفل إلا عن المواليد في شهورهم الأولى ، فمن هو هذا الفتى ؟
– احد ابناء اليمن المقيمين بيثرب ..
– واسمه ؟
– يزيد بن ثور ...
قالت : دعني اخاطبه ، متى قدمت يثرب يا ابن ثور ؟
– منذ عامين .
– ولماذا اثرت الحجاز المجدب على البلد الخصيب الذي يمطر اهله النعم ؟
قال : لا تطيب لي الاقامة بالجبال ..
فجعلت تتفرس فيه . ثم حولت نظرها الى عمها والى صفوان تبتسم للاثنين .. ثم اطرقت :
فقال قصي : ماذا جرى يا سودة ؟
فقطبت حاجبيها وهي تقول : يحاول هذا الغريب ان يخـــدع الكاهنة .. فليخرج .. اني لا اريد ان اراه .
قال : لقد اخطأت فالرجل من اصدق الناس ..
– بل هو اكذبهم فقد تبينت كذبه من الجواب الأول الذي سمعت ! أأنت

من اليمن ام من الشام ايها الرجل ؟

فتردد يزيد في الجواب ..

ونظر كل من الثلاثة الى الآخر ..!

– قل يا يزيد .

فاجابها قصي ضاحكاً : من الشام وانا الذي اردت ان يخفي امره ..

قالت : اتخدعونني في شيء يعرفه جميع الناس ؟..

– وكيف ذلك ؟

كان عليك يا عم ان تعلم ان ابنة اخيك تعرف الناس من لهجتهم ولهجة الفتى لهجة اهل الشام . قولوا نعم او لا .

قال : نعم ، وذلك يعرفه الكهان وغير الكهان .

– وتريد ان تسألني عن الغرض الذي قدم مكة لأجله ، أليس كذلك ؟

– نعم .

فبرقت عينا يزيد ببارق الحقد ، في تلك الساعة ، وهي تنظر اليه .

فقالت : ولكني لا اعرف شيئاً .

قال : سودة ..

فأرخت نظرها الى الارض ولم تجب .

قال : وكيف لا تعرفين وانت كاهنة القوم ؟

فتنهدت قائلة : اما لا اعرف شيئاً فلأن عمي الذي يسألني لا يثق بي كما يثق بنفسه ، ولاني لم اكن كاهنـة القوم الا لان هؤلاء القوم جميعهم يصدقون الكلام الذي اقول .

ونحن كذلك من هؤلاء القوم وقد اردنا المزاح .

– لم تكن قط مازحاً يا عم .

– اجل وارجو ان تنسي ما مضى ..

– وماذا تريدون الآن ؟

قال : ان ليزيد غرضاً يا سودة ..

قالت : لا يقدم احدهم بلداً غير بلده الا لغرض .. وبعد ذلك ؟
- ويحب ان يعلم اذا كان ينقضي هذا الغرض كما يشاء .
وبرقت عينا يزيد ايضاً وهي تراه ...
فقالت : اي ان له امنية في مكة ولا يدري أيفوز بها ام يعود بالفشل ..
هو ذاك ..
فقال يزيد : بل لا اعلم يا مولاي اذا كانت امنيتي في مكة .
وقال صفوان : لقد اصاب .
قالت : اتوافقهم يا عم في هذا القول .
- نعم وازيد عليه ان الفتى اذا ضيع غرضه ضيع امله ..
- : لقد عرفت الآن فهو يطوف في البلاد باحثاً ..
وسكتت فجأة وهي تحدق الى يزيد ثم قالت له: اخلع هذه العباءة التي تلبس
فلم يتردد في ذلك .
فرأت سيف الفتى وخنجره وبانت الدرع التي تحجب الصدر .
فقالت : ثائر ورب الكعبة ..
فاستولى الاستغراب على الثلاثة واصفر وجه يزيد حتى اصبح كوجوه الاموات
ثم سمع صوته يتردد في صدره.. وظهرت على شفتيه بعد قليل تلك الكلمات
الثلاث التي قالتها الكاهنة :
ثائر ورب الكعبة ..
ثم عادت سودة الى القول وعيناها بعينيه : ان في صدرك ناراً ايها الفتى .
- نعم .
- ولا تطفأ هذه النار حتى تسفح دم عدوك .
فارتجفت شفتاه وهو يقول :
ولكني اخشى أن ارى هذا العدو .فقولي لي ايتها الكاهنة ايقيم عدوي بمكة
قالت : خير لك ان تسأل هبل عن هذا أليس لكم انتم اهل الشام اصنام
في الكعبة ..

– اني من البحرين يا مولاتي ولأهلها اصنام كما تقولين .

« كان لكل قبيلة من قبائل العرب صنم تزوره في ايام المواسم وتذبح له حتى ضاقت الكعبة بالاصنام وعددها اكثر من ثلاثمائة » .

– فاسأل اصنام قومك .

– بل اسأل الكاهنة قبل ان اسأل هذه الاصنام .

قالت : عدوك في الحجاز .

فقال قصي : الحجاز واسع الاطراف يا سودة فاذكري البلد .

فاستوحت ملائكتها ثم قالت: لا استطيع ان اذكر اسم البلد الذي يقيم به .

– بل تستطيعين .

فوضعت يدها على جبينها وقد اتعبها التحديق وجعلت تقول : لا استطيع لاني لا أعلم ..

– وكيف عرفت ان هذا العدو بالحجاز .

– لانه من أهله ..

– بل هو من مكة ..

– ليكن من الشعاب فانا لا أراه كي اصفه لكم وعرف البلد الذي لجأ اليه ..

– وهل تحول طلاسم الساحر بينك وبينه ؟

– لا ادري ما هو ذلك الحائل الذي يمنعني من ان اراه ..

فقال صفوان : لعله تخفى فضاعت أثاره ..

قالت : مهما يكن امره فلا سبيل اليه الآن .

فقام في ذهن قصي انها لا تريد ان تبوح بما تعلم فقال :

أتبوحين لي يا سودة بما تعلمين واعاهدك على الكتمان ؟

فرفعت رأسها قائلة : يحدثني هذا الفتى بلهجة اهل الشام ثم يقول بعد قليل انه من البحرين ، افلا ترى ان يستشير غيري من كهان العرب ؟

– ولكنه لم يكذبك القول يا بنية ، لقد ترك وطنه منذ اعوام وقتل ابوه وهو في الشام مع اخيه الآخر .

– واذا كان قاتل أبيه قد مات ، فماذا يفعل ؟

– يعمد الى ذرية القاتل فيثأر بقتيله ، ولاجـل هـذه الغاية قدم مكة فهو يعرف ان عدوه غيبه القبر ولهذا ولد من اشقى خلق الله .

قال صفوان: وهو من الاغنياء بفضل المال الذي سرقه من ابي يزيد. اتريدين الآن ان تذكري لنا شيئاً عنه ؟

– وهل كان ابوه يدعى ثوراً !

– كان يدعى ربيعة بن سلول ..

– اذن فاعلموا ان هذا الشقي الوارث لم يغادر مكة

فاهتز جسم صفوان وخيل اليه ان زياداً تحت رحمة ابن عبادة .

وقد صدقت ظنونه في تلك الساعة ، فهو كان واثقـاً ببقاء جبير في مسقط رأسه ، لكن بعض الشواهد ، كما قرأت كانت تكذبه .. وقد هان عليه الآن، الامر الذي استصعبه من قبل ، فمتى كان جبير في عاصمة الحجاز ، فمعنى ذلك انه لا يستطيع التخفي الى الأبد ، ولا بد من ان يرى وجهه ثم يعرف مقره .. وقد فاته ان عدوان اليمني اكثر دهاء منه ومن اصحابه وأوسع حيلة

ثم قال : وماذا يلبس ايتها الكاهنة ؟

فابتسمت قائلة : بقي عليك ان تسألني عن عـدد شعر رأسه ! انه باق في مكة وهذا يكفي .

فقال قصي : اجل هذا يكفي فلا تعد الى مثل هذا السؤال يا صفوان والآن بقي شيء آخر يا سودة .

– أيعنيك انت يا عم ؟

– نعم .

– وتحب ان تذكره الليلة ام غداً .

– بل الآن فصفوان ويزيد اخوان لي ولا اريد ان اكتمها امراً منذ الآن

قالت : ليذكر سيد كنانة ما يشاء .

قال : اتركي هذا فانا لم اصبح سيداً كما تقولين .

- واين هي الدروع التي حملتها من يثرب ؟
- ضرب عليها بالقداح فأمست ملكاً للقوم

- ومن يكون ذلك الرجل الذي يهب لفتيان قومـــه ستين درعاً في ليلة واحدة ؟ ؟ ان الذين يبذلون مالهم للناس سادة الناس .

قال : اما الذين يبذلون المال من العرب فكثيرون ..

- وجميعهم رؤساء القوم كما تعلم . قل يا عم .

- لقد فكرت في الذهاب الى الشام قبـــل سفري الى يثرب فخوفتموني بالاخطار ، أتذكرين ذلك ؟

- نعم .

- اما اليوم فسأذهب ولن أرجع عن عزمي .

- اذا كان هذا فأي شأن لي ؟

- استشيرك في الأمر .

- ان رأيي لم يتغير يا عم ، لك ان تذهب الى حيث تشاء مع طوائف العرب واما ان تفعل ذلك وحدك او مع رفيقين لك فهذا لا اسلم به .

قال : أأنتظر قدوم الحجاج من الشام ثم انتظر رجوعهم اليها ؟

- بل تنتظر رحلة الصيف التي يقوم بها قومك .

ومتى يفعلون ؟

- بعد شهرين وانت قادر على الصبر .

قال : ان الذي يحلم بالمجد لا يصبر .

- وذلك الذي يخونه الجـــلد يخونه الحظ .. اتريد يا ابن كلاب ان تموت في الصحراء ؟

- اموت ؟

- نعم وعندئذ تبلغ غاية مجدك .. وما تفعل في الشام اليوم ؟ ان العرب الذهب الى بصرى بعد شهرين فتغص اسواقها بالناس وبـــا يحملون ويكثر بينهم

البيع والشراء فيخدمك الحظ فيهـا كما خدمك في يثرب وتتم لك الغاية فيه
الذهب بين يديك .

– : واذا لم يكن الذهب وحده تلك الغاية ؟

– مهما تكن غايتك فالصبر اولى وليس لي رأي آخر .. ثم قالت :
انا اعلم انك سترى امك في الشام وتقص عليها وعلى سادة قضاعة حلمك الر...
فتراجع قصي الى الوراء وهو يقول :
احسنت يا سودة فهذا ما افكر فيه .

قالت : ولك في الشام اخوة لهم رأيهم في الامر ؟

– اجل ويستطيع هؤلاء الاخوة ان يكونوا عوناً لي فقولي لي الآن اي...
طالعي في الشام ايضاً طالع سعد ؟

فاجابته وهي هادئة : ان للسعد ملاكاً يخفق فوق رأسك جناحاه اينما ك...
انك في يثرب تشتري الدروع وفي الشام تشتري الرجال ..

فنهض عن كرسيه وهو يقول : كفى يا ابنتي فانت تعرفين كل شيء ، ثم ا...
الى يزيد وصفوان قائلاً : لننصرف الآن ولننم ملء الجفون .

* * *

لقد قرأت فيما تقدم من الفصول ، ان فاطمة ام قصي ، ولدت لربيعة بن
ولداً يدعى رزاحاً ، وان لربيعة ثلاثة بنين من امرأة أخرى هم جلهمة ، و...
ومحمود ، وهؤلاء هم الذين عنتهم سودة في قولها .

وكان قصي يفكر في الذهاب الى الشام . ليستشيرهم فيما سيقدم عليه و...
للحرب اذا اكرهته التقادير .

ورزاح بن ربيعة واخوته ، اصحاب رأي في قضاعة واصحاب وفاء .
قضاعة جميعهم كما تعلم ، رجال حرب وخواض ميادين ، فاذا آنس منهم ميل
وضع ايديهم في يده ، ورغبة في براز اعدائه يوم يدعوهم الى ذلك البراز ، ...
ما اراد وصح حلمه الذهبي ، وهو لا يريـد ان يبدأ بأمر قبل ان يشاور ،

كان واثقاً بأن قومه وان كانوا ابطـــال العرب ، لا يستطيعون على قلة عددهم وكثرة خصومه ان يثبتوا في المجال، ويستعيدوا مجد جدهم عدنان بن اسماعيل..

ولم يكن يعلم ، من الناحية الاخرى ، من يكون معه من اهـل مكة ومن يكون عليه ، هنالك بنو بكر بن عبد مناة ، حلفـاء اليمنيين ، وبنو خزاعة وبنو صوفة، اصحاب النفوذ والسلطان، ومن يتبع الفريقين من احلاف وجيران.

وقد يشترك البدو في القتال؛هذا ينتصر للبكريين والآخر للخزاعيين فتشتعل النار في مكة ثم تمتد الى بوادي تهامة ونجد. وتجيء الأوس والخزرج مع احزاب المدينة فتمتد الايدي وتستيقظ الاحقاد والاغراض .

ذلك ما كان يفكر فيه قصي ، قبل الاقدام على ذلك الحـدث العظيم الذي يغير وجه الحجاز ، ولا تهدأ ثورة نفسه،الا اذا جعل طوائف قضاعة انصاراً له.

ومن يستطيـع ان يمنعه من الذهاب الى الشام والشام في نظره سيفه القـاطع وقوته التي لا تغلب ؟ لقد كان في سره يهزأ ببني قومه عندما يحـاولون اقناعه بالبقاء في مكة ، ويستخف ما طاب له الاستخفاف ، بأولئك الذين يظنون انه يطمع بالمال وحده ، وانه يطوف في بلاد الله باحثاً عنه ، ولو عرف بعض اهل الشعاب ، ما في صدر قصي من عواطف واطماع لنظروا اليه كما ينظر الناس الى مجنون يحاول ان يطير في الفضاء ويصعد الى السماء .. ولهم في ذلك كل العذر ، لمن هو ابن كلاب الخامل الذكر ، الصغير السن الحامل من الشام العجز والفقر، حتى يجعل الحجاز مجالاً لأطماعه ثم يجعله ملكاً له ، له فيه القول الذي لا يرد ؟!

ان الجهل ونزق الصبـا ليس غير ، هما اللذان يمليان عليه ذلك الجنون ، ويكبران ذلك الخيال ..

تبع في عظمة ملكه ، والنعمان بن أمرىء القيس في صولته وعزه ، وبهرام جور ملك الملوك في نفوذه وسلطـانه اللذين ليس لهـا حد ، لا يستطيعون ان يعرضوا لمكة بسوء ، اجلالاً للبيت المقدس الذي هو بيت العرب ، وخوفاً من تلك القوى الروحية القاهرة الكامنة في الصدور ..

ولولا ذلك ، اجل لولا ذلك لمـــا تردد التبابعة في ضم الحجاز الى ملكهم الواسع ، ولمـــا كان البيت في نظر ملوك الفرس وملوك العرب جميعهم قدس الاقداس .

وصفوان نفسه ، المعجب بقصي ، والذي عاهده على الطـاعة والخضوع لم يكن يعلم من امره الا انه طماح الى العلاء ، واما كيف يبدأ طموحه فذلك ما لا يعلمه . ولا تقوم له صورة في ذهنه .

وزهرة أخوه ، امينه وحافظ سره ، يستولي الخوف والاضطراب على قلبه عند تصوره تلك الهوة الهائلة التي سيقذف بنفسه اليها يتبعه قومه .

لكنه كان يعلم ، بعض العلم لا كله ، ان ذلك الانقـــلاب الغريب الذي سيفاجىء مكة ، سيجعل قصي حاجب البيت نفسه ، طريقاً له !!

وهذا اغرب ما في الحادثات من حكمة ودهاء .

* * *

— ٤ —

تناقلت الافواه في مكة، خبر الدروع التي وهبها قصي في ذلك الليل لفتيان قومه . وتحدث الناس فقالوا :

ما لبث هذا الفتى ، الذي لم يكن شيئاً حتى ساد الشعاب .

ثم رددت النساء والغلمـان ، في القصور وفي الاكواخ ذلك الخبر الجديد ثم اختلقوا له المغازي وجعلوا له الذيول ، على عـادة الخاصة والعامة ، في الرواية والنشر .

حتى ملأ ذكر قصي ، جميع القلوب والاذهان .

فنقل عبدالله الخبر الى ليلى ، وعللها برؤيه صفوان ،

وكانت الفتاة تنتظر رجوع الحبيب ، فلما خبرها عبدالله برجوعه رقص قلبها من الفرح ، وباتت تعد ساعات الليل لتراه عند الصباح .

اما أبوها زياد ، فكان مضطرباً ، وهو لم يبح لأهل بيته بما دار بينه وبين

حليل من الحديث ، بل كتمهم امر زيارته فلم يحدثهم بشيء .

وعلى رغم البغض الذي يضمره لقصي احس بعاطفة جديدة تدفعه الى زيارة سادن الكعبة مرة أخرى ليرى قصياً ، ويلمس بيده ما نقل اليه عنه .

على ان عبدالله لا يطيق ان يكتم ليلى سراً ، فقد اعـاد عليها ما قاله زياد لحليل ولم يكتمها ايضاً ان اباها لم يكن على صواب فيما اقدم عليه .

ولا تنس ايها القارىء ، ان الكآبة ملأت قلب سادن الكعبة ، عندما خرج امير صوفة من قصره . حق انه لم يلبث حتى دعا حبى الى حجرته الخاصة وباح لها بكآبته ، فقالت له :

وأي شأن لزياد بن كعب بما تفعل ؟

قال : اما شأن الامراء فانهم يخافون ..

– ماذا ؟

قال : انهم يرون ان المحترش لا يستطيـع الاحتفاظ بحجابة البيت بعد أبيه ، كما تعلمين .

– ولكن هذه الحجابة لا تعني هؤلاء الامراء .

– اجل انمـــا هنالك اطماع لهم لا يعرفها غير سادن الكعبة نفسه ، وقد حدثتك بها من قبل .

قـالت : أعرف انهم يريدون سدانة الكعبة لانفسهم ولا يجسرون الظهور بمظهر العدو وانت حي .

– نعم وتخفق قلوبهم خوفاً وذعراً عندما يعلمون ان فتى من ابناء الشرف والعز في العرب يهم بأن يخطب حبى.. ليس لخوفهم من ان تخرج الامارة الاولى من يد خزاعة ، بل لأنهم جميعهم يريدون ان يكونوا حجاباً للبيت .

قالت : يجب ان يرضوا يا مولاي .

– وبماذا يرضون ، وانت ترين كيف يقيدوني في بيتي كأني أسير ؟!

– هنالك وسيلة للرضى لا يرفعون رؤوسهم بعدها .

– ما هي ؟

– ان تبقى حبى عذراء ما بقيت ...!

فسالت دموع الشيخ على خديه وقال : أبهذا تنصحين لي وانت امـل ابيك وقرة عينه ؟

– وكيف تسكت اطماعهم وهم كثيرون وقـد يظهرون لك العداء فتلطخ يديك بالدماء وتستهين بك العرب ؟

قال : اذا اقدمت على ما تقولين كنت عبداً .. اني ازوج ابنتي من اشاء ، ولهم علي العهد ان لا أوصي بسدانة الكعبة الا لأهل بيتي ، وغير ذلك لا افعل ولو رأيت سيوفهم تلمع في فناء البيت ..

لقد اعجبني قصي كما قلت لك من قبل ، ورضيت به صهراً اذا رضي هو ، فتى أمسيت بين يديه لم يبق هنالك مـا أخشاه ، انه اعظم من ان يستسلم الى اطماعهم ، وفي الشعاب قوم يمنعونه كما ترين ..

فهمت بالجواب فقال :

لا تراجعيني بالامر الذي ذكرت ، ولا تجعلي اباك ذليلاً في عيون قومه ، اني ماض في شأني الى النهاية وانا واثق بان ابن كلاب سيكون عند حسن ظني به ، وسيجيئني يوماً طالباً حبى زوجة له .

قالت : الم يقل لك زياد بن كعب انه يرغب في ان يراه ؟

– بلى .

– ولكن اخشى ان يحدث بين الاثنين ما يخطر بالبال .

فابتسم قائلاً : ليس هنالك ما يدعو الى مثل هـذا الظن فالواحد منهما لا يعرف الآخر ..

قالت : رأيت البغض يلمع في عيني زياد ..

– وانا قد رأيت ما تقولين غير ان هذا البغض لا ينفجر في صـدر الرجل ولا يثور ...

– وهل تريد ان يجتمع الاثنان في قصر .

– ان هذا الاجتماع احب شيء الي ، اريد ان أختبر اخلاق الرجلين وارى ما يحدث بينهما .

ثم نادى احد عبيده وقال له : عليّ بمولاك المحترش ، فلما مثل المحترش بين يديه أومأ اليه بالجلوس وقال : لقد اتعبتني الحجابة يا بني فما رأيك ؟

فجعل الأبله يحدق الى أبيه ولا يدري ماذا يقول .

اما حبى فقد عرفت ان اباها يحب ان يقرأ من جديد ، ما في نفس ولده من هزيمة وحكة ، فقالت : لقد ملّ ابي الحجابة وهو يسألك رأيك في ذلك .

فاجابها قائلاً : أيسألني الرأي في أمر لا اعرف عنه شيئاً ؟

فقال حليل: ليس ما يمنعك يا بني من ان تعرف كل شيء ، الا تعلم ان خمسين سنة مرت على ابيك وهو حاجب البيت ؟

– بلى .

– ولكن هذه الخمسين لم تترك في الصدر غير الملل والألم حتى اضطررت الى اختيار واحد من امرين . أتعرف ما هما ؟

– لا .

سأعتزل الحجابة لك يا بني او لرجل من خزاعة فاختر احدهما ..

فاطرق ملياً كأنه يفكر .. ثم قال : لك ان تختار خزاعياً فذلك أولى .

فأخفى حليل غضبه ومرارة تعسه ، وراء ابتسامة صفراء وهو يقول : أيكون الخزاعي أولى منك ؟؟

– نعم .

– لماذا ؟

– لانه يستطيع القيام بما تعهد اليه فيه ، اما انا فلست قادراً على ذلك .

قال : هذا غموض لا احب ان اسمعه .

– بل هي الصراحة مولاي ، أتظن اني اقدر على الجلوس كل يوم ، من الصباح الى المساء بباب البيت ، افتحه للناس واغلقه ؟؟

– وكيف يستطيع غيرك ان يقوم بما لا تستطيعه انت ؟

– ذلك لان غيري خلق للجلوس وانا لم اخلق له ..

– واذا اخترنا لك عصابة تشرب معها الخمر في الليل والنهار ؟؟

فاجابه وهو لا يخجل من جوابه : اذا فعلت هذا طابت لي الحجابة ووقفت بباب الكعبة الى الأبد .

فقال : احسنت يا بني انك خير الفتيان .

قال : أتريد شيئاً بعد يا مولاي ؟

– لا اريد الا ان تنصرف ...

فنهض الشقي فخرج وهو لا يعبأ بأبيه .

اما حبى فكانت تمسح دموعها وتنظر بحنو وعطف الى ذلك الشيخ البار الذي يعكر عليه اخوها صفو شيخوخته .

فالتفت اليها باسماً وقال : أتبكين يا حبّى ؟

– وكيت لا ابكي يامولاي وانا ارى اخي يمشي بخطى واسعة الى الذل والعار ؟

قال : هكذا شاء القدر فلا تعبأي بما ترين اذ لا حيلة لنا بالأمر ..

قالت : انظر الى المستقبل فأرى سحابةً سوداء ...

– اما انا فكل شيء ابيض في عيني ، ان السدانة ستبقى في يدي ما دمت قادراً على فتح الباب واغلاقه ، وعندما تجيء ساعتي ، اوصي بها لهذا الولد الذي لا يعرف نفسه ، وتشرفين انت على ما يصنع ، فتهدأ اطماع الامراء وتموت ثورتهم ...

– ولكني أضعف من ان ارده الى الهدى ، وفي مكة طائفة سوء يسمع لها ويشرب معها الخمر .

– اجل وعليك ان تحولي بينه وبين هذه .

– أنسيت اني فتاة لا حول لي ولا قوة ؟

– ونسيت انت انه سيكون لك زوج من اشراف الحجاز ؟

قالت : مسكين هذا الزوج فسيخسر كل شيء ..

قال : لا يخسر شيئاً اذا عرف كيف يداوي الجراح اسمعي يا حبى ، اني

اعلم من امر هذه الحياة ما لا تعلمين ، أتحبين قصياً ام لا ؟؟

فترددت في الجواب ، فقال : ضعي قلبك امام ابيك وبوحي بكل اسراره، ألم تري ان هذا الشامي الفقير اصلح لك من سواه ؟

قالت : يظهر لي انه خير من الفتيان الذين عرفتهم من قبل ، ولكنـه فقير كما رأيت ..

ـ لا تذكري الفقر فالرجال يعرفون كيف يصرعونه وسترين بعد قليل ان الرجل يعود من يثرب والآمال تملأ صدره .

قالت : انك تحببه اليّ يا مولاى ..

ـ وهو يستحق هذا الحب ..

فرأت أن تسكت وتتظـــاهر بالرضى ، فقالت : لقد حدثتني بامره يا ابي قبل الآن ،

ـ نعم ولكن لم اسمع رأيك الصريح فيه .

قالت : أتريد ان اعترف لك بأني احبه ؟...

ـ لا اريد الا ان تصدقيني القول .

ـ اذن فاعلم اني احببته حباً يملك عليّ مشاعري وقواي .. وأغمضت عينيها وهي تردد ذلك القول ..

فاشرق جبين ابيها وضمها بين ذراعيه قائلاً . سأعرف كيف اصون سدانـة الكعبة لنفسي وانا حي ، ولابنتي حبى وانا ميت ..

* * *

لم يذكر قصي لصفوان شيئاً عن تلك العاطفة التي يحفظها في صدره لابنة حليل ، كما ان صفوان لم يبح له بهواه .

كلاهما يكتم الآخر حبه .. كأن الاثنين لا يريدان ان يتحدثا بأمر الحب .. وكلاهما يذوب هوى وغراماً . هذا بليلى ، وهذا بحبى وبالمجد .

فلمـا انصرف كل منهما الى مضجعه ، ذكر صفوان يمينه ، وذكر قصي وعده

بزيارة حليل بعد رجوعه ، ثم رقدا على ان يسيرا ، في اليوم الثـــاني ، وراء عواطف القلبين .

ولما طلع الصباح . تهيأ الاثنان للنزول الى مكة ومعهما يزيد ، فقال قصي يظهر انك ستبدأ بالبحث مع يزيد عن قاتل ابيه .

فاجابه قائلا : ان لم افعل ذلك اليوم ، امتنع عليّ فعله بعد حين ..

– وكيف ذلك ؟

– انك ستسافر الى الشام كما تقول وقد تمكث بهـا شهوراً يختفي في اثنائها قاتل ربيعة ، فمن الرأي اذن ان نتعجل في البحث فقد نجده قبل ان نترك مكة وانت ماذا تصنع اليوم ؟

فقال دون ان يتردد : ازور سادن الكعبة .

وكان الخبر القائل ان قصياً سيخطب حبى ، قد بلغ صفوان، فقال: أتزوره لأنه كان صديق ابيك ؟...

– اجل ، وقد عرفته قبل سفرنا الى يثرب .

– وما معنى زيارتك اليوم ؟

– وعدته بالرجوع اليه ولا بد من الوفاء بالوعد .

– ومتى نجتمع يا قصي ؟

ان لم نجتمع في مكة اجتمعنا في الشعاب عند المساء .

ونزل الثلاثة .. فلما وصلوا ، مشى قصي يريد قصر حليـــل ، ودار الاثنان الآخران حول طائفة الاشجار الكبيرة القائمة وراء الكعبة، ثم تركا ذلك الموضع الى قصر زياد .

فقال يزيد :

اريد ان ازور البيت يا صفوان .

قال : لا يتسع لك مجال الزيارة الآن .

– وهل ترجع بعد قليل ؟

– سنرى اذا كنا نستطيع ذلك .

– ولكني لا ادري الى اين تذهب .

– ستعلم بعد ساعة كل شيء .

فمشى وراءه لا يقول كلمة حتى اصبحا امـــام قصر زياد ، فاستأذنا ودخلا ويزيد يرى مظاهر الشرف والرفاه في ذلك القصر ..

وكان عبدالله وليلى ينتظران صفوان . في ذلك الدهلـيز الذي رآهما فيه ليلة الوداع .. وقلب ليلى يحدثها بوصول الحبيب .. فلما رأته ، ارخت نظرها خوفاً من ان تبوح العينان ، امام رفيقه الغريب بالغرام ..

اما هو فصافحها ويده ترتجف في يدها . ثم صافح عبدالله وهو يقول : ماذا عرفت عن صاحبك يا عبدالله .؟

فنظر عبدالله الى يزيد ولم يجب ، فعرف صفوان ان الرجل لا يريد ان يقول كلمة امام من يعرفه ولا يثق به .. فقال : اين الأميران ؟

– مولاي ابو زياد في حجرته ومولاي زياد عنده ، اجلس لأدعو الاثنين .

– بل اذهب اليهما مع يزيد ، ومشياخلف عبدالله .

فرحب الاميران بالزائرين ولم يسألا عن يزيد الذي لا يعرفان .

وصفوان لم يذكره لهما ، بل قال : جئت امس وقضي عـــليّ ان ابقى في الشعاب الى اليوم .

فقال زياد : وجاء قصي بن كلاب ؟

– نعم يا مولاي ومعنا هذا الفتى الذي لا يعرف مكة بل لم يرها قبل الآن.

فابتسم زياد قائلاً : انه من اهل الشام كما أرى وقـــد لحق بقصي ، أليس كذلك ؟

– لا ، فيزيد لم ير وجه قصي الا في يثرب . وفي يـــثرب رأى وجهي وتم التعارف بين الفريقين ..

– اذن جاءنا حاجاً ..

– ان الناس لا يحجون في هذا الشهر .

– اذن جاءنا لاجئاً .

– لا يطلبه احد الملوك ليلجأ الى مكة .
– وهل يكون سائلاً ؟
– انه اعظم من ذلك يا مولاي .
قال: لقد عرفت الآن فهو ثائر .. !
– نعم ثائر ولا يموت ثأره حتى يموت ذلك الذي يطلب دمه ..
– وحتى يموت هو ..
– لا يا مولاي ، انه اذا مات قام آخر يطلب بعده بالدم الذي هرق غدراً .
فاستوى زياد في مجلسه وقال : يخيّل اليّ اني عرفت شيئاً .
– ماذا ؟
فقال لأبيه : الا تعلم يا أبي ان لربيعة بن سلول ولدين يقيمان بالشام وقد مات ربيعة ولم يرياه ؟
فأجابه الشيخ قائلاً : اعرف هذا .
فقال : ورب الكعبة ان هذا الفتى احد الولدين ..
فكفكف يزيد دموعه وقال : اصبت ايها الامير فانا يزيد بن ربيعة !
فابتسم عبدالله ابتسامة الفوز .
وتمتم الشيخ الفاظاً لم يسمع منها الا بضع كلمات هي :لقد دنت ساعة القاتل .
ثم قال زياد : اتعرف من انا يا بني .
– نعم واعرف ان ابن عبادة يحاول ان يغدر بك كما غدر ابوه بأبي .
– هكذا يقولون ولكني لا اصدق .
اما انا فاصدق كل ما يقال عنه .
– واين اخوك ؟
– قتل في حرب النعمان بن امرىء القيس .
قال : النعمان غازي العرب .. اي ورب الكعبة انه غازي العرب.. وهل نقل اليك ان ربيعة لفظ روحه في حضن حليل بن حبشية حاجب البيت ؟
– لقد خبرني صفوان كل ما يعلم عن ذلك .

– ولكنه لم يقل لك ان ابن عبادة ليس له وجود في الحجاز ...

فقال صفوان : لقد جاء دوري الآن يا مولاي .

– هـــات .

– لقد حدثت ابن ربيعة بكل ما جرى بينك وبين جبير في ميدان مكة ، ثم نقلت اليه انه استخفى بعد ذلك لايبين له اثر .

– اذا كان هذا فاي غرض ليزيد من القدوم الينا ؟

– غرضه ان يرى جبيراً فيها فيدعوه الى وليمة يعدها له في الوادي وينتهي الأمر ...

– اظن ان أمله سيضيع فالرجل قد ترك الحجاز ،

– اواثق انت يا مولاي ؟

– بعض الوثوق لا كله .

– اما انا فقد ثبت لي انه باق في مكة .!

فضحك قائلًا : لا يستطيع ان يقول لك هذا غير الذي رآه ..

– بل يقوله لي يا مولاي من لم ير احداً .

قال : ألجأت الى سحرة اليمن ؟

– لجأت الى كاهنة في قومي تعرف ما يخلق الزمان .

فقال : انك تعني سودة ابنة زهرة .

– اجل فهي التي قالت لي ذلك .

– اذا صح هذا القول فانتم بني كنانة كالآلهة تعرفون كل شيء ثم قـــال : تستعينون بالسحرة والكهان ولكن لا تجدون احـــداً ... واين هي العمامة يا صفوان ؟

– في الدهليز ،

– اتغطي وجهك في الليل والنهار ؟

– نعم وقد اترك عمامتي عندما اقضي على جبير ..

– قال : اخشى اخيرا ان تستعين بالجن ..!

ـ سأستعين بابليس لابلغ الغاية .. وقال لعبدالله : ألم تر في الايام التي مضت ما يدعو الى الريب ؟

ـ لا . وكنت ارافق مولاي في الرواح والمجيء فلا ابصر ما يبعث الظنون.

قال : لقد كنا اثنين فامسينا ثلاثة ..

ـ بل نحن اثنان فيزيد لا يعرف الرجل ليساعدنا في البحث .. وعندئـــذ دخلت ليلى تقول لابيها

بالباب احد عبيد حليل يدعوك الى مولاه .

فقال : لا يفعل حليل هذا الا ليشاورنا في امر .. ليدخل الرسول .

ثم ذكر حديثه مع سادن الكعبة فقال : بل لينصرف يا ليلى فانا لاحق به ، وقال لصفوان بهدوء : وهل باع قصي صوفه ؟

ـ نعم يا مولاي ، وفي ساعة واحدة .

ـ وما هي حكاية الدروع التي ضرب عليها بالقداح في الليل الماضي ؟

فاستغرب صفوان هذا السؤال وقال : ابلغت حكاية الدروع مكة ؟

ـ بل ملأتها وقد قصها علينا الكثيرون .

قال : الامر بسيط يا مولاي ، باع صوفه واشترى دروعا ، ثم جـــاء قومه يعطيهم اياها كما نقلوا اليك .

قال : اهو عادل كما هو جواد ؟

ـ اذا كان في الشعاب واحد يعرف العدل ويتخذه له منهاجاً فذلـك الواحد هو قصي ..

قال : يخرج قدح احدهم وعليه عشرة خطوط فيأخذ صاحبه عشر ادرع ثم يجيء آخر فيأخذ مثله او اقل منه ، وهكذا يتناول الدروع جميعها بضعة عشر رجلاً من كنانة هم اصحاب الحظ كما ترى ، اهذا هو العدل ؟

قال : لم يضربوا بقداحهم هذه المرة كما تضرب العرب ،يفوز السهم بعشرة فياخذ صاحبه درعا واحدة ليس غير حتى يفوز ستون سهما لستين فتى .

ـ وما هي غاية قصي من توزيع دروعه ؟

– غاية كل امير عربي من بذل المال .

– ولكن الدروع لا تعطى الا في ايام الحرب ...

قـال : الا تعلم ان العرب ، في الحجاز وفي غير الحجاز ، تؤثر الدروع والسيوف والخيل والنوق على الذهب ؟

– بلى ولكني اعجب لفتى يخرج الى يثرب في مال الناس ثم يهب لهم ما اشتراه بذلك بالمال .

– المال مال اخيه يا مولاي وقد ذكرت لك ذلك من قبل ،

فاستطرد زياد ولم يبال : بل اعجب لفقير لا يملك شيئاً يعطي كما تعطي الملوك ..!

– لا تعجب لشيء فنفس قصي نفس ملك ..

قال : اجل فنفسه نفس ملك .

قالها وهو هازىء .. ثم ذكر دعوة حليل ، فنهض قائلاً : خير لي ان تحدثني بأمر قصي من ان اذهب الآن الى قصر سادن الكعبة .

قال : سترى قصياً فيه ..

فتظاهر بالاستغراب قائلاً : صدق الذين قالوا انه يرغب في الزواج .. ألم يذكر لك قصي رغبته هذه ؟

– لا ولا اظن انه يفكر في هذا الأمر الآن .

– وماذا يفعل في مثل هذه الساعة ؟

– ان حاجب البيت صديق ابيه وقد وعده بزيارة اخرى يوم يعود من سفره ...

فقطب حاجبيه قائلاً : اذن اذهب فأرى ملك الشعاب وتبقى انت مع يزيد حتى ارجع .. وتناول سيفه وهمّ بالخروج .

فنهض صفوان وتبعه عبدالله ...

فقال زياد : اني بحاجة اليك يا صفوان فلا تنصرف .

– ولكني رئيس حراس الأمير وانا مكره على الذهاب معه ..

وقال عبدالله : وانا من هؤلاء الحراس ..
فابتسم قائلاً : اما الأمير فيأمر حراسه بالبقاء هنا حتى يعود .
— لك ان تأمر عبدالله يا مولاي .. اما انا فاطيعك بكل شيء الا بهذا .
قال : ما سمعت ان حارساً يعصي سيده ..
— الا صفوان بن الحارث فقد تعود العصيان ...
وقام يزيد فقال : وانا تعودته مثلك ..
فرأى زياد ان الثلاثة لا يرجعون ، فقال : أتظنون ان الذئب يكمن لي بين القصرين ؟؟
فقال صفوان : قد يكون كامناً في هذه القاعة .
— ولكني قلت لكم اني لا اخافه .
— اما نحن فنخاف وسنفعل ما يطيب لنا ..
قال : اسألكم ان تبقوا ..
— لا تسألنا شيئاً فاذا وعدناك بالبقاء كذبناك القول وسنلحق بك .
قال : اما وقد اردتم هذا فاتبعوني ، ثم قال :واما انت يا عبدالله فابق .
فلم ير عبد الله الا ان يطيع مولاه .
وخرج الثلاثة ، وصفوان يرسل النظرات الحادة من تحت عمامته لعله يرى الذئب !.
وليلى تلعن ابن عبادة الذي ينغص عليها العيش .

* * *

رأى زياد وجهاً احسن من وجه صفوان . وشاباً فتاناً فيه معاني الخلابة . فانقبضت نفسه وهاجت في صدره تلك العاطفة الغريبة التي عرفت ، وقد وثق بأن ذلك الفتى الزاهي الجبين هو قصي . وان سادن الكعبة دعاه ليراه .
فسلم وتمّ التعارف باسلوب خاص عرف به حليل في مجالسه الخاصة ، ثم قال لقد كان كلاب بن مرة صديقاً لك يا زياد كما ان ولده زهرة من اصدقائك أليس كذلك .

فاجابه زياد قائلا : اجل ايها الأمير ولكن قصياً ليس صديقاً لي .

فقال قصي : تركت مكة وانا في حضن امي ولم اعد اليها الا منذ زمن قصير كما تعلم .

ثم تركتها مرة اخرى الى يثرب كما قيل لي .

– نعم وعدت امس وكانت زيارة مولاي حاجب البيت اول واجب اقوم به بعد رجوعي ، وكان يتكلم وهو يرى في عيني زياد بريقاً غريبـاً له مغزاه .. وعلى ذلك الوجه الاسمر دلائل البغض . وهو الفتى الذكي النابغة الذي يـكاد يعرف ما في القلوب ؛ فحار في امره وبغت لما يراه . ان هذا الأمير النبيل الذي عرفه الآن يضمر له على ما ظهر ، ما يضمره العـــدو لعدوه . فرأى ان يلمس بيده ذلك البغض دون ان يشعر زياد بغرضه .

اجل وكان يستطيع ان يتبين ما يشاء في الحديث الذي يسمعه من زياد لان للبغض نغمة خاصة تنزل الى اعماق النفوس .

وكان زياد يقول : انكم معاشر كنانة اهل تجارة وعشاق اسفار . وهـــل اعجبتك يثرب ؟

قال انها البلد الطيب الذي يسوده الهدوء . ولا يعبأ أهله الا بالمال تمطرهم اياه ايدي العرب من جميع الاقطار .

– وجماعات اليهود ؟

– لم اختلط باليهود لان صوفي نفد في ساعة وما لبثت حتى رجعت الى مكة .

قال : ان التمر في يثرب احسن ما يحمل الى هنا والطلب عليه كثير ، أفلم تحمل منه أجوده لتبيعه امام البيت ؟

– لا ، اني لم اكن اعلم ذلك ولم ينصحني احد به ، ولكن سأفعل هـذا في مرة اخرى .

– كان عليك ان تشتريه بالمال الذي ربحت .

– لقد اشتريت به صنفاً آخر .

فتجاهل زياد أمر الأدرع وقال : ما هو ؟

– الدروع ..

فنظر الى حليل مستغرباً ثم قال :

– ولكنك لا تجد في مكة من يبتاع واحدة منها .

– لماذا ؟

– لان من لا يملك في مكة شيئاً يملك من الدروع اثنتين

فضحك حليل .

اما قصي فقال : لم يقم في ذهني قط ان ابيعها ..

– وكيف تفعل اذن ؟

– اهبها لفتيان قومي يا مولاي .. وهكذا فعلت .

فهزّ زياد رأسه وقدحت عيناه شرراً .

قال : ما بالك أيها الأمير ؟

قال : انظر اليك بحذر وخوف كالعدو ينظر الى عدوه في ساحة الحرب .

فأجابه هادئاً : يخيل الي اني ارى مـا تقول ولا أعلم السبب في ذلك فـهل تذكره لي ؟

قال : امـــا السبب فتعرفه انت كما أعرفه انا ، أتهب الدروع لقومك ثم تسألني عنه .

– وهل يكفر بالاصنام من يفعل ذلك ؟

– لا ولكنه يدل الناس على نفسه ويبعث الريب الى الصدور .

– ومع ذلك فانا يا مولاي الأمير لا افهم ما تقول.

قال : سأحدثك بجلاء فتفهم كل شيء ، قل لي يا قصي أليس الغرض مـــن الدروع ان تسلح قومك ؟

فقال في نفسه : انه أبعد الناس نظراً . ثم قال :

اعلم أيها الأمير إني قدمت مكة وأنا لا أملك شيئاً

– أعرف ذلك .

– ثم خرجت في مال أخي زهرة الى يثرب فخدمني الحظ.

– وأعرف هذا أيضاً

– وقد كرهت ان اعود الى الشعاب وانا لا احمل لقومي ما اهبه لهم فجئتهم بالدروع ..

– نعم ، وغداً تحمل اليهم من اليمن طائفة من السيوف ثم تقول إنها بعض هباتك ..

قال : ليس عندي من المال ما أعطيهم اياه .

قال : والفقراء لايعطون الناس ..

– رأيتهم يكرمون وفادتي ، وأنا الغريب عنهم ، ففعلت ... وكتم غيظه وصدره يكاد ينفجر ...

فقال زياد : حسبناك رسول أحد الملوك الفاتحين الطامعين بالحجـــاز .

فارتجفت شفتاه ولم يجب .

واستطرد الأمير قائلاً : وخيل إلينا أنه أعطاك بعض ماله لتهيء له أسباب الحرب وتشتري له الرجال ... وتلك صفقة رابحة يا قصي ، فإن ذلك الملك ، عندما يتم له الفتح ، يوليك امر مكة ويجعلك عاملاً له تقوم بأمر البيت وتجبي له الخراج ...

فقال : والأميران ينظران الى اضطرابه : وبعد ذلك ?..

– يستقيم لك الأمر بعد ذلك فتصبح يا ابن كلاب سيد الحجاز وتمسي لك نحن الأمراء عبيداً !!

وحليل ساكت لا يقول كلمة ، ولكنه يبتسم ..

فلم يخرج قصي عن حده ، ولم يفارقه الهدوء ، بل قال :

أنسيت أني حجازي أيها الأمير ?

– لم أنس ذلك وإن كنت نشأت في الشام ..

– ونسيت أني من أشراف مكة ..

– اذكر دائماً أنك من كنانة ..

فلمعت عيناه وهو يقول : اذا كنت تذكر هذا هان عليك أن تعلم أني لا

أخون الحجاز ..

قال و ذلك قول لاينطبق على فتى مثلك يرى الحياة كلها أحلاماً ومنى .

قال : ليست القضية قضية عمر بل قضية شرف :

فدوت في القاعة ضحكة زياد . ضحكة استخفاف اهتز لهـــا جسم قصي واسود جبينه .. ان تلك المظاهر مظاهر عداء لا شك فيه وصدر الفتى لايتسع لأكثر من هذا .. وكاد يحدث الانفجار لو لم يكن هنالك بقية من الحلم ، فقال :

اراك تستخف بي يا مولاى كأنك تريد ان تهدم هذا التعارف الذي جرى بيننا الان

قال : وهل تتردد في قبول الولاية اذا عرضها عليك ملك ؟

قال : لو عرضت عليّ الجنة لما رضيت ، ان الفتى النبيل يبني مجده بيده اذا كانت نفسه تطمح الى المجد ، وابن كنانة لا يتآمر مع الغريب على قومه ولو كان من وراء ذلك عرش » ومن هو هذا الملك العربي الطامع ان لم يكن النعمان بن امرىء القيس ؟ أهو الذي تعني ؟

– انت ادرى بالجواب ..

قال : لقد اخطأت في ظنك ايها الأمير فليس هنالك ملوك فاتحون ولم اكن قط رسول احد ..

– اذن فالدروع هي لغرض اخر ..

فوضع يده على صدره كأنه يضغط ذلك الشعور الغريب الذي احس به ثم قال :

اجل ايها الأمير وانا اصف لك هذا الغرض .

– ونحن نصغي اليك ..

قال : اما غرضي فهو ان املأ الشعاب سيوفاً ودروعاً واجعل قومي أمنع اهل الحجاز ..

– ثم تفعل ماذا ؟

– ثم اغير على الكعبة فأبارز اميرها حليل بن حبشية وانحيه عن الامارة ،

ويتصدى لي غيره من الأمراء ، مثلك يا زياد ، فاصرعهم بالسيف واحداً بعد واحد ، وتخضع لي خزاعة وصوفة وبكر ويصبح امر الحجاز بأيدي قومي آل كنانة وينقضي كل شيء .

والتفت الى حليل والابتسامة على شفتيه .

فقال زياد : رحمة يا ابن كلاب ولا تجر على الأمير الذي يخاطبك الآن

فاجابه وهو يتكلف المـــزاح مثله : لا اراك تستحق الرحمة فقد جاهرتني بالعداوة منذ الساعة .

قال : اذن يجب ان نتهيأ لقتالك ...

– افعل ما يطيب لك فانا لا احارب اليوم احداً ..!

قال : انصح لك بالسفر الى اليمن لتحمل سيوفها ..

– اذهب هذه المرة الى الشام ففيها يصنعون الاسنة من الفولاذ .

– ومن يكون معك من قومك ؟

– اذا تركنا المزاح قلت لك اني لا اعـلم فقد يقوم قومي جميعهم برحلة الى بصرى فأسير معهم.

فرأى زياد ان يكف عن ذلك التحدي الذي لم يبق له ما يبرره ، وعمد الى اسلوب آخر فقال :

افلم يكن صفوان بن الحارث رفيقاً لك الى يثرب .

– بلى ، وصفوان خير النبلاء .

فجعل ينظر الى جانبيه لعله يرى حبى ، فلم يرها

فقال : سمعت ان هذا الفتى يطلب فتاة تكون زوجة له

– ما سمعت هذا قط يا مولاي .

– بل ذهب الى يثرب ليرى تلك الفتاة التي لا تصلح له ..

– وهذا ايضاً لا علم لي به .

– وقيل لي انك انت نفسك تبحث عما يبحث عنه صفوان

فاجابه الداهية بمثل لهجته قائلاً :

اما هذا فصحيح ولكني لم اجد تلك الزوجة بعد ..

قال : ومن اصعب الامور على من كان مثلك ان يجدها بين نساء قومه وكان عليك ان تطلبها في قصور الملوك ..

– لقد طلبتها في الحجاز فلم تشأ احدى نسائه ان تزف الى فقير صعلوك يدعى قصي بن كلاب . ثم قال : والآن ارجو منك ايها الأمير ان تكتفي بما ذكرت فقد أنف مولاي سادن الكعبة مما سمع ..

فأومأ حليل الى زياد بالسكوت وقال : اجل ، لقد انتهينا من هذا الآن وعلى قصي ان يحدثنا بما رآه عند الأوس والخزرج ، قل يا قصي من رأيت من رؤساء يثرب ؟

– لم ار يا مولاى غير رئيس واحد وهو الجلاح الأوسي

فحنى رأسه قائلا : نعم انه رئيس قومه وبطلهم وحامي ذمارهم وله في يثرب حصن تعرفه العرب

قال : يبدو لك ذلك يا مولاي من كثرة الناس الذين يقومون حول قصره وفي بيوت ضيافته ..

– وهو صاحب الدروع في يثرب وقد كان ابوه مثله .

– وعنده منها ما يكفي اهل مكة ..

قال : اسألك سؤالا هو غير السوأل الذي وجهه اليك زياد .. ما الذي اردته من شراء الدروع ؟

قال : لو وزعت المال الذي اشتريتها به على قومي لما اصاب الواحد منهم ما يكفيه يومه ، فعمدت الى الدروع فجعلتها هديتي الأولى لقاء ما احاطوني به من عناية واحسان،افلم اكن مصيباً فيما فعلت يا مولاي ؟

– ليس للناس رأي فيما تفعل مع قومك وزياد يحب المزاح كما رأيت ،أجاد انت في قولك انك ذاهب الى الشام ؟

– نعم يا مولاي ،

– اذن ليس لك سبيل الى السفر الآن !

– بعد شهرين يوم تقوم كنانة برحلة الصيف .
– وماذا اعددت لها بعد رجوعك ؟
– اعد ماذا ؟
– ماذا اعددت لكنانة من تحف الشام .
– لا اعلم ماذا احمل منها فقد يخونني الحظ .
– ارى ان المال الذي تنتظره سيذهب كله لبني قومك وستبقى بدون مال.
– ذلك خير من ان يجتمع لدي مال العالم ولا يكون لقومي نصيب به .
قال : اخشى ان تكون الهبة في المرة الثانية رماحاً كما قلت.
– ويغضب امير صوفة ويعد عدة الحرب ...

فقال زياد لخليل : اني لم اكن هازلاً يا مولاي الأمير فيما ذكرت ، فابن كلاب لا يسلح اهل الشعاب الا لأمر وقد عرفت اليوم ان قومه يطيعونه حتى انهم يعدونه سيداً لهم وهم يعلمون انه الضعيف الذي ليس في يده شيء.

فأجابه قصي قائلاً : وهذا معناه ان المال وحده لايسود صاحبه ، ثم قال : أراك تعود الى البحث عن أمر لا وجود له أيها الأمير . أتظن أن الحرب رحلة إلى يثرب ام رأيت أني ملك له قوته وعظمته وقد زحفت من الشام الى مكة أريد أن أجعلها أنقاضاً ؟؟ قل لي يا أمير صوفة ما الذي دعاك الى القول اني رجل حرب ؟ الحصون التي تبنيها كنانة فوق مكة ام الجنود التي تملأ الجبل والسهول ؟؟.. انك لم تر شيئاً من هذا بل سمعت ان ستين درعاً اعطاها قصي لفتيان قومه اعترافاً بعنايتهم به وعطفهم عليه فخيل اليك ان وراء كل درع مئة رجل يحملون السيوف وتدوي اصوات ثورتهم في الفضاء .

قال : لو رأينا شيئاً من هذا لما خطر ببالنا ان نسألك عنه ، ولكن رأينا نفساً تريد ان تصعد الى القمة وذلك الصعود لايتم لها الا اذا لجأت الى السيف ..
– وماذا اعددت لهذه النفس الطامحة أيها الأمير ؟
– السلاح المشحوذ والرجال الذين يطيب لهم الموت في ساحات الوغى .
– ولم يبق عليك الا الصبر حتى ترى طلائع الجيش ..

– اجل ، وسيكون دمك ثمناً لطموح نفسك .

فلم يعلم قصي كيف يفسر مظاهر هذا العداء .. ان أمير صوفة صريح جداً حتى انه جاهر بالعداوة ولم يبال ، وقد ثبت لابن كلاب انه ادهى امراء مكة واكثرهم حكمة وابعدهم نظراً . ولكن ، كان عليه وهو الداهية ، ان يظهر اللين بدلاً من الشدة . ويخفي بغضه الذي قامت عليه الشواهد ، وراء مظاهر الرضى والحب ..

كذلك لم يستطع قصي ان يفسر سكوت سادن الكعبة وهو يرى صدر زياد كالبركان يقذف النار .. فنهض وهو يقول :

ليأذن لي مولاي في الانصراف .

فقال حليل : بل تبقى يا قصي فلي حاجة اليك .

قال : أتطيق يا مولاي ان ترى في مجلسك رجلاً يريد ان يسلبك الحجابة ويسلب أمراء مكة ما يملكون ؟

قال : لم يقم في ذهناً قط انك تفكر في هذا .

– واذا فكرت فيه ، فهل يقوم في ذهن احد اني قادر عليه ؟

– قد تكون في نظر زياد قادراً على ذلك ...

قالها وجعل يضحك ...

فقال زياد : يهم المرء ان يعلم ان فلاناً عدو له وليس عليه ان ينظر في غير ذلك ...

فأجابه قصي قائلاً : اتريد ان تفعل ، بل انا اقسم لك اني لست عدواً .

– لا أريد ان تفعل ، بل انا اقسم لك برب الكعبة اني عدو لك .

وظهر البغض بمظهره الرائع على وجهه وفي عينيه .

فقال قصي ولم يتردد :

ليكن ما تشاء فقد بدأنا الآن ان نكون عدوين .

ولكن سادن الكعبة لم يرد ان يسكت بعد ، فقال لزياد : لقد فكرت الآن في أمر اسألك رأيك فيه ..

قال : سل أيها الأمير .

قال : أتؤثر ان نعيش العمر كله في واد تكتنفه الجبال كما يعيش الليث في الغصبه ام تريد ان نمد رواق ملكنا فوق الأقطار التي يسودهـــا غيرنا من ملوك الفرس وملوك العرب ؟؟

قال : لا خير في رجل يؤثر الخمول على الظهور والضعف على القوة ..

قال : الا ترى انه لا حياة لنا في مكة اذا ارادها الحجاج ؟

– ارى ذلك .

– واذا اجدبت ارض العرب ولم يحج الناس ؟

– احست مكة بالضيق واخذت نصيبها من هذا الجدب .

– اذن علينا ان نخرج من هذا الوادي ..

– الى أين ؟

– الى الحياة الحرة لا يمن بها علينا احد .

– احلف برأس أبي أني ما فهمت شيئاً ..

قال : نخرج من مكة على رأس جيش فيه فرسان الحجاز وابطاله فنخضع كل بلد ترتفع فوقه اعلام الفرس واعلام تبع ثم نزحف الى العراق فنستولي على الحيرة ونطرد النعمان من عاصمة ملكه .

فابتسم قائلاً : اكاد لا اصدق ما أسمع .. احاجب البيت نفسه هو الذي يقص عليّ هذا الحلم ؟؟

– اجل حاجب البيت نفسه هو الذي يحدثك بمايجول في صدره . ان العرب جميعها تعترف بالكعبة وتظهر الخضوع لصاحبها ولكن صاحبها لا يملك منأرض العرب شبراً ولا يقوم له في اقليم من اقاليم الجزيرة ذكر .

قال : ايخرج حليل بن حبشية من مكة غازياً .

– نعم واراك مستغرباً ، اني اعيد عليك ما قلته الآن ، اخضع مـــا يجاور الحجاز من الجزيرة ثم احطم عرش العراق كما قلت وقد أتوسع في الفتح فأدفع الخيل الى بلاد بهرام جور ثم لا اعلم بعد ذلك الى اين ينتهي بي جوادي الجامح .

– اذن يمسي أمير مكة ملك العالم الذي نعرفه !!.

– أحسنت ولا يمنعني من ذلك شيء .. فقل لي يا زياد ما هو عدد الجند الذي تقوده يوم نشهر السيف على من ذكرت ؟

فأجابه والابتسامة لاتفارق شفتيه :

الف رجل هم سادة الميادين .

– وبنو بكر بن عبد مناة ؟

– أكثر من الف ..

– ثم نجمع اطراف خزاعة ومن والاها من العرب فيصبح الجيش ستة الاف نغزو بهم الجن .. ثم قال : وانت يا قصي أتعرف عدد قومك ؟

قال : لم أكن قط سيد قومي لأعرف أبطالهم .

فقال زياد : اجعلهم الفين يا مولاي .

قال : نعم .. نعم .. ثمانية آلاف رجل عدد كاف لا يستهان به ، وقد تتبعنا قبائـــل كثيرة تخرج على ساداتها فنمشي شرقاً وغرباً ، وجنوباً وشمالاً ويمشي أمامنا النصر ..

فقهقه ضاحكا وهو يقول : واي تاج يكون لي ؟

– اختر احدها .

قال : ألبس تاج العراق وتلبس أنت تاج الفرس ثم تبعث آخر فيجلس على عرش اليمن وينتهي الأمر .

قال : أتهزأ ؟

– ومن لا يهزأ عندما يسمع هذا القول الذي يشبه أقاصيص النساء ؟

– انه قول ستكرهك الأيام على الوثوق به .

– ولكني لا أثق بالأحلام ..

– بل تفعل عندما ترى التيجان تهوي الى الأرض تحت ضربات أهل الحجاز والملوك تحني رؤوسها أمام الفاتحين .

وكان قصي قـــد عرف الغاية من حديث حليل فلم يبدُ على وجهه ما يدل

هل الاستغراب .

ثم قال حليل : متى تنفخ بين رجالك في بوق الحرب يا زياد ؟

– وهل جنّ زياد بن كعب حتى يقذف برجاله الى الموت ؟

– انك تدفعهم الى المجد الذي ينتظرهم خارج الحجاز .

– ليتمتع مولاي حاجب البيت وحده بثمار هذا المجد ..

– الا تزحف مع الجيش ؟

– لا يا مولاي .

– ومن يصدق ان زياداً امير صوفة صاحب المفاخر والمحامد في مكة يستسلم الى الخوف ؟

– ومن يصدق ان سادن الكعبة يريد ان يستأثر بتــاج الفرس وتاج العراق بثمانية آلاف رجل ؟؟

فقال : ذلك الذي يصدق ان قصي بن كلاب يريد ان يستولي على مكة بستين درعاً من دروع الجلاح .

فأطرق زياد ولم يجب .

قال : وما هو رأيك الآن ايها الامير ؟

– ليس لي رأي الا اني عندما ارى قصياً ارى رجلا لا ترتاح الى رؤيته نفسي.

فقال قصي : لقد تعاهدنا على العــداء وانقضى كل شيء .. ولكن لا تنس ان قصياً لا يطمح بحجابة البيت الا عندما يطمع زياد بن كعب بعرش النعمان ..

فأومأ حليل الى الاثنين بالسكوت ..

وكانت عيونهما ترسل السهام الحادة والواحـــد منهما لا يعرف لماذا يبغض الآخر .

وذلك سر تحيّر علماء النفس في تفسيره ، كما تعلم .

وعندما نهض زياد يهمّ بالخروج ، وقف حليل وقـــال لهما : اقسما انكما لا تبوحان لأحد بما جرى ؟

فا قسمابمن بنى الكعبة وخرج زياد .

* * *

ما رأيت اغرب ممـا رأيت الآن يا مولاي .. رجل لا يعرفني ولا اعرفه ·
ولم ار له من قبـل وجهاً ، يرسل اليّ من الفاظه ومن عينيه ما لا يطيقه الأد
ويجاهرني بالعداوة كأني قتلت أباه !!. ورب الكعبة لا اعلم ماذا يضمره لي ه،
الرجل وليس هنالك من يعلم ماذا يحدث بيني وبينه. فهل الك يا مولاي ان تد.،
لي وتحدثني بما تعرف عنه ؟

فقال حليل في نفسه : سأقرأ الآن ما في نفس الفتى من آمال واسرار .
قال : سأحدثك بكل ما أعلم فلا تعبأ بما رأيت وسمعت ، ان زياداً لا يخشى ا
تقود الجيوش لتستولي على مكة كما قال لك ..

– ما الذي يخشاه اذن.؟

قال : في مكة اشاعة قائلة ان قصياً خطب حبى ابنة حليل ..

– انا ؟

– نعم انت ورددتها الافواه حتى خيل الى الناس انها اشاعة صادقة وار
الخطبة قد تمت .

– ومتى كان ذلك يا مولاي ؟

– بعد ذهابك الى يثرب ، وقـــد جاءني زياد يطلب اليّ ان اطلعه على .
جرى بيني وبينك من أمر الخطبة .

قال : لي كلمة يا مولاي .

– قل ..

– اية صلة بين هذه الخطبة وبين ما اسألك عنه .

– سترى انها كانت الباعث لهـذا البغض الذي قرأته الساعة في عيني زيـا
ابن كعب ...

– وكيف ذلك ؟

– ان الامراء لا يريدون ان تزف حبّى الى رجل ليس من قومهم أتعلم لماذا

- لماذا ؟
- لانهم يرون ان حجابة البيت تخرج من ايديهم .
- وهذا ايضاً يا مولاي من اغرب ما سمعت .
- ولكن هذا الاستغراب يزول عندما تعلم ان سدانة الكعبه ستفضي بعد حليل الى المحترش ، وان المحترش لا يستطيع ان يقوم بها الا اذا كانت يد حبى في يده ..

فتظاهر قصي بالتفكير .

اما حليل فاستطرد قائلاً : فاذا ارادوا ان تكون حبى لهم، فلأنهم يريدون الحجابة ليس غير .. وكيف يطيقون ان يروا قصياً وهو من كنانة ، جالساً في كرسي حليل بن حبشية وهو زعيم خزاعة .

قال : لقد فهمت الآن .

قال : بقي شيء آخر لم تفهمه هو انك لو لم تكن من كنانة لما خطر ببالهم ان يسألوا سادن الكعبة عن مصير ابنته .

- يخيل اليّ انهم يخافون أهل الشعاب .
- نعم وهم يخشون ان يكونوا عوناً لزوج حبى الذي هو منهم فيخسروا الحجابة .
- ولكنهم اكثر عدداً من أهل الشعاب يا مولاي .

قال : ان لم يخسروها تعبوا في حفظها لهم لان قومك يا قصي اشداء تخشاهم العرب .

- اذن لو جاءك رجل من تهامة او من نجد وطلب ان تكون حبى زوجة له لما عرضوا له .
- لا .

فوضع رأسه بين يديه كأن سهماً اصاب قلبه .. وقد جاء الآن دور الدهاء الذي كان يمثله حاجب البيت .

فقال حليل : في اي شيء تفكر يا بني ؟

– افكر في امري يا مولاي .

– ولكن ارجو ان تذكر لي هذا الأمر ..

قال : لقد اذلني زياد بن كعب .

– واي ذل هذا ؟

– أليس هو الذي قصّ عليك ما ذكرته لي ؟

– بلى ، ولاجل ذلك رأيتني الآن ساكتاً .

قال : وقد استخف بك يا مولاي عندما سألك عن الخطبة ..

– انه خائف كما قلت .

– ولكن كان عليه ان يعلم ان سادن الكعبة اعظم من ان يرضى بقد[illegible] ابن كلاب زوجاً لابنته .

قال : ذلك هو الخطاء كله يا بني ، ان قصياً حفيد اسماعيل وحاجب البـ[illegible] ليس اشرف نسباً منه !!

– و الفقر ؟

– اما الفقر فلا افكر فيه ، يولد المرء فقيراً فيصبح ذا مال ، ويولد [illegible] فيخسر ماله ، ولا يستطيع الزمان في الحالين ، ان ينال من شرفه ونبالة [illegible]

قال : ارى مولاي الأمير يبعث الامل الى هذا الصدر ...

– بماذا ؟

– بهذا القول الذي اسمعه منه ، أترفض يا مولاي فتيان العرب وترضى [illegible] كلاب ، الذي نشأ بعيداً عن قومه وضيّع زهرة عمره في ربوع الشام ؟؟

قال : لقد اظهرت لك امري فظن ما تشاء .

قال : اخشى ان اثب وثبة الى العلاء فاسقط في الهوة واخسر أملي [illegible] الابد .

– بل تستوي في المكان الذي ترغب فيه.

قال : واراك تدفعني بيديك يامولاي الى الامام .

– ذلك لاني عرفت اي فتى انت ...

فلم يبق الا ان يقول قصي كلمته ، فأطرق ملياً ثم قال : اتعدني يا مولاي ان حبّى ستكون لي ؟

فاجابه برصانة الشيوخ وهدوئهم قائلاً : اعد ان حبّى لا تكون الا لك

فطبع على يده قبلة الشكر وهو يقول : وانا اقسم برب الكعبة اني سأكون لك ابرّ من ولدك .، ثم قال : ولكني يا مولاي لا اتزوج اليوم ،.

قال : لا اسألك عن اليوم الذي تتزوج فيه ، بل اسألك عـن السبب الذي يدعوك الى تأخيره ..

قال : لا امدّ يديّ الى حبّى قبل ان املأهما مالاً .

قال : اعطيك من المال ما تشاء .

– لا ارضى يامولاي بان اخذ من أحد درهماً ،، تلك يمين حلفتها قبـــل قدومي من الشام . نعم . وسأطوف في الشرق والغرب حتى اصبح اهلاً لحبّى وحتى لا تقول العرب ان سادن الكعبة وهب ماله لقصي بن كلاب وزوجـــه ابنته ...

- ومن يقول للعرب اني وهبت لك هذا المال .

– جميع من في الحجاز يعرفون اني فقير لا أملك درهما ومن العار على اعظم امراء هذا القطر ان يزف ابنته الى الفتى العاجز الباسط يديه طالباً عطاياالناس

فدمعت عينا حليل ،

ثم قال قصي ، ولي كلمة اخرى يامولاي.

– ما هي ؟

– اوثر ان أسمع من فم حبى كلمة الرضى أتريد هذا ؟

فنهض دون ان يجيب ، واتجه الى الباب قائلاً لعبده : ادعـو مولاتك حبى الساعة .

وكانت الفتاة في حجرتها التي تجاور تلك القاعة وهي تسمع كل مايدور فيها من الاحاديث ، فدخلت والخجل يعقد لسانها ، واحمرار خدّيها يبوح بما في القلب من غرام مذيب ، فقال لها ابوها : أتعلمين لماذا دعوتك اليّ .

فكرهت ان تعترف بانها سمعت حديث الاثنين كما انها كرهت ان تكذب ، فقالت :

يخيّل اليّ يا مولاي اني أعلم ..

– اذن حدثينا بما تعلمين .

قالت : ليكن مولاي البادىء بهذا الحديث فهو به أولى .

وأرخت عينيها لا تنظر الى قصي .

فعرف الرجلان انها تؤثر السكوت . فقال حليل : لقد رأيت قصياً في هذه القاعة قبل ان يذهب الى يثرب أليس كذلك ؟

– نعم يا مولاي .

– وعرفت انه ابن كلاب اشرف أهل الشعاب نسباً .

– نعم يا مولاي .

– وانه لا يملك من أسباب الجاه غير هذا النسب .

فحنت رأسها ، فقال : ولكنك لا تعلمين انه يرغب في الزواج .

– اما الآن فقد علمت ..

– اذا كان هذا فقولي لي أتريدين ان تصيري زوجة له .

فرفعت نظرها عندئذٍ وهي تقول :

ليس لي ان أريد يا مولاي بل عليّ ان أطيع .

قال : ألا تذكرين اولئك الفتيان الذين سألونا من قبل ما يسألنا اياه قصي الآن .

– أذكرهم جميعاً .

– ولماذا لم يرضَ ابوك بان يكون احدهم زوجاً لك ؟

– لان حبى لم ترضَ ..

– اذن أسألك ان تظهري الرفض او الرضى قبل ان تظهري الطاعة فسادن الكعبة لا يزفّ حبى الا الى من تحب ، أتريدين قصياً ؟ قولي نعم او لا .

فترددت في الجواب ، كما يتردّد في مثل هذا الموقف ، جميع العذارى ولو

اذابهنّ الحب . ثم قالت : اذا كان لا بدّ من الزواج فقد رضيت .

فابتسم قصي ابتسامة النصر وقال :

ولكن لا مال لي ..

قالت لقد رأيت مالاً كثيراً فلم أعبأ به .

– وليس لي منزل الجأ اليه غير منزل زهرة .

قالت : ليس أحب اليّ من الاقامة بمضرب من الصوف تصفر الريـح في جانبيـه .

– وتتركين العيش في القصور لتعيشي معي كما يعيش أهل البادية ؟

- أترك كل شيء لانضم الى رجل يرعى الحرمات .

فنهض فقبّل يد حليل وهو يقول : لقد شرفتني يا مولاي عندما اردت ان تجعلني ولداً لك .

قال : ليبارككما هبل ولتسبغ عليكما السماء النعم ، اجلس يا بني ولننظر في أمر الزواج .

قال : أتريد يا مولاي ان تجعل له موعداً ؟

– أجل وعلينا ان نكتم جميع الناس مـا دار بيننـا الآن حتى يجيء ذلك الموعد ؟

فابتسم قائلاً : اما الكتمان فلا بدّ منه ، خوفـاً من ان يشهر علينا الحرب زياد بن كعب ...

فضحك قائلا : ليشهر علينا الحرب جميع الامراء فنحن لا نبالي ولكن نحب ان ندعوهم فجاةً الى حفلة الزواج فتسكت اصواتهم ..

- وبنو كنانة يا مولاي ؟

ماذا تريد من هؤلاء ؟

- أأكتمهم امر زواجي وهم قومي ؟

– أجل كما نكتم نحن بني خزاعة هذا الأمر وهم قومنا ، ثم قال : متى يكون زواجـك ؟

- لا اعلم الآن فقد امكث بضعة اشهر في ربوع الشام .

- ثم تعود منها على أمل الذهاب الى اليمن وقد تمكث فيها بضعة اعوام ... ما ترى ... انك كثير الاسفار يا قصي .

- نعم ولو كان عندي من المال ما يكفيني لطابت لي الاقامة بمكة لا اغادرها الا الى القبر .

- اراك تعود الى ذكر المال كأنه ، في نظرك مفتاح الجنة .

- بل هو عرض لا قيمة له لولا الحـــاجة اليه ، أتريد يا مولاي ان يقول العرب : لقد جعـــل سادن الكعبة ابنته حبى بين يدي رجل لا يملك درهما انك اذن تذل حبى وانت لا تعلم .. ومع ذلك فسيكون زواجي بعد رجوعي من الشام .

قال : كأنك واثق بان المال ينتظرك في بصرى ..

- اجل ويخيل اليّ اني سأستطيع ان اجعـــل مهر حبى كالمهور التي تدفع لبنات الملوك .

واذا خانك الحظ هذه المرة يا بني ؟

ارجع خائب الآمال صفر اليدين واطرح بهذا القلب الخفـــاق بين يدي الفتاة التي احببت فتفعل ما تشاء .. والآن فأرجو ان تقول لي : لقد زوجتك .

فأومأ حليل الى حبى فنهضت ونهض الفتى ، ثم تصافحا وحليـــل يقول : أقسم برب الكعبة ان حبى لا تزف الا اليك . ولكي يظهر لقصي وثوقـــه تناول مفاتيح الباب ، باب البيت وخرج قائلاً له : نحن ذاهبون الآن فقص على حبى ما يطيب لك من احاديث القلب ..

* * *

- ٥ -

مرت ساعة والخطيبان ساكتان . ولكنهما يتخاطبان بلغة العيون .. وقد بسط الحب فوقهما جناحيه ، وملكتهما روعة الهوى ..

وكان قصي في جميع مواقفه ، الا مواقف الطموح والسياسة ، حراً صريح القول كما رأيت ، لايخفي ما في صدره من عاطفة وشعور ولا يطيق ان يكتمه جليسه عاطفته وشعوره .

وهو مع حبى في تلك الساعة ، ولا ثالث بينهما ، وقد رأى الأقدار تمهد له سبيل الوصول الى غرضه ، والزمان يبتسم له . وقد وضع قدمه في الموضع الذي اراد صاعداً الى سماء مجده .. فابتسم لاحلامه وقال :

حبى .! اني اخشى ان يستولي عليكِ الندم بعد حين .

قالت : لماذا ؟

– لأنك استسلمت الى ارادة ابيك في امر الزواج .

فاجابته قائلة دون تردد :

بل استسلمت الى أمر آخر لا اندم بعده ..

– ما هو ؟

– هو الحب ..

قال : ومن يصدق انك تحبينني وانت لا تعرفين من انا ؟

قالت : ذلك الذي رأى بعينيه ، اني رفضت فتيان قومي لأكون لك، انك تريد ان اكون البادئة بالأعتراف بحبي وقد فعلت .

– ومتى اخترقت هذا القلب اشعة الحب ؟

– يوم ارسلتها عيناك وانت مع اخيك زهرة وراء وفود العرب في طريقها الى البيت ..

قال : أفيبنى الحب على شعاع طائش لا يعرف صاحبه ؟

– اجل واعذب حب ذلك الذي تفضحه العينان .

– اما انا فلم يخطر لي خاطر الحب يوم رأيتك على شرفة هذا القصر.

– واليوم ؟

– واما اليوم فقد اردت أن اصير صهراً لسادن الكعبة ليس غير..

– اذن صدق زياد بن كعب فيما ذكره منذ ايام

-- وماذا قال زياد ؟

– قال انك اذا سألت حاجب البيت ان يزوجك حبى فلأنك تطمع بان تكون حجابة البيت لك بعد موته .

قال : لقـــد خبرني ابوك بهذا ، ولكن قولي لي : أتريدين قصياً اذا كان الحجابة غايةً له ؟

– اذا لم يكن في صدر قصي شيء من الحب فلا خير فيه .

– وكيف رضيتِ الآن .

– لم ارض الا لأني واثقة بان قلبك يشتعل غراماً ..

– ومن دلك على هذا ؟

-- انت ..

– مع ان هذا الصدر لايتسع للغرام .. اني يا حبى مشغوف بالامجاد

قالت : وانت تعلم ان الحصول على حبى مجد لك ، افلا تريد الآن انتعترف بهواك ؟

فقال : بل لا يلذ لي إلا ان اعترف بهذا الهوى،انكِ ياحبى امل قصي وبهجة نفسه .. ولا ازيد الآن شيئاً على هذا ..

واطرق قليلاً ثم قال : ولكني افكر في هؤلاء الامراء الذين يملون اغراضهم وأهواءهم على سادن الكعبة .

قالت : خير لك ان تفكر في أمر واحد هو ان هؤلاء الذين ذكرت لا يجسرون على ان يرفعوا اصواتهم عندما يغضب حليل .. لقد قلت الآن انك ستمكث في بلاد الشام بضعة اشهر ، أصحيح هذا ؟

– نعم

– ولكن ألا تعلم ان في مكة قلباً لايطيق ان تبتعد عنه ؟

قال : لا تحدثيني بهذا ايتها الحبيبة فانا لا اقدم على السفر لو لم اكن مكرهاً عليه ، اسمعي يا حبى ، أليس حليل بن حبشية هو اعظم امراء الحجاز ؟

– بلى

- اذن فاعلمي اني اريد ان اصارع الاقـدار وأبارز الزمان ليساويني به ..
لعم ليساويني به ..
- في اي شيء ؟
- في المال ، والنفوذ .. والسلطان ، وفي كل شيء
فأدركت حبى مغزى ذلك القول فابتسمت قائلة : ثم تتزوج بعد ذلك ؟
فضحك بدوره وهو يقول : بل اتزوج بعد الرجوع من السفر كما وعدت ثم أخوض مجال الجهاد لأبلغ الغـاية واجعل زوجتي سيدة نساء العرب وملكتهن جميعا .
فرأت حبى ان اباها كان مصيباً فيا ذكره عـن قصي ، وان نفس الفتى الكبيرة لاتقف عند حد ، فقالت :
وهذه الزوجة التي ستجعلها سيدة النساء ستكون عوناً لك .
قالت هذا لتثبت له انها تكاد تلمس ما في صدره من اسرار ..
فعمد الى صراحته فقال : وتساعدينني في كل ما أفعل؟
- وهل تشك في ذلك يا قصي ؟ اني اعلم ما أقول ولا خير في زوجة لاتهيء لرجلها جميع اسباب المجد ..
- ولكني كثير الاطماع وستكتنفني الاخطار ..
قالت : هكذا يجب ان تكون فانا أكره الخاملين ..
قال : بقي شيء آخر لم يخطر لنا ببال .
الا تذكره ؟
بلى ، هو اني اخشى ان يحطمني القدر قبل الوصول الى القمة .
بل يرفعك هذا القدر ، بقوة جناحيه الحديديين ، ويجعلك على العرش ، الاتخاف ايها الحبيب ؟
فابتسم قائلاً : أخاف ان تستهين بك العرب اذا خانني الزمان ..
قالت : ان الرجال الذين ينظرون الى العلاء لا يخافون .
فنهض قائلاً : والرجل الذي تضعين يدك بيده هو اسعد الناس .. وصافحها

ومشى الثلاثة بين الاشجار راجعين الى قصر زياد .

ولم يكونوا وحدهم ، بل كانت وراءهم تلك المرأة القصيرة العنق ذات اللون الاسود والثياب السود .. وهي تحمل قربة ماء وركبتاها ترتجفان ... وكانت تسمع كل ما يقوله الأمير ورفيقاه ..

فقال صفوان : ارأيت قصياً يا مولاي ؟

– اجل ، وهو كما وصفت يا بني .. جبين زاهٍ ولسان فصيح وملامح جذابة تسحر الناظر اليه ..

– وهل حدثته ؟

– نعم وكان يقصّ علينا ما رآه في يثرب . من عظمة الجلاّح سيد الأوس وحسن ضيافته ..

ولو لم يذكر زياد في تلك الساعة تلك اليمين التي حلفها لحليل ، لباح للإثنين بما يجول في صدره من عواطف البغض والعداء.

ولكنه اقسم ان يكتم الناس كل ما قيل في القصر وزياد خير من برّ في يمين ووفى بوعد ..

وقد اراد ان يغير الحديث فقال :

وانت يا يزيد أرأيت صاحبك ؟

قال : لو مرّ بي صاحبي وحدّق اليّ بعينين ترسلان لهيب النار لما عرفته ، اني كما تعلم يامولاي لم أر له وجهاً من قبل ولم يوصف لي

– اذن يدلك عليه صفوان .

– او عبد الله ..

فهاجت براكين الحقد في صدر المرأة .. وكادت قربة الماء تقع على الارض.. ولكنها لم تعلم من هو يزيد ومن هو صاحبه الذي يبحث عنه .. وكانت تتلفت ذعراً وخوفاً من عبد الله . ان عبد الله وحده ، يستطيع ان يعلم ان المرأة السوداء المحجبة هي جبير بن عبادة .. ثم سمعت زياداً يقول :

ألم يوصف لك الرجل يا يزيد ؟

وعيناه تلمعان ببريق الحب

فقالت له : أتعود غداً ؟

قال : لا أستطيع ان أعدك بهذا فأنا لا أعلم الآن ماذا افعل .

قالت : لي كلمة أقولها لك قبل ان تنصرف .

– ما هي ؟

– أستحلفك بتربة كلاب بن مرة ألا تفعل شيئاً قبل أن تستشيرني فيه أتعدني بذلك ؟

– ولكن هنالك أشياء كثيرة لا يستشير فيها المرء غير نفسه ..

قالت : انك تعلم ماذا اعني فلا تبخل عليّ بوعدك

– لقد وعدت .

– أتقسم لي ؟

– أقسم بهذا الجبين الوضاح والعينين الساحرتين أني سأفعل.

فأرسلت نظرها الى خارج القاعة ، الى الكعبة ، ومدت يدها الى الامام وهي تقول

وانا اسأل هبل وجميع آلهة البيت ان يجعلوك سيد العرب ..

وعندئذٍ ، رأى قصي دمع حبيبته يسقط على الخدين ، فقال لها : أتبكين ؟

فمسحت دموعها ولم تجب

قال : أيكون هذا الموقف موقف بكاء ؟

– بل موقف فرح وهذه دموع الغبطة والهناء .

فخرج وهو يلتفت الى الوراء ..

* * *

عندما خرج بن كعب من قصر كبير الأمراء كان صفوان ويزيد يتمشيان أمام الفناء .

فقال لهما : لم يقم في ذهني قط اني سأراكما الآن .

فاجابه صفوان قائلاً : اذا كنا حراساً فنحن لا ننصرف قبل ان يعود الأمير

– لا يا مولاي وانا اخشى ان يموت ثأري ان لم يساعدني صفوان وعبد الله في البحث عن القاتل .

فقال : صفه ياصفوان .

قال : سأفعل بعد حين يا مولاي .

– اما انا فأصفه الآن ، اسمع يابزيد ، ان صاحبك فتىً ربعة يكاد يكون رأسه قطعة من صدره ..

فضحك قائلا : أليس له عنق ؟

– ولعلك تستطيع ان تعرفه من مشيه ..

– كأنه لا يمشي كما يمشي جميع الناس !

قال: اذا مشى، مشى بكليته حتى ليخيل اليك ان يداً خفية ترفعه ثم تخفضه.

فوقف جبير يصلح قربته .. وقد عرف ان زياداً يعنيه في ذلك الوصف .

وجعل يعرض حوادث ماضيه ، وهو يضطرب اضطراباً شديداً كاد يفضحه لولا ذلك الحجاب .

قاتل وثائر . كلمتان هائلتان تبعثان الرعب .. ولكنه لم يكن قاتلاً وليس في الحجاز كله من يطلبه بدم ..

نعم،له عدو هو زياد ، غير ان ذلك العداء لم يسبقه قتل ، ولم تهرق من اجله الدماء . فمن هو ذلك الرجل الذي يمشي بكليته وليس له عنق ان لم يكن هو !

ثم خطر له خاطر هلع له فؤاده،ان ربيعة بن سلول الذي اغمد ابوه خنجره في صدره ، له في الشام ولدان اثنان قد يكون يزيد احدهما .. وقد قدم الحجاز يطالب بدم ابيه .. وخاف عندئذٍ ان يفقد رشده .

فوضع قربته في ظل شجرة وجلس بالقرب منها يفكر في امره .. ثم رأى ان يعود الى الوادي ليقص حكايته على عدوان مسترشداً برأيه في ذلك الأمر ، وكان عليه ان يمضي فيما بدأ به ، ويستمر ماشياً وراء الثلاثة حتى يصلوا الى قصر زياد ، فيسمع كل شيء ، لكن الذعر استولى عليه فلم يجسر على المضي ..

وقام فتناول قربته وهمّ بالرجوع ، فرأى عدوان .

فأومأ اليه بان يتبعه ثم تقدمه واليمني يمشي وراءه متثاقلا حتى جاوز الكعبة والمحدرا في طريق الوادي ، فاذا عدوان يهامسه قائلا :

أرأيت زياداً وصفوان !

فتمتم يقول وصوته يضطرب : رأيتهما .

– وذلك الفتى الغريب ؟

– رأيته ايضاً ولم أعلم من هو وقد عدت الآن لأسألك عنه .. أتعرفه ؟

- انه من اهل الشام وانا لا اعرف فيها أحداً .

– يكفي ان يكون من الشام لنخافه نحن الاثنين ..

– أجننت يا جبير ؟

– بيني وبين الجنون خطوة واحدة .

– لماذا ؟

– لأن هذا الشامي يحمل بيده خنجراً حاداً يلمع على شفرته الموت .

– وأي عربي لا يضع السلاح في حزامه ؟

قال : ليس كل عربي ثائراً .

– ومن قال لك ان هذا الغريب من الثائرين ؟

- اصبر فسأحدثك بكل ما سمعت ..

قال : ابدأ الآن .

- لا ، فللأشجار آذان .. وانا خائف ..

– ويكاد هذا الخوف يقضي عليك . كما أرى .

فتنهد جبير وأعطاه قربة الماء قائلا :

احمل هذه فقد كادت تفضحني ولا تقل كلمة حتى نصبح داخل الخيمة .

فاخذها عدوان ومشى مسرعاً وعيناه تنظران الى الأرض ، وجبير – المرأة الأخرى – يتبعه من بعيد حتى وصلا .

* * *

ماذا جرى لك يا مولاي ، انك تذكر الثأر والخنجر كأنك في حـــلم أفلا تقص عليّ الآن ما رأيت ؟

فأجابه جبير قائلا : اما الذي رأيته انا فقد رأيته انت ، ولكن أعيد عليك ما سمعت .

– اذن فقص علي ما سمعت ..

قال : عندما خرج زياد من قصر خليل كان صفوان والرجل الآخر ينتظرانه خارج الفناء .

– نعم .

– فسأله صفوان قائلا : أرأيت قصياً ، قال رأيته وحدثته فهو من احسن النـــاس ..

– نعم ..

– والآن اسألك يا عدوان عن قصي هذا أهو أخو زهرة بن كلاب الذي رافقه صفوان الى يثرب ؟

– نعم ثم ماذا ؟

– ثم سمعت زياداً يسأل ذلك الغريب ، واسمه يزيد ، اذا كان رأى صاحبه فقال : أخشى ان لا أراه لأني لا اعرفه ولم يوصف لي ..

– وبعد ذلك .

– ذكر الغريب ثأره وجعل ابن كعب يصف له صاحبه فاذا ذلك الصاحب جبير بن عبادة ..

– انت ؟!

– نعم انا .

– وهل ذكروا اسمك ؟

– لا ، ولكن لو قيل لك ، وانت اعرف الناس بي ، ان تصفني لما وصفت بغير ما قاله زياد .

فاطرق عدوان ملياً ويده على جبينه ..

فقال جبير : اما الآن فقد جـــاء دورك في الجنون .. لقد اردت ان اقص عليك حلمي ففعلت ، وهو حلم رائع كما ترى ، افلم تكن قط في ماضيك مفسراً للاحـلام ؟

قال: لم افهم الى الآن ما الذي يدعوك الى الخوف من حلمك ، انهم لم يذكروا القتيل وقاتله ولم يسمّوا أحداً ..

– وذلك الوصف الذي سمعت ؟

قال : أليس في الحجاز فتىً ربعة قصير العنق غير جبير بن عبادة ؟ انهـــا اوصاف نراها كل يوم ..

قال : مـــا فسر يوسف بن يعقوب الذي اشتراه اجدادنا الاسماعيليون احلام فرعون احسن من تفسيرك .. انك نابغة في كل شيء ايها اليمني .

قال : اتسخر بي يا مولاي ؟

– وكيف لا افعل وانت القصير النظر الذي يذكر حاضره وينسى ماضيه ؟ الا تعلم اني قاتل وان يدي مضرجتان بالدم ؟

فنظر اليه مستغرباً ولم يجب .

قال : أنسيت تلك الضربة التي ضربها عبادة في البحرين ؟

فأفاق عدوان من ذهوله وهو يتمتم قائلا :

ربيعة بن سلول ؟

– نعم ربيعة بن سلول لا سواه ، ذلك الذي اغمـــد ابي خنجره بين اضلاعه في ظلام الليل .

– واي شأن لربيعة الآن ؟

– يخيل اليّ ان دم ربيعة هو صاحب الشأن الآن ايها الابله ..

– ومع ذلك لا افهم .

قال : مات ربيعة ولم يطالب احدهم بدمه اتعرف لماذا ؟

– لأن الموت حـــال بين ربيعة وبين الثأر ولأن ولدي ربيعة المقيمين بالشام

نسيا دم ابيهما القتيل .

قـــال : لقد عادت اليك الذاكرة الآن ، واما ذلك النسيان الذي تذكر . فلست مصيباً فيه .

ودبت قشعريرة الخوف في عروقه وهو يقول: نفسى تحدثني بان ذلك الغري. الذي يدعونه يزيد هو احد الولدين وقد جـاء يحمل خنجره تحت ثيـابه والحقد يغلي في صدره .. فماذا تقول الآن ؟

فاصفر وجه اليمني وجعل ينظر الى الفضاء. ثم قال : اتراه يثأر بأبيه منك.

– نعم والعربي لا يموت ثأره كما تعلم . ان سلالة القتيـل تتبع سلالة القـاتل حتى تأخذ دماً بدم .

– ولكني لا اعلم اية صلة بين هذا الفتى وبين زياد بن كعب حتى يجيء من الشام فينضم اليه .

قال : اظن ان صفوان رآه في يثرب فتعارفا .

– والآن ؟

– امـــا الآن فأرجو ان يكون لك رأي ، أترى الموت يكمن لك في مكة وتظل ساكتاً ؟

قال : نسأل أولاً عن الرجل ثم ننظر في امره .

– واذا ثبت لك انه ابن ربيعة ؟

فحدّق اليه قائلا : نستعين بخنجر يشبه خنجر ابيك وينتهي كل شيء .

– ولكنه جار زياد ..

– بل جار صفوان بن الحارث ونحن لا نعبأ بالاثنين ..

– اعمد الى الجلاء يا عدوان .

قال : أليس الاثنان عدوين لنا ؟

– نعم .

– فليبقيا على عدائهما ونحن نبقى ثم نرى .

– ولكن الاعداء كثروا حولنا وانا قد مللت حياة الاستخفاء ..

ـ ومع ذلك فلا نجد الآن خيراً من الصبر .

قال : سأخلع هذا الثوب الذي ألبسه وكن انت وحدك من الصابرين .

قال : اذا فعلت افضى الامر الى الموت .

ـ وهل ينقضي العمر كله ووجهي وراء حجاب وانا اثني عطفي في المشي كما تفعل النساء ؟

ـ ألم تقل الآن ان اعداءك كثيرون ؟

ـ واذا قلت ؟

ـ اذا كثرت اعداء الرجل عمد الى الحذر والحكمة ليخرج ظافراً والا فقد لعمد قتل نفسه .

قال : ستقتلني بمثل هذه النصائح التي لا تثمر .

قال : انك تريد قتل زياد قبل كل شيء أليس كذلك ؟

ـ نعم ولا يهدأ هذا القلب الا اذا رأيته مصبوغاً بالدماء .

ـ ثم تعمد الى قتل صفوان قبل ان تنضم ليلى اليه .

ـ اجل وفي قتله تبريد الغليل .

ـ ثم يجيء بعد ذلك كله دور ضيفنا يزيد .

ـ اما هذا فلا نعمد الى قتله الا اذا كان يزيد بن ربيعة كما ذكرت والا فأي غرض لنا به ، ثم قال : ولماذا تذكرهم الآن ؟

ـ اعدّ ضحاياك يا مولاي . ثم أدعوك الى الوثوق بعبدك الذي يعرف كيف يصرع اعداءك .

ـ ولكن متى يكون ذلك ؟

ـ لا أعلم ففي الصبر بلوغ الغاية كما قلت والآن أنصح لك بالبقاء في هـذا المضرب بضعة ايام لا تخرج منه الى مكة ولو خربت الكعبة .

قال : تلك نصيحة مجنون لا اسمعها .

ـ بل نصيحة عاقل يعلم من امور دنياه ما لا تعلم ويرجو ان تسمع له .

ـ وانا ارجو ان تقول لي متى كان العاشق المفتون يتخفى داخل الخباء كما

تتخفى العذراء ..

– عندما تحدق الى هذا العاشق العيون ، ان القوم يسألون عنك الار..
والسماء ، وسيرسلون عبدالله غداً ليطوف في مكة وحولها باحثاً عن جبير .
عبادة . ثم أراك تذكر الغرام كأنك لم تنسَ ليلى . أتعود الى ذكرها يا مولا.
وهي لا تريد ان تنظر اليك ؟

قال : في قلبي عاطفتان : عاطفة حب يملك عليّ قواي ، وعاطفة حقد ،
يزول حتى أرى ذلك الامير المتكبر تحت قدمي ، وقد ينتهي هذا الحقد بالفو.
على الحب فأنسى غرامي وانصرف الى الانتقام ليس غير .

– اذن تعمد الى شيء آخر نضمن فيه عاطفتك الاخرى أتدري ما هو !

- لا .

– نلجأ الى الخنجر ، حتى اذا انتهى الأمر عمدنا الى اظهار الحب من جدي..

فقهقه ضاحكاً وهو يقول :

أنقتل زياداً ثم نسأل ليلى ان تستسلم الى الهوى ؟

قال : لقد صرعك الغرام يا مولاي فنسيت كل شيء .

– نسيت ماذا ؟

قال : ان الذي يقتل امير صوفة ، هو صفوان بن الحارث لا سواه .. فاذ..
العمامة واكتف بما سمعت ..

فوضع يده على جبينه وقال : لقد ذكرت الآن .

– واذكر انك ستمكث هنا الى ان يصفو الجو .

– وانت تسأل عن يزيد كما وعدت .

– لم يبق من حاجة الى السؤال فالقوم يستعينون بالكتمان ، وانا واثق با..
الفتى لم يقدم مكة الا ليظهر لك الاخلاص والوفاء ..

قال : ومن يرعى هذه الناقة في البقعة الحمراء ؟

– انا ..

– وتسمع احاديث حبى وليلى ؟

– نعم وانقلها اليك لترى فيهـــا رأيك .. والآن فانا راجع فأعد طعامك بيدك ، اني قد لا اعود قبل غروب الشمس .

وسدل حجابه ولم يخرج الى الوادي حتى امسى عجوزاً حدباء ..

* * *

ظـــلّ الثلاثة يتحدثون حتى وصلوا الى المنزل ، فدخل زياد غرفة ابيه واغلق الباب .

اما صفوان ويزيد فجلسا في الرواق مع ليلى وعبدالله .

وكان امير صوفة يقول لأبيه : جئت لأنقل اليك ما سمعت في قصر حليل .

قال : لماذا دعاك اليه ؟

– لأرى ذلك الكناني القادم من يثرب .

– ابن كلاب ؟

– نعم يا مولاي .

قال : ايدعو سادن الكعبة امراء مكة الى مثل هذا ؟

– ذلك ما اردته يا مولاي وقد سألت حاجب البيت من قبل ان يدعوني لأرى قصياً ..

– وماذا رأيت ؟

– رأيت فكراً ثاقباً ، وجناناً ثابتـاً ، وقلباً جريئاً ، بل رأيت فتىً يسود مجلسه الوقار وترتسم على جبينه دلائل العز .

– وحديثه ؟

قال : اذا تحركت شفتاه خرجت من بينهما الخلابة .

– اذن عدت وانت تحبه .

– بل انا معجب به وليس في اعجابي شيء من الحب .

– ذلك غريب يا بني ..

– واغرب منه اني اكره الفتى ولا اطيق ان اراه .

قال : الا تقص عليّ ما سمعت ؟

– بلى ولاجل هذا دخلت عليك الآن ، ان الامر سينتهي بحاجب البيت ال
الاستسلام والخضوع لهذا الكناني ..

فابتسم قائلا : اهذا يمليه عليك بغضك ؟

– هذا ما املته عليّ مظاهر حليل ، لقد خيل اليّ يا مولاي ان امير الامر
عبد من عبيد قصي او جندي من جنوده الذين يعدهم للحرب من وراء الستار
يتكلم قصي فيصغي الامير اليه ، ويبتسم فيبتسم واذا بانت آثار الغضب عـلى
جبين الفتى قطب الآخر حاجبيه كأن للاثنين شعوراً واحداً ونفساً واحدة .

قال : سننظر في هذا بعد ان تحدثني بما جرى .

– ومـــاذا جرى ؟.. لقد كنت نبياً عندما قلت ان حبى ستمسي زوجه
لابن كلاب .

– وهل اظهر حليل رغبته في ذلك .

– لقد اظهر تلك الرغبة بالامس وهـو يتكلف المزاح ، وستعلم يامولاي ان
كنت ايضاً من الأنبياء حينما قلت لك ولعبد الله ان هـــذا الزواج سيفضي ال
الاستيلاء على مفاتيح الكعبة ، وجلوس قصي في عرش امارة الحجاز .

قال : أتبني ما تقوله على الظنون بازدياد ؟

– بل ابنيه على ما رأيت من دلائل الرغبة . واني اعيد الآن ما قلته لك من
قبل ان مكة ستغرق في بحر من الدماء بعـــد ان يصبح الكناني صهراً لحاجب
البيت .

فابتسم الشيخ ابتسامة الهزء.

فقال : خذ قضية الأدرع مثلا يامولاي ، ألم يكن اولى بابن كلاب ان يعطي
قومه بعض الثياب يسترون بها اجسامهم بدلاً من ان يعطيهم سلاحاً يحاربون به
اعداءه ؟

– وهل سألته عن هذا ؟

– اجل ، وخفت ان يكون رسول احد الملوك الطامعين بالفتح فسألته عن
ذلك ايضاً ..

– وبماذا اجاب ؟

– اما عن هذا فقال : ان الحجازي لا يخون وطنه ، واما الأدرع فقد اراد ان يقنعني بان العربي يؤثر الدرع على ثوب الديباج والسيف على زنابيل من التمر.

– والصواب فيما قال .

– نعم لو كان ظاهر الأمر يدل على باطنه ، ولكنه اراد ان يجود بدروعه ليهيء قومه للحرب والناس غافلون عنه . اسمع ما قال وهو يهزأ بظنوني ، قال سأفاجىء مكة برجال الشعاب في ساعة لا يعلمها أحد فأنحي سادن الكعبة عن كرسيه وأستولي على الامارات الواحدة تلو الاخرى فيصبح الحجاز كله بمن فيه من عشائر ورجال ملكاً لي لا ينازعني اياه عربي !...

– وقد صدّق زياد بن كعب امير صوفة هذا القول ؟

– نعم يا ابي ، نعم هذا ما نراه بعد حين ، ان خزاعة ستعتزل حجابة البيت بقوة السيف . وبقوة السيف يستولي اهل الحجاز على المناصب ، ويمسي أمـــر الحجاز في ايديهم كأن خزاعة لم تكن ولم تخلف بني جرهم في السيادة ثلاثـــة اجيال ...

– اي انهم يطردوننا من مكة ونحن مستسلمون لا يرتفع لنا صوت ؟

قال : ان هنالك ما هو اقبح من الاستسلام ..

ماذا ؟

قال : ليس لنـــا كلمة ولا يجمعنا رأي .. انـّا متفرقون مختلفوا لاغراض في ايام الشدة ، متفقون في ايام الرخاء . وكأن الزمان بعد الاجيال الثلاثة ،يتحفز للوثوب ليقذف بنا الى بوادي العرب ، او ليعيد خزاعة ، مغلوبة ذليلة ، الى البلد الذي خرجت منه .

قال . اراك تتحدث بهذا كأنك ترى صفوف الجنود

– اقسم برب الكعبة اني اراها .. كما اني ارى سادن الكعبة نفسه لا يعبأ الا بتزويج ابنته والعثور على صهر يحفظ الحجابة لحبى بعد موته .

– اذن لم يبق الا ّ ان تشهر السيف على الفتى الذي تخشاه ، وتجاهر سادن

الكعبة بالعداوة اذا انتصر له ..

– لا أشهر الآن سيفاً ولكن اتهيأ للدفاع

قال : لقد جـــاء دوري الان يازياد .. هب ان قصياً امسى زوجاً لحبى ورضيت خزاعة بهذا الزاوج فماذا تفعل ؟

– اسكت ولكن على غلّ .

– ولنفرض ان امير الكعبة اعتزل سدانته لابن كـــلاب وكانت خزاعه راضية فأي شأن لك .

– ان خزاعة لا ترضى .

قال : افترض اذن ما تشاء . أتقول انها تخالف ابن حبشية في رأيه ؟

– نعم وتخرج ايضاً عن طاعته .

– وماذا يحدث بعد ذلك ؟

– يحدث واحد من امرين ، اما ان يحمل ابن كلاب زوجته واشياءه ويعود الى الشام ، واما ان يثبت في المجال فتستعر النار.

قال : خير له ان ينهار الحجاز ويهوي الى جوف الارض من ان يفر مـــن الميدان ، وبنو كنانة حوله ، كما يفر الجبان .

ثم قال : ولنفرض ايضاً ان قصياً خانه الحظ وداسته الاقدام اترى كبير خزاعة يوليك امر البيت ؟

– لا

– ومن يختار لها اذا اصر على الاعتزال ؟

– رجلاً من قومه .

– ولكن ماذا يكون لك انت يا زياد بن كعب ؟

– تبقى لي الامارة وهذا يكفي .

– لقد خيل اليّ انك طامع بالحجابة وانك تبغض الكناني لتنحيه عنها .

– ذلك لم يخطر لي يا مولاي .

– اذن رأيت لك رأيا ارجو ان تصغي اليه

قال : لم يعص زياذ كعباً قبل اليوم .

قال : رايت ان تظل على الحياد فتبقى لـك الامارة في الحالين وتحقن دماء قومك .

– ولكن قصياً لا يرضى .

– وكيف ذلك ؟

– اذا بلغ الرجل غايته واستوى جالساً في كرسي حليل ، عمد الى مناصب مكة فجعلها جميعها لأهله .

– بل يمد يـده ليصافح الامراء الذين لم يبارزوه . اتظن ان اهل الشعاب يسكتون عن ثأرهم وينسون عزهم خـاضعين للعدو الذي يذلهم في عقر دارهم؟ انك يا زياد تهدم ماضيكَ وحـاضرك بيدك ، وتبني بناء مستقبلك على ارضٍ تغور في الاعماق عندما تعصف الريح .

قال : اتخوفني يا مولاي .

– بل انصح لك وانت الرجل الذي لا يخاف ، دع سادن الكعبة يفعل مـا يشاء ، بل اقول لك غير ذلك ، اذا رأيته يمد يـده الى كناني فمدّ اليه يديك الاثنتين واسبقه الى خطب وده واعلم ان مكة وطنك وسيبقى نسلـك فيها الى الابد .

– ولكن اخشى ان امد هذه اليد فتقطع .

قـال: احسن الى الناس يحسنوا اليك وليس في العالم كله من يضع الشر في موضع المعروف الا الانذال . وبنو كنانة . ان بني كنانة يا بني اشراف العرب فاذا اظهرت لهم الحب اظهروا لك مثله ، لاترى منهم غير الاخلاص والوفاء .

قال : لقد قلت كلمتي يا مولاي وانتهي الامر .

وماهي هذه الكلمة ؟

– اقسمت لابن كلاب اني عدوه ..

فارتجفت شفتا ابي زياد وهو يقول :

في قصر حليل ؟

– اجل كان ذلك في قصر حليل منذ ساعة .

قال : سلمت انك تبغض الرجل ولا تعلم لماذا ولكن اية حكمة أوحت اليك بان تجاهر بهذا البغض ؟

قال : لو سألت نفسي مثل هذا السؤال لما سمعت جواباً .. قلت اني اظهر له العداء ثم تعاهدنا عليه وحليل حاضر وهذا كل ما في الأمر .

فتنهد الشيخ قائلاً :

اذا صحّ ان ابن كلاب سيتزوج ويطمع بعد ذلك بان يصير حاجباً للبيت فقد خلقت حرباً لا يغمد فيها السيف ..

– ومع ذلك فقد فعلت الآن ..

– نعم ولا حيلة لنـــا في رد مـا مضى الا اذا نسيت بغضك وعمـدت الى الاعتذار ..

– أنعتذر يامولاي لرجل لاشأن له ولا تعرفه ؟..

قال: اذا استطاع الرجل الذي لاشأن له ان يصبح بين ليـلة وضحاها صهراً لأعظم امراء الحجاز فهو الرجل الذي يخشى جانبه ..

قال : هب انه تبّع ابو كرب فانا لا أعتذر له .

– وانا لاأسألك ان تفعل بعد الآن . غير اني ادعوك الى السكوت والنظر في امر العشيرة ليس غـير ريثما يتم هذا الزواج الذي تفكر فيه ويصعد قصي الى العرش .. أتعدني بهذا ؟

فتردد قليلاً ثم قال :

اعد بأني لا أكون البادىء بقتاله .. ثم اصفر جبينه وارتجفت شفتاه وجعل يتراجع الى الوراء وهو يقول : ويل زياد بن كعب فقد حنث في يمينه ..

فذعر الشيخ وقال : وما هذه اليمين يازياد ؟

– لقد حلف اني سأكتم جميع الناس ما جرى بيني وبين قصي في قصر سادن الكعبة . وهكذا حلف ابن كلاب ...

واخفى وجهه بين يديه كأنه طفل يهمّ بالبكاء ..

فقال : يا بني . أنسيت انك العربي النبيل الذي يفي بما يعد ؟!!
فرفع رأسه قائلاً : لم انس ذلك بل اصبت بالذهول فلم اذكر يميني الا الآن .
– اذن لم تكن مختاراً فيما بحت به ؟
– لا بل كنت ذاهلاً كما قلت .
فأراد ابو زياد ان يفرّج كربة ذلك الولد الشريف الذي صغر في عينيّ نفسه فقال له :
ان الشرف لم يمسّ يابني ، لقد ذكرت لأبيك ما وعدت بكتمانه وكنت ناسياً فكأنك لم تحنث في قسمك ولم تقل شيئاً وابوك يعدك بانه لا يبوح بكلمة مما سمع ..
فنظر اليه وهو ساكت ..
فقال : ومع ذلك فالولد البار لا يكتم اباه أسراره ولا يخفي عنه اغراضه . وهل لك ما تقوله بعد ؟
قال :لي كلمة واحدة .
– قل يا بنيّ .
– أسألك يامولاي ان تغفر لي .
فلمع الدمع في عيني الشيخ واستدناه اليه فضمه الى صدره وهو يقول :
أأغفر لك ذنباً لا وجود له ؟
– اما انا فاعترف اني مذنب وأرجو ان اسمع كلمة الغفران ..
فوضع يده على رأسه قائلاً : اباركك واغفر لك ، وكأنه أراد ان ينسيه ذلك الذنب فقال :
ماذا فعل يزيد بن ربيعة ؟
– لم يفعل شيئاً ، ان القوم يبحثون في مكة ، عن رجل ليس له فيها أثر ..
– ولكن سودة الكاهنة تقول غير ذلك .
– لتقل ما تشاء فلو كان ابن عبادة في مكة لما استطاع ان يحتجب عن العيون

قال : وصفوان واثق بانه فيها ؟
– نعم وذلك لأنه لم يره في يثرب ، فقام في ذهنه انه هنا وسيجده كايقول
وجعل يتفرس في أبيه كأن في صدره سراً آخر يريد ان يبوح به ويستشير
فيه . وطال سكوته .. فقال ابوه : أخرج الآن فاجلس مع ضيفك ..
قال . ولكن سأحدثك بأمر احدهما قبل ان انصرف.
فأستوى ابو زياد في مجلسه ليسمع الحديث الجديد ...

* * *

أليس لك رأي في صفوان بن الحارث يا مولاي ؟
قال : لقد سمعت رأيي فيه من قبل فقد حدّثنا عبدالله بشأنه وذكرت ما
اعرفه عن أبيه ..
– ولكن هنالك شيئاً آخر الآن ..
– وانا قد عرفت هذا الشيء الذي تعنيه أليس هو الزواج ؟
– بلى .
– وهل طلب الفتى يد ليلى ؟
– لم يذكر لي شيئاً من ذلك .
– وبماذا نتحدث اذن .
قال : ان لم يطلب ليلى اليوم فعل غداً ،وعلينا ان ننظر في الأمر قبل طلبه
قال : يظهر انك ستصبح من الكهان بعد قليل .
– وكيف ذلك ؟
– لأنك تقرأ حوادث الزمان قبل ان تقع .
قال : والحكيم يرى المقدمات فيبني عليها النتائج ..
– وماذا رأيت من صفوان ؟
– رأيت غراماً تتأجج ناره في الصدر وتبدو مظاهره في العينين .
– وهل سألت ليلى عن هذا ؟
– ولماذا أسألها وانا اكاد المس هواها بيديّ .

– اذن فكلاهما يحب الآخر ولا يستطيع ان يخفي لواعج الحبّ
– اجل سيفضي الأمر على ما أرى الى طلب الزواج .
– اذا كان هذا فأنا راضٍ بصفوان كما قلت سابقاً لعبد الله .. وانت يازياد ؟
قال : كلما تراه حسناً فهو حسن ..
– غير ان هذا وحده لايكفي . !
– وهل بقي شيء ؟
– بقي ان صفوان كناني وهو ابن عمّ قصي ..
– فليكن يهودياً فأنا لا أعبأ الا بالخلق الكريم .
– ولكن أردت غير هذا يابني . ألم تقل الآن انك لا تضع يدك بيد قصي بن كلاب ؟
– بلى
– وان البغض الذي تحسّه قد ينتهي بالحرب ؟
– بلى .
– فقل لي الآن أيترك صفوان بن الحارث قومه لينضمّ اليك ؟
قال : لم افهم شيئاً مما تقول يا مولاي .
قال : هب ان ليلى امست زوجة صفوان .
– نعم .
– وان قصياً صهر حاجب البيت . جرّد سيفه بعد عام على امراء مكة يسلبهم ما يملكون ..
– ثم ماذا ؟
– وقام صفوان الى جانب ابن عمه يدعو أعداءه ، وانت منهم الى القتال ماذا تصنع عندئذٍ ؟
– اجرّد بدوري السيف وامشي في الطليعة .
– وليلى ؟
– وأي شأن لليلى .

– أتحارب زوجها وقد تقتله ثم تقول اي شأن لها !
– وهل يمنعني هذا الزواج من الدفاع عن عشيرتي والوقوف في وجه عدوي
– اذا أردت ان تقذف بليلى الى هوة اليأس . فلا يمنعك من ذلك شيء ، ا
الرجل يزوج ابنته لكي تهنأ بهذا الزواج ، امـــا انت فكأنك تدفعها بيدك ال
عدوك ولا تبالي .
قال : اما صفوان فهو منقذ حياتي ولا يسعني الا الاعتراف بجميله ..
– اجل وسيكون هذا الاعتراف بالجميل حرباً !!
قال : يقضي عليّ الوفاء بأن اعطي صفوان ما يشاء . فاذا فعلت فقد قابلا
معروفاً بمعروف . ولم يبق الا ان يحفظ كلانا الولاء لصاحبه حتى تقوم الساعة
– وأنا اخالفك في هذا ، فإمـــا ان تجعل الفتى ولداً لك وتمهد له اسباب
العيش ، واما ان تجزيه على احسانه ولينصرف .. الا اذا هان عليك ان تزو
ليلى اليوم ثم يطلقها صفوان غداً فذلك شيء آخر .
– وماذا نفعل اذن ؟
– لقد رأيت لك رأياً .
– ما هو ؟
– اذا حدثك صفوان بامر الزواج فاستمهله ريثما تبلغ ليلى الثـــامنة عشر
من العمر ..
– اي بعد سنتين وبضعة أشهر ؟
– نعم .
– وما هي الغاية من ذلك ؟
– الغاية منه ان قصياً في خلال السنتين المذكورتين يستقر على حـــال فاذا
تزوج حبى وطمحت نفسه الى السلطان بعد ذلك ظهرت بمظهر العربي الحر الذي
يدافع عن قومه قبل ان يصبح صفوان صهراً لك ..
– واذا لم يشأ الفتى ان يصبر ؟
– استعنا بليلى وعبدالله على حمله على الصبر ..

– ولكن ينبغي ان لا ترد للفتى طلباً مهما يكن هذا الطلب ..
قال : اختر لك واحداً من امرين ، اما ان تستمهله كما قلت واما ان تزوجه .
فرأى زياد ان ينهي حديثه بقوله :
عندما يطلب ، ليلى ، اسأله ان يوجه طلبه اليك ولك ان تجيب عندئذٍ بما تراه ، على رجاء ان يبقى واثقاً باننا نحن الاثنين لا ننسى المعروف .

وخرج زياد وجلس بين الفتيين ..

وكان عبدالله يقص على يزيد ماضي جبير وحاضره وصفوان يقص على ليلى ما يعانيه من هوى مبرح دون ان تنفرج شفتاه ..
اجل . كان يقص عليها كل ذلك بنظراته التي هي ابلغ من الكلام ..

* * *

مرّ شهران كما يمر خيال الطائر والحب تستعر ناره في القلوب، غير ان صفوان لم يبح لزياد بغرامه ولم يذكر له رغبته في الزواج .

ان نفسه الكبيرة كانت تمنعه من ذكر تلك الرغبة ، خوفاً من ان يقول زياد في سره .. لقد تعجل صفوان بن الحارث في طلب الجزاء.. وهو يرى ان يخطب ليلى ، بعد رجوعه من الشام.ولولا إباء ليلى وعزتها لجثت على قدمي ذلك الحبيب واستعجلته في قضاء هذا الامر ..

وكان قصي يزور حبى مرتين او ثلاثاً كل ثمانية ايام ، ولم يقل لصفوان كلمة من حبه كما علمت ، كما انه لم يذكر زياداً امامه بسوء ..

اما يزيد فكان يقضي معظم ايامه في جوار الكعبة ، ثم يطوف في مكة مع عبدالله يفتشان عن القاتل وهما لا يجدان له أثراً ، وكيف يعلم عبدالله بل كيف يخطر له ان جبير بن عبادة ومولاه عدوان اليمني امسيـــا عجوزين ترعيان في الجبال ناقة جرباء ..

حتى عرف اهل مكة ان كنانة سترحل رحلة الصيف وان القوم يتأهبون

ويتهيأون للرحيل ، فنزلت ليلى عندئذٍ عن عزها ، ولم تستطع الا ان تقرأ م ا في صدر صفوان قبل ان تفصله عنها حادثات الزمان ..

* * *

متى ترحل مع القوم ايها الحبيب ؟

– بعد ستة ايام يا ليلى ثم تحول بيننا السهول والجبال فلا يرى احدنا الآخر الا في الحلم ..

فكفكفت دموعها وهي تقول : ثم لا تعلم متى تعود ..

– لا . فانا لم ارحل قبل هذه المرة مع القوم ، ولا ادري متى تنتهي مهمتهم في بصرى ..

– بل مهمة قصي بن كلاب الذي اصبحت رفيقاً له ..

– اجل فالامر كما تقولين وقد اقسمت ان أطيع قصياً في جميع ما يأمرني به .

ثم قال : من عادة قومنا انهم يعودون الى مكة في اواخر الصيف ليتهيأوا لرحلة الشتاء الى اليمن .

قالت : أتحبني كما تقول يا صفوان ؟

فاستغرب الفتى ذلك السؤال توجهه اليه ليلى وهي اعلم الناس بانه يكاد يذوب حباً .. وجعل ينظر اليها وهو ساكت .

فقالت : اريد ان اسمع جوابك .

– اتسألينني عن الحب وانت تلمسينه في كل نظرة ومظهر وفي كل حديث ؟.

– نعم ولي بذلك غرض .

فاجابها بهدوء قائلاً : احببتك حباً لا ينطبق صدر على أعظم منه .

– وكيف ينتهي هذا الحب ؟

– كما ينتهي كل حب بين قلبين متحدين ..

قالت: ما رأيت على ذلك دليلاً يا صفوان، أتعترف بانك تحبني وانت لا تبوح لأبي بحبك ولا تخطبني اليه ؟

فابتسم قائلاً : سأفعل ايتها الحبيبة فانا لا افكر الا في هذا .

ــ اليوم ؟

فتردد قليلاً ثم قال : وما ذا أفعل اليوم وانا اترك مكة بعد بضعة ايام ؟

فعادت الى ذرف الدموع .

فقال : ليلى ، أتنقضي هذه الايام الباقية بالكآبة والبكاء ؟ اني سأفعل مـــا لشائين بعد رجوعي .

ولكني لا اصدق انك تستطيع ذلك .

ــ لمـــاذا ؟

ــ لأنه لا تنتهي رحلة الصيف حتى تبدأ رحلة الشتاء . وعندما يومىء اليك لعمي بان تتبعه تترك ليلى وتنسى هواك لتلحق به ..

قال : اقسم برب الكعبة انه لا يفصلني عنك الا الموت .

ــ اذن فمـــا الذي يدعوك الى التردد في الخطبة وابي كما عرفت يبذل لك كل شيء ؟..

ــ يدعوني الى ذلك امر لم اذكره لك من قبل .

ــ والآن ؟

ــ اما الآن فقد اكرهتني الاقدار على ذكره . الا تعلمين ان أباك اراد ان يجزيني على ما فعلت .

ــ بلى ولكنك لم ترض .

ــ والى الآن وانا ارفض هذا الجزاء ، ثم فاجأني الحب فاستسلمت اليه ولا هناء لي الا به ، بل لا يكتمل هنائي الا عندمـــا تصبحين زوجتي وسيدة بيتي ، ومع ذلك ...

ــ : ومع ذلك فيدك لم تمتد الى يدي ولم تطلبني من ابي وانا بين ذلك الحب وهذا التردد سأضيع الأمل .

قال : لقد عرضت سيفي على ابيك وانا لا اعرف ليلى ولم أر لهـــا وجهـــاً أليس كذلك ؟

ــ نعم .

– فاخشى ان يقول الآن في نفسه اني لم انتصر له الا لغـــاية هي الحصو[illegible]
عــلى ابنته ..

– اذا كان هذا فالزواج لا يتم لأنه سيقول بعد رجوعك ما يقوله اليوم .

– اما اليوم فاذا ظن ظنونه فله عذره ، ولكن عندما يمرّ العام الاول [illegible]
هذا الحب تسكت الظنون .

– اي ان سوء الظن يزول بمرور الايام ..

قـــال : اريد ان أقول ان العام كاف لان يولد فيه الغرام ثم ينمو ثم ينته[illegible]
بطلب الزواج ..

وكانا جالسين في الرواق الاخير،وابو زياد في حجرته، وزياد جالس لحاجا[illegible]
العشيرة في القاعة الكبرى عند مدخل القصر.وعبدالله يروح في القصر ويجي[illegible]
وعيناه تنظران الى العاشقين .. ولعله اراد ان يمد اصبعه في الامر ، فاقبل و[illegible]
يبتسم قائلاً : لقد سمعت نغمة جديدة في صوت ليلى .

فاغتصبت ليلى ابتسامة قصيرة واجابته قائلة : هي نغمة الحب ايها اللعين[illegible]

– نعم ، وخيل الي ان فيها ما يشبه البكاء ..

وليلى وصفوان لا يكتمان عبدالله سراً من أسرار القلبين .. فقالت : بك[illegible]
عندما ذكرت الفراق .

قال : واغرب ما في الامر ان صفوان يضحك .

فتمتمت الفاظاً لم يسمعها الاثنان .

اما هو فاستطرد قائلاً ولم يبالِ ، وانا اعلم اسباب هـذا الضحك اتريدين ا[illegible]
تسمعي ؟

فقال صفوان : نسمع ..

قال : اني اخاطب ليلى يا مولاي ..

فقالت : هات .

قال : انك تفكرين في هذا الحبيب الذي برح بك هواه ثم تبكين، وهو يف[illegible]
في امر آخر لا يحمله على البكاء ..

قالت : اذا اردت ان تقول فأوضح .
– : انه يفكر في افراسه ...
– ويطيب له ان يترك مكة ليبتعد عمن احب ؟
– نعم فالحب في صدره خمدت ناره ..
– ولكن كنت تقول أن صفوان خير المحبين .
– وهذا هو الذنب الذي اسألك ان تغفريه لي .
فظل صفوان ساكتاً وهو ارفع من ان يجيب .
فقالت : مارأيك يا صفوان فيما تسمع الآن ؟
– رأيي ان عبدالله اصيب بالجنون .
فقال عبدالله : وخير لك يا مولاي ان تصغي الى اقوال المجانين ألم تقل الآن ان مولاي زياداً يظن بك السوء ؟
– وهل تعرف هذا ايضاً ؟
– اعرف كل شيء لأني سمعت كل شيء .
– وبماذا تنصح لي ؟
– أنصح لك بأن تهجر ليلى قبل ان يصرعها الغرام .
– وأنا انصح لك بأن تكف عن هذا المزاح .
– فجلس قائلاً : أتضمن الزمان يا مولاي ؟
– من لا يستطيع ان يضمن نفسه لا يضمن شيئاً .
– اذن فمن يعلم ماذا يحدث لنا بعد ان ينقضي الصيف .
– انا اعلم . يجيئنا ملاك الموت فيخطف ارواحنا واحداً بعد واحد حتى لا يبقى لأحدنا ذكر . قل انت يا مولانا النبي ماذا يحدث أتسقط السماء على الأرض ؟
– بل ترتفع الارض الى السماء .
– وعند ذلك نبلغ الجنة فنمكث فيها الى الابد . لقد قلت الآن ان الأمير سيجرح في تصوره ، هذه النفس التي لم تذل ، اتريد انت ان ترى بعينك هذا

الذل فيخسر ابن الحارث شرفه ويموت من قهره؟

قال : انك يا مولاي اعظم من هذا في عيني زياد .

– لو كنت انا في مكان زياد لملأت الريبة نفسي ومع ذلك فما هو الغرض من الخطبة اليوم ؟

فالتفت عبدالله الى ليلى ثم قال : الغرض منها ان مولاتنا الاميرة لا تطيق الصبر ..

– بل الغرض منها ان تقوم الثقة بحبي في صدر ليلى. مقام هذا الشك اتظن ايتها الحبيبة ان ابن الحارث يخون عهده وينسى ليلاه ؟

قالت : اخاف جور الزمان .

قال : اذا كانت يد القدر قد كتبت لنا ان نشقى فلا بد لهذا الزمان من ان يجور ، والا فليس لنا ان نخشى جوراً لا وجود له .

ثم قال : وتلك الشهور التي سنقضيها في بصرى ليست دهراً، ان الحياة كلها تمرّ كما يمرّ البرق ، وسأعود لأبسط لك يدي فنعيش عمرنا كله تحت جناح الحب ، كما نعيش الآن .

قالت : اتطلب المال في الشام وقد وفر لك هذا المال في بلدك ؟

– ما كنت لأطلب شيئاً هو في يدي ، ولكني صرفت هذا العمر في مكة ولم أزر بعد بلداً من بلدان الروم ، ولا تنسي ان قصياً يريد ذلك كما قلت، ومتى أراد قصي امراً فقد اراده صفوان .

فقال عبدالله : واذا خطر لقصي ان يزوجك كنانية ؟

قال : يقوم في ذهني انك تريد اليوم ان تشعل النار . ان الزواج لا شأن له به . واراد ان يداعبه فقال :

ان الامير بين رجال عشيرته وقد يحتاج اليك ألا تذهب .

– بلى وسأقص عليه حكايتنا من أولها ..

– وما هي حكايتك ؟

– حكاية السفر ، والخطبة ، وسوء الظن الى آخر الحديث ..

- أتفعلها يا عبدالله ؟
-- اي وربّ ..
فقاطعه قائلاً : لا تحلف انك اذا فعلت فقد جنيت على نفسك .
- وهل يطيب لك ان اكتم مولاي سراً يتعلق به ؟
- ستبوح لمولاك بجميع الاسرار عندما تأتي الساعة ، ثم الآن . ولكن لا .
انت لا تنقل من هنا قدماً قبل ان تعاهدني على الكتمان .
فقالت ليلى : اذهب وانا اضمن سكوتك .
فانصرف وهو يقول في نفسه :
ما رأيت شبيهاً لهذا العاشق الكناني . تنتصر عزة نفسه على كل شيء حتى في مواقف الحب ..

وطال جلوس العاشقين ، وقد رضيت ليلى بان تكون الخطبة بعد رجوع القوم من رحلتهم ، غير انها كانت مضطربة خائفة ، وهي تعزو الخوف والاضطراب الى الفراق ، ولو لم يكن صفوان كبيراً في صبره ، لغسل يديّ ليلى بالدموع ..

* * *

- ٧ -

نعود فنكتب لك فصلاً صغيراً عن هؤلاء القضاعيين الذين لم يفكر قصي في رحلة الشام ، الاّ ليرى اخاه رزاحاً وهو منهم ، وقد مرّ ذكر القوم - ان كنت تذكر في الروايتين السابقتين ، الحارث الأكبر ، والنعمان الثالث ، عندما نقلنا اليك اسباب تفرق القبائل العربية في الأقطار ، ومع ذلك ، فالتبسط في البحث امر لا بد منه ، ولم تكن الراويات الخلاّبة التي نضعها غير تاريخ صحيح يستطيع القارىء الرجوع اليه .

اول من نزح من قبائل معد . بنو قضاعة . واما السبب في ذلك النزوح فحرب نشبت بينهم وبين بني ربيعة . لحادث فتاة تعشقها قضاعي من بني نهد ،

فدارت الدائرة بعد تلك الحرب على القضاعيين ولم يروا الا ان يهجروا بلادهم الى الأبد ، وينزلوا ربوع نجد ، وكثرت بطون قضاعة ، فتفرقت في جزيرة العرب، في نجد كما قرأت ، وفي البحرين والعراق ومشارق الشام ، وهم ذوو بأس وشده ورجـــال صبر على المحن ، فما لبثوا حتى أنشأوا الدول ورفعوا أعلام النـفوذ والسلطان في الآفاق .

اجل . كان بنو قضاعة أقدم النازحين من عدنان ويدل ظاهر الحال ان نزوحهم كان حوالي الميلاد او قبله بقليل ، ولم ينزحوا في زمن واحد فأهـــل البادية اذا كثروا مع الزمن وضاقت بهم الأرض . لجأوا الى مواضع يكثر فيها الماء والكلأ ، حتى اذا ضاقت بهم من جديد . عملوا الى هجرها طالبين رزقهم بالغزو وقوة السيف في موضع آخر على عادة العرب في البوادي ، وأنت ترى ، ان البطون التي جاورت البلد العامر ، بنت دولاً وفتحت مدناً ، وذلك الفريق الذي لم يترك البادية ضاعت اخباره وامحى ذكره

ولكل فرع من فروعهم شأن خاص واخبار خاصة . تختلف هذه الشؤون والاخبار باختلاف البيئة والاقاليم ، غير ان السطور التي نكتبهـــا لا تتسع الا لذكر الفروع التي أنشأت الدول وكان لها في تلك العصور تأثيرها السياسي .

جهينة وبلي

من بطون قضاعة جهينة وبلي . منازل الاولى من حـدود رضوى والاشعر الى وادٍ بين نجد والبحر . ومنازل الثانية من تبوك الى جبال الشراة الى معان الى الداروم الى الجفار غرباً الى الفرما في حدود مصر .

ولم يكن للعشيرتين المذكورتين دولة وملوك . بـل كانت لهما بطولة الغزاة وقوة الفاتحين ، وهما الامم التي عناها ابن خلدون بقوله : « اجتاز منهم امم الى العدوة الغربية من البحر الأحمر وانتشروا بين صعيد مصر وبلاد الحبشة وكثروا هناك وغلبوا على بلاد النوبة وفرقوا كلمتهم وازالوا ملكهم وحـــاربوا الحبشه فأرهقوهم » .

ومثل ذلك ما كتبه اليونان من اخبار مصر في اوائل النصرانية ، فقد ذكر استرابون وبلينيوس ان العرب تكاثرت في ايامهم على العدوة الغربية من البحر الاحمر حتى شغلوا ما بينه وبين النيل في اعلى الصعيد . واصبح نصف سكان « قفط » منهم . وكانت لهم جمال ينقلون عليها التجارة والناس بين البحر والنيل .

وبالغ اليونانيون في وصف خشونة العرب فقالوا :

« ان زعماءهم يدهنون وجوههم بالزنجفر كما يدهنون وجوه آلهتهم . وانهم يميلون للغزو لا للفتح حتى ضايقوا مصر واضطر الرومان ان يجعلوا الحامية عند شلال اصوان .

ويسمونهم عرب الاحباش ، وقالوا : كانت عليهم ملكة تدعى قنداقة . وقد تغيرت لغة الاثيوبيين وعبادتهم بنزول اولئك العرب فيها . فبعد ان كانت مصرية اصبحت عربية .

« راجع رواية الحارث الاكبر » .

تنوخ

وتنوخ فرع كبير من قضاعة ، ذكرته كتب اليونان باسم تانويت .

وذكر النسابون انه مزيج من قضاعة والأزد فقالوا :

ان زعيما من الأزد اسمه مالك بن فهم ، وزعيما آخر من قضاعة يدعى مالكا التقيا في البحرين ، فتحالفا على التعاون في القتال فسموا تنوخاً ، وكان ذلك في اوائل التاريخ المسيحي .

ودولة جذيمة الابرش في العراق اقدم دول تنوخ وهي الدولة ذات الشأن في التاريخ العربي ، وواضعة الحجر الاول في دولة المناذرة اصحاب الحيرة ، ملوك عمرو بن عدي .

والمضيرة ، بين بلاد الخانوقة وقرقيسيا كانت داراً لملكها قبل ان يتخذ عمرو ابن عدي مدينة الحيرة عاصمة لدولته « راجع رواية النعمان .

تنوخ الشام

وقـــدمت الشام طائفة كبيرة من تنوخ بعد زوال دولة الانباط في بترا . فجعل الروم زعمـــاء التنوخيين عمالا لهم على بادية العرب والقطر الشامي ، كما جعلوا اخوانهم بني سليح والغساسنة بعد ذلك .

انك لا تجد اخباراً صادقة لهـــذه الدولة ، فالاراء التي يراها المؤرخون مضطربة متضعضعة ، ولم تذكر كتب العرب من ملوكها غير ثلاثة : هم النعمان بن عمرو ، وعمرو بن النعمان ، والحواري بن عمر . كما انهم لم يذكروا شيئاً عن اعمال هؤلاء الملوك واحوالهم وايام ملكهم .

على ان زمن هذا الملك لم يطل ، فان بطناً آخر من قضاعـة اسمه سليح غلب التنوخيين في الشام على كل مالهم ، فتفرقت تنوخ واقام بعضها في قنسرين .

سليح

امـــا بنو سليح فقد نزلوا مشارق الشام مع اخوانهم بني تنوخ ولكنهم لم يملكوا الا بعدهم كما قرأت .

وكانت الدولة في فريق منهم يقـال لهم الضجاعمة ومنـازلهم في بلاد مؤاب من ارض البلقاء . وفي سلمية وحوارين .

وكانوا سادة العرب في بلاد الشام . يجبون منهم الخراج ديناراً رومانياً عن كل رجل ويدفعون ما يجبونه للروم حتى تهدم السد في مأرب . فخرجت قبائل اليمن تطلب الرزق في بلاد الله ، واقبل بنو غسان على الشام فصاروا في تلك الربوع اصحاب الكلمة والسلطان .

وكما تفرق بنو قضاعة في زمنهم الاول ، تفرقوا بعد ان غلبوا في الشام ، فعـاد بعضهم الى العراق ، ولبث البعض الاخر في تلـــك الديار . وفي البلقاء وفلسطين . من هذا البعض تلك الطائفة الكثيرة العدد التي ينتمي اليها رزاح بن ربيعة اخو قصي بن كلاب .

كانت بصرى.في أوائل الجيل الخامس.زاهية زاهرة بفضل الملوك الغسانيين الذين ملأوا القطر الشامي محامد وعدلا وآثاراً خالدة .

وكانت اسواقها على مر الايام تغص بوفود الناس . من جميع الاجناس وجميع الاقاليم . هذا يحمل سلعته ، وهذا يقص في بلاط الملك ظلامته . واخر يستندي اكف المحسنين من الامراء ويذكر لهم حاجته .

وفي ضواحي بصرى ، بل في جميع المدن الغسانية . يمد الامن رواقه ويبسط الهدوء جناحيه. ان سيف بني غسان يفل الحديد . ودولتهم دولة قوة وعدل كما هي دولة ادب وشعر . وكما هي دولة مروءة واحسان .

واطيب ما في بصرى ان الغريب اذا قدمها . تاجراً أم زائراً ، أم محتاجاً ، احس بما يراه من مظاهر الدعة والترحيب ، انه سيد الموقف . لاتمس كرامته ولا تمتهن حرمته . ولا يجرح له عز . كأن اولئك الغسانيين النبلاء جعلوا اهل عاصمتهم عبيداً للغريب . يمهدون له اسباب الكسب والارتزاق . حتى امست بصرى في نظر المسيطر الرومي ارقى عواصم ولايته الكبرى التي يدعونها ولاية الشرق واعظم شأناً من تلك المدن الاهلة بالسكان ، القائمة على الشاطىء . وانك لتعجب ، عندما تعلم ان ولاية الشرق احد عشر اقليما تحت كل اقليم منها مدن كثيرة وبلاد واسعة وان بصرى ، المدينة العربية البدوية عروس هذه المدن والاقاليم .

وقد حجب نورهاالساطع ، نور انطاكية ودمشق .

اما تلك الاقاليم فهذه اسماؤها :

سوريا الأولى وعاصمتها انطاكية . والثانية وعاصمتها حماة . وسوريا الثالثة ، عاصمتها منبج ، ثم فنيقية الاولى البحرية ، وفنيقية الثانية اللبنانية والعاصمتان صور ودمشق . ثم العربية ، والجزيرة وفلسطين الاولى والثانية ، والثالثة ، ، عواصمها ، بصرى ، وديار بكر ، واورفا وقيسارية وبيسان وبترا .

ولقد عرفت ان التجار اذا قدموا بلداً . قدموه جماعات وفرقاً ، فتزيد الموارد ويكثر المال ، وتكتنف بصرى من جميع النواحي مظاهر السعة والنعيم

ولكل وفد وقت يجيء به، اما الصيف فخير فصول السنة للرواح والمجيء.

وكان أهل بصرى ذوي علاقة طيبة بأهل مكة . وهم يعلمون انه اذا جاء الصيف أقبلت طلائع الكنانيين ، كما كانوا يعلمون ان بني كنانة اشراف الناس يجب لهم التكريم والإحترام .

* * *

هذه طلائعهم قد أقبلت .

يتقدمهم فتىً ساحر النظرات عالي الجبين هو قصي . والى جانبه فتىً آخر يفيض وجهه بشراً ونوراً هو صفوان، وهنالك فتىً ثالث اسمر اللون جذاب هو يزيد بن ربيعة الثائر ..

اجل ، كان يزيد مع القوم ، لأن صفوان لم يشأ ان يبقى في مكة خوفاً من ان تمتد اليه يد الغدر ، وشيوخ القوم وكهولهم وراء الفتيان الثلاثة كأنهم جند يمشي وراء قواده .

وعبيد الكنانيين والموالي يسوقون النوق التي تحمل الزاد ، فلما وصلوا الى الموضع الذي يخيمون فيه ، نزلوا ، ولم يستريحوا حتى رأوا وجوه تجار بصرى امام الخيام ، فجاء زهرة بن كلاب فقال لأخيه : على أي أمر عولت يا قصي ؟

– على الذهاب الى منازل قضاعة كما قلت لأرى رزاحاً وأصافح رؤساء القوم الذين نشأت بينهم ..

– أنذهب غداً ؟

– اجل وانت تتولى عني أمر الشراء .

– وسأحمل لك أثمن ما في الشام من ديباج وخز لتبيعه في اسواق فارس كما يفعل ابناء عمك .

– بل أبيع ما تشتريه في دمشق .

قال : تشتري من دمشق ثم تبيع فيها ما تشتريه ؟

– نعم .

– ولكنه رأي جديد في الأخذ والعطاء لا أدرك الحكمة فيه .

قال : اذا أردت ان تعرف كل شيء فاسدل ستار الخيمة ولنتكلم همساً.

ففعل زهرة ، وجلس بالقرب منه وهو يحبس انفاسه .

فقال قصي : اذا رحل قومنا في الشتاء الى بلاد فارس او الى اليمن بقيت انا في مكة .

– لماذا ؟

– لأني وعدت بالبقاء .

– ويخيل اليّ اني أعرف هذا الوعد .

فاستغرب قصي قائلاً : انه وعد لم أبح لأحد به فكيف عرفته ؟

قال : لقد خبرتني سودة ..

– وسودة لا تعرف شيئاً عنه ..

قال : أتظن اني لا أعلم من هو يزيد ؟

– من هو ؟

– هو أحد فتيان البحرين يطوف في الحجاز طالباً بدم وقد وعدته بالبقاء في مكة لتساعده في البحث .

قال : اخطأت فليس ليزيد شأن بما أقول . اني وعدت رجلاً آخر اعظم منه فأطرق زهرة وهو لا يهتدي .. ثم قال : صفوان ؟

– بل اعظم من صفوان أيضاً .

قال : أتعرف امراء مكة يا قصي ؟

– لا أعرف غير كبيرهم وهو الذي وعدت ..

– ومتى بدأت هذه الوعود بينك وبين حليل ؟

– بدأت عندما عاهدته على البقاء في مكة ، في الشتاء المقبل .

قال : انها الغاز لا أفهمها .

– ولكنك تفهم هذه الألغاز عندما أقول لك بالوضوح والجلاء، اني سأتزوج.

فلم يستغرب زهرة ولم يضطرب . كأن فكرة الزواج كانت تجول في خاطره ، بل قال بهدوء : وهل خطبت حبّى .

– اجل وكانت الخطبة غير ما ألفته العرب .. سألت سادن الكعبة ان يرضى بي صهراً ففعل وانتهى الأمر .

– ثم جعلتما الشتاء موعداً للزواج ؟

قال : بعد رجوعنا من الشام يتم كل شيء ثم أقضي في مكـــة بضعة شهور أتهيأ فيها لرحلة الى اليمن في العام الثاني .

– اذن بعد شهرين تضع الحجر الأول من البناء الذي ستبنيه وتبدا حياتك الجديدة في الحجاز ..

– نعم وبعد شهرين ينظر اليّ امراء مكة نظرهم الى الشياطين .

– ويغلي الحقد والحسد في الصدور ..

– ليفعلوا ما يطيب لهم فأنا لا اعبأ بأحد .

– ولماذا لا تخبر قومك ؟

– لأن الزمان الذي يجب فيه ان أشاور قومي لم يأتِ بعد ، وانت ، اجل انت لو لم تكن زهرة بن كلاب لما سمعت مني كلمة .. اني سأستعين بالسكوت على قضاء كل أمر ولولا شعوري الأخوي كما قلت لما بحت لك بسري بعد اتفاقي مع الأمير الأكبر على الكتمان ، والآن فقل لي يازهرة : الا يساعدني قومي في استرجاع عزهم القديم ومجدهم البالي بقوة السيف ؟

قال : رأيت قومنا يجودون بدمهم إذا كانت لـك غاية بهذا الدم ، ولكن الحرب ...

قال : اما الحرب فلا بد منها ولا سبيل الى الوصول الى القمة إلا اذا خاضت مكة بحراً من الدماء ..

– وحاجب البيت ؟

– قل ماذا تعني بحاجب البيت .

– أتحاربه وهو ابو حبى .

– كل يد تمتد اليّ بالسيف أقطعها ولو كانت يد حبى،ولكن الأمير لا يفعلها ولا يطيق على ما أرى الا أن يتم الظفر لي .. ثم قال : ومـــع ذلك فقد تخلق

احادثات اموراً لا تخطر بالبال .

قال : اذا أردت أن تعرف أسرار قومنا وتقرأ ما في قلوبهم فسل صفوان .

– وهل يستطيع صفوان بن الحارث ان يعلم من شؤون قومه ما لا يعلمه زهرة بن كلاب ؟

– ان لصفوان جيشاً من الفتيان ..

– وانا أحتاج أيضاً الى الكهول فمن يقودهم ؟

– أنا .

– وأنت واثق بأنهم لا يخرجون عن الطاعة ؟

– نعم فاذا أكرهتنا الأقدار على امتشاق السيف كنا نحن كهول كنانة في المقدمة .

– اذن فاكتم ما سمعت الآن ولننصرف الى السوق .

– ولكن اريد أن أسألك سؤالاً آخر .

– قل .

– أنبوح غداً لأخينا رزاح بما ذكرته لي ؟

قال : لا أعلم الآن ماذا أفعل ، فإما ان أعود وهو لا يعرف شيئاً واما يعرف كل شيء .

– وماذا تصنع في السوق ؟

– أدور حول هذه القصور فأرى عظمة الملوك الغسانيين .

فقال ضاحكاً : ولعلك تريد بلاط الملك فتجعل لك بلاطاً مثله .

– هو ذاك ، فقل لأحد أصدقائك المقربين ان يمهد لنا سبيل الدخول.

* *

رأى زهرة كبيراً من تجار بصرى فسأله ان يستأذن لهما في الدخول الى القصر ، وكان ذلك سهلاً ، ففي كل يوم تدخل الوفود يتقدمها قهرمان القصر وحاجب من حجابه . وليس على هذه الوفود إلا أن تظهر رغبتها في الدخول ليأذن لها أولياء البلاط .

فمضى ذلك التاجر يستأذن للكنانيين ، ثم دخل الثلاثة .. فمشى الحاجب أمامهم في رواق كبير على جدره صور القمر والشمس والبهائم والأزاهير . وعلى سقفه نقوش عجيبة على الطراز الشرقي في دوره الأول .

وطول ذلك الرواق اكثر من عشرين ذراعاً ينتهي ببهو يقوم على العمد كالبهو الذي رأوه في مدخل القصر ووراءه حجرات على سطوح مستطيلة كأنها ابراج مطلة على الجانب الجنوبي .

وقصي رأى الكثير من هذه الأبراج في ديار الشام .

ثم تقدمهم الحاجب الى رواق آخر فيه الشرفات عليها القبب حتى انتهوا الى قاعة كبيرة جداً فيهامن الزخرف ما يخلب اللب وفي جانبيها مقاعد منخفضة من الحجر السنجابي وضعت فو ها الوسائد .

فقال قصي : انها قاعة تشبه في سعتها صحن الكعبة وأظن انها قاعة الجلوس.

فاجابه الحاجب : اجل في هذه القاعة يستقبل مولانا الحارث الثالث ابن الأيهم وفود بصرى الغرباء . انظروا هذا المقعد الذي عن يمين العرش هو للنعمان ولي العهد والى جانبه المقاعد لابناء عمه ورؤساء العشائر عندما تجمعهم هذه القاعة . ومقاعد الشمال هي لأخي مولانا الاكبر وقواد الجيش .

— وكيف يستقبل الملك هؤلاء الأضياف ؟

قال : تدخل الوفود من هذا الباب فتقف اولاً صفين متقابلين امام الوسائد ثم يدخل من هذا الباب حاجبان شاهرين سيفيهما همـا من اشراف غسان ويطل الملك وراءهما بثيابه المذهبة ومعه النعمان ورجال البلاط .

— ثم ماذا ؟

— فتنحني الرؤوس اجلالاً لصاحب التاج ثم يستوي الحارث في عرشه فتتقدم الرجال واحداً بعد واحد يلثمون يده وعلى كل رجل منهم ان يذكر اسمه واسم قومه ويعود الى موقفه .

فيأذن لهم في الجلوس ويبدأ بالسؤال عما يطيب له .

— واين يجلس لابناء شعبه ؟

– في الجهة الثانية من القصر على شمـــال الداخل من الدهليز وقد يجلس للحاجات ولي العهد او أحد الامراء من اخوته عندما يكون مولانا الملك مع حاكم دمشق الرومي او مع سواه من كبار رجال الروم .

– وكيف يقضي الحارث ايامه ؟

فابتسم قائلاً : ليس للملك ساعة واحدة يستريح فيها من متاعب الملك حتى ليخيل اليّ انه يحسد حجاب القصر على الراحة ، يوم للعطاء ، ويوم للمظـــالم ، ويوم للروم ، ويوم للجيش ويوم للوفود . فتنقضي الأيام كلهـــا وهو مستند الى وسادته ينظر في شؤون الناس الا يوماً واحداً يخرج فيه الى البر مع انجاله الامراء ومن ينتمي اليه من اسرته ليصيدوا الغزلان .

ثم قال : اتعرف الآن مـــاذا يصنع ؟ انه يحدث شيوخ العرب القادمين من البادية ينقلون اليه اخبار العشائر والضيق الذي تحسه في هذا العام ، بل اقول لك غير ذلك ألم تر اني مشيت امامكم للطواف في هذا القصر دون ان أقول كلمة ودون ان أتردد في الامر ؟

– بـــلى .

– : وهل سألتك عن اسمك او سألت هذا العربي عن اسمه ؟

« وكان الحاجب يعرف التاجر الذي يرافق الاخوين » .

– لا

– ولكن اعلم ان الملك يعرف الاسمين الآن .

– وكيف عرفها ؟

– عندما استأذن لكما عمرو « اسم التاجر » ذكر الاسمين لحـــاجب آخر يكتب اسماء الناس وينقلها الى الملك .

قال : أفلا يدخل القصر احد قبل ان يؤذن له ؟

– يدخله رجـــاله وموظفوه والمقربون الى الحارث ليس غير . وكيف يدخله الغريب بدون اذن والحجاب ببابه يمنعونه من الدخول ؟ اسمع ، يجيء حـــاكم دمشق والخيل امامه وخلفه ، فيقف بالباب حتى يصدر الامر له . واذا أقدم

على غير ذلك حوّل الملك عنه وجهه ولم يأذن له في ان يراه .

– ومن هم شيوخ البدو الماثلون بين يديه ؟

– شيوخ قضاعة ولهب والجاهيل وهم من رعيته .

– وهل ينصرفون الآن ؟

– ماذا؟ ايخرجون من القصر قبل ان يتناولوا الطعام؟ انها اهانة لا يفعلها الا الذي يجهل عادات القصر .. يأمرهم الملك بالانصراف ولكن الى منازل الضيافة حتى اذا شبعوا خرجوا الى حيث يشاؤون .

فقال قصي في نفسه: سأرى هؤلاء القضاعيين قبل ان يتركوا بصرى وسأذهب معهم الى باديتهم التي لا تبعد غير خمس مراحل ، وقد يكون رزاح بينهم فينقضي الامر .

– ووليّ العهد ، أيكون الآن مع الملك ؟

قال : امـا ولي العهد ففي الرواق الآخر الذي ينتهي ببرج القصر الاسود ومعه اخوته .

– وماذا يصنعون في ذلك الرواق ؟

– انهم في الساعة يصيدون الضب او السنجاب ..

فظهر الاستغراب على وجه قصي وهو يقول ؟

يصيدون الضب والسنجاب في البلاط ؟

– اجل يصيدونها كل يوم ..

– ومتى كان بلاط الحارث بن الايهم بادية او غاباً يأوي اليه الحيوان .

– ليس عليك الا ان تتبعني لترى ما تقول .

وخرج من القاعة وهم وراءه يمشون بين صفين من الغرف لرجال القصر حتى استقبلوا الشمس في بهو ثالث مكشوف كأنه بناء مستقل ، يتصل بهذا البهو سلم ذو درجتين امامه حاجز من الخشب ووراء الحاجز ثلاثة قضبان من الحديد تتدلى منها الحبال .. ومن ذلك الحاجز الخشبي يبدأ الرواق ..

فرأى القوم طائفة من الغلمان ، فقال قصي: اهذا هو الرواق الذي ذكرت؟

– نعم فانظر الى الساحة التي تحته .

فأرسل نظره فابصر اقفاصاً على جانبي الساحة فيها الاسود والانمار ومعظم صنوف الحيوان يقابلهـــا اقفاص لأصناف الطير بينها الطاووس ، فقال : لقد عرفت الآن فهنا مأوى السنجاب ..

– اجل وهذا هو البلاط الذي يجعله الملك غاباً .

ومشى الى باب صغير مفتوح وهو يقول : ادخلوا فسترون اعجب مـــا في بصرى بل اعجب ما في الشام .

وذلك الباب يؤدي الى سرداب مظلم. فبعد ان مشوا عشرين خطوة ابصروا النور من باب آخر اكبر من الاول فوقف الحاجب قائلاً : اسمعوا ، هذه اصوات ولي العهد والامراء يشدون أقواسهم ؟

قال : اندخل ؟

– احذر ان تفعل ذلك قبل الاستئذان، وغادر السرداب الى الخارج وقصي يفكر في عظمة الملوك .. ثم عاد الحاجب فقال لهم :

لقد أذن ولي العهد فاذكروا اسماءكم قبل ان تلثموا يده .

فتبعوه . فاذا النعمان مع خمسة من اخوته وأبنـــاء عمه ، وجميعهم فتيان ، جالسون في الطرف الآخر من الرواق على بساط أحمر ، ووراء ظهورهم ذلك البرج الاسود الذي ذكر لهم وبين ايديهم ثلاثة من العبيد .

والنعمان لا يجاوز الخامسة والعشرين . ضعيف البنية صغير الوجه تكاد لا ترى فيه مظهراً واحداً من مظاهر الخشونة في الرجال .

فأقبل عمرو فقبل يده وايدي من حوله وتبعه زهرة ثم قصي وقد انتسبوا وتراجعوا الى الوراء ، فقال وهو يبتسم لهم :

اجلسوا على بساطنا واذكروا ما قدمتم لاجله .

فجلسوا وزهرة يقول : قدمنا بصرى للتجارة على عادتنا كل عام .

قال : انكم أهـــل مكة تجار وبنو كنانة من اشرافهم ، وجعـــل يتفرس في قصي قائلاً : وهذا أخوك ؟

– نعم يا مولاي وقد خرج معنا للمرة الاولى .
– ولكن رأينا من الحجاز تجاراً أصغر منه ..
قال : لقد نشأ بعيداً عن مكة يا مولاي ، ثم قص عليه ماضي قصي .
فوجه الكلام الى قصي قال : اذن كنت في بلادنا مع القضاعيين .
– نعم وقد نشأت غسانياً مخلصاً اخلاص بني قضاعة .
– اجل واعطيتنا من عمرك عشرين سنة .
قال : ليتني أستطيع أن أقضي العمر كله في الشام .
– وماذا يمنعك من ذلك ؟
– قومي ووطني يا مولاي غير اني سأكون في مكة أشد إخلاصاً ..
وكان ولي العهد يشد قوسه بيديه فقال : أتحسنون الرمي انتم الكنانيين ؟
قال : تطيش سهامنا اكثر مما تصيب ..
– ولكن احسنتم الضرب بالسيف فكنتم اصدق الضاربين .
واشار الى السهام بين يديه قائلا : انظروا الى هذه السهام انـّا ننزع بمثلها كل يوم، حتى قال الملك لسفراء الروم ووجوه رجاله : ان ولي عهده ارمى العرب.. وقد أذنـّا لكم في أن تروا الآن كيف نصيب الاهداف .. علق الضب يا غلام .

فأحضر الضب من قفصه وعلق امام الحاجز بينه وبينه شبر ، وهو يضرب الهواء بيديه .

والضب صغير الحجم وجلده قاس كجلد التمساح ، فنز النعمان عن القوس ورمى قائلاً : هذا هو السهم الاول نرسله الى القلب فيستريح الضب لمسكين من حياته .. واذاالسهم يخترق القلب كما قال ويثبت في ذلك الخشب الصلب القائم بالقرب منه .

ثم قال : وهذا الثاني نجعله تحته ، وأرسله فوضعه حيث أراد ، ثم أخذ يرمي فقراته فقرة فقرة ، السهم تحت السهم ، لا يبعد الواحد عن الآخر قيد اصبع ، حتى ملأ جسمه الصغير سهاماً الا الرأس والذنب .. وزهرة وقصي ينظران وقد تولاهما العجب .

ثم أخذ النعمان سهماً آخر وهو يقول :

لقد حنى الموت رأس المسكين فيجب ان يرفعه . ورماه فرفع السهم ذلك الرأس ..

والتفت الى قصي قائلاً : اذا تعلمت الرمي فافعل كما نفعل .

فقال ورب الكعبة لم أر قط مثلما رأيت الآن ، لقد اصاب مولانا الملك في قوله انك أرمى العرب .

فقال احد الامراء : سترى ايضاً أغرب من هذا .

وصاح ولي العهد بغلمانه قائلاً : السنجاب ...

فاحضروه وعلّق امام الضب .

فقال : سنجعل الرأسين في سهم واحد ، ولم تكن الا لحظة حتى نفذ السهم من رأسيهما كأن رجلاً وضعه بيده .

وجعل يغرس سهامه في ذلك الجسم الناعم حتى احتجب كما احتجب الضب قبله في ظل السهام ، فهمس زهرة في أذن أخيه يقول :

اذا أردت ان تصير ذا عرش فكن كالنعمان .

قال : قتلتني الآلهة ان لم اصبح مثله ، ثم قال وقد رفع صوته :

لتضم مثلك قصور الملوك يا مولاي .

فوضع النعمان يده على كتف اخيه الأصغر وقال : سنصور لك طاووساً كالطاووس الذي تراه في الساحة . هات الطاووس يا بدر . انظر ايها الكناني . ورأس الملك سنجعل هذه السهام الباقية ذنب طاووس .

وحمل الغلمان الطاووس الى الرواق . ثم وضع احدهم على الحاجز وسادة كبيرة محشوة من الكتان اثبتها بالمسامير واستند الى الجدار . وهزّت الخيلاء الطاووس فعقد ذنبه . فبدأ ولي العهد يرسل سهامه ويصفها على الوسادة جاعلاً اياها كالطاق وهو يدنو حيناً ويبعد حيناً ثم يدور حولها حتى اضحت الوسادة بسهامها شبيهة بذنب ذلك الطاووس الهندي وقد نفدت سهام ولي العهد ، فارتفعت اصوات الاستحسان . اما قصي فكان محلقاً في فضاء الاحلام .

وكأن النعمان اراد ان يحمل الكنانيان شهرته الى الحجاز ، فقال :
نصيد النمر بسهم واحد وهو يثب هارباً ونبقيه حياً عندما نشاء .
فقال زهرة : ليس كثيراً عليك يا مولاي ان تفعل هذا فالذي يصيب فقرات الضب يصيب الذبابة ..
قال : وأغرب من هذا كله ان الملك يرسل سهمه الى الدابة وهي تعدو فيضعه في الحافر . اجلسوا الآن نسألكم عن بيت العرب ، كم صنماً في الكعبة ؟
– لكل قبيلة من قبائل العرب واحد او اثنان .
– وهبل أعظمها جميعاً أليس كذلك ؟
– نعم يا مولاي ويجيء بعده اللات والعزّى . ألا تعرف الكعبة ؟
– يزورها من رعية الملك كل عام اكثر من ألف ، اما نحن فلم نحجها وقد لا نفعل فيما بعد .
وكان الغسانيون قد تنصروا وزهرة يعرف ذلك ، فسكت ولم يبدِ رأياً .
فعاد النعمان الى القول : ان الكعبة حصن الحجاز وهي تمنع أهله . ولولا الكعبة لامتدت اليه أيدي الفاتحين واستولوا على كل شيء . هكذا يقول الملك نعم ، والعرب جميعها تحترم البيت وتلقي بسلاحها على بابه . وجعل يقول : نحن لا نطمع بالحجاز . فهو بعيد عنا ولا نحب ان نهدم ما بنته العرب منذ أجيال فليبقَ اذن لأمرائه وليهنأوا به . وكذلك الروم . انهم لا يفكرون في ذلك القطر ، على رغم الاطماع التي تملأ صدور القواد ، وعلى رغم الجند السكران الذي يقودون .
فجاء عندئذٍ دور قصي فقال :
مع ان الروم الفاتحين لا يملون الحرب ، أتراهم يخافون يا مولاي ؟
قال : انهم يخافون السيف كما يخافون ذلك الشعور العربي العام . أهل الحجاز وقبائل العرب جميعها من جانب . وملك الفرس عدو الروم وحليفه ملك العراق من الجانب الآخر . فيضيع الجيش الرومي في بوادي العرب ، لا يرجع منه جندي .

واستدرك قائلاً : نقول هذا لتكونوا آمنين فليس في العالم كله بلد كمكة لا تطأ ارضه اقدام الفاتحين ولا تدوسها حوافر خيلهم .

قال : اذا قصر الحجازيون عن حفظ ارضهم حمتها سيوف الملوك الغسانيين حماة العرب .

– ولكن اسمع اخباراً اريد ان اذكرها الآن .

– ما هي يا مولاي ؟

– يقول الحجاج ان الماء في مكة لا يكفيهم ، أيعجز امير الكعبة والامراء الذين حوله عن حمل الماء من الينابيع والآبار ليسقوا العرب ؟.

قال : لقد صدق الحجاج فيما نقلوه .. وماذا يقولون غير ذلك ؟

– ويقولون ان القوي اذا آنس من اخيه ضعفاً وهما في الموسم سلبه ماله ورحله لا يجد من يمنعه .

– وهذا صحيح يا مولاي .

– ثم يقصون علينا ما هو اغرب من هذا كله أتعرف ماذا ؟

قال : انهم لا يذكرون لنا ما يذكرونه للملوك . ماذا يا مولاي ؟

قال : خبرنا احد امراء البادية ان سادن الكعبة نفسه الذي هو كبير امرائكم لا ينهى خاصته ورجاله عن الظلم الذي يسومونه الحجاج. فقل لنا الآن ، أليس لما يفعله هؤلاء حدّ ؟

قال : اذا كان هنالك ظلم فدواء الظلم السيف .

قال : عندنا دواء خير منه . ان الاشراف في مكة كثيرون ولهم رأيهم .

– نعم

– فعلى هؤلاء الاشراف ان يقولوا كلمتهم فينتهي الامر .

– واذا لم يسمعوا لهم ؟

– بل يسمعون؛فان العرب اذا نفروها تركت الحج،وفي تركه خراب مكة .

– أتترك اصنامها يا مولاي ؟

– تنحت لها اصناماً اخرى وتجعلها في منازلها كما يفعل بعض القبائل اليوم.

هذه غسان. لا يحج منها في العام المقبل اكثر من مئة، ثم يجيء العام الثاني فلا تجد منها في مكة احـــداً .. والويل لبلد لا يسود العدل اهله . انه ينهار اذا ثارت العاصفة ويسقط على الرؤوس المرتفعة فيمحو أثرها الى الابـد . وكانت الالفاظ التي يقذف بها فم النعمان مثالة تلقيها الاقدار على مسمع قصي ، كأن ولي العهد الغساني رسول الآلهة الى ذلك الفتى الطامع الذي يفكر في الملك .

اجل . لقد دفعت يد القضاء ذلـك الكناني الى بلاط الحـــارث الثالث . ليسمع آراء ملوك العرب في الحجاز . من حيث لا يعلم اولئك الملوك ذلك الغرض الذي يسعى اليه .

وسكت النعمان قليلاً كأن حديثه قد انتهى ،

فهم الثلاثة بالانصراف فاذا هو يقول :

كم يبلغ حليل بن حبشية من العمر ؟

فقال زهرة : لقد جاوز السبعين يا مولاي .

– اذن فالسبعون سبب الفوضى .

– ولكن له همة هي همة الشباب .

قال : لو كان الامر كما تقول لمـــا ارتفع للحجاج صوت .. خير لحليل ان يتخلى عن الولاية لرجل من قومه ..

فابتسم زهرة قائلاً : أيفعل هذا وله ولد ؟

قال : نسينا ان نقص عليكم ما يقوله الحجاج عن هذا الولد الذي تذكرون . لقد رآه بعضهم في آخر المطـاف وهو سكران ؛ ثم قيل للذين رأوه هذا ابن حاجب البيت وكانوا يحسبونه من أوباش العرب . أصحيح هذا ؟

فتردد زهرة ، اما قصي فقال : كل ما نقل اليـك صحيح يا مولاي .. وهو يريد من ذلك ، ان يعطف ملوك غسان على قضيته ، اذا هو أقدم عـــلى الأمر الذي يفكر فيه .

ثم قال النعمان : ويشربها في الشهر الحرام ؟

قال : لو أعطوه زقاً من الخمر وهو على قدمي هبل في جوف الكعبة لشربه

كله في ساعة وأشراف العرب ينظرون اليه .

قال : اذا أراد حاجب البيت ان يجني على العرب ويقوّض أركان الكعبة فليوصِ بالحجابة للمحترش ، وليملأ له حياض المـاء في فناء الكعبة خمراً يرتوي منها في كل يوم .

فاهتز قصي واصفر جبينه .. ان ذلك الفكر الذي يبديه النعمان بن الحارث فكره . والرأى رأيه . كأن الأثنين تعاهدا على الامر .

ولم يدرك زهرة تلك الحكمة التي تقضي على أخيه قصي بان يبوح لرجـال البلاط الغساني بجميع أسرار الأمارة العربية الكبرى التي لا تعني آل غسان ..

وكان مضطرباً ، لكنه تعود ان يرى من اخيه ما لا يعلم . كما تعود ان يطيع دون ان يتردد . مدفوعاً بقوة ذلك التأثير السحري المنبعث من عينيّ اخيـه ، وقد فاته ان قصياً استلذ تلك النغمة العذبة التي هي نغمة نفسه ، ومطمح امله ، وانه كان يريد بصراحته واعترافه ان يستدرج الأمير الشامي الى الإفضاء بكل ما يعلم من شؤون الحجاز .. وبقي على قصي أن يعرف شيئاً واحداً يبدو لـك من خلال الحديث الذي تقرأ فقال :

أتظن يا مولاي ان سادن الكعبة يتخلى مختاراً عن الحجابة ؟

قال : امامه واحد من امرين . إما ان يعتزلها وإما أن ينقذ الحجاز من ظلم امرائه .

– لو قيل لحليل ان قبائل تهامة ونجد والعراق تزحف الى مكة بعـد شهر لتجعل البيت الحرام أنقاضاً لوقف بباب ذلك البيت يؤثر الموت على ترك المفاتيح.

– ولكنه حرص في غير موضعه .

– بل له عذره يامولاي . ان خزاعة تملأ مكة وفيها الرجال أبناء الشرف والعز فأي رجلٍ من هؤلاء يختاره حليل ؟

– لو عرفناهم لسمينا أحدهم .. ليختر أبعدهم صوتاً واعظمهم شأناً .

– اذا فعل ارتفعت اصوات الطامعين وهم كثيرون ..

– ويعمد عندئذٍ الى الشدة فيخنق أصواتهم ..

– بالحرب ؟

– لا فالحرب ليست من رأينا ولكن بقوة النفوذ .

– وقد يضيع في ذلك الموقف نفوذ حليل يا مولاي .

قال : لم يبق الا ان ينهى الأقوياء عما يفعلون .

قال : خير له أن يحمل السيف ويخوض المجال من أن يفعل هذا ...

– لماذا ؟

– لأن ذلك النهي نفسه أشد وقعاً على النفوس من الحرب ..

– أتراهم يثورون ؟

– اجل ولا يخمد نار ثورتهم الا السيف .

– اذن فالسيف ، وكل عرش لا تحميه السيوف يهوي بصاحبه .

ونهض قائلاً: بالسيف بنى أجدادنا هذا الملك ولا يزال هذا السيف في يـ[illegible] نصونه به . فأذا أردتم أنتم الحجازيين ان تحفظوا بهجة البيت فافعلوا كما [illegible] ومد يده اليهم فلثموها وهو يقول : دلهم يا غلام على بيت الضيافة ..

فقال زهرة : الا يأذن لنا مولانا في الانصراف الآن ؟

قال : لايدخل زائر بلاط الملك الا ويذوق طعامه قبـــل ان ينصر[illegible] اذهبوا ولكن لا تنسوا ان يحسن امراؤكم الى الحجاج .

فتقدمهم الحاجب الى بيت الضيافة وقصي يقول في نفسه : لقد تعلمت [illegible] يا ولي العهد ان أحسن الى الحجاج ..

ومن اين لقصي البدوي ان يعلم ، ان للنعمان الغساني غرضاً بذلك [illegible] الصريح الذي سمعه منه ، بل من اين له ان يعلم ان ذلك البلاط ينفـــخ [illegible] التمرد في صدور العرب ، ليختلف الرأي العربي في شأن الكعبة ، وتتفرق [illegible] العشائر ؛ فيتزعزع موقف النعمان بن امرىء القيس مـلك الحـــيرة ويضعف نفوذه ..

وملوك العراق اعداء ملوك الشام ، لا يبرح الواحد منهم يكيد للاخر حتى يتم له النصر ..

* * *

- ٨ -

تناولت الوفود طعـــام الغداء على بساط الملك . في بيت الاضياف ، وهي خليط من جميع الاقاليم ، قدمت بصرى لحــاجات لها . ثم مالبثت حتى زارت القصر لترى ما فيه من عجائب الصور ..

وكان قصي يتبين الوجوه ليرى شيوخ قضاعة الذين مثلوا بين يدي الملك مع شيوخ لهب والجاهيل ، فوقع نظره بين الصفوف على وجه خيل اليه أنه يعرفه .

فقال لجاره : أتعرف هذا الرجل الذي يأكل أكل جائع ؟

قال : انه رفيقي الى بصرى .

– ممن هو ؟

– من قضاعة .

– وأنت ؟

– من بني لهب ، وقد قدمنا لزيارة الملك على عادتنا في كل عام ، إن الملك الغساني أعظم الملوك .

ثم قال : متى تركت الحجاز ؟

فأجابه قائلاً : كيف عرفت أني حجازي ؟

فأومأ الى قلنسوته وهو يقول :

لا يلبس مثل هذه إلا أهل الحجاز .

قال : أصبت فأنا حجازي وقد قدمت اليوم مع قومي جيران الكعبة .

– أعنيت خزاعة ؟

– بل كنانة التي تقيم بالشعاب .

فهز رأسه قائلاً :

اعرف مكة كما أعرف بصرى وأسمع ان قومك الكنانيين اعــز الناس ،
ولكن لماذا تسألِ عن هذا القضاعي ؟

– لأني رأيت هذا الوجه من قبل وأحب ان أحدث صاحبه .

– لعلك رأيته يطوف حول البيت .

فكره قصي ان يعترف للرجل بكل شيء فقال : قد يكون هذا .. والآن
أرجو ان تعرفني به .

– سأفعل بعد ان يرفع الطعام .

وأكل القوم حتى امتلأت البطون .. فلما هموا بالأنصراف قال اللهبي :
ألا تذكر لي اسمك فاذكره لأبي ذهل ؟

فوضع الفتى يده على جبينه وقد ذكر في تلك الساعة ان ابا ذهل القضاعي
من أصدقاء أخيه .

وأطرق قليلاً ثم قال : اما اسمي فقصي بن كلاب ..

فنادى الرجل ابا ذهل قائلاً :

ضع يدك بيد هذا الحجازي الذي يعرفك .

فجعل القضاعي يتفرس فيه . وعيناه تلمعان . واسمه يبدو على شفتيه ، ثم
يختفي حتى قال :

قصي .. أخو رزاح بن ربيعة ؟

– نعم ..

– ولكن بقيت في مكة ولم تعد الينا بعد الحج .

– اجل . وأني لأذكر القوم النبلاء الذين نشأت فيهم وقضيت بينهم عشر..
عاماً تكتنفني مظاهر الحب .

ثم قال : كان رزاح يقدم بصرى في مثل هــذا الشهر وهو أول من يشهد
المواسم ، فأين هو ؟

– لم يبرح الحي ..

قالها وهو يبتسم ..

– وما يمنعه ؟

فأصبح ذلك الأبتسام ضحكاً ، ثم قهقهة .. ثم هامسه قائلاً : يمنعه كثرة المال بين يديه ..

فخيل اليه انه يريد أن يمازحه ، فقال :

أتهزأ برزاح ؟

– بل أذكر لك ما أعرفه عنه . ان رزاحاً سيد الأغنياء في قضاعة وقد أمطرته السماء نعماً ووهبت له الأرض كلّ ما فيها من بركات ..

فأشرق جبين الفتى .. ان ذلك المال الكثير يرفعه الى القمة التي تطمح اليها نفسه ..

وزاد ابو ذهل فقال : حتى ان رزاحاً يستطيع أن يسلح العشيرة من شيخها الى غلامها ، من ماله دون ان يحتاج الى درهم واحد ، وقد يحارب ملكاً مثل الحارث عاماً كاملاً دون أن يمد يده الى أحد .

فجعل قلب قصي يرقص في صدره . تلك بشرى جديدة تزفها اليه الأقدار. ولبث ساكتاً كأنه يفكر فيما سمع .

فقال القضاعي : ومن الرأي ان ترى عيناك ما تسمعه اذناك ..

– أي انك تدعونني الى الذهاب معك لأرى أخي .

– نعم .

– ولكني لا أستطيع ذلك ، فقومي سيعودون الى مكة بعد بضعة أيام .

قال : اذا كنت لا تذكر اخاك فاذكر امك ..

– أذكر الأثنين وأتوق الى رؤيتها ، ولكن ماذا أصنع والرجوع من الشام الى الحجاز لعبة خطرة لا يقدم عليها قصي بن كلاب .

– تريد ان تقول انك سترجع وحدك .

– اجل ، وهذا ما لا يسلم به رزاح ، فاضطر الى البقاء عندكم حتى تنصرف قضاعة الى الحج .

قال : لي رأي أقوله لك الآن .. متى قدمت كنانة ؟

– اليوم .

– اذن فهي تمكث في بصرى أكثر من عشرين يوماً أليس كذلك ؟

– لا أعلم فسل اخي زهرة .

ثم عرّفه بأخيه ، فقال : ألا تعلم يا زهرة متى تعودون الى الحجاز ؟

ل : نبقى في بصرى خمسة ع‍.. ‍وماً على الاقل .

فألتفت الى قصي قائلاً : وانت لا تغيب اكثر من عشرة ايام ترجع بعدهـا الى قومك .

فجعل قصي يعتذر والقضاعي يلج في طلبه حتى عرف زهرة ان أخاه لا يريد ان يظهر رغبته في الذهاب الى منازل القضاعيين ، فقال له ، وكأنه يساعد ابا ذهل في أمره :

وما الذي تخشاه ياقصي ؟

– أخشى ان ينصرف قومي قبل ان اعود ..

قال : لا ننقل من بصرى قدماً الا اذا كنت في المقدمة .

– وأخشى ان يضيع مالي .

قال : سأتولى انا أمر هذا المال ، فأبيع لك ما حملته من مكة وأشتري بثمنه ماتشاء ..

ولكن قد تأمرني امي بالبقاء فأخسر كل شيء .

قال : اذا ذكرت لأمنا ان كنانة لا تترك بصرى الا اذا كنت معها هيأ لك اسباب الرجوع .

وكان الحديث قد طال وقد ضعفت مظاهر الاعتذار فقال قصي : اذا كان هذا فيجب ان نسافر غداً .

فقال ابو ذهل : ونخرج من بصرى قبل ان يبزغ الفجر .

فدلـّه زهرة على الموضع الذي ينزلون فيه وهو يقول : لولا هذا المال الذي نحمل لسرت معكم لأرى امنا التي كادت تنسى الحجاز . وخرجوا من قصر الملك

وقصي يقول لأبي ذهل :
الى اللقاء .

* * *

ثلاثة شيوخ . وثلاثة فتيان . تركوا عاصمة الغسانيين قبل بزوغ الفجر ومشوا في طريق يتجه الى الشرق بانحراف قليل الى الشمال .

هم : القضاعي ابو ذهل ، يتبعه سيد لهب وسيد الجاهيل ، وقصي بن كلاب يتبعه صفوان بن الحارث ويزيد بن ربيعة ، من أركان الحرب ..

والشيوخ ، يقصون على الفتيان حكايات العرب النازلة في ربوع الشام في ظل الغسانيين ..

ثم يجيء دور صفوان فيورد لهم الروايات عن افراسه ويصف لهم بتلك العذوبة الجذابة ، جمال تلك الافراس .

حتى قال قصي: سيحدثنا الآن أبو ذهل بما دار بينهم وبين الملك من أحاديث .

قال : أرأيت الملك يا قصي ؟

– ومن أين لي ان أراه وأنا في مكة ..

– ولكنك تعرف بصرى من قبل وكنت ترافق قضاعة اليها وأنت صغير .

– نعم غير ان الصغير لا يعبأ بالملوك ولا يبالي بما يراه من آثار العظمة والمجد.

– ألم تره خارجاً الى الصيد او ذاهباً بموكبه الى دمشق في فصل الصيف ؟

قال : لا اعرف للملك وجهاً كما اني لم ادخل بلاطه إلا هذه المرة كما رأيت ..

– وماذا وجدت في البلاط ؟

– وجدت مدينة كبيرة في قصر . ورأيت صوراً وتماثيل تخلب الالباب ، ولولا هذا اللسان الذي ينطق به الغسانيون .. اي ورب الكعبة لولا لسانهم العربي لقام في ذهن الناس الذين يرون قصورهم انهم من الرومان .

– وبعد ذلك ؟

– ولعل النعمان ولي العهد الذي لثمت يده وحدثته اليوم اعظم رجال هذه الدولة نفساً واقربهم الى القلوب .

قال : وهو اثبتهم جناناً وأصدق من حمل سهماً من رماة العرب .

قال : وقد رأيت منه امس ما لا أنساه ..

– ألم يفقأ بسهمه عين الهر ؟

– بل فعــل اعظم من هذا .. أصاب فقرات الضب فقرة فقرة كأن السهم بيده يثبته حيث يشاء .. ثم جعل يرسل سهامه الى احدى الوسائد فجعلهـــا طاووساً ...

وراح يروي للقوم كل ما رآه في ذلك الرواق .

ثم قال : والملك يا ابا ذهل ؟

فقال : اما ولي العهد فصورة ابيه ، ان الحــارث خير الملوك كما قلت ، اذا سئل اعطى ، وان استوهب وهب ، واذا لجأت اليه جعلك بين ولده وكنت اعز الناس عليه .

– وهل تفدون عليه في كل عام ؟

– ذلك لا بد منه . فالعشائر النازلة في بلاده كثيرة العدد ، ورجال هــذه العشائر جنود الملك لا يخرج منهم رجل واحد عن طــاعته .. يأمرنا بالمجيء في كل عام فنجيء ، ثم يسالنا عن اموالنا وارضنا وسلاحنا فنقص عليه ما نعلم فيعمد الى المال والسلاح يعطينا منهما ما نحتاج اليه .

– وماذا أعطا امس ؟

– ان العشائر اليوم لا تحتــاج الى شيء . المال يملأ الأيدي والخصب في هذا العام يكتنف ربوع الشام ؛ ولكني أذكر لك احسان الملك الى رجل من أهــل العراق مثل بين يديه أمس ونحن في مجلسه .

قال : العراق عدو الشام !

– اجل ، وأهل العراق جميعهم خصوم الغسانيين لا يرى الرجل منهم رجلاً من هؤلاء حتى يشهر عليه السيف ..

– وكيف يجرؤ العراقي عــلى الدخول الى البلاط ؟ بل كيف يجرؤ على الاستئذان وهو مكره على ذكر اسمه ؟

قال : يفعل ذلك وهو مطمئن لوثوقه بحلم الملك ،ولكن هنالك ما هو اغرب من هذا ؟ خبره يا أخا لهب .

فقال اللهبي : لم يكن الرجل عراقيـاً عادياً بل هو من فرسان لخم المشاهير الذين تعرفهم الشام ..

ــ وقد قيل ذلك للملك على ما أرى .

فرفع صوته قائلاً : لم يكن الملك بحاجة الى من يقول له كلمة عنه، انه يعرفه من قبل وصورته مطبوعة في ذهنه .

فاصغى القوم الى الرجـل ، وحبس قصي انفاسه ليحفظ المثالة الجديدة في حلم الملوك . .

وكان اللهبي يقول : دخل الحاجب فذكر للحارث اسم العراقي فاذن له وهو لم يسمع من قبل ذلك الاسم، ولكنه عندما مثل بين يديه تفرس فيه ساعة ثم قال: يخيل الي اني أعرف من انت ..

ــ وماذا قال الآخر ؟

ــ اطرق ولم يجب ، والملك يبتسم وعيناه تختلجان حتى حسبنا ان صدره سينفجر بعد ذلك الابتسام ..

غير انه لم يخرج عن هدوئه ، بل قال له :

الا تذكر ايها الرجل تلك الواقعة الهـائلة التي جرت بيننـا وبين قومك اللخميين في وادي الغرور ؟

فقال: اذكرها يا مولاي. قال : وتذكر كيف مرق جوادنا بين صفوفكم حتى قاربنا الراية وكدنا ننتزعها من يد حاملهـا لو لم يفاجئنا احد اللخميين بضربة سيف من الوراء ؟

فجعل العراقي يرتجف ..

اما هو فالتفت الينا قائلاً : كان ابن عمنا حجر بن حفنة يتبعنا عـلى فرسه مع ثلاثة من فتيان غسان ، فلما اهوى لنا العراقي بالسيف ضيقوا ضربته وصاحوا قائلين :

اترك الراية ايها الملك ففرسان العراق يغدرون ..

فهمزنا الجواد فاندفع الى الامام ، ثم لوينا عنقه فاذا السيوف تتلاحم وفارس من فرسان لخم يقاتل الغسانيين الثلاثة وهو يقول :

نحن أبطال الحيرة . نحمي الميادين ..

ثم اشتعلت النار من جديد وخسرنا المعركة في ذلك اليوم .. أتعلمون من هو الرجل الذي كاد سيفه يقطع عنق الملك ؟

فقلنا : كنا نقاتل في صفوف الملك في ذلك اليوم، وقد سمعنا ان رجلا كاد يغدر به لولا حجر ، ولكن لم نعلم من هو . فخفض الملك عندئذٍ صوته وقال لنا :

هذا هو الرجل ..

وأومأ الى العراقي الذي صبغت وجهه صفرة الموت ..

فساد الصمت في تلك الساعة حتى كدت تسمع خفقان القلوب .

ومع ذلك فتلك الابتسامة لم تفارق ثغر الحارث، ثم سمعناه يتمتم قائلا :

ماذا يستحق هذا اللخمي ؟

فعلت الاصوات تطلب قتله ..

فاشار الحارث بالسكوت وقال :

أتقتلونه ؟

فارتفعت الاصوات ثانية : اقتله يا مولانا ..

فضحك ..

فقام في الاذهان انه يضحك كما يضحك النمر لفريسته .

ثم قال لأبي ذهل :

تكلم انت فلك رأي . وهذا ما دار بين الاثنين .

قال ابو ذهل : ان الذي يحاول قتل الملك يجب ان يموت .

ـ ولكنه حاول قتلنا في ساحة الحرب .

قال : كاد يغدر بك يا مولاي .

قال : خذ عدوك في الحرب كيف شئت ، ألا ترى القبيلة تغزو القبيلة وهي

نائمة فتدوس الخيل الاطفال والنساء والعرب لا تبالي ؟

– ولكن حياة الملك ..

فقاطعه قائلاً : الملك في الميادين مثل جميع الناس ، أنقتل هذا اللخمي لانه من الغادرين ؟

– نعم .

– إذن تنهي عن الغدر ثم تسألنا أن نغدر ..

قال : وكيف ذلك يا مولاي ؟

قال : يدخل العراقي بلاطنا ويطأ بساطنا فنعمد إلى السيف فنضرب به عنقه ويلطخ دمه يد الملك وثوبه ؟.. ألا تعلمون أنه يستظل الآن بظل العدل الغساني ويحتمي بحلم الحارث الثالث ؟

– إذن ليخرج من بصرى ودمه هدر ..

– بل يخرج منها آمناً حاملاً إحسان الملك .

وخاطب اللخمي قائلاً :

إن لك واحداً من غرضين أيها الرجل فلا تكذب .

فقال : أعترف لك بكل شيء يا مولاي ..

قال : بعثك صاحب الحيرة عيناً علينا أم ماذا ؟

قال : لا يعلم ملك الحيرة أني في الشام .

– وما هي غايتك من الدخول إلى هذا القصر ؟

– دخلت سافر الوجه يا مولاي لم أتنكر ولم أخفِ الاسم الذي ادعى به . أفي هذا ما يثبت أني من الجواسيس ؟

– إن لم يكن هذا فقد أعماك حب المال فأتيتنا ماداً يديك تحمل بها ما نجود به ..

– بل أتيتك لألمس بيديّ المدودتين هذا الحلم الذي تملأ اخباره العراق ..

– وماذا رأيت الآن .

– رأيت أن الذين نقلوا الينا أخبار حلمك كانوا صادقين فيا نقلوه .

— ولم يخطر لك ان الموت يكمن لك في هذا البلاط ؟
— خطر لي ان هذا الموت لايجسر على الدنو مني وأنا فيه ..
— والآن ماذا تطلب من الملك ؟
— أطلب إحسانه .
— ألأنك كنت غادراً ؟
— بل لانني كنت شجاعاً .. إن الرجل الذي يقتحم الاسنة ويصارع ثلاثة من فرسان غسان لا يتهمونه بالغدر ..
— ولكن خانك الحظ فلم يبلغ سيفك رأس الملك .. أتفعلها ثانيةً إذا عفونا عنك الآن ؟
فسمعناه يقول ، أي والله سمعناه يقول :
أفعلها إذا جمعتنا الحرب ...
وبدلاً من أن يتجهم وجه الملك ويثور ثائره ، استند إلى وسادته وقال :
لو قلت غير ذلك لما صدقناك .
ثم قال : أعطوه درعاً ومغفراً وسيفاً وفرساً . أيكفيك هذا ؟
قال : اعطيتني يا مولاي ولم تعطِ أهل بيتي ..
— واعطوه خمسة أثواب .
قال . و جعل لأهلي ما يعيشون به عامهم هذا ..
— وأعطيناك مئة دينار من دنانير الروم .. قم فاخرج الآن فلم نرَ أعجب مما رأيناه منك .
فنهض الرجل وهو يهتف للغسانيين ومشى قيّم القصر وراءه ليعطيه ما أمر به الملك .
فناداه الملك قائلاً :
احذر أن ينصرف هذا اللخمي قبل أن يأكل مع أضيافنا .
ونظر إلينا وهو يقول :
إذا قدرتم أن تعفوا ولم تفعلوا فلستم من العرب .

فقال قصي لصفوان : أي ملك يصنع ما صنعه الحارث ؟
فوضع فمه على أذنه وقال :
قصي بن كلاب عندما يصبح ملك الحجاز ..
فغاص الفتى في لجة من التفكير بعيدة الغور . وقد أعجبه الملك الحارث وولي عهده واتخذ منذ تلك الساعة حياتها في القصر مثلاً لحياته إذا هو استطاع أن يتربع في العرش ..
وكانت الشمس قد ملأت الارض نوراً ، فجلس القوم على كثيبٍ صغير يتناولون الطعام ..

* * *

تبعد منازل قضاعه عن بصرى ثلاث مراحل .
وهي أقرب من منازل بني لهب وعشيرة الجاهيل .
الاولى في الشرق الشمالي ، والاخرى في الجنوب .
لكن الطريق واحـــد . وقد تجاوزت هذه المنازل واتحدت تلك العشائر حتى مست كالشعب الواحد يجمعه رأي الرؤساء .
فلما وصلوا ، قيل لفاطمة : لقد أقبل قصي .
فجلست بباب الخيمة وقلبها يضرب حتى وقعت العين على العين ، ففتحت ذراعيها ، وارتمى الفتى بينها وكانت دموع الأم أفصح ترحيب .
ثم جعلت تسأله عـــن زهرة وعن القوم وهي تظهر رغبتها في ترك الشام والرجوع الى الحجاز .
وكان رزاح واخوته الثلاثة : حنّ وجلهمة ومحمــود ، يجمعون مع الرعاة مواشيهم الكثيرة التي يسرحونها في ذلك السهل .
وتلك عادتهم في كل يوم ، في الصباح وفي المساء ، يمشي رزاح وهو أصغرهم ولكنه سيدهم ، ثم يتبعونه على الخيل يرافقون ماشيتهم في الرواح والمجيء .
وليس في بني عذرة القضاعيين أحرص وأحزم من الفتى رزاح ، كما أنــه لم يقم بينهم من هو اكرم منه أي انه يحسن وضع الشيء في موضعه في حالتي البذل

والحرص يجود بالذهب الكثير عندما يكون هنالك مجال للجود ، ويحفظ الدرهم في كمه حتى تمرّ الايام ولا تراه العيون ..

وله على رغم سنه . المنزلة العالية في قومه كما قرأت ، لحرمـــة ابيه الميـ ، ولخلقه الكريم .

ولم يبالغ ابو ذهل فيما ذكره عن كثرة ماله . فجميع مظاهره تـــدل على الغنى ، ويقول الناس انه عثر على كنز هو من بقايا بني سليح .

وقد يكون ذلك صحيحاً فالمال لا يكثر في عام واحد كما كثر ووفر بـين يدي رزاح .

* * *

اقبـــل من في الحي من عشراء قصي يصافحونه ويسالونه عن مكة و... البيت وما فيه .

وهو يجذبهم اليه بحديثه العذب ولهجته الجديدة الناعمة التي لم يتعودوها ... من قبل .

كان بالامس سكوتاً، يؤثر العزلة فاذا هو اليوم كثير الكلام فصيحه يبتسم للجماعات ، وكانت مظاهره مظاهر فتى لا يبالي الا بغنمه ونوقه يرعاهـا ويعود في المساء ليحتجب في خيمته ، فاصبح ذلك الراعي ، بين ليلة وضحاهـا ، ر... يبدو الجلال كله عـلى جبينه وترسل عينـــاه نوراً ساحراً هو نور السيـادة ، والارادة ، والقوة .

كان صغيراً في كل شيء، فصيره الحجاز كبيراً في كل شيء، كان هواء الحجاز وارضه الجافة يبعثان الحياة الى النفوس الهادئة والبطولة الكاملة الى القلـ... الضعيف ..

واي وحي نزل على قصي ؟ ان حديثه حديث ملك . وجلاله جلال الملـ... وكل كلمه تخرج من فمه تحمل سحراً ، حتى ان الشيوخ الذين عرفوا الغلام قد... كانوا يقولون في انفسهم : هذا قصي آخر ..

وصفوان ويزيد جالسان بين يديه . كانهما غلاماه وهمـــا ينظران الى القوم

المعجبين به فيملكهما الاعجاب بصاحبهما من جديد .

اما فاطمة فقد اصيبت بالذهول، بل استولى عليها الاستغراب بكل معناه . ان قصياً لم يكن في تلك الساعة كما كان منذ بضعة عشر شهراً .. أرأيت ولداً ينظر الى امه فترخي تلك الام نظرها الى الارض لا تستطيع ان تحدق اليه؟ ذلك كان شأنها مع ذلك الفتى الذي ربته بعيداً عن أهله . بعيداً عن وطنه ..

ولو نظرت في ذلك الحين الى ابي ذهل الجالس مع القوم ، لرأيته يهامس من حوله وهو يتفرس في قصي .

وكان يقول لهم : هذا ابن كلاب سيد بني النضر وان له لشأناً فيقولون : وسيخلف اباه في السيادة . ونستعيد نحن بني معد ما خسرناه .. « بنو قضاعة ينتمون الى معدّ كما رأيت » .

* * *

غابت الشمس فغصت تلك الساحات حول خيام بني عذرة . بطوائف الخيل والغنم والنوق ..

وقد خرجت النساء والغلمان يجعلون ماشيتهم في الحظائر .

وقيل لرزاح واخوته : جاء قصي .

فمشى رزاح . الحب الأخوي الطاهر في قلبه ، والشوق في عينيه وسار إخوته وراءه ليروا ذلك الغلام ..

وما لبثوا حتى عانقوه ، ثم صافحوا صفوان ويزيـــد . وجلس الاخوان الاصغران يبتسم الواحد منهما للآخر ابتسامة الحب .

وكان قصي قبل دخول رزاح. يصف مكة لمن لا يعرفها من القوم، فلما جلس اخوه عاد الى وصفه بتلك اللهجة التي عرفت حتى ذكر سادن الكعبة حليل بن حبشية وما يكتنفه من اسباب الرفاد والجاه .

فقال ابو ذهل وهو صاحب الرأي الاول في قومه :

يكفينا من جاه سادن الكعبة اننا نصفه للناس .

وقصي يريد ان يوغر الصدور على بني خزاعة المسيطرين على مكة وهو وراء ستار كثيف من الرصانة والهدوء ..

فقال : اما حاجب البيت فهو أمير العرب كلها والسلطان الذي له هو لنا وكان ابو ذهل صريحاً وجريئاً ، فقال :

السلطان لقومه ..

– وقومه منا ..

– بل من اليمن لا تربطنا بهم رابطة نسب .

– ومع ذلك فهم سادة الحجاز يتوارثون الامارة منذ ثلاثة اجيال لا تمتد اليها يد عربي ..

– اجل وهـذا معناه اننا نحن الذين ولدنا ونشأنا في جزيرة العرب اغنام يسوقنا اليمني الغاصب الى حيث يشاء .

قال : ارى ابا ذهل ثائراً، وأكاد ألمس في حديثه روح العصيان ..

قال : اصبت فانا ثائر ولو طاوعني قومي لزحفت الى مكة ودفعتكم يا بني كنانه بالرماح الى البيت الذي كان ملكاً لاجدادكم والذي استسلمتم الى الخزاعي الذي يتربع فيه .

فاجابه وهو هادىء : ومن يقول لك ان قومنا لا يفكرون فيا تقوله الآن ؟

– ومن قال لك ان الفكر وحده يرفع قوماً ويحط آخرين ؟ نريـد سيوفاً تشهر في الايدي لا افكاراً تخطر بالرؤوس .

قال : وتدعو الى الحرب ؟

– لا ادعو قومي بل ادعوكم انتم اهل الشعاب الذين لا تعبأون الا بالشاء تشترونه وتبيعونه في الاسواق .

– ان جدنا جدكم يا ابا ذهل فنحن كلنا ابناء معدّ .

– العذري النازل في هذه الارض لا يترك البر الفسيح ليقيم بالوادي الجاف ، نحن في الشام وانتم حول الكعبة، فإذا كنتم اولئك الرجال ؛ فاسترجعوا بيتكم

وإلا فاهجروا الحجاز الى فارس او إلى العراق أو إلى أرض الروم فــلا ترى عيونـكم كل يوم ذل البلد المقدس وخمول اهله ..

فاتجهت العيون إلى ابي ذهل

وكاد قصي يثب من مكانه ليضمه الى صدره ..

ان تلك الروح المتمردة هي روحه . وذلك الخطاب الحربي الذي يلقيه هو تلك اللغة السرية التي سيحدث بها اخاه ..

فاطرق قليلاً ثم قال :

يخيل اليّ انك تستهين بخزاعة .

– وماذا تفعل خزاعة ؟ اتجعل السماء ارضاً والارض سماء ؟ إنها قبيلة عربية فضلها ان حاجب البيت منها وانها تحتمي بالكعبة عندما تدور رحى الحرب .

- بل تبرز الى الميدان بقلوب لا تعرف الخوف .

– ولكن لا تثبت فيه الى النهاية . انها واحدة وقبائل العرب لا تعد .

قال : انسيت ان لها انصاراً .

قال : اذكر لي هؤلاء الانصار ..

قال : اذكر لك فرعاً من فروع كنانة هو بكر بن عبد مناة ومن حوله من اتباع . فماذا تقول ؟

- وغير هذا ؟

– ويقوم بنو صوفة وهم كثيرون .

– ثم ماذا ؟

– ثم تستعين بالأوس والخزرج فهما من اليمن وقد تستعين بالملوك الذين لا ينسون دمهم اليمني ..

– وهل بقي لك ما تقوله ؟

– لا ..

قال: لقد استولى على اهل مكة الذعر حتى قام في اذهانهم ان سادن الكعبة اذا جرد سيفه جردت العرب جميعها سيوفها خلفه تمنعه وتحميه . ورب الكعبة

لو رأيت الأوس والخزرج تطعنان الصدور دفاعاً عن حليل بن حبشية لمـا صدقت .. اتراهما تقذفان برجالهما الى اشداق الموت طمعاً برضى ذلك الخزاعي الذي يفتح باب البيت ويغلقه ؟

قال : من يعلم فقد تعصف الريح فتحمل ألسنة النار الى البلد الذي لا تفكر فيه ..

قال : اذا أخذت الأوس والخزرج فقد بقي في المدينة خيبر قريظة والنضير فخذوهما .

ثم قال : ومن هم الملوك حلفاء خزاعة ؟

قال : لنفرض انهم ملوك غسان ..

فضحك قائلاً : ليس للحارث الثالث همّ الا مكة .. انه ينظر الى العراق قبل ان ينظر الى الحجاز ..

— وملوك كندة ..

اولئك ملوك ليس لهم الا ان يحفظوا الامن بين القبائل الخاضعة لتبع .

— اذن لم يبقَ لخزاعة مرجع تلجأ اليه .

قال : اذا نشبت الحرب لا تجد ملجأ الا الذين ذكرتهم من جيران الكعبة

— وماذا تصنع بهؤلاء ؟

— ليطلب أحدكم السدانة لنفسه وعليّ الباقي ..

قال : أتضمن الحرب ؟

— أضمنها ولا اتردد في ذلك ، اسمع يا قصي ، ان أهل الشعاب يبارزون قوم حليل ، ونحن .. نحن بني عذرة نبارز بكراً وصوفة وينتهي الأمر .

وهذا مـا أراد قصي ان يعرفه . ان القوم الذين احب ان يستعين بهم سيكونون عوناً له . والنفوس التي أراد ان يتبين ما فيها باح باسرارها ابو ذهل وتلك هي يد القضاء تمهد لقصي الأسباب .

واستطرد الشيخ قائلاً :

نعم يا بني ، سنكون في مقدمة القوم الذين يغضبون لعـزهم . وسنحمل

بأيدينا ذلك الكناني الذي يختاره قومه فنضعه على العرش .

فتظاهر الفتى بالاستخفاف ثم قال :

انك تحج البيت في كل عام أليس كذلك ؟

– اجل .

– وتعرف سادة الشعاب واحداً واحداً على مـــا أرى، فهل لك ان تختار أحدهم في هذه الساعة ؟

– لو كنت حراً بالاختيار لما ترددت فيه ولكني بعيد عن قومك ولك انت يا ابن كلاب ان تختار .

قال : اما انا فلا أفعل .

فرفع صفوان صوته قائلاً : أتأذنون لكناني ان يدلكم على الرجل الذي يصلح لحجابة البيت ؟

– نعم . فمن هو ؟

– هو هذا . واشار الى قصي ..

فقال يزيد : اي ورب الكعبة .

وردد ابو ذهل وفتيان عذرة ما قاله صفوان .

وارتفعت الاصوات في المبايعة :

نريد قصياً ، لا نريد سواه .

ثم قام أحدهم فقال : لقد اخترناه ونحن من العرب ..

وقال آخر : وهذه سيوفنا تشهد لنا اننا سادة الميادين .

لكن قصياً لم يسمع كل ما قيل .. ولولا تلك الابتسامة الساحرة على ثغره لما رأى الناس على وجهه مظهراً واحداً من مظاهر الرضى .

كأن القوم عنوا سواه فيما ذكروه .

او كأنه يهزأ في سره . بأولئك الذين بلغ بهم الهوس ذلك الحد

فقال رزاح : وكيف تجعل العرب حاجب البيت من الفتيان ؟

فاجابه صفوان قائلاً : حليل بن حبشية ورث اباه وهو في العشرين من عمره

ورضيت العرب ..

– وهل يتولى عربي أمر الكعبة وهو لا يعرف مكة ؟

– بل يعرفها كما يعرفها حليل نفسه وله فيها عبيد وجنود .

– وشيوخ كنانة ؟

– ماذا ؟

– أيرضون به ؟

– عندما يقول قصي كلمته تنحني الرؤوس وتخرس الالسنة .

فنظر الى أخيه قائلاً : أصحيح هذا يا قصي ؟

قال : انهم ينظرون اليّ بعين الحب، اما انا فالامارة لم تخلق لي ولست أهلاً لما يقولون .

فسمع ابو ذهل يقول : ان السيوف تخلق الامارات .

فتمتم قائلاً : والرجل من يدفع هذه السيوف الى المجال .

ولكن الجماعة لم تفهم ما قال .

وبعد قليل تغـــير الحديث .. فانتقلوا الى اقاصيص الحرب ثم الى اقاصيص الصيد ، وجعلوا موضوع حكاياتهم في آخر الليل ، بصرى ودمشق، حيث يقيم نبلاء الغسانيين والرومان من قواد وامراء .

وباتوا يتحدثون حتى انتصف الليل فقام القوم فانصرفوا الى مضاربهم ، وخرج قصي مـع رفيقه الى خيمة تجاور خيمة رزاح، امامهم محمود بن ربيعة يهيء لهم وسائل الراحة في ذلك الليل .

ولم يقل قصي كلمة لأخيه ، ان الليل كله لايكفي لأن يقص عليه فيه حكايته الطويلة التي ليس لها حد ..

ونام قصي ملء جفنيه ، كأنه أمسى واثقاً بان السدانة ستكون له ..

* * *

صدر من سلسلة

روايات تاريخ العرب والإسلام

- الحارث الأكبر الغساني
- النعمان الثالث
- بلقيس ملكة اليمن ١/ ٢
- زينب ملكة تدمر ١/ ٢
- حسناء الحجاز ١/ ٢
- الحارث ملك الأنباط
- هند والمنذر
- هند أسيرة كليب
- اليتيمة الساحرة ١/ ٢
- فتاة الشام
- محمد وأم كلثوم
- فاجعة كربلاء
- خيانة وغدر
- لقاء المحبين
- السفاح والمنصور
- الأمير العاشق



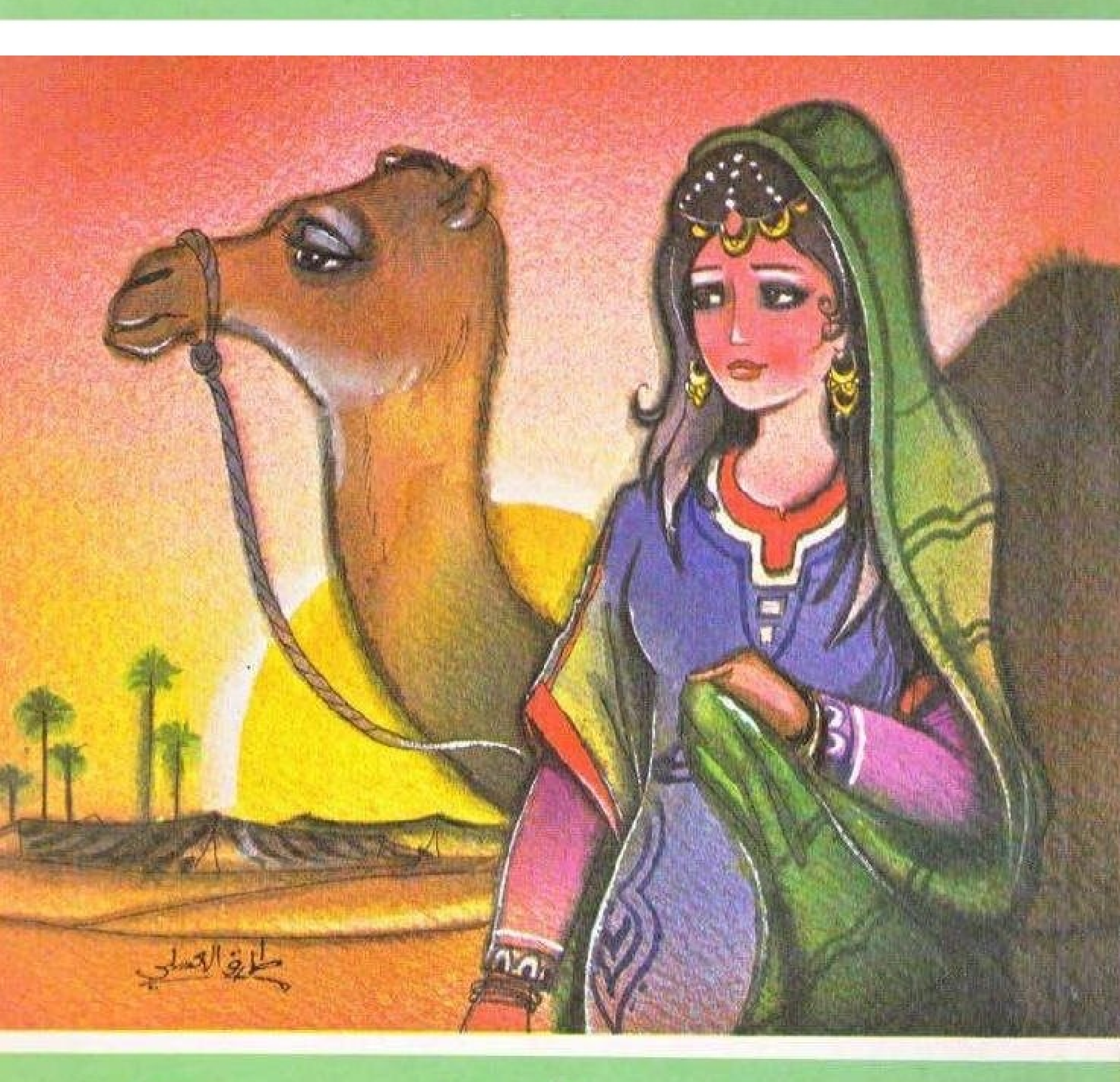
دار الأندلس
للطباعة والنشر والتوزيع

سعر الجزأين ٢٥ ل. ل.

روايات تاريخ العرب والإسلام

اميل حبشي الأشقر

حسناء الحجاز (٢)



دار الأندلس


حسناء الحجاز

روايات تاريخ العرب والاسلام

أميل حبشي الأشقر

حسناء الحجاز

رواية

الجزء الثاني

دار الأندلس
للطباعة والنشر والتوزيع

الطبعة الثالثة
١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م

دار الأندلس - بيروت ، لبنان
هاتف : ٣١٧١٦٢ - ٣١٦٤٠١ - ص.ب : ٤٥٥٣ ١١ - تلكس ٢٣٦٨٣

عندما استيقظ صفوان ويزيد في صباح اليوم الثاني كان قصي قد ترك الخيمة وانتقل الى خيمة رزاح فجلس في فراشه.

ورزاح لم ينم . فقد أعجبته تلك الكلمة التي قالهـا صفوان : ان الرؤوس تنحني لقصي عندما يقول كلمته .

وبات يفكر في ذلك ويستعيد ماضي أخيه في بني عذرة فلا يجـد في ذلك الماضي ما يثبت ذلك القول .

قصي الناعم الهادىء الذي قضى معظم حياته في القفار تنحني له بمثل هـذه السرعة رؤوس قومه في الحجاز ؟

انها كلمة أرسلها صفوان في ساعة جنون ليس لها وزن وليس لها لون .

وفي اي شيء يسود قصي قومه ؟ أفي المال وقد خرج من الشام صفر اليدين لا يملك درهماً أم بتلك النفس الطماحة ، وذلك الدهاء الغريب اللذين ضاقت بهما ارض بني عذرة فراح يستغلهما في الشعاب ؟

واية اعجوبة من الاعاجيب صنعها اخوه في الحجاز فبهرت عيون اهله ؟ انه ابن كلاب وقومه اهل الشرف والمفاخر . نعم .. ولكن الشرف وحده لا يجعله نصف إله .

وطلع الصباح وهو مسترسل في تفكيره .

فلما رفع اخوه ستار الخيمة فتح عينيه ؛ ثم لما جلس في فراشه نسي احلامه واستوى بدوره جالساً وهو يرحب به .

فقال قصي وهو يخفض صوته :

رزاح .. أتصغي الى ما اقوله لك ؟

فنظر اليه فإذا عيناه ترسلان شعاعاً ينفذ الى القلوب ويملأها هيبة فقال : قل ما تشاء ولا تسأل .

– لقد قيل لي انك كثير المال .

ومن قال لك ذلك ؟

– ابو ذهل ..

– اصاب ابو ذهل فالمال عندي كثير وقد جعلت لك فيه نصيباً .

– انا لا أسألك عن مالك لتعطيني منه الآن ، ولكني اريد ان أعلم اية سماء ارسلته اليك ..

قال : ألم تسمع ما يقوله بنو عذرة ؟

– ماحدّثت من بني عذرة احداً غير ابي ذهل ..

– يقولون اني عثرت على كنزٍ من كنوز اسلافنا بني سليح .

– وهم صادقون ؟

– نعم وقد شاءت الاقدار ان يصبح مالي اضعاف ما تملكه العشيرة بعد ذلك الفقر .

ثم قال : وقد خطر لي ان احج هذا العام واحمل اليك منه ما تفاخر به قومك .. اذكر حاجتك يا قصي .

– لا تحدثني بالمال فأنا لا حاجة لي اليه .

– اذن ماذا ؟

قال : أتذكر ماقاله ابو ذهل في الليل الماضي .

– اجل وذلك هو حديث الرجل من عامين ..

– وما رأيك فيه ؟

قالها ورزاح يرى ذلك الشعاع الساحر فيخفق قلبه .. ويضطرب لتلك القوة الخفية تتغلل في نفسه ..

وسكت عن الجواب وهو ذاهل .

فأعاد قصي كلمته وهو يبتسم .

فقال : وأيّ رأي لي في ثورة ينفخ روحها أبو ذهل في الصدور ؟

– ولكني من أجل هذه الثورة وحدها تركت الحجاز في هذا الصيف وقدمت الشام ..

قال : تلك عادة قومك يجيئون الى بصرى في كل عام .

قال : ليس لقومي شأن فيما احدثك به ، أترضى أن يكون سادن الكعبة من ولد كلاب بن مرة ؟

فخيل اليه أن أخاه قد جنّ . فقال :

– نعم ..

– ولكن ليس لكلاب غير زهرة وقصي فأي واحد من الاثنين يتولى أمر الكعبة ويسود الحجاز ؟

فوضع يده على صدره قائلاً : انا ..

فذعر رزاح .. إنها كلمة لا يجسر ان يقولها الحارث الثالث أو النعمان بن امرىء القيس وهما أعز العرب ..

سدانة الكعبة .. وهل أمست سدانة الكعبة ، أجلّ حرمات العرب ، لقمة سائغة تمتد اليها الأيدي ويطمع بها الناس ؟ . ليقل تبع اليمن أنه يريدها وليقل النعمان والحارث أنها أهلٌ لها .. أولئك إذا فعلوا فالسيوف خلفهم وجيشهم الجرار يحطم الكعبة إذا شاء ولا تثبت مكة أمامه .. إنهم أقوياء والقوي يستهين بالحادثات .. وإما أن يقولها قصي بن كلاب أضعف أهل الحجاز وأصغرهم شأناً فذلك ما لا يقبله عقل رزاح ، فقال لأخيه :

أعد ما قلت يا قصي .

فأجابه بكل ما في العظمة من جلال وزهو :

إن أخاك قصياً يريد سدانة الكعبة لنفسه ..

– أما أخوك رزاح فيقوم في ذهنه أنك قضيت النصف الثاني من الليل وأنت تشرب الخمر صرفاً فذهب عقلك .

– بل أنا اليوم أعقل مني بالأمس .

قال : ما رأيتُ جنوناً أغرب من هذا .. أتقذف بنفسك إلى الهاوية ولك عقل ؟ ورب الكعبة لو حدثني غيرك بما تحدثني به الآن لصفعته كما أصفع عبدي وخرجت من هذه الخيمة قائلا لمن حولها من غلمان :

أخرجوا هذا المجنون ..

ثم قال : هل لك أن تقول لي أولاً من أنت ؟

فقطب قصي حـاجبيه وهو يقول : إن لي شخصيتين أذكرهما لك وأنا ثابت العقيدة وواثق بنفسي ..

قال : هات .

قال : أنا الفتى الصغير السن، القليل المال والضعيف الصوت .

قال : أحسنت .

قال : ولكن تلك الشخصية الأخرى التي لا تعرفها هي التي تملي عليّ مـا قلت ومـا سأقول . إسمع يا رزاح ان ذلك الفتى الصغير السن كبير بإرادته وطموحه ؛ والقليل المال غني بإباء نفسه ، وجرأته ، ورباطة جأشه ؛ والضعيف الصوت الخامل الذكر قوي بقومه ونبالة أصله ..

قال : وهذه امور لا ترفعك إلى المقام الاول في مكة .

قال : قد يخلق الزمان ما يرفعني اليه ..

– ولكن الزمان لا يستطيع ان يجعل الحمل ذئباً .

– بل يجعله أسداً يحمي الغاب الذي يأوي اليه . انظر مايفعله هذا الزمان. ان أباك ربيعة بن حرام لم يترك لك غير قطيع من الغنم فيه بعض النوق أليس كذلك ؟

– نعم .

– وكان المال قليلاً وقليلاً جداً بين يديك ..

– نعم .

– غير ان القدر حملك بيديه الاثنتين وحلـّق بك الى الجو الاعلى فأمسيت غنياً تلعب بالذهب كما يلعب الطفل بالرمل .

قال : ذلك شيء والسدانة شيء آخر فماذا أعددت لها ؟

قال : الدهاء الكثير يتبعه السيف ..

– أجاد انت فيما تقول ؟

– وهل تركت قومي في بصرى لأجل المزاح ؟

– اذا كان هذا فأنا أنصح لك بالبقاء بيننا ريثما تستكمل وسائل الظفر بما تطمع به ..

قال : لقد جاوزت الحد باستخفافك .

– كما جاوزت الحد يا قصي باحلامك .

فلمعت عيناه وهو يقول :

إقسم بتربة كلاب انك ستلمس هذا الذي تدعوه حلماً في العام المقبل او العام الذي يليه .

وجعل يتفرس فيه وشفتاه ترتجفان .

فرأى رزاح ما لم يره من قبل .. رأى وجهاً يطفح جلالاً وعينين تبعثان نوراً .. وملامح هي ملامح الملك الغاضب لشرفه الذي أهين .

وقد أثر فيه ما رآه تأثيراً غريباً كادت تذوب له نفسه وأحس في تلك الساعة ان ذلك الجلال الجذاب يقدر على كل شيء وان حجابة البيت وان عزّت ستمشي صاغرةً الى اخيه .

نعم، ان رزاحاً الهازيء بقصي المستخف بما يسمع أصبح طائعاً مؤمناً بكل ما يقوله اخوه حتى ان قوى التمرد الكائنة بروحه ، تلاشت امام تلك القوة السحرية لا يبين لها ثر ..

وبدأ ينظر الى اخيه كالعبد المضطرب المستسلم الى سيده .

فعرف قصي ان تمرده قد انتهى ، فقال وهو يبتسم : أتريد ان تسمع لي لآن

فتمتم قائلاً : أسمع وأطيع ، ولكن خبرني كيف تبدأ بأمرك .

قال : لقد بدأت .. وضعت يدي بيد حليل بن حبشية سادن الكعبة الذي تخافونه واصبحت ولداً له .

قال : إنها الغاز لا افهمها يا قصي اتضع يدك بيده وانت تريد ان تقوم مقامه بحجابة البيت ؟

– نعم وخير ما ابدأ به الدهاء ..

– ولكنها خيانة لا ارضاها لك .. ان ابن كلاب الذي يطمع بمثل هـذا المنصب المقدس ، لا يظهر اخلاصاً ويخفي الحقد وراء الإخلاص .

فضحك قصي وهو يقول : انك لا تعلم شيئاً من امر اخيك .

– بل اعلم . الا تقول ان ابن حبشية جعلك ولداً له ؟

– بـلى .

– ولكن هذا الولد سيعق اباه ويخلعه عن عرشه ..

قال : خير لك ان تقول ان هـذا الولد سيكون أبرّ الأبناء وسيحفظ الوفاء لأبيه حتى يموت .

– وكيف تصل الى سدانة الكعبة بهذا الوفاء الذي ذكرت وسادن الكعبة حي ؟

قال : ان لحليل ولدين ، المحترش وحبّى .

– نعم .

– وحبّى تبلغ التاسعة عشرة او العشرين من العمر .

– نعم .

– ولكنها وهي في زهرة صباحا تردّ فتيان العرب النبلاء ولا ترضى ان تزف الى احدهم .

– ومعنى ذلك ؟

– معناه ان سادن الكعبة يخالف العرب جميعها في قضية الزواج فلا يريد ان يكره ابنته عليه .

– تريد ان تقول انّ لها ان تختار من تشاء .

– اجل ولكن من اشراف القوم .

– ثم ماذا ؟

– فلما حجت العرب في العام الماضي رآها فتى من نبلاء مكة فأحبها ثم احبته .. ثم اقبل على ابيها يسأل الرضى به ففعل ، وسيتم الزواج بعد حين .

– واية صلة بين هذا الزواج وبين الأمر الذي تحدثني به ؟

قال : ان زواج حبّى سيغير وجه الحجاز ..

- لماذا ؟

- لأن زوجها نفسه هو الطامع بحجابة البيت ، افهمت الآن ؟

- ومَن هو ذلك الزوج ؟

قال : يخيل إليّ انك لا تجسر على ذكر اسمه .. هو أنا ..

فاضطرب . وجعل ينظر لأخيه نظرات البله وهو لا يعلم ماذا يقول .

فقال : أتستغرب يا رزاح زواج اخيك بابنة حاجب البيت ؟

- ليس غريباً ان تزف الأميرة الى فتىً هو من اكرم العرب نسباً واحسنهم وجهاً واطيبهم خلقاً ، ولكن الغريب ان تطلب يد حبّى وانت تعلم انها ترد ابناء الملوك الذين يملكون كل شيء ، في حين انك لا تملك شيئاً .

قال : لم يقم في ذهني ان حاجب البيت يبخل عليّ بابنته ، اتعرف لماذا ؟

- لا .

- لأن النظرة الاولى التي ارسلتها الى تلك الفتاة وهي على شرفة القصر ، حملت اطيب ما يبعثه قلب الى قلب من عواطف الحب .

- ولكن الفتاة العربية إذا احبت لا تستطيع ان تستثمر هذا الحب الا اذا وافقها اهلها فيه .

قال : وهذا ايضاً لم اكن اخشاه ، فقد رأيت حليل بن حبشية بباب الكعبة وقدرت ان اقرأ في عينيه إعجابه بي وهو لا يعرفني .

قال : انك مغامر يا قصي وانا خائف .

- على الطامع بحجابة البيت ان يقتحم الأهوال .

- إذن لقد تمّ كل شيء بينك وبين حليل .

- اجل ولم يبق إلا ان اعود الى مكة كما قلت .

قال : لنفرض ان امر الزواج قد انتهى ، فماذا تفعل بعد ذلك ؟

قال : معنى هذا الزواج اني اضع قدمي على الدرجة الاولى من سلم العرش ثم اعمد إلى الصبر .

– حتى يموت حليل ؟..

قال : تسألني الآن عن شيء لا استطيع ان اعرفه . لقد قلت لك ان الزمان يخلق ما لا نعلم ، فلننتظر هذا الزمان ..

قال : ارى ان طموحك الى السيادة سينتهي عندما تزف حبّى اليك .

– بل ليس لهذا الطموح حد ، الا يجوز ان يقوم حليل بعد عـام فيقول لولده المحترش : لقد تعبت من الحجابة فخذها .

– وإذا فعل ؟

– يعتزل المحترش كما اعتزل ابوه ويفضي الأمر الى حبّى ..

– وعندئذٍ يتولى قصي باسم زوجته امر البيت ..

– نعم ويقوم بامر الحجاز بارادة من حديد ، وعزيمة اشد صلابة من الفولاذ ويسترجع بنو معد ملك ابائهم .

– وانا ارى غير ما تراه .

قال : ماذا ترى ؟

قال : اكاد أرى الآن سيوف الخزاعيين تلمع حول الكعبة .

– ذلك ما ذكرته انا ، لأبي ذهل ، أجل ، ستثور خزاعة وتغضب لعزها الزائل ولكن العرب تخمد نار ثورتها وتعيدها الى الهدى بقوة السيف .

ثم قال : وأنا لأجل هذا وحده قدمت بصرى ثم جئت اليك .

وكانت عيناه تختلجان وهو يقول :

لقد حسبت حساب الحرب وسأتهيأ لها من جميع النواحي فقل لي الآن ألا تكون مع قومك اعواناً لي على بلوغ الغاية ؟

فتردد الفتى في الجواب .

فقال : سيأتي يوم ادعوك فيه الى الدفاع عني في مكة ، فهل يمنعك شيء من ان تكون الى جانب اخيك في ذلك اليوم ؟

قال : اني وجميع من حولي انصار قصي ، ولكن ..

– ولكن ماذا ؟

– أستشير رؤساء العشيرة قبل ان اعد ، لعلّ لهم ما يقولون .
– أتعني ابا ذهل وابا سليمى وعدياً ؟
« هؤلاء رؤساء بني عذرة » .
– نعم .
قال : ان البحث مع هؤلاء يفضح السر الذي يجب ان يبقى في الصدور .
– ولكنك تعلم يا قصي اني لا استطيع ان اسوق قومي جميعهم الى الحرب في مكة بدون ان اسأل من ذكرت .
قال : دع السؤال الى وقت آخر اذا شئت .
قال : أتركه ولا أبالي ، غير أني اريد ان تعود الى الحجـاز وأنت مطمئن وواثق بوعدي .
– اذن نستشير ابا ذهل وحده فروحه روح قصي وهو غاضب مثلي لكرامة قومـــه .
قال : اما ابو ذهل فلا يكتم حبه امراً .
– سأستحلفه بشرف معدّ ان لا يفعل . أتدعوه الآن ؟
– نعم قبل ان يخرج الى البر مع مواشيه .
ونادى رزاح احد غلمانه وامره بان يدعوه .
ولم تكن الا ساعة حتى اقبل الشيخ العذري الذي تكمن في صــدره مروءة الفتيان وهمة الشباب ..
فعرف ان رزاحاً لم يطلبه الا لأمر .
وصدقت ظنونه ، عندما سدل قصي ستار الخيمة وصرف الغلام الذي دعاه قائلاً له :
امنع كل عذري من الدخول على مولاك ..

* * *

لقد فكرت فيما سمعته منك امس يا ابا ذهل .
فأشرق جبين الشيخ قائلاً : اتعني امر الكعبة ؟

– هو ذاك .

– والى اي حد انتهى هذا التفكير ؟

– الى الحد الذي سأبسطه لك الآن وقد اظهرته لرزاح .

قال : هاته يا قصي .

قال : لقد كنت مصيباً في قولك ان الكنانيين تجار سكر وشمع ، لا يبالون الا بالاسفار للبيع والشراء .

قال : اتعترف بهذا ؟

– اجل فلا سبيل الى النكران .

– وماذا ينفع هـذا الاعتراف وهم منصرفون الى تجارتهم لا يغيّرون النهج الذي نهجه الاجداد ؟

قال : ان قصياً الذي يخاطبك الآن لم يكن قط تاجراً ..

– اعرف ذلك .

– بل لم يكن وهو مقيم بأرض بني عذرة،غير غلام من غلمانهم يرعى مواشي ربيعة بن حرام مع اخيه رزاح .

– واعرف ذلك ايضاً .

– ولكنه عندما دخل مكة لمس خمول قومه فأراد ان يستبدله بنهضة تهتز لها العرب .

فراى ابو ذهل ذلك الشعاع الساحر الذي رآه رزاح قبـــله ، فقال : نهضة مباركة ورب الكعبة .

– نعم وقد يرافقها السيف وتشتعل النار .

قال : مرحباً بالحرب ترتفع بعدها رؤوس بني معد .. هات ايضاً ..

قال : وسأكون ، انا ابن كلاب ، قائداً لهم في نهضتهم هـذه فابني لهم عظمة جديدة تبقى ما بقي البيت .

فرقصت لحية ابي ذهل وقال :

ورب الكعبة انك لتستطيع ان تفعل كل ما تقول .

والتفت الى رزاح قائلاً :
الا ترى القوة تنبعث من عينيه الناريتين ؟
فحنى رزاح رأسه وهو يقول :
خلق قصي ليسود الناس .
قال : ولكني لا ابلغ الغاية الا اذا مد الي ابو ذهل يده يدفعني الى الامام ..
قال : اعيد الآن ما قلته امس. ان هذه العشيرة النازلة في ارض الشام تجود بالرجال والمال لتنقذ الحجاز من امرائه المستبدين .. متى تريد يا قصي ان نزحف الى مكة ؟
– اتقول هذا وانت لم تسألني عما اعددت للحرب
– نعم فيكفي ان اعلم ان كنانياً يريد الحجابة لنفسه لأقذف بنفسي وبني قومي الى اشداق الموت ...
قال:لو كان في بني عذرة رجل آخر يقول مثل هذا القول لضمنت الحجابة.
– ومن يخالف ابا ذهل في بني عذرة ؟
– لا ادري فقد يخالفه ابو سليمى وعدي ..
فابتسم قائلا : ان الذي يتصدى لرأي ابي ذهل لم يخلق بعد ..
قال : اواثق انت ؟
– وكيف لا اثق بأهلي وانا سيدهم وحامي ذمارهم يوم يتجهم لهم وجه الزمان ؟
قال : اخشى ان ينكر عليك ذلك احد الرؤساء .
– لا تخشى شيئاً فالكلمة لي وحدي ورزاح يشهد ، ماذاتقول يا رزاح .
قال : لم أشأ ان اعاهد قصياً على امر قبل ان اراك .
– اما انا فاعاهده على كل ما يشاء، ولكن قل لي يا قصي متى يكون ذلك ؟
– لا استطيع ان اجعل للحرب موعداً .. اني سأتزوج الآن وقد تعقب هذا الزواج .
فقال رزاح : وليعلم ابو ذهل ان حبى ابنة سادن الكعبة هي زوجة قصي .

– اذن لست عدواً لحليل .
– لا . بل انا احب اليه من المحترش .
– ولكن أتتزوج ابنته ثم تشهر السيف في وجهه ؟
قال: اما السيف فلأولئك الطامعين بالحجابة من قومه،هم يقولون في انفسهم: ان سادن الكعبة في آخر عمره ، وان المحترش ليس أهلاً للامارة التي يتركها ابوه له ، فاذا كان لا بدّ للبيت من حاجب.فهم احق بهـــذه الحجابة من جميع النـــاس .

– وهل نسوا ان ابن حبشية مطلق التصرف في منصبه يوصي به لمن يشاء ؟
– اذا كانو لم ينسوا ذلك فقد تناسوه ، انهم كالآلهة القائمة في جوف الكعبة يريدون ان تنحني لهم رؤوس الناس في الحجـاز ويخضع لسلطانهم سادات القوم في مكة والنبلاء ..

يحجبون البيت ويسقون الحجـــاج ويرأسون السوق . ويجيرون العرب ، ولحن.اما نحن فننسأ الشهور وليس لنا بعد ذلك رأي. أيرضى بذلك‌ابناء عدنان؟ فضحك الشيخ قائلاً : لو كان الامر في يدي لمـا رضيت بان ارى خزاعياً واحداً يطوف حول البيت .

ثم قال : ولا تخشَ الحرب يا قصي . ان هؤلاء المتكبرين اصحاب المناصب لا يثبتون امامنا في مجال ، فسعر النار عندمـا يخطر لك ان ترى النار .. سعّرها ولا تخف ولتكن ناراً مجنونة ، طائشة ، آكلة لا ترحم احداً من ابناء اليمن ولا تبقي على شيء.وكلمة واحدة ترسلها الى رزاح وينشرها ابوذهل في قومه،تكفي لأن تجعل هؤلاء القوم صفاً واحداً يزحف الى مكة ، حاملاً الموت لابناء الآلهة الذين يجرون اذيال المجد والعز ..
– وتضمن بني عذرة كما قلت ؟
– اضمنهم جميعاً لا استثني احداً ..
قال : بقي علي ان استحلفك بشرف قومك ان تكتم الناس ما سمعت ، لئلا يفسدوا عليّ الأمر .

– وتخاف هذا ايضاً ؟ ان اخبار بني عذرة لا تنقل الى الحجاز ..
– بل يحملها النسيم اليه وانتم لا تعلمون .
– اذن اعدك بالكتمان . ولكن قل لي . الا يطمع بمـا تطمع به احد من قومك ؟
– ليس في قومي من يفكر في هذا .
– واذا ندبتهم الى القتال فماذا يفعلون ؟
قال : اذا أردت أن تعلم كل شيء فسل صفوان بن الحارث .
– بل أسألك الآن لئلا يثير سؤالي الظنون ..
قال : اما أهل الشعاب فجميعهم يخضعون لي كأني ولدت سيداً لهم
– وانا أعجب لهذه السيادة تسعى اليك وانت لم تنقل اليها من قبل قدماً ..
فقال رزاح : لقد استعان على قومه . بما استعان علينا . من خلابة في القول وهيبة تملأ النفس . وسحر في العينين ..
قال : أصبت وانا قد عرفت أباه ..
ثم مدّ يده فصافح قصياً وهو يقول :
وهل بقي لك ما تحدثنا به ؟
– لم يبق الا ان تأتي تلك الساعة فنلتقي في فناء الكعبة ونقتحم السيوف .
قـال : لقد تعاهدنا الآن وسنرسل ابصارنا الى الافق البعيد لنرى اللهب المتصاعد في فضاء الحجاز ..
فابتسم قائلاً : بيننا وبينكم عشرون يوماً على الناقة ..
– ومع ذلك فسنبصر كل شيء .
قال : وستعلمون أيضاً كل شيء ..
ومشى ابو ذهل الى الباب يريد الخروج ثم وقف .
فقال قصي : يظهر انك ستسأل سؤالاً آخر .
– نعم، لقد بحت لي بجميع ما في صدرك ولم تذكر رأي بني كنانة في الأمر.
قال : واي أمر هـذا ؟ اني لم أستشر أحداً منهم بعد الا زهرة أخي وابنة

أخي الكاهنة ..

– ورفيقك صفوان ؟

– لا يعلم من امري الا اني طمّاح الى المجد .

– والآخر ؟

– امـا الآخر فرفيق سفر ، حتى ان الاثنين لا يعلمان اني سأتزوج حبى ابنة حليـــل .

قال : أراك كثير الوثوق بنفسك ، لا تعبأ بمن حولك من اصدقاء وأنصار .

– اذا بحت بسري ذاع هــــذا السر وشاع قبل ان أبلغ الغاية فتثور مكة ويضيع الأمـــل .

– ولكن الزواج لا يجعلونه سراً .

– نعم ، غير اني عاهدت سادن الكعبة على الكتمان ونسيت الآن، كما نسيت يوم خبّرت زهرة ، اني عاهدته على ذلك .

فأجابه قائلاً : لقد وفيت بوعدك فلم تذكر قضية زواجك الا في أرض الشام.

قال : يجب على من يعد ان لا ينسى ، اما انا فبليتي النسيان ..

وهم ابو ذهل ثانية بالذهاب ثم وقف كما وقف في المرة الاولى قائلاً: وانا مثلك يا قصي فقد نسيت ما يجب ان اقول .. أفي مكة سلاح لأبناء قومك ومن يتبعهم من احياء العرب ؟

– اما السيوف والرماح فعندنا منها الشيء الكثير ..

قال : انك ستبرز للمرة الاولى الى ساحات القتال وانت لا تعلم ما هي الهوة التي تفتحها تلك الساحة .

– بل اعلم انها سوق تباع فيها الحياة ..

– وتتكسر فيها ايضاً تلك السيوف التي تقول انها كثيرة في الشعاب.. عدّ لي قومك واحص سيوفهم ..

قال : اذا عدّت السيوف جاوزت الالفين .

– والرماح ؟

– وكذلك الرماح ..

قال : اذا اردت الحرب فتهيأ لها كما تتهيأ الملوك . متى ترجع الى بصرى ؟
ــ غداً قبل ان يتنفس الصبح .
ــ اذن أعود اليك هذا المساء فننظر في هذا .
ورفع ستار الباب واحتجب عن عيون الأخوين .
فقال رزاح : ان أبا ذهل خير من تقلد سيفاً في قضاعة كلها وله في الحروب رأي .
ــ هذا ما رأيته وسأجعله مرجعاً للجيش .
ــ وقد صدق في قوله ان بني عذرة لا يخالفونه في أمر ..
ــ ولكن قد يحتاج الى مال وانا لا مال لي .
فاجابه قائلاً : ان مالي كله ابذله في سبيل حجابتك كما قلت لك ... وموعدنا غداً .
ــ ماذا في غد ؟
قال : سأعطيك من المال ما يكفي حيّك كله في ميدان الحرب .. ان مالي لي ولقصي .
قال : لا آخذ منه درهماً ولكن تبذل منه ما تشاء عندما تستعر النار ويزحف بنو عذرة ..
فحاول ان يجيب فاسكته قائلاً :
القول الذي اقوله لا يتغير منه حرف ..
وتعانق الاخوان ثم خرجا الى الحي فرأيا صفوان ويزيد .
فقال قصي : متى تركت فراشك يا صفوان ؟
ــ الآن .
قال : نم يا ابن الحارث فستجيء ايام لا تجد فيها فراشاً تستلقي عليه ، واذا وجدته فلا يغمض لك جفن ..
قال : تلك ايام المفاخر يا قصي ..
ــ نعم وستأتي ساعتها بعد حين ..

ثم هامس اخاه قائلا :

انظر الى هذا الفتى، انه من اعظم نبلاء مكة ومن ابعدهم صوتاً في الشعاب ومع ذلك يطيعني كما كان يطيع اباه ولايسألني عما اصنع .

– والآخر ؟

– اما الآخر فرفيق سفر كما قلت وأخ في اليوم العصيب ..

وركب الاربعة اربعة جياد وركضوها الى المراعي التي سرّحت فيها مواشي رزاح على ان يعودوا قبل المساء ..

* * *

ألا تذكر يا عبدالله اني نقلت اليك خبر المرأة السوداء التي ترعى ناقتها وراء هذه الصخور ؟

– بلى يا مولاتي .

فأومأت ليلى الى صخرة لا تبعد عنها اكثر من عشرين ذراعاً وهي تقول :

لقد رأيت المرأة الآن تختفي وراء هذه .

وكان الاثنان ، ليلى وعبدالله في البقعة الحمراء ..

وحبى ليست معهما لأن اباها سادن الكعبة كان مريضاً .

فقال وهو يضحك هازئاً :

ان الجواري السود يملأن قصر ابيك زياد ، افتخافين عجوزاً تقود ناقتهـــا الى المراعي ؟

– نعم ولهذا الخوف اسباب ذكرت لك بعضها .

قال : لقد ضعفت الذاكرة فأسألك ان تذكريها الآن .

قالت : الا ترى النوق ترعى في السهل الذي ينبسط امامنا ؟

– اراها .

– وهل يقوم في ذهن الرعاة ان يطلقوا نوقهم الى هذه الصخور وليس بينها الا القطرب والشوك ؟

ـ لا . .
ـ اذن لماذا تختار هذه السوداء لناقتها ما تأنف منه نوق اهل مكة ؟
ـ لعلها لا تجسر على الاختلاط بالرعاة لئلا يهزأوا بها .
ـ ولكنها تستطيع ان تعطي احدهم نصف درهم فيرعاها .
ـ ولعلها لا تملك درهماً .
ـ قالت : اراك تحسن الدفاع عن السوداء . .
ـ بل احسن الدفاع عن مولاتي التي لا اريد ان تظهر مثل هذا الخوف ، ثم قال :
وهل لك ان تذكري سبباً آخر ؟
ـ سأفعل وعندئذ لا تستطيع الدفاع .
قال : سنرى .
فقالت : رأيتها في المرة الأولى . ورأتها حبى تدور حولنا كأنها تطلب في الارض شيئاً ، وليس في الارض شيء كما ترى .
قال : انها من العجائز اللواتي يبحثن عن الاعشاب ليجعلنها مراهم للجراح .
واسترسل في الضحك .
فانتهرته قائلة : ويلك ، أرأيت حولنا عشباً ؟
ـ من يعلم فشقوق الصخور تنبت ما لا ترين . .
ـ وماذا تقول عندما تعلم انها احتجبت هنا . . في هذا الموضع . . . لتسمع حديثنا نحن الاثنين .
ـ اقول، ذلك شأن معظم النساء يتنصتن للاحاديث ثم ترددها افواههن على الناس في ليالي الشتاء . . امـا الآن فقولي لي يا مولاتي ، ألم يكن حديث الاثنين
ـ انت وحبى ـ في ذلك الحين حديث غرام ؟
قالها ليزيل خوفها . .
فابتسمت على رغم ذلك الخوف واجابته قائلة :
أتظن اني ابوح لحبى بغرامي ؟

– نعم كما تبوح هي بذلك الغرام قبل ان تحرقها ناره ..
قالت : اقسم برأس ابي انك اخبث الناس
– اجل.حتىان هذا الخبث يدخل الى القلوب فيرى ما فيها من صور الحب .
قالت : لقد بحت لك بكل ما في الصدر فخيل اليك انك تعرف كل شيء .
– ولكن حبى لم تقل لي كلمة ..
– وماذا تعرف عن حبى ايها اللعين ؟
– اعرف ان فؤادهـا اليوم يكاد يذوب .. نعم .. يكاد فؤادهـا اليوم يذوب يا مولاتي ، كما يذوب فؤاد ليلى .
ثم قال : وهذان القلبان العاشقـان المضطربان ، قلب حبى وقلب ليلى ، لا يصبران ، أليس كذلك ؟
فاحمرت وجنتاها وجعلت تنظر الى الافق .
قال : لقد هاج بك الشوق وذكرت صفوان ..
قالت : اسكت يا عبدالله ..
قال : الا تطيقين ان تسمعي اسمه ؟ لقد كنت بالامس تعبدين هذا الاسم فويل للزمان كيف يغيّر الانسان .
– قلت لك اسكت يا عبدالله ..
فاستطرد قائلا ولم يبالِ :
أتسمحين لي بان اظن ان صورته امحت من هذا القلب ؟
– لك ان تظن ما تشاء .
– ولكنك عاهدته على الوفاء وسيسأل اباك بعد عودته ان يزفك اليه،أنسيت هذا ايضـاً ؟
– نسيت كلّ شيء فلا اذكر من حياتي الا هـذه الساعة التي اسمع فيهـا حديثك العذب ..
– ومع ذلك فحبى لا تنسى قصياً ..
– ومن قال لك انها تحبه ؟

ـ رأيت هذا الحب في عينيها الذابلتين ..

ـ اراك تقرأ ما في العيون والقلوب كأنك كاهن العرب، أفلم ترَ الحب ايضاً في عيني ابن كلاب ؟

قال : لو رأيته لعرفت ما تسألين عنه ، ولكن قيل لي انه عاشق وقد فتن بحبي وسينتهي الأمر بين الاثنين بالزواج .

قالت : رأيته كما رأيناه مع اخيه زهرة ذاهباً الى الكعبة وراء وفود العرب، ثم رأيته يحادث حاجب البيت بعد خروج الحجاج وهذا يكفي ..

ـ اجل يكفي وهو عاشق كما ذكرت واعتقد انه باح لخليل بهواه فوعده بابنته.

فتنهدت قائلة : يبوح جميع العشاق بحبهم إلا صفوان ..

ـ وذلك لانه يخشى ان تخونه تلك الفتاة التي احب .

قالت : كذبت فليلى لا تخون .

فرفع صوته قائلاً : من يعلم، فجبير بن عبادة حي وهو العاشق الاول لذي تذكرين فيه ..

فاضطربت لذكر ذلك الاسم . والتفتت الى الوراء تبحث بنظرها عن المرأة السوداء .

ولكنها لم ترها ..

غير ان عبدالله كان اصدق نظراً ..

فقد أبصر تلك المرأة جالسة كالصنم بين صخرين وخيل اليه ان رأسها الذي لا يتحرك لاصق بالكتفين ..

فاصفر وجهه ، وخطر له خاطر اهتز له جسمه .

وجعل يقول في نفسه : قد تكون ليلى مصيبة في هذا الخوف ، وقد تصدق الظنون .

ثم قال وهو يخفض صوته : هذه هي المرأة يا مولاتي اني اراها ، ولكن لا تخافي .

فتمتمت قائلة : اتنظر الينا

– نعم وكأنها في جمودها قطعة من الصخر .

فوضعت يدها على كتف عبدالله والتفتت بدورها فرأت مـا رأته في المرة الاولى فاختنق صوتها وكادت تسقط على الارض .

وعبدالله لا يحول نظره ، وهو يفكر في ذلك التمثال الجالس الذي لا عنق يحمل رأسه .

ثم هامسها قائلاً : ماذا ترين ؟

– ارى سهمين ناريين يخترقان الحجاب .

– ماذا ؟

– وارى فما مفتوحاً يقذف اللعنات .

قال : ليلى ؟ .

فرددت تقول : فماً مفتوحاً . نعم٠ واكاد اسمع ما يرسل من الالفاظ. انظر. الا ترى وجهها الاسود وجه نمر ويديها يدي ذئب ؟ .

وكان ذهن عبدالله قد امتلأ ظنوناً ونفسه امتلأت رعباً وهو لم يبصر شيئاً مما تقوله الفتاة .

وما لبث حتى صاح قائلاً :

من انتِ ايتها المرأة ؟

فحبست ليلى انفاسها لتسمع الجواب .

لكن السوداء لم تجب .

غير ان الاثنين رأيا صدرها يعلو وينخفض كأنها تتنفس بتعب .

فاعاد عبدالله قوله ، وكأنه يخاطب الصخر ..

فتناول رمحه الذي لا يفارقه ومشى متثاقلاً مشي المضطرب الخائف يكرهونه على اقتحام الغمرات .

ولم يكن عبدالله جباناً ، غير ان تلك الفكرة الغريبة التي فاجأته ملكت عليه جميع مشاعره ..

وقد بدا التردد والضعف في مظهره. ولعله كان يخشى ان يهاجم عجوزاً فيقول

الناس في مكة : ان عبدالله مولى زياد بن كعب شهر سلاحه على النساء .

وكادت ليلى تدعوه الى الرجوع لو لم يقف صوتها عند الشفتين .

وفي تلك اللحظة نهضت المرأة ، غير مروعة ولا مذعورة وانثنت الى الوراء فتوارت عن العيون .

فذهب الرعب الذي استولى على عبدالله ووثب الى الامام .

فرأى العجوز تقفز فوق الصخور كما يقفز الفتى في العشرين من عمره ، وقد رفع الهواء ثوبها فبان السيف ، ومال حجابها فظهر رأس جبير وعنقه !!

فارتجفت ركبتا عبدالله ووقع الرمح من يده .

ان ظنونه لم تكن كاذبة كما رأيت ، وذلك الخوف الذي دب في جسم ليلى لم يكن في غير موضعه .

ثم لفتت الناقة نظره وهي ترعى ، فخطا اليها بضع خطوات وهم بان يقبض على الزمام فنفرت كما نفر صاحبها واتجهت الى الطريق الذي تعرفه .

فوقف قليلا وقد اصيب بالذهول . ثم لمعت عيناه وابتسم ابتسامة التهديد والحقد ، وحمل تلك الابتسامة راجعاً الى مولاته .

فقالت له : ماذا رأيت يا عبدالله ؟

قال : رأيت عجوزاً تجر رجليها جراً اذا مشت .

قالت : كذبت فلها خفة الفتيان .

— اتتهميني بالكذب وقد كدت انزع حجابها لو لم تستغث .

— ولماذا سقط الرمح من يدك ؟

— لم يسقط بل القيت به كي لا تراه فتملأ الجبل صراخاً .

قالت : لولا هذه الصخور لأبصرت كل شيء .

قال : اذا اردت ان تري وجه الشيطان فاتبعيني .

— واين هي الآن ؟

— بالقرب من ناقتها الجرباء وقد عادت الى البحث عن الاعشاب .

— ألم تسألها سؤالاً ؟

– سألتها ان تذكر لي اسمها فضحكت قائلة :

العربي لا يسأل المرأة عن اسمها اذا كان نبيلاً ..

ورفعت حجابها ثم قالت :

خير لك ان ترى وجهي من ان تعرف اسمي ..

فاذا وجهها يا مولاتي وجه قرد وقد يكون ابوها من تلك القرود التي تحمل الينا من الحبشة .

فضحكت وقد زال خوفها ، ولكنها ابصرت عندئذٍ في آخر المنحدر ، انساناً يلبس السواد وناقته وراءه ..

وبينها وبين ذلك الموضع اكثر من الف ذراع .

فقالت : انظر اليها فقد فرّت وانت تقول انها هنا تفتش عن العشب !.

قال : لو كان لها جناحا طائر لما وصلت الى ذلك المكان .

قالت : دلني على الموضع الذي تركتها فيه .

فأومأ الى الصخرتين اللتين جلست المرأة بينهما وهو يقول : انها هناك .

قالت : امشِ امامي فانا اريد ان أراها .

فتقدمها كأنه واثق بصحة قوله .

ولكنهما لم يريا غير الشوك ..

فنظرت اليه نظرة عتاب ..

فقال : لعلها انتقلت الى موضع آخر .. اذ لا اصدق انها تستطيع في لحظة واحدة ان تبلغ بيوت مكة .

قالت : أتكذب أيضاً ؟

– وما الذي يدفعني الى الكذب والقضية قضية عجوز ليس لك معها شأن ، أأعرفها واكتمك خبرها ؟

– بل تعرفه وتكتمني خبره ..

فتجاهل الأمر كأنه لم يسمع .

قالت : لقد كان عجوزك رجلا وانت تخفيه ..

فتمادى في تجاهله ثم قال : رجلا وانا أخفيه ؟
– نعم .
– ومن يكون ذلك الرجل ؟
– ليس هنالك غير رجل واحد أبغضه وأخافه هو جبير بن عبادة .
فرنت ضحكة عبدالله في ذلك الخلاء ثم قال :
أتستسلمين للاوهام الى هذا الحد ؟
قالت : لم يكن حديث القلب وهماً . ان ابن عبادة يلبس ثوب المرأة ليخفي وجهه فيستطيع ان يطوف في مكة ساعة يشاء ويرى من يشاء وهو آمن ..
– أتظنين ؟
– بل انا واثقة ، فقد ذعرت في المرة الاولى وعاودني الآن هذا الذعر .
قال : والخوف يفعل اكثر من ذلك . ان جبيراً ليس له في مكة وجود واعتقد انه ترك الحجاز كله هارباً من زياد .
– اما انا فلا أصدق حرفاً مما تقول .. لقد رأيت بعيني ما لا أنساه وانتهى الأمر .
– وماذا رأيت يا مولاتي؟رأيت عبدة ضعيفة عاجزة تتبع ناقتها الى المراعي.
– بل رأيت رجلاحجازياً صبغ وجهه ويديه بالسواد وغطى رأسه بالحجاب ليستر حقده .
ثم قالت : وسأنقل الى أبي ما رأيت فقد يقتله الاستخفاف .
– ويسألني فأقول لا ..
قالت : ورأس ابي لئن صدقك ابي ولم يصغِ اليّ لأقتلنّ نفسي .
قال : والآن ؟
– والآن فعد بنا الى القصر فانا لا أطيق البقاء في هذا الموضع الذي يجعل النساء رجالاً ..
ومشت كأنها لا تريد ان تسمع جواباً ..
فحاول استبقاءها ريثما تغيب الشمس فلم يفلح .

ثم أراد ان يستعيد هدوءها بالفاظه الخلابة فلم تسمع .
فرأى ان يعترف لها بكل شيء قبل ان ترى زياداً .
فقال : ألا تثقين بي يا مولاتي ؟
– وهل أثق برجل يهزأ بي ويطمع بي عدوي ؟
قال : لقد رأيتك خائفة ففعلت .
فالتفتت اليه قائلة : ماذا ؟ أتعترف ؟
– نعم فالمرأة السوداء هي جبير وقد رأيت ان أقص خبره على مولاي زياد وأسأله ان يكتمك اياه ..
- وما هي غايتك ؟
– غايتي ان يطمئن القلب فلا يعكر صفوه ابن عبادة .
قالت : أعرفته ؟
– نعم كما اعرف مولاه عدوان وسأقبض على الاثنين .
قالت : أتراه يريد ان يقتلني في هذا الجبل ويقذف بجثتي بين هـذه الصخور فتأكلها الطير ؟
قال : انه اضعف من ذلك ..
– بل هو اقوى مما تظنون . انكم اربعة تبحثون عنه . انت يا عبدالله وابي وصفوان ويزيد بن ربيعة، وهو لا يبالي ولا يعبأ بكم كأنكم ليس لكم وجود . ثم اسمعكم تقولون سنقبض عليه وارى انكم ستقبضون على الهواء .
قال : لم يقم في الأذهان ان الرجل يصبح عبدة ..
– كذلك لا يقوم في اذهانكم انه سيمسي غداً جارية حسناء تفتن الفتيان في الأسواق ...
قال : يكفي انه يقيم بمكة وعلينا الباقي .
قالت : لو لم تكن جباناً لقبضت عليه الساعة قبل ان يخطو خطوة واحدة.
– ولكنه فرّ وترك ناقته ..
– ومع ذلك فقد كنت قادراً على اللحاق به .

– وانت يا مولاتي ؟ أتبقين وحدك والغلمان في المرعى ، وليس حولك احد من عبيد القصر ؟

قالت : لقد عرفت ان ذلك سيكون عذرك لو تبعته لعرفت مقره على الاقل ولم يكن عليّ خطر .. تعالَ الآن فقد كتب لي ان أحمل هماً جديداً ترزح لمنه جبال مكة .

وسارت امامه والدموع تجول في عينيها الصافيتين .

وكان عبدالله يقول :

لا بدّ لي من العثور على الغادر ولو أقام بالغمام .

* * *

رأيته يا مولاي ورب الكعبة .

فقال زياد : ويلك من هو ؟

– جبير بن عبادة ، بقامته القصيرة وضخامة جثته .

فحسبه زياد مازحاً فقال :

ألم تعانقه ايها اللعين ؟

قال : لو استطعت لوضعت سنان رمحي في ظهره .

– اذن فانت جاد فيما تقول .

– نعم يا مولاي ، واقسم برأسك .

– واين رأيته ؟

– في البقعة الحمراء يرعى ناقةً له ..

قال : وهل يرعى هذا النذل النوق وهو اغنى اهل مكة بفضل ذلك المال المسروق ..

– لم يكن في تلك الساعة رجلا يا مولاي .

– وماذا كان اذن ؟

– كان عجوزاً واهية القوى مرتجفة الرجلين ..

– وكان محجباً ؟

– نعم .
– وكيف عرفته ؟
– دلتني عليه مولاتي ليلى .

فخيل الى الامير ان الغادر تصدى لابنته ، فقال والغضب في عينيه : قل لي يا عبدالله أرأته مولاتك ليلى وجهاً لوجه ؟

– لا يا مولاي فقد لفتت نظرها هذه العجوز من قبل ثم رأتها اليوم فاستيقظت الريبة في نفسها وقام الشك في نفسي ففضح جبير ..

– وكيف ذلك ؟

فقص عليه حكاية الرجل حتى انتهى الى ساعة فراره ، فقال زياد : ولكنك تقول انه فرّ ولم ترَ وجهه .

– نعم غير ان ذلك الفرار كان وبالاً عليه فقد رفع الهواء ثوبه فرأيت سيفاً وبانت العنق من تحت الحجاب فاذا هي عنق جبير .

فاطرق قليلاً ثم قال : وهل يكفي هذا ؟

– اجل يا مولاي فالعرب لم ترَ قط امرأة تحمل سيفاً .. ثم اني عرفته من مشيه . انه اذا ركض فكالجمل الهائج لا يدري اين يضع قدمه .

– ومع ذلك فليس لي ان اصدق حكايتك ..

قال : ومع ذلك فقد رأت مولاتي ليلى عينين ترسلان من تحت الغطاء ناراً عرفت انهما عينا هذا اللعين ..

وكان الغضب كما قرأت يملأ صدر زياد . وزاد غضبه عندما روى له عبدالله الحكاية كما جرت .

فنهض عن مقعده وقال : لو خبرني غيرك ان ابن عبادة باقٍ في مكة لما صدقت . أيجسر هذا النذل على الاقامة ببلد طردته منه ؟ انه اذن من المتمردين على الامير ولم يفعلها في العشيرة احد قبله .. ولكن سنرى من يفوز أخيراً وكيف ينتهي الأمر بين الامير ورجل من رعيته ..

وأومأ اليه بأن يتبعه الى حجرة ابيه .
فلما مثل الاثنــان بين يدي الشيخ ، انفجر ذلك المرجل الذي يغلي وارتفع صوت زياد قائلاً :
لقد عبث بي ابن عبـــادة واستخف بشأني فهو مقيم بمكة وقــد ابصره عبدالله وليلى .
فجعل ابو زياد يتفرس فيهما ثم قال :
وربّ الكعبة لا يفعلها فتى مثله الا ووراءه قوة تحميه وجيش يلجـــأ الى صفوفه . فأي خبر هذا الذي تحمله يا عبدالله ؟
قال : انه مثل جميع الأخبار التي يقصها عليك الناس .
قال : اصبت ، فادع ليلى .
قال : أيشك مولاي ابو زياد فيما انقله اليه ؟
– هو ذاك فناد ليلى ولا تتردد ..
ولكن ليلى اقبلت دون ان يدعوها احد .
ففاجأها جدها بقوله : أرأيت جبيراً يا ليلى ؟
– نعم يا مولاي وكنت اظن انـــه هو قبل ان يلحق به عبدالله ويرى سيفه ورأسه .
– وما هو خبر السيف والرأس ؟
فاعادت عليه ما ذكره عبدالله لزياد .
قال : اما الآن فقد صدقت وكنت احسب ان الغادر ظهر للناس في مكة وهو سافر الوجه .. والآن ماذا ترى يا زياد ؟
– أرى ان يطوف رجالنا في مكة في ظلام الليل بـل في وضح النهار حتى يقبضوا على هذا النذل ولو كان جاثياً في جوف الكعبة على اقدام الآلهة .
قال : ان الرجال لا تستطيع ان تعرض للنساء في الاسواق . وانت يا ليلى ماذا تقولين ؟
– ليس لي رأي في هذا يا مولاي .

– وانت يا عبدالله ؟

– اما انا فأرى الطواف في مكة على الصورة التي ذكرها الامير غير مثمر ولي دليل على ذلك .

– ما هو ؟

قال : سيخلع جبير ثوب المرأة ويلبس سواه ..

قال : ماذا ؟ يتردى ثياب ملك ويضع التاج على رأسه ؟

– بل يتردى الاطمار البالية كأنه احد الصعاليك وقد يجلس حول حياض الماء امام الكعبة مع فقراء العرب يمد يده الى المحسنين .

قال : ويستمر في مجلسه هذا حتى يرسل أمير صوفة من يلقي القبض عليه . أليس كذلك ؟

قال : انك هازيء يا مولاي .

- وكيف لا أهزأ وانا اسمع مثل هذه الاقـــوال .. أتظنون ان ابن عبادة ابله حتى يستلقي امام الكعبة عارضاً وجهه على الناس وهو يعلم انكم تطلبونه ؟ لقد مضت الشهور وهو بينكم ولم تعثروا عليه حتى قام في اذهانكم انه ترك مكة ، بل ترك الحجاز كله . ولكنكم لم تسترسلوا في هـــذه الظنون حتى ظهر فجأة في البقعة الحمراء يصغي الى ما تقوله نساؤكم ويحصي عليكم الانفاس .

ثم قال : واني لا احب ان أسمع ماتقولون الآن . لقد كان عليك يا عبدالله ان تتبعه وتترك ليلى في الموضع الذي كانت فيه دون ان تظهر ذلك التردد الذي ذكرت . . ضيعتموه اليوم وستضيعونه غداً وقـد يأتي يوم تحاولون فيه ان تمنعوا شره فلا تستطيعون .

وجعل يتنهد كما يتنهد المريض .

فقال زياد : ولكن قل لنا يا مولاي ماذا نصنع ؟

قال : قل لي يا عبدالله أي طريق سلك في فراره .

فاجابه قائلاً : الطريق الذي ينتهي وراء المطاف .

قال : اذكر ان هنالك بيوتاً لخزاعة .

– ان البيوت يامولاي أبعد مما تظن .
– ومع ذلك تذهب الليلة الى ذلك الموضع وتسأل اهله .
قال : امل عليّ السؤال اذا شئت .
– بل يمليه عليك دهاؤك اذا كان باقياً .
– اذن اسأل عن المرأة السوداء التي مرّت وراء المطاف عند المساء تتبعها فاقتها .
– احسنت وكن نجدياً او عراقياً فذلك اولى ..
فقالت ليلى : ان الدخول الى بيوت الناس في هذا الليل يلفت نظرهم فاتركوا ذلك الى الصباح .
فاطرق الشيخ ملياً وقد أعجبه الرأي ثم حنى رأسه كأنه يوافقها فيه .
وبعد ان سكت قليلاً نظر الى ولده قائلاً :
اوصيك من الآن يازياد ان تحذر النساء المحجبات
– نعم .
– وان لا تخرج من القصر وانت اعزل ..
– ما كنت لأخرج بدون سيف ..
– وانت فافعل يا عبدالله كما يفعل مولاك .
ثم رمى وسادة كانت في حضنه وهو يقول :
يستهين ابن عبادة بأميره ورئيس عشيرته ويبقى حياً ؟ انه ذل لنا لانطيقه ولا نصبر عليه ..
فتمتم زياد قائلاً : طب نفساً يامولاي فسأداوي ذليّ .
وبات القوم ليلتهم وهم غاضبون لشرفهم . وفي ساعات ذلك الليل الاسود الطويل كانت ليلى تفكر في صفوان ..

***

في آخر الطريق الذي ينتهي وراء الكعبة من جهة الشرق صخور برزت من بطن الجبل وامتدت في الفضاء . فجعلت ما تحتها مغاور او ما يشبه المغاور .

وبالقرب منها جدار من التراب الاحمر المتماسك جبلته يد الطبيعة واثبتته في ذلك الموضع ملجأ يستريح في ظله الطالعون والنازلون .

والبيوت كما قرأت تبعد اكثر من مئتي ذراع من جهة الجنوب ، لكن الناس يروحون ويجيئون بين الطريق الذي ذكرنا وذلك الطريق الآخر الذي يؤدي الى الحي .

فلما وصل عبدالله في الصباح الى ذينك الطريقين ، رأى النساء والغلمان ينقلون الماء في قربهم من حياض الكعبة ومن الآبار . وهو يعلم انهم يفعلون ذلك في كل صباح وكل مساء .

وكان بلباس اهل اليمن ، وهو يقلد لهجتهم .

فقال لأحدى الجواري : أتحملين هذه القربة كل يوم ؟

احملها مرتين . قبل طلوع الشمس وقبل الغروب .

– اذن فانت ترين كل من يمر وراء المطاف .

قالت : لا أعبأ بمن أرى فالناس يمرون بالعشرات ولا شأن لي مع احد .. اغريب انت ؟

– نعم وقد جئت من اليمن منذ بضعة ايام لأقيم بمكة

– وماذا تصنع فيها ؟

اعيش من ناقة لي ومن فضالات الحجاج .

فحولت وجهها تريد الانصراف .

فقال : ولكن ضيعت ناقتي امس كما ضيعت زوجتي .

فضحكت قائلة : اما الناقة فقد تنضم الى ما نراه من طوائف النوق في هذا الوادي . واما زوجتك فلا تضيع الا اذا كانت حسناء ...

ثم قالت : أتقيمان في خباء ؟

فاجابها وهو لايعلم ما تعنيه : نعم .

قالت : وخرجت في بعض شؤونك ثم رجعت فاذا باب الخباء قد تحول وافلتت زوجتك من يدك ..

« وهي تريد بذلك ان زوجته طلقته »
« كانت النساء في الجاهلية يطلقن ازواجهن بتحويل باب الخباء »
قال : لا، بل خرجت في الصباح ترعى الناقة وراء هذا الجبل ولم تعد وقيل لي انها مرّت من هنا ..
– امس ؟
قال : امس .
فمشت وهي تقول: اعرف جميع نساء الحي فلم ارَ هذه الزوجة التي ضيعت.
وكان هنالك غلام يسمع الحديث فقال له :
اما انا فقد رأيت ناقة تتبع رجلاً ..
– أين رأيته ؟
فأومأ الى الجدار الترابي قائلاً :
رأيته يثب من وراء هذا الجدار ، يستر وجهه غطاء اخضر وفي يده بعض الثياب ...
– والناقة ؟
– واما الناقة فكانت تسير وراءه وهو لا ينظر اليها .
قال : أتصفه لي ولك درهم ؟
– افعل فهات .
فلما ناوله الدرهم ظهر البشر على وجهه وبدأ يقول :
اصف لك ما رأيت من جسمه . انه عريض الصدر واسع ما بين الكتفين .
– وهو ربعة ؟
– نعم ويطأ الارض بشدة حتى ليخيل اليك وهو يرفع رجليه في المشي انه يصعد سلماً ..
فقال في نفسه : انه هو ورب الكعبة .
وهمّ الغلام بالذهاب .
فاستوقفه قائلاً : ولكن قل لي أيقيم بهذا الحي ام ماذا ؟

- لا اعلم اين يقيم فقد سار على طريق الوادي ولعله من سكان الخيام فيه .
فخطر لعبدالله خاطر لم يتردد في تنفيذه ، فقال للغلام .
اتبعني ولك خمسة دراهم .
- الى اين ؟
- الى هذا الوادي الذي ذكرت .
- ولكني لا اعرف مقر الرجل لأدلك عليه .
قال : أتعرف مقر زياد بن كعب امير صوفة ؟
- اجل وانا من عشيرته .
- وهل تعرف الرجل الذي وصفته لي اذا رأيته الآن ؟
- اعرفه بعد جيل ولو كان محجباً لأني لم أنس عطيته .
- ماذا اعطاك ؟
فتردد قليلاً ثم قال : سقط من يده ثوب يشبه خمار المرأة فناولته اياه فاعطاني درهمين .
قال : ما اسمك ؟
- طلحة ..
قال : تأخذ الآن خمسة دراهم كما قلت ثم نذهب الى الأمير فيعطيك ديناراً .
قال : انك أجود العرب يا عبدالله ..
فتراجع الى الوراء ثم قال : ويلك أتعرف من انا ؟
- لا تعجب لشيء فأنا من صوفة واعرف مولى زياد ... قل الآن ماذا تريد ...
فوثق الرجل بالغلام وقال : اريد ان ابحث عن صاحب الناقة.
- ثم ماذا ؟
- فأذا رأيته في الوادي اومأت اليك بالانصراف فتعود الى قصر مولاي وتقول له : لقد عثر عبدالله على الرجل ..
- وادله على موضعك ثم ينتهي كل شيء ..

– نعم .
– فهمت فاذهب وانا وراءك .
فاعطاه ماوعده به ومشى امامه الى الوادي ويده على قبضة سيفه ، وهـــو ينظر الى جانبيه كاللص الخائف .
وكان معظم اهل الوادي قد تركوه.ولم يبق فيهغير نفر قلائل تفرقت خيامهم على ضفتيه .
وقد ساد الصمت فيه كأنه خال من الناس .
فلمـا توسطه الاثنان رأيا ناراً مشبوبة عليها قدر ورجلاً جالساً بالقرب منها وهو ينظر الى الارض .
وهو اول رجل وقع نظرهما عليه وكان عدوان ..
والى يساره خيمة بابها مفتوح .
فأشار عبدالله الى طلحة بان يبتعد عنه . وجعل يتراجع قليلاً قليلاً عله يجد له مخبأ يتخفى فيه . فلم يجد ..
وعدوان سابح في فضاء احلامه لا يسمع ولا يرى .
حتى سمع صوتا من داخل الخيمة يناديه .
فقام فدخل ثم عاد على الاثر ليعالج ناره ..
فأبصر رجلاً بلباس اهل بلده يتراجع مذعوراً .
فدنا منه يتبين وجهه فاذا هو عبدالله ..
فوقف الرجلان .. الواحد منهما يتفرس في صاحبه .
والشرر يتطاير من العيون ..
حتى بدأ عدوان الحديث قائلاً : عبدالله ؟ .. لقد ظننت اني أرى رجلاً من اليمن
فاجابه بصوت هادىء : اما انا فلم اظن قط اني اراك في هذا الوادي ..
قال : اتطلبني بأمر زياد ؟
– لا بل ابحث عن رجل سرق جواد الأمير امس .. أتقيم يا عدوان بمكـة

وقد أمر الامير مولاك بتركها حتى يرضى عنه ويأذن له في الرجوع .

قال : كنا في خيبر ولم نصل الى هنا الا منذ يومين .

وكان طلحة قد ابتعد وهو لا يسمع كلمة .

فقال عبدالله : ومولاك اين هو ؟

– في هذه الخيمة .

– ومن أذن لكما في المجيء ؟

– لقد كره مولاي ان يقضي العمر كله بعيداً عن بلده منفياً منه فآثر العودة اليه والاستغفار من ذنبه ..

– اذن رأيتما الامير ..

– لا فمولاي مريض لا يستطيع ان يترك فراشه .. ولكن نراه غداً او بعد غد .

فلم يطق عبدالله ان يصبر على اكاذيبه فقال : وهل يلبس مولاك في فراشه ثوب المرأة ؟؟

قال : ما هو ثوب المرأة هذا ؟

– وهل أزال الصباغ عن وجهه ويديه ؟

قال : لا افهم ما تقول يا عبدالله .

وكأن الخبيث بذلك المظهر الرصين الهادىء ، لا يعلم شيئاً من امر مولاه. ولكن عبدالله لم يبالِ ، بل قال : وناقته التي يرعاها في البقعة الحمراء يا عدوان ؟

– نوقنا في خيبر وليس عندنا هنا منها واحدة .

فأومأ الى طلحة قائلاً : أراك مصراً على النكران ، أتعرف هذا الغلام ؟

– لا استطيع ان أتبين وجهه فمن هو ؟

– أحد غلمان صوفه واسمه طلحة .

– واي شأن له ؟

– لقد رأى مولاك امس يحجب وجهه غطاء اخضر كما رأيته انا يحجب وجهه

غطاء اسود . ومعنى ذلك انه كان عندما رأيته عجوزاً سوداء واما عندما رآه طلحة فكان رجلاً .

فرأى عدوان ان يعمد الى الحيلة ، فقال : لم يبق من سبيل الى الكتمان فنحن نعتذر ..

فضحك ضحك الهازيء وهو يقول : اتعتذر في هذا الوادي عن ذنب اتاه جبير ؟

قال : نفعل كل ما تشاء على رجاء ان ينجو مولاي من غضب زياد . اتضمن ذلك ؟

ولمعت في عينيه الدموع ..

قال : وماذا يقول مولاك للأمير اذا رآه ؟ ايقول له لقد حاولت قتلك وعصيت امرك فأسألك العفو ؟

– اجل وسينطر على قدميه طالباً هذا ..

– وان لم يرض ؟

– لجأنا الى ابيه أبي زياد واستعنـّا بعبد الله على اقناع الاثنين ..

– ولكن الأمر يعني زياداً وحده .

– وزياد لا يرد سؤال ابنته ..

قال : وهل يجسر مولاك على استعطاف ليلى

– نعم فقد قال لي اليوم انه نادم على ما جرى وسيظهر للأمير واهل بيته ندمه ويقوم اخلاصه مقام ذلك الطيش الذي لا معنى له .

فتظاهر عبد الله بالتفكير ثم قال : ولكني لا اعلم الى الآن لماذا يسوق مولاك ناقته الى الجبل ويجلس حيث تجلس بنات الامراء .

فابتسم قائلاً : الا تعلم لماذا ؟

– لا .

قال : انه الحب يا عبد الله فجبير يكاد يقتله هواه ..

واخفى وجهه بيديه كأنه يخجل من تصريحه ..

فانتقل مولى زياد عندئذٍ من دور الدهاء الى دور البلاهة وجعل يقول : آه من الحب ما اقساه انه يخفض الرؤوس الكبيرة ويذل النفوس التي لم تذل .

واشار عليه بان يتقدمه الى الخيمة ليرى مولاه ..

فاشرق جبين الخبيث وانثنى لا يقول كلمة .

وفي تلك اللحظة اومأ عبد الله الى طلحة بالانصراف . كما اتفقا غير ان عدوان رأى اشارته فحفظها في صدره ..

وكان عبد الله المسكين يسير وراء عدوه ، وهو واثق بأنه ظفر به وبمولاه وسينتزع اسرار الاثنين ويحملها الى زياد .

وكانت جميع مظاهره تدل على انه صدق كل ما قيل .. فلما اصبح داخل الخيمة سدل ستارها واحس وقتئذٍ انه بين عدوين تلتهب نار الحقد من صدريهما .

ولم يكن جبير قد رآه . فهاله ان يدخل عليه مولى زياد وراء خـــادمه . وابتسامة الظفر على شفتيه .. فقال لعدوان : ماذا يريد هذا الرجل ؟

قال : ألم تعرفه يا مولاي ؟

– بلى فهو عبد الله مولى زياد بن كعب .. ولكن أي غرض له بهذا الوادي الذي يقيم به اللاجئون الى مكة من الفقراء .

فغمزه بعينه قـــائلاً : سرق في الليل الماضي فرس لمولاه فأقبل علينا يطلب سارقه ...

فتكلف الابتسام وهو يقول : ثم ابصرته بـين الخيام فدعوته الى زيارة جبير ابن عبادة الذي لا يطيق ان يرى وجهه.. اجلس يا عبد الله .. ان الخيمة لاتليق بموالي الامراء .

وعبد الله ساكت .. وقد كاد يقتله الندم على دخوله ..

ان عيني جبير كانتا عيني نمر يتحفز للوثوب . وليس على وجهه اثر واحد من آثار الخضوع والذل اللذين وصفهما عدوان .. وقد اقترن ندمه بخوف وذعر لم يشعر بمثلهما منذ ولد الى هذه الساعة ، حتى خيل اليه ان ملاك الموت باسط فوقه

جناحيه .. فهمّ بأن يقتحم باب الخيمة ويستغيث برجال الحي .. غير ان عدوان اللعين فاجأه بقوله :

أتخاف يا عبد الله وانت ضيف مولاي ؟

فاستجمع قواه وتمتم قائلاً : لا اجد في هـــذه الخيمة سبباً واحداً من اسباب الخوف .

- ولكن وجهك يصفرّ وشفتيك ترتجفان .

- ذلك لانك سدلت هذا الستار والحر شديد كما ترى .. افلا تريد ان ترفعه ليدخل الهواء

- صبراً فسنفعل بعد حين .

لكن ابن عبادة لم يشأ الا ان يعمد الى الجلاء . فقال له :

أيقتلك الحر في ساعة واحدة ونحن نعيش منذ شهور داخل هـــذه الخيمة السوداء .

فثبت له في تلك اللحظة كذب عدوان .. لقد قال انه لم يقدم ذلك الوادي مع مولاه الا منذ يومين .. وهذا مولاه نفسه يعترف بان الشهور مرّت عـــلى وجوده فيه .. اذن فقد نفد الامر وبلغ عدوان في تلك الحيلة غـايته منه ، ولم يبق الا ان يخفي ضعفه وراء مظهر جديد من مظاهر القوة فقال :

والآن . ماذا تريد ان تفعل .

فقال عدوان : ذكرت لك ان مولاي نادم على مـــا جرى منه وسيعتذر لزياد ...

- ولكني لا اصدقك .

- بل تصدق عندما يبوح لك مولاي بكل شيء .. الا تذهب يا مولاي غداً او بعد غدٍ الى زياد فتستغفره ذنبك ؟

ففهم الآخر معنى ذلك الكلام .. فأجابه قائلاً : اذهب ولكن على شرط .

فقال عبد الله : أتشترط على الأمير ؟

- اجل وانت تضمن لي قبوله بما اطلب .

قال : قد تطلب ليلى ...

– آه من ليلى فقد برّح بي هواها وسيبعث بي الى القبر بعد ايام .. ولكن لا .. لا اطلبها ولا ارغب في الزواج الآن بالرغم من هذا الهوى .

– وماذا اذن ؟

– ألبس ثياب المرأة التي كنت ألبسها أمس وامثل بين يدي زياد ..

قال : أتعترف ؟

– وما يمنعني من هذا الاعتراف ؟ ألست مستغفراً ونادماً على ما جرى ؟..

– بلى . اذا كان الباطن يدل على الظاهر ..

– اذن احب ان يراني مولاك بثياب العجوز ..

– والغرض من هذا ؟

– اما الغرض منه فلأقول له اني كنت اعلم من وراء حجاب المرأة ما اريد ان اعلمه من امره .. واني كنت اجلس امام فناء قصره حاملاً قربة الماء فأراه وأرى حبيبتي .. ليلى .. والاثنان لا يشعران .. بل لأقول لك انت .. انت يا عبد الله أني كنت أراك وأرى صفوان بن الحارث ، العاشق الجديد ، تمشيان أمام زياد ووراءه .. كأنكما من حراسه .. وهل تعلم ماذا افعل بعد ذلك ؟ انزع هذا الحجاب واضرب به زياداً قائلاً له : انك يا زياد بن كعب اضعف من ان تمس شعرةً من رأس جبير بن عبادة .. وإنك اذا مسستها فسيكون رأسك ورأس مولاك عبد الله ورأس صفوان بن الحارث ثمناً لها .. افهمت الآن ؟

واستوى جالساً في فراشه وقد احمرّت عيناه من الغضب ..

فجعل الموت يقترب من عبد الله وهو يراه .. لكن اليأس نفخ القوة في صدره . فقال بهدوء :

اذن تعتذر عن عملك بقتل ثلاثة ؟؟

– اجل . ولا آذن بالضرب الا لهذه اليد التي احب ان اراها حمراء مخضوبة بدمك يا لعين ودم مولاك .. وسأبدأ الآن .. خنجرك يا عدوان .

فغمزه عدوان ثانية وهو يقول : لقد خوّفته في مزاحك يا مولاي ..

فقهقه ضاحكاً كأن مزاحه لا ريب فيه . ثم قال : لو خطر لي ان اقتلك الآن يا عبد الله فماذا تصنع ؟

فوضع يده على سيفه قائلاً :

أدافع عن نفسي حتى يفلت السيف من يدي ثم اغمض عينيّ مستسلماً راضياً ...

– ولكنك تقاتل اثنين ..

– لقد تعودت ان اهاجم الثلاثة والاربعة ولا ابالي .

قال : احسنت وكان ذلك في ايام الشباب .. ومع ذلك فلنتحدث الآن ولنبحث في الأمر الذي دخلت من اجله .

وسكت قليلاً ثم قال : أترى ان نقابل مولاك في هذين اليومين ام ماذا ؟

فقال وصوته يرتجف : لك ان تفعل ما تشاء .

قال : نذهب غداً كما سمعت . ولكن اتضمن رضى زياد وسكوته عما مضى؟

فلم يستطع عبد الله الا ان يعمد بدوره الى الحيلة فقال :

واضمن ايضاً رضى سواه .

قال : أراك تعني ليلى ..

– نعم ليلى . ومتى رضيت رضي جميع من في القصر كما تعلم .

– ويأذن لي مولاك في الإقامة بمكة ؟

قال : افكر الآن في شيء آخر أرجو ان يأذن لك فيه ..

– ما هو ؟

– ان يمد اليك يده جاعلاً اياك .. صهره ..

فقال في نفسه : لقد خاف الرجل فهو ينصب لي شركاً يستعين به على الخروج من هذه الخيمة .. وتظاهر بأنه استلذ حديثه فقال : وتعدني بهذا يا عبد الله ؟

– اجل ولا تمر بضعة ايام حتى يتم كل شيء ..

– ولكن اخشى ان تردني كما فعلت بالأمس .

قال : اذا اراد عبد الله امراً ارادته ليلى ...

فضحك قائلا : اراك تخون نفسك ايها الرجل .

– وكيف ذلك ؟

قال : ألم تقل لعدوان منذ شهور ان ليلى لم تشأ ان تزفّ إليّ !

– بلى .

– اذن بني ذلك الرفض على أمر منك ..

– لا يا سيدي فليلى لم يكن لها بالأمس رغبة في الزواج .

فقاطعه قائلا : وصفوان بن الحارث ؟

– ما شأنه ؟

– ألم يخطب ليلى ؟

– لا ولكنه يهم بان يطلبها .

– وهل يستهين زياد بن كعب بمنقذ حياته فيبخل عليه بابنته وهو احد سادات كنانة ؟

– ذلك أمر يعني عبد الله ولا رأي لك فيه .

– ولكني احب ان اعلم كل شيء فهل لك ان تقول لي ماذا يكون موقف مولاك ؟

– سيعتذر لصفوان بقوله : انه لايستطيع ان يرد رجلاً من رجال عشيرته له مقام جبير بن عبادة وغناه .

– ومتى كان لابن عبادة مقام ؟

قال : لا تعد الى ذكر الماضي فقد طويناه الآن

قال : اما نحن فما نسيناه .. الا تذكر رجاءنا وكبر مولاك ، والتماسنا وعزه وحب مولاي جبير وعظمة مولاتك ليلى ؟

– اذكر ان الرجال لا تعبأ بالماضي كما قلت .

وكان يطمع في ذلك الهدوء الذي يظهره في واحد من أمرين ، اما ان يعود طلحة مع زياد فينجو من الموت الذي يقترب منه .. واما ان يثق به ابن عبادة

ليأذن له في الخروج .

وليس له في غير ذلك نجاة من ذلك الغول الجالس في فراشه .

غير ان عدوان ، يريد كما قال ، ان يعلم كل شيء قبل الإقدام على الأمر الذي يفكر فيه . وقد اراد في تلك الساعة ان يضرب بيدٍ ويمسح بالأخرى عله يظفر بما في صدره من اسرار . فقال له :

لقد نسينا الماضي كما شئت ، افلا تأذن لنا ان نسألك عن الحاضر .

فظن المسكين ان القدر يمهد له اسباب الحياة . فقال :

سل ما تشاء ؟

قال: قلت ان صفوان لم يخطب ابنة زياد،أتصر على هذا القول ام تعود عنه؟

– يقم في ذهني قط ان اكذب . قلت انه لم يخطب وانا اعيد الآن ماقلت.

ثم رفع رأسه قائلاً : وهـــل سمعت ام رأيت ان أمير صوفة احتفل بخطبة ابنته ؟

– لا ، ولكني حسبت ا ن هذا الاحتفال سيكون بعد رجوع صفوان من بصرى ، أليس كذلك ؟

– نعم اذا تمت الخطبة ، فاذا اراد جبير ان يطلب ليلى فليعجل في الامر قبل ان يرجع الرجل .

قال : اصبت فخير البر عاجله ، ولكن من هو ذلـــك الفتى الذي يرافق صفوان في اسواق مكة ؟

– انه احد فتيان الشام وقد رآه صفوان في يثرب .

– ويظهر انه كان يعرفه من قبل .

– بل عرفه فيها كما قيل لي .

– واي غرض لهذا الشامي بالحجاز ؟

– ليس له فيه غرض ولكنه ترك ربوع الشام فراراً من جنـــد النعمان بن امرىء القيس الذي كان رسول الفناء والدمار .

قال : لقد خيل اليّ انه خطيب آخر واننا كنا بواحد فصرنا بين اثنين . ما رأيك يا مولاي فيما يقول عبدالله ؟

قال : نطلب ليلى من جديد فنار الغرام تضطرم في هذا الصدر وليس لنا قوة على الاحتمال بعد ؛ ولكن نسألك الآن يا عبدالله سؤالاً آخر نستعيد به حوادث امس .

قال : اتعود الى ذكر المرأة السوداء ؟

– اجل فخبرني ماذا قالت ليلى عندما عرفت اني جبير ؟

– استولى عليها الذعر واومأت الي بان اتبعك .

– ورأيتني اثب من صخرٍ الى صخرٍ فوقفت وانت لا تستطيع ان تلحق بي.

– نعم .

قال : لقد بت ليلتي وانا افكر في سيفك .

– وبت انا وباتت ليلى ونحن نفكر في ثوبك .

قال : ولو استطعت ان تقتلني في تلك اللحظة لفعلت افلا تعترف بهذا ؟

– كنت قادراً على اللحاق بك ولكني لم افعل .

قال : هذا هو الخوف كله . امـــا انا فعندما استطيع ان اغمد خنجري في صدرك اغمده ولا اتردد .

ونهض عن فراشه وهو يبتسم ابتسامة ابليس .

فجرد عبدالله سيفه وهو لا يدري ماذا يفعل . لكن ذلك السيف سقط من يده قبل ان يرفع تلك اليد .

مسكين عبدالله . انه بين غادرين . عدوان من الوراء . وجبير من الامام والاثنان من امهر العرب في خطف ارواح الابرياء .

فصاح قائلاً : لقد خسرت ليلى يا ابن عبادة .

فاجابه وهو يتناول خنجره : امـا انت فقد خسرت حياتك ، وضربه في صدره ، فتراجع الى الوراء . ولكن خنجر عدوان غاص في ظهره . فخطا خطوتين كما يمشي السكران ، ثم وقع على الارض وهو يقول بصوتـــه المرتجف المتردد في صدره :

ويل للغادرين .

اما الاثنان فقابلا سقوطه بابتسامة هزء غريبة ونظر الواحد منهما الى الآخر نظرة الرضى والاعجاب .

وكان الدم يخرج من فم عبدالله .

فقال جبير : اتبخل عليه يا عدوان بضربة اخرى وانت اجود الناس ؟ .

قال : ما تعودت يا مولاي ان اضربُ ضربتين .

ـ اما انا فقد تعودت ان اضرب ثلاثاً . واهوى له بخنجره بين الاضلاع .

غير انه ضرب جثة خرساء . فعبدالله الوفي لمولاه ، المخلص لآل كعب كان له اسلم الروح .

فأخذ عدوان سيفه . وجعل يحفر مع مولاه في ارض الخيمة قـبراً للضحية المضرجة بالدماء .

ودفناه . وكانت صلاتهما الاخيرة على القبر ، ضحكة ملأت جوانب الخيمة.

* * *

عندما هم عبدالله بالدخول الى الخيمة ، اشار على طلحة بالذهاب كما قرأت .

وكانت عينا عدوان تبصران كل شيء . فلم يتردد طلحة في الرجوع . ان ذلك الدينار الذي وعده به عبدالله ينتظره في قصر زياد بن كعب . وليس عليه الا ان يتعجل في مشيه ليراه بين يديه .

فلما وصـــل الى القصر ، كان زياد يطوف في حي بني صوفه ويصغي الى حاجات القوم .

فقالت له ليلى : ما هي حاجتك ايها الغلام ؟

- اريد ان ارى مولاي الامير فانقل اليه كلاماً .

قالت : انقل هذا الكلام الى ابنته .

فتمتم قائلا : اذا فعلت يا مولاتي خسرت ديناراً .

ـ ويلك فمن يعطيك هذا الدينار ؟

ـ مولاي زياد .

– وان لم يعطك ما ذكرت ؟

– اعود الى من ارسلني فأطلبه منه .

قالت : ادخل ففي القصر ابو زياد وهو يعطيك ما تشاء .

فمشى الغلام وهو يتردد في مشيه حتى اقبل على الشيخ فاعاد عليه ما قاله لليلى.

فجعل ابو زياد يتفرس فيه ثم قال : ممن انت ياغلام ؟

من صوفة يا مولاي .

– أأنت محتاج ؟

قال : من دلائل هذه الحاجة اني لا املك غير هذه الثياب التي ألبس .

قال : نعطيك دينارين ونجعلك خادماً في القصر ايرضيك هذا ؟

فجثا الغلام على ركبته وهو يقول: ذلك فوق الحاجة يا مولاي فالشكر لك .

– اذن فاذكر الآن من ارسلك .

قال : عبدالله . ويخيل اليّ انه عثر بالرجل الذي يطلبه .

قال : ماذا ؟

– نعم يا مولاي فقد رأيته بعيني يدخل الى خيمته في الوادي .

ثم قصّ عليه حكايته مع عبدالله .

فنادى الشيخ احد عبيد القصر وقال له: ادع مولاك الساعة فانا بحاجة اليه.

ثم قال لليلى: اتظنين ان ابن عبادة يقيم بذلك الوادي الذي يلجأ اليه الغرباء؟

– لقد اصبحت الآن واثقة بهذا .

– اذن فحياة عبدالله في خطر واخشى ان تضيع . قم ايها الغلام فابحث عن مولاك في الحي ، انك تعرفه كما قلت فلا تتردد . وانت يا ليلى فاختاري بعض رجال القصر ليرافقوا اباك الى الوادي فالامر أعظم ممـا نظن . قومي الآن ولينصرف زياد عند قدومه قبل ان يفوت الاوان .

وكان الناظر الى ابي زياد يرى الذعر البادي على وجهه .

وقد خافت ليلى لخوف جدها وقامت تعدّ الرجال وترسل الرسل الى الحي تستعجل اباها . لكن هؤلاء الرسل لم يعودوا ، ولم تجد أثراً لزياد .

كان الناس يبحثون ويفتشون عنه وكان القدر الجائر يخفيه عن العيون ليقتل عبدالله في سبيل اخلاصه . ان زياداً لم يكن في الحي في ذلك الحين . بل كان قد تركه منذ ساعة ذاهباً الى قصر حاجب البيت .

ولما عرفت الغلمان ذلك . كان ذلك القدر قـد نفذ . وعبدالله الذي ينتظر قدوم مولاه ، كان قد غيبه التراب .

* * *

قيل لزياد وحليل يسمع :

ان عبدالله يدعوك اليه .

فأجابه وهو غير واثق : من انت اولاً واين تركته ؟

ــ امـا انا فخادم في قصرك يا مولاي . واما عبدالله فقد تركته في مضرب الرجل الذي يطلبه بأمرك .

فدبت الريبة في صدره ، ونهض ليقبض على ذلك الغلام الكاذب الذي يهزأ به امام سادن الكعبة .

انه لم يكن خادماً في قصره كما زعم ، وهو يعرف عبيده وغلمـانه . لكنه لم يمهل حتى رأى خدم القصر ، فأعاد عليه احدهم ما سمعه من ابي زياد . فوثب الى الخارج وهو يقول : قتل عبدالله ورب الكعبة .

وتقدم خدمه الى الوادي وهو لا ينظر الى الوراء .

فحاول حليل ان يعلم من هو الرجل الذي عناه الغلام فلم يستطع لأن زياداً كان قد ابتعد ، وطلحة وراءه .

ولا يبعد الوادي اكثر من نصف فرسخ فلما سار زياد في طريقه اومـأ الى طلحة بان يسبقه اليه ، والى خدمه بان يرجعوا الى القصر .

أجل ، لقد كان واثقاً بقوته . واثقاً بسيفه وهو قادر مع عبدالله على اقتحام الجيش الكثير . وكان يقول في نفسه : لم يبق علي الا ان أحمل بيدي رأس جبير . ويحمل عبدالله رأس مولاه اليمني . حتى بانت الخيمة وأشار اليها طلحة .

فخفق فؤاد الامير وارتجفت ركبتاه . ان الناس القلائل النازلين على الضفتين

يروحون ويجيئون . والهدوء يسود الوادي ومظهر الخيمة الخـــارجي مظهر مضرب هجره أصحابه فسدلت استاره ، لولا ناقة لا زمام لها تدور حولها. فلما وصل وقف قليلاً علّه يسمع صوتاً ، فلم يسمع ، فشهر سيفه ورفع به الستار ثم دخل ، ولكنه لم يرَ غير الجدر السوداء . فنظر الى طلحة والغضب في عينيه ثم قال : أتخدعني يا لعين ؟

فتراجع الغلام الى الوراء قائلاً : لا يا مولاي فقد رأيت عبدالله يدخل من هذا الباب ..

قال : اقسم .

قال : أقسم بمن بسط هذه الارض اني لم اكذب .

– ولكني لا اجد احداً كما ترى ، ارفع الستار الآخر ..انها خيمة من خيام الامراء لها بابان ..

فرفعه ، فابصر فراشاً .. ورحلاً ، وقربة فيهـا مـاء ، وعباءة سوداء تـكاد تبلى ، وبساطاً صغيراً هو ثلاثة جلود من جلود الغنم ربط الواحـد منهـا بالآخر وجعلت امام الفراش ..

ولم يكن قد رأى شيئاً من ذلك، حين دخوله . فجعل يتفرس في تلك البقايا وهو ذاهل.ثم همّ بالخروج ليستدعي احد الجيران ويسأله عن صاحب هذا البيت.

فصاح طلحة : أرى دماً يا مولاي !!. وأوما الى البسـاط الابيض .

فانحنى زياد ليرى ، ثم جحظت عيناه وتجهم وجهه .. نعم لقد رأى دماً . وهذا الدم لم يجف ..

ثم قال : ارفع يا طلحة هذه الجلود ..

ففعل . فابصر التراب مصبوغاً بالدم، وآثار الحفرة الجديدة ظاهرة للعيون.

فمرت سحابة سوداء امام عينيه . واضطرب كما تضطرب الغرسة الضعيفة في مهب الهواء .. ثم خاف ان يسقط فجلس على ذلك الفراش الملوث بالجريمة وهو لا يعلم ماذا يفعل ..

غير ان طلحة كان في تلك الساعة اعـلم منه . فقد فتش فلم يجد خشبة يحفر

بهـا الأرض ، فعمد الى الرحل فكسره واخـذ قطعة منه وجعل يحفر ويستعين بيديه على رفع التراب المجبول بالدماء حتى بان رأس عبدالله ووجهه المصبوغ .

فغطى زياد وجهه بيديه وتمتم قائلاً : ماذا ترى يا طلحة ؟!.

فساد السكوت ..

فأعاد كلمته وهو يكاد يختنق .

فقال : الشعر يشبه .. شعر عبدالله .. اما الوجه .. فيغطيه الدم .. فصبراً يا مولاي . ان في القربة ماء أغسله به فتظهر ملامحه .

وقام فحمل القربة واخذ يصب منها على ذلك الوجه الأحمر حتى رأى مـا اراد ان يراه .

فتنهد قائلاً : انه عبدالله يا مولاي !!

وكان الأمير لم يزل مطرقاً ووجهه بين يديه . وهو لا يجسر ان يرفع نظره الى الجثة .. زياد بن كعب احد قواد الحجاز ، خواض الميادين ومقتحم غمرات الموت ، لا يجرؤ على النظر الى جثة موضوعة في حفرة .

انه ضعف لا يليق بقواد الجيش .

ولكن عبدالله وجد في قصر كعب قبل ان يوجد زياد . وكثيراً مـا رقص بين يديه ولعب في حضنه. ثم ربّاه ورافقه في حروبه ومغازيه فكان كالعبد الامين يتبع مولاه الى حيث يشاء ويفديه بحيـاته . اذن ليس كثيراً على زياد ان يخفي وجهه ويرخي نظره الى الأرض . بـل ليس كثيراً عليه ان يبكي كما تبكي النساء ذاكراً اخلاص مولاه ووفاءه .

وكالأسد الجريح نهض عن ذلك الفراش ، وخرج من الخيمة قائلا لطلحة : اترك الجثة فسنعود اليها بعد حين .

فوثب الغلام الى الخارج وهو ساكت .

فقال زياد : ادخل هذه الخيام القائمة على الجانبين وادع اصحابهـا الى المثول بين يدي . أفعل الآن ولا تستثنِ واحدة منها والويل لمن لا يحضر .

وقبل ان يذهب طلحة ، رأى غلمان القصر وفريقاً من رجال صوفة بايديهم السيوف اقبلوا يسألون عن الأمير . وقد رآهم زياد فقال :

لقد كفاك هؤلاء مؤونة الذهاب فابقَ. وعند وصولهم خاطبهم قائلا : ماذا تصنعون بفتى من فتيان صوفة قتل اخاه ? قالوا : نذبحه اذا أراد الامير .

– واذا كان هذا القاتل خداعاً غادراً يكمن للناس كما تكمن الذئاب لتخطف الأرواح ?!

– ننزع اعضاءه عضواً عضواً وهو حي .

فاغرورقت عيناه بالدموع وهو يقول :

اذن فاعلموا ان عبدالله قتل غدراً في هذه الخيمة وجثته فيها . وان قاتله جبير بن عبادة .

فصاحوا جميعهم قائلين : جبير بن عبادة لا سواه ?!

– نعم جبير الذي حاول ان يغدر بنا كما تعلمون .

فاطرقوا وقد اسودت وجوههم واخرستهم اللوعة ، ثم قال احدهم : واين القاتل يا مولانا .

– اما القاتل فقد ضرب ضربته،وترك خيمته، وفر مع مولاه اليمني ولكنه لا يستطيع الفرار ونحن وراءه . اذهبوا جميعكم الآن ، وفتشوا الخيام التي ترون واحضروا أصحابها .

فمشوا دون ان يترددوا في الأمر . لكن تلك المضارب التي تدل على فقر اهلها لم يجدوا فيها جبيراً .

بل لم يروا فيها غير الشيخ الهرم ، والمرأة العاجزة ، وبعض الاطفال .

وهنالك غلمان ينظرون في امر من بقي في الحي .

فمثلوا جميعهم بين يدي زياد. فقال لهم وهو يومىء الى خيمة الجريمة: أتعرفون لمن هذه ?!

فاجابه اكبرهم : ان أصحابها اثنان او ثلاثة لا نعرف اسماءهم .

قال : صفهم .

قال : رجل ضعيف الجسم يجاوز السبعين من عمره . وهو براق العينين دائم الحركة يرتسم الخبث كله في عينيه ..

وسكت ملياً ثم قال: ولعل زوجته اكثر خبثاً منه .

قال : أكانت هذه الزوجة سوداء ؟!

- نعم يا مولاي .

فقال : كفى فقد عرفت الاثنين ، ومن هو الثالث ؟!

- امـــا الثالث ففتى في مقتبل حياته ، تحجب وجهه كله عمامة خضراء وجسمه القصير يشبه جسم المرأة المحجبة التي لم نرَ لهـا وله وجهـاً . ولكن هذا الفتى يا مولاي لم يكن يظهر حتى يختفي بل لم يكن يظهر حتى تحتجب المرأة كأن وجود الاثنين تحت سقف بيت واحد امر لا سبيل اليه .

قال : احسنت فالمرأة والفتى واحد هو جبير . لقد صدق المسكين عبدالله لما ذكره لي وكانت تلك المرأة اللعينة التي تصفها سبباً لموته . والآن قل لي . ألم يرَ احدكم رجلاً بثياب أهل اليمن يدخل اليوم هذه الخيمة ثم لا يخرج منها ؟

فنظر الرجل الى رفاقه . فقالوا : لا .

- وهل رأيتم تلك المرأة وزوجها يخرجان منها ؟

فترددوا جميعهم في الجواب ،

الا غلاماً في العاشرة من عمره وقف وقال :

اما انا فقد ابصرت الاثنين .

فبغت قائلا : وأين رأيتها ؟

- رأيت الرجل اولاً يشعل هــذه النار . ثم ضيعته ولم أره بعد ذلك ولعله دخل وانا لاه عنه .. وكانت الشمس في تلك الساعة وراء هذا الجبل فلمـــا ملأ نورها الوادي ، رأيت الزوجين يخرجان والرجل يسدل ستار الباب ثم مشيا بين هذه الصخور وتجاوزاها الى الوراء كما ترى .

وأومأ الى جهة الجنوب .

قال : أتستطيع المشي كما تمشي الرجال ؟

- بل اسبقهم يا مولاي .

- اذن سر امامنا ونحن نتبعك . اما انت يا طلحة فلا تترك عبدالله .

ومسح دموعه ومشى مع القوم . ثم تفرقوا في السهل والجبل يبحثون عن

القاتلين ، حتى ضاع نصف النهار ولم يروا لهما اثراً . فحزنت نفس زياد وملأت الكآبة قلبه .

لقد كان واثقاً بأنه سيقبض على الاثنين . ثم يحملها الى تلك الخيمة ويذبحها امام الجثة التي يغمرها التراب ثم يطرحها طعاماً للطير في ذلك الوادي الموحش. وينقل جثة عبدالله ليدفنها في مكة بين عويل النساء وبكاء رجال الحي .

نعم، والعربي مثل زياد بن كعب ،لا يدفن قتيله قبل ان يثـأر به ويقتل قاتله . وعبدالله احب رجل في صوفة الى زياد . ولكن ماذا يصنع ، والاقدار تساعد القاتل الغادر في التحجب والاستخفاء ؟

وكان القوم قد تعبوا وملوا البحث . فاشار عليهم بالرجوع وهو يقول :

الدم الطاهر البريء يراق في الوادي ،وجبير بن عبادة حي لا تصل اليه الايدي؟ انها غريبة ورب الكعبة . ثم جعل يقول للناس: من يدلني على ابن عبادة فله مئة دينار من دنانير الفرس . ومن يدلني على مولاه عدوان اليمني فله مئتان .

فحيرهم قوله ، أيكون دم العبد أثمن من دم سيده ؟

اما هو فقد أبصر حيرتهم فقال :

اذا كان جبير بن عبادة حية رقطاء تضع سمها في صدور الابرياء ، فعدوان اليمني هو الذي ينفث ذلك السم ،لا يبالي بضحاياه . مسكين عبدالله لقد استهان بالاخطار في سبيل وفائه فتناولته يد الغدر . فلأتناولن قـاتله من يد القدر ولأجعلن جثته موطئاً لنعال اهل مكه .

وجعل يبكي والقوم ينظرون الى دموعه ويحنون الرؤوس ،

حتى رجعوا إلى الوادي واحاطوا بالقتيل المكفن بدمه وهم ينتظرون امر زياد.

* * *

- ١٠ -

دفناه في تلك الحفرة التي حفراها ، وعمـدا الى سيفيهما وسيفه ، ووعاء فيه ماء ، وجراب للسفر يضعان فيه الزاد. وخرجا من المضرب كأنهما يتنزهان ، ولم يباليا بما بقي في الخيمة من متاع .

ان جبيراً من الاغنياء والزمان لا يتسع له ليحمل معه كل شيء . حتى ان الناقة التي كان يرعاها والحجاب على وجهه ، لم يلتفت اليها ولم يأذن لعدوان في ان يسوقها امامه ، وقد اصـــاب في ذلك التدبير كما رأيت . فالنوق احدى الوسائل التي تدل العرب على آثار الهاربين .

والآن . فالى اين نذهب يا عدوان ؟

قال : اتبعني يا مولاي فنحن الآن نسير في طريق الجنوب .

– أنرحل الى اليمن ؟

قال : سيقول اهل هذا الوادي في انفسهم اننا ذاهبان اليها ، ولكن لا تمضي ساعة حتى ندور وراء هذا الجبل ونتجه نحو الغرب .

– اذن الى البوادي بيننا وبين تهامة ؟

– بل الى تهامة نفسها فالبادية اقرب طريق اليها .

– ولكنها بعيدة وانا لا اترك مكة .

قال : يخيل اليّ انك تريد ان ترقد في حفرة اضيق من حفرة عبدالله ! الا تعلم انّ بني صوفة سيطلبونك في اكواخ مكة وقصورها، وفي مغاور الجبال والفضاء حتى يعثروا عليك ؟

قال : لقد طلبوني من قبل فلم يقبضوا الا على الهواء .

قال : لم يكن هنالك قتيل يا مولاي، بل كان زياد مستهيناً بك مستخفـــاً بذنبك حتى انه منع قومه غير مرة من ان يسألوا عنك . ولولا الريب الذي قام في نفس ليلى ، لما خطر ببال عبدالله ان يتبع اثرك ويلحق بك الى هذا الوادي .

– ومع ذلك فانا لا اعلم الغاية من السير بين هذه الصخور .

– اما انا فاعلم من الأمر ما لا تعلم . اسمع يا مولاي . سيجيء زياد بعد ساعة ويجيء معه فتيان قومه يبحثون عــن صاحبهم فلا يجدون غير جثته . فيسألون اهــل الحي عن اصحاب الخيمة فيصفوننا لهم ثم يقولون : هذا هو الطريق الذي سلكوه .

– وبعد ذلك ؟

: يتبعنا زياد . ويرسل رجاله وراءنا فلا يقفون لنا على أثر ولا يخطر لهم ببال اننا تركنا الطريق الذي ذكروه لهم وسلكنا الطريق الآخر الذي، لا تسلكه العرب لوحشته وجفافه .

– وكيف يعلم ابن كعب ان عبدالله قدم هذا الوادي وقتل فيها ؟

فابتسم قائلاً : نسيت ان اذكر لك طلحة بن وهب .

– وما شأن هذا الغلام ؟

– شأنه انه كان وراء الخيمة عندما دخل اليها عبدالله .

– وتظن انه يقص على زياد ما رآه ؟!

– نعم وقد علمه القتيل قبل ان يموت ما يجب ان يقوله لمولاه .

فخاف الغادر وجعل يتلفت مذعوراً .

فقال له : يا مولاي فسنسير عشرة فراسخ قبل ان يجيء القوم .

– ولكن ستدركنا الخيل .

قال : لا تستطيع الخيل ان تضع حوافرها حيثما نضع اقدامنا . اتبعني ولا تنظر الى الوراء . وعجلا في المسير كأنهما فرسا رهان ، حتى جاوزا ما انبسط من الجبل وهبطا من الجانب الاخر يريدان السفح الغربي .

اجل . وعلى ذلك الشفير الذي انحدرا منه وقف زياد ورجاله وقد ضيعوا املهم بالعثور على الاثنين كما رأيت .

ولم يخلع جبير ثياب المرأة حتى اصبحا في البادية بعد مسير فراسخ كثيرة في النهار وفي اليل . فحول عندئذ وجهه نحو الشرق قائلاً : ان فراقنا لا يطول . وسأعود الى مكة لأقتل السيد كما قتلت عبده . واجعل ليلى جارية لابن عبادة الذي يحتقرون .

وتهامة . بلاد كبيرة واسعة الاطراف . نزلها القاتلان وامتزجا باهلها بفضل ما عندهما من مال .

وهما ينويان العودة الى عاصمة الحجاز عندما ينسى زياد بن كعب حزنه على ذلك القتيل .

حملوه الى حيهم ولم يغسلوا غير وجهه .

وقد عرفوا ان الجرح القاتل كان في ظهره ،

حتى وصلوا الى مكة فاستقبلته النادبات كأنهن يستقبلن فتى من الاشراف سقط قتيلاً في ساحة الحرب . حتى ان كعباً جرّ شيخوخته وشيع جثمان ذلك الرفيق الامين الى الضريح الذي اعدوه له .

وليلى ترسل الزفرات ويخنقهـا الدمع . ان عبدالله خير الامناء المخلصين ، ويكفيها انه كان عوناً لها في ذلك الغرام الذي لا تستلذ في حياتها غير احلامه .

اما بنو خزاعـة وبنو بكر ، فقد شاركوا اخوانهم بني صوفة في الحزن على الفقيد . وبالغ حليل بن حبشية في المجاملة ، فـأهدر بصفته الامير الاكبر ، دم القاتـل الغدار كما اهدره زياد من قبله . فعل ذلك قبل ان يدفنوه . وتفرق الناس وقد نسوا ضحية الوفـــاء ، الا زياداً وأهل بيته فقد كان عبدالله حياً في صدورهم لا يزول ذكره .

وكان القوم قد آنسوا من طلحة بن وهب ذكاء واخلاصاً ، فجعله زيـاد في قصره ولم يكن له اهل ليشتريه بالمال .

ولو دخلت الى نفس طلحة ، لرأيت فيـها صورة جبير بن عـــبادة واضعاً عمامته الخضراء على وجهه . يمشي بسرعة وخوف في طريق الوادي .

اجل ، ان تلك القامة القصيرة لم تزل نصب عينيه . ولو لم يحدث حـــادث القتل في اليوم الثاني ، لكانت تلك الصورة الغريبة قد امحت من ذهنه قبل ان ينقضي ذلك اليوم .

وليس ذلك غريباً . ففي الحياة ساعـــات ينسى المرء نفسه ولا ينساهــا وتضمحل من ذهنة جميع الظواهر التي رآهـا وهي باقية . كأن الحادثات تطبع تلك الصور بطابع حـديدي لا يزول . ولكن . لو رأى طلحة جبيراً ، وجهاً لوجه ، ولم تكن على وجه الاخير عمامته الخضراء ، لما عرف انه هو .

رأس جبير

لم يكن للعرب ، في جاهليتها نظام للجند تلجأ اليه عندما تدور رحى الحرب . بل لم يكن لها في جميع الشؤون نظام خاص وسياسة خاصة ، إلا طائفة من العادات كانت تشبه النظام . ولكنها لا تتغير ولا يبدلها مر الزمان .

بلى ،كان للدول العربية المتمدنة في ذلك العهد شيء من ذلك ، وكان لها فرق الجند والكتائب والقواد . على رأس تلك الدول دولة حمير في اليمن ثم دولة المناذرة في العراق ، ثم دولة الغساسنة في الشام .

أمـــا العرب الباقية ، فقبائل بدوية ، في فطرتها الجافة ، واسلوبها الحربي الموروث ، جنودها رجالها ، وقوادها شجعانها وإبطالها ، يغزون عندما يطيب لهم الغزو ،ويقتسمون الغنائم، لهذا واحد وللآخر الف ،على قدر بطولة الرجال وأطماعهم .

وأهل الحجاز أبلغ مثال لما تقرأ .

كذلك كانت الأمم جميعها في الأدوار الاولى - قبل التمدن - . ! القوي يسود الضعيف ، والغني يبتلع الفقير ثم يهضمه مستريحاً ناعم البال .

وليس هنالك نظام غير الذي يمليه ناموس تنازع البقاء .

فلما تمدن الناس ، كما يقولون ، وشيدوا دولهم وأمجادهم كانت الكهانة أقدم المهن عندهم ، تجيء بعدها الجندية .

ولعلك تريد أن تقرأ بعض السطور الآن عن تاريخ أنظمة الجند في العرب وفي غيرها من الأمم .

إن أول دولة نظمت الجنود صفوفاً متعاقبة متراصة ، دولة الفراعنة ، في مصر ، وكان ذلك في الجيل العشرين قبل المسيح ، وجنودهـــا يومئذٍ زنوج وأحباش أخضعت بهم أهل سواحل البحر الأحمر .

ثم جاء اليونان فأخذوا شيئاً من ذلك النظام وحسنوه ، فجعلوا الكتائب التي تعرف بلغتهم بلفظة Phalanx أي أن يتراصّ الجند ، الرجل بجانب الرجل في صفوف متعاقبة الواحد وراء الآخر ، وعدد الكتيبة الواحدة أربعة آلاف من الرجال تصطف في الميدان على الصورة التي قرأت .

غير أن هذا العدد ، كان قليلاً جـــداً في عيني فيليب المكدوني ، والد الاسكندر الكبير ، فجعله ضعفين ، ثم قام الاسكندر فـــلم يشأ إلا أن يكون أربعة أضعاف ، وقارب في الصفوف ما بين الرجال حتى لتحسب الصف قطعة مستطيلة واحدة وجعل لكتائبه الرماح الطوال حتى جاوز طول بعضها العشرين قدماً .

ولكنك لا تعرف الحكمة من ذلك ، إلا إذا عرفت أن رماح الصف الخامس من الكتيبة ،كانت تبرز اكثر من ذراع أمام رماح الصف الأول؛فتكون الرجال داخل نطاقٍ من الاسنة لا تستطيع الايدي ان تمتد اليه .

وفي هذا الاختراع . بـــل بقوة هذا النظام ، استطاع الاسكندر في القرن الرابع قبل الميلاد أن يسود العالم .

وبعد ذلك ظهرت دولة الرومان، ومنذ خلقت خلقت للحرب. فنهجت نهج اليونان في التجنيد. ثم ما لبثت حتى عمدت الى نظام آخر يخالف نظام الكتائب على خط مستقيم .

كان جيش الرومان في عهد الدولة الاول فرقاً . رجال كل واحدة منها ستة آلاف ويتبع كل فرقة في ساحة الحرب جمـــاعة من الفرسان ، تشغل العدو ، بالمقاليع والسهام .

ثم جعلوا هـــذه الفرق كراديس . وجعلوا الكراديس أقساماً ، والأقسام فصائل ، دون ان يبقى هنالك اثر لنظام الكتائب الذي عرفت .

وبقي الرومان على نظامهم هـــذا حتى الفتح الاسلامي ، وعندئذٍ كثرت أقسام الجيش وكانوا قد اقتبسوا في فتوحهم أنظمة جديدة جعلوها أنظمةً له .

أما الفرس ، فقد تمشوا في عهدهم على نظام فرعون الذي ذكرناه ، وبه ظفر قورش وقمبيز في حروبهما مـــع اليونان ، ثم جعلوا جيشهم بعد ذلك أربع طبقات .

* * *

السيف والرمح ، كانا في ذلك الزمـــان ، أشهر أسلحة العرب ، ثم يجيء بعدهما القوس والترس .

وكانت للعرب ، في الجاهلية وفي الاسلام ، عناية خاصة بالسلاح الذي ذكرت واهتمام غريب يفوق الاهتمام بحاجات الرجل وأهل بيته .

ومن الطبيعي ان يكون الأمر كما قرأت . فلولا هذه الصنوف من السلاح لما وفرت لهم أسباب العيش ، ولما استطاع الجار ان يأمن الجار ، بل لما كان لهم حرمة مقدسة وعرض مصون .

قـد يقوم في ذهنك انهم كانوا احوج الى السيف منهم الى السلاح الآخر ، .. تصور في غير موضعه . اجـل كان السيف مظهراً من مظاهر حياتهم وعزة انفسهم . ولكنه لم يكن عـلى رغم نبالة اصله ، وشرف محتده ، اعرض جاهاً من القوس وابعد منها أثراً . بل لم يكن شرفه يداني شرفها . ولم يستطع مجده أن يضاهي مجدها فهي على العرش كالملكة الفتانة يعبدهـــا الناس ، والسيف وزملاؤه اركان هذا العرش تحف به من الجانبين .

نعم . وكانت لهم مهارة غريبة ساحرة في صناعتها . صناعة الرمي . وقـد انبتت لهم الارض اغصاناً يفنى الفولاذ ولا تفنى ، يتخذونها سهاماً يبلغون بها الغاية التي يريدون .

يصيدون بها غزلانهم ، ويرسلونها الى صدور اعدائهم ، ويصرعون بها سباع باديتهم ، وعندما يطيب لهم الرمي يرمون بها اكباد الطير في الفضاء .

ولم تذهب دولة القوس بعد ظهور الاسلام ، بل اتخذت شكلاً اروع واعظم

ثالثا ، وقـــد حجبت خبرة المسلمين وتفننهم بالرمي في القرون الوسطى خبرة اخوانهم العرب الذين عاشوا في الجاهلية ، وبلغت تلك الخبرة انهم كانوا يصنعون العجائب ، بذلك العود الذي يبرون .

حتى انهم جعلوا لسهامهم آلات استبدلوا بها القوس .. يضعون تلك السهام في شقوق خاصة تبرز من انابيب الحديد او الخشب ، ثم يقذفون بها قذفاً شديداً كما تقذف البندقية الرصاص فتصيب الاهداف .

ثم ارتقوا في الاختراع ، فاصطنعوا لهم آلات اخرى تشبه المجانيق توضع فيها السهام ويرمى عنها بالاقواس .

وتلك الخبرة بالرمي ، كانت احدى وسائل ظفرهم بدولة الروم ، وقد عرف القواد المسلمون فضل السهام في الحرب فأوصوا رجالهم باتقان الرماية كما أوصوهم باتقان الركوب والعناية الشديدة بالخيل .

وكان النبي العربي ﷺ يقول :

« اركبوا وارموا ، وان ترموا احبّ إليّ من ان تركبوا » .

ومن قوله وهو قائم على المنبر :

« اعدّوا ما استطعتم من قوة ، الا ان القوة الرمي ، الا ان القوة الرمي ، الا ان القوة الرمي » .

ولعلك تستطيع أن تقول : انهم كانوا يعنون باقواسهم وأفراسهم عنايتهم بنسائهم .

* * *

ذلك كان شأن القوس في حياة العرب .

غير ان ذلك الشأن لم يكن يمنع العربي من القول : إن السيف أشرف سلاح يحمله الناس .

والسيوف لا تصنع في الحجـاز بل لا تصنع في بلاد العرب ، إلا في اليمن ، فكان القوم يستحضرون سيوفهم منها ومن الهند والشام وخراسان وتعرف هذه السيوف جميعها بالعتيقة ، ولكل منها شكل خاص .

هذا محفور ، وهذا مصور ، وهذا ذو شطوب ، وكلها لا تقطع الا الاجسام اللينة فإذا أصابت جسماً صلباً تكسرت ، ذلك لانهم لم يتعلموا أن يحسنوا صنعها حتى تبري الحديد . لأجل هذا إذا استولى أحدهم على سيف قاطع من اسياف الروم او غيرهم يذكرونه باشعارهم ويتناقلون خبره .

* * *

اما الرماح فكانوا يطعنون بها وهم على الخيل .

ولكنهم كانوا يخشون دائماً أن تتكسر في الأيدي .

والطعن ، فنٌ له قاعدته واصوله . ذكر منها صاحب آثار الدول ما تقرأ قال :

« واللعب في الميادين وبين أيدي الملوك غير التحرك به في الحروب . منها المواجهة وهي ان تحمل على مبارزك وقد اخذت الرمح تحت ابطك وجعلته بين اذني فرسك . وتقصده مستوياً حتى تقرب منه ، فان رأيته قد طرح رمحه يمنةً فاطرح رمحك يسرة وان طرحه يسرة فاطرحه يمنة . واجتهد ان تبدأ بالحمل عليه وانت مسدد وتحول الرمح يميناً وشمالاً كي تدهشه فلا يدري من اين تجيئه ، فاذا دنوت منه دخلت عليه من الخلل الذي لا يكون رمحه فيه . واذا اردت ان تبتدىء بالخروج فخذ اسفل الرمح بيدك اليمنى ورأسه الى الهواء وهو على عاتقك الأيمن واحمل عليه حتى لا يدري اي وجه يلقاك . وان خرجت الى فارسين وتفرقا ، فاحمل على الأدنى ، واذا كانا قريبين فأرِ أحدهما انك تريد رفيقه واحمل عليه ولا تتم حملتك ، ثم اعدل الى الآخر واصدقه الحملة .

وان حذقا ورأيتها يفترقان عليك ، فتطرف ولا تتوسط واحمل على الادنى اليك ، فان تساويا فادهش الاضعف واحمل على الأقوى . فان تساووا وكانوا جماعة فامتد أمامهم حتى يتبعوك ثم كرّ على الادنى منك فاطعنه . وان دخلت مضيقاً فتلقاك فارس برمح ، فاياك والمصادمة ، بل انزل الى اقربها اليك ، وتترّس من الآخر بفرسك » .

واسنة الرمـاح عندهم انواع كالسيوف ، منها المشعب والعريض والمستوي والرفيع والمعوج، الى آخر ما هنالك من أشكال .

* * *

كذلك كانت التروس أنواعاً وأصنافاً ، والذي يصلح منها لهـذا الشيء لا يصلح للشيء الآخر . فالمقبب المنحني الأطراف لا يتقى به الرمح لانه متى طعن لبث الرمح فيه . وانما يتقى به الحجارة والسيف ، والمستطيل يتقى به النشاب لأن رأسه يستر رأس الفارس وطوله يقيه لأنه ينظر بإحدى عينيه ولا يكشف رأسه . والمسطح يتقى به الرمح وقد يشترك رجلان في الطعان فيترس احدهما للاخر .

وكما تفنن الناس في صنع السيوف والاقواس ، تفننوا في صنع الأتراس حتى لتعرف هذا الترس من اي بلدٍ هو .

* * *

وكانت لهـم الدروع ، من حديد وفولاذ ، وكتان ويقال لدرع الكتان « دلاص » ولا يلبسها الا المستخفون .

اما الصنفان الآخران فتلبسها الفرسان من العرب وقد اشتهر في صنعها أبناء فارس والروم . وتؤلف الدروع مـن اجزاء . البيضة والخوذة والمغفر للرأس . والجزء الذي يحجب الصدر ويحميه هـو الجوشن . وهنالك اجزاء اخرى للساعدين والساقين والكفين ، قلّ كثيراً من يلبسها من فرسان العرب .

هذه هي ايها القارىء اسلحة العرب في الجاهلية ، ما عدا تلك الصنوف التي لا تذكر كالخنجر والفأس وما يشبهها .

ولم تعرف العرب ، في ذلك الحين ، آلات الحصار التي كانت تتخذها الدول لتقذف منها الموت الى الشعوب المحصورة في المدن المغلقة ، لأن جميع منـازل البدو كانت خياماً كما هي اليوم . تضرب في سهل واسع رحب لا سور يحميه ولا ابواب تغلق دون عدوه .

* * *

عاد ابو ذهل العذري عند المساء كما وعد قصياً ، وذلك للنظر بأمر السلاح الذي تحدثا عنه . ورزاح مع الاثنين ، فالأمر شورى بينهم كما رأيت .

وقـــد فعلوا كما فعلوا في الصباح . الغلام قائم على الباب يمنع الناس مـن الدخول ، والحديث يدور همساًبين الثائرين الثلاثة يتآمرون على الحجاز ليضرموا فيه النار، وصفوان ويزيد يطوفان في الحي ولا يسألان قصياً عما يفعل، فارادته كانت مقدسة ، عرفت ام لم تعرف .

واستوى ابو ذهل جالساً ثم قال : والآن اسألك يا رزاح عن مالك .

– وغايتك من هذا السؤال ؟

– اريد ان تعطيني شيئاً منه استعين به على أمري فأنا لست مـن الأغنياء كما تعلم .

– بل انت اغنى قومك ولكنك لا تريد هذا المال لنفسك بل لقصي .

– واذا كان ذلك فماذا تقول ؟

– لو كنت تعلم ما أقول لما سألت . اني لا أعطيه شيئاً .

– وماذا يصنع اذن ؟

– ينصرف من عندنا صفر اليدين كما جاء .

فجعل ينظر الى الاثنين وهو يتردد في الجواب .

فضحك قصي قائلاً : لقد جعل لي اخي نصيباً في ماله .

– وما معنى قولك يا رزاح؟

– معناه اني عرضت عليه مالي كله فأبى ان يأخذ منه درهماً .

– ومع ذلك فسيسعر نار الحرب وهو يطمع بحجابة البيت .

قال : نعم وسأبلغ الغاية بدون مال . أفتظن ان القوم لا يرفعوني الى العرش الا إذا ملأت ايديهم ذهباً ؟

– بل أظن انك لا تستطيع ان تخطو خطوة واحدة في سبيل غايتك الا إذا هيأت لهذه الغاية كل شيء .

قال : لم تفعل شيئاً حتى الآن . بلى لقد قـــام في ذهنك انك قادر على نزع

الحجابة من يد صاحبها بقوة من حولك من الرجال . ولكنك لم تنظر قط الى الرجال الذين هم حول عدوك . أنسيت انهم اصحاب النفوذ والسلطان في الحجاز وانك تكاد تكون مجهولاً لولا اخوك زهرة ؟

فقاطعه قائلاً : يا ابا ذهل . لقد قلت امس غير هذا .

– اجل . قلت يجب ان تخرج سدانة الكعبة من يد خزاعة . وقلت ان الخزاعيين لا يثبتون في الساحة اذا كان بنو عذرة اعواناً لأهل الشعاب ، ولكني لم اقل قط ان هذا الأمر يتم لنا كما نشاء ونحن بدون عدة وبدون سلاح .

– وكيف ذلك ؟

– في ايدي قومك الفا سيفٍ ومثلها من الدروع والرماح .

– نعم .

– وفي مثل هذا العدد ، تريد ان تملك الحجاز وتطرد اصحابه الجالسين على عرشه منذ ثلاثة اجيال ، أليس كذلك ؟

فلم يعلم قصي الى اين يريد ابو ذهل ان يصل ، فقال :

نعم ..

قال : لقد عاهدتك امس على لدفاع عنك والأخلاص لك في هذه الدعوة الى النهاية ، ولكني أخشى الآن ان أنكث هذا العهد .

– لماذا .

– لأني لا أَسوق قومي الى جوار الكعبة ليسقطوا في الميدان .

– أقسم لك انهم سيظفرون .

– نعم وبتلك السيوف التي تتكسر في اول جولة .

– ماذا تريد الآن ؟

فقال : لي شروط أُمليها عليك ثم انتظر الجواب . سيعطيك اخوك غداً شيئاً من المال تحمله الى بصرى .

فحنى رأسه ولم يجب .

وتشتري بهذا المال ثلاثة آلاف سيف من سيوف الشام .

– نعم .

– ومثني درع من دروع الفولاذ .

– نعم .

– وتنظر فيا يملك قومك من تروس ورماح حتى اذا رأيت انهم لا يملكون منها الشيء الكثير عمدت الى شراء ما ينقص .

– نعم .

– أتعاهدني على هذا ؟

– ليس أحب اليّ من ان اعاهدك على كل ما تشاء ، ولكني اخشى ان أفضح نفسي اذا فعلت .

قال : لا اجد لهذا الخوف سبباً الا اذا كنت غير واثق بقومك .

– لا نتحدث الآن عن الثقة فالقوم مستسلمون مخلصون ولكني لا اريد ان تكثر ظنون القوم ويدب الريب في الصدور قبل ان تأتي الساعة وتموج ساحات الشعاب بالرجال .

– ألا ترى ان الكثيرين من اهل الشام واهل يثرب يتجرون بالدروع والسيوف وجميع صنوف الرماح ؟

– بلى .

– فما ضرّك لو قلت لقومك انك ستفعل كما يفعلون .

فبرقت عيناه قائلاً : أيقول قصي بن كلاب لقومه انه سيبيع سلاحه لأهل مكة ثم هو لا يبيعه ؟ . وكيف يكذّب قومه قول ذلك الرجل الذي يريد ان يسودهم ويجعلهم خاضعين لارادته ؟ انه كذب لا أقدم عليه ولا اريد ان افكر فيه .

- وماذا تقول لهم اذن ؟

– لا اقول لهم شيئاً لأني لا اشتري سلاحاً .

فسكت قليلاً ثم قال : بل تشتري ، فالحرب تقضي بذلك .

فالتفت الى اخيه قائلاً : أتذهب معي الى بصرى يا رزاح ؟

– وماذا افعل فيها ؟

– تبتاع انت هذا السلاح ، دون ان يعلم قومنا من انت .

– وبعد ذلك ؟

– تحمله النوق الى المنازل وتحفظه عندك ريثما يرتفع اول صوت في مكة داعياً الى الحرب .

فرفع ابو ذهل صوته قائلاً : اما ان يشتري لك سلاحك فهذا لا أسلم به.

– يظهر انك تؤثر ان تختاره انت .

– بل اؤثر البقاء هنا مع رزاح وتسير انت وحدك فتشتريه ثم تنقله الى حيث تشاء .

فجعل يتفرس في الاثنين وهو لايقول كلمة .

فقال ابو ذهل: ألا تعلم اننا لا نستطيع نحن الاثنين ان نفعل شيئاً من ذلك؟

– لماذا ؟

– لأننا لانكاد نشتري مئة سيف حتى يقبض علينا ونرسل الى الملك؛فبدت الحيرة كلها على وجه قصي وفي عينيه .

قال : لا تعجب لشيء ، اننا اذا فعلنا نصبح في نظر الملك الغساني رسل حرب .

– وهل لا يستطيع العربي في الشام ان يبتاع سلاحه ؟

– بلى ولكنه لا يستطيع ان يبتاع سلاح جيش كامل بدون اذن الملك اذا كان الملك لايعرف ذلك الجيش .

ثم قال : اما انت فلست من رعية الحارث ، وتقدر ان تقول للشرط اذا سألوك : اني من الحجاز وهذا السلاح احمله لقومي فينصرفوا عنك وهم يعلمون انهم لا شأن لهم مع العربي الحجازي .

فرأى قصي الحكمة فيما يقوله ابو ذهل . ولكنه لا يريد ان يرى قومه ذلك السلاح لئلا يفسدوا عليه امره ، قبل ان تأتي الساعة . فيخسر كل شيء .

واطرق يفكر . ثم رفع رأسه قائلاً : سأقول لقومي ان هذا السلاح لبني

عذرة ، فينتهي الأمر .

فضحك وقال : لقد عدت الى الذهول فنسيت الملك .

– لم انسَ أحداً فالملك نفسه سيأذن لي وستكون معي يا ابا ذهل .

– أأرجع الى بصرى ولم أتركها بعد ؟

– اجل ولا تستطيع ان تتردد بعد الآن .

– ومن يمهد لك السبيل لإقناع الملك ؟

– لا تسألني الآن عن هذا فقد يتولى غيري أمر اقناعه دون ان أراه .

قال : لقد عرفت فانت ستلجأ الى ولي العهد .

– قد يكون ذلك فتهيأ للسفر غداً .

وكانوا عندئذٍ في الهزيع الثاني من الليل ، فقال قصي . لم يبق الا ان تحضر المال يا رزاح ثم نرقد على أمل ان نترك هذه الديار قبل الصباح .

قال :المال موجود وستملأ منه غداً هذه القلنسوة .

وانصرف ابو ذهل وقصي الى فراشيهما .

ونام رزاح في مكانه وهو يفكر في عرش اخيه .

* * *

قال زهرة لأخيه في بصرى :

اشتريت لك وبعت كذا فانت الآن ذو مـــال وسيعود القوم بعد غد الى الحجاز .

قال : لي حاجتان أقضيهما قبل ان نرجع

– أبقيت لك في بصرى حاجات ؟

– احداهما في بصرى ،هي ان اقـابل ولي العهد ثم اقابل الملك ، اذا شاء . والثانية في دمشق ولا بد من الذهاب اليها .

– وأي شيء لك مع الملوك يا قصي ؟

فابتسم قائلاً : احب ان أرى بعض عاداتهم قبل ان اصير ملكاً .

– لا تهزأ يا اخي فيظهر انك ستراهما لأمر خطير .

- نعم . فقد أبى ابو ذهل شيخ عذرة ، واخونا رزاح ، الا ان نبتاع سلاحاً من الشام قبل الانصراف الى مكة .

- ومعنى ذلك أنك ستشعل النار بعد رجوعك .

- لا ،بل نجعل سلاحنا في بني عذرة حتىاذا اتهم دعوتنا قادوا اليناجيشهم ومعهم ذلك السلاح ،

- اذن بحت لبني عذرة بسرك وقد كتمت قومك هذا السر ؟

- لا فلم احدّث في هذا الشأن غير رزاح وابي ذهل ، والاثنان يعرفان كيف يكتمان ذلك الحديث .

- وما هي علاقة سلاحك بالملك وولي عهده ؟

قال : سيعرف الملك ان في دمشق فتىً يدعى قصياً يشتري سلاحاً لقومه . ولكنه لا يقدر ان يمنع ذلك الفتى من الشراء لانه ليس من شعبه . غير انه سيعرف بعد حين ان سلاح ابن كلاب لم يحمل الى الحجاز بل الى منازل بنيعذرة ليثور ثائره ، ويقوم في ذهنه ان هؤلاء القضاعيين سيشهرون عليه السيف .

قال : وانك ستستأذنه في ذلك .

- نعم فلا بد من الاستئذان ، وقد كنت استطيع ان آخذ معي هذا السلاح الى مكة لولا ظنون القوم .

قال أتشتري الشيء الكثير ؟

- اجل حتى لاقدر ان اسلح من جديد ثلاثة آلاف رجل .

- ومن اعطاك المال يا اخي ؟

- اعطانيه رزاح فماله كثير وسيبذله في هذا السبيل اذا اضطر .

ثم قال : والآن ارغب اليك ان تقول لصديقك التاجر الذي ادخلنا الى قصر الملك ، ان يستأذن لنا على ولي العهد دون ان يعلم غايتنا من المثول بين يديه .

- متى تريد ذلك ؟

– بعد ساعة ريثما يجيء ابو ذهل . وبعد قليل اقبل ابو ذهل ، فقال قصي : بعد ساعة يحضر الرجل الذي يستأذن لنا على النعمان .

قال : بل نصبر ساعتين فالنعمان الآن يصور الطواويس في الرواق كما رأيت من قبل . ولا حاجة لنا الى الرجل فهو مثل ابيه يأذن لكل قادم .

وانتظرا ثلاث ساعات حتى قرب الظهر فأقبلا على القصر واحتجبا في اروقة الجناح الذي يقيم به ولي العهد . ثم دخلا عليه وعنده جماعة من ابناء عمه . فعرف الاثنين ، فقال :

لم ترجع الينا ايها العذري ، بعد انصرافك الى بلاد قومك ، الا لأمر ، ثم قال لقصي : وانت يا ابن كنانة . أكان رجوعك الينا لتتعلم الرماية ؟

– بل رجعت لأسألك يا مولاي قضاء حاجة لي .

– انك اذن بحاجة الى المال .

– لا يا مولاي فبين يدي من المال ما يكفيني . ولكني بحاجة الى كلمة واحدة تقولها لشرطة الملك .

– اذكرها .

– فالتفت الى جلسائه كأنه يقول : لا اذكرها امام هؤلاء . فأومأ النعمان الى ابناء عمه بالانصراف ثم قال : والآن ؟

– اما الآن فانا ذاكر لمولاي الامير كل شيء. الا تذكر يا مولاي تلك الكلمة الأخيرة التي قلتها لي يوم مثلت بين يديك في الرواق ؟

فابتسم قائلاً : نقول كلاماً كثيراً ايها الحجازي ثم ننساه ، اذكرها انت .

قال : ألم توصنا يا مولاي بان ينهى سادن الكعبة زعماء قومه عن المظالم التي يفعلون ؟

– هكذا نقول لجميع الناس من جميع الاقطار .

– : ولكن تلك الكلمة التي سمعتها منك في تلك الساعة لا تقولها لجميع الناس . لقد ذكرت لك ان النهي لا يؤثر في زعماء القوم فاعطيتني درساً بليغاً قائلاً لي : اذن يؤثر فيهم السيف .

فوضع ولي العهد يده على جبينه وهو يقول : اجل لقد قلت هذا ولكن اي غرض لك من ذكره ؟

ـ غرضي ان اقول لمولاي اني حفظت هذا الدرس الذي سمعته منه وسأملأ مكة سيوفاً .

ـ انت ؟

ـ نعم انا يا مولاي .

ـ اي انك ستكون عوناً لسادن الكعبة على امرائه .

ـ هو ذاك يا مولاي .

فبرقت عينا الامير واشرق جبينه ، وجعل يتظاهر بالتفكير . ثم قال : ولكنك قلت ان سادن الكعبة لا يشهر السيف على امرائه . أنسيت هذا ؟

قلت ولم ازل اقول انه اضعف من ان يشهر سيفاً الا في سبيل الدفاع عن حجابة البيت .

ـ وماذا تفعل بسيوفك اذن ؟

ـ اضرب بيدي وايدي رجالي تلك الرؤوس المرتفعة الى العلاء . والايدي الظالمة الملطخة بالدماء .

فضحك ضحك الهازيء الذي لا يصدق حرفاً مما سمع .

قال : لا تستخف بي يا مولاي. فالحرب التي سأخوض مجالها ستنتهي بالظفر وسأخرج منها وانا حاجب البيت .

وارسلت عيناه شعاعها .

فرأى النعمان ما لم يره من قبل ، وخيل اليه انه جاء ليستعين بأبيه على بلوغ غايته . فقال له : وأي جيش تقوده في حربك ؟

ـ قومي الذين في الشعاب يا مولاي .. وكره ان يذكر له بني عذرة .

ـ وهل يستطيع قومك القلائل أن يظفروا باعدائك الكثيرين ؟

ـ نمشي الى غايتنا مشي رجل واحد واثق بقوته .

ـ وماذا تطلب منا الآن ؟

– ألم أقل لك يا مولاى اني لا اطلب غير كلمة واحدة تقولها لرجال الشرط في بلدك ؟

– واي شأن لهؤلاء مع رجل من الحجاز لم يكن قط عدو الملك الغساني ؟؟

قال : اريد ان ابتاع سلاحاً يا مولاي .

قال : ليس في بصرى ما يكفيك منه .

– اسير الى الشام واشتري ما يكفيني .

قال : أتخشى أن يتصدى لك رجال الشرط فيمنعوك من الشراء وانت حجازي ؟ انهم لايفعلون ذلك مع الغريب .

– ولكني سأبقي هذا السلاح في بلادكم يا مولاي .

قال : تشتريه لتبقيه في بلادنا ثم تقول انك ستقتحم ميادين الحرب ؟.

– نعم وسأطلبه عندما احتاج اليه ، وأخذ يقص عليه ما يفكر فيه ، وهو واثق بأنه على دعوته .

فسرّ النعمان سروراً عظيماً مما سمعه وأيقن بأن قبائل العرب التي تنتمي الى ملك الحيرة ، ستصبح ، فيما يعني أمر الكعبة فرقاً واحزاباً تضطرب معها سياسة ذلك الملك وتختل شؤونه فقال : اذن تريد ان تبقي سلاحك في بني عذرة ؟

– نعم فليأذن الملك لابي ذهل ان يحمله الى قومه .

قال : يأذن له ولي العهد في ذلك وينقضي الأمر . اسمع يا أبا ذهل . سيمسي السلاح كثيراً بين يديك . فاذا حدثتك النفس بالخروج عن الطاعة فافعل ، ولا تتردد ، ولكن اعلم ان سلاحك كله يفنى في ليلة واحدة .

قال : منذ نزلت قضاعة في ارض الشام الى اليوم ، لم تنقل قدماً واحدة الا في طاعة الملوك الغسانيين وبأمرهم ، بل لم يكن بين القبائل اسبق منها الى اظهار الخضوع والدفاع عن العرش .

قال : انها كلمة مزاح قلناها لك ، يا غلام ادع صاحب شرطة الملك .

فدعاه وكان من ادهى الناس ، فجعل ينظر الى قصي ويبتسم .

فقال النعمان : أتعرف هذا الفتى الذي تبتسم له ؟

نعم يا مولاي فهو من مكة واسمه قصي بن كلاب .

فلم يستغرب النعمان وابو ذهل مـــا سمعاه منه فهما يعرفان من هو الرجل وكيف يقضي أيامه .

ولكن قصياً ملكه الاستغراب .

ثم قال ولي العهد : اما انك تعلم من هو هذا ، فأمر سهل يعرفه جميع الناس ولكن ان كنت رجلاً فاعلم ماذا يريد منا الآن .

قال : لعله يستشيرك في شأن السلاح الذي سيشتريه .

قال : ويلك أشيطان أنت ؟

- بل أنا فتى من فتيان العرب يسهر على راحة مولاه .

- وكيف عرفت هذا ؟

- رأيت قصياً واخاه الذي يدعى زهرة يتهامسان هذا الصباح امام الخيام التي تقيم بها كنانة . فبعثت شرطياً يسمع حديث الاثنين من الوراء ، ففعل ونقل الي ذلك الحديث .

قال : مثلك فلتكن فتيان العرب ، انك خير من انجبت بصرى من رجال . ارأيت مثل هذا في مكة يا ابن كلاب .

- لا يا مولاي ولا اظن ان في قصور الملوك مثله . واطرق يقول في نفسه : تلك مثالة جديدة أخذناها من القصر .

ثم قال صاحب الشرط : وهل اذنت يا مولاي لهذا الرجل ان يضع سلاحه في بلاد بني عذرة ؟

- أجل فهل لك ما تقول ؟

- لا ولكن ارجو ان يكون ابو ذهل ضامناً .

- يضمن ماذا ؟

- يضمن تلك السيوف أنها لا تخرج من مخابئها إلا عندمـــا يطلبها صاحبها هـــذا .

فضحك قائلاً : انا أضمن ذلك ، فإذا عرف الملك فاذكر له أني أمرتك

بالسكوت عما تراه .

قال : لقد عرف الملك يا مولاي .

– ومتى نقلت اليه الخبر ؟

– منذ ساعة وأمرني بضبط السلاح والقبض على الاثنين ابي ذهـــل وقصي لينظر في أمرهما .

فنهض قائلا : لم يبقَ إلا أن أرى الملك واستأذنه في الامر ، وأومأ الى الاثنين بان ينتظراه ، والى الشرطي بان يتبعه ، ثم خرج يريد اباه .

فقال ابو ذهل : أرأيت اني كنت مصيباً فيما قلته يا قصي .

– نعم . فلولا ولي العهد لتحدث الناس بخبرنا ورددته الافواه .

– بل لولا ولي العهد لأساء الملك ظنه بي وقضى عــليّ . ان العلاء بن عينية « صاحب الشرط » داهية الشام .

ولم يطل حديثهما لان غيبة النعمان لم تطل .

وكان قد اقنع الملك ، فقال :

لك ان تذهب يا قصي الى حيث تشاء . وتبتاع ما تشاء ، وتضعه في الموضع الذي تشاء .

– ولكني اخشى هذا الرجل ايها الامير .

فقال : اتخشاه وانا آمره بان يكون عوناً لك ؟.

قال: ليس عليّ من بأس يا مولاي اذا انا خفت الرجل الذي يدخل الى قلوب الناس فيقرأ ما فيها .

– ولكني سأفعل ما يزيل خوفك ، ونظر الى العلاء قائلا : أريد ان ترسل غداً مــع هذا الفتى ، رجلين من رجالك يرافقانه الى دمشق ، ويساعدانه في شراء اسيافه ودروعه ، ويمهدان لأبي ذهل اسباب نقل هذا السلاح الى بلاده ، أسمعت ؟

– نعم يا مولاي .

– واذا سألهما احد جنود الروم عما يفعلان فليقولا له انهما قدما بأمر الملك .

ثم خفض صوته قائلا : اوصيك يا قصي بان تحذر القبائل الخاضعة للنعمان بن امرىء القيس .

قال : لا اعرف هذه القبائل يا مولاي .

- انها بعض قبائل تهامة ونجد .

- وهل تشترك تهامة ونجد في الدفاع عن الخزاعيين .

- لا اعلم الآن، ولكن سيدها الذي يريد ان يسود الجزيرة ينفخ في صدورها روح الثورة ويأمرها بأن تشعل النار .

- وما هي الحكمة في هذا ؟

- الحكمة فيه انه يريد ان يخفض كل رأس ويذل كل نفس لتبقى هيبته ممدودة الرواق .

قال : وانا اعاهدك يا مولاي لأزعزعنّ عرشه اذا حدثته النفس بان يمد يده الي كما تقول .

قال : لا تغتر فأنت أضعف من ذلك . ونهض عن مقعده قائلا :

لقد مُدّ بساط الملك فاذهبوا ،

وهو يومىء ايضاً الى العلاء ليذهب معهما .

* * *

ظل بنو كنانة بعد ذلك في بصرى عشرة ايام .

وكان قصي قد اشترى ما اراد ان يشتريه وارسله مع ابي ذهل .

ولم يعلم احد من قومه الا زهرة ويزيـــد وصفوان ، ان ذلك السلاح الذي تحمله النوق الى منازل قضاعة هو له .

بلى ، لقد رأوه مع ابي ذهل ، وشرطيين من شرط الملك ، يروحون ويجيئون في سوق بصرى. ثم خبّرهم زهرة ان الاربعة ذهبوا الى دمشق ليبتاعوا منها بامر الملك سلاحاً للقضاعيين .

ولكن هذا وحده لايثير ظنونهم ، فقصي نشأ في الشام في حي قضاعة وقد

ندبه اليوم احد شيوخ ذلك الحي لشراء سلاحه ، ففعل ، وليس هنالك ما يبعث الريب الى الصدور .

تركوا بصرى وهم يذكرون ما فيها من اسباب الرفاه والنعيم .

وكانت رحلتهم في ذلك العام ، رحلة خير وبركة ، واصابوا فيها ما اصابوه في رحلات ثلاث . حتى ان قصياً الذي لم يكن يملك درهماً ، كان يحمل في رحل ناقته المال الكثير ، الباقي من عطية رزاح ، اضف الى ذلك الحصة الكبيرة التي ربحها له زهرة . ان الزمان كان عبداً من عبيد قصي .

المال والشهرة يسعيان اليه ، والقدر الضاحك يقوده الى العلياء .

وهو يكاد يرى ذلك القدر بعينه ، ويلمسه بيديه . بل يكاد يقرأ على صفحة الفضاء ، ذلك المستقبل اللامع الذي اعده له ، والمجـــد الخلاب الذي وضعت اركانه في الحجاز .

اجل ، كان الامل يملأ صدره ، والثقة التي تدفع الرجال الى الامام موجودة في نفسه ، ولم يبق بينه وبين العرش الا ان يتزوج حبّى ، ثم ينصرف بعد ذلك الى النظر في شؤون الحجابة التي هي شؤون ذلك العرش . وقـــد شعر في تلك الساعة ، وهو يمشي مع صفوان ويزيد وراء الجماعة ، ان ساعة الخروج من وراء الحجاب قد أتت ، وأنه لا بدّ له ، بعد وصوله الى مكة من ان يجمع قومـــه ويحدثهم ببعض أمره ، اي ان يخبرهم بأمر الزواج ليس غير .

اما قضية الحجابة فيتركها لوقت آخر لان ساعتها لم تأتِ بعد .

ولأن هنالك شيئاً آخر لم يكن يجسر على التفكير فيه . ذلك على رغم وثوقه بنفسه وآماله التي ليس لها حد . وكان يهم بان يطلع صفوان ورفيقه على كل شيء وينظر بالاشتراك معهما في ذلك الفكر الذي يشغل باله ، فيمنعه من ذلك تصوره ان افشاء السر قبل الأوان يفسد عليه التدبير .

ولكن الامر لا يحتمل الكتمان بعد . ورأي اثنين من خيرة الناس وأشدهم اخلاصاً وحباً ، خير من رأيٍ واحد ولو اوحت به الآلهة .

وابن الحارث ويزيد ، لا يخونان ولا يبوحان بسر .

فلما طلعت الشمس واراد الركب ان يستريح ، عمد الى مضربه وأومأ الى الاثنين بأن يتبعاه ثم قال :

متى نصل مكة يا صفوان ؟

قال : ان مكة تبعد شهراً ونحن لم نمش ِ غير مراحل ثلاث . أنسيت ذلك يا مولاي ؟

– اجل وخيل اليّ انـّا مشينا عشرين مرحلة .

قال : ان في صدرك شيئاً .

– بـل اشياء ، وسأبوح لكما بها الآن . الا تذكر اني كنت أزور حليل بن حبشية كل يوم بعد رجوعنا من يثرب ؟

– بلى واذكر ان اشاعة ملأت مكة في ذلك الحين وتناقلتها الوفود الى جميع الاقطار .

فابتسم قائلاً : ورددتها النساء، حتى اني كنت اسمع المرأة تقصها على جارتها وهي تراني ولا تعرفني .

– اذن سمعتها كما سمعناها نحن .

– نعم وكنت أقول في نفسي ان اهل مكة جميعهم من الكهان .

فقال : اشاعة صحيحة ورب الكعبة .

فاجابه بهدوء : لو لم تكن صحيحة لما حدثتك عنها الان .

فجعل صفوان ينظر اليه وهو ساكت .

قال : أفلا تصدق ان سادن الكعبة سيزوجني حبى ؟

قال : لو قيل لي ان لبهرام جور فتاة لا يزفها ابوها الا لقصي بن كلاب ، لما استغربت ، ولكني اسأل نفسي عن ذلك اليوم الذي تمّ الرضى فيه .

– هو اليوم الاو' لذي هبطنا فيه مكة بعد رجوعنا من يثرب كما قلت .

– وقد رأيت في ذلك ان صفوان بن الحارث لا يطيق كتمان سرك فلم تبح له به .

قال : لم يشأ حليل الا ان يكتم قومه السر وقد عاهدته على حفظه . امـــا

اليوم فلتعلم مكة كلها ، فأنا لا أُبالى .

فذكر صفوان ليلاه وخفق قلبه ، ثم قال :

ومتى يكون الزواج ؟

– بعد وصولنا الى مكة بثلاثة ايام .

– اذن لم يبق الا ان نعجل في المسير لتصبح صهراً لسادن الكعبة وتحسدك العرب .

قال : أتحسدني العرب على الزواج ياصفوان ؟

– نعم وسينظر اليك فتيان الاشراف والبغض في الصدور .

فجعل يهز رأسه ويقول : ولكني سأمشي الى الامام ولا اعبأ بهذا البغض حتى تصبح الكعبة في يدي ويخضع الحجاز لي .

قال : اما الكعبة فستبقى في يد حليل ، الا اذا عمدت الى قتله ونزع الحجابة منه .

قال : ما كنت لأقتل ابا زوجتي لأجلس في كرسيه .

– ولكن .

– ولكني اصبر .

– وانا أحب ان اعلم مقدار هذا الصبر .

– اصبر ريثما يتخلى هو عن كرسيه ثم يهبه لي . وذلك هو الفكر الذي يشغل بال قصي . فقهقه صفوان ضاحكاً وهو يقول :

أرأيت ملكاً ينزل عن عرشه ليجلس فيه غيره ؟

– اجل ينزل الملك عن العرش ليصعد اليه ولي عهده .

قال : لا يرفع ولي العهد الى العرش الا عندما يموت الملك ومع ذلك فالزمان لم يبخل على حليل بولي عهد كما تعلم .

قال : انه فتى لا يصلح لشيء .

– قد يكون خير الفتيان في نظر ابيه . وهب انه يشرب الخمر كما يقولون عنه ، أفلا يعرف كيف يجلس في مقعده على باب الكعبة ليفتح الباب ويغلقه كما

يفعل ابوه ؟ .

– وهل تقوم الحجابة بفتح الباب واغلاقه ؟

– نعم . وماذا يبقى بعد ذلك ؟ يبقى ان القوم يستشيرون حاجب البيت في امورهم فينصح لهم بما يراه وينتهي كل شيء .

– غير ان المحترش لا يعرف ما هي النصيحة وما هو الرأي .

قال : يقوم في قومه من يعلمه الاثنين .

ثم قال : والان فانسَ الحجابة وخبرني متى تبدأ الحرب التي أعددت لهـــا العدة .

قال : انك تبحث في اسبابها وانت لا تعلم .

فجعل يتفرس فيه وهو يفكر .

فقال : نعم ان الحجابة التي ذكرت هي التي تخلق الحرب .

– وكيف ذلك .

قال : اتزوج حِبى . ثم لا يمرّ الزمن حتى يتخلى لي حليل عن سدانة الكعبة فتتجه اليّ العيون .

– ثم ماذا ؟

– ثم تقوم خزاعة فتسأل أميرهـــا ان يولي المحترش فلا يفعل، فتلمع السيوف وراء المطاف وتسيل الدماء .

قال لنفرض ان ابن حبشية لم يشأ ان يتخلى لك عن منصبه كما تقول ؟

– يتخلى اذن لولده المحترش .

– وبعد ذلك

– اعطيه عشرين زقاً من الخمر فتصبح السدانة لي .

– وحليل حي ؟؟

– نعم وقومه بنو خزاعة ينظرون.

قال : ورب الكعبة لو رأيت ملاك الموت قابضاً بيديه الحديديتين على عنق حليل يريد ان يسلبه روحه او يترك كرسيه لجاد بروحه طائعاً مستسلماً على ان

يبقى له هذا الكرسي .

– ومن دلك على هذا ؟

– حب السيادة البادي على جبينه .

– ولكن أرجو ان تنزع حبى ذلك الحب .

قال : اذا كان لك امل بذلك، فهذا الأمل سيضيع

قال : ان ابن حبشية جاوز السبعين كما ترى .

قال : وتزيد رغبته في الحجابة كلما ابيض شعره .

– وهو مريض .

– لا نكاد نسمع انه مريض حتى نراه بباب الكعبة .

قال : أراك تمنعني من الاستسلام الى هذا الظن .

قال : نعم، فمثل قصي بن كلاب لا يستسلم الى الظنون .

قال : أتضيع آمالي في ساعة ؟

– لك أمل واحد، ولكنه ابعد من النجم .

– ما هو ؟

– هو ان الموت قد يفاجىء سادن الكعبة في ساعة من ساعات الحر، فتنتقل السدانة الى ولده ثم تنتقل اليك كما قلت .

قال : أأنتظر هذا الموت حتى يعطف عليّ ؟

– وماذا تفعل اذن ؟

– ابرز الى الساحة وانا واثق بالقدر الذي يمشي امامي كما يمشي خادمي ليمهد لي اسباب الظفر .

قال : اصبت ، وانا اكاد أرى جناحي هذا الظفر يخفقان فوق رأسك .

وانت يا يزيد فما رأيك ؟

– ليس لي رأي الا هذا السيف احمله عندما تأمرني بحمله وأضرب به عدوك عندما تأمرني بالضرب به .

– ولكن هذا العدو سيملأ مكة .

- ليملأ الحجاز كله، فسترى ان ابن ربيعة لا يخاف كثرة الناس .

فقال صفوان : أتطمع بغير الحجابة يا مولاي ؟

لو سألني أحد غيرك مثل هذا السؤال لقلت انه سؤال ابـــله . لقد وصفت انت هذه الحجابة وعرفت ما هي . نعم أطمع بغيرها ففتح الباب واغلاقــه لا يكفيني . اطمــع بجميع امارات العرب في مكـــة ، واطمع في رياسة المواسم ورياسة الاسواق . واريد ان استأثر بكل ما في القبائل والعشائر مـــن نفوذ وسلطان حتى لتحدثني نفسي ان آمر الناس بان لا يرتفع لأحد صوت الا بعد صوتي ولا تطرف لأحدهم عين الا إذا اذنت له . والويل لمن يتصدى للعاصفة اذا ثارت وللبركان اذا هاج ، ان الموت عندئذٍ يفتح شدقيه ليبتلع المستخفين المستهزئين .

وكان جبينه يصفرّ وعيناه تختلجان .

قال : ومتى تطلب السلاح الذي خبأت ؟

– يوم اطلب بني قضاعة الذين خبأوه .

– أيحاربون في مكة تحت لوائك ؟

– اجل ، ويطوفون معي في بلاد العرب اذا دعوتهم الى الطواف

قال : لقد كثر رجالك ولم يبقَ الا ان تقول كلمتك .

– سأقول هذه الكلمة بعد قليل وسيسمعها العالم .

فهم صفوان في تلك الساعة بان يقصّ عليه حكاية غرامه ، ولكنــه أراد ان يكتمه اياها كما فعل هو، ولا يبوح بها الا قبل الزواج .

ولم يعلم ان الاقدار هي التي تملي عليه ذلك الكتمان .

وكان الناظر الى يزيد يرى الدموع تجول في عينيه .

فقال صفوان : أتبكي يا يزيد ؟

قال : ذكرت ابي فبكيت .

– بل ذكرت ثأره وخفت ان يضيـع .

– اي ورب الكعبة .

فقال قصي : لا يضيع لك ثأر وانا حي ، فاذكر اباك ما طابت لك الذكرى واعلم انك ستظفر بقاتله .

* * *

مشوا بعد ذلك بضعة وعشرين يوماً حتى اطلوا على مكة .

الحب في القلوب والشوق في العيون .

وصفوان لايصدق متى يرى ليلى .

فانتشر الخبر في السوق ان بني كنانة قـــد اقبلوا . فجعلت ليلى تبكي كأن ذلك اللقاء فراق لا بد منه .

ولعلها كانت تبكي ذلــــك العبد الامين الذي باحت له بغرامها واطلعته على اسرارها فكان عوناً لها في ذلك الغرام . ذلــك الخادم المخلص عبدالله الذي كان الرسول بينها وبين الحبيب . بل لم تكن تعلم اسباب هذا البكاء .

بلى . كانت تحس ان جسمها يرتجف . وقلبها يضطرب . وهي تخاف النظر الى وجه صفوان . وكانت تسائل نفسها فلا تسمع جواباً وكادت تسأل اباها لولا حياء العذراء الذي يصرعها الحب .

وقد فاتها ان للفرح ثورة كثورة الكآبة . وللقاء روعة تشبه روعة الفراق الذي ذاقت مرارته من قبل .

وكان صفوان في حال تشبه حــالها . يفكر فيها فتنقبض نفسه . وكلما تلفت ليرى عبدالله تسودّ الدنيا في عينيه. ومن اين له ان يعلم ان ذلك الرجل الذي احبه الحب كله سقط مضرجاً بدمه بطعنة ذلك الشقي الغدار الذي يبحث عنه . ان تلك الرحلة الى بصرى كانت رحلة خير كما رأيت . ولكن لغيره . اما هو فلم يرَ شيئاً من ذلك الخير الذي رآه سواه .

ويظهر ان يزيد بن ربيعة عرف ما يفكر فيه ، فقال له : متى تزور زياداً يا صفوان ؟

قال : غداً فليس للزيارة في هذا الليل من سبيل .

— وهل تظن ان عبدالله عثر على القاتل ؟

- لا اعلم فعبدالله من ادهى الناس وقد يكون اهتدى الى مقره ، ثم قال في نفسه :

لكل واحـــد منا غرض يفكر فيه ، قصي يفكر في حبى . وصفوان في ليــلى . ويزيد في جبير . وأرى ان الغاية لا تتم الا لقصي ونخسر نحن الاثنين الباقين ما نسعى لاجله .

واضطرب لهذا الخاطر الذي خطر له ، كأنه لمسه بيده ، ثم قـــال ليزيد : يخيل اليّ اني ارى شبحاً يشبه عبدالله . وعينا هذا الشبح تقطران دماً .

قال : وكيف تراه وانا لا ابصر شيئاً ؟

قال : هو هنا . امـــام عيني . وارى ليلى تسير وراءه وهي تبكي وعيناها تنظران الى الارض .

قال : ما هذا الحلم المزعج يا صفوان ؟

– انا في يقظة كما ترى ولست حالماً واشعر اني اذا مددت يدي لمست وجه عبدالله والدم المتساقط على خديه . ويلاه ان آل كعب في خطر واخشى ان تصدق هذه الصور التي ارها ملطخة بالدماء .

وجعل ينظر الى الامام والوراء كالخائف المضطرب .

فخاف يزيدمثله وهو يعلم ان النفس البشرية كثيراً ماتحس بالخطرقبل وقوعه، فقال له :

ألا تذهب الليلة يا صفوان فنرى القوم ؟

فاجابه ولم يتردد ، نذهب الآن فلا سبيل الى الصبر ، وبدون ان يقولا لاحد كلمة ، تناولا سيفيهما وخرجا وهما يتلمسان الطريق تلمساً لشدة الظلام.

وكان القوم يسهرون كل ليلة بعد مقتل عبدالله في قاعة ابي زياد ويجلس الغلام طلحة في الدهليز ، حتى يدرك النعاس الجميع، فينصرف كل واحـــد منهم الى فراشه . فلما وصل الاثنان في ذلك الليل ، رفع صفوان عمامته وقال للعبد القائم بالباب وهو يعرفه :

أيأذن لنا مولاك ايها العبد في الدخول ؟

قال : أسأل طلحة قبل ان اقول : نعم .

فالتفت الى يزيد قائلاً : من هو طلحة هذا ؟

– أتسألني وانا لا اعرف في مكة احداً ؟

فقال العبد : انه غلام جعله مولانا قيّماً على قصره ، ودخل فغاب لحظة ثم عاد وهو يقول : لقد اقبل طلحة .

فرأيا غلامـاً صغير السن لا يعهد الى مثله في ادارة امور القصور ، وعجبا لذلك الحذر الذي يبديه عبيد زياد لزوّار القصر واضيافه ، والذي لم يريـا شيئاً منه قبل السفر الى بصرى .

فقال صفوان : أأنت طلحة ؟

– نعم يا سيدي فقل ما تشاء .

قال : اريد الدخول على مولاك اذا اذنت لي .

– ان مولاي الذي ذكرت هو الذي يأذن في الدخول ، فمن انت ومن هو رفيقك ؟

– اتذكر اسماء الداخلين لمولاك ؟

– اجل حتى لا يدخل عليه الا الذي يعرفه .

قال صفوان بن الحـارث . ويزيد بن ربيعة . ولكن اذكر هذين الاسمين لعبدالله وهذا يكفي .

– يظهر انك لم تكن موجوداً في مكة .

فتراجع الى الوراء قائلاً : ويلك فماذا جرى ؟

– لم يجر شيء سوى ان عبدالله مريض .

ونقل الاسمين الى زياد ثم رجع يحمل الاذن في الدخول

فدخلا . وامام صفوان ذلك الشبح المصبوغ بالدم .

وكانت ليلى في القاعة وهي مطرقة .

فكاد صفوان ينساهـا عندما وضع قدمه على عتبة الباب واخذ ينظر الى الجانبين باحثاً عن عبدالله.

ثم ملك نفسه وانحنى فقبل ركبة الشيخ وصافح زياداً وليلى ويزيد يفعل كما يفعل وقد ساد السكوت .

لم يقل احد كلمة واحدة للقادمين حتى ان العيون التي تحدق الى الارض لم تنظر اليها .

وقد ذهل الاثنان . عن تلك الثياب السود التي تلبسها الجماعة .

ولم يصحُ صفوان من ذهوله الا عندما نهضت ليلى تهم بالخروج ، فقال لزياد:

ما اردنا ان تكون زيارتنا في هذا الليل لولا حوادث الزمان .

فتمتم زياد قائلاً : أتعتذر يا ابن الحارث وانت في منزلك .

قال : لولا هذا الحذر الغريب الذي رأيته على الباب لما فعلت .

قال : وما اقدمك ؟

فخفض صوته قائلاً : شبح رجل تسيل الدماء من عينيه .

- واين رأيت هذا الشبح ؟

- كلما اطبقت جفني رأيت وجهه المخضب وخيل اليّ ان شفتيه ترتجفان وان يديه ممدودتان تسألان الرحمة .

وعادت ليلى تحمل وعاء المسك وهي تشهق بالبكاء .

فقال : ويلاه لقد كانت الصورة التي رأيتها صحيحة اين عبدالله يا مولاي ؟

فعاد القوم الى سكوتهم .

فجعل يردد قائلاً :

اين عبدالله لا اراه ؟

فقال زياد وهو يكاد يختنق: وكيف تستطيع ان ترى الرجل وهو في القبر ؟

فذعر اولاً ، ثم استولت عليه الكآبة وأخذ يقول : عبدالله في القبر ؟.

- نعم عبدالله لا سواه في القبر كما سمعت .

- وكيف مات ؟

- لم يمت حتف انفه ولكنهم قتلوه .

فصاح قائلاً : جبير بن عبادة ؟

— جبير بن عبادة .

فرفع يزيد رأسه وقال : ابن ربيعة يطوف في بلاد الشام وقاتل ابيه يطوف في مكة ويقتل الابرياء ؟... اتعيش انت يا ابن عبادة واعيش انا ؟... ولا يرى احدنا الآخر ؟

وارتفعت اصوات القوم في البكاء كأن ذلك القتيل العزيز امامهم يبكونه ويرثونه وينادونه باعذب الاسماء .

ثم قام صفوان فقال : وقتله غدراً ورب الكعبة .

— نعم فالنذل لا يطعن الا من الوراء .

— واين حدث القتل ؟

في وادي مكة حيثما تقوم خيام الفقراء .

ثم قال : ومن يستطيع ان يصف لك القتل كما جرى؟ لقد خرج عبدالله على ان يعود بعد ساعة . ثم جاءنا طلحة يقول : انه يدعونا اليه في ذلك الوادي وقد عثر على الرجل، ولكن ماذا رأينا في ذلك الوادي ؟ رأينا الجثة مكفنة بالتراب المجبول بالدماء وقد وضعها القاتل في حفرة .

وجعل يقص عليها ما رآه وما صنعه حتى بلغ قوله انهم ضيعوا أثره وأثر مولاه عدوان ، فقال :

وانتهى الأمر عند ذلك الحد يا مولاي ؟

— لا . فلما عدنا الى مكة طفنا في أسواقها، وفتشنا عن القاتلين في منازلها ، وارسلنا الرجال الى شعابها ومغاورها فلم نبصر لهما ظلاً ولم نجد لهما اثراً حتى ان النساء المحجبات امرهن الغلمان بان يسفرن ليتبينوا وجوههن ففعلن ولكنهم لم يعثروا على شيء .

— كأنهم خافوا أن يتنكر الرجل بثوب المرأة ؟

— اجل وقد ابصرته ليلى بذلك الثوب يرعى ناقته بين الصخور الحمراء، ولو لم تره لما حدث القتل .

وأومأ الى ابنته قائلاً خبريهما بما جرى .

فمسحت ليلى دموعها واخذت تروي لهما ما تعلم وهما يسمعان .. ولو خبرهما ذلك غير ليلى لما صدقا .

وكان يزيد يخشى ان لا يعود جبير الى مكة بعد ذلك الاحتجاب. فقال: وهل تظن يا مولاي انه ذهب الى اليمن .

قال : لا اظن شيئاً الآن .

- وانت يا صفوان ؟

- اما انا فاعتقد انه سيصل الى الحبشة .

فقال ابو زياد : لا تضيعوا الزمان بالاقاويل والظنون فابن عبادة ومولاه اليمني من اعوان ابليس . لا تكاد تراهما في اليمن حتى تراهما في الشام ولا يقوم في ذهنك انهما في الحجاز حتى تبصرهما في جوف الكعبة .. ان الاثنين اخبث الناس واكثرهم شراً .

قال زياد : وماذا ترى ؟

- ارى انهما سيعودان الى مكة وسيضربان فيها ضربة اخرى ترقص لهـا العجائز في السوق ..

- وتقع ضربتها على رأسي ..

فقال صفوان : بل على رأس صفوان .

فسمع طلحة من الخارج يقول : ستقع على رأس ابن عبادة نفسه .

قال صفوان : ما رأيت هذا الغلام من قبل، فمن هو ؟

- انه الغلام الذي رأى جبيراً سائراً في طريق الوادي ودلّ عليه عبدالله في صباح اليوم الثاني .

ومن هي عشيرته ؟

- صوفة .. وهو من اصدق الغلمان .

- وهل عرف ابن عبادة من قبل ؟

- لا يعرف له وجهاً ولكنه رأى عمامته الخضراء تخفي ذلك الوجه فانطبعت صورته في ذهنه .

قال : لقد كثرت العمائم الخضر وانا احد أصحابها ..
ولكنك طويل القامة وابن عبادة قصيرها .
– ومع ذلك فاذا فعل امرأ ثم ادعى اني فعلته فقد دب الريب في الصدور.
قال : أيقتل زياداً ثم يقول للناس ان ابن الحارث قتله ؟؟
– من يعلم يا مولاي فقد يفعل ذلك ونحن غافلون عنه ..
قال : ليحضر الى مكة وليفعل ما يطيب له .
فقال يزيد : غليظ العنق قصير القامة ، أليس كذلك ؟
– أجل .
– واذا مشى رفع رجليه كأنه يطأ الماء ؟
– نعم .
– ومولاه عدوان ؟
– ماذا تريد من مولاه ؟
– اريد ان تصفوه لي .
– انه مثل جبير قصير القامة ضعيف الجسم، في جبهته أثر جرح لا يخفى على الناظر ..
قال : سأجد الاثنين بعد حين .
– ماذا ؟
– نعم فسأنزل مكة بعد يومين واطوف في تهامة ونجد واليمن ولا اعود الا اذا ثأرت لأبي ولعبدالله .
– ولكنك لا تعرف في بلاد العرب احداً ..
– سأنزل حيث ينزل الغرباء واسأل كما يسألون .
– وماذا خطر ببالك الآن ؟
– خطر ببالي اني اذا قضيت العمر في مكة لا اجد اثراً لعدوي وما كنت لأبحث عن هذا العدو في فناء الكعبة او على اقدام الآلهة ..!
– غير ان البلاد التي ذكرت اكبر من الحجاز وقد تضيع فيها .

قال : خير لي ان أضيع في البادية وتطويني الصحراء من ان امكث في بلد يلسيني دم ابي ويضيع فيه ثأري .

قال : ما رأيت قط رجلاً يبحث عن قاتل لا يعرفه !! انك لا تسأل الناس هنه حتى ينقلوا اليه الخبر فيستخفي ثم يعمد الى الغدر بك كما غدر ابوه بابيك .

– والموت كما تقول، خير من الحياة في مكة، أتقلب في احضان السعة والنعم.

قال : أراك يائساً يا ابن ربيعة !

– نعم وليس من الغريب ان يدب اليأس في هذا الصدر بعد ان خسرت الأمل .. ونهض قائلاً هذا هو الضعف، بل هذا هو الموت ..

فقال ابو زياد : أجل . أيقتلنا جبير بن عبادة واحداً بعد واحد ولا ننقل اليه قدماً ؟!. اجلس يا بني فسنفعل كما قلت ؟

قال زياد : وكيف ذلك يا مولاي ؟

قال : يذهب رجلان من بني صوفة مع يزيد فيطوف الثلاثة في بلاد العرب حتى يقبضوا على القاتل .

– ولكن لا تنس يامولاي ان نفوذ بني صوفة لا يجاوز مكة ..

– ومعنى ذلك ؟

– معنى ذلك انهم لا يستطيعون ان يقبضوا على الرجل وهو في بلد غير هذا البلد .

ولكنهم يستطيعون ان يقتلوه .

قل انهم يقدرون ان يغدروا به ثم يفرون بعد ذلك كما فعل جبير بعد مقتل عبدالله .

فاجابه يزيد قائلاً : بل نقتله في وضح النهار والناس ينظرون ..

- ثم يقتلونكم جميعكم على الأثر كما يقتلون الذئب في الصحراء .

ومن يفعل هذا ؟

يفعله القوم الذين ينزل ابن عبادة في جوارهم .

وقد اصاب زياد في قوله . فالعربي، وان يكن أضعف الناس، لا يسلم

جاره ولو خسر كل شيء .. وجميعهم يعرفون ذلك غير ان يزيد لا يبالي بالخطر ولا يخاف الموت اذا هو ثأر لأبيه ، فقال : ومع ذلك فسأذهب ولا أرجع عمّا هممت به .

فابتسم صفوان وهو يقول : تعد بشيء قبل ان تستشير قصياً ويأذن لك في السفر ...

قال : سأفعل وسيأذن لي ..

فنسي زياد عندئذٍ ذلك الفقيد الذي يبكيه وقال : ألا يستطيع ان يسافر قبل ان يستأذن ابن كلاب ؟

– لا يا مولاي .

- وهل كان ابن ربيعة هذا عبداً من عبيد الرجل ؟

– لا ..

– اذن ماذا ؟؟

قال : لقد امسى قصي سيد كنانة وعاهدناه على الطاعة .

فلمع الحقد في عيني زياد وقال هازئاً : ولكن يزيد من البحرين ولم يكن كنانياً قط .

– اجل ، غير انه في جوار سيد الشعاب ومن رجاله .

قال : أتعترف بهذا يا ابن ربيعة ؟

– نعم يا مولاي وليس لي ان أخطو خطوة واحدة الا بأمر قصي .

ثم نظر الى الشيخ قائلاً : أنقصد تهامة ام نجداً ؟

قال : اترك تهامة اليوم فستذهب اليها بعد رجوعك من نجد ، وسأدلك على البلاد التي تسير اليها بعد ان يأذن لك في المسير .

– دلني الآن يا مولاي فقصيّ لا يمنعني مما أرغب فيه .

قال : تترك مكة الى ديار بني هوازن ، بعد ان تمرّ بحي بني ثقيف ، وعامر ابن صعصعة وهذيل .

– وبعد ذلك ؟

- تسير قاصداً كندة ثم كعب بن ربيعة حتى تبلغ اليمامة فتطوف في فلج والوقيظ وجدود وجميع الأحياء تسأل عن الرجل كأنك من اهله .

فقال زياد : ولا يبقى الا ان يمشي الى بني عبد القيس وتيم اللات فيصل الى البحرين مسقط رأسه .

قال : لا بل ينصرف من جدود الى بني عجل ، وضبيعة ثم الى النباج ثم يعود.

- الى أين ؟

فضحك صفوان قائلاً : انك تذكر بلاد العرب لفتى لا يعرف منها بلداً واحداً

قال : سيتبع الرجلين من صوفة كما قلت فهما يعرفانها . يعودون الى بني طي وأسد وجديلة وغطفان وقيس عيلان ولا يتركون حياً من أحياء نجد .

- واذا وجدوه ؟

- يضربونه بمثل السلاح الذي ضربهم به .

- أي انهم يكمنون له في ظلام الليل ويطعنونه من الوراء .

- بل يطعنون مولاه قبله ثم يتغلغلون بين القبائل والعشائر متنقلين من موضع الى آخر حتى يرجعوا الى مكة .

فهمّ زياد بأن يخالف أباه في رأيه ، فأسكته قائلاً :

اراك تقول في سرك ان ابي يدعو الناس الى الغدر . أجل اني أدعوهم الى هذا، فليغدروا بابن عبادة ولو كان في فناء الكعبة وليس عليهم من بأس. ان الشريف العربي يبارز عربياً شريفاً على مرأى ومسمع من الناس ولكن النذل ، قاتل الأبرياء يدوسونه كما يدوسون رأس الافعى ولا يبالون اقتلوه في الحي ام في الصحراء ، في المضرب ام في السوق وأظهروا للعالم كله ان في عنقه دم بريء وقد ثأرتم به .

وغلى صدر الشيخ واستيقظت لوعته . فجعل يخاطب نفسه وشفتاه ترتجفان واللوم لا يفهمون قوله .

ثم قال لولده : عليّ الساعة بعبد اللات بن حارثة وعمر بن الأسود .

والاثنان من فتيان صوفة النبلاء الذين تعرفهم العشيرة

فقال : الليلة يا مولاي ؟

– بـــل الان فسأرسلها في طلب جبير وانا واثق بانها سيحملان اليّ رأسه ورأس عدوان .

– اصبر الى الصباح ريثما يعود يزيد حاملاً أمر سيده .

قال : ان الرجلين سيتركان مكة عند الصباح . فاذا أراد يزيد فليستأذن مولاه وليرجع قبل بزوغ الفجر .

– أسمعت يا ابن ربيعة ؟

– نعم وسأفعل .

فأرسل زياد من يدعو عبد اللات وعمر ولم يلبث الاثنان حتى أقبلا ، فقال الشيخ : أتعرفان نجداً ؟

فابتسم عبد اللات قائلاً : كما نعرف مكة .

– واليمامة ؟

– نعرف الجزيرة كلها لا نستثني بلداً .

– لقد رأيت ان ابعثكما في مهمة ، الى الاقطار التي ذكرت .

– ونحن قد عرفنا مهمتنا يا مولاي .

– ما هي ؟

– هي ان نبحث عن قاتل عبدالله فنقضي عليه .

– أحسنت . وماذا ترى ؟

– أرى اننا لا نرجع الا ّ إذا تمّ لنا الأمر كما تشاء .

قال : ألم يقصّ عليك زياد كيف يلبس ابن عبادة ثوب المرأة وكيف يحجب وجهه بالعمامة الخضراء ؟

– بلى .

– اذن ستطلبان في وقت واحد ، رجلاً له شخصيتان .

– هو ذاك .

– فإذا عثرتما عليه فعالجا أمره بالحيلة والدهاء حتى تضعا سيفيكما على عنقه وعنق عبده اليمني ،

وأومأ الى يزيد قائلاً : وهذا يزيد بن ربيعه بن سلول قتل عبادة اباه فأقبل يروي ظمأه من دم جبير .

أيكون معنا ؟

- أجل وسترحلون ، انتم الثلاثة ، في صباح غد . . إذهبا الآن وأعدا معدات الرحيل .

فخرج الرجلان ، وتبعهما يزيد ليسأل قصياً في ذلك الليل . ان يأذن له في الذهاب .

اما صفوان ، فلم يترك قصر زياد الا عندما انتصف الليل ، وقد كره ان يحدّث القوم بأمر الزواج وهم يبكون عبدالله .

واما ليلى فسهرت الى الصباح وقد بلّت فراشها بالدموع .

* * *

عندما وقعت عين سادن الكعبة على قصي بن كلاب ، فتح له ذراعيه فارتمى بينهما ، كالولد البار يضمه ابوه البار الى صدره .

ثم تصافح العاشقان – قصي وحبّى – وجلس الثلاثة ، وابن كلاب يقص عليهما حكايات الشام وما سمعه عن حلم بني غسان . ولم ينسَ ان يصف لهما قصر الحارث في بصرى وكيف تعيش الوفود فيه .

فقال حليل : وهل رأيت الملك يا بني ؟

- لا يا مولاي! بل رأيت النعمان ولي عهده الذي هو صورة أبيه كما قيل لي.

قال : اولئك ملوك عندهم المال والرجال وتحوطهم العظمة والجلال .جبالهم تخرج الذهب ، وارضهم تنبت البركات ، اما نحن فالمال تجود علينا به العرب كما ترى وليس في ارضنا المجدبة غير الجفاف .وكيف يسوس بنو غسان الناس؟

– يخرج من قصر الحارث عدل يسود قومه المنتشرين في الاقطار ويرسل هو وبنوه هيبتهم الى النفوس فيبسط الأمن ظله من صحراء الشام الى فلسطين .

- وكيف ينتشر هذا الظل وملك العراق يغزوا الشام في كل عام ، والعشائر تفرّ من سيفه . ؟ !

قال : تلك حرب بين ملكين لا نبحث عنها الآن .

– اجل ولكنها ستنتهي بخضوع الملك الغساني لعدوه النعمان بن امريء القيس خضوعاً لا يقوم له بعده ذكر .

– اما انا فقد عرفت غير ذلك ، سمعت بني قضاعة يقولون ان الحيرة ستلقي سلاحها على قدمي بصرى .

قال: لقد كان ملك الحيرة في حربه وباء يحمل للناس الشدائد والموت. هكذا اخبرتنا وفود الحجاج ومع ذلك فنحن نسأل الآلهة ان يظفر بملك الشام لأنه أقرب الينا منه ولأن القبائل التي تستظل بظله تفد الى مكة كل سنة فتبذل فيها المال .

– والآخر ؟

– اما الآخر فلا يعرف عنا شيئاً والقبائل التي تقيم بأرضه ، الا القليل منها، لا تحج .

فرأى قصي ان يستفيد من سادن الكعبة ، كما استفاد من النعمان بن الحارث ، فقال :

أصبت يا مولاي فقبائل الشام لا تحج كما قلت ولها في ذلك عذر .

قال : ماذا؟

قال : لقد ذكر لي وليّ العهد نفسه ما تذكره أنت .

– أحدثك بأمر الحجاز ؟

– لم يحدثني الا بأمره وقد رأيته أعلم الناس بشؤون مكة وما فيها من تقاليد وعادات .

قال : هات .

قال : سيمنع قبائله في العام القادم من ان تحج لأنه لا يريد ان يسومها ظلم اولئك الأمراء الذين يحيطون بسادن الكعبة.

فدهش حليل وهو يقول : وكيف ذلك ؟

قال يستبدون برعايا الملك الغساني في الموسم ، ويسلبونها ما معها في السوق

ويهضم قويهم حق ضعيفها في فناء الكعبة ، كأن مكة ميدان فسيح للأقويـاء الظالمين النهابين . ثم قال : هذا تسرق فرسه ، وهذا تؤخذ ناقته ، والآخـــر يستخفون به فينصبون له شركاً لا يلبث حتى يقع فيه . والامير الأكبر، الذي هو انت يا مولاي ، لا ينظر الى الظالمين من امرائه نظرة غضب ، ولا يبالي بمـا يسمع عن هذا الظلم الذي تتناقله افواه الحجاج ، في كل قطر ينزلون فيه .

- انا !؟

- نعم انت يـا مولاي ، وانت ترى ، ان ذلك الفتى الغساني ، لا يحدّث الناس بأمر الحجاز الا كما يحدثهم أبوه الملك ، فهو ينطق بلسان ابيـه ويخاطب الوفود باسمه . ومكة كلها ، بما يفد اليها مـن نبلاء ورؤساء وشذاذ يصفها لك كبير الجمال الملك كأنه يقرأ ما يصفه في رقّ مكتوب !!!

فاصفر جبين حليل وأرخى نظره الى الأرض .

اما قصي فاستطرد قائلاً :

وانا لا اعلم يا مـولاي اذا كان ولي العهد صادقاً فيما رواه لي . ولكن الذي اعلمه ان الوفود نقلت اليه والى الملك هذه الاخبار التي سمعت ، فغضب الاثنان ولولا جلال الملك للعنا الحجاز على مسمع من جميع الناس الذين يزورون البلاط .

فظل الرجل ساكتاً .

قال : ما بالك يا مولاي ؟

- افكر في هذه الحكاية التي نقلتها اليّ .

قال : يخيل الي انها كاذبة وان الامراء اعف من ان يظلموا عربياً .

فرفع رأسه قائلاً : اتريد ان تعرف كل شيء يا بني ؟

نعم ،

اذن فاعلم ان كل ما رواه لك ولي العهد صحيح لا ريب فيه .

- ولكنهم كذبوا فيما ذكروه عن ضعف سادن الكعبة، أليس كذلك ؟

- لا ورب الكعبة ، لقد كنت ولم ازل ضعيفاً مع هؤلاء الامراء .

- أتعترف يا مولاي ؟

– اجل وذلـــك الضعف يمليه علي خوفي من النار التي تحرق مكة ثم تلتهم الحجاز كله كما قلت لك من قبل .

– ولكنك تنفر العرب من الناحية الاخرى والحرب خير من هذا .

– وماذا اصنع ؟

فلمعت العزة في عيني قصي وتمتم يقول :

مـــاذا تصنع ؟؟ ضع سيفك على ركبتيك ، وانت جالس بباب الكعبة ، واقطع به لسان الكذوب ، ويد السارق ، وعنق الظالم فيسلم الحجاز .

قال : كأنك تريد ان أندب الناس الى الفتنة !!

– بل اريد ان تكون الحجابة أعز من العرش وان يكون حاجب البيت اعظم من ملك :

– ما كنت لأقدم على هذا وانا في آخر العمر .

قال : افعل . فتنتقل العظمة فيما فعلت الى ولدك .

فخفض صوته قائلاً :

عندما يغمض الموت عيني تنتقل هذه الحجابة الى غير هذا الولد .

– ولكني سأحميها .

قال :ان الذي يستطيع ان يحمي حجابة البيت يستطيع بالوقت نفسه ان يضع سيفه على ركبتيه كما قلت ويستهين بمن حوله من الرجال . فاذا مت فافعل بعد موتي ما تشاء .

– ولكني من كنانة يا مولاي والحجابة ليست لي

قال : ستكون للمحترش او لحبى وهذا يكفي .

وكأنه اراد ان يقول له ، متى كانت هذه الحجابة لأحدهما فهي لك .

فاكتفى قصي بما سمع ، وعرف ان هذا الرجل الذي ساد مكة زهاء نصف جيل ، لا يريد ان يخسر عرشه الصغير باغضاب امرائه . ولو جرد حليل سيفه كما قرأت ، لتمت تلك الغاية التي يسعى اليها ابن كلاب ، قبل ان يضع قدمه على العرش . كان يريد ان يوغر صدر الرجل لتشتعل النار ، فيثور هذا الجار على

جاره، وهذا الحي على الحي الاخر . ويمتد اللهيب الى جميع العشائر التي تناصر خزاعة ، فتتزعزع تلك القومية الكبيرة التي يعيشون في ظلها ، وتضمحل قوى الضعيف امام سيف القوي ، وهو ينظر اليها هازئاً ، مبتسما لمستقبله الزاهي الذي تتلاشى من سمائه تلك السحب السود .

انها فكرة لو مد له القدر اسبابها ، لمدّ يده الى التاج دون ان تغرق مكة في بحر من الدماء . ولكن ابن حبشية كان اكثر دهاء كما رأيت ، ان الزمان صفا له خمسين سنة ، فلا يعكر في يده صفو ذلك الزمان ، غير ان قصياً لم يبال بما رآه ، ان ذلك التردد الذي يظهره حليل تقابله من الناحية الاخرى عزيمة ثابتة لا ترد ، وارادة جبارة يفنى الحديد ولا تتغير ونفس كبيرة تستهين بكل ما في العالم من محن واخطار .

نعم اراد ان يخفض الرؤوس العالية ويخمد الاصوات المرتفعة في الحجاز بقوة دهائه ، فلم يستطع ، فعمد بعدئذ الى القوة الاخرى التي يستطيع معها ان يمحو كل شيء ، هي قوة سيفه .

وبلحظة قصيرة ، خلع عنه ثوب الدهاء ليلبس ثوب الغرام ، ثم قال : والآن .. فقد نسيت الحجابة يا مولاي ونسيت الشام .

فقاطعه قائلاً : وانا مثلك نسيت الاثنين فلا اذكر غير امر واحد هو قضية الزواج، افلا تسألني عنه الآن ؟؟

قال : بلى .

– وما رأيك فيه ؟

ليس لي رأي الا ان تأذن فتصبح حبّى لي .

فضحك قائلاً : أمهرها يا قصي ؟.

قال : لقد فعلت يا مولاي . مئة من دنانير الروم ومثلها من دنانير الفرس وثياب الخز من اليمن والديباج من بصرى .

قال : احسنت فهي لك ، فمتى تريد ان ازوجك ؟

قال : بعد ثلاثة ايام يا مولاي .

قال : أتتركين اباك يا حبّى بعد ثلاثة ايام ؟

فنظرت اليه قائلة: اذا اراد قصي فانا لا أترك ابي ساعة واحدة. فادرك قصي معنى ذلك الكلام فقال : أتريد يا مولاي ان يقال ان ابن كلاب خرج من قومه؟

– لا ولكني لا اطيق ان تخرج حبى من هذا القصر فتخرج البهجة التي تملأ جوانبه .

قال : سنقيم بالشعاب وهي من مكة .

فدمعت عيناه وهو يقول : واذا داهمني الموت وأنتما بعيدان ؟.

قال : أعاهدك يا مولاي على الوفاء لك والبرّ بك حتى تأتي ساعتي .

فقال : لقد رضيت وسأرا كما كل يوم . ثم قال : أتستشير قومك الليلة ؟

– نعم ولا أترك منهم احداً ، وانت يا مولاي .

– سأرى في هذين اليومين ما لم اره في حياتي .

– ترى ماذا ؟.

قال : العيون يبرق فيها الغضب والشفاه الصفراء تقذف اللعنات . انهـــا عيون قومي وشفاههم يا قصي .

قال : ذلك ما لا نخشاه فبريق العيون يطفئه بريق السيوف . نعم بريق السيوف يا مولاي !.

– بل نسكت عما نرى ونستخف بما نسمع . ذلك خير مما تقول يا بني .

– واذا ارسلت اليك تلك العيون ألسنة النار ؟

ارسلنا اليها الرماح وانتهى الأمر .

ودخل المحترش في تلك الساعة وهو سكران ، فقال حليل :

لقد شربها ولدنا صرفاً فبانت في خديه .

فاجابه المحترش قائلا : ونحن نشربها منذ الصباح وراء جدار الكعبة مع اصحاب من اهل يثرب .

قال : اشربها عندمـــا تشاء فلا حيلة لنا في ردك ، والآن فاعـلم اننا سنزوج حبى بعد ثلاثة ايام .

فأومأ الى قصي وهو يقول : لقد تزوجت فتاة هي خير فتيات الحجاز يا ابن كلاب .

فقالت لأخيها : كما ان قصياً خير فتيان قومه .

قال : ولكن قومنا لايرضون . فحسبها ابوه كلمة سكران ، فقال :

لماذا يا بني ؟

– لأن رؤساءهم جميعهم يرغبون في حبى ليجلسوا بباب الكعبة ، على مقعد حليل بن حبشية !.

فجعل الواحد من الرجلين ينظر الى الآخر نظرات الاستغراب . امـــا المحترش فـكان يضحك . حق خيل الى شقيقته انه يهزأ بالاثنين ، ثم قـــال : ويقول قومنا في سرهم ، كما تقول انت في سرك يا مولاي ، وكما يقول صهرنا قصي بن كلاب .

قال : اذكر ما يقولون وما نقول .

فارسل نظره الى جانبي القاعة كأنه يفتش عن كأسه ثم عاد يضحك .

فقال حليل : الا تحدثنا بما تعلم ؟

– بلى ولكني أخشى ان اجاوز الحد في قراءة الأسرار . يقولون ان المحترش لا يصلح الا لشرب الخمر .

– وغير ذلك ؟

– ولهم في ذلك عذر فقد سبقهم ابي الى مثل هذا وظن بولده الظنون !

– وقصي ؟

– ثم جاء قصي بعد ذلك يتبع اثرهم في هذا التفكير وينظر الى الكعبة بعينين يجول فيهما الطموح الى السلطان .

فجعل حليل يهز رأسه ويقول : لقد صرعته الخمر فلا يصحو الا بعد يوم .

قال : الزق اضعف من ان يغلبني في الصراع . لقد حدثتك يا ابي بما أعلم ، كما امرت ، ولم يكن غرضي الا ان أمزق الستار عن القلوب الطافحة بالحب .

– وأي شأن لحبى بما تقول ؟

– لولا حبى لما فكر الناس في كل ما ذكرت . اني اعلم كل شيء ، ولم يكن سكوتي على ما اعلم غير مظهرٍ من مظاهر الصبر الذي يجب ان يتحلى به أمراء البيت .

فقام قصي فقبله في رأسه وهو يقول : هذه هي النبالة ورب الكعبة .

قال : لكن للنبالة حداً ، وربّ الكعبة لا ادع احداً من خزاعة يمدّ يده الى الحجابة وانا خليفة حليل ووارث منصبه . ولئن تزوجت حبى خزاعياً وارادت ان تساعده في الحصول على الحجابة التي هي لي لأضعن خنجري في صدرها وصدره واطرحنّ جثتيهما امام حياض الماء تدوسهما اقدام الحجاج .

فقال قصي في نفسه : ان هذا المستهتر السكران اعظم اهل الحجاز علماً وابعدهم نظراً ، غير ان الخمر جعلت بينه وبين جلال الامارة حجاباً كثيفاً لا تخترقه النظرات .

ولعله اراد ان يصل معه الى النهاية ، فقال وهو يبتسم : أتستطيع حبى ان تجعل زوجها سادناً للكعبة ؟

قال : الكعبة عرش وحبى سلـّمٌ له .

قال : سأصبح زوجاً لها بعد ثلاثة أيام كما رأيت .

-- واذا كان هذا ؟

– اذا كان هذا سألتك باسم هذا النسب الجديد واستحلفك برأس ابيك ان تقول لي كيف يصعدون الى هذا العرش .

فنهض عن مقعده ومشى وهو يتهادى حتى كاد يقع على الارض لو لم يستند الى الجدار .

واخذ يتفرس في قصي ثم قال :

اما الصعود الى هذا العرش فانت اعلم الناس به . ولو لم يكن القدر عبداً لك لما اخترق سهم الغرام قلب أختي ورضيت بك زوجاً وهي التي ردت جميع فتيان الاشراف من العرب . انك ساحر تستهوي قلوب العذارى يا ابن كلاب ، وفتان المحاسن تأسر محدثيك بعذوبة هذا الحديث الذي لم أرَ له مثلا . ولكن

.. ولكن السدانة لا تخضع لجمال الوجوه ، والعروش المرتفعة لا تكون مقعداً للعاشقين ـ الخاملين .

فقال حليل : اسكت فنحن لانبحث في حجابة البيت الآن .

قال : خير لي ولك ان ابوح بما في هذا الصدر يا مولاي ، ان هـــذا الفتى يحب حبى . نعم ، ولكنه في الوقت نفسه يكاد يذوب حباً بذلك الباب الذي يفتح ويغلق لطوائف العرب

– اسكت يا بني .

- ومع ذلك فالكناني خير من الخزاعي . وقد لا انزل عـن حقي الا له ، يوم تجود عليّ به . وكره ان يقول لابيه : يوم يصرعك الموت وتفضي الحجابة اليّ ..

قال : ان اباك لم يزل قادراً على فتح الباب واغلاقه فلا يجود بحقه على احد.

قال : حسبت انك ستعمد الى الراحة بعد ذلك العناء المستمر الذي مرّ عليه الزمان .

قال : ما نريد راحة تخلق حرباً .

فقال : اردت ان اقول ان المقعد الذي تجلس عليه يا مولاي لا يجلس فوقه خزاعي من بعدك ؟

– ولماذا تبغض قومك ؟

– لانهم كلما نظروا اليّ وانا امـــام الكعبة دلوّا عليّ باصابعهم وهزؤا بي لأنهم يرون صعلوكاً من صعاليك مكة .

قال : اترك الخمر يا بني يتركوا هزءهم .

- اني لا احدثك عن الخمر يا مولاي ، لقد قلت ان العروش لا تكون مقعداً للعاشقين الخاملين يا مولاي وانا اعيد الآن ما قلت .

فتمتم يقول : كما انها لا تكون للسكارى المجانين .

وعمد الى استدراج ولده ليتعرّف ما في نفسه ، فقال :

هب ان الموت داهمني الساعة يا بني وقبل ان يضمني اليه أوصيت لك بسدانة

الكعبة ، فماذا تصنع ؟

فحبس قصي انفاسه ليسمع

فقال المحترش : افتح باب البيت في ساعـــات فتحه . واغلقه في ساعات اغلاقه . وانا اعلم في الحالتين كيف اكون مرجعاً لاهل هذا البلد وللوفود التي تحجه .

– واذا وقف احدهم بينك وبين ذلك الباب ؟

– ومن يجسر على هـــذا وانا امير الحجاز ؟ ان العربي الذي يفعل يكون نصيبه السيف .

فابتسم قائلاً : لا تكاد تجرد هـذا السيف من غمده حتى تمتد اليك الايدي من النواحي الاربع ويجعلك القوم داخل نطاق من السيوف .

– ولماذا لا يفعلون اليوم ما تقول ؟

– لان اطماعهم لا تجاوز صدورهم ، ولأنهم ينتظرون الساعة التي ينزل فيها حليل بن حبشية الى قبره .

– وعند ذلك تخرج تلك الاطماع من الصدور .

– نعم ، ويبرز الى الساحة اولئك الامراء ، ثم ينزعونك من ذلك الكرسي الذي تحسبه ثابتاً تحتك الى الابد .

– ولكن يبقى لهذا الكرسي انصار من اهل مكة .

– بل لا يبقى لك فيها احد . تتحد خزاعـــة وصوفة وبنو بكر على الامر وينتهي كل شيء كما يريدون .

– واهل الشعاب ؟

– واي شيء تطلبه من هؤلاء !؟ انهم اهل تجارة كما ترى وليس لهم مطمع في حجابة البيت .

قال : استعين بهم على القوم فينتصرون للسدانة المهشمة .

– ومن يستطيع يا بني ان يخرج الكنانيين عن حيادهم اذا استعرت بينك وبين العشائر ، نار القتال !؟

فاشار الى قصي وقال : هذا .
– ولكنه عاشق خامل يعدك بذلك ولا يفي بما وعد .
فقال : اصحيح هذا يابن كلاب ؟
– اجل وذلك شأن الخاملين .
– اذن فانا انصح لحبى ان تتزوج عبداً من عبيد الحجاز،فقد يجول في عروق العبيد دم المـــروءة والشرف . ولكن لا . فقد اتخلى له عن الكرمي ليجلس فوقه اذا هو دافع عنه .
– وماذا تفعل بعد ذلك ؟
– انصرف بعد ذلك الى الشراب كي لا ارى احداً من الامراء .
فقهقه الثلاثة ضاحكين. غير ان ضحك حليل كان يشبه البكاء بل كان بكاء ، ودب النعاس الى عيني المحترش فاستلقى على مقعده وقصي يقول في نفسه :
نم ايها النسيب السكران فلم يفهم احد قصياً مثلما فهمته انت .انك خير من في الحجاز من الرجال . ونهض قائلاً : لقد كان حديثه حديث حكيم من حكماء العرب الذين لهم الرأي في الحادثات .
فاجابه حليل :اخشى ان يكون ذلك الحديث ثورة سكر لا تلبث حتى تتغير عندما يصحو .
قال : حسبنا ان تكون كذلك يا مولاي .
وخرج من القصر وهو ينظر الى الكعبة نظرات الحب والشوق .
فهامس حليل ابنته قائلاً
ان زوجك يا حبى سيخلف اباك في الامارة التي يطمع فيها القوم .
فارخت نظرها الى الارض واكتفت بابتسامة قصيرة هي ابتسامة الرضى .

* * *

– ٢ –

قبل ان يدعو قصي قومه في صباح اليوم الثاني الى منزل اخيه زهرة ليشاورهم في شأن زواجه، ذكر سودة الكاهنة التي قرأت له بعض صفحات

حياته . واراد ان يدخل عليها في تلك الساعة لتقرأ له الصفحات الباقية من تلك الحياة ، ولعله كان اشد الناس ايماناً بما تنطق به ابنة اخيه .

فقال لزهرة : هلـّم نسمع رأي الكاهنة قبل ان تجتمع كنانة .

قال : هممت بان اطلب اليك ذلك فسبقتني اليه . ودخل الاثنان ، فقالت سودة لجاريتها :

اغلقي الباب فقد يدور بيني وبين ابي وعمي من الاحاديث ما لا يجوز ان تسمعه الجواري ، ثم قالت لهما : لقد ظننت اني اراكما امس .

فقال قصي : كنت امس في مكة ولم ارجع منها الا في الهزيع الاول من الليل .

قالت : وستذهب اليها غداً كأنك تزور الكعبة في كل يوم .. أرأيت فاطمة واولادها في الشام ؟

وهي تعني امه واخوته .

– رأيت جميع الذين اردت ان اراهم في ذلك القطر .

وكيف كانت رحلة هذا العام ؟

– رحلة خير وبركة كما تعلمين .

قالت : حلمت ان الذهب اصبح كثيراً بين يديك، افكان هذا الحلم صحيحاً ام ماذا ؟

قال : صحيح فقد بقي لي من هذا المال ما يكفيني عشرين عاماً .

– اذن يكفي قومك شهراً واحداً اذا اعطيتهم اياه .

فعرف انها تدعوه الى بذل ماله . فقال :

سآخذ منه ما اجعله مهراً لحبّى ثم اجود بالباقي .

– وهل زوّجك حليل ؟

– نعم وبعد ثلاثة ايام تنتقل حبّى الى الشعاب وقد جئت الآن استشيرك في هذا الأمر .

قالت : سل ما تشاء .

قال : أتعجلت زواجي يا ابنة اخي ؟

ـ لا ، فقد احسنت اختيار الفتاة كما احسنت الزمان .

ـ ولكنك لا تعرفين حبّي .

ـ اعرفها اذا وصفتها لي .

قال : جمال يفتن خدام الكعبة وجلال يتوّج ذاك الجمال .

قالت : ستسترجع في هذا الزواج عز قومك . والآن فخبرني ما هو حال المحارش ؟

ـ لو لم يكن شرّاباً للخمر لكان اجدر الناس بحجابة البيت . انه يعرف اسرار الزعماء في مكة كما يعرف نفسه ، ولا يطيق ان يسمع اكاذيب الرجال الجالسين على كراسي المجد .

قالت : اراك تحبه يا عم .

ـ اجل ولكني لم اظهر له هذا الحب .

قالت : اقترح عليك ان توصي الذاهبين الى الشام بان يحملوا اليك منها زقاق الخمر لتهديها الى الفتى الذي احببت . ان الخمر قليلة في مكة ، وليس لك ان تعمل الا ما امليه عليك .

فضحك قائلاً : الزق الواحد يكفيه .

فلم يفهم زهرة شيئاً من الغاز الاثنين . ثم قالت : وهل وجدت في بصرى ما وجدته في يثرب ؟

ـ سيوف الاولى خير من دروع الثانية .

ـ واين وضعت هذه السيوف ؟

ـ تركتها في الصحراء ريثما تأتي الساعه .

ـ احسنت ، فالسيوف في رمال الصحراء لا تصدأ .

وجعلت تضرب الارض بيدها كأنها تضربها بالسيف وهي تقول :

اجل . عندما تأتي الساعة تخرج هذه السيوف من مخابئها وتمشي الى مكة في ركاب الفرسان . احسنت يا سيد العرب احسنت ، فستحمل سيوفك ، الذل

لقحطان والعز لعدنان .

وسكتت فجأةً كأن الالفاظ لا تخرج من فمها الا بعد تفكير ، ثم قالت : وماذا تسألني غير ذلك ؟

قال : أأدعو ابناء قومي جميعهم ام ماذا ؟

قالت : اذا شاورت فشاور شيوخهم والزعماء ، واين تجتمعون يا عم ؟

– في منزل ابيك وراء هذه القاعة حيث تسمعين كل شيء .

– وراء هذه القاعة كان جدي كلاب يجمع قومه . احملوني الى ذلك الموضع الساعة وليحضر القوم .

– اتجلسين بيننا يا سودة، والناس لا يرون لك وجهاً الا اذا اذنت لهم ؟ ذلك خروج عن العادة لا ارضاه .

فهزت رأسها قائلة : اذا كان الخروج عن العادات لا يرضيك ، فخير لك ان ترجع الى منازل قضاعة لرعي النوق . نعم يا عم ، خير لك ان تعود الى رعي النوق . احملوني الساعة .

– وماذا تقولين للقوم ؟

– اسمع ما يقال ولا اقول كلمة .

– ولكنك تسمعين كل شيء من وراء هذا الباب كما قلت .

– ذلك لا يكفي ، فانا اريد ان اتبين الوجوه .

– وما هي الغاية من ذلك ؟

– الغاية منه ان ألمس بيدي خضوع الناس لعمي وحبهم اياه .

– سيأتي يوم تظهرين فيه للناس وتحدثينهم بما تريدين . ان ذلك اليوم قريب والحرب على الابواب .

قالت : يوضع في طرف القـــاعة ستار مثقوب اجلس وراءه فأرى جميع الزعماء ولا يراني احد .

فقال قصي في نفسه : تريد ان تقرأ من العيون ما تضمره الصدور ، انها لا تثق بالقوم على ما ارى .

ونهض قائلاً لأخيه : هات يدك يا زهرة ، وحملا الكاهنة فخرجا بها من تلك القاعة الصغيرة الى القاعة الكبرى التي كان كلاب مرة يجمع فيها قومه .

وفي احدى زواياها جعلا لها ستاراً وضعاها خلفه ، وارسلا يطلبان زعماء الشعاب والشيوخ المجربين .. وقصي واثق بطاعة القوم واستسلامهم اليه .

وبينا الثلاثة ينتظرون المدعوين . اقبل صفوان بن الحارث ومعه يزيد بن ربيعة ، والأخير بلباس السفر .

ففاجأهما قصي بقوله : ماذا أرى ؟

فاجابه صفوان قائلاً : هذا يزيد بن ربيعة يريد ان يترك مكة ليطوف في البلاد.

– وهل ضيع صاحبه ؟

– نعم فقد عرفنا امس ان ذلك الصاحب فرّ من مكة وقد لا يعود اليها بعد اليوم .

– ومن رآه فيها ؟

– رجل يطلبه كما يطلبه يزيد .

قال : لو كان رجلاً لما افلت عدوه من يده . انه جبان لا خير فيه .

فجعل يقص عليه القصة وهو لا يذكر الاسماء حتى انتهى الى قوله : انهم وجدوا جثة الرجل في خيمة القاتل المضروبة في الوادي ، فقال قصي :

وكيف عرفوا انه ترك مكة وقد لا يعود ؟

– أرشدهم اهل ذلك الوادي الى الطريق الذي فرّ منه فاذا هو طريق اليمن.

– ثم ماذا ؟

– ثم اخذوا يطوفون في اسواق مكة ويدخلون بيوتها وينزعون الحجاب عن كل وجه تحوم حوله الظنون فلم يجدوا للقاتل أثراً .

قال : اذكروا الامر لحليل فهو قادر على القبض عليه .

– بل هو يعجز عن ذلك .

فقال زهرة : اذكر كلام النعمان الغساني يا قصي .

فابتسم ولم يجب . وساد السكوت لحظةً ثم قال : والى اين تذهب يا يزيد؟

– لا أعلم يا مولاي فقد يدفعني القدر الى زيارة الجزيرة من اقصاها الى اقصاها.
– ولكن ذكرت لي ونحن في يثرب انك لا تعرف بلاد العرب .
– هو ذاك .
– وكيف تقتحم اخطار هذا الطواف وانت وحيد ؟
– سيسير معي رجلان من بني صوفة فالقتيل منهم .
فضحكت سودة من وراء الستار وهي تسمع وترى .
واذا هي تقول : ماذا تصنع يا ابن ربيعة اذا قيل لك ان قاتل ابيك في بلاد تبّع ؟ فارتجف الفتيان لأنهما عرفـــا ذلك الصوت .. انه صوت الكاهنة التي نسياها .. وتردد يزيد في الجواب ، فقالت له :
قل يا يزيد ماذ تصنع
– أسير اليها فأبحث عنه .
– واذا ذكروا لك فيها إنه تركها الى اليامة ؟
– ألحق به دون ان أتردد في الأمر .
– ثم يقال لك في اليامة نه لجأ الى نجد .
– أقصد نجداً ولا ابالي .
فضحكت قائلة : اذن تعود الى مكة بعد خمسة اعوام وانت تبلغ الغاية .
فقال صفوان : جودي علينا بالرأي ايتها الكاهنة .
قالت : اتأذن لابن ربيعة السفر ياعم
– اجل فمن العار ان ينسى دم ابيه .
– اذن لا بد لك من السفر يا يزيد .
– نعم واسافر بعد ساعة فماذا ترين ؟
– أرى ان تبدأ بتهامة فتمر بها لأنها اقرب البلاد الى الحجاز .
فاشرق جبين صفوان وقال : ومعنى ذلك انك ستجد فيها صاحبك أليس كذلك ايتها الكاهنة ؟
قالت : لقد ذكرت له هذا وله ان يظن مـا يشاء . ثم تغير صوتها وجعلت

تقول : خير لابن ربيعة ان يبقى اليوم في مكة
- لماذا ؟
- لأن الزمان سينقلب بعد حين فيهون البحث عندئذٍ عن قاتل ابيه . نعم يجب ان يبقى ريثما يصبح الحجاز في عهده الجديد .
- ولكني لا أطيق البقاء يوماً آخر .
فسكتت ، كأنها ليست موجودة وراء ذلك الستار . وحاول ابوها وعمها ان يخرجاها عن ذلك السكوت فلم تفعل ، فقال قصي ليزيد :
لقد سمعت الآن كل شيء فافعل ما يطيب لك .
فنهض قائلاً : سأرحل الآن قاصداً تهامة ولو قتلت .
فقال لصفوان : اختر له من ابناء قومنا من يذهب معه .
قال : لا حاجة لي الى رفيق من كنانة فالرجلان من بني صوفة يكفيان وقد انت ساعة الذهاب ، وهمّ بان يقبّل ركبة قصي فمنعه من ذلك وقبّله في جبينه وهو يهمس في اذنه : إحذر ان يقتلك هذا العدو الذاهب الى قتله .
قال : حسبي مولاي اني أموت في سبيل ثأري . وصافح زهرة وخرج وصفوان يهمّ بالخروج معه ، فقال قصي : ارجع يا صفوان ، فرجع ، فقال :
اعط يزيد هذه الدنانير ليستعين بها على أمره. ولا ترافقه الى مكة فأنا بحاجة اليك ، ففعل ما أمره بــه وعاد الى القاعة ويزيد يقول له : الى اللقاء يا احب الناس اليّ . وانحدر من الشعاب قاصداً منزل زياد بن كعب ، وهو يخشى ان يكون الرجلان قد سبقاه . فلما اقبل على القوم قال زياد :
خيّل الينا ان سيد كنانة الجديد لم يأذن لك في السفر ، فأمرنا الرجلين بالرحيل منذ ساعة .
- وهل استطيع ان الحق بهما يامولاي ؟
- انهما على ناقتين تسبقان الطير .
فأطرق ملياً ثم قال :
وهل أراهما في تهامة اذا ذهبت اليها ؟

- لا ،فقد ذهبالى البلاد الاخرى التي بينها وبين تهامة مسيرة عشرين يوماً .
- اذن كتب لي ان ابحث وحدي عن قاتل ابي الذي لم ار َله وجهاً .
- بل تستطيع ان ترى عبد اللات بن حارثة وعمر بن الأسود في ديار بني هوازن إذا عجلت في المسير .
- ولكني اذهب ماشياً وهما راكبان ؟ .
قال : يعطك ملك الشعاب ناقة تركبها .
- لقد ذكر لي صفوان النوق والخيل فلم ارضَ .
- لماذا ؟
- لأن راكب الناقة لا يستطيع ان يستخفي عندما يشاء .
- وهل معك مال يا ابن ربيعة ؟
- نعم يا مولاي فدنانير قيصر تملأ راحتيّ .
قال : مال صفوان بن الحارث كثير .
قال : ذلك مال قصي لا مال من ذكرت .
واي سماء أمطرت سيدك مالاً ؟
- تلك هي سماء الشام يا مولاي .
قال : عندنا من المال ما نبذله لك في سفرك إذا أردت ونوقنا نجائب .
- لا احتاج إلا الى عطف الأمير الذي غمرني بفضله ، وقبّل يده وترك القصر وهو يفكر في أمره . أيبدأ بتهامة ام بهوازن؟ ان في الرأيين مجالا للتفكير .
اذا اختار تهامة فلا بدّ له من عربي صادق يدله على القاتل الذي يبحث عنه
واذا عمد الى الرأي الآخر فكأنه لا يثق بالكاهنة التي لا تكذب . وهذاهو الخطأ . وهل يليق بابن ربيعة الذي يطلب بدم ابيه ان يعود الى الشعاب ويظهر ضعفه بطلب رفيق له ؟ ، وهل يستعين الشريف الثائر برجل مثله ليبلغ معه الغاية من ثأره ؟ انه عجز لا يعترف به ولو خسر حياته ، فعوّل على الذهاب الى تهامة . رفيقه سيفه . وصديقه المال الذي يحمله . والحكمة في السؤال عنابن

عبادة ، دليله وعونه . ومشى الى الكعبة فسأل آلهتها ان تمهد له سبل الثأر ثم غادر مكة والنار تضطرم في صدره .

* * *

اما الآن فعدّوا لي زعماء القوم .

قالتها الكاهنة وقد رفعت الستار فبان وجهها لصفوان .

فقال زهرة : عشرون رجلاً بين زعماء وشيوخ .

– وما هو مهر حبى يا عم ؟

فقال قصي : مئتا دينار يتبعها الخز والديباج .

– وماذا يبقى لك ؟

– سلي زهرة فالمال معه في هذا المنزل .

قال : اظن انه يبقى مثل ما يعطي .

– اذن يحتفظ سيد الشعاب لنفسه بمئة دينار ثم يجود بالباقي على الزعماء الذين سيجيئون ..

فرفع قصي صوته قائلاً : لقد اعددت لهذا الامر كل ما تقولين .

قالت : وانك صاعد الى القمة كما يصعد السحاب ..

وبينما هم يتحدثون اقبل بنو كنانة وكبيرهم يقول : دعانا قصي فلم نتردد في المجيء .

فصافحهم قائلاً : خطر لي خاطر اريد ان اشاوركم فيه .

قال : ذلك ما كان يفعله كلاب من قبلك ، اذكر ما تريد .

– رأيت في مكة فتاة فاحببتها وسأسألكم عنها الآن .

– كنا نؤثر ان تكون هذه الفتاة من قومك ، ممن هي ؟

– من العشيرة الكبرى صاحبة السلطان. واما انها لم تكن من قومي فما حيلتي وانا لم استطع ان أغلب عاطفة الحب .

– ولكن اذكر انك من ولد اسماعيل اعظم رجال العرب .

قال : والفتاة التي احببت تنتمي الى بيت هو اعظم بيوت هذا البلد .

– ذلك هو بيت حليل ورب الكعبة .

– نعم والفتاة التي سأسألكم عنها هي حبى ابنة حليل .

– ليس لنا مـــا نقوله في شرف هذا البيت أفتريد الآن ان ينزل قومك فيخطبوها لك ؟

– اذا رأيتم ذلك فافعلوا ..

قال : ولكن نخاف ان نلجأ بعد ذلك الى السيف ..

قال : خطبة يعقبها سيف يا ابن العم ؟

– اجل فقد يردنا حاجب البيت . وفي هذا الرد انتهاك للحرمة وجرح للعز وهذا يكفي ..

– هب ان الامر حدث كما تقول أفتخشون الحرب ؟

– لا ولكن نتدبر امرها قبل ان نخوض المجال ، وأومــأ الى اخوته قائلا : هؤلاء رؤساء كنانة فاسمع اراءهم ..

قال : ماذا ترون ايها الزعماء ؟

فقال احدهم ، وهو خداش بن عبيد من ابطــال العشيرة وأصحاب الرأي : أتحاربون وأنتم لم تعدوا العدة

وما هي عدتكم للحرب ؟

– طائفة من السلاح يتناول منهـــا القوم عند الحاجة ومال يكفي الجيش عامين كاملين .

– اقد اعددنا لك كل هذا يا خداش ..

– ولكني لا أرى شيئاً ..

فقال صفوان : يكفي ان يقول ولا يرى ..

ثم قام شيبة بن حبيب فقال :

استولت خزاعة على الكعبة منذ ثلاثة أجيــال وكان اجدادنا انصاراً لهــا كما تعلمون ..

فاجابه قصي بهدوء : وتلك احدى مآثر اولئك الاجداد ..

- وقد انقضت الاجيال ونحن نعيش مع القوم في جو هـادىء وتحت سماء صـافية ...

- ثم ماذا ؟

- فاذا ردنا سادن الكعبة وخرجنا من قصره لنحمل السيف فقد ضيعنا ذلك العهد بيننا وبين القوم وخلقنا في مكة فتنة لا تخمد نارها حتى تهلك رجـال الشعاب ولا يبقى منهم رجل قادر على الدفاع ..

فظهر قصي عندئذٍ في مظهره ، فقال : معنى ذلـك انك رأيت شبح الحرب فخفت منه .

قال : لو كان كلاب حياً لقال لك ان شيبة بن حبيب لا يخاف .

- اما قصي بن كلاب فقد قال الان ان الخوف وحده يملي عليك هذا الرأي. اتظن ان بني كنانة ، اعز عشيرة بين عشائر العرب ، اضعف من ان تصون هـذا العز الذى تركه لها اسماعيل ؟ ام يقوم في ذهنك ان سيوف بني خزاعة اطول من سيوف قومك وان الميادين لم تخلق الا لفرسانها ؟

قال : تلك ظنون لا تخطر الا للجبناء ولم اكن قط جباناً كما تعلم الشعاب . لقد ظننت شيئاً آخر .

قال : عرفته ، انك تقول في نفسك الان ان هذا الذي يدعونا الى الحرب لا يملك من اسبابها سبباً واحداً أليس كذلك ؟

فرفع رأسه قائلاً : هو ذاك .

اذن فاعلم ان قصياً هذا ، الذي قدم من الشام لا يحمل سيفاً ولا يحمل مالاً يستطيع بكلمة واحـدة ان يفرش الارض من الشعاب الى الكعبة سيوفاً حولها الذهب . بل يستطيع بكلمة واحدة ورب الكعبة ان يجعل في كل شبرٍ مـن هذه الارض رجلاً حتى تسد اجسام الرجال منافذ مكة ويستسلم القوم الذين فيها لهذا الفتى الذي يخاطبك الان .

وارتسمت على وجهه آثار القوة الجبارة والجـلال الفياض ، وبعثت عينـاه ذلك النور الذي يبهر الرجال .

وساد الصمت المجلس . ولو اخترقت العيون ذلك الستار المضطرب في زاو،
القاعة . لرأت تلك الفتاة الكسحاء . تلك الكاهنة المحجبة ، تبتسم لعمها
ابتسامة الرضى . ولأبصرت ذلك الجبين الاصفر تبدو عليه دلائل الظفر .

ثم قال : اريد ان تدلني الان على سيد الشعاب .

فاجابوه بمظاهر الاستغراب وقد بدت ، في العيون وعلى الوجوه .

– من هو سيدكم ايها القوم ؟

فقال صفوان بن الحارث : انت . فردّد القوم تلك الكلمة بصوت ضعيف .

فقال وهو لا يبالي : واريد ان اعلم اذا كنتم ، انتم رؤساء الحي تطيعون
سيدكم طاعة عمياء في كل ما يشاء .

فعلا صوتهم قائلين : نطيع .

قال : وما تبالون اذا كانت الحرب وراء هذه الطاعة ؟

– ما نبالي .

– وهل فيكم من يطمع بهذه السيادة ؟

– لا .

فوقف وهو يقول : اقسموا ببيت العرب .

فاقسموا كأنهم امام هبل . وقد اشرقت وجوههم بعد تلك المبايعة التي
جرت في ساعة ، ولكنه عرف انهم يفكرون في الحرب ، فقال :

اما الان فستعلمون ما اردت ان اكتمكم اياه . ان الحرب التي تخشونها لا
تستعر نارها اليوم كما تظنون .

– الا اذا أبى حليل ان يزوجك حبى .

– ما كان حليل ليفعل هذا وله رأي. لقد زوجني وانتهى الامر . ولولا عادة
النبلاء من العرب ، لكانت حبّى الآن في هذا المنزل دون ان اسألكم رأيكم في
قضية الزواج .

– وقوم حليل ؟

– ليس لنا شأن مع هؤلاء القوم . سيجمعهم سادن الكعبة في قصره ويحدثهم بالأمر الليلة .

– ومن حقهم وهم الاشراف ان يخذلوه .

– لا احسب ان فيهم احداً يجسر على ذلك .

– وماذا يخافون وهم لايعرفون من انت ؟

– يخافون سادن الكعبة نفسه الذي هو اعرض الخزاعيين جاهاً وأبعدهم صوتاً بين قبائل الحجاز .

– ولكنهم يضمرون لنا الشر .

– ونحن نفعل مثلما يفعلون ، يعطوننا ولاءً فنعطيهم وفاءً . واذا جاهرونا بالعداوة برزنا الى المجال .

فارتجف الستار وقالت صاحبته :

كما يبرز الأسد من عرينه لينازل الذئاب التي تعوي حوله ، لقد كنتم سادة الحجاز فخسرتم هذه السيادة فبعثت الآلهة اليكم فتىً من صلب مضر يعيد اليكم ما خسرتموه ، فأطيعوه .

فخيل اليهم ان الكاهنة تخاطبهم من السماء . ثم قالت : والويل لمن تحدثه النفس بالاستخفاف بما اقول . ان الآلهة تقذف به عندئذٍ من قمة هذا الجبل فلا تبصر الشعاب بعد ذلك .

فصاحوا قائلين : لتشهد علينا الآلهة اننا رجال قصي بن كلاب نبذل له الأرواح ونفديه بالدماء .

فعادت الى السكوت لانها عرفت ان الامر قد انقضى كما تحب . وايقن قصي في تلك الساعة بان الكلمة التي قالتها الكاهنة نشرت ظله في منازل كنانة ، ومدّت رواق نفوذه فوق تلك الجبال فلا يستطيع احد بعد ذلك ان ينزع من يده ذلك السلطان . كما أيقن بان سودة لم تسأله المجيء الى تلك القاعة والجلوس وراء ذلك الستار ، الا لتجعله سيد الموقف ، على الصورة التي قرأت .

وكلمة واحدة تقولها كاهنة القوم ، خير من عام كامل يسعى فيه قصي

ليجعل الامر في يده . وليس بدعاً ، فقصي اذا قال كلمته فهو من الناس . اما سودة فكلمتها تخرج من فم الله .

ثم قام خداش فقال :

وهل بقي شيء يا مولانا ؟

– بقي ان تتناولوا الطعام في هذه القاعة ثم ينصرف بعضكم بعد ذلك الى قصر حاجب البيت ، وأومأ الى زهرة فتبعه الى الداخل وجعل يعدّ ماله . ثم حمل ما اراد ان يهبه لهم وخرج فقال :

ابدأ الآن بان اعطيكم هذا المال الذي ربحته من بصرى . وأخذ يناول كل واحد منهم عشرة دنانير وعليها صورة قيصر . فارتفعت اصواتهم بالدعاء ، واصبحت نظراتهم اليه نظرات احترام واعجاب .

ان الفتى الذي لا يملك شيئاً ، ينثر الذهب ، والحجازي المجهول الذي حملته قضاعة الى مكة يسود قومه بما يشبه السحر ، انها احدى غرائب القدر كما رأيت .

وبعد قليل احضر الطعام ، وجعلت الآلهة تتكلم بلسان الكاهنة فتقول :

غداً يجلس قصي بن كلاب سيد كنانة بباب الكعبة . وبيده مفاتيح الباب . وغداً يخفض السيف تلك الرؤوس الكبيرة التي لم تذل . وتنحني الجباه امام حاجب البيت الجديد الذي يشرّف الحجاز . ويتربع في عرشه ، ويضع بيده تاجه على رأسه .

غير ان هنالك جثثاً تملأ الاسواق . ودماً يجري بين المنازل . وسيوفاً تحصد الرقاب وتقذف بها الى موطيء النعال . انها سيوف العدنانيين تسترجع المجد المفقود . وهذه راية كنانة . اني اكاد المسها تخفق في فناء البيت . وفوق رؤوس الناس في المواسم . وعلى سطوح القصور والبيوت . بل يخيل اليّ ان العرب كلها لاتعرف لها راية غيرها تستظل بظلها البعيد . وسيمسي بيت قصي في الغد ملجأ للحجازي الخائف ، والعربي المظلوم ثم لا يلبث حتى يخرج منه نور يملأ العالم كله ..

فهمّ القوم بان يتركوا طعامهم ويركعوا امام قصي . لكن سودة لم تسكت
،ل كانت تقول :

سينقلب الزمان ايها النبلاء انقلابا لم يرَ الحجـاز مثله منذ وضع ابراهيم
واسماعيل الحجر الاول من احجار البيت . ان الرئاسات التي كانت لكم في قديم
الزمان ستسعى اليكم صاغرة . والنفوذ الذي سلبتكم اياه الايدي الطامعة سيرجع
موفرع اللواء ممدود الرواق حتى يضحي الحجاز كله ميداناً لخيلكم ، لكم فيـه
الرأي الاول الذي لا يرده الناس ، والمقام الاول الذي يهابه الاشراف والزعماء.

اي بني كنانة . ان السيف الذي تبرق شفرته على قمة هذا الجبل لا يوضع في
غمده حتى يلمع ظافراً في القطر الحجازي من الجنوب حتى الشمال . واليد الـتي
تحمله لا تثنيها قوة حتى تمتد الى التيجان الصغيرة فتنزعها عن الرؤوس، والمقاعد
الذهبية ، فتحطمها كما يحطم الطفل اناءً من الخزف جعلته امه بين يديه . !

فرأى القوم يدي قصي ترتجفان وهو يضع الطعام في فمه . ثم سمعوه يقول :
ءلمني الآلهة ان لم اجعل سماء مكة فوق كل سماء . ووجه كلامه الى سودة قائلاً :

الا تذكرين لنا شيئاً عن حبى ابنتها الكاهنة ؟

قالت : وماذا اذكر لك عن فتاة هي خير من في خزاعة من نساء ؟

قال : أتحب بني قومي كما تحب بني قومها ؟

قالت : احسبها تحب قصياً كما تحب حاجب البيت .

ولكني اخشى ان لا يتم الزواج حتى ينتهي بالطلاق .

اذكر لذلك سبباً يا عم .

قال : اني صاحب اطماع كما تعلمين وقد لا تقف هذه الأطماع عند حد .

- اذا كان هـذا فالزوجة التي تمسي سيدة قومي يجب ان تضع يدها بيدي
منى ابلغ الغاية.

- ومن قال ان حبى لاتفعل ؟

قال : يقوم في الذهن انها ستنتصر اقومها الذين هم اعدائي .

بل تنتصر للقوم الذين تنتمي اليهم انت .

فظهر البشر على وجهه وجعل يقول : لقد وثقت الآن بكل شيء وهـ‍ـذا يكفي .

ومكثوا ساعة بعـد طعامهم ثم انصرف خمسة من شيوخهم بينهم خدا... وشيبة ليخاطبوا سادن الكعبة بشأن الزواج ، باسم سيد الشعاب . وقد خبّرهم قصي ان حبى ستكون بينهم في اليوم الثالث .

* * *

- ٣ -

كذلك جمع حليل قومه وحدّثهم بالأمر . فاسودت وجوه امرائهم وفتيانهم واستولى عليهم الاستغراب لذلك الخـبر المدهش الذي لا ينتظرون ، شباب خزاعـة الابطال اصحاب المفاخر والشرف تردهم حبى وتستخف بهم . وذلك الحجازي الشامي الذي لا يعرفه اهل مكة يفتح له حاجب البيت ذراعيه ؟ ان حاجب البيت اذن يتحدى قومه ولا يعبأ بما يفعلون .

ولكنهم لم يقولوا كلمة ولم يبدوا رأياً . لقد اخرست تلك المفاجأة ألسنتهم وأوغر الخبر الغريب صدورهم فسكتوا . غير ان ذلك السكوت كان على غلّ .

ولم يفتح احدهم فاه الا زياد بن كعب . فقال : اذن زوجت قصياً ولم يبق الا ان تنقل حبى الى بيته .

– اجل .

– ومتى يتم هذا الانتقال ؟

– لا تمر ثلاثة ايام حتى يتم كل شيء ..

فوقف قائلاً : لقد زوّجت احسن فتيان كنانة فلتبارك آلهة الكعبة هـ... الزواج .. وخرج ، ونار البغض تتأجج في صدره من جديد . لقد كان يخا... من قبل ان يحدث قصي في مكة حدثـاً يهتز له الحجاز وتهوي على اثره مقا... الامراء .. امـا اليوم فقد اصبح ذلك الخوف وثوقاً لا تنزعه من نفسه ، جميع المظاهر الكاذبة التي تقع عليها العين ، ولا يستطيـع حليل وهو الامير الاكبر ا...

يلبث لرؤساء العشيرة ان قصياً لا يطمع الا بأن تكون حبى زوجة له . ولولا اصور زياد ، ان ابن كلاب الذي اصبح صهراً لحليل لا يستطيع لفقره وضعفه ان يوقد ناراً ويثير فتنه ، أجل لولا ذلك التصور ، لتصدى للفتى الكناني في وضح النهار ،وقتله على مرأى من أهل مكة لا يبالي بعد ذلك بالحرب المدّمرة يسعرنارها ذلك القتل ..

ان ذلك التصور . كان احد الاسباب التي تدعوه الى الطمأنينة والهدوء .

وقـام القوم فخرجوا خلفه ، وهم لا ينظرون الى قصي نظرهم الى الفتى الطمّاح الصاعد الى القمة ، بل كانوا يحسدونه على بلوغ الغاية التي لم يبلغها اولئك الذين أرادوا ان يصاهروا حاجب البيت ..

وحاولوا أن يحادثوا زياداً فلم يقف .. انه يظن ما لا يظنون . ويفكر فيما لا يفكرون .. وعاد الى القصر وهو غائص في اللجة ..

فرأى صفوان بن الحارث جالساً في الدهليز . وقـد جلس امـامه على المقعد الآخر ، ابو زياد وليلى .. وكان صفوان قد ترك الشعاب في تلك الساعة ، ليهتم بقلبه وغرامه ، ويسأل زياداً ان يزوجه ليلاه ..

فابتسم امير صوفة لضيفه : او قل تكلف الابتسام تكلفاً لأن شفتيه لم تكونا تعبران الا عن المرارة والألم . ! ثم قال لأبيه وهو هـادىء : أتعرف يا مولاي لماذا جمع سادن الكعبة قومه في هذا اليوم ؟

قال : ليحدثهم بشأن الموسم .

بل ليستشيرهم في أمر آخر ، هو في عينيه أعظم شأناً من المواسم .

اذن لينظر في امور الحجاج قبل ان تفد الوفود .

وهذا ايضاً لم يفكر فيه امير مكة ..

اذن اراد ان يجعل اصنام الكعبة من الذهب ..

لقد ترك امر العناية بالكعبة لمن يخلفه في الحجابة .. انه جمع قومه ليسألهم ، رأيهم في قصي بن كلاب ..

قالها والاستخفاف في صوته .

فخفق قلب صفوان واضطرب لتلك اللهجة الغريبة التي يخاطب بها الامير أباه ، ذاكراً سيد كنانة ..

اما ابو زياد فقال : لقد عرفت الآن ، فحليل يرغب في ان يستميل اهـل الشعاب باختيار قصي زوجاً لابنته ..

قال : اصبت ، فقد وعد قصياً بهذا وستزف حبى اليه بعد يومين .

– ولكن العشيرة لا ترضى وفيها ازاهير الفتيان ..

قال : دع عنك هذا يا مولاي ، فرجال العشيرة سكتوا جميعهم حتى لتظن انهم لم يسمعوا حديث حليل .

– وانت ؟

– اما انا فقد اعترفت للأمير بان صهره أعظم رجال كنانة ، ثم انصرفت وانصرف القوم .. وماذا تريد ان اقول يا مولاي ؟ أأنكر على حليل بن حبشيه تلك الرغبة البادية على جبينه ، وفي حديثه ، فينتهي الامر بيننا الى حمل السيف.

قال : خيراً صنعت ، فليزوج حبى من يشاء .

قال : لقد ازدرى حليل قومه كأنه لم يرَ بينهم فتىً واحداً اهلاً لفتاته .

ثم انه ازدرى امر البيت فاختار لابنته رجلاً غريباً عنا يستولي على حجابته بعد موته ..

ونظر الى صفوان قائلاً : ألا يفكر هذا الفتى الشامي في الاستيلاء على الامارة عندما يصفو له الجو ؟

فرأى صفوان ان تغيير الحديث خير من ان يتصدى له بالشدة والعنف فقال: هذا ما لا أعرفه يا مولاي .

– وماذا تعرف اذن ؟

– اعرف ان الاقدار خدمت قصياً ، فتزوج فتاةً تتقدم جميع نساء قومها اما انا فلم أعرف حتى الآن ان افكر في الزواج .

فاضطربت ليلى ..

اما زياد فقال : وما يمنعك من ذلك ؟

خوفي من ان يردني اهلهـا كما رد حليل فتيان خزاعة .. لقد جئتك الآن
خاطباً يا مولاي ..

فاجابه ولم يتردد : لقد تعجلت في امرك يا ابن الحارث ..

- بل كنت جباناً يا مولاي ، فلم اطلب ليلى قبل اليوم .

قال : أنزوج ليلى ودم عبدالله الذي قتل غدراً لم يجف بعد ؟

قال : ان زواجي لا ينسيني هذا النصيب الذي احمله من ذكراه .

- ولكن هذا وحده لا يكفي . ستقول العرب ان امير صوفة لم يعبأ بذلك
القتيل البريء الذي قضى حياته فداء عنه .

قال : مرني يا مولاي لأذهب يوم زواجي الى قبره ، فأبلّ ترابه بدموعي ،
فيقول الناس ان زياداً أرسل صهره يوم عرسه ليبكي مولاه البريء .

ومعنى هذا ؟

- معناه ان العرب لا تستطيع بعد ذلك ان تقول انك نسيت عبدالله .

قال : ذلك أمر لا يفعله صبيان السوق .

قال : اشترط يا مولاي ان يكون زواجي ضرباً من ضروب الحداد ..

وهذا لا يفعله امير صوفة في عرس ابنته ..

وماذا اصنع اذن ؟

اصبر ، وليتزوج قصي الآن ..

ولكني لا اطيق الصبر يا مولاي. اني احب ليلى ، وقد كرهت ان اطلبها
.. قبل خوفاً من ان يخطر لك اني اطلب جزاء ..

لو طلبتها لكانت لك .. اما اليوم فليس لك الا ان تنتظر عاماً آخر .

فنظر اليه بعينين يجول فيهما الدمع وهو يقول : قل اني لست كفوءاً لليلى
فاعرف نفسي ..

لو كان هذا الذي اردت لما ترددت في ذكره .

او قل انك تؤثر احد فتيان صوفة على فتى من كنانة ..

قال : لا تلج في طلبك يا صفوان فزياد بن كعب لا يرضى بان تعـيّره العرب.

– أيعـيّرونك انك رضيت بصفوان بن الحارث صهراً لك ؟؟
– بل يعـيّروننا هذا الزواج الذي تريده ولنا ثأر لم نطلب به ، وقاتلنا يرم حراً ولم نبلغ غايتنا منه .
قال : زوجني يا مولاي على امل ان احمل اليك رأس عدوك .
– كأنك تريد ان تثبت للناس ان الامير الذي زوجك ابنته لا يستطيع ان يصل الى ذلك العدو. ثم قال : لقد تقدم يزيد اليوم رجلان من صوفة يبحثان عن جبير وقد يعثران عليه ، فاذا رجعا بعد شهر او بعد عام ، وايديهما مصبوغة بدمه ، فليلى لك . والا فهي باقية في قصر ابيها حتى نثأر بعبدالله ..
قال : قد تمر السنون يا مولاي وجبير حي .
– كذلك تمر هذه السنون وليلى عذراء ..
– اذن لم يبق الا ان اغادر مكة باحثاً مع يزيد عن ذلك الغادر الذي يقف بيني وبين زواجي ..
قال : لا ارضى ان يطلب بدم عبدالله غير بني صوفة .
فنهض ابو زياد قائلاً لولده : انا ذاهب الى قاعة الجلوس فاتبعني الآن ..
– سأفعل بعد قليل يا مولاي .
– اتبعني ولا تتردد فانا بحاجة اليك .
فلم ير زياد الا ان يمشي وراء ابيه الى تلك القـاعة الكبرى التي تجتمع فيها صوفة وقد اختار الشيخ مقعده في احدى الزوايا وأمر زياداً بأن يجلس بالقرب منه ، ففعل .

* * *

انظر الى ليلى فقد فضحتها الدموع
انها تبكي .. ولا يسمع لذلك البكاء صوت ، كأنها تخشى ان تغضب اباها ا مظاهر الغرام .
مسكينة ليلى ، كان ذلك الحبيب الجالس امامهـا في الدهليز عزاءها الو... بعد عبدالله ، فاذا بالقدر الجائر يحاول ان يسلبها اياه .. وكانت ترى من قبل ،

ان اباها لا يبخل على صفوان بدمه ، يجود به عليه والخجل يملأ نفسه .. فما باله اليوم ينسى صنيعه ، ويخاطب المحسن اليه بمثل ذلك الجفاء .. انه قد تغيّر ، لا تستطيع ، بقوة بيـــانه ، وثغره الضاحك ، ان يحجب ذلك التغيّر الذي لا شك فيه ...

ولم تكن تجسر ان تنظر الى صفوان . ان عينيهـــا عندما تثبتان في عينيه كالسهم يثبت في قلبها العاشق الذي استرسل في الحب ..

غير ان صفوان رجل .. والرجال في محنتها لا تبكي ..

ولكن لا .. فدموعه كانت اغزر من دموع النساء ، ان ذلك الصرح العالي الذي بناه في حلمه ، ينهار الآن تحت قدمي زياد ، وتلك الحياة التي تمثلها صافية زاهرة ، مسخها القضاء في لحظة واحدة وعكّرت صفوها السحب السود .. ومع ذلك فقد ترك لها أبو زياد بقية من الأمل ..

السكوت يسود الآن مجلس العاشقين . والاثنان ينظران الى الارض كأنهما صنمان .. ولكن الرجال ترجع في ساعات الشدة الى رشدهـــا قبل ان ترجع النساء . فكفكف دمعه قائلاً :

أرأيت يا ليلى ... اني أكاد أخرج من هـــذا البيت كما يخرج العبد الذليل طارده مولاه ..

فتمتمت قائلة : لقد حزن أبي كثيراً على عبدالله فنسي ليلى وصفوان ، ويكاد ينسى نفسه ..

قال : لا استطيع ان اصدق ان الحزن يملي على ابيك هذا الحديث الجاف .

وماذا اذن ؟

انها عاطفة جديدة لا أعلم ما هي تختلج في صدره .

قالت : أتقطع رجائي بظنونك ايها الحبيب ؟

اجـــل ، وانا قد قطعت هـــذا الرجاء . أرأيت اميراً من امراء العرب يقتل ولده فيمنع ابنته من الزواج، حتى يثأر بذلك الولد، واي شريف حجازي يثأر الناس بعبده فيفعل كما يفعل زياد الآن ؟

قالت : لا تنكر على ابي وفاءه لعبدالله .

– اني لا انكر شيئا يا ليلى ، لقد نشأ عبدالله في هذا البيت ، وكان الر.
الامين الصادق لأبي زياد وزياد . ولكن تلك الامانة وهذا الصدق جعلها ابا
سبباً لطرد صفوان بن الحارث من قصره ، كأن الوفـــاء للأحياء لا يذكر ..
الوفاء للاموات ..

قالت : لا تذكر الطرد يا صفوان ، فأبي لا يفعله .

قال : اصبت فهو لم يأمر عبيده بان يحملوني ويقذفوا بي الى الخـارج .. ا
حكى لي حكاية لم اصدق منها كلمة ، ثم ختم حكايته بقوله : اني لا ازوجك ..
اظفر بقاتل عبدالله ..

– وما معنى قوله ؟

– معناه انه لايريد ان يجعلني صهراً له . لقد احببت ان اطوف في الجـر..
باحثاً مع يزيد عن جبير فلم يرضَ . وانا اخشى ان ينقضي العـــام والقا
مستخفٍ في زاوية من الارض ، ثم تمر الايام فأذوب غراماً ويستولي اليأس ..
هذا القلب .

فلم تستطع ليلى ان تحجب لدمع .

فقال : لا تبكي ايتها الحبيبة فأني سأبقى على العهد حتى يحملوني الى القبر

– وماذا ينفع هذا العهد وانت بعيد ؟

– ولكني لا أقدر ان افعل غير ذلك وابوكِ يمنع قربي .

قالت : قد يخدم الحظ يزيداً فيقتل جبيراً وينتهي الأمر .

قال : وسيقول ابوكِ عندئذٍ : لقد قتله رجل ليس من صوفة وهـــذا ..
ارضاه ... نعم سيقول ذلك ورب الكعبة .

فشهقت بالبكاء وهي تقول : لم يبق الا ان تفتح الارض فاها فتجذبني ..
الأعماق .

– بل بقي شيء آخر افكـّر فيه .

فنظرت اليه وهي تمسح الدموع .

فقال : بقي ان تصبحي زوجة لصفوان على رغم جميع الناس .
قالت : أتنزعني من بين ذراعي ابي يا صفوان ؟
– لو كنتِ بين ذراعي هبل لحملتك والسيف في يدي حتى اصل الى الشعاب وعيون القوم تنظر اليّ .
– وفي تلك الساعة تثور العشيرة .
– ان بني كنانة لا يخشون الثورات .
– وتجتمع عشائر مكة جميعها ثم تمشي تحت راية ابي الى القتال .
– واذا فعلوا .
– اذا فعلوا انتزعوا ليلى من يدك كما انتزعتها من ايديهم وملأوا الشعاب جثثاً .
فارتجفت شفتاه قائلاً : ورب الكعبة لا تصل ايديهم الى ليلاي وفتيان كنانة في الوجود . ونهض وهو يقول : واذا اردت فاخرجي الآن وليلحق بنـــا من شاء .
فمدت يدها الى الامام والبكاء يتردد في صدرها قائلةً : اسألك باسم هـــذا الحب الطاهر الذي بسط فوقنا جناحيه ان تمحو من ذهنك هذا الفكر الذي لا اطيق ان تظهره لي .
قال : أتؤثرين البقاء بعيدة عني حتى يقتلني هذا البعد ؟
– خير لي ان أموت من ان أرى دماء العشائر تهرق لأجلي .
هب ان الحرب انتهت كما تريد أفيطيب لابنة زياد العيش على جثث الشباب وفوق اشلاء اهل مكة ؟ اذن يكون حبي سبباً لهلاك القوم وهذا ما لا اراه .
فأطرق ملياً ثم قال : تحدثني نفسي بان الفراق الذي أراده ابوكِ لا بدّ منه فليكن ما اراد .
قالت : لقد بدأ القدر ان يجور ونحن في فجر الحب . ولكن مهلا فسيعود ابي بعد قليل وله رأي آخر .
اما انا فلست واثقاً بما تقولين . لقد رأيت قلب ابيكِ أقسى من الحجر

بل اشد صلابة من الحديد ، ومع ذلك فلنصبر .

قالت : اذا كان هذا عمدت الى خنجر ابي فطعنت به قلبي وتركت هـــذا الوجود الذي لم أرَ فيه وانا في زهرة العمر غير الشقاء . ثم قالت : هنيئاً لك يا حبى فقد بلغتِ الغاية وتزوجت قصياً ..

قال : أتفكرين في الموت ايتها الحبيبة ؟

– نعم وما قيمة الحياة ان لم أجتمع بمن أحببت .

فرفع يده وهي ترتجف قائلاً :

اقسم بمن بنى البيت ، لئن قتلت نفسكِ لأقتلن زياداً وابا زياد وكل من في هـــذا القصر من عبيد وغلمان ، حتى امحو آثار بني كعب ، ثم انطرح جثة مضرجة بالدم في الموضع الذي تضطجعين فيه .

وجعل يطوي عمامته الموضوعة بين يديه ثم ينشرها وهو لا يعلم ماذا يص

فاهتزت لهذا القسم الهائل وقالت له اذن سأحيا .. نعم سأحيا ولكن لأجلك .

هكذا كان الحبيبان في تلك الساعة . يعمد الواحد منهما الى رأي ، فينهاه الآخر عنه . ثم يبكيان . ثم يبتسمان للأمل الباقي . وهما في كل ما يفعلان مظهر بليغ من مظاهر الغرام كما رأيت .

وكان زياد وابوه يتهامسان في زاوية القاعة والعاشقان ينظران الى البا الذي يخرجان منه . وقد ضاق الصدران .

* * *

لقد ضيعت المروءة يازياد .

قال : سترى يا ابي اني لم اضيع شيئاً .

– بلى . وقد فضحت نفسك وفضحت اباك .

– وكيف ذلك يا مولاي ؟

قال : أتجفو هذا الفتى النبيل الذي انقذ حياتك وتهزأ به ؟

قال : لا تغضب قبل ان تسمع عذري .

وما هو هذا العذر وانت مدين له بهذه الحياة ؟ يقول لك انه سيثأر بعبد الله بعد الزواج فتقول لا . ثم يسألك ان تشترط ما تشاء فلا ترضى ، فكنت في ذلك كالعربي الجبان الذي يحفظون رأسه في ساحة الحرب ، ثم يستخف بمن حفظوه . قل لي يازياد اي وفاء املى عليك ما قلت بل اي شيطان اوحى اليك به ؛ وانت ترى ان الفتى كان ارفع من ان تجزيه على المعروف ، واعز نفساً من ان تمد اليه يدك بأحسان . بل قل لي اي شريف في مكة انبل خلقاً واكرم محتداً من صفوان بن الحارث الذي تبخل عليه بليلاك ؟ ومن هـــو العربي الذي تطمع بأن تجعله صهراً لك ؟ أتبعث بليلى هدية الى تبّع ، أم تجعلها هدية للنعمان او امرىء القيس ؟ قـــال يازياد ولا تخف شيئاً ، لقد كدت انسى نفسي وانت تحدث هــذا الكناني ، وخيّل اليّ انك غيرك ، اذ لا يخطر لي ان زياد بن كعب يستهين بكرامته وينسى وفاءه الى هذا الحد .

قال : اصبر يا مولاي ، اقص عليك ما لا تعلم .

فاستند الشيخ الى وسادته واصغى اليه ، فقال : لقد خبرتك الآن ان قصياً تزوج حبى .

نعم .

وانت ترى ان سادن الكعبة سيمسي آلة بين يدي صهره ، يقذف بها الى حيث يشاء .

ثم ماذا ؟

ثم تمرّ الايام فيثب الكناني الى كرسي حليل ويملك البيت .

قال : ان البيت ملك العرب .

اجل وقد أردت انه يملك حجابته فيملك كل شيء .

قال : انه حديث قديم سمعته منك قبل اليوم .

وانا اعيده عليك الآن ، لئلا تنساه بعد قليل .

وما الغرض من ذلك ؟

– الغرض منه ان اثبت لأبي ، ان الشرك ينصب لنا من وراء الستار ونحن غافلون .

– وصاحب هذا الشرك ؟

– قصي بن كلاب لا سواه ، يشاركه في ذلك سادن الكعبة نفسه وولداه

فابتسم قائلاً : وهل نسي المحترش الأبله انه وارث ابيه ؟

– اسقه كأساً من الخمر ينسى كل شيء . لقد رأيتــه ينظر الينا نظرا الأزدراء وهو يثني على قصي .

– وكيف يساعد حليل صهره ، وهذه المساعدة تقيله عن العرش ؟

– ان لم يفعل اليوم فعل غداً ، وحبى من وراء زوجها تمهد له الأسباب .

قال : تلك ظنون لا اصدّقها يابني .

– اقسم لك يا مولاي ، انها حكاية صحيحة لا اشك فيها .

قال : أتعرف الغيب يا زياد ؟

– لا ، ولكن اسمع ما يخبرني اياه غلمان قصر حليل .

فدهش قائلاً : ماذا تقول ؟

– اقول ان غلاماً في قصر حليل ، نقل اليّ حديث المحترش السكران مع ابيه ، وحبى وقصي حاضران .

– ولكني لا اعلم شيئاً من ذلك .

– ستعلمه الآن . كان المحترش يقول لأبيــه . سأنزل لأبن كلاب عن حقي في ولاية البيت ، ولا ادع خزاعياً يبلغ غايته منها .

– وبعد ذلك ؟

– وكان ابوه يقول : لا يجلس أحــد في مقعد الحجابة وانا حي ، فاذا مت فاصنعوا ما تشاؤون ، وقد يموت حليل غــداً يامولاي ، بطعنة رمح او بضربة سيف ، فيلبس المحترش حــلة الولاية ، ثم يخلعها على صهره فتسود كنانة مكة ، ويصبح اهل الشعاب سادة لنا ، نخضع لهم ونحني امامهم الرؤوس.

فجعل يردد كلمة حليل . اصنعوا ما تشاؤون . ثم قال :

١

أيقولها ابن حبشية ولا يبالي ؟

– نعم وكان عليه ان يقول : ساوصي بها لقومي . ليعلم ابن كلاب الطامع ، ان الحجابة لا تكون من بعده الا لعشيرته .

فأخذ يعبث بشعر لحيته وهو ساكت . فقال زياد :

ماذا رأيت يا مولاي ؟

– أرى ان تعمد الى واحد من أمرين . إما ان تزف ليلى الى صفوان ، فيكون رسول خير بينك وبين قصي ، كما كان يقول عبدالله . واما ان تكون صريحاً فتذكر له كل شيء وتحرمه ليلى . ولكن أتغمط النعمة يا بني ، وتعاقب البريء بذنب المجرم ؟

قال : لقد اتهمني بوفائي يا مولاي ، وانا لا استحق ذلك ، اني احب صفوان ويعجبني كريم خلقه . ولكني لا اطيق ان ازوجه ، ثم اشهر السيف على قومه عقيب ذلك الزواج . أجـل ، لم يبق إلّا ان يشحذ بنو صوفة سلاحهم ويتهيأوا للقتال ، فالشرك الذي ينصبونه لنا لا نريد ان نقع فيه .

قال : زوّجه يابني ، فيطرح سيفه بين يديك .

ألم تسمع انه عاهد قصياً على الطاعة ، واقسم له يمين الاخلاص ؟

ولكنه يحب ليلى فلا يخون اباها .

قال : أتريد ان نسأله الآن ؟

أتسأل الشريف الأبي عن مثل هذا ؟

قال : اذكر له قصياً وليلى فليختر احدهما .

لنفرض انه اختار الاول فماذا تصنع ؟

– اذا فعل جعلت موعد الزواج بعد ان تنتهي الحرب بيننا وبين قومه .

قال : ما رأيت موعداً اغرب منه ورب الكعبة . ومع ذلك فقد وعـدته الى يوم يقتل جبير .

قال : ثق يا مولاي اني لا اعلم ماذا افعل .

اما انا فاني اعلم ، اخرج الان وحدثه بما تشاء عن قصي حتى تقرأ سره .

– ومتى قرأت هذا السر ؟

– تبوح له انت بكل شيء فالصراحة خير ما تلجأ اليه؛ثم ترى بعد ذلك ما يبدو منه ولكل حادث حديث .

– وانت ؟

– وانا اخرج ايضاً فاسمع كل شيء .ولكني خائف يا بني .

– مما تخاف يا مولاي ؟

– اخاف ان يدبّ اليأس في صدر ليلى فتسوء العاقبة .

فضحك قائلاً : ومن قال ان ليلى برّح بها الحب

– انا وقد يصرعها ان لم تتدبر الامر .

– أتظن ؟

– بل اعتقد ولو كان عبدالله حياً لوصف لك غرام الاثنين .

قال : اذا ذكرت ليلى قومها واباها نسيت هواها .

قال : انصح لك بأن ترفق بالقلوب العاشقة فليس في العالم سلطان اقوى من سلطان الغرام . قم الان .

وتقدم الشيخ ولده الى الدهليز وقد اشرق وجه زياد .

غير ان آثار الدمع لا تزول في ساعة . فقد رأى الاثنان تلك الاثار على خدود العاشقين وفي الجفون . وكان ذلك دليلاً على ما جرى في ذلك الاجتماع القصير

* * *

– ٤ –

جلس زياد بالقرب من صفوان وهو يبتسم له . والفتى ينظر اليه برصانة وهـدوء وهو يعبث بعمامته . فلم تستطع ليلى تجاه ذلك المظهر الجديد ، الا ان تبتسم بدورها ، لجدها الضاحك . وابيها الزاهي الجبين . ان تلك الابتسامة ، التي لا معنى لها ولا لون على ثغر زياد ، اعادت الامل الضائع الى القلب اليائس الحزين .

وكان طلحة في الدهليز ، يضع المسك في وعـائه ويرسل نظره من حين الى

حين الى تلك العمامة الخضراء التي يضعها صفوان على ركبتيه ، وهو مضطرب كثير التفكير . انها تلك العمامة التي كانت تغطي وجه جبير بن عبادة وهو ذاهب الى الوادي .

لكن العمائم تتشابه وليس لطلحة عذر في ان يظن الظنون .

وبعد ان استوى زياد في مقعده ، اومأ الى غلامه بالانصراف ووضع يده على كتف صفوان قائلاً له :

أتأذن لي ان اسألك سؤالاً قبل ان نعود الى ذكر الزواج .

قال : للأمير ان يسأل عما يشاء !

قال : خبرني من هو قصي بن كلاب .

فنسي الفتى انه يخاطب ابا ليلى ، بل كاد ينسى غرامه . ولم يذكر في تلك الساعة غير عزة نفسه وعز قومه . ان لهجة زياد لهجة مستهزيء ، وسؤاله عن قصي سؤال سيد مسلط عن عبد ذليل يخضع له ، فقال : هو قصي بن كلاب يامولاي .

قال : اسألك عن شأنه في كنانة .

قال : شأن الزعيم الذي يضحك قومه اذا ضحك ، ويغضبون اذا غضب .

– ومتى بلغ هذا المقام الذي تذكر ؟

– بعد رجوعه من الشام كما رأيت .

– ولكن للزعامة في العرب شروطاً يا صفوان .

– اذكر بعضها يا مولاي .

– بل اذكرها كلها فترى من هو صاحبك .

– قل يا مولاي ولا تنس شيئاً .

قال : ان يكون الزعيم ذا مال يطعم جياع عشيرته ، ويحسن الى فقرائها وصعاليكها ، ويصل سادتها وأبطالها .

– والشروط الأخرى ؟

– وان يكون بعيد الصوت بين القبائل ، وليس في قومه من هو اطول سيفاً منه .

– وهل بقي شيء ؟

– بقي ان يكون له الرأي الذي لا يعدل عنه ليطيعه الناس .

قال: اما المال فقصي ليس عنده منه درهم ليطعم جياع قومه اذا وجد في كنانة جياع . واما إسمه فيكاد ان لا يكون معروفاً بين احياء العرب في الحجاز .

– وكيف جعلتموه سيداً وانتم عبيد له ؟

– لا اعلم يا مولاي . فما هو الا ان قدم من الشام حتى اصبح امر الشعاب في يده كأنه ورث الزعامة فيها منذ جيل .

– ولكنك لم تقل كلمة عن خبرته في ضرب السيف ؟

فقال في نفسه : يريد زياد ان يستطلع الاسرار .

ثم قال : لم أرقصياً منذ رأيته يحمل سيفاً . ان رعاة النوق يا مولاي يتعلمون الرمي ويتركون السيف وقصي منهم .

– اذن فهو صاحب راي .

قال : اما الرأي فليس في شيوخ الحجاز ورؤسائه من يجاريه فيه ، ولولاه لما كان في الشعاب من يسأل عنه .

فجعل يقول : وهذا وحده لا يكفي ليسود قصياً . ومع ذلك فانا اسألك سؤالا آخر .

– هات يا مولاي .

– من دله على حبى ابنة سادن الكعبة ؟

– ذلك ما لا استطيع ان اقول لك شيئاً عنه . كنت أراه يزور سادن الكعبة في قصره ولا اسأله عن ذلك . ولكني عرفت من احدهم انه رأى حبى فأحبها ثم طلبها من ابيها فزوجه اياها دون ان يتردد في الأمر ودون ان يشترط عليه في ذلك .

فقال لأبيه : يريد ابن الحارث ان يقول ان زياداً قد اشترط . وماذا يفعل قصي بعد زواجه يا صفوان ؟

– يستوي في مقعد الرياسة حتى تأتي ساعته .

ولكن سمعنا ان هذا المقعد في الشعاب لا يرضيه .

- وماذا يطلب سواه ؟

- المقعد الكبير الذي يشبه العرش .

- أراك تعني حجابة البيت يا مولاي ؟

- نعم ، فمولاك يطمع فيها ولا يرضى الا بأن يخضع امراء الحجـاز جميعهم لسلطانه ..

فاصفرّ وجه صفوان ، ثم رأى ان يخفي ذلـك الاصفرار بالقليل من الجد ، فقال وقد ارتفع صوته :

انها رواية عجوز من عجائز بني بكر . هب ان ابن كلاب يطمع بما ذكرت ، افيبوح بهذا السر لمن حوله وانا لا اعلم ؟

- ومن قال لك انه باح به ؟

قال : اذا كان ذلك صحيحاً ولم يبح به لأحد ، فانت يامولاي من الانبياء .

قال : يكفي ان تعلم ان القضاء فضح سره فعرفناه .

- اما انا فلا اتردد في القول ان هذا القضاء كاذب لا صحة لأخباره .

قال : وانا ارجو ان يكون كاذباً حتى ..

ووقفت تلك الكلمة في حلقه فلم تخرج .

فقال : حتى ماذا يا مولاي ؟

حتى لا تحمل السيف دفاعاً عن الكرامات .

فدهش قائلاً : لنفرض ان ابن حبشية اعطى صهره حجابة البيت، أفتكون مطيته انتها كاً لحرمة العشيرة ؟

نعم .

قالها ثم قطب حاجبيه .

فقدحت عينا صفوان شرراً وابصرت ليلى ذلك الشرر .

فحجبت وجهها بكفيها كي لا تراه ، ثم قال : في اي شيء تهان كرامتها يا مولاي ؟

- ان الحجابة لا تكون الا لسلالة قحطان .
- ومن جعل لهذه السلالة هذا الحق ؟
فأشار الى سيف معلق في الدهليز وقال : هذا ..
فوجه صفوان نظره الى ليلى فاذا هي تشير عليه بالسكوت
فعض على شفتيه ولم يقل كلمة .
قال : ماذا رأيت ؟
قال : نحن أصحاب مكة يا مولاي ، ونكاد نكون فيها غرباء ..
فضحك قائلاً : ذلك هو حكم الزمان ..
- ولكن أخشى ان يدور هذا الزمان فيبطل حكمه .. وضحك مثله .
فقال : اصبت، وقصي بن كلاب هو الذي يدفعه فيدور. ان صاحبك اضعف من ذلك يا بني ..
- اما قومه فأقوياء ..
وظهر الغضب في عينيه ..
فأطفأت ليلى ناره بنظرة قصيرة حادة كما فعلت في المرة الاولى .
ولكن تلك النار التي خمدت في العينين كانت تستعر في الصدر .. ان زياداً يستخف باهل الشعاب وهذا ما لا يرضاه ..
فقال زياد : يخيل اليّ ان الحرب ستدور رحاها بيننا وبين قومك يوم يخرج قصي من عزلته ..
قال : والحرب محك الرجال يا مولاي . والآن فقل لي أتحارب بني كنانة لأن سيدهم اصبح صهراً لحاجب البيت ..؟
بل نحاربه عندما يمد يده الى الحق الذي ذكرت ..
قال أتطمع ايها الأمير فيما يطمع قصي ؟
فسكت قليلاً ثم قال : اما الآن فلا اطمع بسدانة الكعبة لنفسي .
- وبعد الآن ؟
- ننظر في الأمر .

- اذن لا نستطيع ان ننظر الآن فيه من الناحية الأخرى .

- وكيف ذلك ؟

قال : هب ان قصياً اراد السدانة لنفسه ، وانت ليس لك فيهـا مطمع كما تقول ، أفلا يجوز ان تضع يدك بيده وتكون عوناً له على بلوغ الغاية ، فيعترف لك بهذا الفضل ويسلم اليك ما تشاء من شؤون الحجاز ؟

قال : توارث اجدادي امـارة النفر حتى انتهت الى أبي ثم اليّ ، أفتريد ان ينزع عليّ صاحبك بما هو ملك يدي ؟

قال : سيكون لك غيرها يا مولاي .

فقال في نفسه : اردت ان أقترح عليه هذا فسبقني اليه ..

ثم قال : حسبي يا بني ان اكون امير صوفة ..

- وما يمنعك من ان تكون سيد الموسم ؟

- ان زياد بن كعب لا يخون قومه ..

وعندئذٍ أومأ ابو زياد الى ليلى بالانصراف .

ففعلت وهي مترددة ... خائفة .. مضطربة القلب .. وبين الدهليز جدار من الطين فيه نافذة مستديرة عالية تسمع منها ما يدور من الاحاديث بين الثلاثة كأنها حاضرة .

واذا جدهـا يقول لصفوان : انك تحب ليلى يا بني كما تحب صنم العشيرة الناس كذلك ؟

نعم وكما أحب زياداً وابا زياد ..

ونحن الاثنين لا نجد في مكة صهراً خيراً منك.. ولكن ماذا تفعل يا بني اذا احتكمت العشيرتان الى السيف في آخر الأمر ؟

فلبث ساكتاً ..

فقال : لا تتردد في الجواب يا صفوان . ان ليلى ليست معنا ونحن وحدنا في هذا الدهليز لا يسمعنا احد ..

قال : وماذا تريد ان نفعل يا مولاي ؟

قال : أنزوجك ليلى اليوم ، ثم تنصرف غداً لتشهر السيف علينا تحت لواء قصي بن كلاب ؟

مسكين صفوان . ان الكلمات التي يقولها الشيخ كلمات ناعمة هادئة ليس فيها ما يجرح كبرياءه او يمس عزة نفسه . بل هي كلمات موزونة يجب ان يقبلها او يردها تمثل ذلك الهدوء اذا استطاع .. أيقول للاميرين ، سأكسر السيف عندما أتزوج ليلى ، وفي هذا القول خيانة وضعف ؛ ام يقول لهما سأتزوجها ثم أحمل رمحي فأطعن به أباها وجدها واحارب قومها حتى يظفر قصي ؟ .. انه موقف خانته فيه ذاكرته وذهنه ، فلا يعلم ماذا يقول .. وقد اطرق كأنه لم يسمع صوت أبي زياد .

فقال : ماذا يا صفوان ؟

فخطر له خاطر فقال :

أليس حليل بن حبشية امير الناس كلهم في الحجاز ؟

- بلى .

- أيعلم ان صهره سيمد يده إلى سدانة الكعبة ؟

- نعم يعلم .

- اذن كيف يرضى بان يزوجه حبى فتخرج السدانة من قومه ؟

- لانه يريد ان تبقى الولاية لأهل بيته ، لقد رأى ان المحترش غير اهل لهذا ، فآثر ابنته على جميع من حوله ..

قال : لتمنع العشيرة هذا الزواج .

- لا تستطيع ان تفعل لأنها لا ترى شيئاً ..

ثم قال : أريد الآن ان اعلم أتؤثر قصياً على ليلى ام ماذا ؟ قل الآن ..

فرفع رأسه قائلاً : كلاهما عزيز عليّ يا مولاي .

- ولكن هذا وحده لا يكفي ، ان الموقف يحتاج الى اختيار واحد من الاثنين ..

قال : نفس عزيزة وقلب خفاق .. اختار الاثنين يامولاي لقلبي ونفسي !

قال : ان اهل الشعاب يحبونك وهم يعرفون أباك

– قد يكون ذلك .

– وليس في مكة كلها من يضمر لك شراً غير جبير بن عبادة ، فلماذا تقذف بنفسك الى أتون النار وراء ابن كلاب وانت قـــادر بدونه ان ترتفع الى ذروة المجـد ...؟

قال : اني لا أطلب مجداً .

– وماذا تطلب اذن ؟

– اخدم بني قومي كما اخدم الغريب . وابني لعشيرتي بيتـاً أضع اسمه في الجوزاء اذا استطعت ..

– ليكن هذا البيت لك وحدك يابني .

– ان البيت الذي بناه لي ابي لا استحقه ..

فعادت ليلى الى البكاء. لقد عرفت ان هذا الاباء الذي يظهره صفوان سيسلبها اياه. وان ذلك الغرام الذي يخفق في الصدر سيضيعه الشرف. ولولا ذلك اليأس القاتل الذي تغلل في نفسها لتاهت عجباً بذلك الحبيب الذي يؤثر وفاءه عـــلى غرامه .. ويطرح قلبه على قدمي قصي زعيم عشيرته .

ومدت عنقها تصغى الى الجماعة .. وكان ابو زياد يقول :

نحن لا نطلب اليك يا صفوان ان تخون قومك .

كما انك لاتطلب الي ان اكون وفياً لهم .

قال : نسألك ان تعتزل قتالنا ، انت ومن حولك ، يوم يشهر السيف ، لأننا نكره ان نقاتل صهرنا ونلقي بابنتنا الى الهوة .

– وانا اسألك واسأل مولاي زياداً ان تعتزلا حربنا – اذا استعرت نارها – لأن الموت خير لي من ان اجرد سيفى في وجه ابي وجدي .

فنظر الشيخ الى ولده ، فقال :

اني لا اطيق ان أرى ذلك الكناني الجائع ينشر ظله فوق الكعبة .

– ارجو منك يا مولاي ان تكف عن هذا ، ، فابن كلاب يملك من المال ما

يملأ بيت العرب ..

– نعم وقد اصاب ذلك المال في الغزو الذي قام به ..

قال : حسبه انه يعطي قومه ولا يحتاج الى احد .

– بل اعطيتموه ثم جعلتموه سيداً لكم .

فزفرت ليلى ، على الرغم منها زفرةً سمعها صفوان ، فتلجلج صوته وهو يقول : مولاي ، الا اكون ولداً لك اذا زوجتني ؟

– نعم .

قال : واني اضمن ان يكون قصي لك ولداً فماذا تريد بعد ؟

– لا اريد ان اضم اليّ هذا الولد الذي يستخف بابيه .

قال : لقد خسرت رجلاً هو خير من عرفت من الرجال ..

– بل خسر هذا الرجل نفسه كما سترى .

قال : بقيت لي يا مولاي كلمة كنت اوثر ان لا اقولها ولا اذكرها عمري كله ..

– ما هي ؟

ألم تقل لي يوم دعاني عبدالله اليك انك ستجزيني على صنيعي ؟

– بلى واقول لك ذلك الآن !

– وكنت تقول يا مولاي اني لو سألتك ان تجود علي بدمك لما بخلت به ، أليس كذلك ؟

– بلى الا ان تسألني الرفق بقصي والسكوت عنه فهذا ما لا افعله ولو قتلت.

فهمّ بان يقول له : سأسأل قصياً ان يرفق بك يا زياد بن كعب .. ولكنه لم يشأ ان يسمع زفرةً أخرى من زفرات ليلى فقال : اطلب من امير صوفة ان يجعل ابنته ليلى جزاء لي .

قال : اتطلب شيئاً غير هذا ؟

– اجل ، اطلب ان تشترط ما شئت الا ان اخون قصياً فهذا ما لا افعله ..

قال : زوجتك على شرطين اثنين .

- لقد كثرت هذه الشروط وكانت واحداً.. اذكر الشرط الثاني يا مولاي
لقد عرفت الأول وهو قتل ابن عبادة !

– اما الثاني فالحرب التي ذكرت .

– اي الحرب بينك وبين قصي ؟

- نعم وهذا الزواج لا يتم قبل ان تنتهي !

فكاد الفتى ينسى أخلاقه وأدبه !. ان شروط زياد شروط طائشة جوفاً ليس لها وزن .. ! ولكن سلطان الحب أملى عليه الهدوء الى النهاية . فقال :
لقد عرفت الآن يا مولاي انك لا تريد ان تزوجني ليلى ..

- ومن دلك على ذلك ؟

– الحديث الذي اسمعه منك .. لنفرض ان قصياً لا يفكر في هذه الحرب التي تذكر ..!

– اما نحن فنفكّر فيها كما ترى !

– اذن ستكون البادىء يا مولاي .

– اجل ولا يستطيع امراء مكة الا ان يدافعوا عن الكرامة المهشمة .

– واذا مرت الاعوام والحرب باقية ؟

تصبر كما تصبر ليلى فالصبر خير ما تلجأ اليه .

قال : للحرب واحد من وجهين يا مولاي : إما ان تنتهي بصلح واما ان يظفر الواحد بآخر او يقتله . فأي وجه تشترط وجوده ؟

قال : اذا قتلت فليلى حلال لك !

فغطى رأسه بالعمامة وهمّ بالخروج ؛ فقال ابو زياد : أتنصرف الآن ياصفوان؟

- نعم وماذا اصنع في بيت يطردني صاحبه ؟!

قال : عدنا بانك تترك قصياً وخذ ليلى الآن ...!

فاجابه قائلاً : لم اكن نذلاً لينتصر غرامي على شرفي، اني باقٍ على عهد قصي حتى تقوم الساعة .

– وتنسى ليلى ؟؟

– اما ليلى فستظل صورتها في هذا الصدر حتى تفارقني الروح ... ومشى خطوتين يريد الذهاب ، فاستوقفه قائلا : أصديق انت ام عدو .

قال : سيثبت لكما وفائي عندما تدور رحى القتال .

– أتكون وفياً للعدوين المتحاربين في وقت واحد ؟

قال : سأبذل دمي في سبيل قومي على ان لا اشهر السيف في وجه زياد وهذا يكفي .

فأرخى زياد نظره الى الأرض ودم الخجل يصبغ وجهه . غير ان صفوان لم يره لأنه قال كلمته وهو في آخر الدهليز . كما انه لم يرَ تينك العينين السوداوين اللتين شيعتاه بالدموع .

* * *

رفع زياد رأسه يخاطب ليلى فقال : ليلى ، أتحبين صفوان كما يحبك ؟

فمسحت دموعها وهي تبتسم ابتسامة يأس .

فقال : لا احتاج الى جواب ، فقد قرأت دلائل هذا الحب . وانا احبُّه يا ابنتي كما تحبينه وليس في شباب مكة اعزّ عليّ منه !

فقطبت حاجبيها بعد ذلك الابتسام كأنها لاتريد ان يهزأ ابوها بغرامها كما هزأ بصفوان .

وعرف زياد ما يجول في ذلك الذهن المضطرب فقال : أقسم لـك اني أوثر هذا الكناني على جميع الفتيان ؛ فنظرت اليه قائلةً : اصبت يا مولاي فقد رأيت الآن بعيني مظاهر هذا الإيثار .

قال : أترين اني استطيع ان افعل غير ما فعلت ؟

– وماذا فعلت يا مولاي ؟ أتقول للفتى لست أهلاً لليلى ، وتطرده كأنه عدو ، ثم تقول انه احبّ الناس اليك ، فوضع يده على جبينها قائلاً : خير لك يا ابنتي ان تبكي غرامك عـاماً او عامين من ان تخسري هذا الغرام وتبكيه الى الأبد .

– لقد خسرته اليوم وانتهى الأمر .

قال : اذا كان صفوان بن الحارث صادقاً في حبه فانت لم تخسري شيئاً ، ألا تعلمين ان الحب نفسه أملى عليّ ما صنعت ؟

– بـــلى . واخشى ان يتمادى هذا الحب فيملي عليك بأن تأمر بضرب عنق صفوان اذا ذكر الزواج مرة اخرى .

فرأى زياد ان الحب يكاد يقتلها . فخفق فؤاده وهو يقول : أتشكين فيّ يا ليلى ؟

قالت : لقد نشأت في ظلك وكنت باراً بي يا مولاي حتى انسيتني امي ولم اشك فيك .

– والآن ؟

– والآن فانا اسلم اليك أمري وأضع قلبي بين يديك .. ولكن .. ولكن اعطيت صفوان حبي كله واخاف ان يصرعني البعد ، آه لو كنت اعلم يا ابي ما هو الغرام لآثرت عليه الموت . واسترسلت عندئذٍ في البكاء وقـــد أحست انها جاوزت الحدّ في ذلك الأعتراف ، فقال زياد والدمع في عينيه :

ان صفوان سيبقى لك يا ليلى ولكن أتريدين ان يتلوث شرف قومك وانت ابنة سيدهم ؟

– وكيف يتلوث هذا الشرف ؟

– ان ابن كلاب الذي يخضع لنا اليوم يريد ان يخضعنا بقوة السيف بعــد أيام !! وصفوان الذي وهب لك فؤاده يطيع ذلك الرجل الى حد انـــه يبذل دمه في سبيل رضاه .

قالت : الطاعة شيء والغرام شيء آخر يا مولاي.

– اجل ولكن طاعته تجرح ليلى وتهين آ ل كعب . أفلا يقول الناس في مكة ان ابن الحارث الكناني لم يتزوج ليلى ابنة زياد الا ليجرّد في وجه ابيها السيف؟ أفلا يقولون انه يستهين بزوجته حتى ليحارب اباها وقومه ولا يبالي ؟؟

فحنت رأسها لذلك البرهان البليغ الذي لا تستطيع ردّه .

أما هو فاستطرد قائلاً : وماذا يصنع عندئذٍ زياد بن كعب ؟ أيجمع صوفــة

ويمشي على رأسهم ليقتل صهره فيقتل الأمل الباقي في صدر ابنته ؟ ام يترك **مكة** ويعتزل الحرب فتقول العرب لقد فرّ امير صوفة من وجه عدوه كما يفرّ **الذليل** الجبان !! قولي يا ليلى ماذا تريدين ان اصنع في تلك الساعة ؟

فلم تجب ،

قال : أتضمنين سكوته اذا أمسيت زوجة له ؟

قالت : وهل يليق بالمرأة النبيلة ان تدعو زوجها الى الخيانة وهو من رؤساء الناس ؟

- اذن ماذا ؟

فنظرت الى جدها قائلة : لقد رأيت رأياً يا مولاي التمس قضاءه .

وغصت في البكاء .

قال : اذكريه .

– عدني يا مولاي انك تسمع لي .

فالتفتت الى زياد فاذا هو يبكي ، فقال : أعدك باسمك يا بني ؟

– افعل .

قال : ما هي حاجتك يا ليلى ، اني لأقضيها اذا لم تكن ذلاً .

قالت : ألا ترى ان بني خزاعة يملأون مكة ؟

– بلى .

– أليس فيهم من يطمع بحجابة البيت بعد حليل ؟

– كلهم اصحاب مطامع .

اذن ليغضب هؤلاء للعز الذي يهشمه قصي بن كلاب قبل ان يغضب بنو صوفة .

– ومعنى ذلك ؟

– معناه انهم اصحاب الحق الأول واحق بالدفاع .

– ونحن ؟

– اما نحن فلا نلجأ الى السيف إلا اذا أكرهنا اهل الشعاب على حمله .

- اي انك تريدين ان تتلاحم سيوف القوم ونحن ننظر الى الدم يهرق في الساحة ولا نمد اليه يداً .

- نعم يا مولاي إلا اذا مدّ ابن كلاب يده الى بني صوفة .

- وما هي الغاية من هذا ؟

فترددت في الجواب ، فقال زيـــاد : الغاية منه ان لا نلتقي نحن وصفوان في الجبال أليس كذلك ؟

- اجل فأنا اخشى ان يقتل احدكما الآخر .

وفي تلك اللحظة ، بينما يتردد في ذلك الأقتراح ويهمّ بابداء رأي آخر يرضي به ليلى ، اقبل غلامه طلحة قائلاً : بالباب ابو ضمرة الخزاعي ومعه رجلان.

فقال : لقد بدأ القوم يغضبون .. ادخلهم يا طلحة !

وكان ابو ضمرة سيداً عظيماً من سادات خزاعة له في العشيرة الكلمة الاولى والرأي الأول بعد حليل ! فدخل الثلاثة وابو ضمرة يقول لزياد :

لقد تعجلت في المجيء ايها الأمير ونحن بحاجة اليك .

فاجابه قائلاً : لقد انساني نفسي حديث سادن الكعبة فخرجت وانا لاألوي الى شيء .

قال : ولأجـــل ذلك الحديث قدمنا الآن . وجلسوا وليلى بينهم لا تترك الدهليز . ثم قال زياد : هات يا ابا ضمرة .

قال : جئت اسألك عما سمعت في قصر حاجب البيت .

- لقد سمعت انا ما سمعت انت فما رأيك ؟

- لقد أهان حليل قومه ونحن لا نرضى !!

فأراد ان يكتمه ما في صدره، فقال : لقد نظرت الى الأمر من ناحية واحدة ايها الامير كما نظرت انا ، وهذا هو الخطأ .

فجعل يتفرس فيه مستغرباً ؛ فقال : اجل وبعد القليل من التفكير عدت الى الصواب .

قال : اعمد الى الجلاء يازياد .

قال : سمعت ابن حبشية يقول : انه يريد ان يزوج حبى .

- نعم !

- ولا اعلم كيف يهين قومه بهذا الزواج !!

قال : لقد ردّ فتيان خزاعة ولم يردّ الغريب .

- انه حر في اختيار من يشاء من الفتيان زوجاً لابنته .

- ولكن هذا الزوج تعقبه امور يضيع معها الشرف .

قال : اضرب لي مثلاً !

قال : قد يخدع قصي بن كلاب حماه ؛ فيوصي له بسدانة الكعبة بعد موته ،

- أيفعل حليل ؟

- ان الذي يفعل الأولى يفعل الثانية .

- واذا حدث ما تظن ؟

- تشتعل النار في مكة وتنقض صواعق الحرب على الرؤوس .

- ولكن قل لي من يشعلها ؟

- اما انا فلا اطيق ان يجلس قصي في مقعد الحليل .

قال : هب ان الرجل لم يوص لاحد بحجابة البيت فمن هو الخزاعي الذي يخلفه ؟

فنظر ابو ضمرة الى جانبيه وهامسه قائلاً :

أنا !!

فمرت سحابة سوداء امام عيني زياد . ان أبا ضمرة يطمع في المنصب الاول في بلاده ، ويظهر رغبته في ذلك ولا يبالي !! أفيحمل السيف في سبيل الحجابة ليستغلها غيره ؟ انه اذن يبذل دمه ودماء قومه ليمهد لأبي ضمرة سبيل الصعود الى العرش ، وهذا هو الجنون .

وكاد يضيع رصانته وهدوءه لولا بقية دهاء في صدره اعاده الى هداه فقال .

وكيف نسيت ان لحليل ولداً ؟

قال : اذا ذكرت الرجال لا يبقى لهذا الولد الأبله ذكر . !

- أصبت ، فحدثني الآن بما تشاء !
- جئت استشيرك في الامر قبل حدوثه .
فاستند الامير الى وسادته قائلاً : لقد كنت احدث ابي بما ستحدثني الآن ، قل كيف تمنع الزواج وتبدأ الحرب .
- اما الزواج فلا استطيع ان امنعه الا اذا خرجت خزاعة على حليل وهذا ما لا نفعله اليوم .
- وبعد ذلك ؟
ننتظر وصية حليل فنجعلها سبباً للقتال .
فضحك قائلاً : أتنتظر شيئاً ليس له وجود الا في ذهنك ؟ ومن قال لك ان الرجل يفكر في وصيته وسيكتبها بعد حين ؟
- لقد قيل لي ذلك ..
- ولكني أحب ان اعرف القائل .
- حليل نفسه ، فقد أطلعني على سره وهو مريض .
- لقد فعل هذا وهو مريض ؛ اما الآن فقد نسي كل شيء ...
لم ينسَ شيئاً ، فالعلة في جسمه وقد تصرعه في هذه الايام او بعد .
- واذا أوصى للمحترش ؟
- أرسلنا اليه فتاة تسقيه الخمر ثم ننتزع الوصية منه .
- ثم تنحيه يا أبا ضمرة عن كرسيه وتجلس فوقه .
نعم ، وفي تلك الساعة نحتاج الى الرجال لان ابن كلاب سينتصر للفتى مع أهل الشعاب ،
- فاذا كتب له النصر استولى على الحجابة والا فانت خليفة حليل .
- أجل .
- وماذا تطلب اليّ الآن ؟
- أسألك ان تضع يدك بيدي لأبلغ الغاية .
فقال في نفسه : سأكسر هذه اليد قبل ان تمتد اليك . وقال له : سنعود الى

النظر في هذا الامر عندما تأتي ساعته .

– ولكن ارجو ان تعدني بأنك ستكون حليفاً لي .

فأجابه ابو زياد قائلا :

حسبك انه لن يكون حليفاً لغيرك .

فقام ابو ضمرة ولم يزد ، ثم خرج وهو يقول لرفيقه :

ان زياد بن كعب يريد ان يكون حاجباً .. !

* * *

قال زياد لابيه بعد خروجهم : ماذا رأيت يا مولاي ؟

– رأيت عيوناً كثيرة تنظر الى ذلك الباب الكبير الذي يدخل منه الحجاج الى بيت الآلهة .

– اي ان هناك امراء سبقونا الى التفكير فيه .

– وعلى أي امر عولت الآن ؟

– على قبول الرأي الذي اقترحته ليلى ، ان هذا السيف لا يجرّد من غمده في سبيل أحد .

فأشرق وجه ليلى لتلك الكلمة .. ان وجود أبي ضمرة في تلك الساعة أزال ذلك العداء الكامن في صدر زياد ؟ وقد قام في ذهنها ان أباها نسي قصياً وان صفوان اصبح لها بدون شرط . مسكينة ليلى . لقـــد استرسلت في الظنون واستسلمت الى الاحلام .

ان أباها الطامع بالسلطان ، لم يكن يطيق ان يشاركه احد في ذلك الطمع ، بــــل لم يكن يطيق ان يفكر رجل في مكة ، في الامر الذي يفكر فيه ! وذلك سر من الاسرار لا تعرفه ، فقالت : أتعتزل الحرب ؟

– أجل ، وسأجلس وراء هذه النافذة فأرى كيف تجول الخيل .،

فهمت بأن تسأله عن شروطه فعلقت كلمتها في الشفتين ..

فقال : قولي يا ابنتي ما تشائين ، فتمتمت قائلة : أريد ان أقول ان الشرط الثاني الذي ذكرته لصفوان لم يبق له وجود ؛ فضمها الى صـــدره وهو يقول :

مولاك ! وسأدعو صفوان بعد ساعة لأنقل اليه هذا .

وكأنه لم يشأ الا ان يفضح سره فقال : ان زياداً يستطيع ان يثأر بعبدالله دون ان يحتاج الى أحد والحرب التي ستستعر نارها لا تمنع الزواج .!

- ولكن ماذا ؟

- ولكني أردت ان أختبر حب الفتى فوضعت له شروطاً ...

فحاولت ان تجيب فاسكتها قائلا : لقد كثرت حوادث الطلاق في الحجاز الآن . وامير صوفة لا يريد ان يزف ابنته الى رجل يطلقها بعد شهر . قومي الآن . واكتمي صفوان ما ذكرت ، واستعيني بالصبر كما قلت ؛ فارتمت بين ذراعيه وهي تذرف دموع الفرح .

ونهض الشيخ وهو يقول لولده : أحسنت يا بني ، أحسنت ...

* * *

- ٥ -

كان زواج حبى وقصي ، مظهراً من مظاهر النفوذ والعز اللذين يتمتع بهما عبد الشعاب ، في كنانة .

وكانت خزاعة فريقين : هذا يدعو لابن كلاب وعروسه الاميرة الحسناء ، وهذا يضمر الشر للاثنين ، وينظر اليهما بعيون تتقد فيها نار الضغينة والحقد .

من هذا الفريق ، ابو ضمرة ومن حوله ، وزياد بن كعب وابناء قومه .

ولقد كان في الساحة اثنان لا ثالث لهما يطمعان في سدانة الكعبة ، هما قصي وزياد ؛ فخلق الزمان طامعاً آخر يفكر في القضاء على الرجلين ، هو ابو ضمرة المراعي !!

وقد يخلق طامعاً جديداً من خزاعة نفسها او من بني بكر ، يستهين بالحادثات في سبيل الحصول على ما اراد ، ويتخذ الحيلة او الغدر ، او الدهاء وسيلة لنيل بغيته .

تلك سنة لا يغيرها الدهر ، فأصحاب المطامع على اختلاف العصور يمشون

في طريق المجد فينتهي الطمع ببعضهم الى الخيبة ، ويرفع البعض الآخر الى القمة.

ولم يكن قصي يعرف أبا ضمرة ، بل لم يكن يعرف من اولئك الأمراء غير امير صوفة ، وانت تذكر ذلك اللقاء بين الاثنين ، في قصر حاجب البيت .

وقصي لا ينسى شيئاً مما يراه . ان زياداً جاهره بالعداوة عندما وقعت عليه عينه ، فليس من السهل ان يرضى عنه بعد ذلك الجفاء ومع ذلك فقد كان يبتسم للوجوه العابسة والعيون النارية ، ويرسل الى الناس جميعاً نظراته الساحرة ، التي استهوت قلب سادن الكعبة وقلب حبى وقلوب الجماعات من قبل .

وكان بنو كنانة يهتفون لسيدهم ولحليل ، ويطوفون على الخيل حول تلك الساحات الغاصة بالناس ، ويهزجون أهازيج الفرح والأستبشار ، ثم تنادوا وانصرفوا الى الميدان ، وهناك اطلقوا أعنة الخيل ، وجعلوا يروحون ويجيئون واصوات اناشيدهم تملأ الفضاء . وقد خرج العروسان ووراءهما الامراء يشهدون السباق ، ثم شاركوا الفرسان في اللعب بالقلوب النافرة ، والأيدي المضطربة التي ترتجف فيها الرماح .

إلا « حليل » فلم يخرج من قصره ، لأن المرض القاسي ما برح يجور عليه .

حتى غربت الشمس ، والناس – على عاداتهم – في الميدان الفسيح يتقاذفون برماح لا حراب فيها . وقد تعبوا وتعبت الخيل ، فانصرف بنو كنانة الى الشعاب يحملون سيدتهم الجديدة وجواريها في الهوادج ، ويحملون زعيمهم الاكبر على الاكتاف .

وفي ذلك اليوم ، بدأ قصي حياته الجديدة التي ملأها مفاخر وامجاداً .

***

لقد جعلت العرب جبل السراة قاعدة لتقسيم الجزيرة .

والسراة سلسلة جبال تمتد من اليمين شمالاً ولا تنتهي إلا في أطراف بادية الشام ، فتكون الجزيرة ، في ذلك الحد الطبيعي ، شطرين كبيرين ، من الغرب ومن الشرق .

اما الشطر الشرقي فاكبرهما،وهو ينتهي شرقاً عند حدود العراق وقد سموه نجداً ، والشطر الآخر المنحدر من سفح ذلك الجبل الى شاطىء البحر الأحمر سموه الغور او تهامة ، وسمّوا الجبل الفاصل بين تهامة ونجد ، الحجاز ، والحجاز جبال فيها المدن والقرى كما رأيت .

امـــا القسم الذي يقع في الجنوب ، وراء الحجاز ونجد ، فسموه اليمن ، وحضرموت ، والشحر ، وذلك من قديم الزمان .

* * *

ان يزيد بن ربيعة اليوم ، في الغور ، في تهـامة . وهو يبحث فيها عن قاتل أبيه الذي هو قـاتل عبدالله . ولكنه مسكين ! أرأيت ثائراً يطلب بدم أبيه وهو لا يعرف البلد الذي يقيم به ولم ير لمن يطلبه وجهاً ؟. انها خطيئة لا يغتفرها العقل ليزيد ..

اجل كان العربي يطلب عدوه ولو احتجب في السحب ولكل بعد ان ينسى ذلك العدو ضحيته وينصرف الى عمـــله او يستسلم الى لهوه . وبعد ان يستعين الثائر الذي لا يعرفه ، بمن يرشده اليه .

أمـــا يزيد فلم يستعن باحد كما قرأت الا بجرأة غريبة لا تقف عند حد ، وبشيء من الدهاء لا يكفيه ..

والجرأة في مثل هذه المواقف تضيّع الرجال ؛ أضف الى ذلك ، ان جبير بن عبادة لم يكن مثل زملائه المجرمين الذين يحفظون حياتهم بالفرار ..

كان خائفاً لا يعرف الراحة وساهراً لا ينام الليل ويقظان لا يغفل عن شيء الى حد انه كان يعمد الى سيفه عندما يسمع دبيب النمل . والى جانبـه رجل كالزئبق .. عيناه عينا ذئب . وقلبه قلب نمر ، وحكته حكة الحية .. ويداه ، من العشرين الى السبعين ، ملطختان بالدمـــاء، هو عدوان اليمني !. فليس من الطبيعي اذن ان يظفر يزيد الغريب الذي نشأ في الشام ، بالرجلين المجرمـــين اللذين يقيسان أرض العرب بالذراع ، ولهما في كل بلد اشيـــاع وانصار يفدونهما

بالمهج ؛ بل ليس من الطبيعي ان يضع الفتى يده على قاتل ابيه وعينا القاتل تنظران الى مكة لتتبينا الوجوه ..

وعدوان حي ، يقرأ ما في الفضاء ، ويهزأ بالسماء .

* * *

لم يجد يزيد ، عبد اللات بن حارثة . وعمر بن الأسود ، رسولي زياد ، في تهامة .. وقد سأل عنهما كثيراً فلم يقل له احد انه رآهما وهما اللذان تعرفهما جميع الاحياء ؛ ان الاثنين مرا بذلك البلد الذي وصل اليه عند غروب الشمس .

وجعل القوم يسألونه عن أصله وفصله فيقول:انا من الشام وقد جئت اطوف في جزيرة العرب باحثاً عن عمل اقوم به .. والناس يصدقونه ، فمظهره ، ولهجته يدلان عليه ، وأهل ذلك البلد ، مثل جميع اخوانهم العرب ، يرحبون بضيفهم ويفتحون صدورهم للغريب النازل بينهم ، قياماً بتلك العادات النبيلة المعروفة في الجزيرة وخدمةً لانفسهم ، فيما يشترون من ذلك الغريب وفيما يبيعون .

وجعل يزيد بدوره ، يسأل عن التمر والصوف والمسك ، في ذلك البلد ، كأنه تاجر يستبضع هذه الصنوف . وقد أملى عليه الدهاء ان لا يسأل عن جبير خوفاً من ان يثير الظنون ؛ لكنه كان يبحث بين تلك الجماعات ، عن رجل يجعله موضع ثقته ، ويفضي اليه بما في نفسه .! كأن السر العظيم الذي يحمله في صدره لا يستطيع ان يحمله وحده ، أو كأنه لا يقدر ان يصارع الافكار الكثيرة التي تجول في رأسه ..

وهكذا لا تراه هادئاً مطمئناً ، حتى تراه أبله قليل الجلد تبوح عيناه بما في القلب من اضطراب ؛ حتى وقعت عينه على فتى لا يجاوز العشرين : ضعيف الجسم غائر العينين ، يدل اصفرار وجهه على الألم الكامن في صدره ، والكآبة البادية على جبينه تنطق بما يحس من مرارة وهم ؛ وقد اضطجع على الرمل وراء الساحة ، كأن الاحاديث التي تدور حوله لا تستحق نظرة واحدة منه ؛ فخفق

لواء يزيد، وجذبته تلك الكآبة الى الرجل ثم أصبح ذلك الخفقان اضطراباً لأن الفتى كان يشبه أخاه !

ومشى بضع خطوات كأنه لا يراه ، ثم جلس بالقرب منه وهو يقول للناس بصوته الهادىء ولهجته العذبة : سننظر بعد يومين في الاشياء التي تعرضون ...

ومكث ساعة لا يقول كلمة ولا يلتفت الى أحد ؛ فانصرف بعضهم، وتفرق البعض الآخر في دلك الحي ، وذلك الفتى يعبث بعباءته البالية ؛ فقـــال له : اأتأذن لي ان أسألك سؤالاً ؟

فابتسم قائلاً : سل ما تشاء .

قال : يخيل اليّ انك مثل غريب عن هذا البلد .

- لا بل ولدت فيه ونشأت تحت سمائه .

- وممن انت ؟

- من بني بجيلة اصحــاب هــذه البيوت ، وأومـــأ الى طائفة من الخيام مضروبة وراءه .

واسمك ؟

موسى بن حبيب .

- وهل ابوك حي ؟

- ان ابي وامي لا يموتان لأن الشقاء لا يموت ..

قال : لقد ملك اليأس عليك امرك كما أرى .

- اجل وخلق الشؤم يوم خلقت ..

قال : ارجو منك باسم هذا الشؤم ان تقص عليّ ماضيك .

وانا ارجو منك ان تفر مني كما تفر من الموت ..

بـــل ألج في طلبي ولا ارجع عنه ؛ فتنهد قائلاً لقد كان ابي من اشراف قومه وسادتهم وله في حيه والاحياء الاخرى الصوت المسموع ..

وانا أرى نور ذلك الشرف يشع في عينيك ..

فقال ولم يبالِ بمـــا سمع : وقد تزوج عشر نساء ولدن له اثنتي عشرة بنتاً ولم

يرزق ولداً ذكراً .

– وجميعهن في هذا الحيّ ؟

– نعم ولكن تحت التراب !

قال : ماذا ؟

قال : لقد قتلهن جميعاً ، في شهرهن الأول ، ثم سأل آلهتــه ان تهب له ولداً ولو كان شؤماً عليه وعلى قومه ، فكنت انا ذلك الولد الذي قذفته الآلهة الى هذا الوجود .

فضحك يزيد .

فقال : اخشى ان يعقب البكاء هذا الضحك .

قال : انك تشبه اخاً لي قتلته الحرب .

قال : لو بقي حياً لكان مثلي ، أتريد ان تسمع ايضاً .

– نعم فاذكر حكايتك كلها ، ثم أذكر حكايتي .

قال : ولدت في ليلة غزتنا فيها جموع بني مازن .

– اذن ولدت في الميدان .

– وفي الصباح ماتت امي،وأبي يسترجع نوقه التي ساقها القوم وقد فقد منها النصف . !

– ثم ماذا ؟

– وكان لي عم هشمته السيوف فحملوا اشلاءه ودفنوهـــا في الموضع الذي ولدت فيه ، كأنهم ارادوا ان يغمسوا قدميّ في الدماء . !!

قال : أنها حكاية غريبة يا موسى .

– وأغرب من هـــذا كله ان المراضع اللواتي جعلوني بين ايديهن طواهن الردى ، الواحدة بعد الاخرى ، حتى جاوزت العامين ، فضمني أبي إليه وكان قد استعاد ما خسره من النوق .

– وماذا جرى بعد ذلك ؟

– سكت الدهر بعـــد ذلك خمسة عشر عاماً لايرسل سهامه ولا يجفو حتى

بلغت السابعة عشرة ، وابي لا يأذن لي في الخروج من الحيّ خوفاً على مواشيه !
ـ أكان يؤمن بهذا الشؤم ؟
ـ نعم ! وانا لا اعلم لماذا يمنعني من الخروج الى البرّ ، فلما كان شتاء السنة الثامنة عشرة من عمري ، لحقت بابي الى المرعى وأنا أقول له : أتجعلني في البيت عمري كله يا مولاي؟فنظر اليّ والدموع تجول في عينيه ثم قال فعلت هذا لأترك لك من بعدي شيئاً تستعين به على الدهر ،انك شؤم على نفسك،وعلى أبيك، وعلى القوم.
قلت : وكيف ذلك .
قال : تلك ارادة الآلهة فلا تسألني شيئاً بعد .
وسكت موسى ويده على رأسه .
فقال يزيد هات ايها الرفيق.
قال : ألا يكفيك ما سمعت ؟ خذ ايضاً : ألم يذكر لك أحد شيئاً عن ذلك الوباء الغريب الذي ظهر في هذه الارض ؟
- واي وباء هذا ؟
قال : في ذلك الشتاء نفسه ، أي منذ سنوات ثلاث ظهر في بجيلة وباء أفنى معظم دوابها ، ولكنه لم يبق لأبي ناقة واحدة تحمله وتحمل زاده الى بلد آخر .. !
ـ وماذا صنع أبوك
وما عساه ان يصنع ؟ وضع رأسه على حجر في الناحية الأخرى من الحي ثم نام !! وهو نائم الى الآن !
فتمتم ابن ربيعة قائلاً : مسكين انت يا موسى .
واي مسكين . ! فأنا من ذلك الحين لا أملك شيئاً ، والقوم يحولون وجوههم عني وأنا احول عنهم وجهي .
وكيف تعيش ؟
يجود عليّ القوم بخبزهم ويطرحونه لي كما يطرحونه للكلاب .
قال : اصبت فهكذا يعيش الخاملون .
فجعل يحدّق اليه والابتسامة القاسية على شفتيه .

أما يزيد فاستطرد قائلاً : أترضى بالخبز يطرح لك وانت في زهرة عمرك وقد وفرت الخيرات في الجزيرة الواسعة الارجاء ؟

قال : أتريد ان احيا ليموت غيري ؟ اني أخفي وجهي في ثوبي خوفاً من ان تقع عليه عيون الناس ؛ ولو لم اكن جباناً لأغمدت هذا الخنجر في صدري ونمت الى الأبد كما ينام ابي .

قال : الموت خير من هذا ورب الكعبة ،

فأشرق جبينه وقال : أقادم انت من مكة ؟

– نعم .

– وفي اي بلد ينتهي سفرك ؟

– لا اعلم فقد اعود الى مكة ثم ارحل الى نجد .

قال : لقد ذكرت الموت الآن فأسألك بحق البيت الذي تحجه العرب ان تكون رسوله . !

قال : ويلك أأكون رسول الموت ؟

– وما الذي يمنعك من ذلك وانا أستغيث بك والتمس هذا منك .

قال : ما كنت قط جلاداً . انك في مقتبل شبابك وستحيا .

قال : اسأل قومي ان يقضوا عليّ فلا أسمع جواباً لسؤالي . وأسأل الغريب ان يفعل فلا يرضى .

– أليس لك عدوّ !

– الناس كلهم اعدائي ولا عدوّ لي !

– وبنو مازن الغزاة ؟

– عندما أصبحت قادراً على حمل السيف نسي هؤلاء الغزو كما نسيه قومنا وتداعى الفريقان الى الصلح . ولولا ذلك لوقفت في وجه الغازي حتى تدوس حوافر الخيل فأستريح .

ثم جعل يعيد قوله : لو لم اكن جباناً لقتلت نفسي من ثلاثة اعوام .

– بل لو لم تكن أجبن من رأيت لتركت هذا البلد الذي لم تبصر فيه غير

الذل والموت .
قال : لقد فكرت في الرحيل اكثر من مرة ولكني لم اجسر عليه ..!
قال : ما رأيت احداً يخشى الذي تخشاه يا ابن حبيب .
- كما انك لم ترَ احداً في مثل هذا الشقاء .
- وما الذي تخافه من رحيلك ؟
قال : لا مال عندي احمله الى بلد آخر .
قال : يجعلك احدهم راعياً لنوقه فترفع هذا الرأس الذي حنته الاقدار .
- واذا سار الوباء خلفي وأفنى ما أرعاه ..؟
- يقتلونك وينتهي الأمر .
قال : اصبت فقد ذهلت عن هذا .
اذن رضيت بالسفر الآن ؟
أأسافر معك ؟
نعم !
الى أين ؟
قلت لك لا اعلم الآن .
ولكن لي كلمة قبل ان نتفق .
ما هي ؟
- هي ان تخبرني من انت، ثم انصح لك للمرة الأخيرة ان تتركني فقد تنقض عليك صواعق السماء وانا معك !!

فدبت قشعريرة الخوف في جسم يزيد . ولكنه استطاع ان يغلب خوفه بهذه الجرأة الغريبة التي يقل وجود مثلها في قلب رجل ثم قال :

لتنقضّ هذه الصواعق فلا ابالي ، فتفجر الدمع من عينيه وهو يقول : هذه يدي امدّها اليك واعاهدك على الوفاء .
قال : وتقسم لي يا موسى انك صادق في ما تقول .
اقسم لك ان حياتي هي لك منذ الآن .

– وما الذي دعاك الى هذا الاخلاص ؟
– العطف الذي رأيته منك ، فأنا لم ار َقط صديقاً ، ولم اسمع قـط حديثاً عذباً مثل هذا الحديث .

قال : أليس لك بيت في هذا الحي ؟

فأشار الى خيمة في الخلاء مفتوحة الجوانب وقال : هـــذا بيتي فأي غرض لك به ؟

– نبيت فيه ثم اقصّ عليك كل شيء .
– انك لا تجد فيه فراشاً الا الرمال .
– والرمال في نظري خير من وسائد الخزّ ، قم فامشِ أمامي وسأتبعك ، فمشى وهو مطرق كأنه يخشى ان ينظر الى السماء فتسقط على الارض .

وكان يفكر عندئذٍ في ذلك الملاك الذي ارسلته اليه الآلهة ، من الحجاز ... جوار البيت .

وفي الوقت نفسه ، كان يزيد يفكر في ذلك الفتى الذي سيجعله في سف... الشاق أخاً له ..

* *

دعي صفوان الى قصر زياد فتردد في المجيء ، ليس لأن نار الغرام خمدت ... صدره ، بل لانه كان يحاول ان يجعل نفسه فوق ذلك الغرام كما قرأت ، غير ا... التردد لم يطل أمره ؛ فالنفوس وان ثبتت في المجـــال لا تستطيع ان تثبت ال... النهاية . ان سلطان الحب المستبد، لا يغلب ؛ وتلك النار التي تخمد ساعه لاتلبث حتى تضطرم في الاحشاء .

ومشى وهو يستلذ احلامه ويبني القصور .

وكانت ليلي قد طلقت البكاء وهي تحادث أباها وتنتظر وصول الحبيب الذي خرجت روحها معه عندما خرج من الدهليز ، كما يخرج العاشق الذليل .

وهي واثقة بأن طلحة لا يعود إلا وهو ينقل خبر قدومه ؛

فلما وصل صفوان ، رأى نظرات عذبة ووجوهاً ضاحكة ، فاسترجع ذلا...

الأمل الذي كاد يضّيعه وجلس في مقعده ولم يصافح احداً كأنه في بيته ،
فوثق زياد بأن العاطفة العالية تمـلأ صدر الفتى ، وبأن الحب يغمر نفسه ،
ولولا تلك العاطفة وهذا الحب لما فكر في الرجوع .
فقال : ستسمع رأياً جديداً يا صفوان .
قال : ولا تزول الأخطار إلا اذا كثرت الاراء يا مولاي .
قال :أتعرف أبا ضمرة الخزاعي ؟
لااعرف سواه ..
- لقد جاء بعد خروجك يسائلنا ان نغضب معه للكرامة الزائلة ...
- اذن عدنا الى النظر في الكرامات !!
اجل وهو يريد ان يسبق صاحبك في الاستيلاء على الكعبة وقد يسلبه حبى . !
- وانا اريد ان اجعل النور ظلاماً والظلام نوراً . ! قل لماذا دعوتني يامولاي :
- دعوتك لأقول لك ان الشروط قد تغيرت .
اي انها كانت اثنين فاصبحت ثلاثة ؟؟
- بل نقصت فأمست واحداً يسهل عليك قضاؤه .
قال : عرفت فقد محوت الحرب وبقي جبير .
- نعم فليلى برأس هذا اللعين .
فبرقت عيناه قائلاً : لقد اضحت ليلى لي .
قال : اخاف ان تطوف في الجزيرة كلها فلا تجد له أثراً .
اما انا فيهون عليّ هذا الطواف في سبيل من أحب .. ولكن ألا تقول لي
شيئاً آخر .
- بلى ، سأعتزل حرب صاحبك ولا احمل السيف الا اذا أراد ان يمد يـده
الى ما املك .
فابتسم وهو يقول : يكفي ان يغضب أبو ضمرة وحده .
وكأنه ادرك كل ما يجول في ذهن الأمير فقال له : لقـد أردت ان تمتحن يا
مولاي فليكن ما اردت .

– ومتى تسافر ؟
– بعد يومين ، فقد زفّت حبى الى قصي .
– اي ان صاحبك وضع قدمه في اول درجة من درجات العرش .
فقال : ليس هناك عرش وابو ضمرة حي ..
ونهض فصافح الرجلين ، ثم مدت ليلى يدها اليه ولولا ادبه وحياؤه [illegible] على ركبتيه ولثم تلك اليد المرتجفة المحترقة بنار الهوى .
وكان القلبان يخفقان والواحد منهما يسمع اضطراب الآخر .
كلاهما يخشى ذلك السفر الذي لا يعلم متى يكون الرجوع منه .
وانصرف صفوان الى الشعاب يتهيأ للسفر .

* * *

لقد اعجبني هذا الفراش الذي تضجع عليه يا موسى . والآن فقل لي ، أتعرف بلاد تهامة ام ماذا ؟
– لقد ذكرت لك ان أبي لم يكن يأذن لي في الخروج من الحي ، فانا لا اعرف بلداً غير هذا .
– اذن فنحن الاثنين غريبان .!
– نعم وخير لك ان تختار لسفرك عربياً غيري ، اذا كان لك في تهامة غرض تقضيه .
– لقد اخترت الآن ولست براجع .
– وما يمنعك من اختيار رجل آخر فنصير ثلاثة ! ألست من اولئك الحجازيين اصحاب المال الذي لا يفنى .
قال : املك من الذهب حفنتين هما في جيبي ، ومع ذلك فأي رجل اختاره وانا لا اعرف الرجال ؟
– ادلك على فتى يعدّ طيور تهامة التي تسبح في الفضاء ويحصي النخل المغروس في الصحراء .
– ومن هو هذا ؟

ـ ابن خال ٍلي جعلته الاقدار وحده .
ـ وأين ابوه ؟
ـ قتل في حرب نشبت بين هوازن وهذيل . قتله احد فتيان مكة .
قال : وأين يقيم هذان الحيان ؟
ـ هناك .. وراء مكة ، في الشرق .
ـ اذن فالفتى هجر حيه وهو يقيم بينكم .
ـ اجل وهو عاجز عن ان يثأر بقتيله .
ـ أتذكر اسم قاتله يا موسى ؟
ـ يقولون أن أحد أمراء الحجاز أرسله ليستعيد ماشيته المسلوبة ، واسمه .. نعم جبير بن عبادة .
فخيل اليه ان صوت موسى صوت إله . واخـذ ينظر اليه ويستعيد ذلك الاسم .
فاعاده الفتى ولم يتردد .
فقال له : أنستطيع ان نرى الفتى الآن ؟
قال : سيجيء الساعة فهو الذي سيحمل اليّ طعام القوم .
فحبس يزيد انفاسه ومدّ عنقه الى الخارج يخترق نظره حجب الليل ليرى ذلك الذي جعلته الاقدار وحده .
ولم يلبث حتى اقبل تغطي جسمه عباءة سوداء .
فقال موسى وهو لا يلتفت اليه : لقد خدمنا الحظ يا سنان فاجلس .
وكان الفتى قد رأى يزيد ، فقال : من انت ؟
ـ رجل ُقتل ابوه وعجز عن ان يثأر به ...
فانحنى ليتبين وجهه وقد اهتزّ ِلما سمع .
فقال يزيد : اجلس فأني بانتظارك وسأقول لك من انا وما هي حاجتي اليك
ورفع موسى رأسه وقال : حدثني ياسنان ولا تخف فقد قال لي هذا الرجل ان الذي يرى وجهي لا يرى الموت .

قال : ولكني لا اعلم يا موسى من هو ضيفك .

– يكفي ان تعلم انه من مكة وهو يبحث عنك .

فقعد وقد زال اضطرابه ثم قال للضيف : والآن ؟

– اما الان فجبير بن عبادة قتل أباك وأنت أضعف من أن تطلب بدمه اليس كذلك ؟

– نعم !

قال : اتعرف جبيراً اذا رأيته ؟

– ورب الكعبة لو رأيته في مثل هذا الليل لعرفته .

– وكيف لا تطلبه وانت في هذا العمر ؟

فخفض صوته قائلاً : ان الذي يرعى غنم الناس ليشبع جوفه لا يستطيع ان يطوف في البلاد لأجل الثأر !

– واذا ارسلت السماء الى هذا الراعي من يساعده في ثأره ؟

– يترك غنم القوم ويتبعه الى حيث يشاء .

اذن فاعلم انك رفيق لي منذ اليوم .

قال : يظهر ان لك عليه ثأراً .

– هو ذلك ! فقد قتل ابي وانا اطلبه منذ اعوام ولا اجده .

– اي اننا اخوان تجمعنا غاية واحدة .

واخذ يقص عليه ماضي جبير وحاضره حتى انقضى الهزيع الأول من الليل ، ثم قال : وقد اثبتوا لي من بضعة ايام ، انه لجأ مع مولاه الى تهامة ولم يقدروا ان يذكروا البلد النازل فيه .

قال : لست من تهامة لأعرف طرقها وقراها . ولكني واثق بأنه لا يفلت من يدي اذا كان تحت هذه السماء .

– وهل انت واثق ايضاً بانه غير موجود في هذا البلد ؟

– لو كان موجوداً فيه لما قدر ان يستخفي

– أتعلم ان له مولى يمنياً يدعى عدوان ؟

ـ اعلم ذلك ولكني لا اعرف الرجل .
قال : اسمعهم يقولون انه ادهى الناس .
ـ ليكن شيطاناً ؛ فنحن لانريد الموالي بل نريد السادة .
ـ ولكنك لا تستطيع الوصول الى جبير وعدوان حي .
ـ اذا كان هذا فالاثنان يموتان .
فاحس يزيد ان قوة جديدة انضمت إلى قوته ، فقال : متى تترك غنمك ؟
ـ اتركها غداً اذا كان لا بد من السفر .
قال : افعل وسأعطيك درهمين كل يوم .
فوضع يده على بطنه قائلاً : حسبي ان يشبع هذا :
ـ الا تطلب اجراً ؟
قال : اما الأجر فذلك الدم الذي سأشربه .
ـ وانت يا موسى ؟
ـ واما انا فأحمل الزاد والماء وأرى وجه السماء وهذا أجري .
قال : نمكث هنا غداً ؛ فيطوف سنان بين الأحياء لعله يرى احداً ، ثم ننصرف بعد غد .
فوافقه سنان في الرأي ثم قال يزيد : الى اي بلد ننتهي اذا مشيناً غرباً ؟
ـ الى روضة وهي بلد صغير في زاوية من الارض ذهبت اليه في العام الماضي.
قــال : حسنا وسنقضي هذا الليل في بيت موسى ثم نتفرق عند الصباح على ان نلتقي هنا في مثل هذه الساعة .
قال أفلا يكون موسى شؤماً علينا ؟
قال : دع عنك هذا الشؤم الذي لا يفكر فيه غير البله .
فتمتم قائلاً : مسكين فقد خسر كل شيء .
وخرج من الخيمة وهو يقول : سأبيت الليلة في الحي فالى اللقاء في الساحة .
قال : لا تنس سلاحك !
قال : السيف الذي تركه لي ابي سيكون سلاحاً لي .

وحجبه الظلام عن عيني يزيد ؛ فاستلقى على الرمل قائلاً : لقد اعجبني هذا الفتى وسيكون نعم الرفيق اما موسى فلم يجب ، لأنه عاد الى التفكير في شومه.

* * *

- ٦ -

كان البرّ في الجانب الشرقي وراء الشعاب ، كبيراً فسيحا كله ميادين تجول فيها الخيل ، وقد جعل قصي ساحاته الأولى مجالاً يتعلم فيه الرمي والضرب بالسيف ؛ وذلك بعد الزواج .

كأنه لم يشأ ، قبل زواجه ، ان يضيع الزمان . ولا يشاء بعده ، ان يضيع شيئاً منه .

وفرسان بني كنانة ورماتهم ، يشتركون في التعليم ، ويبرون السهام لذلك الزعيم الكبير ، الذي اراد ان يجاري النعمان الغساني في الرمي . حتى اضحى في شهر واحد سيد الرماة . وحنت له فرسان العشيرة الرؤوس ، كلما جرت الخيل في الساحات .

فكر غريب ليس في الحجاز انضج منه ، وعزم كالحديد ليس في الحجاز اشد منه ، وطموح الى العزّ ، ليس في الحجاز أبعد منه ؛ فقصي فكر الحجاز وقلبه ، دماغه وروحه ، فارسه وسيفه .

احبه قومه حتى ليستهينوا بالموت في مجال الدفاع عنه . ولم يكن في مكة احب اليهم منه ، غير الاصنام التي يعبدون .

والرجل يعرف ان يستمر ويستغل . رأى صورته تتغلل في صدور القوم ففتح صدره لقومه . ورأى الحب يلمع في العيون فأحب الى النهاية . ثم انثنى يبني ذلك الصرح العالي الذي يهزأ بالحادثات . انه مظهر بليغ من مظاهر العبقرية والعظمة والنبوغ .

انظر ، ترَ بني كنانة الابطال يمدون اعناقهم ليسمعوا خطاب الفتى ، ويصغوا الى السحر يخرج من بين شفتيه . كأنه هبل القائم في جوف الكعبة ،

يوحي اليهم بالهيبة المقدسة . ويبعث في النفوس الاحترام والخشوع . أو كأنه رسول السماء ، يملي عليهم ما في السماء من قوة خالدة ورجاء . !

وكانت حبى ترافقه الى ميادينه، الى البر الطليق الحرّ ، فتجذب القلوب الى ذلك الزوج الذي يضع بيديه القويتين اسس المجد الذي لا يبلى ثم تأخذ السيف لتضرب كما يضرب قصي . وترمي عن القوس كما يرمي ؛ كأنها تريد ان تشاركه في جهاده ، وتضع يدها حيث يضع يديه ، لتبلغ معه الغاية التي يريد .

ان الزوجين تملك مشاعرهما فكرة واحدة ، السيادة .

ولم يكن قصي يكتم زوجته شيئاً ؛ بل باح لها في الليلة الأولى بما في نفسه من اسرار ، فاستولى عليها الخوف لحظة ؛ ثم رأت انه قادر على تنفيذ كل ما يفكر فيه . ولكنها كرهت ان يترك قصي الشعاب ، ولم يمر على زواجه اكثر من شهر.

وحاولت اقناعه بالعدول عن السفر فلم تفلح ؛ فاي بلاد يريدها ذلك الرجل الذي لا يحب ان يستريح ؟ انه يريد بلاد العراق ؛ فيرى النعمان الأول على عرشه

ويسمع حديثه ، ويشهد تلك المظاهر التي يسود بها شعبه . ولماذا يريد ان يفعل هذا ؟ لانه سيصير ملكاً ولم يرَ قبل اليوم ملكاً على عرش . وسيطوف في بلاده ليلمس بيده حكمة الملك وعدله وعظمته وسلطانه . ويصغي الى اقوال الناس فيه ؛ حتى يرسخ كل ذلك في ذهنه . ويتم له الدرس الذي اراده ؛ فيرجع الى الحجاز وقد وفرت له اسباب الملك . وان لم يكتف بما رآه ، يركب فرسه الى بلاد الفرس ، ليحضر مع الجماعات ديوان بهرام جور . وينظر الى ذلك الفتى الخليع المستهتر الذي جلس على اعظم عرش ، واضحى سيد الملوك في ذلك الزمان .

ومن يرد قصياً اذا قال ؟ ومن يثني تلك الارادة الجبارة اذا مشت الى الامام ؟؟

انه كالطود الراسخ لا يضطرب ولا يتزعزع .

وقد رأت حبى ، ان الاستسلام اليه في كل شيء . . نعم في كل شيء ، خير ما تصنعه في حياتها معه .

على انه لم يكن مستبداً برأيه ، بل لم يكن يقدم على أمر الا بعد ان يشبعه، بالاشتراك معها ، بحثاً ، ويقتله درساً ، وبعد ان يدعو قومه ويشاورهم فيه .

وكان الرؤساء يحترمونه ولا يخافونه ، فاذا سألهم رأيهم أظهروا له مـا في الصدور بالصراحة والاخلاص ؛ فلما عرفوا انه يريد العراق ، أقبـلوا يسألونه عن اسباب السفر ويعرضون عليه الخيل والمال .

فقال : في الحيرة سوق اريد ان احضرها هذا العام .

قالوا : وفي الجزيرة اسواق تجتمع فيها العرب ..

– ولكن العراق ارض لها ملكها وانا احب ان اشهد اسواق الملوك .

ثم قال لاخيه : ايطيب لك السفر يا زهرة ؟

– ان الأمر الذي يطيب لك يطيب لي .

قال : لو كان صفوان حاضراً لذهب معنا . قولوا لخداش بن عبيد ان يحضر الآن .

فأقبل خداش ، فقال له : الى العراق يا خداش .

– الى العراق يا مولانا . !

قال : واين شيبة بن حبيب ؟

– مع القوم في الساحة .

– فلما دخل قال : ترغب في المسير الى العراق ؟

فاجابه ولم يتردد : اللجام في فم الفرس والسيف في سرجه ..

وجعل يدعو الرؤساء الواحد بعد الآخر الى السفر وهم لا يسألونه لماذا حتى سأل احدهم فاجابه قائلاً :

لو كنت سيد الشعاب مثلك يا مولاي ، لقلت : اركبوا .. فيركب القوم وهم لا يعلمون الى اين ..

فابتسم قائلاً : ما سمعت جواباً أبلغ من هـــذا .. ان الزعامة لا تليق الا بامثالك .. وهكذا ، في مثل تلك الصورة الرائعة ، كان يطيع القوم ابن كلاب ويمشون في ركابه الى حيث يشاء .

صبحوا الحيرة مدينة النعمان ، في يوم اشتد حره .. وارسلت شمسه ألسنة من نار ..

وكانوا ثمانية من ابطال الشعاب ، يرأسهم قصي .

فلجأوا الى القصب النابت على ضفة الفرات . يضجعون في ظله . على الرمل الرطب . ويتبردون في مياه النهر الفياض ، وليس بينهم من يعرف الحيرة الا شيبة بن حبيب ، قدمها وهو غلام ، مع ابيه ، يشتريان النجائب

وكانت ضفتا الفرات في تلك الساعة ، تغصان باهـل الحيرة واضيافها من كهول وشباب وغلمان تركوا منازلهم الحارة ليقضوا يومهم في الرياض الزاهرة والجنات المثمرة على الجانبين . وعلى الشاطيء اكواخ من الاغصان جعلوها مظال للجواري والاطفال ، ومجالس للطعام عندما يحتدم الحر .. والناس يرددون قائلين : سيجيء الملك ..

ثم يقول بعضهم : ان الملك لا يخرج الا في المساء .

فقال قصي لشيبة : أرأيت النعمان قبل اليوم يا عم ؟

قال : لا فقد كان ولياً للعهد يوم قدمت الحيرة .

وقصر النعمان ؟

- اما قصره فرأيته من الخارج ولم اجسر على دخوله .

قال : لا تعلم متى يدخلون على الملك في هذا البلد .

قال : نسأل الناس الذين نراهم على هذا الشاطيء .. ونادى أحدهم فقال له : أمن الحيرة أنت ؟

نعم .

وهل تعرف الملك ؟

ومن لا يعرف الملك في العراق .!

قال : أيجيء الى هذا الشاطيء كل مساء .

فضحك قائلاً : قد ينقضي الشهر والاثنان ولا نراه .

- ولكنهم يقولون انه سيجيء اليوم .

– اجل فقد اعد له الحراس هذه الخيام التي تراها في الجانب الآخر ،واشار الى خيام ثلاث عليها الرايات .

وجلس الرجل كانه يستلذ الحديث عن الملوك ثم قـــال : سترون الحراس يمشون امامه وخلفه وهو بينهم على جواده ، ثم يطل بنوه وخاصته ومن يتبعهم من رجال الخورنق يحملون السياط .

قال : نحن غرباء كما ترى ونريد ان نحضر مجلس الملك فهل يؤذن لنا في هذا ؟

قال : يجلس الملك للناس أربع مرات في الشهر .

– ويحضر مجلسه من يشاء ؟

– نعم والويل لمن يمنع عربياً من الدخول في ذلك اليوم !

– ومتى كان مجلسه الاخير ؟

– منذ ثلاثة ايام، وشهدته الجموع من اليمن والشام بينهـــا بضعة رجال من الفرس ..

- اذن يجلس من جديد بعد خمسة ايام .

– اجل وتفد الناس الى الخورنق من جميع الاقطـار ، أتريدون انتم ان تقابلوه ؟

– نعم ونحن مكرهون على الانتظار .

– وهل انتم من اصحاب الحاجات ؟

– لا ! ولكن لم نشهد قط مجالس الملوك .

قال : اذا لم تكونوا بحاجة اليه فلا سبيل الى المقابلة .

وكان قصي ساكتاً فقال له : والآن فهل لك ان تبقى بيننا ريثما يجيء ؟

قال : اغيب ساعة ثم أعود .. وانصرف الى قومه يقص عليهم في الكوخ ، حكاية هؤلاء الغرباء .

* * *

مكثوا بضع ساعات بين القصب وهم يلعبون ويضحكون ، الا قصياً فقد

كان ضحكه ابتسامات قصيرة تظهر على ثغره ، ثم لا تلبث حتى تختفي .. ان عينيه كانتا تنظران الى الشاطىء الآخر ، الذي سيزوره النعمان .. ثم وضع يده على جبينه وسبحت روحه في فضاء الحجاز ..

وبينـــا هو غائص في اللجة ، اقبل ذلك العراقي يقول : انظروا الى هؤلاء الغلمان اللابسين الاثواب القصيرة . انهم غلمان الملك تقدموه الى الخيام .

فاتجهت العيون الى الموضع الذي اشار اليه ، ثم قـال : لقد اقبلت الخيل .. هذه راية العراق يحملها سعيد بن جرول . ان الملك لا يخرج من قصره اذا لم تخفق حوله الرايات . وهؤلاء حراسه ابناء الامراء والأشراف ..

وكان الحراس حلقة ضيقة انفرجت قبل الوصول الى الفسطاط الكبير الذي نصب لذلك العربي الغازي . فقـــال قصي : من هو راكب المهر الاشهب الذي يسير وراء الحراس ؟

- هذا الجراح التميمي حاجب النعمان .

وبانت عندئذ فرس لا تقع العيون على احسن منها . ولمع الديباج على كتفي فارسها فقال قصي : انه الملك ورب الكعبة .

قال : اصبت ! هذا هو الملك . ولم يستطع القوم ان يتبينوا من وجهه غـير جانب واحد .

لكن قصياً لم يكن ينظر الى النعمان ..! ان ذلك المظهر الغريب الذي ينشر ظلال العظمة والجـلال بهر عينيه واستهواه ؛ حتى نسي نفسه وظن انه صاحب تاج !! ثم صحا فقال : والفارس الذي يتبعه ؟

- هـــذا المنذر ولي عهده ووراءه اخوته ، بينهم شاس بن زهير بن جذيمة صديق الملكة ..

« هو شاس بن زهير الذي قتله رباح بن الأشل الغنوي ، وهو راجع من العراق يريد قومه . وقد قرأت ذلك في الاجزاء السابقة » .

واخذ يعد الخاصة فيقول : وهؤلاء اخوة الملك وابناء عمه وامراء الخورنق ، ثم فرقة الحراس الاخرى التي تسير وراء الموكب .

قال : وماذا يفعل ابن زهير العبسي في الحيرة ؟

– انه ضيف على صهره الذي يؤثره على جميع اخوته .

– أليس للملك زوجة غير العبسية ؟

– بلى . عنده هند بنت زيد مناة من بني غسان ، وولي العهد ولدها لأنها الزوجة الأولى ..

– يخيل الي انك من رجال القصر .

– بل انا من العامة ولكن الناس جميعهم يعرفون كل من في البلاط .

وكان عرض النهر حيث يجلسون اكثر من خمسين ذراعاً ، فرأى قصي الملك يجلس بين وسائده على الأرض ويجلس حوله رجاله والغلمان بين يديه وقد فاحت رائحة المسك .

وكانت زوارق صغيرة مربوطة الى الشاطيء ، وفيها العراقيون يتغنون ويسألون الناس العبور الى الضفة الاخرى؛ فلما استوى النعمان جالساً في فسطاطه سكتت اصواتهم لا يسمع على الجانبين غير همس المياه .

وهم قصي بأن يعبر مع رفاقه ؛ فرأى الحراس يحيطون بالفسطاط والخيمتين المضروبتين بالقرب منه .

ان الملك العربي يريد ان يخلو بندمائه واتباعه ، في تلك الساعات القصيرة التي يقضيها على الفرات .. ولا يجد عربي سبيلاً الى الوصول اليه .

فآثر سيد الشعاب البقاء بين القصب ينظر الى النعمان؛ وقد استطاع ان يرى العظمة البادية على جبينه .. ثم رأى الخمر توضع في الاقداح . ويتناول الملك كأسه فيشرب ؛ ثم يأذن لمن حوله فيجرعون ما في الكؤوس ..

فقال : هذه ظاهرة من ظواهر الضعف في الملوك ..

فقال خداش : ان الملوك جميعهم يشربون ..

قال : لو حفظوا مقام الملك لشربوا في مخادعهم .. وكأنه ذكر ذلك العراقي الجالس وراءه ، فقال له :

أليس لك رأي في هذا ؟

فاجابه قائلاً : كل شيء يراه الملك جائزاً فهو جائز ..
كأنه يقول له : لا تعد الى مثلها بعد الآن ..
قال : لقد نسيت ان الملوك ليسوا من الناس.ونظر الى ابناء عمه وهو يقول: كل شيء يراه الملك جائزاً فهو جائز . انه درس لا انساه ويجب ان تذكروه .
فلم يعلم احد ما وراء تلك الكلمة من الغاز .
ومكثوا ساعة واهل الفسطاط يشربون حتى بدأ الملك ينظر الى جانبه كالمرأة الحسناء تنظر الى عطفيها ، وكان ذلك اول مظهر من مظاهر السكر .
ثم سمعوا ضحكه . ورأوه يهزّ رأسه ويتمايل طرباً . ثم يستلقي على الوسائد ويضرب نعله بالمخفقة التي بيده كأنه يرتاح الى تلك الحكايات التي يقصها عليه الندماء . وكان ذلك ابلغ ما رأوه .
فقال قصي في نفسه : لقد كتب لنا ان نحضر مجلس سكران ؛
حتى غابت الشمس وأهل الحيرة يروحون ويجيئون والملك لا ينهض عن وسائده ولا يكف عن الشراب . فظن الحجازيون انه سيقضي الليل في مكانه ،
فقال احدهم : يظهر ان النعمان سيبقى الى الصباح .
وقال آخر : وسيضع رجليه في الفرات وينام على الرمل .
فاجابهم رفيقهم قائلاً : لا يمر الهزيع الأول من الليل حتى يغادر الشاطيء الى الخورنق .
واين هي الانوار ؟
– ان الملك يؤثر الظلام .
قال : لا أعلم .
فقال خداش : لأنه يكره ان يراه الناس مترنحاً على ظهر فرسه . وقاموا فصافحوا ذلك الرفيق ومشوا يريدون الحيرة .
وسارت الجماعات أمامهم ووراءهم ينشدون الاناشيد ويرتجزون كأنهم في عيد . !
وكان شيبة بن حبيب ، يعرف المنازل التي ياوي اليها الغرباء فتقدمهم مستعيناً

بمن يراه من الناس . فرأوا تلك المنازل تغص بالوافدين من كل بلد ، وكل جنس ، هذا جاء يقصّ ظلامته على الملك وهذا يبيع ما يحمله في السوق . وهذا ينقل الى قومه طيوب العراق . وكان بينهم رجلان اثنان من ابناء فارس ، يحملان رسالة الى الملك من الجالس على عرش الفرس ، وقد آثرا النزول بين وفود العرب ،على النزول بين ابناء قومها لسر من الاسرار . ان الرسالة التي يحملان ، يجب ان يكتما ابناء فارس امرها حتى يدفعاها الى النعمان ويأذن في الجواب .

على ان عربياً يعرف الفارسية ، سمع حديثهما وعرف السر ، فجعل يروي ذلك الحديث لكل نازل غريب .

فأراد قصي ، بواسطة ذلك العربي ، ان يستدرجهما الى الاقرار فلم يتم له ذلك وكل غرضه ان يطلع على الصلة، بين ملوك الفرس والملوك اللخميين العرب. لكنه عمد الى الصبر ، فيستنتشر امر الرسالة في الخورنق ، ويتحدث به اهل الحيرة بعد ان يقرأها النعمان . هكذا قال له اولئك الذين يعرفون اسلوب الملك في شؤونه مع الاعجام .

اجل ! كان النعمان اذا وردت عليه رسالة لأمر خطير ، يعمد الى استشارة وزرائه واصحاب سره ، على مرأى ومسمع من الناس ، فيستفتي بذلك رعيته التي يسوسها بعدل واخلاص ؛ ثم يقوم بقضاء ذلك الامر مطمئن الوجدان .

ونام القوم تلك الليلة وهم مستسلمون الى احلامهم .

اما قصي فلم ينم الا غراراً ، لان الأحلام طلقته في ذلك الليل الحار الذي يذيب الاجسام .

وشبح ذلك الملك الجبار ، النعمان العظيم ، الفاتح السكران ، لم يزل ماثلاً امام عينيه .

بل قل ان العرش كان ماثلاً في تلك الساعة امام تينك العينين الساحرتين .

* * *

ان الافراد الذين يفكرون في الصعود الى العروش ، لا يعبأون بالقـدر اذا جار وبالزمان ان طال . والذين يطلبون العـــلى لا يضيقون الصبر . وقصي بن كلاب من هؤلاء .. تمر الاعوام وهي في نظره كالأيام .. حتى يبلغ غايتــــه . ويستوي في المكان الذي يطمع فيـــه . نعم ، وقد عرف كيف يقضي الايام في الحيرة ، ريثما يجلس الملك لشعبه وينظر في الظلامات .

كان الناس يعرفون عادة الملك في مجالسه . يدخلون جماعات عندما يأذن الحجاب . ويستندون الى جدر القــاعة الكبرى صفوفاً ووفوداً ، على رأس كل وفد زعيمه او خطيبه حتى يدخل الملك من باب آخر ويجلس على سريره .

وقد وصفت تلك العادة لقصي ، فدخل مع الناس برأس قومـــــه . ووقف وراء الصفوف التي سبقته في الدخول ؛ وكان الملك لا يدخل القاعة إلا اذا دخل الناس جميعاً ، فإذا تأخر احدهم منعوه من الدخول في ذلك اليوم .

فلما امتلأت القاعة وساد الصمت والهدوء . ظهر الجراح التميمي على الباب الداخلي ثم ظهر الملك .وبعد لحظة اقبل المنذر ووجوه البلاط ، فاهتزت القاعة لأصوات الهتاف ثم انحنت الجباه حتى كادت تلامس الارض، فأجال الملك نظره ثم اتجـــه الى سريره فتربع فيه . وقد تدلىّ طرف ردائه من الامام فتسابقت الوفود الى لثم ذلك الرداء ،

وهو ينظر اليها بالعين الواحدة التي يبرق فيها شعاع العظمة والقوة والنباهة والدهاء . ثم أومأ اليهم فقعدوا واذن في الكلام ، فقام واحد من بني نهـــد فقال :

كان عمي جندل بن الربيع يرعى غنماً له في أرض له في ناحية السواد ، فأقبل عليه سويد بن غمرة من بني تميم فقتله وسلب ولديه غنمها ثم لجأ الى حيّــه .

قال : ويلك أعجزتم انتم بني نهد عن الأخذ بالثأر ؟؟ وماذا تطلب من الملك والثأر عند خاصة العرب وعامتها مقدس لا يتركه إلا الجبان .

فقال : ماعجزنا يامولانا ، ولكن الرجل لجأ الى الحيرة ونحن لا نطلبه فيهـا اجلالاً لك ..

قال: سنأمر من أجاره بأن يتخلىَّ عنه ويصرفه الى بلاد قومه ، اذكر اسمه!

– وانا آمن

– قل وانت آمن .

– انه في مجلس الملك الآن !

فنظر الى ما حوله وهو يقول :

ما نعلم ان احداً من خاصتنا يجير الناس بدون اذن ، قل من هو ايها النهدي!

– الجراح التميمي حاجب مولانا الملك .

وكان الجراح واقفاً بالباب فقال له :

أفعلتها يا جراح ؟ أتجير ابن عمك وتفتح له ابواب الخورنق ونحن لا نعلم ؟! احضره الساعة .

فتمتم يقول : جاري يا مولانا .

قال : ان الملك يعرف كيف يرعى حقوق الجار .. علينا به .

فخرج المسكين وهو يخشى ان يغضب الملك فيأمر بقتل سويد فتضيع حرمته بين العرب ولكن ماذا يصنع وتلك الارادة لا تردّ .

وظل الملك ساكتاً حتى أقبل سويد وهو يرتجف ، فقال : سويد بن غمرة قاتل جندل بن الربيع

– نعم ايها الملك .

– خبرنا كيف قتلته .

فتلجلج صوته ثم تلعثم وارخى نظره ،

وكلمة اخرى يقولها النعمان ، يسقط سويد على الارض من خوفه .. !

لكن النعمان لم يلجّ في طلبه بل قال : كنت جاراً لحاجبنا فلا نسلمك الى عدوك ولكن نأمرك الآن بالانصراف الى حيث تشاء فالملك لا يجير رعيته من رعيته . اخرج الآن .

فهمّ بأن يقبل رداءه فمنعه قائلاً :

لا تلمس هذا الرداء لئلا تصبح في جوارنا . اخرج ولا تبقَ في الحيرة ساعة

واحدة ، وانت يا النهدي ، لك ان تطلب بدم عمك عندما يجاوز سويدالحيرة اما فيها فلا . لقد حذرناك فانصرف .

فأثنى الرجل وشكر ، ثم خرج مع الغلامين ولدي جندل القتيل .

– اما قصي . فقد امحت صورة الملك السكران من ذهنه ، وانطبعت فيه صورة اخرى هي صورة الملك العادل .

وقام آخر فقال : خرجت من منزلي في بني أسد احمل لك الطيب والعود . فبينا انا بين الوريد والريحانة عرض لي رجل عرفت انه محارب بن سليم فقال : اعطني ما تحمله او اقتلك !

فقلت : ويلك هذا للملك ! فلم يسمع ، بل وضع رمحه بين عيني وهم بأن يطعن ، لو لم اتخلّ له عن ناقتي . وحملي .

– متى كان ذلك ؟

– منذ اربعة ايام .

– واين يقيم الرجل ؟

فأشار الى فتى كبير الوجه طويل الشعر وقال : هذا هو !!

فقال : يا محـــارب ، أتعرض للناس في طريقهم ويذكر لك اسم الملك ولا تبالي ؟ !

فلم يجب .

قال : أصدق هذا الرجل ام كذب ؟

– بل صدق ، ابيت اللعن ؟

– اذن تستخف بمولاك وتعترف باستخفافك !

– بل كنت محتاجاً يا مولاي ، فاجترأت على ما لم يجترىء عليه غيري .

– كان عليك ان تذكر لنا هذه الحاجة .

قال : بيني وبين الحيرة مسيرة اربعة ايام وقد خفت ان يقتلني فقري وانـا على الطريق !

قال : وهل بعت الطيب الذي اخذت ؟

– بعته بثلاثين درهماً يا مولاي وناقة جرباء !

فقال للناس : ما سمعنا اغرب من هذا !

فاجابه قائلاً : « كما انك لم ترَ اكثر فقراً واشد حاجة من هذا » ! وأومأ الى نفسه . ثم قال : وقد اتيتك يامولاي اعترف لك بذنبي وأسألك ان تحسن اليّ فالثلاثون درهماً لا تكفيني .

فصاح الأسدي : والناقة يا مولانا .؟

فقال : لقد نسيناها . ماذا فعلت بها يا محارب .؟

– وانا قد نسيتها ايضاً .!! انها عندي .،، فلا تفجعني بها يامولاي !

فاختلجت عين الملك المغمضة ، وظهر على ثغره ما يشبه الابتسام وهو يقول: كم هو ثمن طيبك يا أخا أسد ؟

– مئتا درهم يا مولاي .

– اعطوه الف درهم وناقتين . ولكن اذا حملت للملك شيئاً بعد فاحمه بسيفك وإلا فلا تفعل .

فقال محارب : وانا يا مولاي ؟

– اما انت فأمرنا لك بثلاثين سوطاً جزاء اجترائك .. خذوه الى الرواق واضربوه ثم اعطوه الف درهم جزاء صدقه !

ولفت نظر القوم في تلك الساعة ، رجل طويل القامة ذو لحية صغيرة وعينين براقتين توسط القاعة وقال : لقد غصبني عمال الملك في «الجوامر» ضيعة لي ليس لي ولولدي غيرها .

قال : اما انت فقد عرفنا حكايتك مع هؤلاء العمال ألم تدفع ما عليك من الخراج هذا العام ؟

– لا يا مولاي .

– ماذا تريد ان نصنع والخراج لا بد من دفعه ؟!

قال : يدفعه الملك عني على ان أرده ضعفين .

فضحك قائلاً : يحاول صاحبنا ان يجاري الملك في الكرم . لقد نزلنا عن حقنا بالخراج عامين كاملين ، واعطيناك قيمة هذا الخراج عن عامين آخرين

وسنأمر عمالنا برد ضيعتك .

وهكذا جعل القوم يتظلمون ويشكون وشفتاه تخرجان أحكام رحمته وعدله حتى خرج كل من في المجلس ، ولم يبقَ غير قصي ورؤساء العشيرة ؛

فعرف انهم من الحجاز فقال : وانتم يا جيران الكعبة ماذا تطلبون ؟

فوقف قصي فقال : نحن اضياف الحيرة منذ ايام وقـد استأذنا في الدخول لنشهد مجلس الملك .

قال : ممن انتم ؟

فاشار الى رفاقه قائلاً : هؤلاء سادة كنانة وانا اصغرهم .

قال : لقد عرفتنا بنفسك فانت سيدهم ، أليست لكم حاجات يقضيها لـكم الملك ؟

– لا مولانا ليس لنا حاجات في العراق .

– وماذا تنقلون الينا من اخبار الحجاز ؟

– لا نجد في الحجاز خبراً يستحق ان يسمعه الملك .

قال : زرنا الكعبة مرتين قبل ان نجلس على العرش وسنزورها في العام المقبل او الذي بعده .

قال : حسب الحجاز شرفاً ان النعمان العظيم يطأ ارضه .

– بل حسب النعمان شرفاً انه يجثو امام الآلهة ويقدم لها هداياه وخضوعه !

فقال خداش : لا نذكر يا مولانا ان مكة استقبلت قبل اليوم ولي عهد العراق ..

قال : دخلناهـا يومئذ بـين الوفود ولم يعلم احد من اهلها اننا فيها ، هكذا اراد والدنا الملك وهكذا فعلنا .

قال : نلتمس منكم يا مولانا ان تدخلوها هذه المرة كما تدخل الملوك .

قال : عندما نجاور بيت الله نخلع عنا ثوب الملك لنلبس ثياب الحجاج ، ان عظمة الملك تنتهي عند اقدام الاصنام .. ثم قال : اما السادن عندكم فمن احسن الناس وقد حدثناه ثلاث مرات وهو لا يعرف من نحن . ولكن سمعنا ان له ولداً

لا يعرف نفسه ولا يرعى للبيت حرمته .

فقال قصي وقد ذكر السكر : لو لم يكن المحترش شراباً للخمر لكان خير خلف ، انه يشرب حتى يصرع وليس في الحياة شيء أحب اليه من هذا !..

– وابنته حبى ? أترد بعد امراء العرب فلا تتزوج احداً منهم ?

قال انك تعرف يا مولانا كل مـا يجري في الحجاز . لقد تزوج حبى قصي بن كلاب الذي يخاطب الملك !

– انت

– نعم وكان ذلك منذ شهر .

– اذن تزوجها كناني ولم يحفظ حليل عادة قومه ! ان عينيك ايهـا الفتى تدلان على نفس كبيرة ستخضع الحجاز .

قال : ان مكة تخضع لحليل والحجاز يخضع لامرائه .

– ولكني ارى انك ستمحو هذه الامارات .

قال : لم افكر في هذا يا مولاي . ومع ذلك فالطريق وعر المسالك لا يجرؤ الفتى الضعيف على اقتحامه .

وفي تلك اللحظة قال الجراح التميمي : ان الفارسين اللذين حملا رسالة ملك الفرس الى مولانا الملك بالباب يستأذنان في الدخول .

قال: لقد امرناهما بالانتظار ريثما نشاور رجالنا ونكتب لهما جواب الرسالة. ليدخلا .

فدخلا وعلى كل واحد منهما طيلسان اخضر يلبسه الاشراف، وحنيا رأسيهما للملك الذي امرهما بالجلوس ، وقد أشرق جبين قصي ومد عنقه ليسمع شيئـاً جديداً ...

ثم قال الملك موجها كلامه الى قصي : أفي الحجاز قوم ينتمون الى المسيح بن مريم ?

– ليس لهؤلاء في الحجاز ذكر يا مولاي .

قال : ان بهرام جور لا يطيق ان يرى في بلاده من يقول انه نصراني !! ليس

لأنهم اتباع للمسيح فحسب ، بل لانهم رعية لملـــك الروم وهم يأكلون خيرات الفرس .

فلم يقل قصي كلمة . ان امر النصـارى مع بهرام جور لا يعنيه ، وليس من الحكمة ان يخرج عن رصانته في مجلس النعمان .

ثم عاد الملك الى القول: وقد كتب الينا حليفنا الملك يسألنا رأينا في الحرب اذا هي احتدمت نارها بينه وبين عدوه .

– أتنشب الحرب لأجل هذا ؟

– أجل فملك الروم يعد عدتهـا اليوم وقد بلغ الملـــك ان جنوده في الشام وسيزحفون الى أرضه عندما يبدأ فصل الربيـع .

– وتساعدهم جنود غسان على ما أرى .

قال : اذا كان قـد بقي لغسان قوة فلتفعل . لقد مللنا الحرب واتعبنا الفتح فبتنا نؤثر الانصراف الى النظر في شؤون العراق ونحن في هـــذا القصر ، على اكتساح الاقطار الآمنة التي لا نربح منها غير سفك الدماء ، ولا نضم الى العراق منها الا الانقاض ولكن ، نقسم برب الكعبة لئن بدرت بادرة من الغسانيين في سبيل الروم ، لنركبن خيلنا هذه المرة ولا نفارق ظهورهـــا حتى ندك بصرى ونعفي آثارها ، ونجول ربوع الشام كالنار الآكلة تلتهم كل شيء .

وجعل يقص على الناس اخبار التدمير الذي قـام به في فتوحه وغزوه وهو يبتسم كأنه يقص حكاية من حكايات لهوه على الفرات.. ثم اخذ يصف تلك اللذة الغريبة التي يشعر بها عندما تتدحرج الرؤوس في الميدان ولم ينس ان يخص ولي عهده واخوته الامراء بكلمة شكر ..

لكن الناظر اليه كان يرى على وجهه وفي عينيه آثار الألم كأن الزهد الذي املى عليه هجر ملكه ، كما تقدم ، بـــدأ يتغلل في نفسه الجبارة التي هي اعظم نفوس الرجال الذين جلسوا على عرش الحيرة ، من قبل .

وجال في الحديث جولة طويلة ثم قـال بالفارسية للرسولين : يقول الملك في

رسالته انه ندب شعبه للقتال وبدأ يحشد الجند ، فهل كثرت طوائف هذا الجند في المدائن ؟

– ان فيها بضعة آلاف ليس غير .

– وكيف استقبل الشعب دعوة الملك الى حرب النصارى ؟

– كما كان يستقبل هذه الدعوة في ايام يزدجرد .

فقال لاهل الشعاب : لم يبلغ بهرام جور الحد الذي بلغه ابوه في بغضه النصارى ، كان يزدجرد يضطهدهم بعنف كلما طاب له ان يرى الدم في الاسواق ...!

– اذن هو عداء موروث يا مولاي .

– نعم وهذا العداء لا يزول حتى تفنى احدى الدولتين الفرس او الروم او حتى تتراجع الواحدة عن الاخرى بحكم القوة .. والتفت الى خاصته قائلاً : ان الحرب التي ارادها بهرام جور لا بد لنا منها فماذا تقولون ؟

فقال المنذر : ليأمر الملك فتخرج السيوف من الاغماد .

– وانتم يا ابناء عمنا ؟

قالوا : اما نحن فليس لنا الا الرأي الذي يراه مولانا الملك .

فقال : السيف السيف .! انه وحده يحفظ الهيبة ويوطد اركان الملك . ثم قال : اذا اردت ان تسود فاضرب عدوك ضربة ينسى معها غروره ولا يرتفع له بعدها صوت . بهذا نوصي اولادنا واتباعنا فالحياة هي القوة وعلى الضعيف ان يموت ..!!

واطرق ملياً كأنه يفكر ، ثم رفع رأسه قائلاً : اكتبوا الى بهرام جور :اننا مع جنودنا على ظهور الخيل .

وفي مثل ذلك السؤال القصير الذي وجهه الى اتباعه ، كان يستشير اولئك الاتباع في شؤون الملك .!

اجل ، يكفي ان يذكر لهم ذلك الأمر الذي يفكر فيه وينتهي كل شيء ، كما رأيت .

ان النعمان قلب العراق وفكره واهل العراق عبيد له يطيعونه في كل مـــا يريد !

اي انه كان في العراق وهو ملك ، كما هو قصي في الشعاب ولا عرش له .

واخـــذ يتنبأ عن الحرب فيقول : أيعلم بهرام جور اين تقف جنود الروم في زحفها الى بلاده ؟

فقال الفارسـان : من يدري اذا كان يعلم هذا . إنه الآن يبث العيون في انحاء القطر الفارسي وعلى حدوده ، وقد يبعث الرجال الى الشام تتفحص عن احوال الاعداء .

– اما نحن فنعلم ماذا يريد ان يفعل ذلك الأمبراطور المستخف بالناس ، إنه يتظـاهر بالدفاع عـــن حقوق النصارى لتنضم اليه تلك الطوائف وتمشي في الحروب تحت لوائه . ولو عقل القوم لعرفوا انه يخفي وراء ذلك المظهر الكاذب رغبة يستعين بالسماء والارض لتتم له ، هي الاستيلاء على بلاد العرب وما حولها من بلاد الفرس ليبسط نفوذه من قلب الشرق الى قلب الغرب وتنشر رومـــا جناحيها فوق العالم كله !! نعم . ونقسم برب الكعبة أنه لا يطمع بغير هذا ولم يفكر قط في تلك الفئة المسكينة التي تتبع المسيح بن مريم .

أنسي ذلك الرومي ، ان الذين جلسوا قبله على عرش روما اضطهدوا اتبــاع المسيح قبل ان يضطهدهم يزدجرد ، هـــدموا ومعابدهم ولم يبقوا فيها حجراً على حجر وشردوهم في الآفاق ؟ أنسي تلك المذابح التي جرت فيها دماء المسيحيين كما تجري الانهار ، في اسواق رومـــا وبيروت وانطاكية وفلسطين ؟؟ نه اذا نسي ذلك فالعالم لم ينس وسيعلم بعد حين ان بلاد العرب لم تكن لقمة سائغة في افواه الروم .

فقال المنذر : أتعلم يامولانا في اي بلد تدور رحى الحرب ؟

قال : اذا كان لا بد من ان يزحفوا الينا فجنودنا وجنود الفرس واقفون بالسلاح لا يخطون خطوة واحدة الى الامـــام ، حتى يبلغ الروم نصيبين ، وفي نصيبين تختبر الرجال .

وعلى رغم ذلك الغضب الذي رأى القوم صورته الهائلة سمعوه يقول: ولكننا مللنا الحرب فمتى ينتهي منها الروم فننتهي نحن ? على اننا نحن الذين رفعنا بهرام الى عرش آبائه فلا نخذله . ان الذي يستعين بنا لا نرده ولو كان عدواً . وليفعل الروم ما يطيب لهم فالعرب فتيان الميادين .

ونهض كما ينهض الليث الجريح وهو يجر ذيل ردائه واختفى وراء ذلك الباب الذي دخل منه .

فلما هم القوم بالانصراف ، ظهر الملك ثانية على عتبة الباب وقال لولي عهده : اعطوا هذين الفارسين رسالة الملك وليرحلا اليوم .

قال : لي كلمة يا مولاي !

فاستند الى الباب وهو يصغي اليه .

فحـــاول ان يهامسه فأبعده قائلاً : لا تخفض صوتك يا منذر فالنعمان لا يخاف احداً !

قال : ألا ترى يا مولاي ان نزيد على رسالة الملك سطراً واحداً ?

قال : ماذا ?

– نكتب اليه ان يعد جيشين ينفصل الواحـــد منهما عن الآخر ونفعل نحن مثـــله ...

– والى اين يسير الجيشان ?

– يسير الواحد منهما الى نصيبين بقيـــادة الملكين . ويزحف الآخر الى شواطىء الروم وجبالهم في فينيقية فيملأ البلاد خوفاً وذعراً .

– ومن يقوده ?

– انا يا مولاي فتتضعضع الروم ويتراجع جيشهم مضطرباً من نصيبين ؟

فتردد قليلاً في الجواب ثم قال : ان لك رأياً فاكتب ما شئت .

فقال قصي لرجاله :

ان ولي العهد ابعد نظراً من النعمان وسيكون له شأن .

واحتجب اتباع النعمان في دهاليز الخورنق ، أمـا هو فخرج مع رفاقه الى السوق ، وقد ارتفعت فيها الاصوات وكثر البيع والشراء .

* * *

- ٨ -

بعد ظهر ذلك اليوم ، وصل الى الخورنق رجل يدل مظهره عـلى انه من ابناء العرب .. وطلب مقابلة الملك قائلاً : انه من الحجاز !! وذلك قبل ان يجلس الملك للمظالم .

فاذن له ، والنعمان يظن انه احـد اولئك الرجال الذين شهدوا مجلسه في ذلك اليوم ،

فلما مثل بين يديه رأى وجهاً لم يره فقال :

من انت ؟

قال : جابر الخزاعي من مكة .

- أأنت من رجال حليل بن حبشية سادن الكعبة ؟

- نعم يا مولاي !

- اذكر حاجتك اذن ؟

وكان الجراح التميمي واقفاً ، فقـال : اني انقل الى مولاي الملك حديثاً لا يحسن ان يسمعه احد .

فقال على الأثر: اذهب يا جراح واغلق الباب ،ثم قال: والآن فهات ما عندك.

فجعل ذلك الرجـل يتكلم والملك مصغ اليه ، وعينه المغمضة تختلج ، على عادتها ، اختلاجاً قوياً هو دليل هياج النعمان وثورة نفسه، حتى امعن في حديثه وقص على الملك حكاية اهتزت لها اعصابه واسود جبينه ، فصـاح قـائلاً : افتح الباب يا جراح !

ففتحه ويده على سيفه !! ان لهجة الملك لهجة غضب يعرفها ذلك الحاجب الامين ؛ ففاجأه بقوله : أتذكر اولئك الحجـازيين الذين وطأوا بساطنـا في هذا اليوم ؟

- وتعرف ذلك الفتى الذي يرأسهم وكنا نحدثه ؟

- نعم .

- اذن تخرج الى السوق الساعة وتأمره بالمجيء .

- واذا لم اره يا مولانا ؟

- تقلب الحيرة بطناً لظهر حتى تجده .. فانثنى يريد الذهاب ، فاستوقفه قائلاً : اسمع ، اذا كان مسافراً فأرجعه ، وان كان نائماً فأيقظه واذا لم يستسلم فاضربه وليس عليك من بأس اذا حملته كتلة من الدماء . اخرج الآن ولا ترجع بدونه فتذهب عنقك ..

قال : لنفرض يا مولانا انه ترك الحيرة فماذا اصنع ؟

- تلحق به مع عشرين من الرجال وتفعل كما أمرتاك .

فخرج الجراح وهو لا يعلم في أي شيء استحق قصي ذلك الغضب .

والتفت الملك الى ذلك الذي يدعى جابراً قائلاً له : امـــا انت فامكث في الرواق ولا تتركه حتى ندعوك .

ونهض يروح ويجيء في تلك القاعة كالنمر الهـائج وليس في القاعة احد من رجال البلاط .

حتى مل الانتظار ، فنادى احد غلمانه وقال :

قل لسعيد بن جرول ان يعد السيف والنطع وراء هذا الباب .

وذلك امر لا يفعله النعمان الا عندما يخرج عن حده .

فمن هو العدو الذي اخرج الملك عن ذلك الحد ؟.

كان قصي في السوق يسأل الناس كيف تقام الاسواق ... بل كان اذا رأى فرساً تباع او جملاً يشرى ، يعمد الى سؤال البائع والشاري عن الثمن !! كأنه يريد ان يلبس تاج الحجاز وهو عـالم بكل شيء ، ورجاله معه يذكرون له ما يعرفون عن السوق .

فبينا هو على الحال التي وصفنا تصدى له الجراح قائلاً : لقد شهدت مجلس الملك اليوم ونسيت اسمك فارجو ان تذكره لي .

وكان يخاطبه كما يخاطب الملك لأنه لم يستطع ان يقتحم ذلك الجلال اقتحاماً!
فاجابه قائلاً : اسمي قصي بن كلاب !
– اذن فاتبعني يا قصي بن كلاب باسم الملك .
– الى اين ؟
– الى الخورنق فالملك يأمرك بالمثول بين يديه .
ومشى امامه كأنه يقول له : لا تتردد في الذهاب ، فتبعه ساكتاً وهو يفكر في ذلك الطلب الفجائي .
فأقبل خداش فقال : أيطلبه الملك وحده ؟
– نعم .
– ولا يؤذن لنا في اللحاق به ؟
– ليس ما يمنعكم من هذا ولكن لايؤذن لكم في الدخول .
فقال خداش لرفاقه : لنتبع سيدنا !!
وساروا جميعاً وراء الاثنين حتى بلغوا الخورنق فوقفوا ببابه الخارجي ودخل الجراح وقصي . وما لبثا حتى اصبحا امام النعمان في قاعة الجلوس .
فقال لحاجبه : احفظ الباب ولا تأذن لأحد . امـا انت ايها الفتى فتعال ،
وخطا بضع خطوات الى احد المقاعد فجلس فيه وهو يقول : ويلك مـن انت ؟
قالها وصوته يرتجف .
فقال قصي وهو هـادىء : لقد ذكرت لك اسمي يامولاي ولم اكن كاذباً انا ابن كلاب الكناني !
قال : سنتبين كذبك بعد قليل . قل اين نشأت حتى بلغت العشرين مـن العمر ؟
فعرف قصي التهمة ، فقال ولم يبال : في قضاعة .
– واين منازلها ؟

– بين تبوك ومعان فيما يلي دومة الجندل .

– اذن نشأت في ظل بني غسان.

– بل نشأت في ظل ربيعة بن حرام زوج امي وانا لا اعرف من ذكرت الا بالاسم .

– وماذا كنت تصنع في قضاعة ؟

– كنت ارعى غنم ربيعة وذلك ما يفعله جميع الفتيان في البادية .

– وبعد ذلك ؟

– عرفت اني لم اكن قضاعياً ، فتركت القوم الذين ربوني ولحقت بوطني .

– ولكنك نسيت ان الحارث الغساني دعاك اليه قبل الرجوع الى هـــذا الوطن ومكثت في قصره ثلاثة ايام !!

فابتسم قائلاً : لقد كذب من نقل هذا الى الملك !

– قلنا لك اننا سنعرف من هو الكاذب ، وماذا فعلت وانت في الحجاز يا ابن كلاب ؟

– ماذا فعلت ؟ .. ماذا فعلت في الحجاز يا مولاي ؟؟ ان الحجاز بــــلادي وبلاد آبائي فلم اكن اظن ان الملك سيسألني عن ذلك .

– واذا سألناك ؟.

– اذا سألني الملك اقول : اني افعـــــل في وطني ما اشاء على ان لا أغضب ملك العراق .

– بل اغضبته وتآمرت عليه مع مولاك المقيم بالشام . ألم تذهب منـــذ اشهر الى بصرى ؟

بلى .

– أفلا يجوز ان نسألك عما صنعت فيها ؟

قال : اني طالب مال وقد رأيت قومي اهل الشعاب يرحلون الى ذلك البلد في كل صيف فرحلت معهم .

– ثم رجعت الى منازل قضاعة ، وبينها وبين الشام مراحل ، ثم عدت ثانية

الى بصرى لأمر لا نعرفه فما هو ؟

قال : اما ذهابي الى قضاعة فلكي ارى امي واخوتي ومن حولهم من اهل واصحاب واما رجوعي الى الشام فلأن قومي كانوا ينتظرونني فيها .

– ومن رأيت في بصرى من كبار الغسانيين ؟

– رأيت النعمان بن الحارث ولي العهد في بلاط ابيه ،

– والملك ؟

– ما رأيت له وجهاً .

– وهل كنت تعرف ولي العهد من قبل ؟

– لا ، بل دخلت لأتفرج على القصر لأني لم ادخل قبل ذلك قصور الملوك .

– وكان معك اخوك زهرة .

فخيل اليه ان النعمان نفسه كان في ذلك اليوم ، في بلاط الغسانيين ، فقال : كان اخي ورجل آخر من تجار الشام ، فلما اصبحنا داخل القصر قادنا الحاجب الى رواق طويل يطل على السهل ويتلهى فيه ولي العهد بالرمي ..

– ثم ماذا

– فأذن لنا النعمان في الجلوس معه وجعل يرسل سهامه الى الاهداف ونحن نرى من ضروب الرماية ما لم يره عربي .

فارتفع صوت الملك قائلاً : وتجرؤ ايضاً على اظهار اعجابك بعدّونا ايها الفتى ؟!

– وهل يريد الملك العظيم الذي أخضع الأقطار بقوة سيفه ، وحفظ ملكه الواسع بعظمته وحزمه ، ان اكذبه القول واجعل اعجابي هزءاً ؟؟ اني يا مولاي من اولئك الناس الذين لا يبيعون وجدانهم ولا يمسخون اقوالهم ..

لقد أحاطني ذلك الأمير الفتى بعطف عال وعناية طيبة، ورأيت منه مظهراً جليلاً من مظاهر البطولة فمن اللؤم ان اخفي ما رأيت .

فكاد الملك يظهر استحسانه ، لولا ذلك الغضب الذي تغلي مراجله في الصدر ولولا تلك الوشاية الساقطة التي ملأت نفسه غيظاً .

وقطب حاجبيه وقال : كأنه من اللؤم ان تنسى عطية الغسانيين ، اذكر لنا ماذا اعطوك ؟

قال : لم اطلب إحساناً يا مولاي .

– وماذا طلبت اذن لقاء ذلك العهد الذي وافقتهم فيه ؟

فابتسم ثانية وهو يقول : ان ذلك العهد لا وجود له الا في مخيلة الكذوب الساعي ..

قال : سمعنا انهم اسبغوا عليك النعم وملأوا راحتيك مالاً ، ولنا على هـذا دليل لا تقدر ان ترده .

– ولكن أيذكر مولاي الملك هذا الدليل ؟

نعم ، هـو انك ذهبت الى بصرى مقلاً فرجعت مكثراً فمن اين اتاك المـال ؟

– من اخي رزاح بن ربيعة بن حرام .

قال : متى كان رعاة الغنم يبذلون الاموال ؟

– ومتى كان الغسانيون يعطون الناس بدون حساب ؟

فحدق اليه بتلك العين القاسية وقال : عندما يجعلونهم عيوناً عـلى ملك العراق !!

فتراجع قصي الى الوراء وهو يقول :

أتظن يا مولاي ان في هـذه الارض ملكاً يقدر ان يجعل الفتى الماثل بين يديك عيناً على أحد ؟؟

قالها ونور الكبرياء يضيء في وجهه .

فأجابه وشفتاه ترتجفان : انك اذن ارفع من الملوك يا ابن كلاب !!

– بل انا مثل جميع الناس مولاي ، ولكن نفسي ..! ان نفسي متمردة عاصية لا تطيق ان يستخف بها ملك .

قال : أتجرؤ على هذا ايضاً ؟

– ولماذا لا افعل وانا اخاطب ملكاً تتحدث العرب بعدله ؟

قال : ما رأيت أثراً من آثار هذا العدل قبل الآن .

- ولكني سمعت يا مولاي وهذا يكفي .

- بل يجب ان ترى عيناك ما سمعت اذناك ، لقد أعددنا لك الساعة ما تستحق من الجزاء .

قال : ماذا ؟

فأومأ الى الرواق قائلا : ان السيف والنطع وراء هذا الباب .

فقال وهو لا يخرج عن هدوئه : أتأمر بقتلي يا مولاي ؟

- اجل فانت القائل ان العرب تتحدث بعدل النعمان .

- ولكنك لا تعلم يا مولاي ماذا يقول العرب اذا فعلت .

- وماذا تقول ؟

- ستقول ان ملك العراق نسي في احدى ساعات الغضب انه ملك فأمر بقتل بريء . !!

قال : لو أصغى الملك الى مثل هـذا القول لما كان في البلاد مجرم ، ان جميع الذين تثبت خيانتهم يزعمون انهم ابرياء !!.

- اما انا فلو كنت من هذا الصف لما خفت الموت .. لقد اتهمت يا مولاي رجلا هو اعظم مما تظن .

قال : أصبت ! ولولا هذه العظمة التي ذكرت لما جعلك ذلك الغساني عبداً تنقل اليه اخبار العراق .

فرفع صوته قائلا : لقد قلت لك يـا مولاي ان الملوك لا يستطيعون ان يجعلوني من العبيد ..

- ولكن المال يستطيع ذلك .

قال : لقد ذكرت هذا المال مرتين يا مولاي ، وانا اعترف لك انه مالي ، لا شأن للغسانيين بـه وانت لا تصدق ، كأنك تريد ان تقذف بي الى اشداق الموت دون ان تصغي الا الى ذلك الكذوب الساعي الذي استهان بك يوم نقل اليك ما لا صحة له .

– واذا كان ذلك ؟

– اذا كان ذلك ، فلا حيلة لي في ردّك عما تهمّ به فافعل ما تشاء . ولكن .

– ولكن ماذا ؟

– ولكني انصح لأهل العراق ان لا يحجوا البيت بعد ذلك لأن دمي له ثمن عند اهل الشعاب يا مولاي .. !

قال : أتهددنا ايها العاجز ؟

– وهل تطلب إليّ ايها الملك ان استسلم الى الموت وانا ساكت لا اقول كلمة؟ وتربة كلاب !! وحق البيت الذي تقدسه العرب لئن قتلتني حملت اليك العربان الف جثة من ابناء قومك واشتعلت في الجزيرة كلها نارٌ لا تخمد وفي مكة كناني أتظن يا مولاي اني عربي تائه في الصحراء ، ليس له من يطلب بدمه الذي تهرقه ظلماً في هذا القصر وتلطخ به العرش؟. وهل يخيل اليك اني صعلوك تقتله عندما تشاء دون ان يرتفع بعده صوت ؟؟ إنك ورب الكعبة لا تعلم ماذا تفعل وسترى بعد ساعة . نعم سترى بعد ساعة ، ان لم اخرج من قصرك حياً ، ان اولئك الرجال السبعة الذين شهدوا معي مجلسك ، سيملأون سوق الحيرة جثثاً ويستهينون بالموت ، الى حد أنهم يؤثرون ان يحصدهم السيف على الرجوع الى الحجاز وقد خسروا سيدهم . !

وابتسم ابتسامة الليث الجريح وهو يقول : قم فدلني على النطع ومر رجالك بأن يضربوا عنقي ولكن لا تنسى ان دمي سيبقى في عنقك حتى يثار الحجاز بي .. !!

ولكن ذلك المظهر الغريب لم يؤثر في النعمان ، فقال هازئاً : لقد نسينا انك اصبحت صهراً لسادن الكعبة وان اهل مكة ينتصرون لك لأجل هذا .

قال : كنت سيد قومي قبل الزواج الذي ذكرت .

– ثم اعطاك حليل شيئاً من سيادته ، فقام في ذهنك ان النعمان بن امرىء القيس لا يجسر على قتلك – ألا فاعلم يا ابن كلاب ، أنه لو خطر للملك اليمن ان

يدخل قصرنا ليكون عيناً علينا لضربنا عنقه ومـا نبالي بالجيش الجرار يزحف الينا بعد ذلك .

فعاد الى هدوئه قائلا : ألا يريد النعمان بن امرىء القيس ان يصدق اني من الابرياء ؟

قال : هب ان الذي نقل الينا خبرك كان كاذباً ، أفتقول لنا الآن مـا هو غرضك بالجيء الى الحيرة ؟

قال : اما انه كاذب فنعم ؛ واما غرضي بالحيرة فقد اردت ان اشهد سوقها لاني لم اشهد في الشام اسواق العرب .

– ولكن في الجزيرة اسواقاً غير سوقنا وهي اقرب اليك منا واوسع مجالاً .

فرأى قصي انه لا يستطيع ان يخفي غرضه الى النهاية ، فقال :

ولا اكتمك يا مولاي ان لي غاية اخرى .

– ما هي ؟

– هي ان اشهد في هذا القصر كيف يجلس النعمان العظيم لمظـالم الناس ، ثم انصرف الى بلاد قومي .

– وغير ذلك ؟

– ليس هنالك شيء آخر يا مولاي واقسم لك .

قال : لقد عرف الحارث الغساني ان ملك الفرس لا يطيق ان يقيم النصارى بين شعبه ، وانه سيستعين بنا على طردهم من بلاده ، فبعثك الينا تستطلع اخبار هذا الطرد لينقلها بدوره الى سيده القيصر ، ثم يعد الاثنان عدة الحرب .

قال : ما سمعت اخبار النصارى الا من الملك .

– بل سمعتها من قبل وقد قصهـا عليك الملك في مجلسه وهولا يعلم انك عدوه .. واما قولك انك اتيت لتشهد مجلسنا فما نصدقه ، ولا يخطر بالبال انك تقدم من الحجاز الا لأمر فيه نفع لك .

فبرقت عيناه قائلاً : مـا قدمت الحيرة الا لأرى مجلس الملك ، أفتريد ان تعرف لماذا ؟..

– نعم !.
– اذن فاعلم اني أريد أن أصير ملكاً ..!!
فضحك طويلاً ثم قال : انت ايها الفتى ؟
– نعم وسأضع بيدي تاج الملك على هذا الرأس ..
قال : اذا بقيت حياً ..
– سأبقى لان الملك لا يقتل ملكاً بريئاً هو ضيفه .
فكف النعمان عن مظاهر الاستخفاف وجعل ينظر اليه بعين جديدة هي غير تلك العين القاسية التي كان يرسل منها اليه السهام ، ثم قال :
وتجعل عرشك في مكة ؟
– اجل وفي جوار البيت ليصبح مقدساً محترماً مثله .
– وماذا تصنع بسادن الكعبة ؟
– لا تسألني عن هذا الآن فقد ذكرت لك كل ما استطيع ذكره ولم أخف عنك شيئاً ..
– ولكن هذا لا يكفي .
– بل يكفي ، عندما تعلم ان امر الحجاز في يدي وسأحدث فيه حدثاً بعد حين يتغير له وجهه ..!
– ومن قال لك ان النعمان يطيق ان يرى رجلاً يبني في الحجاز عرشاً ؟
– ان النعمان لا يتصدى لشؤون الحجاز إلا إذا أراد ان يخسر عطف العرب جميعها ويجعل القبائل الكثيرة اعداء له ..!
– وهل يطيعك القوم ؟
قال : أيستطيع الرجل ان يصعد الى القمة الا على اكتاف قومه ؟..
فأيقن النعمان عندئذ بان قصياً ملك مثله .. ولكنه لم يشأ ان يستسلم لظنونه قبل ان يلمس براءته مما اتهم به ، فقال :
وتربة امرىء القيس لا تخرج من هذا القصر حياً الا اذا كنت بريئاً ..
قال : لا تبين براءتي الا اذا ذكرت اسم الساعي بي ..

- بل نفعل اكثر من ذلك ، ان الذي قص علينـا حكايتك موجود في هذا الرواق وسندعوه الآن ..

فنهض عن مقعده وهو يقول : وانا اقسم برب الكعبة لا اغادر الخورنق الا بعد ان يعترف الساعي بكذبه ..

فقال : يا جراح .. أدخل الحجازي الذي ينتظر امرنا في الرواق .

فتلفت التميمي يميناً وشمالا فلم يبصر احداً ، فقال :

لا ارى في الرواق رجلاً يا مولانا .

قال : انظر فلعله في الرواق الآخر .

فقال قصي : احجازي هو ؟

- اجل ومن جيران الكعبة .!

فعض قصي على شفته وهو يفكر في زياد بن كعب ..

قال : عد اعداءك في الحجاز يا قصي ..

- ليس لي فيه اعداء ايها الملك .

قال : رأينا عدوك الآن وهو من النبلاء .

- النبيل لا يتكلم من وراء الستار .. ما اسمه يا مولاي ؟

- دع عنك اسمه فستراه .

قال : يخيل الي أنه خرج من القصر والحراس لا يعلمون .

- وكيف يفعل ذلك وقد أمرناه بالبقاء ريثما تجيء .

- قال : نحن الآن في وضح النهار والنمام لا يظهر الا في ظلام الليل ..

وأرسل نظره الى الباب وهو لا يصدق‌ان ذلك الحجازي يجسر على الظهور

وقد أصاب في ظنه ، فان الجراح كان يقول للملك : لم ار في أروقـة القصر ظلا لهذا الرجل !

قال : ويلك ومتى خرج منه ؟

- لا أعلم يا مولانا .

فوقعت المخفقة من يد النعمان وارتسم الغضب على جبينه ..

أسعى ذلك العربي الغريب بالناس ثم يستخف بالملك فلا يعبأ بامره ولا يبالي بمــا قاله له ؟؟! انها اهانة لا يصبر عليها النعمان ، فقــال : صفه يا جراح لحرّاس الباب الخارجي واسمع جوابهم .

ففاب لحظة ثم أقبل يقول : لقد خرج غيره من الناس فلم ينتبهوا لصفته ..

فقال : فرّ ورب الكعبة ..!

ثم تناول مخفقته قائلاً : اخرج في أثره مع فريق من الحراس ولا تعودوا الا وانتم تجروه جراً ..

ومد يده الى قصي وهو يقول : لقد استهان بنــا النذل وكذب .. فهذه يد الملك تمتد اليك .

فقبلها الفتى بالاحترام وظهرت الابتسامة على شفتيه .. ولكنه ظــل ساكتاً حتى اختفت آثار الغضب فقال:أرأيت الآن يا مولاي ان هذا الفتى لا يكذب.

– رأيت وسمعت فانت الآن في جواري ولك ان تقيم بالحيرة مــا شئت .. ولكن ألا تعلم من هو صاحبك هذا ؟

– لو عرفت من هو لسميته لك ، ان في مكة رجلاً واحــــدا لا ينظر الي بعين الحب .

– أتذكره ؟

– لا يا مولاي فأنا لا أريد ان أتهم أحداً دون ان اراه ..

قال : ذلك درس تلقيه على الملك الآن ... وما هي صفته ؟

– طويل القامة اسمر اللون وهو في فجر الكهولة ..

قال : ليس هذا صاحبك الذي هزأ بنــا ، انه ربعة وعيناه زرقاوان يبرق فيهما الرياء ..

فتنهد قائــلاً : اشكرك يا مولاي فقد محوت الظنون التي كادت تقتلني منذ ساعة .. انه اذن عدو لا أعرفه .

– ستعرفه عندما يقبض عليه الجراح ..

قال : لو اراد ان يمثل مرة اخرى بين يدي الملك لما عمد الى الفرار .

وبينا هما يتحادثان سمعا صوت الجراح التميمي فناداه الملك قائلاً :
ماذا صنعت ؟
قال : لم يخرج من الحيرة احد منذ هذا الصباح ..

قال : لقد بحثت عنه في اروقة الخورنق ودهاليزه فلم تر له وجهاً ، وسألت الحراس فقالوا لك انهم لم يبصروه. ثم تقول الآن انه لم يخرج من الحيرة ، فلم يبق الا ان تغزو بخيلك وحراسك هذه السماء فلعله ركب ظهر طائر وتغلل فيها .

فقال قصي : ألا يقوم رجالي بباب القصر ؟
– بـلى .
قال : اذا أمر الملك فليحضروا فلعلهم رأوه .
فقال الجراح : سألتهم فلم يعرفوا اكثر مما عرف الحراس .
قال : لينس الملك هذا الحجازي الكاذب فقد نجا ..

فأجابه قائلاً : لقد اردنا ان نجعله فوق النطع الذي اعددناه فلم نقدر فأكرهنا الزمان على النسيان .

ونظر الى التميمي قائلاً : قم فاخرج الى ساحة الخورنق وتمشّ بين الوفود ويدك على سيفك . انك لا تعرف غير هذا . اخرج ولا ترجع الا اذا دعوناك . وقال لقصي : وانت ايها الفتى لقد روعناك فانس هذه الساعة كما نسينا صاحبك وسيصل اليك احساننا وانت في السوق . واذكر ، ان في العراق ملكاً يطيب له ان تسود الحجاز وتصبح ذا عرش . ولكن اذا رأيت ذلك الرجل الربعة الأزرق العينين فانقل اليه تحية الملك .

وفي تلك الساعة اقبل بعض الوفود .

فلما دخل الجراح ليستأذن لهم قال له : خذ وفودك وانصرف عنا فلا نطيق ان نقابل احداً في هذا المساء .

ومدّ يده ثانية الى سيد الشعاب ثم احتجب وراء الباب الآخر الكائن في صدر القاعة .

فمشى قصي الى الخارج وهو يفكر في ذلك الرجل الشريف الذي قدم الحيرة من الحجاز ليسعى به . وعلى رغم تلـك الصفة التي ذكرها له النعمان ، كانت صورة زياد بن كعب لم تزل ماثلة امام عينيه .

* * *

- ٩ -

عندما رأى رجال قصي سيدهم خارجاً من الخورنق مشوا امامه الى المنزل الذي يقيمون به وهم لا يقولون كلمة .

ذلك لانهم رأوا آثار التفكير على جبينه والاضطراب في عينيه .

ولم يكن خداش بن عبيد معهم ؛ فلما وصلوا قال قصي :

اني لا أرى خداشاً فأين هو ؟

فاجابه احدهم قائلاً : لقد رأى احد ابناء عمه في سوق الحيرة فلحق به .

— أيكون في الحيرة رجل آخر من كنانة ونحن لا نعلم ؟

— اذا لم يكن من كنانة كان من خزاعة وكلنا في مكة ابناء عم كما ترى .

فابتسم قائلاً : اراك تعني ذلك الرجل الذي خرج من الخورنق .

— نعم وقد خيل الينا انه من الخزاعيين امراء مكة .

— ولكنكم قلتم لحاجب الملك انكم لم تروه .

قال : لقد كرهنا ان ندلّ الملك على حجازي .

— ومن قال لكم ان الملك يضمر له شراً ؟

— رأينا ذلك الشر في عيني الجراح .

— ومع ذلك فلستم واثقين بأنه من خزاعة .

— لقد استطاع خداش ان يرى عينيه ؛ فقام في ذهنه انه رأى تينك العينين من قبل .

— والى اين لحق به الآن ؟

— مشى الى السوق فمشى وراءه ونحن لا نعلم الى اين !

قال : اريد ان اعرف الرجل قبل ان نغادر الحيرة .

– ألم تره في مجلس الملك ؟

– لا ، حتى ان الملك لا يعرف اسمه الذي ذكره له .

قال : سيرجع خداش بعد ساعة حاملاً اخباره .

– بل أرغب اليك ان تذهب انت في أثر خداش تستعجله في قضاء هذا الامر .

قال : لنفرض ان الرجل اختبأ في مدينة النعمان .

– نمكث على ابوابها شهراً كاملاً حتي نراه خارجاً منها .

فعرف الرجل ان قصياً لا يلجّ في ذلك الطلب الا لأمر خطير يهتم له الاثنان هو والنعمان .

فهمّ بالذهاب فرأى خداشاً بالباب ، فقال له : كنت الآن ذاهباً في طلبك .

قال : أعاد مولانا ؟

فقال قصي : لقد عدت وأنا اسأل عنك ، قل الآن ارأيت ذلك الرجـــل الذي خرجت في اثره ؟

– رأيته ودار بيننا حديث اقصه عليك .

فاستوى في مجلسه قائلاً : لا تنس كلمة .

قال : يظهر ان لك شأناً مع الرجل .

– نعم وما رأيت في حياتي أغرب من هذا الشأن .

– اذن كنت مصيباً في لحاقي به .

– اجل فخبرّنا الآن كل ما سمعت ورأيت .

فجعل يروي لهم حكايته مع الرجل وهم يصغون اليه .

* * *

خرج جابر الخزاعي من الخورنق محجباً لا يبين من وجهه غير عينيه ، كما قرأت .

فرآه خداش ، وعرف ان عينيه خزاعيتان فمشى خلفه وهـــو لا يعلم اي باعث قذف بذلك الخزاعي الى العراق ثم الى قصر النعمان .

وكان جابر قد رأى القوم ، فارتجفت ركبتاه اولاً ثم هدأ روعه وسار لا يلتفت الى الوراء . حتى اختلط بالناس في السوق وجعل ينظر الى جانبيه كأنه طالب حاجات له ، يختارها بعد الدرس والاختبار . فتغلل خداش مثله بين الصفوف التي تغص بها السوق ، وعيناه تتبعان جابراً لا يطرف لهما جفن ..!

ولكن، لم يبق على جابر . بعد ان بلغ آخر السوق الا ان يدور دورة قصيرة بين البيوت ، ثم يصبح في الخلاء ، وهنالك الطرق تمتد الى الاقاليم .

فخشي خداش ان يفعل ذلك فتضيع غايته ، فأسرع في مشيه وكان متثاقلاً حتى رأى البرّ امامه وجابر يهمّ بأن يركب ناقة له كانت هناك .

فوضع يده على كتفه قائلاً :

أرى عباءة حجازية وعينين أعرفهما .. فلم يستطع صاحبنا ان يخفي نفسه ، بعد تلك المفاجأة التي رأيت فقال له: خداش بن عبيد، وماذا تصنع في الحيرة ؟

– قدمتها مع قصي بن كلاب وسادة العشيرة ، وانت ؟

– اما انا فقد قدمتها وحدي كما ترى . قالها وهمّ بالركوب .

فعرف خداش الصوت ، فقال : خيل اليّ انك انت قبل ان اسمع صوتك أتعود الان الى مكة ام ماذا ؟

– أعود الى ، ذو طلوح ، فامكث فيها بضعة ايام ثم انتقل الى ديار بني غطفان فما بقى فيها ليلة واحدة .

– ومتى قدمت الحيرة ؟

فتردد في الجواب ثم قال : منذ عشرة ايام !!

– اذن جئت لتحضر السوق ، ثم لترى الملك وقد رأيته اليوم فهل اعطاك شيئاً ؟

– لولا طمعي بعطية المال لما دخلت الخورنق . نعم اعطاني ما في هذا الجراب من مال .

– عجباً .! أيجيء ابو ضمرة احد أمراء خزاعة الذين يملكون في مكة كل شيء فيمد يده الى النعمان طالباً احسانه ؟؟

– لقد كنا نملك كل شيء قبل هذا العام الجدب الذي لم يترك لنا شيئاً. ومع ذلك فليس لأحد ان يرد عطية الملوك ولو كان من اغنى الناس .

فابتسم قائلاً : ولكن لم نر ملكاً اعطى احداً درهماً بدون طلب .

فكاد ابو ضمرة يفقد صبره لما يراه من فضول خداش الذي لا معنى له . ولكنه كان يخشى ان يقول كلمة فيفضح نفسه وتظهر الغاية من مجيئه الى العراق، فقال : اصافحك الآن على ان نتلاقى في مكة بعد شهر .

قال : لي كلمة اخرى ايها الأمير ؟

فقبض على زمام ناقته وجعل ينظر اليه وعيناه تقدحان شرر الغضب والحسد ..

ان خداشاً من رجال قصي وهذا يكفي .! ثم قال : كلمتك يا خداش .

قال : ألم تبصر قصياً في بلاط الملك ؟

– لم أبصر غير الملك وحاجبه .

– والآن ، منذ ساعة . ونحن قائمون بباب البلاط . ألم تقع عينك علينا نحن جيرانك في مكة ؟

قال : لم تقع عيني الا على الحراس الواقفين كالتماثيل .

– حسبت انك لا تريد ان ترى احداً من اهل الحجاز .

فتمتم قائلاً : اني لا اريد ان أرى احداً من اهل الشعاب .

ووثب الى ظهر ناقته وهو يقول : الى اللقاء فنحن قوم لا نطيق البقاء في العراق اكثر من يوم .

– ولكن مضت عشرة ايام وانت فيه !

فلم يسمع خداش جوابه لانه كان قد وضع رمحه بين اذني ناقته فجرت كالفرس الكريم . كذلك لم يسمع خداش تلك الجملة الاولى التي ترددت في صدره وخرجت كالهمس من فمه .. ووقف ينظر اليه حتى غاب عن نظره ؛ فرجع

وهو يعجب لذلك التحجب الذي يلجأ اليه امير مثل أبي ضمرة في عاصمة اللخميين .

* * *

ذلك ما قصّه خداش على القوم .

فقال قصي : انا احد ابناء مكة ولا اعرف من امراء الخزاعيين من هو ابو ضمرة هذا ؟

– هذا سيد حيّه ومن امراء المواسم .

فتنهد قائلاً : كنت أوثر ان يعثر عليه حراس الملك فيمثل بين يديه من جديد !

– وهل طلبه الحراس ؟

– اجل طلبوه لأمر لا يخطر ببال أحدكم ، ألم تعلموا لماذا قدم الخورنق ؟؟انه جاء يدلّ النعمان على عدو له !!

فارتفعت اصواتهم قائلين : امير من الحجاز يفعل ذلك ؟

– نعم وقد خدمه الحظ فكان عدو الملك في الحيرة .

– وماذا صنع النعمان ؟

– ارسل حاجبه فدعا ذلك العدو وحدثه بالأمر .

– ثم انفجر صدره فأصدر الحكم عليه بالموت وانتهى كل شيء .

– لا يا خداش . ان الملك لم يشأ ان يصدر ذلك الحكم الا بعد ان يعترف عدوه بذنبه امام الساعي به !

– وبعد ذلك ؟

– وكان ابو ضمرة في الرواق فلما طلبه لم يجد غير الجدر .

قال : هب ان ابا ضمرة كان كاذباً في سعايته ، أفيهون عليك ان تسلم سيداً من سادات مكة الى الملك ؟

قال : ورب الكعبة لو عرفت في تلك الساعة ان الرجل في حضن ملك الفرس لما تردّدت في القبض عليه ولو قتلت .

فاستولى الاستغراب على القوم . ان ذلك العداء يضمره قصي لرجل من جيران الكعبة لم يكن من شيم النبلاء . ومع ذلك فهو لا يعرف ابا ضمرة وقد لا يعرف ذلك العدو .

فقال خداش : وما الذي يدعوك الى هذا وانت ابن كلاب ؟

– يدعوني اليه ان الرجل الذي صوره للنعمان عدواً كان بريئاً .

– وكان عاجزاً عن اثبات براءته فتوليت انت أمر الدفاع عنه .

– أصبت فهو احب الناس اليّ ولا يستطيع احد ان يتولى ذلك الأمر كما يتولاه قصي . ! ان ذلك العدو البريء هو انا !

فاصفرت وجوههم وسادهم الصمت !

ابو ضمرة الخزاعي يترك مكة على ناقة له مقتحماً أخطار الصحراء ليقذف بقصيّ إلى اتون النار ؟؟ !! انها تشبه حكايات الجنّ التي تقصها العجائز على الغلمان !!

وأي سبب يحمل ذلك الأمير على ما فعل وهو من انسباء سادن الكعبة الذي أحب قصياً وآثره على فتيان قومه ؟!!

ثم خطر لهم ان سيد الشعاب يهزأ بهم .

فاستعادوا قوله فأعاده ويده على جبينه كأنه لا يطيق ان يستعيد في ذهنه ذلك الحادث الغريب الذي جرى له في بلاط النعمان .

فقال شيبة بن حبيب : ألا تذكر لنا ما الذي قاله للملك ؟

قال : لقد نقل اليه اني من جواسيس الملك الغساني واني لم اقدم الحيرة إلا للأطلاع على اسرار القصر !!

ثم قال : ألا تذكرون ذلك اليوم الذي دخلت فيه بلاط الغسانيين في بصرى في الصيف الماضي ؟

– بلى !

– ان النعمان يعرف ذلك ويزعم ان ملك الشام ملأ راحتيّ مالاً فبعته نفسي بذلك المال .

قال : لقد عرف اللعين ان يوغر صدر الملك ونسي ان الروايات الكاذبة لا تعيش .. وماذا صنع الأعور ؟ وهو يعني النعمان .

– خيل إليّ ان صدره يكاد ينشق من غضبه .. ثم سمعته يتهدّد ويذكر النطع والسيف وانا ساكت هادىء لا يرتفع لي صوت ، حتى انتهى من التهمة فرددتها بصبر وسألته أن يأمر الرجل بالرجوع الى القاعة ، فطلبه الحاجب فلم يره كما قلت .

والآن ! فقد قلت يا خداش ان اميرنا سافر الى مكة أليس كذلك ؟؟

– نعم .

– اذن اسألك ان تدلني عليه يوم نصل اليها .

قال : وما هي غايتك من هذا ؟

– غايتي ان اطبع صورته في ذهني فلا تفارقه عمري كله .

فهزّ رأسه قائلاً : ولكنك لا تحتاج الى ذلك ، فأنا سأمحو لك هذه الصورة بحد هذا السيف .

فصاحوا جميعهم : لقد كتب لأبي ضمرة ان يموت من أيدينا .

قال : أمنع هذه الأيدي من ان تمتد اليه الآن .

– وكيف نصبر وهو يفضحنا في مجالس الملوك ويدفعنا الى هوة الموت ؟؟انه ضعف لايرضاه بنو كنانة .

– بل هي الحكمة فنحن لا نرضى ان نقابل عدونا الا في الميدان .. اصبروا فقد اتت الساعة وسيتعلم الأمير الخزاعي كيف تكون السعايات .

واستولت عليه في ذلك فكرة جديدة ، هي ان زياد ابن كعب وأبا ضمرة هذا مشتركان في الجريمة ، وفاته ان الواحد منهما لا يطيق ان يرى الآخر .

ومن الطبيعي ان يفكر في ذلك اذ ليس من المعقول ان يقوم ابو ضمرة وحده بتنفيذ هذه المهمة الصعبة وهو لا يعرفه ، ولكنه كتم قومه تلك الظنون فلم يبح بها لأحد ، غير ان شيبة بن حبيب لم يكتف بما سمع فقال : يظهر ان لك فيمكة اعداء يا مولاي .

قال : هذا سؤال وجـّه اليّ النعمان مثلهولم أتردد في الجواب . ان في مكة

قوماً يقتلهم حسدهم فهم يعيشون كما تعيش الذئاب في الصحراء .
– أتعرفهم يا مولاي وتكتمنا أمرهم ؟
– وهل يليق بالرجال ان يفشوا جميع الاسرار .. قلت لكم ان في الصبر فرجاً ، وسترون ..
وكان الليل قد سدل ستاره على الحيرة . وقد التف كل واحد منهم بعباءته يريد ان يستسلم للنوم . ، فأقبل احد رجال البلاط يحمل عطايا الملك .
فجعلها قصي سبعة أقسام تناولها رجاله ولم يأخذ منها شيئاً .
وعندما اغمض اولئك الرجال اجفانهم استيقظت نفسه ومثلت امام عينيه صورة العرش.

* * *

– ١٠ –

فتى ، حلو الشمائل جذاب الملامح ، يركب بعيراً ابيض . وشعره مثل شعر المرأة مسترسل على كتفيه ..!
رأوه في اول بلد من تهامة . يقف في الساحات ثم سمعوه يصف للناس يزيد ابن ربيعة ولا يذكر اسمه . كأن في ذكره خطراً على صاحبه !!
انه صفوان بن الحارث يطلب رأس جبير . وقد مكث في ذلك البلد يومين كاملين . ثم انتقل منه الى روضة ، البلد الصغير الذي سبقه اليه يزيد ورفيقاه كما مر .وفي روضة لا ضيع أحد... منازلها خيام لا تبلغ المئة . بينها خيمة كبيرة يجتمع فيها القوم كل مساء ، هي خيمة الرجل الذي يحمي الحيّ ، فعرف صفوان أن ابن ربيعة لم يقم بها غير يوم واحد ، ثم تركها الى «هوارة» ،
وفي هو رة عرف انه في « جمح » وهناك تلاقى الاثنان ، فجعل يزيد يقصّ عليه اخبار سفره وحكاية رفيقيه ، وقلب صفوان يخفق مضطرباً في صدره . ان فشل يزيد في سعيه يعني فشله هو في ذلك السعي ولا يبقى امامه بعد ذلك إلا ان يخسر ليلى الى الأبد ، فيخسر صفو العيش ونعيمه ، ويقضي العمر كله محترقاً بنار الغرا

وكان ينظر الى الافق البعيد كأنه يريد ان يتبين ما وراءه ، وقد ذكر في تلك الساعة قول كاهنة الشماب : ان القاتل في تهامة .. ولكن تهامة واسعة الحدود بعيدة الاطراف ، فأين يجده فيها وإلى أي بلد يشدّ رحاله .. وهل تكذب سودة وهي كاهنة كنانة ، والقوم جميعهم يحترمون الرأي الذي تراه ، في السلم والحرب ؟؟

انه موقف تحيّر فيه . أيرجع الى الحجاز فيقول لزياد : لقد عجزت وانا لا استحق ليلى ، ام يطوف في البلاد ولا يعود إلا ورأس القاتل بين يديه ؟! اوهب انه رأى جبيراً وجهاً لوجه واستطاع ان يضرب عنقه أفلا يجوز ان يكون القتيل جاراً لسيد من سادات تهامة ، فتحيط به الخيل ، ويقتلوه حفظاً لحرمة الجار ؟؟. وهل يعمد صفوان بن الحارث الشريف الكناني ، إلى قتل عدوه طعناً بالخنجر في ظلام الليل كما يفعل اللصوص الذين يسرقون الدماء ؟ وكيف ينجو من اهل تهامة إذا ضرب ضربته ولجأ الى الفرار ؟؟

لقد عرف زياد ماذا يصنع فطلب اليه رأس جبير ليحول بينه وبين الزواج ، وهي احدى المكائد التي يستعين بها الرجال .

وكان ذاهلاً وقد غمرته الكآبة .

فقال يزيد : أتسكت ونحن بحاجة الى الرأي ؟

قال : لقد طلقني الرأي في هذا اليوم ، انا واثق بأن ابن عبادة في تهامة ولكني لا أعلم في اي موضع هو .

قال : نزور هذا القطر كله لا نترك فيه بلداً حتى نعثر عليه .

– وتعود الى مكة بعد عام وانت لم تر احداً .

قال : اني اشتغل لنفسي فلا يهمني مر الاعوام .

– وانا ؟

– اما انت فلا يطيب لك ان يمر الزمان وانت بعيد عن الشماب .

– وهذا معناه اني اشتغل لحساب غيري .

– اجل لحساب زياد بن كعب .

فقــال في نفسه : مسكين يزيد فهو لا يعلم اني أبذل دمي في سبيل الوصول الى قاتل ابيه .

وابتسم قائلاً : لك يا يزيد ثأر ولي مثله فلا تسألني عن سببه .. يكفي ان تعلم اني اعطي نصف حياتي من يدلني على صاحبك ..

– وانا أعطيك كل ما أملك، على ان تذكر لي هذا السبب الذي تخفيه ؛

فعاد صفوان الى السكوت .

قال : لقد خطر لي ان اسألك عن هذا يوم تركت مكة .

– لو فعلت لما سمعت جواباً !

– لكني افعل الآن ولا ابالي. قل يا صفوان أتخرج في طلب رجل اهان زياداً وقتل مولاه ؟؟!

– نعم وليس هنالك عيش يطيب لي الا اذا قتلته .

– وأي شأن لك معه وزياد بن كعب ليس من قومك ؟

– لقد ذكرت لك هذا الشأن في يثرب ؛ فاكتف بما ذكرت .

قال : اقسم لك اني لا اذكر من ذلك الحديث كلمة .

– ألم اقل لك ان ابن عبادة عدو احد الامراء واني عاهدت ذلك الأمير على الدفاع عنه ؟

فرفع عينيه الى العلاء قائلاً : بلى فقد ذكرت !

– وتذكر ايضاً تلك الكلمة التي اعيدها الآن « ذلك سري فلا أبوح به » .

فحنى يزيد رأسه وهو غير راض بما سمع ..

فقال : ماذا تريد بعد ؟

فأومأ اليه بأن يتبعه الى ظلال النخيل وهو يقول: اريد ان اعرف هذا السر الذي تكتمني اياه .

قال : سأستمر على عهدي لزياد وهذا سري ..

قال : ما رأيت زياداً عاجزاً عن ثأره . انه من كبار الامراء الذين يملكون الرجال والمال .

- وانا لم اكن عاجزاً عن الوفاء بوعدي . خبرني الآن عن هذا الأبله الذي وضعت يدك بيده وهو لا يعرف غير خيمته ..

قال:انه يشبه اخي الذي قتل في الشام،وقد استعنت بهذه المشابهة على قضاء الامر الذي خرجت لأجله ..

قال : أترحل غداً ؟

- بل ارحل الآن وتعود انت !!

- لماذا ؟

- لأني سأفي بما وعدت زياداً وينتهي الأمر !

فضحك قائلاً : يعد صفوان ويفي يزيد !! انها والله احدى غرائب الزمان!

قال : انك تطلب رأس جبير وانا سأعطيك اياه .

قال : لو كانت هذه غايتي لأرسلت عشرين رجلاً من كنـــانة يبحثون عنه ويحملون رأسه !

- وماذا اذن ؟

- اريد ان يكون سيفي أول سيف يسقط على عنقه .

- وهل تملك الحجاز اذا فعلت ؟

- لا املك شيئاً ، بل اطفيء هذه النار الملتهبة في الاحشاء ..

- ثم تحمل رأس الافعى فتطرحه بين يدي زياد قائلاً له : هـــذا مهر ليلى فزوجني الآن ..!

فنظر اليه مستغرباً ..

قال : لقد صدقت ظنوني فلم يبق سبيل الى الكتمان .

- ومن قال لك اني طالب زواج ؟

- قالوا لي انك عاشق يكاد يقتله الغرام ..

قال : لو أنصفت العرب لجعلتك كاهنها . انك تقرأ الافكار وتعرف مـــا في الصدور من اسرار ..

- وأرى ما في العيون من وميض نار ..

فكادت الدموع تظهر في عيني صفوان . ان ليلى كانت تملأ قلبه .. والهم يملأ نفسه . وليس في الصدر ظل لأمل او رجاء .

فقال يزيد : أتظن انك قادر على اخفاء غرامك ؟

فهم بالرجوع وهو يقول : ليس هنالك غرام كما تظن !

قال : لقد عرفت الآن كل شيء فاعترف لي .

فتمتم قائلاً : اكتف بما عرفت ..

- بل اريد ان يصف لسانك هواك ..

قال : أتستلذ احاديث الهوى يا يزيد ؟

- نعم !

- اذاً فاعلم اني عاشق وقد فتنت بجمال ليلى .

- وهل بحت لها بغرامك ؟

- اجل فالقلبان متفقان متعاهدان على الوفاء ..

- ولكنك لا تعلم متى يأذن زياد في الزواج .

- بلى أعلم ان الزواج يأذن فيه رأس ابن عبادة !.

قال : لقد عرف ابن كعب كيف يبعد العاشقين .. وسكت قليلاً ، ثم قال : اتذكر يا صفوان ، اننا زرنا امير صوفة بعد رجوعنا من يثرب ؟

- نعم .

- لقد رأيت في ذلك اليوم اموراً لم تزل في الصدر .

قال : ماذا ؟

- ان زياد بن كعب لا يحب سيد الشعاب ..!

- وتعرف هذا ايضاً ؟

- اجل فقد رأيت البغض بصورته الهائلة مطبوعاً على وجهه ؛ ثم لمست بيدي هذه الصورة في حديثه ، وانا لا اعلم الى الآن اي حادث جرى بين الاميرين حتى تباعدا ...

قال : لم يرَ احدهما الآخر غير مرة واحدة في قصر حاجب البيت .

ويظهر ان تلك المقابلة الأولى كانت كافية .. ثم خفض صوته قائلاً : ان الذي يطمع فيه قصي يطمع فيه زياد ولا يفصل بينهما الا السيف .

قال : اسألك بتربة ربيعة الا تحدثني بهذا ؛ فقلبي اضعف من ان يحمل عاطفتين .. والآن أقترح عليك اقتراحاً ، ألم تقل ان الفتى الآخر الذي يدعى سناناً يعرف ابن عبادة ؟

– بلى !

– اذن خير لك ان تترك هذا البلد معه وحده ؛ ثم اتبعك بعد قليل مع موسى الابله فلا نلفت الينا انظار الناس .

قال : ألا تؤثر الرجوع على الرحيل ؟

– لا ، ولا ارجع حتى امر باحياء العرب جميعها أو أظفر بعدوي ؛ ولكن هنالك امراً لم اذكره لك ، ألم يكن جبير في مكة يرى الناس كلهم من وراء ثياب المرأة ولا يراه أحد ؟

قال : اتراه يفعل في تهامة ما كان يفعله في الحجاز ؟

– هكذا يقوم في ذهني فاحذر النساء !

قال : لولا هذه الكلمة لنسيت ذلك .

ورجعا الى الموضع الذي اختاره يزيد ؛ فمكثوا جميعهم فيه الى الصباح ؛ ثم رحل يزيد وسنان ، على ان يتبعهما في صباح اليوم الثاني موسى وصفوان ..

* * *

نجا يزيد من شؤم موسى ، فوقع فيه صفوان !

وحكاية هذا الشؤم . ان ذلك البعير الأبيض المتمتع بالصحة والعافية ، مات في مساء اليوم الذي سافرا فيه ..

وكان موسى يقول :

ما خلقت إلا لأدفن جسمي في الرمال ، ولا ارفع نظري عن التراب .

وصفوان لا يبالي بقوله ولا يعبأ به .

وقد اضطر الاثنين الى حمل الزاد والماء مسيرة يومين طويلين ، حتى بلغا

حياً كبيراً من احياء مدركة أميره عقيل بن جعدة ، وقد تقدمها يزيد وسنان الى ذلك الحي وهما لا يعلمان اين نزلا .

وكانت بيوت القوم متباعدة والنساء والرجال ينظرون في أمر الماشية الكثيرة التي تأوي الى جوار تلك البيوت .. حتى تحتجب الشمس وراء الافق فتنصرف الرجال الى الجلوس في الساحة الكبرى امـام خيمة عقيل ، وتبقى النساء للحلب .

وكان الضيفان قد نزلا في خيمة لا جوانب لها اعدوها لهما بالقرب من بيت الأمير ليحسن اليهما بطعامه الخاص . وتلك هي عادة ذلك الحي في ضيافته ، فلما ألقيا ما يحملان ، انبطح موسى على بطنه واستقبل الأرض بوجهه لا يرفع رأسه ولا ينظر الى ما حوله !

فقال صفوان : ما هذا يا موسى ؟

قال : لا اجسر على النظر الى أحد لئلا يسبق نظري الموت فأكون رسول دمار الى هذا الحي !! فضحك على رغم همه ، وجعل يهزه بسيفه ليجلس معه فلم يفعل ؛ بل لم يتحرك كأنه قطعة جماد !

وكان القمر بدراً يبسط نوره على ذلك البر الهادىء الذي يشبه سطح البحر. فبينا صفوان يداعب رفيقه لينسى همه أقبل عربي يدعوهما الى الساحة بامر الأمير ؛ فنهض صفوان وهو يومىء الى موسى قائلاً للرسول : لقد أكل كثيراً من التمر حتى صرعته شراهته فهو لا يستطيع النهوض إلا في الصباح .!

قال : عندنا شراب نسقيه .

– دعه فقد يقضي الشراب عليه الآن ، وخرج الاثنان حتى وصلا. فرأى صفوان الأمير قاعداً على الارض ، وسيفه على ركبتيه وهو يصف لقومه شجاعة جده وأبيه في الميادين . وفي الجانب الآخر نار مشبوبة عليها القدور للأضياف .

فقال عقيل : مرحباً بك يا جار الكعبة . ونظر الى عبده قائلاً اين الآخر ؟

– مريض يا مولاي !

فقطب حاجبيه وهو يقول : أفلا يذوق طعامنا ؟

– بلي يا مولاي على ان لا تجعله تمراً فيأكل منه حتى يسقط على الأرض كالزّق المنفوخ !!

قال : طب نفساً فلا تمر عندنا . وانت ايها الفتى الى اين ؟

فقال صفوان : الى آخر حد من حدود تهامة حتى اصل الى البحر ؛ ثم اعود الى مكة ومنها الى نجد .

ونظر الى جانبيه عله يرى ذلك الوجه الذي يبحث عنه .

فقال : سفر طويل لا اظن إلا انه لثأر .

– لا ايها الأمير ولكن نذرت ان اطوف ماشياً في البلاد التي ذكرت ، وانا افعل الان .

– الا تعلم ان العام الكامل لا يكفيك ؟

– اعلم ذلك ولا اهتم له ولكني لم أترك الحجاز حتى تولاني الندم على امر آخر ذهلت عنه ، هو اني لم ادع أحد ابناء قومي ليكون رفيقا لي .

– ومن هو عاشق التمر الذي ذكره الرسول ؟

– هو احد ابناء هذه البلاد يا مولاي . ثم قال : ألا يمر بهذا الحي بعض الحجازيين الذين يبيعون ويشترون ؟

– لقد مرت هذه السنة ونحن لم نر حجازياً . اننا نعرف أهل الحجاز دون ان نسألهم . نعرفهم من لباسهم الذي لا يغيرونه . وقد عرفناك انت انك منهم ولم نسألك . واعلم ايها الفتى ، انه لا ينزل في حينا غريب الا ونعرف من هو .

والتفت الى رجاله وهو يقول : اين نزل الغريبان اللذان اقبلا علينا امس ؟

فأومأوا الى خيمة منفردة تقوم شمالي الساحة قائلين : هذا بيتهما .

قال : واحد من الشام والآخر من تهامة نزلا علينا امس واكبرهما حلو الحديث فصيح اللسان .

فأيقن انهما يزيد وسنان ، فقال :

اذا اراد الامير فليجعلنا جميعنا في بيت واحد لان الغرباء يأنس بعضهم بالبعض الآخر .

– لقد فعلت . خذوا الشامي ورفيقه الى الخيمة الاخرى واحملوا لهم الطعام .. وماذا تطلب غير ذلك ؟

فعمد الى البحث معه الى النهاية ؛ ولكن من وراء الستار فقال : أينتمي حيّ الأمير كله الى بني مدركة ؟

– اجل، فكلنا من فرع واحد وليس بيننا نسب غريب .

– ولكني سمعت انكم حلفاء بطون اخرى تمشي تحت رايتك .

– لقد كذب الذي قال هذا .. يجيء ضيفنا ، ولو كان حياً كاملاً ، فيقيم بيننا ثلاثة ايام ثم ينصرف ..

– وما هو حال اللاجئين اليك من العرب ؟

أتعني الذين يدخلون في جواري ؟

– نعم !

– اولئك نفر قلائل ليس لهم شأن في الحيّ .

– أظن أن جموعهم تفد اليك في كل عام .

– اجل فيبقى البعض ويرحل البعض الآخر، وقد يطيب العيش لاحدهم فيقيم بيننا الى الابد .

قالوا : مررت ببني بجيلة فرأيت عندهم جيشاً جراراً من الجيران ، فيه النساء والغلمان .

قال : اخطأت ، فليسوا إجيراناً لهم كما تظن ؛ انهم يمرون بديارهم كما يمرّ جميع الناس .

وقهقه ضاحكاً ثم قال : لحيّ لا يلجأ الى الحيّ ، بل الى القبيلة لتحميه من عدوّ له . عندنا اثنان لا ثالث لهما يقيمان في جوارنا هما رجل نجدي وزوجته ؛

فارتجفت شفتا صفوان وجعل قلبه يخفق مضطرباً .. ألا يجوز ان يكون هذان النجديان جبيراً ومولاه ؟. وهل يسأل الامير عن صفتهما فيثير ظنونه ام يعمد الى الصبر حتى ينقضي الليل فينظر في وضح النهار، في أمر هذين الغريبين؟

ولكن الحظ قد يخونه غداً ، وقد يستفيق من نومه في الصباح فلا يجد لهما في الحي أثراً !

فقال : لقد بعد صيت الامير حتى بلغ نجداً فأقبلت عليه منها الوفود .

قال : هذا رجل خائف لم يجره احد في بلاده كرامة للقتيل الذي قتله وخوفاً من قومه .

– انه اذاً من اشقى الناس .

– ولكنه رأى في تهامة من يجيره فهو عندنا منذ بضعة شهور

فقال وقد زاد اضطرابه : أليس له أهل يا مولاي ؟

– كان له عشرة اولاد حصدتهم حروب نجد واليمن .

– ممن هو ؟

– من ربيعة وقد قتل امير قومه .

قال : هب أن القوم في نجد عرفوا مقره وطلبوه .

قال : يفنى حيناً جميعه قبل ان تصل اليه يد عدوه . ان بني مدركة لا يضيعون حرمة الجار .

– وهل يقضي العمر كله في تهامة ؟

– هكذا يقول وقد اعطيناه بعض النوق يستعين بها على أمره . انظر الى هذه النار انه وراءها في الخيمة الصغيرة مع زوجته .

فقال في نفسه : يظهر انه يخرج كل يوم الى المراعي فلا أراه في الصباح .

وكأن الامير أحس شيئاً ، فخفض صوته قائلاً : لقد سألنا ضيفنا الشامي عن اضيافنا كما تسأل انت كأنك معه على عهد !

وسكت قليلاً ثم اراد ان يختبر ، فقال لغلامه :

عليّ بعامر النجدي .

فأحضروه ، وكان كهلا ذا لحية طويلة لمعت فيها الشعرات البيض . فقال له: لقد سألنا هذا الغريب عنك فدعوناك .

فالتفت الى صفوان والذعر في عينيه ..

فقال الامير : ماذا رأيت ؟ اتعرف الرجل ؟

فجعل يتفرس فيه ثم قال : ما وقع نظري عليه قبل الآن .

قال : أحجازي هو ام نجدي ؟

– يدل ظاهره على انه من الحجاز . .

قال : اجلس بالقرب منه لعلك تقرأ ملامحه . ففعل وصفوان هـادىء لا يطرف له جفن .

فثبت للامير وهو يحدق اليهما ان الواحد منهما لا يعرف الآخر ؛

فاضمحلت ظنونه وقال لغلامه: قم فارجع فلم يبقَ لنا حاجة اليك . ولكن صفوان المضطرب لم يطمئن. اجل ان الرجل لم يكن عدوان اليمني كما خطر له . وليس في قامته ووجهه مظهر واحد من مظاهره . غير ان الزمان علمه التأني والصبر في اختبار ما يراه . أليس له ان يظن ان عدوان دهمه الموت او ترك سيده ، فاختار هذا السيد رجلاً آخر يخدمه ويماشيه في هواه ؟ ومن يستطيع ان يثبت له ان زوجة ذلك النجدي لم تكن جبيراً نفسه بعنقه القصير ، وجسمه الممتلىء ، وعينيه الصغيرتين ؟؟ انه اذا لا يترك حيّ عقيل بن جعدة الا بعد ان يرى وجه المرأة كما يرى وجوه الرجال .

وقد تكون تلك المرأة سافرة فينقضي الامر في لحظة ، واما اذا كانت محجبة فلا يبقى امامه غير وسيلة واحدة لا يلجأ اليها ، في مثـل هذه المواقف الا المجانين . . .

وقد مهّد له الحظ سبيل التفكير ؛ فان الامير صرف عنه وجهه ؛ وجعل يحدث قومه بالشؤون الخاصة التي لا تعنيه .

وما لبث عقيل حتى أمره بالانصراف ؛ فرجع الى البيت الذي اعده له ، فرأى سناناً ويزيد .

* * *

دارت بين الثلاثة احاديث كثيرة في ذلك الليل . . اما موسى فكان اخرس اصمّ لا يبالي بما يقولون . كأن ذلك الشؤم الذي ينغص عليه عيشه ، لا يترك

فسمعوا عندئذ صوت موسى كأنه خارج من بطن الأرض ، وكان يقول : ان الشؤم يملي على صفوان هذا الرأي ..

فاجابه صفوان قائلاً : كما يملي عليك الجوع هـــذا الكلام . قم فاملأ جوفك الفالج قبل ان تستسلم الى الاحلام .

قال : انصح لك بان تعدل عن رأيك فللقوم عادات لا يصلح ان تتعرض لها.

ـ انك لا تعلم يا موسى ما تقول .

ـ بل أعلم ! فوقوفك وراء خيمة اليمني انتهاكٌ للحرمة وخروج عن الصواب

قال : أيستطيع عقيل ان يمنع الناس من المرور وراء خيمة جاره ؟

ـ ان الذي يمرّ لا يفعل كما يفعل اللصوص .

ـ قلت لك انه هذيان الجائع .

ـ وانا قلت انك ستفضح نفسك .. !

فضحك ، ثم جعل يهامس يزيد ، وبعد قليل ، استولى على الثلاثة النعاس ، وساد السكوت .

* * *

عندما خرج الرعاة عند الفجر ، كان صفوان في الموضع الذي وصفه امس ، ولقد هزأ بانذار الفتى الأبله . ولم يلبث حتى رأى عامراً يخرج من مضربه وفي يده عصاه ، ويمشي الى مربض النوق . ويزيد لم يحضر . فقـــد تعلق به موسى وهدده بالصياح حتى يستيقظ كل من في الحي ، اذا هو خطا خطوة واحدة الى الخارج !

وبعد قليل خرجت المرأة وفي يدها جراب ، وجعلت تنقل قدميها مترددة متثاقلة ، كأنها نسيت في بيتها شيئاً . ولكن صفوان كاد يسقط على الارض من هول ما رأى !! رأى عنقاً قصيرة يغطيها الحجاب .!! وجسماً ممتلئـــاً يمشي بكلفته . ! ولم يرَ تينك العينين الصغيرتين . ! فخيّل اليه ان جبيراً في قبضة يده.

هذا هو جبير بدون زيادة ولا نقصان .

وجعل يمر يده على قبضة سيفه وجسمه يهتز كأن الارض ترقص تحته .

ولم يعد قادراً عـلى التفكير ، فكرٌ يروح وفكر يجيء وهو يضطرب ... كالعاصفة الهوجاء تعمي البصائر وتضعضع الحواس .

يقتحم ذلك المضرب الهادىء ، فيضرب عنقه . ! ثم يخفي الرأس تحت عباءته ويرجع الى خيمته .. ولكن الدم الحار يسفح على الرمل فيدل عليه .. بل يصبر حتى يخرج من جديد ؛ فيضرب ضربته ثم يحفر للجثة فيدفنهـــا . ثم يجن الليل فيأخذ رأسها ويتوارى في الظلام ..

ولكن الحي في الليل يغص بسكانه .. بـل يتبع أثره الى المرعى ، ويستعين بالحيلة على بلوغ غايته ؛ حتى اذا ثبت له أنـه جبير يعمد الى البراز حتى يقتله ! ثم يقص على الامير حكايته طالباً اليه ان يصفح عن ذنبه ؟!.

ولكن الامير لا ينسى دم جاره ولو كان أذل العرب .. فماذا يصنع اذاً ؟؟ انه يجيء مع يزيد وسنان وموسى الى خيمته ، في الهزيـع الأخير من الليل ، فيضربونه ويضربون ذلك النجدي حتى يموتا ، ثم يحملون ذلك المهر الثمين في جراب الزاد ، ويرحلون عن تلك الارض الى الابد .

ولم يصل صفوان الى ذلك الحد من تفكيره ، حتى اهتز مرة ثانية وارتجفت ركبتاه ؛ ذلك لأنه رأى جبيراً لا يبعد عنه اكثر من عشر خطوات، وهو ينظر اليه .. فاحمرت عيناه وهاج كما يهيج المجنون لا يبصر مـــا حوله ، ونسي الدهاء والصبر بل نسي كل شيء .. ثم وثب فتصدى له قائلاً :

جبير بن عبادة . ! ارفع هذا الحجاب عن وجهك واعمد الى سيفك اذا كان معك سيف !! فـتراجع الآخر الى الوراء وتمتم يقول بصوت نسائي عذب : ألا ترى ايها الفتى اني امرأة ؟

فلم يسمع .. بل وضع يده على سيفه وقال :

لا تتردد في امرك . انك ان لم ترفع هذا الحجاب تموت كما يموت الجبان .

فصاحت المرأة بصوت عال سمعه القوم : يا بني مدركة . ! أغيثوا جيرانكم !

فضيـع صفوان الرشد .. ومد يده اليسرى فانتزع الحجاب وهم بأن يهوي له بالسيف ، فرأى وجهاً جميلاً فتان المحاسن يحمله ذلك العنق القصير ،

فسقط السيف من يده ، ثم غطى وجهه بيديه وهو يقول :
ويلي فقد كنت مجنوناً . ! !
كذلك فعلت المرأة .. سترت وجهها بيديها ورجعت الى خيمتها وهي لا تكف عن الصياح .
وكان القوم قد ملأوا الساحة . واقبلت النساء على مضرب الجارة يسألنها عما حدث لها في ذلك الصباح .
ثم وصل عقيل بن جعدة .. الامير العربي الشديد المراس . الحامي قومه .. والباذل نفسه لجيرانه وهو لا يعلم ماذا جرى .
وعينا صفوان تنظران الى الارض وقد اصيب بالذهول ..
ويزيد وسنان مع القوم . كأنهما لا يعرفانه .
اما موسى فكان يتمرغ في التراب ، نادباً سوء حظه .
فقال الامير : ماذا فعل جارنا ؟ فوضعت المرأة على وجهها حجاباً جديداً ، وخرجت تقول : لقد استخفوا بك وانتهكوا حرمتك يا مولانا .
قال : ويلك أعيدي ما تقولين .
فأومأت الى الفتى وهي تشهق بالبكاء .
قال : هذا الحجازي ؟
- نعم وقد تصدى لي وانا اتبع عامراً الى المرعى !
فتميز عقيل غيظاً ومشى اليه .. فأبصر السيف عند قدميه ، فقال لها :
وهذا السيف ؟
قالت : استعان به على نزع حجابي .
وأي شريف عربي ، يتصدى لنساء العرب ، في تلك الصورة التي وصفتها المرأة ؟؟!!.
أيستهان بالاعراض في حي آهل باصحابه وأميره من أعز الناس ؟ وهل يبلغ الاستخفاف بغريب ، الى حد انه يخرج للنساء عند بزوغ الفجر مستعيناً بسيفه على نيل غايته ؟؟ انها جريمة لا تذكر معها جرائم القتل مهما تختلف انواعه .

انه الشرف .. يلوثه صفوان الحجازي . ويدوسه بقدميه !!

فقال عقيل : ارفع رأسك ايها الفتى .. وصوته يرتجف من شدة الغضب ..

فرفع صفوان رأسه فاذا وجهه يشبه وجوه الاموات .

فقال : ألا يهون عليك ايها الضيف ان تحجب نساؤنا وجوهن ؟

قال : لقد أخطأت المرأة فيما ذكرته لك ..

فرمت بحجابها الممزق قائلة : هذا يشهد !

قال : ألم تتصد لها ؟

– بلى !

– وسألتها ان تسفر لك ؟

– نعم ..

– فكيف تقول اذن أنها اخطأت فيما ذكرته لي ؟

فسكت ، وهو ينظر الى يزيد وسنان ..

فقال : أصف لك الآن ما تخفيه . لقد طلبت الى هـذه المرأة ان تظهر لك وجهها فلم تفعل ؛ فهددتهـا بالسيف . ثم رأيت اصرارها على الرفض ؛ فمزقت حجابها بيدك اليس كذلك ؟ قل الآن ..

فلم يقل شيئاً .

فأشار الى الخيمة قائلاً : لقد عرفت امس انها خيمة جـــارنا مع زوجته ؛ فجئت الآن لترى تلك الزوجة كأنك شاعر يريد ان يصف الجمال . !

ثم ذكر اهتمام صفوان امس ، بالسؤال عن اضيـــافه وجيرانه فقامت الريبة والشك في نفسه ..

وتحير في الامرين . أيكون صفوان من نجد وقد اقبل يطلب عامراً ، ام هو حجازي كما قال وقد فضح ادبه وأخلاقه في ذلك المظهر الغريب الذي ظهر به ،

وكاد يتناول السيف ويضربه به لولا عزة نفس تحمله عـــلى احترام ضيفه ، وتمنعه من الاستسلام الى العاطفة المجردة التي لا تقترن بالدرس والصبر .

فأخفى غضبه وقال : نسألك فلا تجيب كأنك لا تسمع .. ان هذا السكوت

لا ينفعك فانظر في امرك قبل ان تتعجل فيه .

قال : لقد نظرت وسأقول كل شيء .

– افعل الآن !

– بل اذهب الى مضرب الامير اذا شاء فاعترف له ..

فقال لرجاله : قيدوا يديه واذهبوا معه ..

ثم قال للمرأة : اما انت فاتبعيني وكفي عن البكاء .

واخذ بيده يد ولده الصغير وعاد الى مجلسه .

مد صفوان يديه فقيدوهما وهو يبتسم .

ثم نظر الى يزيد وأومأ اليه بحاجبيه ان لا يقول كلمة اذا سألوه .. ومشى بين الرجال وهو لا يبالي،فقد رأى ان يبوح لعقيل بالسر الذي ترك مكة لأجله، فيزول ما علق بذهنه من الشكوك والظنون . وتبعه سنان ويزيد مع الذين تبعوه ...

ولو ابصر احدهما موسى في تلك الساعة ، لأبصر دموعه تبل ثيابه ولسمعه يقول : ان شؤمي سيقذف بهذا الفتى الى الهاوية .

وكان الامير قد جلس وجلس قومه ..

فقال : ابدأ الآن ايها الحجازي !

قال : مر رجالك بان ينصرفوا لأقص عليك ما اعلم .

- أتحمل في صدرك اسراراً لا تبوح بها الا لنا ؟

- نعم !

- ادخل . وقال لقومه : اما انتم فانصرفوا ، فلما اصبحا داخل السرادق ، قال صفوان :

ماذا تظن بي ايها الامير ؟

- أتسألني عما اظن بك وقد رأيتك في موقف تخجل منه انذال العرب ؟ اتعلم ان المرأة زوجة جاري وتنتزع حجابها على مرأى ومسمع من اهل الحي ولا تبالي ؟!

فاجابه هادئاً: لقد حسبتها رجلاً خرجت من الحجاز في طلبه ولم اعثر عليه،

– وهل تغطي الرجال وجوهها في الحجاز ؟

– ان الرجل الذي اطلبه يفعل ما ذكرت .

واخـــذ يصف جبيراً ويروي له الروايات عنه وهو يصغي اليه والريبة في عينيه ..

فلما انتهى قال : من يثبت لي الان انك صادق في قولك ؟

فلمعت عيناه وهو يقول : انا من اشراف كنانة .

– نسب معروف ولكنه لا يكفي .

– وابن الحارث بن شجنة سيد قومه .

قال : لا اعرف احداً من كنانة غير زهرة بن كلاب .

– انه ابن عمي !

قال : هات من يشهد لك ؟

قال : ان واحداً من ضيفيك اللذين نزلا عليك قبلنا يعرف من انا فمر غلمانك بان يحضروه .

– أهو رفيقك ؟

– اجل وقد كتمتك خبره حفظاً للسر الذي حدثتك به .

– وما اسمه ؟

– يزيد بن ربيعة وهو يطلب ابن عبادة مثلي لأن اباه قتل اباه ..

قال : يظهر ان للعرب جميعها ثأراً على الرجل .

– هو ذاك فالبلد الذي ينزل فيه تنزل فيه الخيانة والغدر .

قـال : لنفرض انك لم تكذب فمن قـال لك ان امـير هذا الحي لا يغضب لكرامته ؟

قال : انها ساعة ارجو ان لا تسألني عنها ايها الامير .

– أتعترف بذنبك ؟

– اعترف به وأسألك الغفران ؛ فحرمة الجار أعرفها ؛ ولكني لم استطع ان

املك نفسي كما رأيت ؛

فنهض قائلاً : سنرى ! وبعث غـلامه يدعو يزيد بن ربيعة ، وكان يزيد في الساحة ؛ فما لبث حتى دخل عليه ، ففاجأه بقوله :

قل ولا تتردد ، من هو هذا الفتى ؟

فنظر الى صفوان يخاطبه بعينيه ؛ فقال : اعترف يا يزيد بكل شيء .

فقال : هو صفوان بن الحارث من سادة الشعاب .

ـ أتعرف زهرة بن كلاب ؟

ـ وكيف لا أعرفه وانا جار بيته ؟؟

ـ وأية صلة لصفوان بزهرة ؟

ـ انه ابن عمه يا مولاي .

فتمتم قائلا : بنو مدركة وبنو كنانة يرجعون الى أصل واحد . ثم قال : أتطالب بدم ؟

ـ نعم وعدوي جبير بن عبادة ،

فقـــال : كفى فقد صدقت . ولكن الشرف لم يسلم بعد .. انك اسيري يا صفوان بن الحارث ..

قال : وهذا الاسير يطلب الى عقيل بن جعدة امير هـــذا الحي ان يرضى بالفداء ...

قال : لا نستطيع الوصول الى قومك لنباحثهم في هذا الامر .

اما انا فاقوم مقام قومي ، قل ماذا تريد !

قال : الا تعلم انك تستحق القتل ؟

ـ بلى ولكنك لا تقدم عليه ايها الامير ..

قال : يكفي ان تعلم هـــذا لنعين فداءك .. نريد مئة دينار وخمسين ناقة وهذا فداء الامراء .

قال : اما الدنانير فاعطيكها الآن . واما النوق فتاخذها يوم تحج البيت في العام المقبل .

– أتحمل في جرابك مئة دينار ؟
– احمل ما يكفيني ويكفي رفاقي العام كله .
– بقي ان تجد من يضمن لي النوق ، عندما احج .
– اذن تخاف ان ينقض صفوان بن الحارث عهده ... !
– لا . ولكن هكذا تفعل العرب مع الاسرى ..
قال : الا ترى اني لا اجد في هذا الحي من يعرفني ؟
قال : يعرفك المال الذي تحمله .. اعطني مئة دينـــار اخرى فاترك النوق وينتهي الامر ..
– وان لم افعل ؟
– تبقى هنا الى ان يتم الفداء .
قال : لا استطيع ايها الأمير ان اعطيك ما طلبت لسببين : احدهما اني لا اطوف في بلاد العرب بدون مال ، ولا اطيق ان يقوم في العرب كلها من يشك في وفائي .
– اذن !
– اذن سأبقى في الأسر حتى يطلبني قومي ،
فنهض قائلاً : لقد رضيت ولولا حرمة الجار التي تقدسها العرب لمـا اخذت منك شيئاً . وفكه وهو يقول : انك حرّ !
فأعطاه ما طلب وخرج الثلاثة . فصاحت المرأة قائلة : عرضي ايها الأمير .
وكان صفوان قد سأله كتمان أمره ، فقال : ان جارنا لا يمس له عرض .
– ولكنه نزع حجابي يا مولاي ؟
– ان له عدواً يلبس ثوب المرأة ويخفي وجهه تحت حجاب .. !
فولولت واستجارت بالقوم .
فارتفعت اصواتهم قائلين : لقد فضحنا هذا الرجل بين العرب وثمن هــــذه الفضيحة دمه .
– قلت لكم انه كان مخطئاً ولم يفضح احداً .

- بل استخف بنا واستباح شرفنا .

قال : كان اسيراً ففدى نفسه .

- لنا حرمة يامولانا لانبيعها بمال .

فأسكتهم قائلا : وهل تظنون ان اميركم يفعل ذلك ؟

فقالوا : دمه الفداء ولا نقبل غير هذا .

واشتركت نساء الحيّ في الصياح لا يطيب لهنّ إلا ان يسفح دم الحجازي في الساحة .

ولم يكن الأمير قادراً على اخماد ثورتهن . فلما أراد ان يأمر غلمانه بأن يتولوا الأمر عنه ، توسط الساحة فتى في زهرة عمره لا يعرفه احد من القوم وقـــال للأمير : اظن ان هذا الحجازي الذي يطلبون دمه لم يصف لك موقفه مع هـــذه المرأة !!

بلى وقد رضينا بما قال .

- ولكن القوم لم يرضوا فاعطني خنجراً أصفه لهم ،

قال : اعطوه .

فلما تناول الخنجر قال يزيد لعقيل : سيقتل نفسه .. غير ان الفتى لم يتردد بل اغمد خنجره في صدره وهو يقول : لقد كنت شؤماً على هذا الرجل فخذوا دمي فداء عنه .

وكان الفتى موسى الذي عرفت ..!!

فذعر الأمير واستولت الدهشة على الناس .

أما يزيد فجعل يقص على الأمير همساً حكاية موسى منذ خرج الى الوجودالى الآن الساعة ، وكان القوم ينظرون الى دم البريء يقذف بـــه قلبه وقد طابت نفوسهم وخمدت النار في الصدور ..! وما لبثوا حتى تفرقوا كأنهم يرون ذلك الحادث كل يوم .

فصافح عقيل الفتيين قائلاً لهما :

انصرفا الآن فأنا لا أضمن قومي وسأذهب معكما حتى تجاوزا الحي ،

فقال صفوان : وهذا المسكين الذي قتل نفسه لأنجو من الأسر ؟
قال : خير له ان يموت من ان يعيش العمر كله رسولاً يحمل الموت للآخرين .
ومضى سنان فحمل اشياءهم ورافقهم عقيل الى اطراف الحي وهو يقول لهم: الى اللقاء في مكة .

فاجابه صفوان قائلاً : ستجد خمسين ناقة مع نوق زهرة بن كلاب يرعاها الراعي لك ..

وسلكوا الطريق الذي دلهم عليه ووقف يشيعهم بنظره حتى تواروا ، فرجع الى خيمته وهو يعدّ الدنانير .

*

مرت عشرة اشهر على الرفاق الثلاثة ، وهم يتنقلون من بلد الى آخر ولا يرون لابن عبادة ظلاً . حتى كاد ينفد مالهم وتضيع حياتهم . فرجعوا الى الحجاز ، والغر م الذي لا يرافقه أمل ، يملأ صدر صفوان العاشق المنكود الحظ .

وهو يتردد في الذهاب الى قصر زياد خوفاً من ان تنظر اليه ليلى نظرة لوم ويهزأ به الاميران، لكن الهوى يحني كل ر س ويذل كل نفس ، ولم يكن صفوان حجراً ليطول تردّده ويغلب عاطفته .

وكانت ليلى ، في الشهور العشرة ، تحلم بـه ، وتناجي طيفه ؛ وتستلذ تلك الاحلام التي يخلقها الحب .

ثم يغمرها اليأس فتستسلم للبكاء ، وتفكر في ذلك الحبيب الحامل روحه بيده في صحارى العرب ، طالباً «الافعى» ليجعله مهراً لها . ولم تكن تعلم أمـات أم هو حيّ بل لم تكن تجروء على الشكوى وارسال الزفرات . ان الفتاة مثل ليلى وان ذكرت لأبيها غرامها ، تخجل من ان تصف له لواعج ذلك الغرام ؛ وليس في مكة كلها ، على كثرة ما فيها من بنات الامراء والنبلاء ، فتاة واحدة رأتها ليلى اهلاً لحفظ سرها إلا حبى ابنة حليل ، غير ان ابنة حليل ، اصبحت زوجة لقصي ، ولم تبق لها ، مع قيد الزواج حرية الرواح والمجيء ساعة تشاء . لاسيا وزوجها أمير قومه ، لا يخطو أحدهم خطوة واحدة بدون اذنه ، وهي لا تريد

ان تزورها في الشعاب ، لأن أباها ، كما عرفت ، يكره قصياً كما يكره الموت ..
فلما أعيتها الحيلة ، عمدت الى الغلام طلحة ، تشكو له أمرها وتستعين برأيه على
تحمل البلوى ؛ وكان الغلام شعلة ذكاء ، وهو يحب سيدته حباً كثيراً يملك
احساسه وشعوره ، ويحترم كآبتها المطبوعة على ذلك الجبين الوضاح .

وليس غريباً ان تبوح له بما في الصدر ، فالغلمان كانوا ولم يزالوا ، في قصور
الملوك والامراء مستودعاً للاسرار . فلما شكت اليه همها ، رأت صدراً رحباً
يحمل شيئاً من ذلك الهمّ ، واحست ان ذلك الفتى الطاهر الخلق ، يجود بدمه
في سبيل ذلك الحب الذي اعترفت به .

وهنالك شيء آخر رأته ليلى ! رأت ان طلحة كان يعرف حكايتها قبل ان
تقصها عليه ، فقالت له : أتعرف يا طلحة حكاية حبي من قبل ؟

فحنى رأسه قائلاً : نعم يا مولاتي ، سمعت بعضها ورأيت البعض الآخر !

– وكيف ذلك ؟

– سمعت الاميرين يتحدثان بالأمـــر ، ثم رأيتك ورأيت صفوان فبدت لي
صورة الهوى كما تصفينها الآن .

– ولماذا كتمتني ما علمت ؟

– لأني لم اجسر على ذلك ، والعبد لا يذكر الغرام إلا اذا حدثوه به .

فتنهدت قائلة : لقد وجد جبير بن عبادة في مكة لينغصّ عليّ عيشي .

– ووجد طلحة بن الأسود ليعيد إليك صفو هذا العيش .

– انت ؟؟

– نعم يا مولاتي اني صغير السن ولكن لي عزيمة الرجال .

– وماذا تستطيع ان تفعل وانت في هذا القصر لا تخرج منه الا الى السوق
ام تعود ؟

قال : ليس لي ان اقول الآن شيئاً .

– بل تقول !

– ولكن لا اعلم ماذا اقول قبل ان يعود صفوان .

– اخشى ان يعود وهو يتعثر بخيبته .

– ذلك خير من ان ينقضي العام كله وهو بعيد عن مكة .

فمسحت دمعة جرت على خدها وهي تقول : نعم ، ولكنـه لا يلبث حتى يرحل مرة اخرى فيغيب عامين .

قال : ليرجع الآن ثم يجيء دوري في الرحيل فأعرف مقر القاتل ، ولو كان في جوف الارض .

قالت : اذا عجز صفوان والرجلان اللذان ارسلهما أبي فانت لا تقدر على ما عجزوا عنه .

– اولئك لا يشعر بهم الرجل حتى يستخفي ، اما انا فغلام فقير يبحث بين احياء العرب عن خبزه فلا يعبأ بي .

– ومن يعلم اذا كان ابي يأذن لك في المسير .

– سأجثو على ركبتي امام قدميه واستحلفه برأس مولا بي زياد ألا يرد لي طلباً .

– اما ا فسأفعل غير ذلك ، سأجثو كما تجثو انت ، واستحلفه بالهة الكعبة ان يترك الثأر فأنا لا ارغب في الزواج .

– اذا فعلت هذا خسرت صفوان .

– أوثر ان يتزوج غيري واراه ، على ان يقتل في بلاد العرب واخسره الى الابد .. نعم .. لقـد نسيت الزواج الآن ، ولا اطلب إلا ان يرجع الحبيب الى بلده ويعيش بين قومه .

واسودت الدنيا في عينيها وكادت تسقط على الارض .

فقال : لقد رأيت يا مولاتي رأياً آخر ،

فتمتمت قائلة : لقد قال ابي كلمته فلا تنفع الآراء .

قال : سأقول لمولاي : اجعل دم عبـــدالله في عنقي حتى اثأر به ، واسق تربته بدمي ان لم افعل .

– ولكنه لا يرضى ان يسقيها الا بدم جبير .

– بل يرضى وسأستعين برأي مولاي الآخر .

قالت : أتظن ان امير صوفة يطلب كل يوم مهراً جديداً ؟

– انه لا يطلب مهراً يا مولاتي بل يضع شروطاً لغاية له .. والآن فقد مضى على رحيل صفوان تسعة اشهر ولا بدّ من ان يعود في هذين اليومين .

قالت : ما رأيت دليلا على ذلك !

– بلى ، فالفتى العاشق الذي يحن الى مكة يطوف حول الجزيرة كلها في مثل هذا الزمان ، ثم يعود على اجنحة الشوق .

وبينما هما يتحدثان ، أقبل زياد وهو يقول : لقد رجع عبداللات وعمر ، ولم يظفرا بقاتل عبدالله .

فاجابه طلحة قائلا : وسيرجع صفوان ويزيد كما رجع هذا الرجلان . ان جبيراً يختبىء بين السحب .

قال : لقد استطاع ان يقتل واستطاع ان يفرّ . فلنصبر، إن في الصبر فرجاً أجل يا ليلى ! ان في الصبر فرجاً .

وضمها الى صدره وطبع على جبينها قبلة الوالد البار ؛ فنهضت وهي تقول في نفسها : سأصبر وحسبي ان يكون صفوان في مكة !!

* * *

– ١١ –

عندمـــا ترك صفوان الشعاب يريد تهامة ، لم يقل لقصي ان غيبته ستطول ، بل لم يقل ان تلك الغيبة مظهر بليـغ من مظاهر الغرام .

ان القوم الذين يقيمون بالشعاب خلقوا جميعهم تجـــاراً ، وصفوان منهم فليس غريباً ان يترك مكة لى الاقاليم يحمل منها ما يحتاج اليه .

على ان قصياً ، لم يخطر لـه في ذلك الحين ، ان صفوان خرج تاجراً ، ذلك لأن التاجر كما عرفت لا يخرج وحده ولأن العدة التي اعدها الفتى لم تكن تشبه في شيء عدة قومه إذا خرجوا في سفر ، ولم يكن لها لون تجاري ،

إنه يريد بعض احياء العرب لقضاء حاجة له ، ثم يعود الى الشعاب بعد بضعة ايام .

هذا ما قاله لقصي قبل سفره ، وهذا ما حدّث بـه ابناء قومه ، الذين يسألون عنه . وعلى أمل ان يكون صفوان في الشعاب بعد ايام ، رحل الرجال الثمانية الى العراق كما قرأت . وانت تراهم اليوم في مكة ، وقد عادوا اليها منذ شهور وصفوان لم يرجع . فعجب قصي لغيبته ، واقبل يسأل الناس ولا يسمع جواباً ، حتى حلّ زهرة بن كلاب ذلك اللغز فقال : لقد رافق يزيد بن ربيعة في طوافه باحثاً معه عن قاتل ابيه .

وجعلت الايام تمرّ وصفوان غائب ، ولم يقم في ذهن احدهم انـه العاشق المفتون الذي يكاد يبرح به هواه .

من اين لهم ان يعلموا حكاية ذلك العشق ، وليس بينهم احد يزور امير صوفة في قصره ، وصفوان لم يحدث بأمر ذلك الغرام غير نفسه .

اجل . لقد حفظ حبه في صدره . ولم يبح به إلا ليزيد ، في ارض عقيل بن جعدة . ! اتعلم لماذا اخفى غرامه ، ?? ان هنالـك سببين اثنين . عزة نفسه ، ورغبته في سلوك الطريق الذي سلكه قصي من قبله ، ومعنى ذلـك ، انه كان يخشى ان يتظاهر بحبه ، ثم يبخل عليه زياد بليلى ؛ فيتحدث الناس بهذا الفشل لذي يجرح نفسه العالية ؛ وان قصياً عندما مس الهوى فؤاده استعان بالكتمان؛ فلم يعلم احد انه عاشق ، إلا عندما شاور قومه في قضية الزواج .

ثم كثرت الظنون حول غياب صفوان ، هـذا يقول انه يبحث عن كرائم الخيل والآخر يقول : لقد بلغه ان في الصين قوماً من الصعاليك الفقراء فملأ جرابه مالاً وحمله اليهم . ولم ينسوا ان يذكروا تلك العمامة الخضراء التي يغطي بها وجهه في الحجاز . !

حتى استولى الهم على قصي ؛ فعمد الى إرسال الرسل يبحثون عنه .
ولكنه عندما هم بأن يفعل ، دخل عليه عبده قائلاً له :

لقد جاء صفوان .

فنهض عن مقعده . وخرج للقائه وهو فاتح ذراعيه .

* * *

لقد اراد سنان ان يطلق تهامة الى الابـد ، ويقيم بالحجاز مع يزيد وصفوان اللذين احاطاه ، في تلك الرحلة بالعناية والفضل .

وكان التعب قـد أثرّ فيهم ، ونهكهم المشي والسير ؛ فناموا بعد وصولهم الى الشعاب يومين كاملين لا يأكلون فيها ولا يشربون . فلما كان اليوم الثالث دعاهم قصي اليه ، وجعلوا يتحادثون ؛ وقد اراد صفوان ان يفتح لسيد الشعاب قلبه ، ليقرأ فيه تلك الصفحات المكتوبة بسطور اليأس والشقاء . انـه لا يحب ان يقتله الهوى ، قبل ان يعترف به..

ليلى نعيمه وأمله وأمنيته وحياته ؛ فاذا بخل بها ابوها فهذا هو الموت !!

ولكنه لم يشأ ان يذكر شيئاً وسنان حاضر ؛ فصبر ريثما يراه قصي ، ثم ينصرف بعد ذلك . ؛ على ان قصياً بدأ حديثه بالسوأل عن تلك الرحلة : ألم تجد الرأ لصاحبك يا ابن ربيعة ؟

– لا يا مولاي ! فكانه يقيم بين طوائف الجن التي لا ترى .

– وفي اي بلد طلبتموه ؟

– في تهامة ونجد وفي الارض والفضاء .

قال : اتخرج يا صفوان في طلب الرجل الذي يطلبه يزيد ولا تقول لنا كلمة؟

– وماذا اقول وانا اعلم انك ستمنعني ؟

قال : ان في سفرك مروءة ونحن نريدان نساعد يزيداً في امره ليبلغ غايته .

– ليس هنالك مروءة يا مولاي فعدو يزيد عدوي وانا اطلبه كما يطلبه ، ألم اقل لك شيئاً من هذا يوم كنا في يثرب ؟

– بلى ، ولكنك لم تذكر لي اسباب هذا العداء .

– كنت اظن من قبل اني استطيع ان اكتمك اياها الى النهاية .

– والان ؟

– اما الان فلست قادرا على ذلك وقد جئت لاورد لك جميع هذه الاسباب واستشيرك في الامر .

– ولماذا اردت كتمانها ؟

– لانها تتعلق بي وحدي يا مولاي .

– ولكنها رحلة خطرة قد لا تسلم في مثلها الرؤوس ؛ يقولون ان الذي يبحث منفرداً ، في بلاد العرب ، عن غرض له يبحث عن حتفه .

– اجل ولو لم نصارع الموت مئة مرة بالحيلة والدهاء لما رجعنا الى مكة .

والعراق يا مولاي ؟

– اما العراق فأرض خصبة واسعة وأهلها يستظلون في ظل ملك قاس ولكنه عادل . ومن قال لك اننا ذهبنا اليها ؟

– خبروني امس وانا نصف نائم ، وماذا رأيتم فيها ؟

– رأينا الموت فاتحاً ذراعيه ليضمنا اليه .

قال : وكان ذلك في الصحراء على ما أرى .

– بل في بلاط الملك نفسه في ذلك القصر الذي يدعونه الخورنق ، والجالس في عرشه النعمان بن امرىء القيس .

قال : ألا تحدثنا بما جرى ؟

– ستسمع الآن حديثاً ما سمعت اغرب منه . لقد اعدّ لنا الملك النطع والسيف في رواق قصره وهم بأن يفصل هذا الراس عن هذا الجسم ويجعل الاثنين طعاماً لسمك الفرات !!

– اهذا هو العدل الذي ذكرته يا مولاي ؟

– نعم والعدل هو الذي اوحى اليه بهذا !

– وكيف ذلك ؟

كنا مع وفوده ، في الصباح ، موضوع رعايته ، ثم انصرفنا لنرى ما في السوق ونترك الحيرة بعد ذلك . ولكن فاجأنا حاجبه بعد الظهر ودعانا الى المثول بين يدي مولاه ففعلنا ودار الحديث بيننا عن الشام وملوك الشام .

– لقد عرفت ماذا خطر له .

– ماذ

– خطر له ان يسالك عن الملك الغساني الذي دخلت بلاطه .

– بل خطر له ان يسالني عن الاتفاق الذي جرى بيني وبين ذلك الملك الذي ينازعه نفوذه .

فجعل صفوان ويزيد يحدقان اليه وهما لا يعلمان شيئاً .

فقال : لقد استولى عليكما الاستغراب الذي استولى علي عندما وجه اليّ سؤاله . ولكن اتعلمان ما هو ذلك الاتفاق الذي اشار اليه ،؟ لقد كان واثقاً باني جاسوس الحارس ملك الشام وقد اشتراني بماله وارسلني الى الحيرة احمل اليه ما في بلاطها من اخبار .

– يخيل اليّ ان عربياً نقل اليه خبر وجودنا في بصرى فكثرت ظنونه وعمد الى الاختبار .

– بل نقلوا اليه اني انا – قصي بن كلاب ، قابلت ذلك الملك وبعته نفسي مع اني لم ار في ذلك الحين ملكا كما تعلمان .

– اذا هنالك نمام حاول ان يوغر صدر النعمان .

– نعم وكان ذلك النمام الكاذب في الرواق وانا في قاعة الملك .

– وهل رأيته يا مولاي ؟

– عرفته ولم اره وكنت ارجو ان يدخل القاعة في تلك الساعة ليسمع النعمان حديث الاثنين .

– كان عليك ان تطلب ذلك .

– لقد طلبت ولكن الواشي كان قد فرّ .

فأشرق جبين صفوان قائلاً :

وعندئذٍ ظهرت البراءة كما تظهر الشمس من وراء الجبال .

– اجل كما تظهر الشمس وخرجت من الخورنق والملك يعتذر لي . والآن بقي عليك يا صفوان ان تحزر .

– احزر ماذا ؟

– اسم الفاعل الشريف الذي غمرني بفضله .

– اظن انه من اعداء الغسانيين في بصرى .

– لا .

– اذاً هو احد ابناء العراق الذين يختلقون الأخبار لاجل المال .

– بل هو رجل تخـــلو له الساحة اذا مـات قصي ؛ فارتجف قائلاً : من الحجاز ؟؟

– من الحجاز ، بل من جيران البيت . بل من الامراء ..!

فاصفر وجهه ولم يجسر على سؤاله .

ان في مكة اميراً واحداً يريد ان يقضي على قصي ، هو زياد !!

اذاً فقد قضت الاقدار ، من الناحية الاخرى ، على جميع آماله ، ومنعتـه من التفكير فيمن يحبّ ، وأطرق وهو يعبث بعباءته .

فقال قصي : لو قضيت العمر كله في مثل هذا الاطراق لما عرفت من هو .

فقال في نفسه : لقد عرفته وليتني لم أعش الى هذه الساعة .

ونظر اليه وهو يقول : أواثق انت يا مولاي ؟

– وهل ترى اني اتهم الناس وانا غير واثق ؟؟ ان هـذا الامير الساعي ابو ضمرة الخزاعي .

فوضع الفتى يده على فؤاده وقد هدأ اضطرابه ثم قال :

لقد بدأ فتيان خزاعة يكيدون لك كـــأنهم يعلمون ان دولتهم ستدول في مكة بعد زواجك .

– ولكنها عداوة جاهروني بها قبل ان يروا مني شيئاً .

– تلك هي الحكمة يا مولاي .!

قال : الحكيم من يسعى لنيل غرضه دون ان تتمّ عليه الدلائل ، ومع ذلك فقد كان زياد بن كعب صريحاً فيما ذكره لي وانا لا اعرفه .

– وان رأيت زياداً ؟

– في قصر حاجب البيت يوم رجعت من يثرب .

فذكر صفوان ان سادن الكعبة دعا زياداً اليه ، وهو عنده ، فقال : وماذا جرى في ذلك اليوم ؟

– لقد مدّ اليّ يده وتعاهدنا على العداء .

واخذ يخبرهما كل ما حدث بينهما ثم قال :

اما اليوم فلم يبق الا ان نكون رجالاً ، فيرى بنو خزاعة ان اهل الشعاب ليسوا عبيداً لأحد ، ويعلم ابو ضمرة الكذوب وزياد بن كعب ان عدوهما الجديد لا يطمع فيه .

فعاد قلبه الى الخفقان . ان الذي كان يخشاه قد وقع الآن وأبو ليلى عدو قصي !! فماذا يقول له بعد ذلك ، أيعترف بغرامه ويستشيره في الأمر ، وليلى ابنة الرجل الذي يضمر له قصي الشرّ ويحمل له في صدره بغضاً تبدو مظاهره في حديثه وفي عينيه ؟!

لا .. انه طيش لا يقدم عليه . ولكنه ان لم يفعل اليوم فعل غداً ، ولا بدّ لقصي من ان يعرف كل شيء ، بعد ان تظهر تلك العداوة وتشتد .

فعوّل على ان يظهر بعض ما يعلم ويخفي البعض الآخر ، اي ان يقصّ عليه ما يعني زياداً ، ويكتمه ما يعنيه ، ثم يعمد الى افشاء سره ، في فرصة اخرى ، اذا انقلب الزمان ، فقال : لم تذكر لي يامولاي كيف عرفت ان الرجل ابو ضمرة ؟

– رآه خداش بن عبيد خارجاً من الخورنق فتبعه الى آخر الحيرة وسأله عما يصنع في العراق .

قال : كان يجب ان يتوّلى سيف خداش أمر سؤاله .

– إنه لم يكن يعلم ما دار بيني وبين الملك .

– وماذا صنعتم بعد رجوعكم الى مكة ؟

– لقد طلبوا اليّ ان يتصدوا له امام الكعبة ويتناولوه بالسيوف ، فمنعتهم من ذلك اذ لا احب ان يجرّد سيف من غمده قبل ان تأتي الساعة .

– ولكني سأضربه عندما اراه ، ضربة يهتز لها قومه !

قال : احذر فأنك تفسد عليّ أمري اذا فعلت،لقد رأيته مرتين عند المطاف وكنت لا اعرفه قبلها ؛ فنظرت اليه كمن ينظر الى غريب لاشأن له معه وكانت عيناه تقدحان شرراً ، وانا لا ابالي ولا اعبأ بـه وبمن حوله من رجال عشيرته . ولكن الويل لأبي ضمرة من يوم تجول فيه الخيل .اقسم برب الكعبة انهسيكون أول قتيل تشرب دمه ارض مكة ، ثم يتبعه ذلك الأمير الآخر زياد بن كعب .

– قل يا مولاي انك ستقتل من يتصدى لك في الميدان .

قال : ستقع العين في الميدان على هذين الاثنين .

– بل على احدهما لأن زياداً سيعتزل حربك .

فظهرت الدهشة على وجهه قائلاً :

ومن اين لك ان تعلم هذا ؟

– خبرني به أحد غلمان قصره !!

قال : ان الغلمان لايعرفون مثل هذه الاسرار .

– بلى فقد كان زياد يصف لأبيه كيف رآك في قصر حليل ويذكر لهالحرب التي ستضرم نارها قبل الجلوس في العرش كأنه يراهـــا ، ثم رأيا ان يشهدا تلك الحرب من بعيد .

– ومـــا هي علاقتك بذلك الغلام حتى ينقل اليك اخبار مولاه وانت لا تسأله عنها ؟؟

– كان فقيراً قبل ان يجعله الأمير في قصره وكنت احسن اليه ؛

غير ان الخبر ، على رغم قربه من العقل ، لا يصدقه قصي .. وكيف يصدق ان الناس يتحدثون بأمر الحرب وليس للحرب وجود ... ولم يشأ ان يخفي ظنونه ، فقال :

أتخدعني يا صفوان ؟

– وكيف اخدعك وانا أروي لك ما سمعت .

– ومتى كنت تثق بمثل هـــذه الأقاويل حتى تنقلها اليّ ؟؟ أتظن اني لا

استطيع ان اتبين صحيح القول من فاسده .

قال : اقسم لك يا مولاي ان زياداً لا يجرّد في وجهك سيفاً .. !

– وهل يخضع لي مختاراً ؟

– لا اعلم !

– ان الذي يعلم الاولى يعلم الثانية .

قال : يكفي ان يقبع في بيته يوم تشتعل النار .

– وعندما تطفأ ؟

– يبقى في ذلك البيت كما كان .

فضحك قائلاً : الا يخضع زياد بن كعب اليوم لسادن الكعبة .

– بلى !

قال : لا تنس ان هذا السادن يدعى حليل بن حبشية .

– اعرف ذلك .

– ولكن هنالك شيئاً آخر لا تعرفه !

– ما هو ؟

قال : أيبقى صاحبك خاضعاً لسادن الكعبة نفسه عندما يصبح اسمه قصي بن كلاب ؟؟

فسكت صفوان .

فقال : لا تسكت فأنت الآن بحاجة الى الكلام !

قال : ما سمعت شيئاً من هذا !

– اذن تسمع في هذه الساعة .ان زياداً يريد أن يصون حياته ويحفظ امارته من مصائب الحرب ؛ فعوّل على الحياد وغايته غاية الجبناء .

ثم اراد ان يستدرج الفتى الى الاقرار من وجه اخر . فقال : ولا يعلم زياد اليوم اي فريق يخرج من الساحة ظافراً لينضم اليه . فماذا يصنع ؟؟ يمنع قومه من ان يخوضوا المجال حتى يرى الكفة الراجحة فيخوضوه . ويمنّ على الظافر بقوله ، لقد بذلت دمي ودماء قومي في ظل رايتك ، فاعطني حقي من السيادة

والسلطان .. ولكن كذب وكذبت ظنونه فالسيف الذي لا يشهره عليّ اشهره عليه ، وسأدعوه ، وهو في عقر داره الى القتال ؛ فأما أن احطم جميع الرؤوس المرتفعة في مكة واملك الحجاز وحدي او أموت !!! هذا ما تستطيع ان تقوله لذلك الأمير المتكبر الجبان الذي يبهر عينيه بريق التاج ولا يجسر ان يخطو خطوة واحدة في سبيل الوصول اليه .

لقد جـــاهروا بالعداوة واضمروا لي الشر وانا لا اعرفهم ، ثم عمدوا الى السعاية التي هي سلاح العاجز النذل ليمحوا اسمي من صفحة الوجود ويستبدوا بالناس كما يشاؤون ، ولم يعـــلموا ان سعايتهم ستنقلب عليهم وان الحفرة التي يحفرونها لي ستكون الهوة التي يسقطون فيها .. !

فكره الفتى ان يبلغ قصي في غضبه ذلك الحدّ الذي تصبح معـه حياة ابي ليلى مهددة بالموت ، ولا يقول كلمة ، ان بقاء جبير بن عبادة حياً يبعد ليلى عنه فماذا يفعل اذا قتل سيد كنانة اباها وكان سكوته هـو القاضي بذلك القتل ؟؟ اذن يقطع بيده حبل الرجاء الباقي لـه ويعيش عمره كله حاملاً في صدره ذلك الغرام الطاهر الذي تغلل في اعماق نفسه وفي كل عاطفة من عواطف قلبه .فقال له وغرامه يتكلم :

أرأيت فاتحاً يدخل البيوت الآمنة فيقتل اصحابها ويملأها وحشة ؟؟

قال : ان الرجال تطلب اعداءها ولو كانوا في الغمام .

قال : لقد جعلت الاقدار أبا ضمرة وحده عدواً لك .

– واما الآخر فقد جعلته من الاصدقاء الاوفياء .

– إنس ماضيه يا مولاي ولا تنظر إلا الى حاضره .

– لو استطعت ان أنسى تينك العينين الناريتين اللتين كانت تحرقني نظراتها لفعلت . ذلك مشهد لا تضمحل صورته من الذهن يا صفوان .

قال : ان قصياً يستطيع ان ينسى عندما يشاء ..

– اذن لا اريد ان انسى شيئاً .. بل لا اريد إلا ان اذكر فضله ثم استعين بجميع القوى على احترام ذلك الفضل .

– ولكن الناس يتحدثون بظلمك بعد ساعة .

– بل يتحدثون بعدلي عندما اقابل اعدائي بمثل السلاح الذي فاجأوني به !

وكانت لهجته لهجة رجل لا تلين ارادته ولا يحوله القضاء عن عزمه .

وماذا بقي لصفوان ؟ بقي ان يكون صريحاً فيبوح بسره وينجو زيـــاد . فقال وهو ينظر الى الارض : أعولت على هذا يا مولاي ؟

– اجل وكلمة واحدة من هذا القول لا تتغير !

– ولكن في قومك رجلاً يؤثر حياة زياد على حياته !

– في كنانة ؟؟

– نعم في كنانة ومن اقرب الناس اليك .

قال : ابني عرشي وما ابالي به .!!

فتأججت النار في صدره .! أيستخف قصي بقومه وهو في فجر حياتـــه الجديدة ولا يعبأ بما يطلبون إليه ؟

وكأن قصياً عرف افكاره ، فقال : إن عدوي عدو أهل الشعاب لا أستثني منهم أحداً .

قال : ألم نتعاهد على الوفاء بعد قدومك من الشام ؟

– بلى !

– وهل تحوّل عني وجهك عندما أسألك قضاء حاجه لي ؟

– انت ؟

– نعم وذلك الرجل الذي يفدي بدمه امير صوفة هو انا !

فاستوى في مجلسه قائلاً : انها نغمة جديدة اسمعها منك الآن ،، مـا شأنك معه ؟

قال : لقد انقذت حياته من سيف جبير بن عبادة فلا اطيق ان يموت مـن سيف أعز الناس عليّ !

– وهل تحطّ نفسك الى حد ان تحرس الأمراء المستبدين وتساعدهم على كل ما في الحجاز ؟

قال : هذا ما كتب لي يا مولاي فلا تزد .

قال : بل أزيد لألمس بيدي هذا الوفاء الغريب وأرى اذا كان هنالك غير الوفاء .. فقل الآن أليس في القضية غير ذلك ؟؟

فحجب وجهه بكفيه قائلاً : بلى ، فيها تضطرم في فؤادي ناره.. ني اعشق ليلى ابنة زياد يا مولاي ..

فابتسم قصي ولم يستغرب .. كأنه كان واثقاً بأن ذلك الشعاع الذي يلمع في عينيه لم يكن غير شعاع الغرام .. لكنه لم يكن يعرف ليلى ، بل لم يكن يعلم ان لعدوه زياد فتاة يستهوي جمالها احسن فتى في قومه ، ويحول ذلك الجمال بينه وبين غرضه ، وبعد سكوت قصير قال : أتخفي وجهك يا صفوان لانك عاشق ؟

فرفع رأسه وهو يقول : بل اخفيه لأن هذا العشق سيكون وبالاً علي وعلى قومي ...

– وأي شأن لقومك بهذا ؟

– لقد أحببت ابنة عدوهم وهذا يكفي . ولكن لا فعندما خلق القدر هذا الحب لم يكن لهذا العداء وجود ..

قال : متى كان ذلك ؟

– قبل ان يكون لك في الشعاب هذا الشأن ..

قال : صف ليلى .

فنظر الى يزيد قائلاً : صفها يا يزيد .

فتولى يزيد ذلك الامر ولو استطاع لجعل ليلى الهة الجمال ..

فقال قصي : انها اذاً سيدة الحسان في مكة . !

– لها وجه يخلب الالباب يا مولاي ..

– وهل تمت الخطبة يا صفوان ؟

– نعم يا مولاي، على ان نتزوج بعد عام او بعد عشرين عاماً او عندما ابلغ السبعين من العمر ، اذا بقيت !!

وقال يزيد : قد يموت قبل ان تزف ليلى اليه .

– أليس لهذه الخطبة اجل ؟

فقال صفوان : في ذمة الاقدار ذلك الأجل .

– خبرني كل شيء فما رأيت قط اغرب من هذا .

فأخذ يقص عليه تاريخ حياته منذ رأى زياداً في ميدان مكة حتى عثر عليه عبدالله ، ثم قال : وقد زرت امير صوفة بعد ذلك فكانت فاتحة عهد الشقاء الذي لا يزول ..

– ولكني اريد ان تحدثني بأمر الزواج .

قال : احدثك ببعض ذلك الأمر . ان زياداً اشترط علي ان يكون رأس جبير مهراً لابنته .!

قال : وهذا هو شقاؤك ؟

– نعم فقد طفنا في بلاد العرب كلها دون ان نجد أثراً لابن عبادة .

قال قد يكون الرجل في العراق او في الشام .

– وهل يكرهني القدر على قضاء حياتي في البحث عنه ؟

فجعل يتفرس فيه ثم قال : اذا كان زياد مصراً على طلبه فليس لك حيلة الا بالصبر .

– ثم يمر العمر كله وانا صابر وابن عبادة محتجب عن العيون .

– بل تصبر ريثما ينتهي امر الحجاز فاطلب الرجل ولو كان في حضن ملك الروم .

– ومع ذلك فهنالك شقاء آخر اخشى وقوعه !

– ماذا ؟

– سيحطم جلوسك على العرش ما بقي لي من امل ..!

فتمتم قائلاً : كلمات مجنون ورب الكعبة .

– بل انا اليوم اعقل مني بالامس ، ألم تقل الآن يا مولاي انك ستطلب زياداً وهو في قصره وتكرهه على القتال ؟

- بلى .
- وهل يستطيع زياد ان يثبت في الساحة ويخرج ظافراً ؟
- من يعلم فقد يكتب له النصر في ذلك اليوم وتضمحل هذه الاحلام .
- وهذا معناه اني سأكون في الحالين من أشقى الناس .
- ولكنك لم تقل لي كيف يكون هذا الشقاء . !
- اعلم يا مولاي اني أؤثر الموت على الحياة بدون ليلى .
- لقد عرفت هذا الآن .. ثم ماذا ؟
- وان هذه الحرب التي ستسعر نارها ستحرمني اياها الى الابد .
فقال ضاحكاً : الا تأذن لك ليلى في حمل السيف ؟
قال : اذا كان هنالك رجل يخشى ان يحمل السيف فذلك الرجل هو انا .. انا يا مولاي . !
قال : أعجب لهذا الحب الذي جعلك جباناً .
- وانا اعجب لهذا الزمان الجائر الذي سيسلبني احب الناس الي ، اسمع يا مولاي ، ان الحرب مع زياد ستنتهي بواحد من أمرين : امـا ان يقتل او تقتل انت .. أليس كذلك ؟
- اجل .
- وعندئذ يفصل الشرف بيني وبين ليلى ، ويبتعد الواحد منـا عن الآخر وهو غير مختار .. !
فقاطعه قائلاً ، لقد فهمت الآن ..
- ولكن يزيد لم يفهم بعد .. اذا قتل زياد فليلى لا ترضى بأن تعيش بين قوم قتلوا أباها .. كما اني لا أرضى ، اذا قتلت انت ، ان تزف الي ابنة القاتل .
فأطرق قصي وهو يفكر .. ان ذلك الكلام الذي يقوله صفوان لا يستطيع ان يرده .. وماذا يصنع بذينك القلبين اللذين يخفقان على الحب ؟؟ أيقضي عليهما وهو في طريقه الى المجد ولا يبالي ، ام يمهد لصفوان الذي أحبه سبل الوصول الى ليلاه ؟.. وطال تفكيره والاثنان ساكتان ، ثم قال : وكيف نفعل الآن ؟

فاجابه صفوان قائلا : أسألك سؤالاً ثم انصرف .
– ما هو ؟
– اطلب اليك ، اذا استوليت على مكة ، ان تتجاهل وجود زياد بن كعب كأنه غير موجود ..!
– ولكنه لا يريد الا ان يثبت وجوده بالدفاع عن امارته وحفظ السيادة لقومه كما قلت .
قال : لقد ظهر كل شيء الآن ، فأنا اضمن سكوته بل اضمن خضوعه لك عندما تسود الناس .
– انصح لك بالعدول عن هذا الرأي فالرجل ليس من قومك وانت لا تعرف ماضيه .
– لقد وعدني بأن يعتزل حربك ووثقت بوعده .
– اذن كان زياد يحدثك بأمر الحرب يا صفوان ..
– نعم وانا اسألك الآن بان تعدني بمثل ما وعد .
فلم ير سيد الشعاب بداً من ذلك الوعد فقال لو سألتني ان أنسى سدانة الكعبة لفعلت .. اعدك باني سأتجاهل وجوده اذا هو استسلم الي يوم تخفق فوق جيشي رايات النصر ، ولكن الويل له اذا تردد في هذا ، أترضى بهذا الوعد ؟
– رضيت على ان تذكر لي شروط هذا الاستسلام ..
قال : سأبدأ بخزاعة فانحيها عن هذه الكراسي التي يتربع فيها الامراء واخفض بالسيف جميع الرؤوس التي لا تنحني لي .
– وبعد ذلك ؟
– ثم انتظر بعد ذلك ان يفد علي جميع الذين لم يشتركوا في الحرب مستسلمين خاضعين ، على رأسهم صاحبك .!
فتردد قليلاً في الجواب ثم قال : سيفعل .
قال : احذر ، فثمن هذا الوعد رأس زياد ، ان لم يرض به . اشهد يا يزيد !
قال : دمه حلال لك ان لم يرض ، والعرش قبل ليلى .

وسالت دمعة على خده ، لانه عرف ان امله كله يقوم بالوفاء بما قال ،

ثم نهض قائلاً : ولم يبق الان الا ان ارى زياداً ولا اريد ان أراه وحدي ، قم يا ابن ربيعة ..

وخرج الاثنان ، وقلب صفوان يخفق مضطرباً وهو يحدثه بالفشل ..!

* * *

- ١٢ -

انظر لقد بدأ نجم قصي يلمع في الفضاء .. هـذا حليل بن حبشية سادن الكعبة يقيم بقصره لا يخرج منه الى كرسيه بباب البيت .. أتراه مل فتح الباب واغلاقه وآثر الاقامة بين الجدر ريثما تأتي ساعته ؟؟ أم تراه سئم العيش الذي لا يغيره ولا يبدله الزمان .. لا .. انه لم يمل شيئاً ولم يسأم عيشاً بل كان مريضاً ، وقد فاجأه المرض في ليلة باردة ، هطلت فيهـا الأمطار وغطت المياه بعض الاكواخ القائمة على جانبي الوادي ، وكانت حبى والمحترش بالقرب منه ، وقـد ذعرا لذلك الشلل الذي اصاب اباهما البار في تلك الساعة من الليل .

اجـل ، كانت حبى عنده ، تقضي بعض الايام بـين يديه وتقيم بعض الايام بالشعاب ، وهي في الموضعين شريفة القصد ، عزيزة المقام ،

وكان قصي في تلك الساعة بين قومه ، يتهيأ لرحلة جديدة يكثر بعدها ماله ، فارسلت حبى تطلبه مع احد غلمان القصر فلم يتردد في المجيء ، وقد رأى حماه في فراشه كأنه حجر لا يتحرك الا اذا تناولته الايدي ! نعم ، كان حليل جسداً صامتاً هادئاً ، لا تجول الحياة الا في لسانه وعينيه ،

فعالجوه ... ولكن العلاج كان عاجزاً عن ان يبعث الحياة في اصبع واحدة من اصابعه ..!

ان المرض قاس لا يرحم ولا يلين ..!

وقصي ينظر في وسائل شفائه ، كما كان ينظر في أمر حجابته التي خلا لـه فيها الجوّ .

بل لم يخلُ له بعد . فالمحترش حي ، وهو أجدر الناس بالولاية بعد أبيه ، كما عرفت .

ولكن قصياً لا يعبأ به ، فهو اذا استولى على الحجابة لا يلبث حتى ينزل عنها لصهره مختاراً غير مكره .

اذن فقد دنت الساعة التي تشهر فيها السيوف وتسرج الخيل ، وتوضع الرؤوس الكبيرة تحت الاقدام ..!

وويل الحجاز منها . ان الدماء ستسفح في الساحات ، وتلبس النساء السواد على الرجال الذين يغوصون فيها الى الاعماق .

* * *

لم ينم أهل القصر ليلتهم . وقصي لم يشأ ان يأوي الى فراشه . وكيف ينام وهو يحصي ماله ، ويعد الدروع والرماح والجيش ؟!

بل كيف ينام وهو يسمع هزيم الرعد وصفير الرياح ، ويرى ثورة الطبيعة التي تشبه ثورة الرجال في الميادين !!

لقد كان جالساً في تلك الليلة على العرش الذي بناه ، وهو يمهد للحجاز اسباب المجد الذي لا يبلى مع الدهر ، وكل ذلك بالفكر .! الفكر الحديدي الذي لا تضعضعه الحادثات .

ولم يبزغ الفجر ، حتى قبض على الحجاز ، ووضع يده على كل ما فيه ، من اقصاه الى اقصاه . وقام في ذهنه انه ملك يلبس التاج ويحمل الصولجان .

هكذا فعل عظماء الرجال من قبل ، وهكذا يفعلون اليوم . تضع ادمغتهم اسس العروش التي يحملون بها ، ثم يثبون بالعزيمة الثابتة ، والارادة الجبارة ، ويتربعون فيها كأنها ارث اعدته لهم الايام .

وكان خبر حليل قد انتشر في مكة وتناقلته الافواه . فأقبل بنو خزاعة الى القصر يعودون صاحبه ، وهم يخشون ذلك الرجل الآخر الذي سيخلفه فيه ..
وفي القصر تلاقت العيون . العيون الملتهبة الحمراء . وفي قاعة واحدة ، وعلى

مقعد واحد ، جلس ابو ضمرة الخزاعي وقصي بن كلاب ، الطامعان في الحجابة وكلاهما يحس بما يحمل صدر الآخر من بغض وحقد . وبعد قليل اقبل زيـاد بن كعب وزعماء قومه ، ثم دخل بنو بكر ورؤساء الشعاب ، والسكوت ينشر ظـلـه في الأروقة والدهاليز . فرأى حليل .. حليل المتألم الصامت ، ان نواب العشائر كلها مجتمعون في قصره ، وهو يعلم كما قرأت ، ان فريقاً منهم يطلب موته ليمد يده الى كرسيه فقال وصوته يرتجف ، وعيناه تنظران الى أبي ضمرة .

« يا أهل مكة ، لقد اتت الساعة التي لا مفرّ منها » .

فاجابه أبو ضمرة قائلا : نفديكَ بالأرواح يا حليل .

قال : انها ساعة لا يفدي فيها أحد احداً ..

– سنطوف حول البيت ونسأل هبل ان يشفيك ..

قال : لكل شيء حد وقد انتهيت الآن . ثم نظر الى قصي وهو يقول : يا أهل مكة ، انظروا في امركم قبل ان يغيبني القبر .

فقال ابو ضمرة : لقد سلمنا امورنا اليك ،

– ومـاذا يفعل الحاجز الذي يصارع الموت ؟ امامكم البيت الذي هو كعبة الناس فتشاوروا واحفظوه .

وتلك فرصة لم يضيعها ابو ضمرة فقال : « انتشاور لنحفظه وانت حي » ؟

– نعم وخير لكم ان تفعلوا هذا اليوم في هـذا القصر وانا بينكم ، من ان تفعلوه غداً في جوف الكعبة وانا ميت .

قال : رأيك ايها الأمير . !

فسكت قليلا كأنه يطلب الراحة ثم قال : اذا اردتم ان يبقى لكم هذا البيت العظيم فاتركوا المطامع .

قال : ان مكة يسودها الهدوء ، كما ترى ، .

– اما القلوب فلا تهدأ .

قال : هؤلاء امراء خزاعة فاجعل احدهم خليفة لك . !

فاختلجت عينا المريض واصفرت شفتاه. ان ابا ضمرة يستهين به وهو على فراش الموت ،

لكنه اراد ان يستعين بالدهاء الى النهاية ، فقال : « انت خيرهم يا ابن العم »

قال : قد يكون هنالك رجل آخر توءثره عليّ العرب .

فقال امير آخر : نختار اربعة ونضرب عليهم بالقداح امام الآلهة وهذا خير الاراء .

وقام آخر فقال : ان خزاعة لا تعمد الى مثل هـذا وفيها النبالة والشرف ، أليس فينا رجل يصلح للحجابة ؟

فابتسم قائلاً : لقد اذنت لكم ان تختاروا حاجبكم .

ونظر ثانية الى قصي كأنه يقول له : لقد دبّ الفساد في الصفوف وهذا ما رغب فيه . وجعل يتنفس بتعب وهو لا يسمع جواباً .

ولبث القوم ساكتين وهم يتشاورون بالعيون .

فقال : ماذا فعلتم ؟ فلم يقولوا كلمة . !

فغضب أبو ضمرة لان القوم لم يجسروا ان يختاروه ، وظهر ذلك الغضب على وجهه وهو يتمتم قائلاً : اختر انت من تشاء !!

فقال : اسأل الان بني بكر .

فقال زعيمهم : نرضى بالذي يختاره الامير .

– اذن اسأل بني صوفة فلهم رأي .

فأجابه زياد قائلاً : ليكن سادن الكعبة من خزاعة ولا نبالي .

– وانتم يا اهل الشعاب ؟

فقال خداش بن عبيد : ليس لاحد منا ان يتكلم وسيدنا في القوم . !

– من هو ؟

– أتجهله يا حليل وهو زوج حبىّ ؟

قال قصى ؟

فرفع صوته قائلاً : نعم قصي بن كلاب الذي ترون . فـاتجهت الى الفتى

النظرات ، وكلها السنة نار .

فقال : هات يا قصي ؟

قال : متى كان لبني كنانة رأي في حجابة البيت ؟

– بنو كنانة منا وهم اصحاب مكة من قبل .

– اذا كان هذا فقد رأيت غير ما يراه هوءلاء الامراء !

– اذن لا تريد ان تختار احداً .

– بل لا اريد ان افكر في الاختيار وانت باق .

– ولكني ذاهب الى الآخرة بعد ايام .

– سلمت يا مولاي .

– اذا سلمت اليوم لم اسلم غدا . قل كلمتك .

قال : اذا ذهبت فالحجابة باقية في بيتك حتى يفنى آل حليل .

والتفت الى الناس قائلا : ألا يخلف المحترش اباه في الولاية ؟

فقال ابوضمرة وعيناه تلمعان : لقد كنت جريئاً الى حدّ ان اذكر ما أعلم ولا أعبأ بأحد ، ان المحترش اعجز عن ان يقوم بالحجابة كما قام بها اباوءه .

فاجابه وهو هادىء : بل يفعل مثلما فعلوا وترضى العرب .

والخمر ؟

– اما الخمر فيشربها صرفاً جميع الناس كما يشربها هو ، وهو يعنيه بذلك القول فقد كان شراباً لا يرتوي .

فقال : اذا شربها الناس فليسوا حجاباً للكعبة .

– واظن ان شرف البيت يملي عليك هذا الكلام .

– اجل واضنّ بمقام البيت ان تحجه الملوك فيجدوا حاجبه سكران لا تمتد يده الى بابه من شدة السكر .

وكان المحترش صاحياً وهو يسمع ذلك القول ووجهه يصفرُّ ، فقال : أبا ضمرة .! من هو احق الناس بالامارة بعد حليل ؟

– انت . ولولا الخمر لسلمناها اليك .

- لقد عرفت الآن اني لا اصلح لها ولا تصلح لي ، ولكن الا تقول لي من هو احق الناس بعدي .

وذلك سؤال دهاء وحكمة .

فقال : واحد من خزاعة تختاره العشيرة . !

فقال لأبيه : هؤلاء ابناء عمنا يريدون ان يسلبونا ما نملك وانت بيننا ! ويلك يا أبا ضمرة أنسيت ان لحليل ولداً آخر غير المحترش الذي لا ترضى به ؟

- لا اعلم ان له ولداً آخر !

اذن ليس لحبى اخت المحترش وجود !

فصاح قائلاً : اتريد يا ابن حليل ان يخضع الامراء والقبائل في الحجاز لواحدة من النساء ؟

- اجل فليس في الحجاز مثل حبى ونحن لا ننزل عن هذا الحق . فارتفعت اصوات القوم قائلين : لا نجعل الحجاز في يد المرأة .

الا زياداً فلم يرتفع له صوت . فحاول حليل ان يخفي بصوته الضعيف تلك الاصوات القوية التي ملأت القاعة فلم يقدر ، ولكنهم اصغوا اليه وهو يقول : اتركوا الاختيار فساوصي الآن بالحجابة لمن اشاء .

وشريعة الوصية محترمة مقدسة عند العرب لا تؤثر فيها المطامع ولا تفسدها قوى الامراء المستبدين .

فساد السكوت كما كان سائداً من قبل . ثم قال لقصي : اين زوجتك ؟

- في القاعة الاخرى مع نساء الحي .

- عليّ بها الساعة .

فقالوا في نفسهم : اذا أوصى لحبى فكانه اوصى لقصي . وجعلوا يتهامسون وقد اضطربوا لذكر الوصية التي لا يستطيعون ردها والشر في العيون ، ثم اقبلت حبى وعيناها ذابلتان من كثرة البكاء ، فقال : لقد علمت يا ابني اني تارك هذه الدار ولاحق بآبائي .

فكفكفت دموعها وهي تنظر الى الارض .

قال : كفي عن البكاء فانت الان بين امراء مكة وقد دعوتك لأمر فيه صلاح اهل الحجاز .

فتمتمت قائلة : قل يا مولاي فانا سامعة .

قال : كرهت ان ارحل عن هذه الدنيا قبل ان أجعل لقومي رئيسا يرجعون اليه كما كانوا يرجعون اليّ .

فادركت كما ادرك المحترش وقصي مغزى قوله ، فقالت : لا يخرج احد من قومك عن الطاعة يا مولاي .

– بل خرجوا الان وكادت الفتنة تظهر في القصر وانا في فراش مرضي والآمي ، انتظر الموت .!

فقال قصي : انها سحابة صيف يا مولاي ... ورفع حاجبيه كأنه يقول لزوجته : لا تقبلي بالوصية .

اما حليل فقال : هب انها عاصفة مثل عاصفة الامس فانا لا أعبأ بها ولا انظر اليها ، اسمعي وصيتي يا حبى ، واسمعوا ايها القوم ..

« انا حليل بن حبشية سادن الكعبة أجعل ولاية البيت لابنتي حبى التي هي زوجة قصي بن كلاب الكناني .. وصية مقدسة اتركها في اعناق بني قومي ثم في اعناق أهل مكة » .

فأطرقوا . لأن تلك الكلمة وقعت كما تقع الصاعقة . ولكن حبى لم تسكت بل رفعت رأسها قائلة : « قد علمت اني لا اقدر على فتح الباب واغلاقه » .

قال : اني اجعل الفتح والاغلاق الى رجل يقوم لك به » . فكاد القوم يلفظون اسم ذلك الرجل فقد حسبوا انه قصي ، غير ان حليل ازال تلك الريبة من النفوس بقوله :

« هو ابو غبشان »

« واسمه سليم بن عمرو بن بوي بن ملكان » .

فقالت لا اقدر يا مولاي ، فأوص لغيري . والتفتت الى زوجها فرأت الابتسامة على شفتيه .

قال : أطيعي يا بنية ..

ـ لا اقدر يا مولاي على ما يعجز عنه الرجال :

فسألها مرة ثانية ان تطيعه فقالت : عار على اهـل مكة ان يولوا النساء .. هذا اخي المحترش فاجعل له ما اردت ان تجعله لي .

قال : مر زوجتك بان ترضى يا قصي .

قال : ما كنت لاخرج عما الفته العرب . لقد تعود الناس ان يكون حاجب البيت رجلا فأوص لرجل .

قال : وقد تعود الامراء ان يوصوا لبنيهم بما يملكون هذه وصيتي اعيدهـا للمحترش ولا احب ان اسمع كلمة بعد .. انك سادن الكعبة بعد ابيك يا بني .

فتظـاهر بأنه يهم بالكلام فأسكتته حبى قائلة : انك لا تستطيـع ان تعتذر كما اعتذرت فكن خليفة حليل . فرأى ابو ضمرة ومن حوله ان الامر قد انقضى ولم يبق سبيل الى الرفض الا اذا عمدوا الى السلاح.. ولكن السلاح يتركونه الى زمن آخر يكون الموقف فيه اكثر خطراً واشد وقعاً . وخير لهم ان يرضوا الآن بحجابة المحترش فيجمعوا كلمة القوم ويصونوا حرمة الامير المائت من ان يرفضوها فتنقسم خزاعة الى قسمين وتثور الرجال .

فلبثوا صامتين لا تبدر من أحدهم بادرة . وعـاد حليل الى الكلام فقال : اكتبوا بذلك عهداً .

فقال قصي : لقد كتب هذا العهد في الصدور .

فقال ابو ضمرة : اكتبوه حتى اذا عمد احدهم الى نقضه بعد حين كان جزاؤه النار . وأبو ضمرة يعرف ماذا يقول. لقد كان واثقاً بان قصياً نفسه سينقض ذلك العهد يوم يستقل المحترش بالأمر .. وزياد بن كعب يثق ايضاً بما يثق الآخر .. ولكنهم ، كما رأيت ، لم يجسروا على اغضاب حليل خوفاً من الفتنة . انهم كانوا ينتظرون موته ليثبتوا وجودهم . !

وقد عرف قصي مقامه ، فتدلل ما طاب له الدلال ..

اراد ان يجعل المحترش سادناً للكعبة فكان له مـا اراد . ولم يشأ ان يكتب الناس ذلك العهد فلم يكتب ، فكان في ذلك سيد الموقف يملي ارادته على سادة العشائر من وراء الستار، وبالكثير من الدهاء، دون ان يدل مظهره على الغرض الذي يسعى اليه .. وساعده في امره حليل المتألم ، بذلك الاسلوب النـاعم الذي شاور فيه الامراء . ولا يعلمون منه شيئـاً . أضف الى ذلك ذكاء حبى . وفطنة المحترش حاجب البيت الجديد . ولم ينس حليل ان يختم دهاءه بالموعظة فقـال لأبنه : ستصبح بعد موتي سيد العرب يا بني فاترك الخمر ..

فاجابه الآخر قائلاً : لن اذوقها وانا بباب الكعبة ..

– بل عدني انك لا تشربها وانت في القصر !!

– ولا اشربها وانا في القصر .

– وانك لا تميل مع الهوى ولا تحابي احداً فيما يعني حرمة البيت .

قال : سأفعل كل ما تقول يا مولاي ..

– والآن فصافح امراء مكة واحداً واحداً وهو يقول في نفسه: ان لم اشربها بالباب وفي القصر فسأشربها وانا في المطاف ، وعند حياض الماء مع الغلمان .

وعندما قارب قصياً هامسه قائلاً : لقد رضي قومك فلم نشهر السيف .

فقال : لولا خوفهم من السيف لرفضوا كل شيء .

وقام الناس فانصرفوا وأبو ضمرة يقول لقومه : سننسى انفسنـا وستنتقل الحجابة الى اهل الشعاب .

ولو نظر اليه زياد بن كعب في تلك الساعة ، لرأى عينيه ترسلان اليه سهماً مسموماً من سهام الحسد والبغضاء .

* * *

لقد عاد عبد اللات بن حارثة وعمر بن الأسود من طوافهما ولم يبصرا جبيراً فماذا فعلت انت يا صفوان ?

قالها زياد وهو يدعو ليلى لتسمع حديثهما .. ولعله دعاها لترى ذلك الحبيب

القادم من سفره ، فقال صفوان : لم اكن اسعد حظاً منهما ايهـا الأمير ، ان ابن عبادة يقيم بمدائن بهرام جور ام ببصرى ،

- ولماذا لا يقيم باليمن ؟

قال : لم يقل لنا احد انه سلك الطريق الذي يؤدي اليها .

وقدمت ليلى ويدها بيد أبي زياد ، فصافح يزيد وصفوان الاثنين وارتجفت يدا العاشقين ، ثم جعل صفوان يروي للقوم مـــا حدث لهما وهو يلعن الاقدار ووجه ليلى يتجهم ، وقلبهـا يضطرب ، وذلك النور في عينيها الذابلتين ، نور الأمل والرجاء ، يختفي وراء الكآبة والألم .. ان القضاء يكاد يحرمها صفوان . وأية حياة هي التي تقضيها بعيدة عنه ؟!

بل هو ابوهـا الذي اراد ذلك الحرمان . ! ولولا خاطر الثأر الذي خطر له لكانت اليوم زوجة لذلك العاشق الذي هو اتعس العاشقين .

حتى حكى الفتى حكايته كلها ولم يكتم اليأس الذي يتغلل في اعماق نفسه .

وزياد ساكت ، والابتسامة التي لا لون لها تبدو على ثغره من حين الى حين ، كأن الأمر لا يعنيه ، أتراه كان يرغب في ان يتحد الحبيبان ، ام يتظـاهر بتلك الرغبة لغاية له لا تدركها العقول ولا تراها العيون؟! لقد كان زياد في قضية ذلك الحب الطاهر الذي يغمر عواطف الفتيين ، لغزاً لم يستطع صفوان وليلى ان يحلاه فهو لا يكاد يزهو جبينه حتى يقطب حاجبيه ، ولا يبتسم لغرامهما حتى يعبس وجهه لأقاصيص ذلك الغرام .. كأنه بين عاملين قاهرين لا يدري ايهما يفوز في مجال النزاع .

اجل ، كان هنالك عاملان يتنازعان عاطفته ، احدهم مجده الذي لا يريد ان يخسره . والآخر سعادة ليلى ورضاهـــا كما مر بك ، وكلا الاثنين قادر وعظيم الأثر ...

وبعد ان اطرق لحظة ، رفع رأسه وقد زها جبينه ، وتلاشت آثار التردد التي بدت على وجهه ، ثم قال : اذن تكاد تضيع الرجاء يا صفوان .

- بل ضيعته يا مولاي وانقضى الامر .

قال : أيختفي ابن عبادة فلا يظهر في بلاد العرب الى الأبد ؟ — لو كان في بلاد العرب لرأيناه ، انه يعرف كيف يحتجب عن عيون الناس .

فقال هازئاً : بقيت الشام فقد تجده فيها والا ففي العراق .

-- ثم أعود منهما الى اليمن اذا لم أره !!

— اجل الى اليمن فهذا هو الرأي ..

— واذا كتب لي الفشل في اليمن رحلت الى البحرين ثم الى بلاد العجم حتى يظفرني الله به .!!

قال : لو كنت عاشقاً كما تقول لفعلت كل هذا .

— ولكني لا استطيع ذلك يا مولاي .

— أتعترف بالعجز وانت في ربيع عمرك ؟

— بل اعترف بان هذا القلب لا يطاوعني في أمر الرحيل عن مكة بعد اليوم. واحمر وجهه بعد هذا الاعتراف .

اما ليلى فابتسمت كما يبتسم البائس الذي خسر كل شيء .

فقال زياد : هب انك ترحل مع قومك في طلب المال .

قال : ما رحلت قط الا لأعود بعد شهر وليس لأقضي العمر كله باحثاً عن رجل ليس له في البلاد ظل .. ألم ترسل ايها الامير رجلين من عشيرتك يبحثان عنه فعادا اليك بعد عام يتعثران بالخيبة ؟ ألم يطلبه يزيد بن ربيعة هذا كما نطلبه نحن ورجع كما رجعنا ودم ابيه يهتف به داعياً اياه الى الثأر؟ فماذا يصنع صفوان ابن الحارث الذي لا يعرف بلاد العرب كما يعرفها ابناء صوفة ولا يدري اي بلدٍ ينزل فيه ذلك اللعين الذي لا تريد مهراً لليلى غير رأسه ؟! أتحسبني يا مولاي جنياً أغوص في البحار واخترق بطن الارض ، وأطير في الفضاء ساعة أشاء حتى اجد القاتل ؟، ام تظن اني من الآلهة آمره بالظهور فيظهر ، ثم بالاحتجاب في الاعماق فيغيب ؟؟ اني يا مولاي شقي لا حظ لي ، أحببت فلم يبسم لي عهد الحب وكتب لي ان اخنق حبي بيدي واعيش بدون قلب حتى تجيء ساعتي .

فلم تستطع ليلى ان تسمع اكثر مما سمعت فنهضت تحاول الخروج من القاعة

لتبكي هواها فاستوقفها زياد قائلاً : امكثي بيننا الى النهاية فهذه بادرة من بوادر الغرام لا تلبث حتى تزول ثم قال : اصبر فسيخدمك الحظ يا صفوان بعد حين.

– لقد عرفت حظي فلا سبيل الى الامل .

قال : سأرسل بعد ايام الى الشام والعراق ثلاثة رجـــال يطلبون فيهما ابن عبادة وانا اظن انهم سيعثرون عليه .

– وانا واثق بانهم لا يجدونه ..!

قال : وارسل ثلاثة آخرين الى بلاد الفرس ثم الى اليمن فنقوم بواجب الوفاء نحو ذلك القتيل البريء الذي خسر حياته من اجل مولاه .

– وبعد ذلك ؟

– انتظر رجوعهم ، حتى اذا لم يكن لابن عبــادة وجود في الاقطــار التي ذكرت زوجتك ليلى ولا ابالي بمـــا يحدث بعد ذلك والتفت الى ابيه قائلاً : الا توافقني في هذا يا مولاي ؟

قال : بلى .

– وانت يا صفوان ؟

فتمتم يقول : وما حيلة صفوان اذا كان مكرهاً على الرضى .. ولم يسأل ليلى رأيها ، بل لم ينظر اليها لئلا يرى في عينيها الدموع .

وغير حديثه فجأة قائلاً : ماذا رأيت بعد رجوعك ؟

– كل شيء في الشعاب باق كما تركته .

اما فقد رأيت طوائف الخيل ترد من يثرب ومن حي بني هذيل وهذا معناه ان القوم يتهيأون للحرب .

قال : لعلهم يتهيأون للدفاع يا مولاي .!!

فضحك وقال : انه دفاع لا اسباب له .

قـــال : من هذه الاسباب ان الأفعى تنفث سمها من وراء الجدر وهي لا تجسر على الخروج الى الساحة .

فأسكته يزيد قائلاً : ليس لك ان تبوح بأسرار سواك .

– بل أبوح بكل شيء فإن الحرب لا بد منها وحسبي ان يعلم الأمير ان اهل مكة يوقدون نارها من خلف الستار .

فقال زياد : اهل مكة يوقدون النار ونحن منهم ولا نعلم ؟..

– نعم وقد بدأوا بأضرامها في العراق بل في بلاط ملكه النعمان بن امرىء القيس ليبلغوا الغاية !!

فاستوى في مجلسه وهو ينظر الى ابيه والاستغراب على وجهه .

قال : لا تستغرب يا مولاي فـان اميراً من امرائكم مثل بين يدي ذلك الملك ونقل اليه حكاية كاذبة املاها عليه البغض !!

– اذكر اولاً هذه الحكاية .

وأصغى أبوه وليلى كي لا تفوتهما كلمة ، فقال : ذُكر للنعمان ان قصياً صنيعة الملك الغساني وجاسوسه يبعث اليه بأخبار البلاط وما يجري فيه .

– وهل عرف قصي العراق قبل ان يقدم الحجاز ؟

– لم تطأ قدماه أرضه غير مرة واحدة في العام .

– وماذا صنع الملك ؟

– لم يخرج قصي من مجلسه حتى دخل ذلك الأمير يروي له الأكاذيب فأوغر صدره وبعث حاجبه يستقدمه من جديد والغضب يغلي في ذلك الصدر .

ثم اعاد عليهم القصة كما سمعها من قصي . فغضب زياد لهـذه السعاية السافلة وصاح قائلاً : الامراء الذين يفعلون هذا هم انذال ، من هو الرجل ؟

– هو ابو ضمرة الخزاعي سيد القوم بعد حليل .!

فارتسم البغض بصورته الرائعة على جبينـه وجعل يقول وشفتاه ترتجفان ويل للساعي الخائن ، الجبان .

وانفجر البركان .. ان صدر زياد يحمل حقـداً على ابي ضمرة ، لم يحمل مثله على سيد كنانة !! بل كان يحس انه لا يستطيع ان يبغض احداً كما يبغض هـذا الخزاعي . يرجع أصل هذا البغض ، الى ذلك الزمن الذي سلم فيـه ابو كعب امارة العشيرة الى ولده . كان ابو ضمرة حسوداً ولا وجدان له ، يريد ان يستأثر

بكل شيء ، ويطمع في الاستيلاء على اموال الحجاج بالحرام ، لا يطيق ان توجه اليه نصح من حليل او من سواه. وفي مكة نفر لا يحترمون غيره ،ولا يعترفون بالنفوذ والجاه الا له . ولا يريدون ان يندب سادن الكعبة سواه لقضاء حاجات الحجاج .. فبطر .. كالقليل العقل ، الصغير النفس ، الذي لا يقدر ان يحتمل النعمة ، واستهواه السلطان والمال فوضع نفسه في صف الآلهة واخذ يحلم بالحجابة وما يتبعها من نشر الهيبة في الاقطار ، وذلك حقه ، لو كان له ما للأمراء النبلاء من اخلاق بل لو كانت له خصلة واحـــدة من خصال الرجال اصحاب الشرف والأدب . وكان يحب نفسه الى حد انه يؤثر ناقته على جميع من حوله ..! دون ان يتسع له المجال ليحب غيرها ..! وهو مغرور .. يقوم في ذهنه ان سماء مكة تهبط على اصحابها اذا هو ازاح يديه التي يسندها بها .

ويحب ان يكون كل ما في مكة ملكاً له !! وان يخضع له كل من فيها من ابناء البشر . وان تحني له الرجـــال رقابها كلما راح وجاء حول المطاف وفي السوق .

وزياد يعرف كل هذا ويراه كل يوم ، ونفسه تضطرب وتهتز لهذا الزهو الذي لا يجد له سبباً غـــير الجهل والضعف ، حتى زاره كما قرأت وحدثه بأمر قصي وأمر الكعبة ، فآثر ان يقبع في بيته ، ويصبر ريثما تتلاحم سيوف القوم فيسقط ابو ضمرة ضحية غروره ،

ويفعل بعد ذلك ما يطيب له .

ذلك ما كان يضمره زياد ، فلما ذكرت له حكاية الرجل انفجر بركان بغضه كما مرّ ، واخذ يستنزل عليه لعنات الآلهة ، ثم قال : وماذا فعل قصي بعـــد رجوعه الى مكة ؟

– لم يفعل شيئاً كأن الحادث الذي جرى له لم يكن قط .

– اذن لم يرَ أحدهم الآخر .

– بل تلاقى النظران في فناء الكعبة وقصي لا يبدو على وجهه أنـه يعرف من هو !!

فقال : ان صاحبك أجبن من رأيت

قال : اذا جالت الخيل كنت أول من يعترف لصاحبي بأنه سيد أبطال الحجاز . !

قال : يرى عدوه الذي تعمد قتله ويسكت عنه ثم تقول هذا ؟؟ ورأس أبي لئن فعلها معي لأضربنّ عنقه وهو في جوف الكعبة يصلي لهبل .

قال : اراك تنتصر لأبن كنانة يا مولاي ؟

– انتصر للشرف ولا اعبأ بالاشخاص .

– بل يخيل اليّ انك لا تحب الخزاعي .

اجل لا احبه ولا اطيق ان اراه ، كما اني لا احب ابن عمك الذي تدعونه سيد الشعاب !!

– حسبي انك لا تشهر عليه السيف .

قال : لقد وعدتك بهذا الا إذا جاوز حده في الغرور كما يفعل ابو ضمرة .

قال : وحسبك انه لا يمدّ اليك يداً ولا يفكر في حربك .

– اتعدني باسمه يا صفوان ؟

– بل انقل اليك حديثه الذي قاله لي وليزيد منذ ساعة .. لقد عاهدتماني انتما الاثنين على ان لا يعرض الواحد منكما للآخر وانتهى الأمر .

قال خبرنا ذلك الحديث اذا شئت .

قال : يكفي ان تعلم اني كنت رسول صلح بينك وبينه وأني جئت الآن اسألك ان تعاهدني على السكوت من جديد .

– ان زياداً يَعِدُ مرة واحدة ويعرف كيف يفي بما وعد . ولكن لا تنسَ اني أتصدى له إذا استخف بي وبعشيرتي ومدّ يده الى الشؤون التي لا تعنيه . ثم قال : وهل قصصت عليه حكاية غرامك ؟

– نعم فأنا لا اكتمه أمراً وليس هنالك من هو أبرّ بي منه .

– ورأيه ؟

– اما رأيه فالصبر الذي لا اعرف وسيلة للوصول اليه .

قال : ليس لدائك الآن علاج غيره ولولا قسمي لتم زواجك قبل ان أثـأر بعبد الله وقبل ان اعرف مقر جبير .
فقال يزيد : ولكن متى يذهب رجالك يا مولاي للبحث عنه ، كما ذكرت
- بعد ايام والذي صبر عاماً يصبر عامين آخرين .
قال : لقد ذكرت سودة الكاهنة ان التفتيش عنه في تهامة خير من الطواف في الجزيرة ومع ذلك فلم نره .
قال : اذا صدق الكهان مرة فليسوا آلهة ليصدقوا في ما يقولون كل حين .
وقامت ليلى عندئذٍ وهي تقول : أبقي شيء تريد ان اسمعه يا مولاي ؟
- لم يبق إلا ان تعالجي الأمر بالهدوء فلا تطمن فينا العرب ، فخرجت وهي تنظر الى حبيبها نظرات الحب . وما لبثت حتى دخلت مخدعها لتستسلم للبكاء ، وكان الغلام طلحة يسمع ويرى كل شيء وهو يلعن الأقدار الجائرة الـتي تفصل بين العاشقين .
وبعد لحظة انصرف صفوان واليأس ملء قلبه ، ولم ينس ان يغطي وجهه بعمامته كما تعود ان يفعل ، وتبعه يزيد وهو مطرق ، ولو سأله الشيطان في تلك الساعة ان يهب له نصف حياته على ان يساعد صفوان في أمره لما تردّد لحظة واحدة في القبول .
كان ذلك ، قبل ان يجتمع الامراء حول حليل المريض ، بعشره ايام .
يقول بعض المؤرخين ، وهم النفر القلائل ، ان ابن حبشية سادن الكعبة ، أوصى لحبى بحجابة البيت ، وجعل فتح الباب واغلاقه لأبي غبشان الذي قرأت اسمه ، ولكن البعض الآخر ، وهم الفريق الكثير ، يقول ، ان هذه الحجابة جعلها حليل لولده المحترش ، كما تقدم .

* * *

- ١٣ -

من هو أبو ضمرة هذا ؟؟
انه كما عرفت ، من اولئك الناس الذين يمشون الى اغراضهم على جثث القتلى

ولا يبالون . بل من اولئك الناس الذين تقوم جرأتهم بالخبث والرياء وشجاعتهم بالغدر والطعن من الوراء . والحجابة التي هي فوق العروش ، كانت امنية نفسه ومطمح نظره . يستهوي لأجلها قومه ، ويسعى بالحيلة والدهاء ليجعلهم جميعهم انصاراً له في أمره ، يوم يغمض الموت عيني ويخلو له الجو .

ولم يكن هنالك من يخشاه غير زياد بن كعب . . بنو بكر بن عبد مناة راضون بما قسم لهم الزمان، وبنو مالك بن كنانة ينسأون الشهور للعرب ولا يطمعون في المزيد، وليس في ولد حليل من يسبقه الى التربع في عرش الكعبة . . إلا بني صوفة ، فسيدهم طماح ينظر الى العلاء . ولا يقف في كبريائه وطموحه عند حد .

ان زياداً وحده هو الذي يخشاه ، فمظاهره مظاهر رجل قوي الشكيمة شديد المراس ، لا يلين له ولا يعبأ بزهوه .

وقد نقل اليه انه يقول لقومه : ابو ضمرة يطمع في الحجابة كما يطمع المرء في الوصول الى الشمس .

وهذا القول وحده يكفي لأن يجعل الواحد منهما عدواً للآخر ومن ذلك الحين ، اي قبل ان يبرز قصي الى الساحة، بل قبل ان يقدم مكة خلقت حجابة البيت في صدري الرجلين بغضاً هائلاً قاتلاً لا تنزعه يد القدر ، ولا تمحوه ظواهر النعومة والأنس البادية على الوجهين .

فلما قذف القضاء بقصي الى الحجاز وملأ دهاءه وعظمة نفسه قلب سادن الكعبة ، اضطرب الاميران الطامعان من جديد ، وأيقن كل واحد منهما بأن هذا الشامي سيحول بينه وبين غايته ، وقد مرّ في الفصول التي قرأت ، كيف تلاقى زياد وقصي في قصر الامير الاكبر ، وكيف ان زياداً لم يستطع في ذلك الاجتماع ان يخفي بغضه وعداءه وراء ستار من المجاملة والخبث .

على ان ابا ضمرة كان ادهى وأبعد نظراً ، فهو لم يشأ ان يرى قصياً وجهاً لوجه ، لئلا يخونه هدوؤه فيفضح نفسه . بل عمد الى وسيلة هي اضمن الوسائل

وافظعها لنيل الاغراض ، وكتم جميع الناس سره إلا رجلين اثنين باح لهما به كما سيجيء . اجل عمد الى الخلاص من عدوّيه بالقتل ، ليس كما يقتل الرجل رجلاً ، في براز ، وفي وضح النهار ، بل بالسعاية التي قام بها في بلاط النعمان ، وبتدبير آخر اعدّه لزياد .

انه لا يجسر على الظهور بمظهر العدو ، بل يلبس للناس ثوب الصديق ثم ينفث السم الذي يقتل لساعته . وقد أراد ان يبدأ بقصي .. ا قصياً في نظره أبعد اثراً وأعز موقفاً من أمير صوفة ، فإذا تمت له الغاية من قتله هان عليه ان يقتل الآخر ساعة يشاء . وكان قد عرف من اهل الشعاب انفسهم ، ان ولدي كلاب دخلا بلاط الحارث الغساني ليريا ما فيه ، فخلقت قريحته تلك الفكرة القاتلة وشدّ رحاله قاصداً العراق ليقضي على الجاسوس العربي الذي يشتغل لحساب الشام . !ولا تنس انه شاور زياداً في أمر الحجابة على رجاء ان يستميله في الساعة الأخيرة فلم يستفد شيئاً ، فخرج من قصره وهو يضع المنهاج الذي يبني عليه حياته . ومرت الايام حتى شلت يدا حليل ورجلاه وآوى الى فراشه ، وكانت تلك الجلسة التاريخية التي لم يستطع خوفاً من الفتنة ان يظهر فيها نفسه ! فرأى ان يجمع رؤساء الاحياء . وينظر معهم في الأمر الذي صاروا اليه دون ان ينمّ عليه طمعه . وفي ذلك الاجتماع يعرف كل ما يقوم في الاذهان .

وراح غلامه ، سراج بن الاسود ، وهو شقيق طلحة بن الاسود غلام زياد ، يسأل الامراء بأسم مولاه ان يوافوه الى الموضع الذي تعودوا ان يجتمعوا فيه ، وكان مجلس الشورى عندهم ، في ظل شجرة كبيرة تقوم وراء الكعبة لجهة الشرق .

فبادر الامراء اليه ، سعد بن بكر ، وزياد بن كعب ، وثمانية آخرون ينوبون عن البطون والاحياء . وليس فيهم من يجهل الامر الذي دعاهم لأجله ، فلما ظللتهم شجرة الشورى ، قال ابو ضمرة وهو هادىء ، كأنه يحدثهم بما يعنيهم جميعهم من أمر البيت : أتوافقون سادن الكعبه ايها الأمراء في كل ما صنعه أمس وانتم تعرفون ضعف المحترش واستهتاره وانصرافه الى الخمر يشربها من الفجر الى الليل

لا يبالي بشوؤن العرب ؟

قالها ، وجعل ينظر الى زياد بعينيه الناريتين ،

فقال سعد بن بكر : وماذا نفعل وقد لجأ حليل في آخر الامر الى الوصية وهي شريعة البيت منذ كانت الولاية لجرهم الى اليوم ؟

– ولكنها وصية جائرة .

– ومع ذلك فنحن مكرهون على قبولها كما هي الا اذا عمدنا الى العصيان وحملنا لواء الثورة .

واي شيء يمنعنا من هذا .؟

فسكتوا .. ! اذا لا يجسر احدهم على ابداء الراي .

قال : أتخشون حاجب البيت وهو عاجز ؟

– بل نخشى ابناء عمنا الذين حوله .

– لا أحسبهم ينتصرون له وهو يصارع الموت .

– ونخشى ايضاً ذلك الكناني الذي يطيعه قومه .

قال : لا يطيعه من قومه غير الفتيان وهم أضعف من ان يبرزوا الى الميدان.

فقال زياد : ألم تسمع خداشاً يقول ان قصياً سيدهم جميعاً .؟

– تلك كلمة خرجت من الشفتين . وهب ان اهل الشعاب جنود له فهم لا يقاتلون أهل مكة .

قال : الشجاع لا يفرّ من الساحة عندما يكثر القوم . انكم تنظرون الان في امر الحرب قبل ان تنظروا في أمر آخر .

قال : ما هو ؟

– أترون ان المحترش أهل للولاية ام ماذا ؟

– لقد رأيت انه ليس أهلاً لها .

– اذن يريد الأمراء ان يخلعوه ليولوا سواه .

فبرقت عيناه قائلاً : نعم .

– ولكن ، انخلع رجلاً ونحن لا نعلم من يخلفه في ولايته ؟

فقال القوم : اذا كان لا بد من الحرب فقد اصاب زياد . اذكروا من يخلف المحترش .

فقال أبو ضمرة : يخلفه الذي تختارونه الان . اختر يا ابن كعب من تشاء .

فقال دون ان يتردد : لقد اخترت هذا .!

واشار الى سعد بن بكر ، وهي قنبلة اراد ان يقذف بها لتظهر اغراض أبي ضمرة .

وكانت قنبلة كما ظن . فان الاضطراب بدا على الرجل وتحيّر الأمراء في ذلك الموقف الفجائي الذي دفعهم زياد اليه . ماذا يقولون الآن ؟ أيرضون بسعد بن بكر سادنا للكعبة وهم يعلمون ان أبا ضمرة يطلبها لنفسه ، ام يهينون سعداً وهو حاضر ويظهرون له انهم لا يرغبون فيه ؟

وطال سكوتهم حتى حسب زياد انهم لم يسمعوه . فــأعاد قوله وهو ينظر اليهم واحداً واحداً .

فقال سعد : ما فكرت قط في الحجابة ولم يخطر لي ان اطلبها ،. فاذا اردتم فاختاروا لها غيري .

فأجابه زياد قائلاً : ليس لك ان ترفض قبل ان تسمع اراء القوم فيك ، اني اراك أجدر الناس بها فلا تتردّد في القبول .

— أبو ضمرة اجدر مني بها فاسألوه .

فقال أبو ضمِرة : انا لها اذا ارادها القوم لي .

فابتسم زياد وهو يقول : ونحن قد اخترناك ، على ان تتهيأ للحرب وتعدّ المدة للصفوف .

قال : نحن متضامنون .

— نعم وذلك في القتال وحده ، اما المال والسلاح فهما منك

— أتطلبون هذا وانا منكم والقضية قضية الحجاز كله ؟

- ليس هنالك شأن للحجاز كما ترى ، انها قضية اشخاص وانت تريد ان

تكون صاحب عرش فافعل كما يفعل اصحاب العروش وابذل مـــالك لقومك الضاربين حولك بالسيوف .!

وكيف يبذل أبو ضمرة درهما واحداً من مال الحرام الذي انقضت الاعوام وهو يـــدفنه في دهليز قصره ؟؟! وكيف يعدّ السلاح وعند أهل مكة الشيء الكثير منه ؟؟ انه رأي لا يستطيع ان يرضى به وله عقل ، فأصفر جبينه وهو يقول : اذا فعلت هذا أمسيت فقيراً يا زياد .

– ولكن الحجابة ، اذا توليت أمرها ، تمطرك مالاً .

قال من يعلم فقد يغلبنا المحترش ومن حوله .

فأجابه وهو هازيء : اراك تقول ان بني كنانة لا يقاتلون أهل مكة ثم تخشى ان تنتهي الحرب بظفر المحترش، اتراه يظفر بالفريق القليل الذي يبقى له؟

قال : يخيل اليّ ان ولدي كلاب يحملان قومهم على الدفاع .

– اذن لا تطمع في ولاية تخاف ان يسلبوك اياها .

– ونرضى بحاجب البيت السكران .؟

– أجل فليس لنا حيلة الا بهذا الرضى .

قال : أتقبلون ؟

فقال سعد : نعم وذلك خير من ان نقسم قومنا وتشمت بنا العرب .

– ولكن الولاية ستنتقل الى قصي ، ان لم يكن اليوم فغداً .

قال : لا تنظر الآن في شيء لا وجود له .

– سيوجد بعد حين فتدبرّوا أمركم في هذه الساعة .

فأجابه زياد قائلاً : اذا حدث هذا الانتقال كانت الحجابة لك لا لسواك . قوموا ننصرف .

ونهض عن الارض ولم يترك لأبي ضمرة مجالاً ليسأل سؤالا آخر فتميز الرجل غيظاً وقال في نفسه : لاتصبح الكعبة ملكاً لي وقصي وزياد باقيان ، فلتقتلني الآلهة ان لم اقتلهما !

ومشى يريد قصره والنار تتأجج في صدره. اما ابن كعب فكان يهزأ في سره لابتسامة لا تفارق شفتيه .

* * *

في قصر أبي ضمرة الخزاعي ، مخدع صغير يقوم وراء قاعة السلاح وفي المخدع صنم من تراب ، وضعه خالد بن هبيرة جد ابي ضمرة يوم بنى القصر الذي ذكرت وكان يسجد ويصلي لهوهو في آخر عمره لا ينتقل من بيته الى الكعبة ليخاطب أصنامها . فلما توفاه الله ، بقي الصنم لولده ثم لحفيده كما كان له . لا تمتد اليه يد ولا تمس له حرمة .

وليس للمخدع غير باب واحد يخرج منه الى قاعة السلاح ، كما قرأت ، وغير النافذة واحدة تطل على الوادي ، ونسا القصر وغلمانه يعرفون ما فيه ولكنهم لا يعلمون ان له سرداباً يؤدي الى الخارج . وبابه ، في النهار والليل . مغلق على صنمه ، لا يفتحه غير أبي ضمرة في ساعات ليس لها أجل ، وقد يدخله معه غلامه سراج ثم يخرج منه ويبقى مولاه . فتقول النساء : لقد كثرت صلاة ابي ضمرة في هذا العام . وهنّ لا يجسرن ، بناء على امر رب القصر ،على الدنو منه ساعة يكون فيه ، وعندما يخرج ، يغلق بابه وباب قاعة السلاح ويضع المفتاح في حزامه لا يسلمه الى احد من الغلمان . ولم يكن يفعل ذلك فيما مضى ، بل لم يكن يدخل ذلك المخدع الا بضع مرات في السنة ، وفي ايام معلومة هي اعياد العرب في الحجاز ،

فلما كثر دخوله وخروجه ، كثرت الظنون ، وقام في الاذهان انه يفعل هذا لاجل المال الذي يضعه فيه وليس لاجل الصلاة .

ولو دنا احد العبيد من الباب ، لسمع صوت مولاه يهامس صنمه . بل يهامس رجلاً او رجلين من لحم ودم .

نعم ، كان هنالك رجلان يرسلان لحيتين : احداهما سوداء والاخرى بيضاء وعيونها كعيني الذئب لا تهدآن في محجريها ، وأهل القصر ، الا سراجاً ، لا يشعرون بوجودهما في المخدع المقدس الذي جعله خالد بن هبيرة للعبادة .

ومن اين لهم ان يشعروا بهما ، وجميع حاجاتهما تقضى من السرداب الداخلي وسراج يحمله اليهما ما يطلبان دون ان تراه العيون . !

وكـأن الرجلين في بيت منفرد بعيد عن الناس ، لا يبصران غير الذي يزورهما ، بل لا يتنشقان الهواء الحر الا من النافذة ! انهما سجينان . ولا يريدان ان يخرجا الى العالم الا اذا تم لهما الأمر الذي يسعيان اليه . ولماذا يخرجان ورب القصر كثير العناية بهما . بـل لماذا يخرجان والافق مكفهر . والسماء تحجبها الغيوم السود . والجو الأغبر المضطرب ينذر بالعاصفة الهوجاء ، فليبقيا اذن ، في قدس الاقداس ما طاب لهما البقاء . ولنقص على القارىء حكاية وجودهما فيه ، بعد ان نعرفه بهما .

* * *

لنعد الى الزمن الماضي الذي قتل فيه عبدالله مولى زياد بن كعب ، ولنمش وراء جبير وعدوان بعد ان تركا الوادي ، على ذلـك الطريق الذي يؤدي الى اليمن ، وهما هاربان ،

انظر انهما تركاه .. تركا الطريق الذي ذكر ، وصعدا الجبل العالي القائم على الجانب الغربي ، الذي يفصل بين تهامة والحجاز . واستترا وراء الصخور ، ريثما يسدل الليل حجابه ويبسط ظله الاسود على ذلك القطر ، الذي يخافان من فيه . وبعد بضع ساعات رأيا الخيل . والقوم يتفرقون في طلبهما وسمعا اللعنات يقذف بها فم زياد ويستنزل عليهما غضب الآلهة ، فجعلا يبتسمان لذلك المشهد الجديد الغريب ويهزآن بالرجال الذين يروحون ويجيئون باحثين عنهما . . !

ولماذا لا يبتسمان وهما على القمة والقوم في الوادي لا يـكاد أحدهما يصعد الجبل حتى يهبطا منه الى موضع آخر يختفيان فيه !

ذلك ما كان يفكر فيه عدوان وهو ينظر الى القوم ، غير ان ذلك التفكير لم يجاوز المساء ، فان الرجال لم يلبثوا حتى تراجعوا يتعثرون بالفشل .

ومضت ساعة اخرى وهما جالسان في ظـل الصخر وجبير لا يفكر إلا في الفرار ، على ان يقوده مولاه الى البلد الذي يشاء ،

هذا يطيع الآخر دون ان يتردد في الطاعة ودون ان يقول كلمة .

فلما سكتت الاصوات وساد الصمت الوادي ، قال عدوان لسيده : لننزل الآن فقد رجع القوم ليحملوا جثة قتيلهم الى مكة، ويبكوا العبد الصالح الذي تصدى لنا ففاجأه الموت .

قال : أتريد اليمن ؟

فهز رأسه قائلاً : أنرحل الى اليمن فيتبعنا القوم بعد شهر ويبثوا حولنا العيون ..

– ولكن الى اين ؟

– الى تهامة فلنا فيها اخوان وانصار .

وتقدمه نازلاً من الجانب الآخر حتى بلغا تهامة يسترهما الظلام وقد أمنا كل خطر في ذلك الليل .

وليس أخبر من عدوان بطرق الجزيرة ومغاورها ، وسهلها وجبلها ، فهو يعرف اين يختبيء واين ينام ، حتى وصلا الى البلد الأول فاستراحا فيه يومين كاملين على ان يتركاه في اليوم الثالث الى بلد آخر يضيع في السهل الذي يشبه الصحراء ، وكان سراج بن الاسود ، غلام ابي ضمرة ، في ذلك البلد ، يحمل لمولاه منه بعض صنوف المسك والطيب ، فرأى الاثنين وعرفهما رغم ذلك المظهر الغريب الذي يظهران به .

وكان يعلم ان مولاه وجبيراً صديقان . وبين الاثنين صلة ولاء وثقت عراها الاخلاق .. والايام ، فدنا منهما وهو يجهل الحادث الفظيع الذي جرى ، وفاجأ جبيراً بقوله : لقد قيل في مكة انك في ضواحي يثرب ولم اكن اعلم انك تقيم بهذا البلد . فذعر جبير . ثم تردد في الجواب ، ذلك لأنه سمع الصوت قبل ان يرى صاحبه .

اما عدوان فكان قد رآه فقال : انا هنا كما ترى .. ولكن من قال في مكة اننا نقيم بيثرب ؟؟

– سمعت الناس يتحدثون بهذا وخبرت مولاي ابا ضمرة بما سمعت ويقولون

فيها ان جبيراً لا يجسر على الاقامة بمكة بعد الذي حدث بينه وبين زيـــاد بن كعب .

قال : تعال نجلس وراء هذا الجدار ثم تقص علينا ما تعلم.

وجلس الثلاثة وسراج يروي لهما الاخبار كأن الاثنين لا يعرفان منها شيئاً وقد فاته انهما كانا في مكة وهما يعلمان كل شيء.

ثم قال عدوان : ماذا فعل مولاك ؟

– أوصى رجاله الذاهبين الى يثرب ، بأن يبحثوا عنكما فيها ويسألوكما بأسمه ان ترجعا الى مكة لتقيما بالقصر .

– أتقسم برب الكعبة انه فعل ذلك ؟

– أقسم برب الكعبه اني صادق فيما قلت ...

وكان عدوان يعلم ان أبا ضمرة الخزاعي يكره زياداً كما يكره الشيطان ولا يتردد لحظة واحدة في ان يدفعه بيديه الى اشداق الموت ، إذا استطاع ، فقال : نقيم بالقصر وزياد يطلبنا ؟؟

– نعم ومولاي لا يبالي به ولا يعبأ بما يفعل ، كما انه لا يسلم جـــاره الى عدوه ولو كان من الملوك .

– اعرف ذلك يا سراج ولكني لست واثقاً .

– ألا تثق بي وانت تعرفني كما تعرف مولاي ؟

– لقد ثبت لمولاك ان زياداً يطلبنا أليس كذلك ؟

– بل ثبت له انه لا يريد ان تقيما بمكة .

قال : هذا يكفي ومـــع ذلك لم نبصر له وجهاً ولم نسمع له صوتاً يرتفع في سبيل الدفاع عن جبير .

قال : ليس من الرأي ان يوقد نار الحرب لأجل هذا .

كما انه ليس من الرأي ان يجعلنا في قصره فيستهدف للأخطار .

– انصح لكما بالرجوع الى مكة فذلك خير من الالتجاء الى الناس الذين لا يطيقون ان يغضبوا ابن كعب .

– دع عنك هذا يا سراج فقد حدث في مكة اليوم ما لا تعلم .
فقال مستغرباً : ماذا حدث ؟
– لقد قتل عبدالله ودفن في الوادي . ! !
– ومن قتله ؟
– نحن الاثنين وعندما يبتسم لنا الحظ مرة اخرى نقتل زياداً.
– ومع ذلك فأنا لا أفهم ما تقول ، أتقيان بتهامة وتقتلان عبدالله وهو جار البيت ؟؟
– بل كنا في مكة نقيم بها ولم نبلغ تهامة إلا منذ يومين .
وجعل يروي له الحادث كما جرى وهو يتفرس فيه كـأنه يقرأ افكاره واسرار قلبه .
فقال : اذن سيملأ زياد جزيرة العرب عيوناً .
– اجل وسنترك تهامة بعد حين وقد نذهب الى الحيرة فنستجير بالنعمان ونعيش في ظله .
– بل تعودان الى مكة وتمكثان فيها حتى تجيء الساعة التي تستطيعان فيها ان تذبحا زياداً كما ذبحتما مولاه ! !
فتظاهر اللعين بالتفكير ثم قال : ومن يضمن لنا ان أبا ضمرة يرضى بأن نقيم عنده بعد الذي جرى ؟
– انا أضمن ذلك .
قال : نسيت ان اذكر لك ان طلحة ابن الاسود يخدم أمير صوفة !
– طلحة أخي ؟؟
– نعم اخوك وهو الذي دلّ عبدالله على المضرب الذي كنا نقيم به .
قال : اعرف ان طلحة يطوف في الاسواق ليخدم الحجاج وقد يجلس عند حياض الماء في فناء الكعبة يومين وليلتين لا يذوق فيهما طعاماً حتى يحسن اليه احدهم بما يكفيه يومه !
قال : يخيل اليّ ان زياداً سيجعله من غلمانه .

– وهذا معناه ان الزمان يمهد لك سبيل الظفر . !
– أتعني ان طلحة سيكون عوناً لنا على سيده ؟
– ان طلحة لا يخون احداً فهو نبيل الخلق طاهر الوجدان . ولكننا نحمله على الخيانة دون ان يعلم من أمرنا شيئاً .
وكيف ذلك ؟
– آخذ منه اسرار مولاه وانقلها الى مولاي .
– وتضمن هذا ايضاً يا سراج ؟
– اجل وأقسم برأس أبي ضمرة ورأس الصنم الذي وضعه في القصر جده خالد بن هبيرة .
فأطرق . وقد بدا على وجهه ، انه لا يثق بذلك القول ، على رغم الصراحة التي يحدثه بها غلام الخزاعي .
وقد قرأ سراج تردده فقال له : ألا تريد ان تكون آمناً ؟
– وماذا اريد غير هذا .
– اذن ارجو ان تعمد الى الوسيلة التي تبلغ معها الغاية .
ففاجأه بقوله : اقترح عليك ان تبعث احد الغلمان الى مكة يحمل رسالة الى مولاك وتبقى انت في تهامة ريثما يعود .
– وتكتبها انت ؟
– بل يكتبها مولاي جبير بأسمك وتنتظر الجواب .
قال : لقد فهمت الآن فأنت تؤثر ان تسمع رأيه قبل ان تخطو خطوة واحدة الى مكة .
– قل اني سأدعوه الى تهامة واحادثه كما احادثك الآن .
قال : افعل ما يطيب لك فقد رضيت . ومشى الثلاثة يبحثون عن ذلك الرسول الذي يحمل رسالتهم فلم يلبثوا حتى وجدوه ؛ فكتب جبير : الى ابي ضمرة الخزاعي ، من مولاه سراج بن الاسود :
« ارجو ان يجيء مولاي الى تهامة عندما يقرأ هذه الرسالة ورسولي اليه

يدله على الموضع الذي انتظره فيه »..

وحمل الرجل رسالتهم واقاموا ينتظرونــه ،.وعدوان لا يغفل عن الطريق الذي يؤدي الى البلد ، يتفحص فيه احوال القادمين . حتى انه لم ينس ان يراقب الفضاء ويتفرس في طيور السماء ؛ وكان مضطرباً خائفاً ، لا يغمض لــه جفن ، لأنه يعرف ان أمير صوفة لا ينام على ضيم .

* * *

عندما مثل الرسول بين يدي أبي ضمرة ، كان زياد بن كعب يفكر في ارسال عبد اللات بن حارثة وعمرو بن الاسود للبحث عن جبير ؛

ولم يكن يزيد بن ربيعة قد هم بالسفر لهذه الغاية .

فلما تناول ابو ضمرة الرق المكتوب خيل اليه ان سراجاً اصيب بسوء، فقال للرجل قبل ان يقرأ : ويلك من اعطاك هذا

قال : ستقرأ فيه اسم من اعطاني اياه ..

قال : أسراج حي ؟

– لا اعرف اي رجل من الثلاثة هو سراج ، اقرأ يا مولاي ، ثم مر بمــا تشاء ...

فقرأ ، ثم جعل يخاطب نفسه قائلاً : الرق من سراج ، ويقول الرسول ان ثلاثة رجال اعطوه اياه ، فمن هما الاثنان الآخران ؟

فاجابه الرجل : لا اذكر الاسماء يا مولاي .

– وماذا تذكر اذن ؟

– اذكر انهم ارشدوني الى الموضع الذي يقيمون بــه لأدلك عليه اذا اردت الرحيل غداً ، عند الفجر . !

– ولكنك تصفهم لي ؛

فجعل يذكر اوصافهم فلم يعرف منهم غير غلامه ، ذلك لأن جبيراً وعدوان كانا يخفيان وجهيها فلم يقدر الرجل ان يصف ذينك الوجهين .

فقال : صف الجسمين ..

فلما وصف جسم جبير لمعت عينـــاه وهو يقول : لقد عرفته وسنترك مكه غداً عند الفجر كما قلت ..

وكان الامر كما قال ، فان ابا ضمرة يركب بعيره في فجر اليوم الثاني يريد تهامة ، ودليله ذلك الرجل الذي يذكر الصفات ، ولا يحفظ الاسماء .

* * *

وفي تهامة تلاقى المتآمرون ..

اجل . كانوا متآمرين يحملون من الحقد شر ما تحمله الصدور ؛

وقد عتب ابو ضمرة جبيراً ، على تحجبه في مكة ، واقدامه على قتل عبدالله دون ان يقول له كلمة ؛ فقال عدوان : خفنا ان يعلم زياد اننا في جوارك فتنشب الحرب وهذا ما لا يريده مولاي ..

– والآن ؟

– امـــا الآن فقد سألنا سراج ان نرجع الى مكة فـلم نشأ الرجوع قبل ان نراك ...

قال : سنرجع اليها قبل ان تخرج رسل زياد الى الجزيرة .

– أيبعث رجاله للبحث عن جبير ومولاه ؟

– نعم وهؤلاء الرجال يعدون عدة السفر كما عرفت .

قال : لنتحدث بجلاء يا مولاي ، أتريد ان نعود لتظهر للناس اننا جيرانك ام ماذا ؟

– بل نعود لنقتل رجلاً آخر تهتز له اركان البيت .

– ولكن لا اظن انك تريد قتله اليوم .

قال : نهيء الاسباب وننتظر الساعة التي نخرج فيهـــا من وراء الستار ، أعرفت الرجل الذي أعنيه ؟

– عرفته فهو زياد نفسه .

– احسنت وقد يكون هنالك غير زياد ..

– اذن تريد ان تقتل رجلين احدهما امير صوفة .

-- نعم .

- ونحن لا نعود الا على هـذا الامل فان مولاي لا يطيب له العيش الا اذا استراح من زياد ومن صفوان بن الحارث .

- ويتبعها قصي بن كلاب الطامع في العرش .

- أتظن ان حماه يجود بها عليه ؟

قال : يظفربها بعد موته فالمحترش لا يستطيع ان يحتفظ بشيء .

- ولكن الامراء لا يرضون .

قال : سيبذل الجهد كله ليستولي عليها بالسيف .

- وماذا يبقى لك ؟

يبقى ان أخضع له كما يخضع جميع الناس ،

فابتسم قائلاً : اذا تحدت خزاعة كان اضعف من ان يمد اليها يداً .

قال : لا تتحد وابن كعب يرغب في الحجابة .

لقد فهمت الآن فان الاثنين يجب ان يموتا ليخلو لك الجو .

- اجل وهذا ما ننظر فيه ونحن في القصر .

- واي امر تعد لحليل ؟

- ان الزمان يعد له ذلك الامر .. ألم تره يجر رجليه جراً وهو ذاهب الى الكعبة واذا هم بالجلوس ارتمى على مقعده كما يرتمي السكران لا يطيق ان يرفع رأسه ؟ انه شبح فانٍ لا نعبأ به ولا ننظر اليه الا كما ننظر الى السحابة السوداء تغطي وجه السماء ثم لا تلبث حتى تزول ..

اذن تبدأ بقتل قصي .

- لا أعلم الآن فقد أبدأ بزياد .

قال : اما زياد فقد سلم اليّ القضاء امره فلا يموت الا من يد مولاي .

فقال جبير ، وكان ساكتاً: دعوا زياداً فهذا لي. ورب الكعبة ان لم يظفرني الله به في المجال ، دخلت قصره في وضح النهار ، وطعنته بخنجري هـذا طعنة واحدة يلفظ بعدها روحه في حضن ابنته وعينا ابيه تنظران ... ثم ابحث عن

صفوان بن الحارث واضع الطعنة في صدره حيثما وضعتها في صدر الآخر وينتهي الامر ؛ فضحك عدوان وهو يقول: ولا يبقى بعدئذ الا ان يشهد الحجاز زواجك وتنعم بليلى الى الابد ..

قال : لا تهزأ فسترى بعينيك جثتي الرجلين ..

قال : بل جثة زياد وحده اما الآخر فخير لك أن يبقى ليشقى في غرامه كما تشقى ويضيع رجاءه ..

فقال ابو ضمرة : أيؤثر حياة صفوان على موته ؟

- اجل ولكنها حياة افضل منها الموت ،!

غير ان جبيراً لا يرضى الا بان يعرف كل شيء فقال : كثيرا ما سمعت منك هذا وانا لا اعلم غرضك ..

- سيظهر هـذا الغرض بعد حين ، يكفي الآن ان تحتفظ بالعمامة الخضراء وهذا كل ما استطيع ان ابوح به ..

فقال ابو ضمرة : واي رأي لك في قصي ؟

- لو لم يكن عدواً لك لرأيت ان يعيش ، أتعلم لماذا ؟

قال : لا .

- ليسابق زياداً في ميدان الطمع ، ثم يقهره .. ثم يموت بعد ذلك مكسور القلب .. نعم ، ان قتله لا يبرد لنا غليلاً ؛ فيجب ان يموت في حياته عشرين مرة قبل ان نسفك ذلك الدم ، افهمت الآن ؟ ولكنه عـدوك وانت تريد ان تنجو منه فليكن ما تريد ..

وكيف نقتله يا عدوان ؟

- اذا رجعنا الى مكة نظرنا في امر قتله ..

- ولكنك راجع مع جبير ..

- اخشى ان يفسد رجوعنا علينا امرنا ..

قال: كنت في وادي مكة لا يحجبك غير اربعة استار من الصوف ولم تكن خائفاً ، أفيدب الذعر في قلبك عندمـــا تقيم بقصر امير خزاعي لا تصل اليك

فيه العيون .؟

– يكفي ان يرانا فيه الغلمان فيفضحونا ..

– لا تقع عليك غير عين سراج هذا .

– وكيف ندخل قصرك وهو يغص بالعبيد والنساء ؟

– ندخله من باب صغير لا يعرفه اهل القصر واجعل لكما مخدعاً سرياً تقيمان به هو مخدع صنمي ..

ففكر عدوان قليلاً ثم قال : نرجع والويل لزياد ..

ومكثوا في تهامة بضع ايام ثم رحلوا عنها الى مكة . واغرب ما في الامر ان الليلة التي دخلوا فيها القصر كانت الليلة التي خرج في صباحها عبد اللات ورفيقه الى بلاد العرب . ثم لحق بها يزيد وصفوان يفتشون عن قاتلين لا يبعدان عن كعبة العرب غير بضع خطوات ...

أعرفت الآن ايها القارىء ذينك اللذين يحرص عليها ابو ضمرة في قصره ؟ انها جبير وعدوان قاتلي عبدالله !

* * *

عندما نزل الاثنان في ذلك القصر ، اصبح عدوان وحده دماغ المتآمرين لا تطرف لرفاقه الثلاثة : ابي ضمرة وجبير وسراج ، عين الا باذنه .

هو يفكر ما طاب له التفكير ، ثم يجعلهم رسلاً لأفكاره . فكان في ذلك سيداً لهم تنحني له رؤوسهم ولا يسألونه عن امر ولو كان فيه الموت ، وهو الذي اشار على ابي ضمرة بان يدعو امراء القوم ويحدثهم بشأن الحجابة ، بعد ان اوصى بها حليل لولده كما مر .

فلما تصدى زياد لأبي ضمرة ، في ذلك الاجتماع ، ووافقه القوم في الاعتراف للمحترش بحق الامارة ، ترك ابو ضمرة مجلس الشورى كما قرأت ، واقبل على المخدع المقدس ينقل الى عدوان وابن عبادة ما سمعه وكان يرتجف من الغضب وهو يقول : لقد فرغ الصبر ولم يبق الا ان نعمد الى الخنجر ؛ فضحك عدوان ولم يكن يفرج كربه ذلك الخزاعي غير تلك الابتسامة الجهنمية التي تبدو على

ثغر اليمني ؛

ثم قال : أعد علي كلام زياد ،

فأعاده فقال : انه ادهى وابعد نظرا من القوم .

– ومن اين لك ان تعرف دهاءه ؟

– من حديثه الذي تقصه علينـــا الآن ، أرأيت انه كان اسبق الناس الى الاعتراف بابن حليل .

– واي دهاء يقوم باعترافه ؟

– انه يثبت لمن حوله احترامه مقـــام البيت ، ويظهر لهم – وهو الطماح الكثير الطمع ، ان مـــا يراه سادن الكعبة يراه اهـل مكة جميعهم دون ان يستثني احداً .

– والغاية من هذا ؟

– امـــا الغاية منه فهي أنه اذا بدرت منك بادرة ارتفعت اصوات القوم قائلين : هذا عصيان .. وخروج عن العادة .. وقاموا الى سيوفهم يلتفون حول زياد ويحفظون تقليدهم الذي انقضت عليه الاجيال ، ثم ينتهي الامر بان يضربك احدهم ضربة يصرعك فيها فتتم لهم الغاية من قتلك .

قال : ليخرج جبير من عزلته وليظهر في فناء البيت وانا احميه .

– لماذا ؟

– لكي يراه زياد ثم يأمر بالقاء القبض عليه فأتصدى له كما تصدى لي ويعرف من هو الظافر .

قال : ذلك امر لم تأت ساعته ايها الامير .

– ومتى تأتي هذه الساعة ونحن نعيش كما ترى بالتحجب كما تعيش الاسرى

– نعلم اولاً ما في صدر زياد من اسرار ثم نفعل ما نشاء .

– أيبوح لك الرجـل باسراره وهو ادهى الناس كما تقول ، وانت عدوه لا تجسر على الظهور ؟

– بل يبوح بها غلامه طلحة لأخيه سراج وسيذهب سراج الآن .

- ولكن احذر يا سراج ان يراك ابن كعب فهو يعلم انك غلامي .

قال : اني اعرف اين ارى طلحة والويل له إذا ذكر اسمي لمولاه .

فقال عدوان : ولا تنس كلمة واحدة مما قلته لك. اما انت ايها الامير فاختر لي من غلمان قصرك اثنين يحسنان الطعن من الوراء ، كما يحسنان الكتمان .

-- وهل جاء دور قصي ؟

- نعم فاذا كان لا بد من قتله فليقتل اليوم ..

قال : في القصر عشرة غلمـــان هم اشجع فتيان مكة فسأختار لك منهم من تشاء .

- ولكن ارجو ان تعلم في اي هزيع من الليل ينزل قصي من الشعاب الى قصر حاجب البيت ..

- ذلك سهل عليّ فسأرسل من يعلم ذلك .

- وتستطيع منذ الليلة ان تحلم بسدانة الكعبة ، بل تستطيع ان تثق بانها لك كما تثق بنفسك ..!

قال : اذا توليت امر البيت يا عدوان جعلت لمولاك جبير امارتين وسلمت اليك شؤون الحجاج وهم حول حياض الماء .

قال : يكفي ان تزف ليلى الى مولاي وتكون له امارة واحدة .

فاجابه جبير قائلا : نفسي عطشى الى الدم اكثر منها الى الحب .

فقال : ستغذي العاطفتين وتسكر من الخمرتين . !

* * *

- ١٤ -

كان طلحة يعد نوق سيده كل صباح ومساء كما كان يفعل عبدالله ولا يرجع الى القصر الا عندما تأوي النوق الى المربط ويقوم حولها الرعاة .

وطلحة كما علمت شريف النفس طاهر القلب ، اذا احبّ احبّ باحساس طيب وشعور ، والموت عنده خير من ان يخون زيادا في امر او يكذب في قول،

ولم يتعود منذ صغره ان يبغض احد . بل نشأ يحب اباه ، ويذكر امه التي لا يعرفها ، ويحفظ الجميل والفضل لاخيه سراج ، الذي كان يعطف عليه ويحن اليه بعد موت أبيه .

ولم ينس ، وهو في قصر امير صوفة ، ان يوافي اخاه ، من حين الى اخر ، الى الموضع الذي تتلاقى فيه الغلمان . ويقصّ عليه ما يراه من معروف زياد وبره به. على انه لم يكن يعلم من قبل ، ان مولاه عدو لابي ضمرة سيد اخيه ، وهو الى الان لا يعلم ان سراج نفسه يضمر البغض لزياد ، ويحاول الاطلاع بواسطته على جميع اسرار القصر ، ومن اين له ان يعلم وهو حديث العهد في حياة القصور ، وخلقه الكريم النبيل لا يسمح له بأن يشك في احب الناس اليه .

كان يبوح لأخيه بكل ما يعرفه ، بنفسه مطمئنة وضمير هادىء ، وكان اخوه ، قبل هذه المؤامرة الجديدة ، يستقبل تلك الاسرار بالنفس المطمئنة والضمير الهادىء ،دون ان يكون هنالك اغراض يسعى لنيلها بالتحبب والدهاء.

اما اليوم ، ففي سراج ، غير ما كان في نفسه بالامس ، وهو اذا حدّث اخاه فانما يحدثه لاجل تلك الغاية التي هي خدمة المتآمرين . وقد اقبل عليه في مساء ذلك اليوم والابتسامة على ثغره وهو يقول : اراك تقضي بعد الهزيع الاول من الليل وانت خارج القصر . !

– وماذا اصنع ومولاي لا يثق باحد كما يثق بي ، وانا اكره ان يضيع مال المحسن اليّ ويخسر منه شيئاً .

– وكيف يخسر مولاك وعشيرته تمطره مالا واهل مكة يحبونه وليس له بينهم عدو .

قال : أما العشيرة فكما قلت ، واما اهل مكة فله فيهم اعداء احدهم الامير الذي تعيش في ظله .

– ابو ضمرة !؟

نعم ابو ضمرة ! ولكن هذا العدو لم يظهر بعد .

قال : لم اشعر قط ان في صدر مولاي شيئاً من هذا .

قال : نعم انه يستطيع ان يخفي بغضه وراء مظاهر حب كاذب .

– ليبغض ما طاب له البغض فليس لنا في ذلك رأي ونحن لا نعلم اسبابه .

– بل نعلمها فهي هذه الحجابة التي نطمع فيها الاثنان .

قال : انها حكاية جديدة يا طلحة !

– اجل وستتبعها حكايات عندما يطوي التراب سادن الكعبة .

قال : لقد كثر طلاب الحجابة في مكة حتى ان قصي بن كلاب يحدث نفسه بان يخنف حماداً .

– هكذا يقولون وسيتنازعها الثلاثة بالسيف والنار .

– اذن فمولاك لا يحب ذلك الكناني !

– نعم لا يحبه ولا يريد ان يستولي على الارث الذي لا يملك مثله النعمان بن أمرىء القيس ،

– ولماذا لا يتفق عايه الخزاعيان ؟

– الان مولاك لا يرغب في ذلك وقد قصد العراق ساعيا بقصي لدى النعمان ابن امرىء القيس ،

– واي شأن لزياد بهذا ؟

– معنى هذا ان أبا ضمرة لا يريد ان يشارك احداً في مساعيه فهو يمشي الى غرضه في ظلام الليل .

– ومن قال له ان مولاي سافر الى العراق ؟

صفوان بن الحارث ابن عم قصي .

فجعل يهز راسه ويقول: خير لنا نحن الغلمان ان لا نسمع مثل هذه الحكايات .

– ولكنا سمعناها ونحن نرويها كما وردت ولا نزيد عليها كلمة .

– لقد ذكرت لي من قبل ان صفوان لم يعثر على جبير وان زواجه لا يتم الا إذا حمل لليلى رأسه أفيصر مولاك على طلبه ؟

– اجل ولكنه سيبعث بعض رجاله هذه المرة الى بلاد الناس يبحثون عن القاتل فإذا فشلوا ترك البحث واذن في الزواج !

– أسمعت اليوم شيئاً عما جرى في اجتماع الامراء ؟

– لا ولكني رأيت مولاي يحادث اباه وهو يبتسم ابتسامة الاستخفاف ..

قال : لقد اجمعوا على الرضى بالمحترش .

فسكت طلحة قليلاً ، ثم قال : لقد حان موعد رجوعي الآن وسأراك غداً في هذا المكان .

قال : أيقضي مولاك ايامه ولياليه كلها في قصره ؟

قال : يطوف بين مضارب عشيرته كل يومين او ثلاثة وقد يذهب وراء نوقه الى الجبل عندما يضيق صدره .

– ولكن نسيت ان اسألك عن ليلى فكيف هي ؟

– عاشقة .. يبعد الزمان عنها من تهواه وحالها حال جميع العشاق الذين يقطعون الرجاء . ان ليلى يا سراج احدى نساء الجنة والرجل الذي يضمها الى بيته هو اسعد الرجال .

فتمتم يقول : مسكينة لقد ظلمها زياد .

فخفض صوته قائلاً : ماذا تقول ؟

– اقول ان زياداً لو زفها الى جبير في ذلك الحين لكانت اليوم ربة بيت كبير من بيوت العرب .!

– لا اعرف جبيراً هذا ولكني اسمع انه ليس من النبلاء .

– يكفي ان المال الذي يحمله في جرابه يزيد على مال الحجاج .

– أما المال فبعض الناس لا يحبونه وليلى منهم ،

وترك سراجاً وهو يقول : الى اللقاء .

* * *

كانت علة حليل تزيد وتشتد .. وحبى تقوم بالعناية به لا تفارقه لحظة واحدة ، وقد شعرت ، بل لمست بيديها الاثنتين ، ان الموت قريب منه .

وقصي ، بين مكة والشعاب يعنى بأمر مريضه وامور قومه لا ينسى شيئاً ولا يغفل عن شيء .

اما المحترش ، فكان يجلس بباب الكعبة ساعة ، وفي القصر ساعة لا يطيق ان يمكث اكثر من ذلك في الموضعين . ليس لأن اباه يصارع المنون ،. بل لأن الحجابة من ناحية ، ووفود الناس في القصر من الناحية الاخرى ، تحول بينه وبين الخمر التي كادت حشاشته تذوب شوقاً الى طعمها المسكر الخلاب . ! ولولا مرض ابيه لما كان يعبأ بالناس.. ! إنه يشربها على أقدام الآلهة في جوف الكعبة ولا يبالي . ! وقد نسي ما وعد به اباه يوم اوصى له بالولاية ، نسياناً كاملاً تاماً لا يذكر منه كلمة ! كأن ذلك الحديث لم يكن قط . !!

اجل ، لولا ذلك المريض لما رآه احد صاحياً ولما استطاعت الحجابة ان تحرمه لذة السكر . !!

كان يخشى ان يسكر فيثور القوم ويطلبوا بأن تخرج الامارة من يده بعد ان اصبحت له . إنه اذا خسرها خسر قضيته التي اشتغل لأجلها بضعة اعوام ؛ اي منذ رأى اباه يرغب في قصي بن كلاب .. وتلك قضية سياسية كما رأيت .. فيها الحكمة والدهاء .. لقد كان يكره ان يتولى أمر البيت واحد من خزاعة ، وذلك رأي ذكره لأبيه وصهره يوم تحدثوا بشأن الزواج . بل كان يكره كل خزاعي مهما يكن أمره . ولا يطيق ان يرى الكلمة الاولى في الحجاز لرجل من هؤلاء .. ! وكان يعلم كما يعلم سواه ، ان الوصية لا تردّ إلا بالسيف ، وبنو خزاعة اضعف من ان يردّوها، في ذلك الحين ، فبات شديد الحرص على حجابته خوفاً من ان يغير حليل رأيه فتنتقل الى غيره . وهو لا يريدها لنفسه ولا تخطر بباله ، بل يريدها لصهره فيضمن في ذلك عزه وعز اخته . وينصرف الى لهوه وسكره كما كان يفعل في حياة ابيه !. ويحرم عشيرته اياها الى الابد .

وهذا ابلغ عمل يرضي به حقده ، على القوم الذين قضوا زمانهم يستخفون ويهزأون به ، وكانت سياسته ان يهجر الخمرة ويصبر ريثما يموت ابوه . ويصبح هو سيد الناس ، فيعمد عندئذ الى ذلك الحق الذي عمد اليه حليل قبله ، ويهب الولاية لقصي .. وفي تلك الهبة يمشي الفريق الكبير من خزاعة الى جانب

صي ، ويكثر اشياعه وانصاره .

هذه هي سياسة المحترش ، واغرب ما فيها انها سياسة رجل ضيعت نصف عقله الخمر ، ووضعت البلاهة يدها على النصف الباقي .

وكان قصي يعرف ما في صدره ، ولا يفوته سر واحد من اسراره ، وهو الذي كان يملي عليه الترفع عن الخمر ، والصبر الى النهاية ..

على ان للخمر حكاية اخرى لم يقصها قصي على احد ، ولكن الزمان الذي يفضح الاسرار قصها عنه ، ونشر للناس بعد اجيال ، ما اراد الكناني الداهية ان يطويه .

كان يمنعه بالحسنى عن الشراب ، ليس لأنه يخشى ثورة القوم فحسب ، بل لكي تحرقه الخمر بنار الجفاء . ويبرح به الشوق ، فتتوق نفسه اليها كما تتوق نفس الظمآن الى الماء . ذلك كان هوى قصي ، فإن المحترش كان يذكرها لمنْ حوله في نهاره، ويحلم بها في ليله ، وهي امام عينيه دائماً مشعشعة في الكأس. وأي غرض لابن كلاب بايقاد النار على ما رأيت ؟؟ كان غرضه ان يستعين بها على أمره ويجعلها الوسيلة لنيل غايته . وهو لم يقف عند ذلك الحد ؛ بل بعث رجاله يشترون الخمر الموجودة في مكة ، بالمال الذي يطلبه اصحابها ، دون ان يعلم احد ما في نفسه ويضعها في مكان له لا تراه العيون . واوصى اولئك الرجال بان يظهروا للناس انهم سيرسلون ما اشتروه الى يثرب ليبعد عنه الظنون فاصبح المحترش وليس في الحيّ زق خمر يجرع منه جرعة واحدة اذا طاب له الشراب . ثم انصرف قصي بعد ذلك الى وضع المنهاج الذي ينهجه في حياته الجديدة ، ولم ينس ان يراقب عدويه زياداً وابا ضمرة ومن حولهما من امراء .

حتى بلغه ان القوم في مجلس الشورى احترموا الوصية وان كل شيء انتهى كما اراد . وهي ابتسامة فتانة من ابتسامات الاقدار ، فطابت نفسه وقام على العناية مع زوجته بالشيخ الفاني الذي هيأ له اسباب الجلوس على العرش .. وقد ذهل عن الزمان وجور اهله .

ولم يقم في ذهنه قط ، ان أبا ضمرة الجبان يجرأ عـلى الظهور مرة اخرى عظهر الحسود الغدار .

* * *

الطريق الذي يؤدي الى الشعاب طريق واسع تصعد فيه كل يوم النـــوق والخيل ، ولكنه طويل يكره الناس ان يسيروا عليه . فيعمدون الى طريق آخر اقصر منه ، يشبه لضيقه السراديب . غير انهم ، قبل ان ينتهوا من الجبــل ، ويطأوا ارض مكة ، يدورون حول صخور صغيرة تقوم على شفير الوادي ، ثم تنبسط الارض امامهم وتمتد وراء البيوت ، كـأن ذلك المضيق وراء الصخور دهليز لا سقف له ، وليس في مكة واحد لا يعرفه ، لشهرة ذلك الوادي تحته ، وكثرة الحكايات التي يروونها عنه . حتى بالغت العرب في وصفه فقالت : انـــه مضيق الموت .

اجل ، كان الموت يكمن في واديه ، ويفتح شدقيه لاولئك الناس الذين تقصر اعمارهم فيهوون الى الاعماق .

ولكن .. كيف يهوون والى جانبهم ذلك الحاجز الصخري الذي لا تزعزعه العاصفات ؟؟

انه اذن موضع جعله اللصوص والغادرون مضيقاً للموت ، ويكفي ان يضرب احدهم عدوه ضربة واحدة ثم يحمله بين يديه ويقذف به الى الهـــوة .. فتسحق عظامه ، ويقول الناس في اليوم الثاني : لقد ذهب هـــذا المنكود الحظ ضحية لظلام الليل .. !

* * *

كان مضيق الموت ، طريقاً لقصي الى مكة ، كل مساء ؛ ينام في قصر سادن الكعبة ، ثم يصعد الجبل كل صباح ليقضي نهاره في الشعاب بين قومه .

وماذا يصنع في الشعاب كل يوم ؟ يساعد فتيان كنانة ونساءها في بري السهام ثم ينصرف الجميع الى السيوف يلعبون بها على ظهور الخيل ، وبعد ذلك يجلس في فنــاء بيته لينظر في شؤون الناس حتى تغرب الشمس فيتقلد سيفه ، ويضع

خنجره في حزامه ثم يهبط مكة كما رأيت ، ولا يبلغ المضيق إلا وقد جنّ الليل ولبس حلة قاتمة سوداء تبعث الرعب الى كل قلب !

غير ان الاشباح التي تتراءى فيـه لقصي ، كانت أضعف من ان تؤثر في ذلك الفتى الحديدي الذي لا يعرف قلبه الخوف . وهو في صعوده ونزوله لا يكون وحده ، فإن سودة الكاهنة أمرت كنانة بأن تختار له تابعاً لا يفارقه لحظة واحدة في الرواح والمجيء .

وقد عمد اركان حربه ، خداش وشيبة ، وزهرة وصفوان ومن حولهم ، الى الوسيلة التي لايعرفون غيرها في الاختيار .

يضربون بالقداح .. فالذي تخرج عليه يتناول سيفه ويمشي امامه الى مكة ثم يعود معه في صباح اليوم الثاني . كأن سودة كانت تعلم ان الاخطار تحيط به وانه منذ بدأ نجمه بالظهور بدأ هو يستخف بتلك الاخطار .

ففي احدى الليالي ، خرج قصي يتقدمه شيبة بن حبينب الذي خرجت عليه القداح في تلك الليلة ، واحتجبا ذلك الحاجز الصخري ، سمع شيبة صوت انسان يهامس آخر ، ثم هدأ الصوت . ولم يلبث حتى رأى شبحاً عـلى قيد ذراعين ثم تبعه شبح آخر . ! وقد لمع السلاح في يد الشبح الأول ؛

فجرد شيبة سيفه ومدّ يده به قائلا لقصي : احذر يا مولاي .

لكن الشبح الاول وثب كما يثب الذئب . وهمّ بـأن يضع خنجره في عنق ذلك الكناني الجريء . فـأصاب السيف المدود صدره فغاص بين الاضلاع .. فصرخ قائلاً : لقد ُقتلت ..

فانتزع شيبة سيفه وهو يقول : لا اصدق انك قتلت ايها اللعين حتى اخـذ رأسك بين يدي .

وكانت يد الشبح الآخر قـد سقطت على الارض بضربة من سيف قصي فتراجع قليلاً الى الوراء وهو يصيح من الألم ، ثم ادار وجهه ولجأ الى الفرار ودمه يكتب على التراب سطوره الحمر ..

فقال قصي : لقد فر ذاك فلا سبيل للوصول اليه في هذا الليل . ولكن نسأل

هذا الجريح عنه .. اين خنجرك ايها اللعين ؟

فلم يجب .. فقال : اضرب عنقه يا شيبة واقذف بجثته الى الوادي ؛

فقال وهو يتململ من الالم والخوف : هذا خنجري فخذه فلا خير فيه .

فانحنى فوقه وهو يلمس سلاحه حتى وجده فقال : خذه يا شيبة ، اما انت فما اسمك

– واي نفع لك من ذكر هذا الاسم ؟

قال يطيب لي ان اعرف اسم الغادر النذل الذي اراد قتلي .. اذكره قبل ان يفرغ الصبر ولا تكذب ..

قال : سنان !

– أأنتما اثنان أم اكثر ؟

– لو كنا اكثر من اثنين لما انتهى الامر عند هذا الحد ..

قال : أصبت ..! ومن هم قومك ؟

– لا قوم لي ولا أعرف لي نسباً ..

– ويلك ألا تعرف أباك ؟!!

– أبصرت نور الوجود وانا بين حجرين امي والآخر ابي !!

– وفي أي حي نشأت ؟

– في عشرين حياً من احياء العرب حتى قذفت بي الاقدار الى مكة منذ عشرة اعوام .

– ومن علمك ان تكمن للناس وتسفك دماء الابرياء ؟

فخفض صوته وهو يرتجف قائلاً : عدني انك تحفظ حياتي اقص عليك كل شيء ..

قال : تحاول ان تشتري حياتك ايها الجبان بحكاية كاذبة يمليها عليك خوفك من الموت الآن ؟

– بل أقسم اني ابوح لك اذا وعدت ، باسم من علمني القتل ، وسلح يدي بهذا الخنجر لأطعنك به .!

– انا ؟

– نعم انت قصي بن كلاب صهر حاجب البيت ،

فخفق قلب الفتى ، وعرف عندئذ ان الجريح يعرف من هو وانه صادق فيما يرويه، فقال له : حياتك بيدي فلا اعدك بشيء، ولكني اذا رأيت سرك يستحق العفو صفحت عنك وحملتك الى اول بيت في مكة تعالج فيه جرحك .. قل الآن ولا تتردد والا فستنام في جوف هذه الهوة الى الأبد ، ووضع السيف على عنقه فرأى المسكين ملاك الموت يمد اليه يديه القويتين ، فاضطرب قائلاً : ارسلنا الى هذا المكان ... مولانا .. بو ضمرة لخزاعي ..

فارتجفت ركبتا قصي وجلس بالقرب منه وهو يقول : أهو مولاك ؟

– نعم وهو منذ عام يفكر في قتلك ولا يجسر على ان يتصدى لك وجهاً لوجه ...

قال : لقد أنسانا أبو ضمرة هذا جميع من حولنا من الاعداء .

وقال شيبة : أبو ضمرة في العراق .. وفي مكة ، وفي كل مكان اذن فليمت ويجب يا مولاي ان تهدر لقومك دمه ..

قال : اذا استعان على امره بالغدر استعنا على امرنا بالصبر حتى تجمعنا الاقدار . هات ايضاً يا سنان .

قال : سل عما تشاء !

– اسألك عن رفيقك الآخر فمن هو ؟

– غلام من غلمان ابي ضمرة اسمه مرة بن شهر من بني قيس .

– لقد عاد الى مولاك بيد واحدة يقص عليه ما جرى وهو واثق بانك قتلت .

قال : واخشى أن يجيء مولاي الآن ومعه رجاله فيبلغوا الغاية من قتلك فانج بنفسك وانا ازحف زحفاً الى البيوت .

فابتسم بمرارة قائلاً : لو كانت لمولاك هذه الجرأة لما عمد الى السعاية التي هي سلاح الجبناء ولما استعان بالليل ليغدر بعدوه . اني لا اخاف مولاك ولو كان

وراءه ألف رجل .

قال : اسأل ايضاً ان شئت قبل ان ينزف دمي .

فـــاجابه هادئـــاً : اين كانت جثتي وجثة شيبة الآن لو استطعت ان تغمد خنجرك في الصدرين كما علمك مولاك ؟

فتمتم يقول : في هذا الوادي .

– وماذا يمنعني الآن من أن أمثل معك الدور الذي اردت ان تمثله معنا منذ ساعة ؟

فاختنق صوت المسكين في صدره ثم جعل يبكي كما تبكي الاطفال .

فقال : رجال الخنجر والسيف لا يبكون .

– وما هو ذنبي يا مولاي وانا عبد لأبي ضمرة .

قال : يقدر العبد على رغم مولاه ان لا يكون غادراً .

– ولكن العصيان جزاؤه الموت .

كما ان الطاعة ، كما هي الآن جزاؤها الموت ، احمله يا شيبة وارم به فتتحطم عظامه .

قال : أتفعلها يا ابن كلاب وقد خنت مولاي لاجلك ؟

– بل خنته لاجل هذه الحياة الخبيثة التي تريد حفظها . اطلب ما تشاء قبل ان تموت .

قال: اذا قتلتني، سألت الآلهة قبل ان الفظ الروح، ان تحرمك العرش الذي تطمع فيه ، فقال لشيبة : لقد أمست اسرار الأمراء على شفاه الغلمان . ان هذا العبد يعرف من امر الحجابة ما لا تعرفه انت !!

– بل اعرف مـــا لا تعرفه انت يا قصي ، الا تريـد ان تشتري بالعفو سر مؤآمرة اخرى لا تعلم منها شيئاً ؟

قال : يظهر ان مولاك يطبخ المؤآمرت في قصره ثم يوزعها على الناس بالخناجر المسمومة في ايدي انصاره . وقام في ذهنه ان المؤآمرة التي ذكرها تعني المحترش فقال :

لقد اصبح المحترش سادنا للكعبة وابو ضمرة غير راضٍ أفيبعث اليه من يقتله ليمشي الى الحجابة على جثث اعدائه ؟

– بل هنالك امير آخر لا يطيق مولاي ان يبصر ظله .

– من هو ؟

زياد بن كعب وسيجيء دوره بعد ايام ، فردد اسم زياد اكثر من مرة ، ثم نهض عن الأرض وهو يقول : ما نحب ان نسمع شيئاً بعد .

– وهل نجوت ؟

– بل تموت فلا خير في غلام يفضح سيده عندما يلمع السيف فوق رأسه .. وحمله الاثنان وهو يصيح ويستغيث ويستحلفهما بكل ما في الكعبة من اصنام وقصي لا يبالي .. حتى وضعاه فوق الصخور ولم يبق الا ان يدفعاه بأيديهما فيتدحرج ، ويصبح جسده قطعاً واشلاء قبل ان يبلغ الارض ؛ فانبطح على الصخر وقبض عليه بيديه وقد صبغتهما الدماء وهو يقول : استبقني يا قصي اكن لك عبداً ما بقيت ..

قال : لا احتاج الى العبيد الخونة الأذلاء ...

قال : اجعلني عيناً لك انقل اليك اخبار القصر الذي اعيش فيه .

قال : ما كنت قط غادراً لألجأ الى الغادرين ..

ثم خطر له خاطر فقال : اصفح عنك على أمل أن أراك مرة أخرى ، أتقسم لي انك تفعل ؟

– أقسم بالسماء والارض اني اطيعك طاعة عمياء لا قيد فيها ولا أسألك عما تأمرني به ..

فساعداه حتى استوى في مجلسه وقال له : متى يرسل أبو ضمرة غلمانه ليقتلوا زياداً ؟

– لا اعلم ولكنه لم يشأ قتله قبل ان يحمل اليه رأسك ، انه يريد يا مولاي ان يغدر بخصومه واحداً بعد واحد حتى لا يبقى منهم في مكة احد يفسد عليه أمره ...!

قال : حسناً نحملك الآن الى البيوت فتستغيث بأصحابها ، وتذكر لهم انك من غلمان الخزاعي فلا يترددون في حملك اليه .

– وبعد ذلك ؟

– ولكن احذر ان تذكر لهم او لمولاك سم قصي وشيبة ؛ انك ان فعلت انتزعتك من بين يدي ابي ضمرة وقطعت لسانك ، كما قطعت يد مرة الآن وعينا مولاك تنظران ...

– سأقول يا مولاي ان اللصوص تصدوا لي وطعنوني هذه الطعنة القاتلة التي لا يجف دمها !

– قل مـــا تشاء فمن كان مثلك لا يستصعب اختـلاق الحكايات التي ليس لها أصل ...

ثم ماذا ؟

ولا تقل لمرة انـّا عرفناك .

اهذا ما ترغب فيه يا مولاي ؟!

– اما الذي أرغب فيه فهو انك ستعرف الساعة التي يكمن فيهـــا رفاقك الغلمان لزياد بن كعب أليس كذلك ؟

– نعم ..

– وتعرف المكان الذي يقتلونه فيه .

– نعم ..

– اذن فاعلم انه يجب ان أعرف الزمان والمكان كما تعرفهما انت .

– ومعنى هذا ان انقل اليك خبرهما ..

– اجل وذلك قبل الذهاب الى القتل بيوم واحد .

– واين اراك ؟

– في قصر سادن الكعبة او في الشعاب ، على ان لا تنسى ان تجيء الي قبل الموعد كما ذكرت لك . ثم قـال : ولا تحسب يا سنـــان انك نجوت من يدي ، فورب البيت ان لم تفعل ما آمرك به طلبتك ولو كنت فوق الغمام .

– سيتم كل شيء كما اردته يا مولاي ولكن لنفرض ان أبا ضمرة جعل هذا الموعد بعد عام ..
– واذا كان هذا ؟
– ونفرض ايضاً انك لم تكن في الحجاز في ذلك الحين . فكيف استطيع ان أفي بوعدي .
– اذا كنت بعيداً عن الحجاز تبحث عن شيبة بن حبيب هذا وتقول له ما تريد ان تقوله لي ، وان لم يوجد شيبة فاذكر ذلك لحبى ، أفهمت الآن ؟
قال : لو ذكرت لي يا مولاي ما تريد ان تفعله في ذلك اليوم لساعدتك فيه. أتريد ان يقتل زياد ام ماذا ؟

فضحك قائلاً : لست أبا ضمرة لأبوح للعبيد بالاسرار ، اكتف بما سمعت وقم نحملك الى البيت الأول .. وتعاون الاثنان في حمله . فأحس الجريح ان روحه تخرج من جسده ، فصاح قائلاً أخشى ان اموت قبل ان ابلغ الحي ..
فاجابه قصي : لو كانت عينا الموت تنظران اليك لما بقيت الى هذه الساعة اخفض صوتك وضع يدك على الجرح فستعيش .. ومشيا بتعب ، حتى وصلا الى البيت الاول فوضعا حملها خارج الفناء واتجها الى قصر حليل وهما يتلفتان الى الوراء .. ان الغدر كثير في مكة فيجب ان يحذرا ..
وكانا ساكتين حتى جاوزا ذلك الحي . فقال شيبة : أتريد ان أسألك يا مولاي عن بعض ما سمعت ؟
سل ما تشاء !
– اي شأن لك مع زياد بن كعب حتى تهتم له ؟
– اما زياد بن كعب فهو عدوي وانا اريد ان احفظ حياته كما احفظ حياة ابي ضمرة ..
– تفعل هذا وهما يكيدان لك ؟
– اجل واوصيك من الآن ان تكتم جميع الناس ما سمعت ورأيت لأني لا اريد ان يتحدث اهل مكة بامر يعنيني وحدي .. ولي ايضاً وصية اخرى ارجو

ان ترددها في نهارك وليلك كي لا تنساها .

– ما هي ؟

– هي اني لا احب ان يموت زياد كما قلت ..

– لقد فهمت ذلك يا مولاى !

– ولكنك لم تفهم ما اريد بهـذا القول . ان ابا ضمرة سيرسل رجـاله في احدى الليالي ليقتلوا امير صوفة وسينقل الي سنان اخبار هذا القتل قبل وقوعه كما رأيت .

– : نعم .

– واخشى ان يطلبني سنان في ذلك اليوم ، فلا يجدني في مكة فينفذ السهم ويذهب زياد ضحية الغدر .

قال: ألم توصي الغلام بان ينقل الخبر الى مولاتنا حبى ثم الي اذا كنت غائباً؟

– بلى وهذا ما اريد ان اوصيك واوصي حبى به ، فأصغى شيبة كي لا تفوته كلمة من تلك الوصية .

فقال قصي : عندما يذكر لـك سنان موعد القتل تبحث عن صفوان بن الحارث وتقص عليه الحكاية كما سمعتها .

– وبعد ذلك ؟

– تأمره باسمي بان يزور زياداً ويذكر له ما ذكروه لك، ثم يدعوه الى الحذر دون ان يعلمإني ذلك الرجل الساهر علي حياته .

– اذن يجب ان يكون صفوان وحده صاحب الفضل .

– نعم وليبق معه حتى يجيء اصحاب ابي ضمرة ليأخذوا رأسه ولا يفارقه قبل ان يلمس بيده نجاته من الموت .

– ولكن لماذا لا تدعو صفوان غداً وتأمره بما سأنقله اليه بعد ايام ؟

– لاني اوثر ان اخفي حادث الليلة عن جميع الناس الا حبى فلا تلج في السوءال .

قال : أتأذن لصفوان ان يبوح لزياد باسم ابي ضمرة ؟

– اجل على ان يعده زياد بالكتمان . والان فاذا دخلنا قصر حليل فاتبعني الى الدهليز الغربي لنخفي اثار الدماء .

وعادا الى السكوت حتى وصلا ، وحليل على فراشه تحسبه ميتاً لولا اختلاج عينيه .

* * *

في غرفة صغيرة من غرف القصر ، خبر قصي زوجته ما جرى له في ذلـــك الليل واوصاها بعدوه زياد كما اوصى شيبة .

فاطرقت حبى ملياً ثم قالت أليس لك ياقصي غرض خاص في اختيار صفوان بن الحارث لانقاذ ابن كعب ؟

– بل لي غرضان . ولولاهما لا كتفيت بارسال عبد من عبيد كنانة يحمل الى امير صوفة خبر الموآمرة .

قالت : اذكرهما اذا شئت !

قال : اما اختياري صفوان فهو انه يحب ليلى ويرغب في ان يجعلها زوجة له .

فابتسمت وهي تقول : اعرف ذلك كما تعرفه انت .

– ولكن هذا الحب سر لم يبح به صفوان لاحد الا لي وليزيد بن ربيعة .. فكيف تعرفينه كما اعرفه ؟!

– لقد اعترف لي احد العاشقين بهذا الحب .

– صفوان نفسه ؟

– لا ، انه لم يعترف الا لك كما قلت ، كما ان ليلى لم تعترف إلا لي .

– وهل تزورك ليلى في هذا القصر ؟

– ليتها تزورني فأرى ذلك الوجه الضاحك والثغر البسام . اني لم ارها منذ تزوجت .

– ومتى كان اذاً ذلك الاعتراف ؟

– كان قبل الزواج ، فقد باحت لي بغرامهـا وبحت لها بغرامي؛ ومنذ ذلك الحين وهي تعلل النفس بالامل وتعدها الاقدار بلقاء من تحب .

– وبعد ذلك ؟

– لم ادرِ ماذا جرى بعد ذلك ، اجل لقد رأى الناس صفوان في قصر زياد اكثر من مرة ؛ ولكنهم لايعلمون اي مقام له في ذلك القصر .

قال : حبى ! ايحدثكِ الناس بأمر ليـــلى وانتِ لا تسالينها ؟ إنّكِ إذاً لا تذكرين عهد الولاء وايام الصبا .

– بل أذكر ليلى ولا أنساها .

– اذن ماذا ؟

– لقد كرهت ان اسألها عن شيء وابوها عدوٌ لك .

– ولكن هذا العداء لا يؤثر في خلقي . ان صفوان إبن الحارث اخي وهو في نظري خير من في عشيرتي من رجال ؛ كذلك هي ليلى ، احبها صفوان فاحببتها انا ، وسأسعى لأجعل الاثنين زوجين ، وقد بدأت بهذا السعي الآن .

قالت : ألا يكفيهما الحب الذي يبسط فوقهما جناحيه ؟

لا ، ان الحب لا يكفي ، اذا كان والد ليلى غير راضٍ به ؛

فاستغربت قائلة : زياد لا يرضى ؟

– هذا ما ظهر لي وسأحمله على الرضى .

قالت : ما حسبت قط ان ابن كعب ينسى المعروف ويرد المحسن اليه .

قال : لم يرده ولكنه يتردد في القبول ويطلب منـــه رأس ابن عبادة مهراً لأبنته ، وفي هذا الطلب شيء من الدهاء .

وروى لها رواية صفوان مع آل كعب .

فقالت : والآن ؟

– اما الآن فقد ارسل زياد بعض رجاله يبحثون لـــه عن جبير ووعد الفتى بالزواج عندما يعودون .

إذاً كان صفوان يفتش عن قاتل عبدالله في بلاد العرب .

– نعم واذا اردتِ الآن ان تعرفي الغـــاية من اختيار صفوان لإنقاذ زياد من سيف الغادر فاسمعي .

قالت : عرفتها فانت تريد ان ينقذ حياته مرتين ليستحق ليلى .
– اجل وهذه خير وسيلة يظهر معها صفوان بمظهر أشراف العرب الذين يحفظون الولاء ويظهرون النبالة والمروءة الى النهاية .
– وانت ترى ان زياداً يرضى بعد ذلك بان يزف ليلى اليه وينتهي الأمر
– لا أدري ولكنها وسيلة لا أرى بدأ من الالتجاء اليها لأحيط بني كعب بنطاق من الجميل والفضل .
– وغايتك الاخرى ؟

فظهرت الابتسامة على شفتيه قائلاً : يجب ان يعيش ابو ضمرة وزياد ويتنازعا السيادة، لأبني مجدي على ذلك التنازع ،وأرى الواحد منهما يسحق الآخر.
ثم قال : وقد وعدت صفوان ان لا أعرض لزياد بسوء إلا إذا تصدى لي .. وعدته وانا اخشى صاحبه . ويقوم في ذهني انه سينفخ في صدور رجاله من وراء الستار ، روح الثورة والعصيان . ومن يكفيني شره اذا فعل ، وهو لا يبرز الى الساحة ، وانا لا استطيع ان أرى خيانتـه بعيني والمسها بيدي ؟. ان ابا ضمرة وحده يكفيني هذا الشر .

واعلمي يا حبى ان رجال مكة اليوم فرق ثلاث : الاولى وهي اضعفها تتبع المحترش اعترافاً بفضل ابيه واحتفاظاً بذكرى الاخلاص والولاء ، وتمشي الثانية وراء أبي ضمرة وهي شر الفرق واشدها بطشاً وابعدها اثراً ؛ وأما الاخرى فهي بنو صوفة ومن حولهم من فروع القبائل في مكة ، وسيدهم زياد بن كعب . فهي الآن ان المنتمون الى المحترش ينتمون اليّ ويستظلون بظل اللواء الذي احمله فمن يبقى في الميدان ؟
– بنو صوفة الذين ذكرت وبعض بني خزاعة وبني بكر .
اجل ، وهؤلاء رجال الاميرين الطامعين أليس كذلك ؟
– بلى .
– ولكن اذا قتل احـدهما وخلا الجو للاخر فماذا يحدث ؟ . ان القوم عندئـذٍ ينسون احقادهم ويجمعون صفوفهم ثم يحملون السيوف ليرفعوا قصياً

ناني الى العرش الذي يحلم به .
– بل يرفعون الأمير الباقي الى هذا العرش ..
قـال : يخيل الي انهم يؤثرون الغريب على احدهم .. هكذا يفعل اصحاب المطامع الذين تغلي مراجل الحسد في صدورهم وتتأجج فيها نار البغض ... أترين ان أبا ضمرة الذي يستعين عـلى امره بخناجر الغلمان واللصوص ، يرضى بان يرى العرب جميعها تحني رأسها لزياد وتعترف به اميراً للكعبة؟
قالت : من يعلم فقد يخلق الزمان هذا الرضى ..
قال : يخلق الزمان جميع العجائب الا هذه وسترين !
– ومن يضمن لنا ان زياداً لا يشارك القوم في الدفاع ؟
– أما صفوان .. فقد وعده بذلك وسيتظاهر بالوفاء بما وعد غير اني لخشى ان يدفع قومه الى الثورة كما قلت .
قالت : لقد جعل الغرام صفوان رسول صلح .
– نعم وقـد تغلل هوى ليلى في اعمـاق نفسه ، كما تغلل حب الخمر في قلب المحترش . وسأبذل الجهد كله لتزف ليلى اليه قبل ان تأتي تلك الساعة التي يموت عندها الجهد ..
ثم غيّر حديثه قائلاً : ماذا صنع المحترش اليوم ؟
– كان اليوم مثل امس ، يجلس بباب الكعبة حيناً ثم يترك مقعده ويجيء سائلاً عن ابيه ، وعيناه تبحثان عن كأس يشربها فيسكر ، كما كان يفعل قبل ان يصير حاجب البيت .
– ومن كان في القصر من امراء خزاعة ؟
ابو ضمرة نفسه وجعل يحدثه بامر الحجابة وهو لا يعبأ به ؛
فضحك قصي قائلاً : لقد اراد اللعين من وجوده في القصر غير ما تظنين ، انه كان ينتظر ان يجن الليل فينقل النـاس اليك خـبر قتلي في مضيق الموت وينصرف مطمئناً آمناً ، يحمل نصف الحجابة في يده ، عـلى ان يستأثر بالنصف الآخر يوم يقتل زياد ..

قالت : اصبت فهو لم يغادر القصر الا منذ ساعة .

- وسيحمل اليه غلامه الذي فر خبر نجاتي من الموت ثم يرى تلك النجاة بظهرها البليغ في جرح غلامه الآخر .. قومي الآن فان الساعة التي انتظرها قد أتت .

وتقدمها الى غرفة المريض، والأمل يكبر في صدره؛ وقد استيقظت ، لذلك الحادث الفجائي ، احلام نفسه ..

* * *

كان ذلك الغلام الجريح صادقاً في قوله .. وعد قصياً بان لا يذكر لأحد اسمه ووفى بوعده .. واهل ذلك البيت الذين استغاث بهم ، حملوه الى قصر ابي ضمرة وهم يقولون :

لقد تصدى له اللصوص وجرحوه ؛ فذاع الخبر في مكة في اليوم الثاني ، وتناقلته الافواه . غير ان الغلام الآخر الذي لجأ الى الفرار ، كان قد خبر مولاه كل شيء وذكر له موقف قصي ورفيقه في ذلك المضيق ؛ لكنه لم يكن يعلم ذلك لان الاتفاق جرى بعد فراره كما قرأت ؛

فتميز ابو ضمرة غيظاً .. ان غلاميه جريحان يجران اذيال الخيبة . هذا قطعت يده ، والآخر اخترق السيف صدره ، وقصي بن كلاب حر لم يصل الى جسمه الخنجر الذي اعده له ..

واقبل على سنان يستعيد الرواية . ويسأله ان يقص عليه النصف الباقي من الحادث الذي لم يشهده مرة بن شهر .. وكان سنان قد خسر نصف دمه وبدا عليه الضعف ، فقال له وهو لا يبالي بضعفه : لو رآك احد تطعن بخنجرك الهواء وتضرب بسيفك الفضاء ؛ لقال انك امهر الضاربين وهو لا يعلم انك شجاع في فناء القصر جبان في مضيق الموت .. ويلك كيف استطاع الكنانيان ان يغمد احدهما سيفه في صدرك ويقطع الآخر يد مرة ، وانتما تكمنان وراء الصخور كما يكمن الذئب ؟

فاجابه بصوته المختنق : لقد تصدينا لهما فكانا اسبق الى الضرب وهذا هو الخطأ ...

قال : كان يجب ان يمر الاثنان فتعمدا الى الخنجر ؛ ولكن مضى الآن مـا مضى وقد ضيعتما املي واخشى ان تضيعاه مرة اخرى عندما تذهبان للقضاء على زياد بن كعب .

قال : اذا خاننا الحظ مرة فلا يخوننا مرتين .

– وكيف استطعت الوصول الى الحي وانت جريح والدم يتدفـق من صدرك ؟

– اغمي عليّ حتى ظن الرجلان اني لفظت روحي ؛ ثم صحوت بعد ساعة وقمت اتلمس الصخور واجرّ رجلي حتى وصلت .

– ألم يذكر قصي اسم رفيقه الذي استقبلك بالسيف ؟

تذكر سنان وعده فقال : كان يخاطبه وهو لا يذكر اسمه ولا اقدر ان اصف لك وجهه الذي اخفاه الظلام .

– ولكنك تستطيع ان تعلم من صوته أكان فتىً ام كهلاً ..

– انه اقرب الى الكهولة ..

قال : اتعرف صفوان بن الحارث ؟

– اجل ، فهو رفيق قصي في رواحه ومجيئه ولم يكن هو الضارب .

– وهل انت واثق بهذا ؟

– نعم فلو كان صفوان لرأيت عمامته التي يخفي بها وجهه وقد اشتهر امرها في مكة حتى تحدّث بها الغلمان .

قال : لصفوان ساعات يكون فيها سافراً ايها الابله .

– ومع ذلك فانا اقسم برب الكعبة انه لم يكن احد الاثنين !

قال : اجتهد الآن ان تشفى لننسى هذا الفشل .

– اسأل الآلهة ان تشفيني لأخدم مولاي .

فقال مرة : اما انا فليس لي امل بالحصول على يد اخرى استعين بها عـلى

تنفيذ امرك .. وجعل يئن ويبكي من الألم .

فقال ابو ضمرة : هذا جزاء البلاهة والجبن . فاندب يدك وليبكِ سنان دمه الذي خسره حتى تعود اليكما الحياة.. واوصى عبداً له بالعناية بهما وتركهما لينظر في امره ، مع جبير وعدوان في غرفة الوحي ، وهو يلعن الاقدار التي خانته في العراق ، وفي الحجاز ، وجارت عليه بجرح غلاميه ..

* * *

مات مرة ، بعد خمسة ايام ليس غير ؛ وسنان يمشي بخطى واسعة الى الشفاء. وكان سكان المخدع المقدس يتشاورون ويضعون خرائط القتل .. وقد اختاروا ثلاثة رجال بينهم سنان ليقتلوا امير صوفة .. وقلب أبي ضمرة مضطرب غير مطمئن.. لقد كان يخاف ان ينتهي امر زياد بالفشل كما انتهى امر قصي ؛ فيفضحه بنو صوفة ويملأوا مكة اخباراً..بل كان يخشى ان يفشل رجاله فيسلم ابن كعب، والوصول الى الحجابة صعب عليه وابن كعب حي ..

أمــا عدوان فكان يبتسم ابتسامة الخبث ويهزأ بمخاوفه والامير يراه وهو يعجب لمظاهر استخفافه .. ومن يستطيع ان يعلم اي فكر شيطاني يخطر لذلك الشرير الداهية الذي لا يطيب له غير التخريب والقتل ؟ بــل أي رجل يخلق دماغه الوسائل المدمرة التي يخلقها دماغ هذا اليمني ؟...

مخيلة نارية.. وفكر من الفولاذ، وقوة غريبة مدهشة في التصور والاختراع. فهو أدهى المجرمين واعظم المفكرين كما رأيت ، الى حد انك لو اردت ان تدرس اخلاق ابي ضمرة الجاني ، سافك الدمــاء وقاتل الابرياء ، لرأيته في جانب عدوان ـ ملاكاً من السماء . !

نعم... ابو ضمرة ، صاحب الحول والطول في مكة ، ضعيف ، عاجز يغمره الخوف ؛ وعدوان العبد الذليل والشيخ الفاني ، قوي قاهر لا تستطيع الادمغة الكبيرة ان ترد سلطان تصوره ، وتستهين بقوة رأيه ! ومنذ دخل ذلك الهيكل السري في قصر الأمير الخزاعي ، احس انه سيد الموقف ، يملي ارادته على مولاه

وعلى صاحب القصر كأنها من اتباعه ، والابتسامات الشيطانية لا تفارق ثغره ، في مواقف الشدة ومواقف الرخـاء ، حتى ليخيل اليك ان حياته كلهـا ضحك واستهزاء .

وتلك هي احدى طبائع الخبث والخداع في نفس ذلك الانسان الوحش؛ إنه يضحك كما يضحك النمر لفريسته ، وليس وراء ابتساماته غير الموت .

اجل ، وفي تلك الساعة ، ساعة حكموا على زياد بالموت كان ثغره ضاحكاً ، وكانت ملامحه ملامح فرح وحشي ..

وصاحب القصر يخاف الخيبة في المؤآمرة الجديدة كما مر ؛ فقال لعدوان : يقوم في ذهني ان زياداً سينجو من السيف، فحدق اليه ولم يجب، كأنه كان يحلـّق بالفكر في فضاء جديد مصبوغة غيومه بالدماء ..

فاعاد ابو ضمرة قوله وصوته يرتجف ؛ فاجابه قائلاً : اما انا فيقوم في ذهني انه سيموت ..

– كما قـام في اذهاننا جميعاً ، ان ابن كلاب لا يصل الى قصر حليل في تلك الليلة ، بل يموت بين صخور الوادي ..

– تلك بلاهة غلاميك فلا تعد الى ذكرها .

– ان البلاهة لا تفارق الغلمان وقد يخطىء الثلاثة غداً كما أخطأ الاثنان بالأمس ..

قال : لقد اعددت لهذا الخطأ دواء .

– خير لك ان تعد للغلمان عقلاً اذا استطعت .

قال : لينجُ زياد هذه المرة ولا ابالي .

– وماذا تصنع اذا نجا ؟

– ارسل اليه رجلاً يضربه بالسيف على مرأى ومسمع من رجاله .

– لا اظن ان في مكة رجلاً يجسر على ذلك .

فجعل يهز رأسه وهو يقول : ان الرجـل الذي ذكرت لا يخشى الامراء وسترى بعينيك ..

قال : من هو هذا البطل العربي الذي لا اعرفه ..

– هو صفوان بن الحارث عاشق ليلى .

فاستولت الدهشة على الرجل . صفوان العاشق الذي برّح به الهوى والذي يبذل ماله كله لتكون ليلى زوجة له يكون قاتلا ؟.. تلك كلمة لا يصدق ابو ضمرة انها خرجت من فم عدوان ؛ فاستعادها .. فاعادها اللعين وهو هادىء ..

فقال : لقد تحيرت فلا اعلم كيف اسألك عن هذا ..

– ستجلو الايام هذا الغموض الذي تراه الآن . قلت اني سأرسل ابن الحارث ليقتل زياداً وسأفعل .

– ولكن الفتى لا يفعل الا اذا خسر ليلى وحل اليأس في صدره محل الرجاء.

– ذلك شأني وسأنظر فيه .

– ومن يصدق انك تستطيع ذلك وصفوان بن الحارث عدو مولاك وانت لا تجرؤ على الظهور خوفاً منه ؟

– وهذا ايضاً من شؤوني يا مولاي فلا تسألني عنه .

قال : يجوز ان يخرج الفتى عن حده ، فتثور نفسه ويعمد الى خنجره ، فيقتل من تشاء ، واما ان تسلح انت يده وتبعث به رسولاً الى الموت ، فهذا لا يجوز ولا يخطر بالبال .

– اذا نجا زياد لمست بيدك هذا الذي لا تصدقه .

قال : ارجو الاّ تحدثني بالاسرار .

– وانا ارجو ان تحترم سري يا مولاي ولا تلج في الطلب .

قال : كلمة واحدة تقولها فتذهب ظنوني .

– لا استطيع الآن ان اقول شيئاً .. بل استحلفك بتربة ابيك وحرمة هذا الصنم ان تسعّر نار الحرب في مكة اذا قدرت .

– لا تنشب هذه النار الا اذا مد الكناني يده الى الكعبة ، واي غرض لك بالحرب ؟

– غرضي ان افصل رأس زياد عن جسده ولا يفصل هـــذا الرأس الا اذا اصطفت الصفوف في الميادين .

– اذن لا يقتل صاحبنا الا في ظلال السيوف .

– هذا الذي اراه الآن وليس لي حيلة الا في الصبر ريثما تتلاحم الرجـــال وتسفح الدماء .

وعـــادوا الى حديثهم عن المؤآمرة ، فجعلوا لها اجلاً ، وبدأوا يشحذون الخناجر التي اعدوهـا للقتل ، ثم حمـل ابو ضمرة ذلك « الوحي » الى سنان ، ووضع بالاتفاق معه خطة الهجوم في ظلام الليل؛ ثم دعا غلامين آخرين واطلعها على ذلك الحكم الذي يريد تنفيذه ، واطمأنت نفسه بعد ذلك الاضطراب ، فقد وثق بان امير صوفة لم تكتب له الحياة وعدوان في الوجود .. ولكنه لم يصدق كلمة واحدة من ذلك الحـديث الذي ذكره اليمني عن صفوان بن الحـارث ، اذ ليس من المعقول ان يصبح العاشق المفتون عدواً وقاتلاً .

* * *

– ١٥ –

قيل لقصي وهو في قصر سادن الكعبة انً بالباب رجلا يريد ان يراك الآن .

فقـال : ادخلوه الى الدهليز الخارجي .. ثم خرج ويده على سيفه ، فرأى ملثماً جالساً في زاوية المكان وهو خائف مذعور .

فقال : أأنت الذي تطلب قصياً ايها الفتى .

– نعم وارجو ان تخرج معي الى الفناء فانقل اليك ذلك السر الذي ترغب فيه .

فوضع يده على جبينه كأنه ذكر الصوت ثم قال : ما اسمك ؟

فخفض الفتى صوته قائلاً : سنان يا مولاي ..

قال : سنان الجريح ؟ لقد عرفت الآن .. ماذا فعل رفيقك مرة ؟

– لقد مات .

– ويلك أيموت غلام ابي ضمرة ولا يعرف جيران قصره ؟

قال : لعله يكره ان يتحدث الناس بأمر هذا الموت ..

– بل يكره ان يقولوا ، ان اللصوص يجرأون على قتل غلمانه وهو من اكبر الامراء . وماذا صنعت انت ؟

– اتيت الآن اقص عليك ما عرفت وفاء بالوعد .

– وهل قضي الامر ؟

– نعم وحكم عليه كما حكم عليك من قبل .

ولم يشأ ان يقص حكايته وهو في الدهليز لئلا يراه العبيد ويسمعوه ، فسأله بخضوع وذل ان يرافقه الى الخارج .

فقال له : وأين خنجرك ؟

– ولماذا تسألني عنه يا مولاي ؟

– لأني اريد ان أراه واعلم اي موضع في جسمي امرك مولاك بان تضعه فيه.

– لو اردت ان افعل ما تقول لما جئت الى القصر في هذا الليل اسأل العبيد عنك ...

قـــال: قم فاتبعني فانا لا ابالي بالغادرين ! وخرجا الى الفناء حيث باح الغلام بالسر الذي يحمله ، وقصي يعجب لذلك الاخلاص الذي يظهره ؛ ثم قـال : لي كلمة اخرى قبل ان تنصرف يا سنان .

– وانا لي كلمة اقولها قبل ذلك ، مر يا مولاي بما تشاء .

قال : ألم تخدعني بهـذه الحكاية التي قصصتها الان ؟ قالها ليختبر لآخر مرة ذلك الاخلاص ؛

فاجابه قائلاً : اقسم بمن بنى البيت اني لم افكر فيما ذكرت .

– خيل الي انك خبّرت مولاك كل شيء، ثم وافقته في نقل هذه الرواية التي لتنصبا لي شركاً جديداً .

– واين هو هذا الشرك يا مولاي ؟

– يقوم هذا الشرك بوثوقي بك ..

قال : ارسل من تشاء من رجالك في الموعـد الذي ذكرته لك يتضح لك اني صادق في كل ما قلت..

قال : سأفعل كل ما يجب فعله في ذلك الموعد . قل كلمتك الان .

قال : انا اعلم يا مولاي ان القوم يتآمرون عليك ليقتلوك ؛ فيخلو لهم الجو في الحجاز ..

– وبعد ذلك ؟

– واعلم ايضاً ان الامر سينتهي بجلوسك في مقعد حليل .

قال ذلك امر لا يعرفه الا الآلهة .

– وانا من الآلهة يا مولاي ..

فجعل يتفرس فيه وقد احس ان هذا الغلام سيكون اصدق الناس فيخدمته في حياتـــه الجديدة التي تعدها له الاقدار ، قال له : هب ان الأمر انتهى كما ذكرت فأي غرض لك ؟

اطلب ان تجعلني من غلمانك يوم تسود العرب .

– وتترك مولاك الذي نشأت في ظله ؟

فابتسم بدهاء قائلاً : عليّ عليّ الوفاء الّا اتركه اذا بقي .

فرأى قصي انه اذكى من رأى من الغلمان ، فقال : سأنظر في هـــذا اذا صدقت ظنونك .

– بل عدني الآن يا مولاي فانصرف مطمئناً .

قال : لقد وعدت فأذهب ولا تنس ما اوصيك به . ورافقه الى باب الفناء ، فخرج وهو يرى الرجال على الجانبين ، فتصدى له احـــدهم قائلاً : ويلك من انت ؟

فاجابه قصي من الداخل : دعوه ينصرف فهو من المخلصين .

فعرف سنان انهم من رجـــال الشعاب ؛ فمشى وهو يقول في نفسه : ان الرجل الذي يحرسه هؤلاء الرجال لا يغلب .

وعاد الى قصر مولاه فخلا بسراج بن الاسود ساعة طويلة حدّثه فيها بأمر القضاء على زياد ، وسأله ان يشرح له من جديد خطة القتل . ففعل والاثنان يضحكان ويبتسمان لذكر الدم واحاديث الموت كأنهما في عيد .

اما قصي ، فارسل الى صفوان من يدعوه إليه ، فلم يتردد صفوان ، في ذلك الليل ، في المثول بين يديه .

وكان حليل بن حبشية يتململ في فراشه ؛ ويئن من ألمه ؛ كان صهره يهامس ذلك العاشق الشقي ويطلعه على ذلك السر الهائل الذي هبط عليه من السماء ..

وكما اتفق سنان وسراج على تنفيذ الحكم ، اتفق الكنانيان على الدفاع دون ان يعلم صفوان ان غلام ابي ضمرة يخون مولاه .

وبعد ان وصف له قصي كل شيء ، وذكر له المواضع التي سيكمن فيها القوم خفض صوته قائلاً : اذا لم يزوجك زياد بعد نجاته هذه المرة من الموت فاتركه فلا خير فيه ، واسلُ هواك اذا استطعت .

فقال : عشت عمري وانا لا ارضى ان يكون ملك العالم كله ثمناً لمروءتي ... وسأبقى كما كنت .

– وماذا تصنع اذن

– انقذ حياته ثم انصرف فلا اراه إلا بعد ان يمر الشهر .

فضمه سيد الشعاب الى صدره وطبع على جبينه قبلة الاعجاب والحب .

* * *

لم يكن لليلى وصفوان حيلة الا الصبر كما قرأت . وهما ينتظران اولئك الرجال الذين ذهبوا الى الشام والعراق ، وزياد في سره ، يرثي للعاشقين ، ويتفطر فؤاده للكآبة التي تبدو على جبين ليلى .

غير انه كان يجد لنفسه العذر في التردد الذي يبديه ، ويرضى كل الرضى بذلك الموقف الرصين الذي لا يحيد عنه .

ان مستقبل ليلى مظلم فيجب ان يجعل ظلامه نوراً ، ونفوذه في مكة ينهار إن لم يستعن بالحكمة لتثبيت اركانه .

وكان يعلم أن ذلك النفوذ لا يتزعزع اذا هـو وضع يده بيد قصي كما اراد صفوان ، وساعده في الأمر الذي يسعى اليه ، لكن امير صوفة لا يخون قومه وابن كعب الأبي الشريف لا يمهد للغريب اسباب السيادة والسلطان في قومه .. ومع ذلك ، فالحجابة في الحالين ليست له . ان الرجلين اللذين يتنازعانها ابعد منه صوتاً واكثر رجالاً ، وابو ضمرة الخزاعي اثقل ظلاً من ذلك الكناني ... فآثر السكوت كما مر ريثما ترتفع الاصوات وتمتد الايدي ؛ فيرفع صوته ويمد يده الى الناحية التي لا تموت فيها آمال نفسه . ولأجل هذه الغاية وعد صفوان بالحياد لكنه لم يعده باظهار خضوعه لابن كلاب اذا تم له الأمر ؛ لأن صفوان نفسه لم يحدثه بهذا يوم كان رسول صلح . مـع ان قصياً لم يوافق صفوان في السكوت عن زياد إلا إذا عاهده هذا على اظهار خضوعه ؛ وقـد ضمن صفوان لسيد الشعاب ذلك الخضوع .

اجل ، إن عاشق ليلى لم يشأ ان يحدّث اباها بمثل هذا الشأن إلا بعد ان يثق بالخلاص الوثوق كله ، ويعده الوعد الاخير بالزواج الذي لا يهنأ الا به ، اما اليوم ي بعد طلاعه على المو مرة ، فقد اراد ان يدعوه الى ذلك الأمر ، عندما يسلم من أيدي المتآمرين .

وعند الصباح مشى يريد قصره ، وهو معجب باخلاق قصي التي أملت عليه العفو عن عدوه وهو قادر على النجاة منه ، فلما وصل ، دخل طلحة يقول : لقد أقبل صفوان .

فقال زياد لابيه وابنته : ان ابن الحارث لا يقدم في مثل هـذه الساعة الا لأمر !

وفاجأه بقوله : ما وراءك يا صفوان ؟

فقال : ألعلك تنكر عليّ قدومي عند الصباح ايها الأمير ؟

– نعم وانا احلف ان في صدرك خبراً ؛

فجلس وهو يقول : اصبت ولولا هذا الخبر لما قدمت الآن .

– وهو من الاخبار الغريبة على ما ارى !

– اجل فقد اصبحت من الكهان اقرأ حوادث الزمان وما في صدور الايام من الغاز واسرار .

قال : منبت الكهانة في بني كنانة فلتهنأ العرب . وماذا فعلت سودة وهي كاهنة الشعاب ؟

– لا تعرف سودة ما اتنبأ به .

قال : هات ما عندك اذن !

قال : لقد خبرني الزمان ان بعض الامراء في مكة يتآمرون على الناس ويسلحون ايدي الغلمان ويرسلونهم للفتك بالابرياء .

– اما نحن فلم نسمع قط هذه الاخبار التي ذكرت !

– وكيف تسمعها وهي لم تظهر بعد ؟

– ومن نقلها اليك ايها الكاهن ؟

– الهواء الذي يملأ فضاء مكة .

قال : اضرب لنا مثلاً ان شئت .

قال : بعد ان تمر ساعتان على غروب شمس هذا اليوم يدعى احد الغلمان الى جوار البئر التي يجتمع حولها بنو بكر .

– ثم ماذا ؟

– وفي جانب البئر ثلاثة رجال يكمنون له وفي ايديهم الخناجر القصيرة فيقبضون عليه ثم ينتظرون .

فنظر زياد الى ابيه قائلاً : ماذا فهمت يا مولاي ؟

– لم افهم شيئاً !

فضحك صفوان ضحك المضطرب وهو يقول : ثم ينتظرون قدوم رجل آخر

هو سيد ذلك الغلام ليغمدوا خناجرهم في صدره ويطلقوا غلامه .

قال : خبر هائل يا كاهن الشعاب .

– نعم وذلك الرجل الذي يريدون قتله يهتز لموته نصف اهـــل مكة ، ويضطرب له قصر سادن الكعبة وسكانه

فبان الذعر على وجه ليلى واصفرّت شفتاها من الخوف ، ان الرجل الذي يصفه صفوان هو أبوها ، وقلبها يحـدثها بان النكبة ستقع كما يقول ، فهمّت بالسؤال ؛ فإذا طلحة يدخل وفي يده وعاء الطيب ، ففاجأ صفوان القوم بقوله: اما الغلام الذي يدعى الى ذلك البئر فهذا ، وأومأ الى طلحة

فرقصت لحية الشيخ وارتجفت يداه .

ولكن زياداً كان اعظم من ان يظهر الضعف فقال وهو يتكلف الابتسام : واما سيد الغلام فهذا : ووضع يده على صدره وهو يعني نفسه .

قال : نعم فانت هو الامير الذي يكنون له في هذه الليلة على امل ان يسلبوه الحياة .

قال : اخشى ان تكون واهماً يا صفوان .

– ابذل نصف مالي لأكون كما ذكرت يا مولاي .. ولكن الخـــبر صحيح لسوء الحظ ؛ وستغيب الشمس بعد ساعات فترى كل شيء .

– اذن لم يبق الا ان تذكر الاسماء .

– بل بقي ان تسمع حكايتي الى النهاية وتأمر طلحة بان يحفظ كل كلمة اقولها له دون ان يكون لك وله مجال للرد .

– لقد امرته بهذا فقل ما تشاء .

وكان طلحة واقفاً وقد اصيب بالذهول فقال له : ان لك في مكة اخاً اسمه سراج أليس كذلك ؟

وزياد واهل بيته لا يعلمون ان لغلامهم اخاً في الوجود ؟

فقال : بلى !

قال سيأتيك اخوك بعد غروب الشمس قائلاً لك : ان في حي بني بكر بالقرب من البئر ، قتيلاً من ابناء عمنا فاذهب لنراه .

– أيطلب اليّ هذا وانا في القصر ؟

– لا ، بل تكون في ذلك الموضع الذي تعودت الوقوف فيه كل مساءعندما تأوي نوق مولاك الى المرابط .

– وماذا أقول له ؟

– تضطرب أولاً ، كما يضطرب الآمن المطمئن عندما تدهمه الحادثات ، ثم تعده بالذهاب بعد ان تدخل جميع النوق .

– ثم اذهب ؟..

– ثم تذهب دون ان يبدو على وجهك مظهر واحد من مظاهر التردد والخوف أفهمت الآن ؟

– ولكن لم افهم ماذا اصنع هناك .

– لا تستطيع ان تفعل هناك شيئاً؛ ان الاشقياء سيتولون أمرك عندوصولك وسيجعلونك في كوخ تهدمت جدره ، وعلى رأسك احدهم يحمل خنجره بيده ولا يتردد في ان يطعنك به إذا ارتفع لك صوت .

– ذلك يجيء احدهم فيدعو مولاي .

– اجل ويقول له : ان غلامك بين ايدي لصوص يسألونه ان يفدي نفسه بقبضة من المال .

فقال زيادٍ : لقد جاء دوري الآن .

– نعم وليبدِ كل واحد منكم رأيه .

قال : اتناول سيفي وارافق من يدعوني الى ذلك المكان حيث اظهر نفسي للقوم قائلاً لهم : انا زياد .

– ولكنك لا تعلم في تلك الساعة من اين تـأتيك الخناجر .. انه رأي ليس فيه شيء من الحكمة يا مولاي .

فقال الشيخ : يخرج من القصر وأمامه وخلفه عشرون رجلاً يضربون اعناق الثلاثة ويحملون رؤوسهم .

– اذا فعل هذا لا يرى عند البئر غير ذلك الكوخ المتهدم وفيه جثة طلحة اتظن ان اولئك الرجال ليس لهم عيون تبصر الامير واتباعه ؟

فرفعت ليلى رأسها قائلة : خير الاراء ان يقبض ابي على الرسول الذي يأتيه ويعرف منه اسماء رفاقه .

قال : لا تنسي ان ذلك الرسول لا يبوح بتلك الاسماء ولو رأى الموت بعينيه، ولنفرض انه باح بها فمن ينقذ طلحة من الخناجر التي يشهرونها فوق رأسه ؟

قال زياد : لننظر في هذه الاراء ثم نختار .

– ولكني لم اذكر رأيي بعد ، لقد رأيت ان نقبض على الرسول الذي هـــو سراج نفسه .

فصاح طلحة : اخي ؟

– نعم اخوك ، ثم ا نزع ثيابه فالبسها واخرج مع الامير الى ذلـــك الموضع الذي ينتظره فيه اولئك المجرمون .

– وعندئذ اذكر لهم اسمي ثم ينوب السلاح عن الكلام .

– بل تبقى ساكتاً يا مولاي ، اما انا فاقول :

« لقد جاء الفداء » وهي الكلمة التي امروا سراجاً بان يقولها لهم بعد رجوعه ؛ فيمشون اليك والشفار تلمع في الايدي ولكنها لا تصل اليك .

فأطرق الامير يفكر في امره وهو يتردد في الجواب .

فقال ارضيت يا مولاي ؟

– أر الى الآن ما يدفعني الى الرضى .

-- لماذا ؟

– لاني لم اكن قط جباناً لأرضى بان تقذف بنفسها الى الهوة لتنقذني مرة اخرى من الموت .

– لا تذكر الجبن يا مولاي فانا سأفعل هذا رضيت ام ابيت ، وليس في مكة من يمنعني منه .

ولكن يجوز لي ان اسألك سوألين قبل ان نتفق .

– سل ما تشاء .

– الى من ينتمي اولئك الاشقياء ؟

– ستعرف كل ذلك قبل نصف الليل .

– وكيف استطعت ان تعلم جميع هذه الاسرار ؟

– تقدر يا مولاي ان تسألني عن كل شيء الا عن هذا السر فلا ابوح لأحد به . يكفي ان تعلم اني اهتم بكل امر يتعلق بك .

-- وهل بقي لك ما تقول ؟

– بقي ان اوصيك بالسكوت عندما يهاجمنا القوم .

– أأضرب ولا اقول كلمة ؟

– نعم ثم نعود الى القصر لتباحث سراجاً وترى رأيك فيه .

فقال طلحة : اعطوني خنجراً اضعه في حزامي فقد احتاج اليه .

فاجابه صفوان : اذا لجأت الى الخنجر وانت بين ايدي القوم اغمدوه في عنقك .

– ولكني لا الجأ اليه الا في الساعة الاخيرة عندما تصلان الى البئر .

– ان زياد بن كعب وصفوان بن الحارث يبارزان عشرة رجال ولا يستعينان بأحد . احفظ ما قلته لك وهذا يكفي .

فدمعت عينا ليلى وهي تقول : اخشى ان يكون هناك اكثر من ثلاثة .

– لا تخافي يا ليلى فانا اضمن حياة الأمير .

وكان على زياد ان يقول لها : وانا اضمن حياة صفوان .

لكن زياداً لم يقل شيئاً لانه كان قد غاص في لجة التفكير .

اما الشيخ فكانت الكلمات تبدو على شفتيه ثم تختفي كأنه لا يريد ان يظهر مخاوفه وظنونه في تلك الساعة .

وكان الشك قد دبّ في صدره وبدت الريبة في عينيه .

وبعد سكوت قصير خرج صفوان على ان يعود قبل المساء واوصى طلحة بالكتمان . وكان قلب ليلى يخفق بشدة ، عند تصورها ان حياة ابيها وحبيبها تهددهما الاخطار .

صدر من سلسلة

روايات تاريخ العرب والإسلام

- الحارث الأكبر الغساني
- النعمان الثالث
- بلقيس ملكة اليمن ١/ ٢
- زينب ملكة تدمر ١/ ٢
- حسناء الحجاز ١/ ٢
- الحارث ملك الأنباط
- هند والمنذر
- هند أسيرة كليب
- اليتيمة الساحرة ١/ ٢
- فتاة الشام
- محمد وأم كلثوم
- فاجعة كربلاء
- خيانة وغدر
- لقاء المحبين
- السفاح والمنصور
- الأمير العاشق



دار الأندلس
للطباعة والنشر والتوزيع

سعر الجزأين ٢٥ ل.ل.